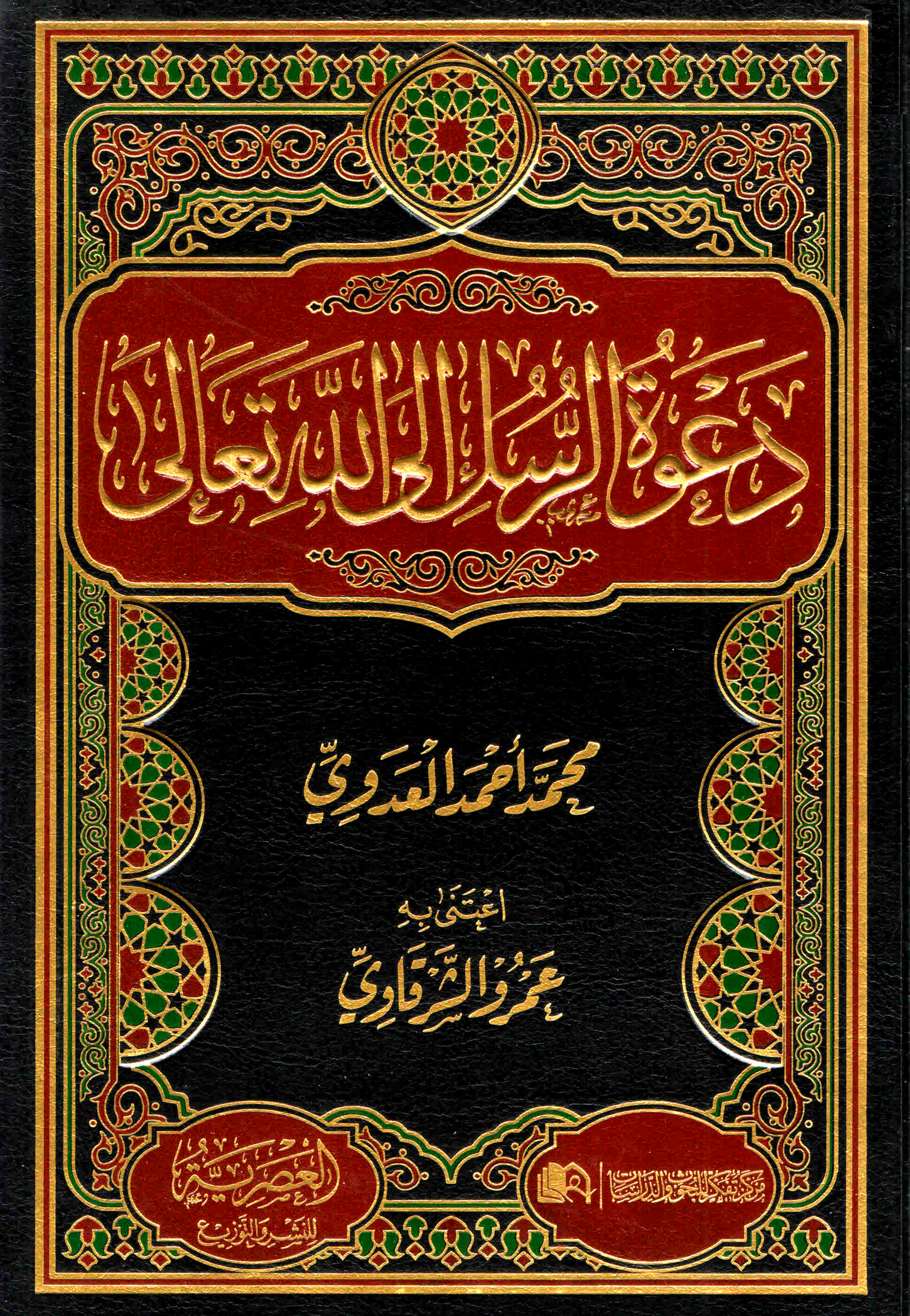
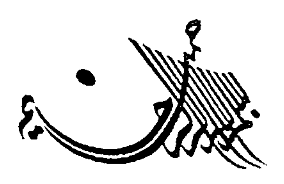

دعوة الرسل إلى الله تعالى
محمد أحمد العدوي
اعتنى به
عمرو الشرقاوي
العصرية
للنشر والتوزيع
مركز تفكر للبحوث والدراسات

دعوة الرسل إلى الله تعالى



المحتويات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

مقدمة المعتني بالكتاب

الحمد لله الذي أنزل علىٰ عبده الكتاب، هدىٰ وذكرىٰ لأولي الألباب، وأودعه من العجائب العجب العجاب، وجعله حاليًا بالأحرف السبعة، وكمال الشرعة، وفصل الخطاب.

والصلاة والسلام علىٰ النبي الأواب، وعلىٰ الآل والأصحاب، صلاة تدوم إلىٰ يوم الحساب، ويكون لنا بها عند الله زلفىٰ، وحسن مآب . . . . وبعد؛

فإن القرآن المجيد لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق علىٰ كثرة الرد، ولا زالت التصانيف حول القرآن المجيد قائمة إلىٰ زمان الناس، وإلىٰ ما شاء الله تعالىٰ، ينهل فيها كلٌ من معين القرآن، وجليل معانيه.

ومن فنون القرآن، وعلومه، علم القصص القرآني، بما يحويه من حديث عن قصص الأنبياء خصوصًا، وسائر قصص الصالحين، ثم قصص الأقوام المكذبين.

وقد تتابع العلماء علىٰ التأليف في القصص القرآني، وعامة ما أفرد فيه كان من كتابة المعاصرين[1]، وقد تكلم العلماء المتقدمون علىٰ القصص في ثنايا كتبهم، وهي مادة صالحة للجمع، وإظهار جهود هؤلاء العلماء في علم القصص القرآني.

---

(١) ولتعلم أيها القارىء الكريم أن كتاب «قصص الأنبياء»، للإمام ابن كثير هو جزء من كتابه الكبير المعروف «البداية والنهاية»، وإنما أفرده بعض العلماء، فظنه بعضهم كتاب مستقل لابن كثير، وهذا موجود بكثرة، ككتاب «أمثال القرآن»، لابن القيم، فإنه جزء من كتابه «إعلام الموقعين»، في أمثلة أخرىٰ.

وللقصة في القرآن المجيد فوائد[1]:

فمنها: التسلية والتثبيت لقلب النبي ﷺ، ولقلب كل متبع له، ليتأسوا بهم في الصبر علىٰ ما كذبوا وأوذوا، فهي عبرة للمؤمنين بالرسل، فإنهم لا بد أن يبتلوا بما هو أكثر من ذلك، ولا ييأسوا إذا ابتلوا بذلك، ويعلموا أنه قد ابتلي به من هو خير منهم، وكانت العاقبة إلىٰ خير، فليتيقن المرتاب، ويتوب المذنب، ويقوىٰ إيمان المؤمنين.

ومنها: أن «ظاهرها الإخبار بهلاك الأولين، وباطنها عظة للآخرين»[2].

ومنها: أن قصص القرآن هي أحسن القصص، فهي أحسن من القصص التي لم تقص في القرآن.

وفي قصص القرآن ما يظهر للمتأمل من طرق للنجاة، فلو تأمل المتأمل في سورة الكهف -مثلًا- لوجد فيها طرق النجاة من الفتن التي تحيط به، فتنته في الدين، والمال، والعلم، والجاه.

وهكذا .. فإن لكل قصة في القرآن من الفوائد ما يفتح الله به علىٰ كل إنسان بحسب ملكاته، والله يؤتي العلم من يشاء، ويصرفه عمن يشاء، جعلنا الله ممن أوتي فهمًا وبصيرة.

ولما كان ذلك كذلك، وفقني الله تعالىٰ للوقوف[3] علىٰ كتاب من كتب أحد علماء العصر، وهو الشيخ محمد أحمد العدوي، وهو كتابه الموسوم بـ «دعوة الرسل»، وقد عُرف الكتاب علىٰ طرته بأنه: «كتاب إصلاح ودين وخلق، يحتاج إليه الوعَّاظ ورجال السياسة والأخلاق، يتعزىٰ به المصلح عما يناله من أذىٰ، وما يوضع في سبيله من عقبات، ويجد فيه المؤمن ما يقوي يقينه، ويثبت فؤاده ....».

وهو بحق كذلك، بل لا أكون مجانبًا للصواب إن قلت: إنه من أهم الكتب التي ألفت في قصص الأنبياء، وكثير ممن جاء بعده استفاد منه، بل إن بعضهم نسج علىٰ منواله، وسمىٰ كتابه بنفس الاسم.

---

(١) انظر لمزيد من الفوائد: التحرير والتنوير: (١/ ٦٤)، المقدمة السابعة.

(٢) البرهان في علوم القرآن: (٢/ ١٦٩).

(٣) أوقفني عليه الشيخ أحمد سالم جزاه الله خيرًا.

ومن عجيب الأمر؛ أن عمل الشيخ كان بقسم الوعظ بالأزهر الشريف، ووافق أني عملت كذلك بنفس القسم، فوافق المعتني بالكتاب المؤلف، ولو كانت الموافقة في الانتساب لنفس العمل.

وعطفًا علىٰ ما سبق، فقد تلخص عملي في الكتاب في الآتي: عرفت بالمؤلف والكتاب، وستجدهما بعد ختام هذه المقدمة، ووضعت بعض الحواشي اليسيرة، وقصدت ألا أغرق الكتاب بما لا يُحتاج إليه، وأن أبتعد -قدر الإمكان- من التعليق إلا علىٰ ما تمس إليه الحاجة، أو تزداد به الفائدة:

- فخرجت الأحاديث الواردة في الكتاب، وهي قليلة، وعامتها بين صحيح أو حسن، لذلك لم أعتن بإثبات الحكم عليها، إلا في مواطن يسيرة.

- وعزوت النقل الصريح إلىٰ موضعه -قدر الإمكان-.

- وشرحت الكلمات الغريبة، لئلا تقف علىٰ القارئ الكريم حال مطالعته للكتاب.

- وعلقت علىٰ بعض المسائل العلمية التي رأيت أن المؤلف خالف فيها الصواب، وبينت ما فيها؛ مع العناية بنقل كلام أهل العلم عليها.

- وأضفت بعض ترجيحات علماء التفسير في مواطن من الكتاب.

- ونقلت كلام بعض أهل العلم (وخاصة كلام شيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم) علىٰ القصص بما فيه مزيد فائدة، أو استنباط حسن.

- وقدمت للكتاب بمقدمة يسيرة، فيها التعريف بالمؤلف، والكتاب.

- وميزت عملي عن حواشي المؤلف بذكر اسمي بعد التعليق (عمرو) إلا ما كان من سهو، ولم أذكر اسم المؤلف بعد حواشيه = إذ الأصل أن الكتاب متنًا وحاشية له.

وفي النهاية؛ تم هذا التعليق، وهذه العناية، في أيام مباركة هي أيام عشر ذي الحجة، والتي أسأل الله فيها أن يرحم مؤلف الكتاب، وأن يجزيه خير الجزاء، وأن يتقبل عمله، وأن يبارك فيه.

وأسأله سبحانه أن يجزي من دلني علىٰ هذا الكتاب خير الجزاء، وأن يجزي من دلني علىٰ هذا الكتاب، وهو شيخنا أبو عمر أحمد سالم، وأن يجزي والديَّ الكريمين خير الجزاء، وأن يجزي من شجعني علىٰ إتمام العناية بالكتاب، وبخاصة (زوجي الكريمة) خير الجزاء، وأوفاه، وأن يتقبل عملي، وأن يجعله نافعًا مباركًا.

وكتبه

أبو عبدالله

عمرو صبحي علي الشرقاوي

صبيحة يوم عرفة عام (١٤٣٨) من الهجرة الشريفة

أولًا: التعريف بالمؤلف

لم أجد بعد البحث والسؤال ترجمة للشيخ العدوي رَحِمَهُ اللَّهُ، وقد حاولت جمع ما يمكن جمعه من ترجمة الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ، والتعريف بمؤلفاته وكتبه، وأسأل الله تعالىٰ أن يرحم الشيخ وأن يكتب له الأجر، وأن ينفع بآثاره.

اسمه:

هو الأستاذ الشيخ محمد أحمد العدوي.

أعماله، ومناصبه:

عمل الشيخ مدرسًا بالمعاهد الأزهرية، بعدد من محافظات مصر، كالغربية، وأسيوط، عمل مفتشًا عامًا للوعظ والإرشاد بالأزهر الشريف، كما عمل أستاذًا بكلية أصول الدين[1].

وكان الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ عضوًا بلجنة لتفسير القرآن الكريم أعدها الأزهر الشريف توطئة لترجمته، وكان من أعضاء هذه اللجنة: الشيخ عبد المجيد سليم مفتي الديار المصرية رئيسًا، والأستاذ محمد أحمد جاد المولىٰ بك مفتش أول اللغة العربية بوزارة المعارف، والأستاذ علي الجارم مفتش أول اللغة العربية بوزارة المعارف، والشيخ مصطفىٰ عبد الرازق، والأستاذ أحمد أمين من الجامعة المصرية، والشيخ إبراهيم حمروش شيخ كلية اللغة العربية، والشيخ أمين الخولي من الجامعة المصرية، والشيخ علي سرور الزنكلوني من كلية أصول الدين، والشيخ إبراهيم الجبالي من كلية أصول الدين، والشيخ محمود الغمراوي من كلية

(١) كما ورد في تعريفه بمجلة المنار. انظر: مجلة المنار: (٢٨/ ٣٩٧)، (٣٥/ ٢٠١).

اللغة العربية، والشيخ محمود شلتوت من كلية الشريعة، والشيخ محمد أحمد العدوىٰ من كلية أصول الدين أعضاء[١].

كما كتب الشيخ في عدد من المجلات المعروفة آنذاك، كمجلة الرسالة، ومجلة المقطم، وجريدة كوكب الشرق[٢].

منهجه الإصلاحي:

لقد تأثر الشيخ العدوي بالمدرسة الإصلاحية، أو ما يعرف بالفكر النهضوي، والذي يمثله الشيخ جمال الدين الأفغاني، والشيخ محمد عبده، والشيخ محمد رشيد رضا[٣]، وظهر أثر ذلك في كتابه «دعوة الرسل»، فقد اعتنىٰ في الكتاب بقضايا الاستعمار، والتأكيد عليها، وأكد علىٰ إصلاح الفساد الموجود في الدولة، وظهرت آثار هذه المدرسة في بعض آرائه العلمية كموقفه من الإسرائيليات، وبعض مسائل توحيد الألوهية بما لم يكن معروفًا لدىٰ التيار الأزهري التقليدي وقتئذٍ وبخاصة في مدحه للحركة التي قادها الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وثنائه عليها، وتبني بعض مفرداتها.

وقد ذكر في تأبين الشيخ محمد رشيد رضا، أن الأفغاني هو موقظ الشرق، وأن حامل لوائه كان الشيخ محمد عبده، فقال ما نصه: «أما إحياؤه لذكرىٰ موقظ الشرق (السيد جمال الدين) و(والأستاذ الإمام) فحدث عنها ولا حرج؛ فقد أحيا سيرتهما قولًا وكتابة وعملًا، وكان أظهر شيء فيه شغفه بتلك السيرة، حتىٰ لا تكاد تجلس إليه مجلسًا بدون أن تسمع ذكرىٰ للإماميين أو أحدهما، فإن المصلح هو الذي يعنىٰ بسيرة المصلحين فهو يعتبر بحق محيي سيرة المصلحين، ورافع لواء المجددين علىٰ أساس كتاب الله تعالىٰ وسنة خاتم النبيين»[٤].

وقال في نفس الموضع: «وقد كان أول من أيقظ الأفكار لذلك الإصلاح السيد جمال الدين الأفغاني، حينما وفد علىٰ مصر في أواخر القرن الثالث عشر

---

(١) مجلة الرسالة. عدد: (١٧٥). الصفحة: (٦٧-٦٨).

(٢) المعارك الأدبية. لأنور الجندي: (٣٤٦).

(٣) انظر: الفكر العربي في عصر النهضة، ألبرت حوراني: (١١٣-٢٤٩).

(٤) مجلة المنار: (٣٥/٢٠١).

للهجرة، واستفاد منه بعض شبان الأزهر، وتولىٰ السعي لذلك لإصلاح مريده الأكبر وخليفته (الأستاذ الإمام)، وغرضه الأسمىٰ تخريج نشء جديد من جميع الشعوب الإسلامية، جامع بين التقوىٰ والأخلاق الفضلىٰ، وبين العلم الاستقلالي المثمر لترقية اللغة وإحياء علوم الدين، والتمكن من الدفاع عن الإسلام والدعوة إليه.

ثم جاء الأستاذ المراغي وأمضىٰ في الأزهر خمسة عشر شهرًا، شيخًا له ورئيسًا لمجلسه الأعلىٰ، فكان محط الرجاء ومعقد الآمال، ورجل الساعة، وقام في ذلك الوقت القصير بعمل الجبابرة، ثم شاء الله أن يدع الأزهر قبيل أن يتم الإصلاح الذي أراده، فاضطرب الحال، واختل أمر القائمين عليه من رجال الإدارة، وروعت العلماء بما لم يروع به قطاع الطريق، وساعد علىٰ ذلك السياسة الدكتاتورية، حتىٰ أذن الله أن يعود للسفينة ربانها، وللإصلاح رجله، فعاد إلىٰ الأزهر أستاذنا (المراغي) موفور الكرامة، وضاء الجبين، ففتح لطلاب الإصلاح باب الأمل علىٰ مصراعيه.

أما فقيدنا الراحل فقد كان خير نصير لكل أولئك المصلحين، كان نصيرًا للسيد جمال الدين، ونصيرًا للأستاذ الإمام، ونصيرًا أي نصير للأستاذ المراغي، أبلىٰ في سبيل هذه المناصرة بلاء حسنًا، وقام بأوفر نصيب في ذلك الجهاد».

وقد ذكر المؤلف الأفغاني في الكتاب، ووصفه بـ «حكيم الإسلام»، ونقل أقواله مستشهدًا بها.

محنته:

تعرض الشيخ رحمه الله للمحنة كما يتعرض أهل العلم، وكما ذكر هو في هذا الكتاب المبارك، وتمثلت هذه المحنة في منعه من التدريس بالأزهر، يقول الشيخ رشيد رضا في التعريف بأحد كتبه: «الأستاذ الفاضل، العالم العامل، الشيخ محمد أحمد العدوي، صاحب (كتاب مفتاح الخطابة والوعظ) ورسائل أخرىٰ في هداية الكتاب والسنة، أحد علماء الأزهر الذين شرفهم الله باضطهاد العلماء الجامدين الخرافيين لهم، وبمنعهم من التدريس في الأزهر، لإيثارهم هدىٰ الله

علىٰ ما يخالفه من تقاليد المتفقهين، ونظريات المتكلمين، وخرافات القبوريين»[(١)].

ومن المحن التي تعرض لها الشيخ رحمه الله، أن نقل من التدريس بطنطا من أعمال محافظة الغربية، إلىٰ محافظ أسيوط، وذلك بسبب بعض محاضراته الإصلاحية، وقد ذكر ذلك في هذا الكتاب في حديثه عن دعوة موسىٰ عليه السلام.

زمنه ومعاصروه:

عاصر الشيخ العدوي فترة الاحتلال البريطاني لمصر، وظهر هذا في كتابه، وفي حديثه عن مقاومة المستعمر.

كما عاصر عددًا من الأعلام، ومن أشهرهم:

١- الأستاذ الشيخ محمد رشيد رضا، وقد أثنىٰ عليه كما سيأتي، وعرف ببعض كتبه في مجلة المنار، وللشيخ العدوي خطبة منشورة بمجلة المنار في تأبين الشيخ رشيد رضا رحمهم الله.

٢- الأستاذ الشيخ حسن البنا رحمه الله.

٣- الأستاذ الشيخ محمد مصطفىٰ المراغي رحمه الله شيخ الأزهر.

٤- الشيخ عبد العزيز الخولي.

٥- كما عاصر الشيخ المصلح عبد الحميد بن باديس، وذكره ابن باديس وأثنىٰ عليه[(٢)].

ثناء العلماء عليه:

أثنىٰ عليه الشيخ محمد رشيد رضا، والشيخ عبد الحميد بن باديس، ومن أقوال الشيخ محمد رشيد رضا عنه:

١- «الأستاذ الفاضل، العالم العامل، الشيخ محمد أحمد العدوي، صاحب (كتاب مفتاح الخطابة والوعظ) ورسائل أخرىٰ في هداية الكتاب والسنة، أحد علماء الأزهر الذين شرفهم الله باضطهاد العلماء الجامدين الخرافيين لهم، وبمنعهم من التدريس في الأزهر، لإيثارهم هدىٰ الله علىٰ ما يخالفه من تقاليد المتفقهين، ونظريات المتكلمين، وخرافات القبوريين»[(٣)].

---

(١) مجلة المنار: (٣٣/ ٦٤٠).

(٢) آثار ابن باديس: (٣/ ١٠٤).

(٣) مجلة المنار: (٣٣/ ٦٤٠).

٢- وقال عنه: «صديقنا الأستاذ الشيخ محمد أحمد العدوي، أحد علماء الأزهر، المشتغلين بالسنة، ومدرسي القسم العالي فيه»[١].

مؤلفاته، وآثاره[٢]:

للشيخ رحمه الله عددٌ من المؤلفات، وعامتها مطبوعة طبعات قديمة، وبعضها طبع حديثًا، ومنها -فيما وقفنا عليه-:

١- «آيات الله في الآفاق» أو «طريق القرآن الكريم في العقائد»؛ ورد ذكره في نهاية كتابه «دعوة الرسل إلىٰ الله تعالىٰ» ضمن ما للمؤلف من كتب.

يقول عنه الشيخ محمد رشيد رضا:

«مطبوع أصح طبع، علىٰ أجود ورق، في مطبعة المنار بمصر (سنة ١٣٥٢هـ)، صفحاته (٢٦٢) كتاب إصلاحي جديد جليل، مؤلفه الأستاذ الفاضل، العالم العامل، الشيخ محمد أحمد العدوي، صاحب (كتاب مفتاح الخطابة والوعظ) ورسائل أخرىٰ في هداية الكتاب والسنة، أحد علماء الأزهر الذين شرفهم الله باضطهاد العلماء الجامدين الخرافيين لهم وبمنعهم من التدريس في الأزهر لإيثارهم هدىٰ الله علىٰ ما يخالفه من تقاليد المتفقهين، ونظريات المتكلمين، وخرافات القبوريين.

جمع في هذا الكتاب المتين من آيات كتاب الله تعالىٰ في عقائد الدين في أبوابها من الإلهيات والنبوة والرسالة والبعث والجزاء، وقد فسر هذه الآيات تفسيرًا وجيزًا بقدر الضرورة في الغالب، ومن غير الغالب إسهابه في حكم الله في أنواع خلقه، وجعل ثمن النسخة منه عشرة قروش فقط علىٰ كون جميع الآيات فيه قد طبعت مشكولة، وهو يطلب من مكتبة المنار بمصر»[٣].

---

(١) مجلة المنار: (٣٩٧/٢٨).

(٢) استفدت في هذا التعريف بمؤلفاته من التعريف بالشيخ العدوي المنشور بموقع الألوكة. وزدت عليه بحمد الله تعالىٰ.

(٣) ونعمل علىٰ إعادة طبعه مرة أخرىٰ بحول الله.
انظر: مجلة المنار: (٦٤٠/٣٣).

٢- «أصول في البدع والسنن» وهو عنوان الطبعة الثانية من كتاب «طريق الوصول إلىٰ إبطال البدع بعلم الأصول» التي صدرت سنة (١٣٥٣هـ = ١٩٣٤م)، بعد أن أضاف إليه بعض الزيادات، وأصلح فيه بعض الأخطاء، واستدرك فيه علىٰ بعض الموضوعات. وقد طبع هذا الكتاب طبعات كثيرة في القاهرة وبيروت وغيرهما.

والكتاب دراسة وتلخيص لكتاب «الاعتصام» لأبي إسحاق إبراهيم بن موسىٰ بن محمد اللخمي الغرناطي الشاطبي، ولكتاب «المدخل إلىٰ تنمية الأعمال بتحسين النيات» لأبي عبدالله محمد بن محمد العبدري المالكي الفاسي ابن الحاج، مع إسقاطات علىٰ ما كان في عصر المؤلف.

٣- «التوحيد» أو «العقائد الإسلامية» جاء في خاتمة هذه الرسالة: كان الفراغ من جمع هذه الرسالة صبيحة يوم الثلاثاء (٢٢ جمادىٰ الأولىٰ سنة ١٣٤٤ هجرية - الموافق ٨ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٢٥) ميلادية.

٤- «دعوة الرسل إلىٰ الله تعالىٰ»؛ جاء في صفحة العنوان: كتاب إصلاح ودين وخلق، يحتاج إليه الوعاظ ورجال السياسة والأخلاق، يتعزىٰ به المصلح عما يناله من أذىٰ، وما يوضع في سبيله من عقبات، ويجد فيه المؤمن ما يقوي يقينه ويثبت فؤاده. انتهىٰ.

وهو عرض لسيرة الرسل الذين لهم دعوة ذات شأن مع أقوامهم في القرآن، خاتمًا هذا العرض بسير رسول الله محمد ﷺ، مع ربط سيرة الرسل بحال المسلمين اليوم في سياستهم العامة، مع تحليل للأحداث والإسقاط علىٰ أحوال المسلمين.

ويختم الكتاب بالكتابة علىٰ دعوة الرسول صلوات الله وسلامه عليه.

٥- «مفتاح الخطابة والوعظ».

يقول عنه الشيخ رشيد رضا: «كتاب في العقائد والعبادات والأخلاق والفضائل وآداب المعاملات الشرعية، صنفه صديقنا الأستاذ الشيخ محمد أحمد العدوي أحد علماء الأزهر المشتغلين بالسنة، ومدرسي القسم العالي فيه، للحكام وسائر الناس ووعاظ المساجد الرسميين؛ ليستعين به في وعظه وخطبه، ويكون

خير مادة لغيره من خطباء المساجد وغيرهم من الواعظين، ومباحثه تدخل في بضعة عشر كتابًا: الإخلاص، العلم، العقائد، الأخلاق، الطهارة، الصلاة، الزكاة، الصيام، الحج، المعاملات المدنية، النكاح، الجهاد، القضاء، والولايات، المنكرات الظاهرة، وختمها بالكلام في التوبة وما تنال به سعادة الدارين، ولم يسمه كتابًا.

وفي كل كتاب من هذه الكتب فصول فيما تشتد حاجة جميع المسلمين إلىٰ العلم به؛ ومادتها كلها من الكتاب والسنة التي يحتج بها.

يبتدئ كلًا منها بالآيات معدودة معزوة إلىٰ سورها، ويقفي عليها بالأحاديث النبوية مقترنة بأسماء مسنديها إلىٰ النبي ﷺ معزوة إلىٰ مخرجيها من كتب حفاظ السنة وجامعيها لا يزيد علىٰ ذلك إلا تفسير بعض الألفاظ التي يحتاج الجمهور إلىٰ تفسيرها في حواشي الكتاب.

عرض المؤلف كتابه هذا علىٰ وزارة الأوقاف لتقرر إرشاد خطباء المساجد التابعة لها ووعاظها علىٰ الاستعانة به علىٰ عملهم؛ فندبت لجنة من كبار علماء الأزهر لفحصه، ثم قررت (تحت رقم ١٢٨٢ سنة ١٣٤١): (إن هذا الكتاب صالح لأن يكون مادة يستعين بها الوعاظ والمدرسون في إلقاء مواعظهم، ودروسهم).

بعد هذا طبع الكتاب في مطبعة المنار طبعًا متقنًا علىٰ ورق جيد في سنة (١٣٤٤)، فبلغت صفحاته (٢١٢) بقطع المنار، وثمن النسخة منه عشرة قروش يضاف إليها أجرة البريد، وهو يطلب من مكتبة المنار، فننصح لكل مسلم قارئ أن يتخول نفسه بمواعظه وحكمه»[١].

٦- «الشرح الجديد علىٰ جوهر التوحيد»[٢]، وهو شرح علىٰ جوهرة التوحيد أحد أهم متون المذهب الأشعري، وقد طبع بمطبعة الحلبي (١٩٤٧)، وقد أشار في هذا الكتاب إلىٰ كتابيه الآخرين: «العقائد الدينية» أو «كتاب التوحيد»، وإلىٰ كتاب: «آيات الله في الآفاق».

---

(١) مجلة المنار: (٢٨/٣٩٧).

(٢) عرفني به الأخ الفاضل الأستاذ إسلام مصطفىٰ.

وقد تعقب في هذا الشرح المؤلف والشارح، وقام بتخريج أحاديث هذا الكتاب محدث من ديار نجد، وهو كما ذكر المؤلف الشيخ عبدالله بن يابس[1].

---

(١) صاحب كتابي: «الرد القويم على ملحد القصيم»، «إعلام الأنام بمخالفة شيخ الأزهر شلتوت للإسلام»، وقد أقام بمصر فترة طويلة، ودرس بالأزهر.
انظر: الأعلام: (١٠٨/٤).

ثانيًا: التعريف بالكتاب

عرف المؤلف بالكتاب جملة علىٰ غلافه فقال: «كتاب إصلاح ودين وخلق، يحتاج إليه الوعَّاظ ورجال السياسة والأخلاق، يتعزىٰ به المصلح عما يناله من أذىٰ، وما يوضع في سبيله من عقبات، ويجد فيه المؤمن ما يقوي يقينه، ويثبت فؤاده . . . .».

وقد ألف هذا الكتاب بين عام (١٩٣٥) و(١٩٤٥)، يقول: «لذلك رأيت أن أضع كتابي هذا في سيرة الرسل، معوِّلًا علىٰ القرآن الكريم، وسميته: «دعوة الرسل إلىٰ الله تعالىٰ»، ولقد كنت صاحب فكرة دراسة هذا القسم من التاريخ في قسم الوعظ والإرشاد بالأزهر، أيام المشيخة الأولىٰ لأستاذنا المصلح «الشيخ المراغي»، ومن حسن المصادفة أني لم أضع مقدمة الكتاب إلَّا في عهد مشيخته الثانية، التي أرجو له فيها التوفيق والسداد، وأتمنىٰ له ما يتمناه كل مسلم غيور»[(١)].

ولم يوضع الكتاب ليكون في قصص الأنبياء، وإنما هو كما سماه المؤلف «دعوة الرسل»، ولم يشمل الكتاب كل الرسل الذين ذكرهم الله في القرآن، وإنما اشتمل علىٰ قصص اثنا عشر رسولًا، وهم الذين لهم دعوة ذات شأن مع أقوامهم في القرآن الكريم؛ لأنَّ الغرض الاعتبار بسيرتهم، وإنَّما يكمل ذلك في رسول له دعوة طال فيها مع قومه الأخذ والردّ، وفيها من العظمة وعلوّ الشأن ما ينفع المصلح، أو من الآيات الخُلُقية والعبر ما يقوّي الإرادة، وينمي داعية الخير، فنبيُّ الله يوسف عرض لسيرته في الكتاب علىٰ الرغم من أنَّ دعوته في القرآن

(١) من مقدمة «دعوة الرسل»: (ز).

لا تتجاوز كلمات لصاحبيه في السجن؛ لأنَّ قصته مع الأخوة، ومع امرأة العزيز حافلة بالعظات والعبر، والرسل هم:

١- نوح عليه السلام.

٢- هود عليه السلام.

٣- صالح عليه السلام.

٤- إبراهيم عليه السلام.

٥- لوط عليه السلام.

٦- يوسف عليه السلام.

٧- شعيب عليه السلام.

٨، ٩- موسىٰ عليه السلام.

١٠، ١١- داود وسليمان عليهما السلام.

١٢- عيسىٰ عليه السلام.

١٣- خاتم الرسل محمد ﷺ.

وقد أوفىٰ المؤلف بالتعريف بكتابه، وبالنتائج التي توصل إليها بما لا نطيل بذكره، لنتركه للقاريء الكريم، فإنه أوردها في مقدمة كتابه.

ومن عادة المؤلف أن يبتديء ذكر النبي بموضع ذكر قصته في القرآن الكريم في أول سورة يذكر فيها، ويضع في الحاشية شرح معاني الكلمات التي قد يستغربها بعض القراء، ثم يأتي علىٰ شرح هذه الآيات، واستنباط الفوائد والعظات والعبر منها.

وسوف أركز في هذا التعريف علىٰ بعض القضايا التي اهتم المؤلف بإبرازها في الكتاب: .

١- الاهتمام بإبراز الغاية من القصص القرآني:

اهتم المؤلف في كتابه ببث الهدف من القصص القرآني، ومنه: تثبيت القلوب، وبث الشجاعة فيها، وترسيخ القيم التي جاء بها الإسلام، كقوله: «نعم؛ إنَّ هذه آية من آيات الله في أنصار الحق، وعبرة من العبر، من آيات الله

فيهم أن يزيل من قلوبهم هيبة الظالمين، وخشية المفسدين؛ لأنَّ قلوبهم امتلأت بالخشية من الله والخوف منه، ولأنَّهم واثقون بضعف كيد الشيطان، وأنصار الباطل، وقد أرانا الله -تعالىٰ- أنَّ الباطل لَجْلَج، وأنَّ الحق واضح أَبْلَج، وأنَّ العاقبة لأوليائه، والخذلان لأعدائه، وقدوتنا الحسنة في ذلك أئمة الهدىٰ، وهداة البشر، مَن اختارهم الله -تعالىٰ- لقيادة الناس، وسعادة الإنسانية، فهم الذين يرسمون لنا طريق الدعوة، ويعرفوننا الاستهانة بالباطل، وإكبار الحق، ومن أجل ذلك كانوا أشجع الناس قلوبًا، وأوثقهم عقيدة، وأربطهم جأشًا، تضطرب الأرض ومن عليها بفساد المفسدين وهم لا يضطربون، وتضجّ من هول الجبابرة والمستكبرين، وهم علىٰ دينهم دائبون، وبدعوتهم معتصمون، وعلىٰ ربهم متوكلون».

ومن عنايته بترسيخ القيم قوله: «ولو علم الأبناء ما تقاسيه الآباء في سبيل حرصهم علىٰ حياتهم= ما فكر ولد في عقوق والديه، وما تأفف منهما عند الكبر والضعف عن الكسب».

٢- مقاومة الاحتلال (الاستعمار):

تكرر في الكتاب تشنيع المؤلف علىٰ الاستعمار، وذلك راجع للزمن الذي كان يعيش فيه، وكانت مصر وقتها تحت الاحتلال البريطاني، ولا تخطيء عين القاريء اهتمام المؤلف بهذه القضية والتأكيد عليها، ومن ذلك قوله: «وما أقرب ذلك الوصف الذي يصف به نبي الله هود قومه عادًا إلىٰ غلاة المستعمرين، ودول الحضارة اليوم، إذا سلطهم الله علىٰ شعب من الشعوب بطشوا به بطش الجبابرة، وأذاقوه العذاب ألوانًا؛ فيَتَّموا الأطفال، وسَبَوا النساء، وهتكوا الحرمات، ومزقوا المصاحف، وقتلوا الأبرياء، وهذه آثارهم في كل مكان تشيب الطفل، وتضج لها الإنسانية، ويفيض لها ماء الحياء».

وقوله: «ولكن المستعمرين في زماننا هذا أصبحوا يعمدون في بعض الظروف إلىٰ أحط الأمة أخلاقًا، وأمعنها في الرذيلة وأبعدها عن الخلق الفاضل والحياء؛ يعمدون إلىٰ ذلك الصنف من الأمة فيعطونه الحكم، ويمكِّنونه من السلطان والنفوذ، فلا يجمع معه من الوزراء إلَّا من فسد ضميره، وغاض منه

معين الحياء، ولا همَّ له إلَّا دراهم يجمعها، وسلطة يتمتع بها، وفي سبيل تلك العظمة الكاذبة. وذلك النفوذ المستعار، يعطي الغاصب بكلتا يديه، ويمكن له في الأرض، ويذهب بمصالح البلاد ومرافقها إلىٰ هاوية الفساد والخراب، هذه وزارة الغاصب المستبد، وأحكام المستعمرين في الأرض بواسطة رجال من الأمة المغصوبة المهضومة، أساسها التعاون علىٰ الإثم والعدوان واضطهاد الأبرياء والتضييق علىٰ الأحرار، وتبديد أموال الدول في الشهوات والأهواء، وتخريبها من المصانع النافعة والعلوم المفيدة.

أمَّا وزارة الرسل، أما حكومة خِيرَة المصلحين في الأرض، فهي وزارة أساسها الحق ليثبت ويبقىٰ، وعمادها التعاون علىٰ البرّ وكل ما يعود علىٰ الناس بالخير في دينهم ودنياهم، وشتان ما بين الوزارتين: وزارة الحق، ووزارة الباطل، أو وزارة حزب الله وجنده، ووزارة المستعمر وذَنَبه».

٣- التأصيل لعلم القصة القرآنية:

للمؤلف اهتمام بالقصة القرآنية من جهة التأصيل كذلك، ومن كلامه في التأصيل للقصص القرآني: «ترىٰ القصة الواحدة فيها الإجمال والبسط، والتقديم والتأخير، وفيها زيادات في بعض السور لم تكن في البعض الآخر، وكلها صحيحة، لا يتنافىٰ إجمالها وتفصيلها، ولا يتناقض ما فيها من زيادات، بل يكمل بعضها بعضًا».

وقال في سياق معرفة المبهمات من الأسماء في القصص: «والعبرة لا تتوقف علىٰ معرفة الأسماء».

٤- الاهتمام بالقضايا الملحة في عصره، كانتشار الأضرحة والقبور، ونحو ذلك:

ذكرنا تأثر المؤلف بحركة الشيخ محمد بن عبدالوهاب الإصلاحية، ونقل المؤلف هذه المفاهيم إلىٰ كتابه استنباطًا من القصص القرآني، وقد اهتم بإبراز هذا الجانب في كتابه، ومنه قوله: «وها هي بيوت الله اليوم، ومساجد المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، كثير منها أنشئت علىٰ قبور للصالحين، وقباب للمشاهير منهم، ولا سيما المساجد التي أنشئت في عهد الفاطميين.

ها هي بيوت الله يطالبنا الله بتطهيرها من الرجس، وإبعادها من الشرك؛ لتكون عبادة الله فيها خالصة لوجهه، والتوجه إليها توجهًا إلىٰ الله وحده، لا توجهًا إلىٰ صاحب القبر، ولا استعانة به في شأن من شؤون الحياة، فهل عهْد الله إلىٰ إبراهيم وإسماعيل بطهارة البيت الحرام خاص به، أو هو عام ينبغي أن يكون في كل مسجد من مساجد المسلمين، وكل معبد أعدوه لما تعد لمثله المساجد من صلاة ودعاء، إنَّ الأسوة الحسنة في إبراهيم وإسماعيل تقضي علىٰ المسلم أن يترسم خطاهما في كل عمل من أعمال الخير، ولا سيما عمل يتعلق بتوحيد الله في العبادة، وتطهير أماكن العبادة من الشرك وذرائع الشرك، وإذا كانت مساجد المسلمين التي بها قباب ومشاهد للصالحين قد خلت من الشرك الظاهر؛ فإنَّها لم تخلُ من الشرك الخفي وذرائع الشرك، وإن كنتَ في شكٍّ من ذلك؛ فاذهب إلىٰ مسجد الحسين ﷺ، أو مسجد الإمام الشافعي؛ فإنَّك ترىٰ فيه ما لا يرضاه الله، ولا يرضاه صاحب القبر».

وقال: «وقد غفل كثير من الناس عن ذلك فوجهوا وجوههم شطر الصالحين، ويمَّموا الأضرحة والتوابيت، وأخذوا يستغيثون بأصحابها، ويستنصرون بهم في قضاء حوائجهم ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠٦ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٦، ١٠٧]».

٥- وينقل المؤلف كلام أهل العلم ممن تقدمه، ويذكر بعض القصص المعاصرة ليدلل علىٰ بعض القضايا التي يطرحها في الكتاب.

٦- ويذكر المؤلف بعض القراءات القرآنية، وخاصة تلك التي لها تعلق بالمعنىٰ.

٧- وفي حيث المؤلف عن دعوة الرسول ﷺ أبرز المؤلف كليات الشرع، ومقاصده من تشريع الأحكام إبرازًا حسنًا.

٨- وقد شدد المؤلف النكير علىٰ الإسرائيليات، وأنكر ما ليس بمنكر، وقد علقت علىٰ هذه المواضع بما يغني عن إعادته هنا.

٩- كما نقل المؤلف كثيرًا عن المدرسة الإصلاحية، فنقل عن الأفغاني، ومحمد عبده، ومحمد رشيد رضا.

١٠- امتاز اسلوب المؤلف في كتابه بحسن البيان، وسهولته ويسره، ولا يكاد المرأ يمل من قرائته، وذلك لحسن ترتيبه، وحسن قصد مؤلفه -كما نحسب- والله حسب الجميع.

تلك عشرة كاملة، وخير ما يتعرف به المرأ علىٰ الكتاب أن يقرأه، وأن يعايش مؤلفه، وأن يستشعر حماسه من بين السطور.

✍ وكتبه

عمرو الشرقاوي

دعوة الرسل إلى الله تعالى

تأليف
محمد أحمد العدوي
من العلماء

كتاب إصلاح ودين وخلق

يحتاج إليه الوعاظ ورجال السياسة والأخلاق

يتعزىٰ به المصلح عما يناله من أذًىٰ، وما يوضع في سبيله من عقبات

ويجد فيه المؤمن ما يقوي يقينه، ويثبِّت فؤاده ...

مُقدِّمةُ الكتاب والتعريفُ به

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف: ٣].

﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

اقتضت حكمةُ الله -تعالىٰ- أن يبعث في الناس رُسلًا مبشرين ومنذرين، وأن يكون نبينا محمد ﷺ خاتمًا لأولئك الرسل، ويعلم الله أنَّ الدعوة إلىٰ الإصلاح محفوفة بالمخاطر، محوطة بالأشواك، ومن شأن هذه المخاطر أن تكون ذريعة لتثبيط همة الداعي، وتسرب اليأس إلىٰ نفسه؛ فكان من الخير أن يحال بين اليأس وبين قلب رسوله، وأن يريه أنَّ هذه العقبات التي تعترض الداعي، وتلك الشدائد التي يراها المصلح، لا غنىٰ له عنها، وأنها سُنة فيمن سبقه من الرسل، ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٤].

وكيف ينجو المصلح من هذه الشدائد، ومهمته أن يحول بين النفوس وشهواتها، والقلوب وأهوائها، يحاول أن يرسم لها طريقًا غير الطريق، يباعد بينها وبين ما ألفت من الشهوات، ويقارب بينها وبين ما تركت من الفضائل، فهو

مُرَبٍّ يريد أن يخلق الناس خلقًا جديدًا، ومُهذِّب يحاول أن ينشئهم نشأة صالحة، يؤلف بين غرائزهم المختلفة، ويوفق بين أهوائهم المتفاوتة.

وكثيرًا ما تستحكم الشهوات، ويتمكن الفساد من الأمة إلىٰ حد كبير، كالأمة العربية في جاهليتها[1]، فيحتاج المصلح إلىٰ شيء كثير من السلوىٰ، ونماذج غير قليلة من سيرة المصلحين.

فلا عجب أن تكون سيرة الرسل الماضين جزءًا من دعوة خاتمهم، وأن تكون دعوتهم لأقوامهم مُثلًا صالحة لدعوته لقومه، لا عجب أن تكون أنباء الرسل تثبيتًا لقلبه، وتطمينًا لنفسه.

أبان الله -تعالىٰ- لرسوله محمد ﷺ في سيرة الرسل الماضين أنَّ العاقبة للتقوىٰ، وأنَّ جند الحق هو الغالب: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣]. كما أراه أن حزب الباطل لا يصلح الله عمله، وأن الدائرة تكون عليه: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].
﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٢، ٤٣].

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [غافر: ٨٢-٨٥].

---

(١) كتب الدكتور جواد علي في أحوال العرب قبل الإسلام، «المفصل فيْ تاريخ العرب قبل الإسلام»، وقد نشر عدة نشرات، وله أيضًا: «تاريخ العرب قبل الإسلام»، وهو غير الكتاب الأول. وفيهما تفصيل عن أحوال الأمة العربية، وطبائعها. (عمرو)

هذه سنن الله -تعالىٰ- لا تختلف، ولا تتخلف في المصلحين والمفسدين، يسوقها الله في كتابه الكريم؛ لتكون تربية لنا، وعبرةً لأصحاب العقول منَّا، ويكررها في ذلك الكتاب بأساليب مختلفة؛ فمرة يحدثنا القرآن عنها بأسلوب طويل، ومرة بأسلوب وسط، وأحيانًا بطريق موجز[١]، علنا نفقه سرَّها، والغاية منها، ومِن تكرارها، ونعلم أن القرآن كتاب هداية فوق أنه كتاب علم، فهو يرينا ما فعله بالصالحين جزاءً لهم علىٰ استقامتهم، وما أوقعه بالمفسدين عقوبة لهم علىٰ طغيانهم، ويرينا أن هذه سنته، وأن الشعوب نسبتها إليه سواء، يمكِّن لها في الأرض، ويغدق عليها من النعم= إذا هي وقفت عند ما رسم لها من حدود، وما شرع لها من أحكام، ويريها العذاب ألوانًا، ويسلط عليها من يسلبها عزها وسلطانها= إذا هي تنكبت طرق الهدىٰ، وداست قوانين الفطرة: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

تلك هي الغاية من ذكر سيرة الرسل في القرآن الكريم، وتكرار القصة في عدة سور بأساليب مختلفة[٢]، وهي تمكين هذه السنن في النفس، وتثبيتها في

(١) أسلوب القرآن هو ملتقىٰ نهايات الفضيلة البيانية علىٰ تباعد ما بين أطرافها. وانظر في هذا المعنىٰ. «النبأ العظيم»، د. دراز: (١٦٢). (عمرو)

(٢) انظر في عظمة التكرار للقصص القرآني: الانتصار، للباقلاني: (٢/ ٨٠٠)، والبرهان، للزركشي: (٣/ ٢٦)، ومعترك الأقران، للسيوطي: (١/ ٢٦٣).

وقال الإمام ابن جزي: «فإن قيل: ما الحكمة في تكرار قصص الأنبياء في القرآن؟

فالجواب من ثلاثة أوجه:

الأول: أنه ربما ذكر في سورة من أخبار الأنبياء ما لم يذكره في سورة أخرىٰ، ففي كل واحدة منهما فائدة زائدة علىٰ الأخرىٰ.

الثاني: أنه ذكرت أخبار الأنبياء في مواضع علىٰ طريقة الإطناب وفي مواضع علىٰ طريقة الإيجاز؛ لتظهر فصاحة القرآن في الطريقتين.

الثالث: أن أخبار الأنبياء قصد بذكرها مقاصد فيتعدد ذكرها بتعدد تلك المقاصد.

فمن المقاصد بها: إثبات نبوة الأنبياء المتقدمين بذكر ما جرىٰ علىٰ أيديهم من المعجزات، وذكر إهلاك من كذبهم بأنواع من المهالك.

ومنها إثبات النبوة لمحمد ﷺ لإخباره بتلك الأخبار من غير تعلم من أحد وإلىٰ ذلك الإشارة بقوله تعالىٰ: ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ [هود: ٤٩]. =

القلب، حتىٰ لا يجد اليأس إلىٰ قلب المصلح سبيلًا، فتقوىٰ فيه داعية الإصلاح، وحتىٰ يعلم الناس أن مصيرهم مصير من سبقهم من الظالمين، إذا هم أعنتوا الرسل، وخرجوا علىٰ تعاليمهم وشرائعهم.

وكثيرًا ما يسلي القرآن الكريم نبينا محمدًا ﷺ بما كان لسلفه من الرسل.

ويريه الله أنَّه لا يقابَل من أعدائه إلَّا بمثل ما قوبل به الرسل: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾ [فصلت: ٤٣]، وإنَّ تلقِّي الرسول بالأذىٰ شنشنة[1] المفسدين، تناقلوها جيلًا عن جيل، كأنَّهم تواصوا بها علىٰ تباعد أزمنتهم، واختلاف أمكنتهم: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣].

وكثيرًا ما يأمره القرآن الكريم أن يعتصم بالصبر، ويتذرع بالرضا، ويريه أنَّ وعد الله بنصر المصلحين حقٌّ لا مِريَةَ فيه: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠]، وإنَّ ذلك شأن أصحاب القوة من الرسل: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وكما يُربي الله -تعالىٰ- نبيه محمدًا ﷺ بهذه السير، يربي العلماء الداعين إلىٰ الله -تعالىٰ-، ويريهم أن لا حقَّ لهم في أن يسأموا من الدعوة؛ لأنَّ الناس تتلقاهم بما يكرهون، وتقابلهم بما لا يشتهون، ولا سيما في عصر تفشَّت فيه

= ومنها: إثبات الوحدانية ألا ترىٰ أنه لما ذكر إهلاك الأمم الكافرة قال: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [هود: ١٠١].

ومنها: الاعتبار في قدرة الله وشدة عقابه لمن كفر. ومنها تسلية النبي ﷺ عن تكذيب قومه له بالتأسي بمن تقدم من الأنبياء كقوله: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ [الأنعام: ٣٤].

ومنها: تسليته ﷺ ووعده بالنصر كما نصر الأنبياء الذين من قبله.

ومنها: تخويف الكفار بأن يعاقبوا كما عوقب الكفار الذين من قبلهم.

إلىٰ غير ذلك مما احتوت عليه أخبار الأنبياء من العجائب والمواعظ واحتجاج الأنبياء وردهم علىٰ الكفار وغير ذلك. فلما كانت أخبار الأنبياء تفيد فوائد كثيرة ذكرت في مواضع كثيرة ولكل مقام مقال»، التسهيل: (١/٥٨-٦١). (عمرو)

(١) شنشنةُ الرَّجل: غريزته، والشنشنة: الخلق والطبيعة.

انظر: العين: (٦/ ٢٢٠)، مقاييس اللغة: (٣/ ١٧٦)، ولسان العرب: (١٣/ ٢٤٣).

المنكرات، وفسدت العقائد، وذاعت البدع حتىٰ طغت علىٰ السنن، يُري الله أولئك الدعاة أنَّ من واجبهم أن يفطنوا لهذه السنن، ويعلموا أنَّهم ورثة الأنبياء في الدعوة، وقد نالهم من جرائها ما نالهم ممَّا اضطرهم إلىٰ الهجرة من بلادهم، وفرارهم بدينهم وعقيدتهم، وأنَّ عليهم أن يقوموا بالدعوة إلىٰ الله -تعالىٰ- متخلقين بأخلاقهم، متأدبين بآدابهم: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝١٩٩ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢٠٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٩-٢٠١].

يُطلعنا الله بسيرة الرسل مع أقوامهم علىٰ تاريخ الإصلاح في الأرض، ويرينا أنَّ ذلك التاريخ حافل بالعظات والعبر، وأنَّه لا غنىٰ لمصلح أيًا كان إصلاحه عن فهم ذلك التاريخ، والوقوف علىٰ ما كان يعترض الإصلاح من عراقيل، وما يوضع في سبيله من عقبات، ومن أي الطبقات كانت هذه العقبات؟ وما الذي كان يحملهم علىٰ وضعها في طريق المصلح؟ ولماذا لم تكن طبيعة الناس جميعهم واحدة حيال الدعوة إلىٰ الإصلاح؟

إنَّ المصلح إذا قرأ دعوة الرسل إلىٰ أقوامهم، وما لاقاه كلُّ رسول من جراء هذه الدعوة= وقف علىٰ الشيء الكثير من أخلاق البشر في بداوتهم وتحضُّرهم، وعرف ما لا يقف عند حدٍّ من طباعهم وعاداتهم، وبذلك يستطيع أن يسير في إصلاحه علىٰ هُدىٰ، ويعدُّ له من العُدد والقوىٰ ما ينبغي أن يعدَّ؛ لأنَّ نفوس المفسدين في كل زمان متقاربة، ووسائلهم في محاربة الحق متشابهة، واضرِب لهم مثلًا ما قاله الملأ المستكبر من قوم نوح له عند دعوته لهم إلىٰ الله -تعالىٰ-، ووازِن بينه، وبين ما يقوله غلاة المستعمرين اليوم للزعماء السياسيين= تجد قوم نوح يقولون له: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ [هود: ٢٧]، والأراذل: هم فقراء القوم، وأصحاب المهن الحقيرة فيهم، كالعمال في وقتنا هذا، وما الفرق بين هذه الكلمة، وبين ما يقال للزعماء اليوم، في سبيل الغض من زعامتهم، والتهوين لأمرهم؟ لأنَّ حزبهم من الفقراء، وأصحاب الجلاليب الزرقاء، وليسوا من أصحاب العقول الراجحة، والمصالح الحقيقية، لو عرف الناس ذلك لعلموا أنَّ أساليب المفسدين هي

أساليبهم في كل زمان، وأنَّ نفوسهم هي هي نفوسهم؛ فإنَّ التاريخ دائمًا يعيد نفسه.

لو عرف المصلح السياسي أنَّ تحزيب الأمة، وجعلها شيعًا تتقاتل في سبيل حزبيتها، وتنسىٰ بذلك التحزب مصالحها ومرافقها= هو سنة عدو الله فرعون، القدوة السيئة في الاستبداد، والمثل الواضح في الطغيان والظلم، لو عرف الناس ذلك؛ لعلموا أنَّ هذه الوسيلة هي التي يلجأ إليها الغاصب في تثبيت قدمه، وتمكين سياسته، يخلق في الأمة الأحزاب، ويغذي فيها معنىٰ الحزبية بأساليبه الشيطانية، ثم يطلب منها بعد ذلك أن تتحد إذا هي طلبت إليه مصلحة من مصالحها، فيعلقها علىٰ محال؛ إذ الحزبية لا يمكن أن تزول ما دامت الأمة الغاصبة باسطة سلطانها؛ فإنَّها علىٰ حساب الحزبية تعيش، وبواسطتها تصل إلىٰ ما تريد.

ففرعون قد فتح هذا الباب للغاصبين، وسنَّ لهم هذه السنة، بل هو عمودهم الفقري، وربهم الأعلىٰ، يملي عليهم من وحيه الشيطاني ما يستبيحون به إرهاق الناس وإذلالهم: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤].

ومثل ثالث نضربه للمصلح السياسي: هو أنَّ طريق النفي للزعماء كان سنة لأقوام الرسل معهم، وكأنَّ الغاصب تلقَّاه عنهم، فهذا ملأ شعيب المستكبر يقول له: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَـٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَـٰرِهِينَ﴾ [الأعراف: ٨٨]، وهؤلاء قوم لوط يتآمرون علىٰ إخراجه وحزبه، فيقول الله عنهم: ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٨٢]. وحسبك أنَّ الله -تعالىٰ- يحكي عن الكفار من أقوام الرسل جميعهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ [إبراهيم: ١٣]؛ أليس ذلك هو الذي يقوله الغاصب للزعماء؟ وهل للغاصبين ملة سوىٰ أن تبقىٰ الناس لهم عبيدًا مسخرين، ويكدّون في بلادهم وهم بخيراتها يتمتعون، إذا ظلموهم شكروهم علىٰ الظلم، وإذا استعبدوهم حمدوهم علىٰ طريقة الحكم، هل للغاصب مطلب من الزعماء فوق أن لا ترتفع رأس للمطالبة بحق؟ ولا يصيح إنسان في وجه الظلم والاستبداد.

وكذلك لو رأىٰ المصلح السياسي ما صنعه قوم إبراهيم معه، وقد أقام عليهم الحجة، وسد عليهم مسالك القول، لو رأىٰ كيف يلجئون إلىٰ الحديد والنار بعد أن أعوزتهم القوة المعنوية، يحفرون له خندقًا مملوءًا بالنار لإلقائه فيه ليستريحوا منه ومن دعوته، لو رأىٰ ذلك المصلح لعلم أنَّها سُنة الله في المبطلين، لا غنىٰ لهم عن البطش متىٰ عجزوا عن الحجة.

هذا قليل من كثير ممَّا تضمنته سيرة الرسل من عبر، وما اشتملت عليه من آيات.

لذلك رأيت أن أضع كتابي هذا في سيرة الرسل، معوِّلًا علىٰ القرآن الكريم، وسميته: «**دعوة الرسل إلىٰ الله تعالىٰ**»، ولقد كنت صاحب فكرة دراسة هذا القسم من التاريخ في قسم الوعظ والإرشاد بالأزهر، أيام المشيخة الأولىٰ لأستاذنا المصلح «الشيخ المراغي»[1]، ومن حسن المصادفة أني لم أضع مقدمة الكتاب إلَّا في عهد مشيخته الثانية[2]، التي أرجو له فيها التوفيق والسداد، وأتمنىٰ له ما يتمناه كل مسلم غيور.

أمَّا الرسل الذين عرضت لسيرتهم فهم فقط الذين لهم دعوة ذات شأن مع أقوامهم في القرآن الكريم؛ لأنَّ الغرض الاعتبار بسيرتهم، وإنَّما يكمل ذلك في رسول له دعوة طال فيها مع قومه الأخذ والردّ، وفيها من العظمة وعلوّ الشأن ما

(١) هو الشيخ: محمد بن مصطفىٰ بن محمد بن عبد المنعم المراغي، عالم بالتفسير، ومن دعاة الإصلاح، تولىٰ مشيخة الأزهر. ويعرف الشيخ المراغي بمؤسس الأزهر الحديث، وكان دائم الاتصال بالشيخ محمد عبده.

ومن الأعمال الجليلة التي قام بها الشيخ الإمام المراغي، ما يلي: إنشاء لجنة الفتوىٰ، وإنشاء قسم الوعظ والإرشاد، وهو القسم الذي عمل فيه المؤلف مفتشًا. كما حصل تطوير لجماعة كبار العلماء في عصره.

ولقي الشيخ المراغي في حياته متاعب عديدة، حتىٰ لقي ربه عام (١٩٤٥م).

انظر: الإمام المراغي، العدد (١١٥) من سلسلة اقرأ، بقلم أنور الجندي، طبع دار المعارف، والأعلام، للزركلي: (٧/ ١٠٣). (عمرو)

(٢) تولىٰ الشيخ المراغي مشيخة الأزهر مرتين:

الأولىٰ: عام (١٩٢٨)، واستقال عام (١٩٢٩) بعد خلاف احتدم بينه وبين الملك فؤاد.

الثانية: عام (١٩٣٥)، وظل شيخًا للأزهر حتىٰ توفي رَحِمَهُ اللهُ عام (١٩٤٥). (عمرو)

ينفع المصلح، أو من الآيات الخُلُقية والعبر ما يقوّي الإرادة، وينمي داعية الخير، فنبيُّ الله يوسف عرضت لسيرته في الكتاب علىٰ الرغم من أنَّ دعوته في القرآن لا تتجاوز كلمات لصاحبيه في السجن؛ لأنَّ قصته مع الأخوة، ومع امرأة العزيز حافلة بالعظات والعبر.

وقد رأيت أن يكون شرحي لكتاب «**دعوة الرسل**» متصلًا بالحياة الحاضرة، وعلىٰ أسلوب جديد، أَصِل فيه الماضي من التاريخ بحاضره جهد الطاقة، وأقارب بين المفسدين في عهودهم الأولىٰ، والمفسدين في عهدنا الحاضر، وإن كان الإفساد متفاوتًا، فأولئك يفسدون علىٰ الناس أمر الدين، وهؤلاء يفسدون علىٰ الناس أمر الدنيا.

وقد كانت عُدّتي في ذلك الكتاب بعد المراجع التي بينتها في آخره هي التدبر العميق فيما تضمنه القرآن من علوم وعبر، والإمعان فيما عليه الناس من أخلاق وطباع، وما تمليه الحوادث الحاضرة عن عسف وجور، ونفاق ورياء، وفي اعتقادي أنَّ أصدق تفسير هو الذي يستمده صاحبه من الواقع.

وكذلك أعنىٰ كثيرًا بتحليل كلمات كل رسول، وأوازن بينها وبين كلمات خصومه، وما اشتملت عليه كلمات الرسول من عفة وأدب، وما يُقابَل به من سخف وحمق، وأعلق دائمًا علىٰ تعلق الرسول بربه، واعتصامه بخالقه ومولاه، وأدعو المصلح أن يتأسىٰ بالرسول الذي أكتب عنه في ذلك الخلق الطيب.

وكذلك أعنىٰ بما انطوت عليه نفوس الرسل من حزم وعزم، وما تملَّك قواهم من حب للصالح العام، وكيف صبروا علىٰ ما ينالهم من أذىٰ، ودأبوا علىٰ دعوتهم واثقين بأن النصر حليفهم، موطِّنين نفوسهم علىٰ أن العاقبة لهم، وأنه ينبغي للمصلح أن يكون علىٰ الخلق الحميد، وأن يكون له من الإرادة الحديدية ما لأولئك الرسل، حتىٰ لا يزيده إيذاء الناس له إلا استمساكًا بمبدئه، وثباتًا علىٰ عقيدته ورأيه، وناهيك قول نبي الله يوسف ﷺ للنسوة اللاتي تآمرن عليه: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يوسف: ٣٣، ٣٤].

كما أهتمّ كثيرًا بربط سيرة الرسل بحال المسلمين اليوم في سياستهم العامة؛ لأنَّ الدين جاء لإصلاح حال الناس في سياستهم، كما جاء لإصلاحها في نفوسهم وأخلاقهم، ومن حاول أن يفهم الدين عاريًا عن السياسة العامة؛ فإنَّما يحاول أن يشطره شطرين، فيأخذ بعضًا، ويدَع بعضًا.

فلا عجب أن يجد رجال الوعظ في كتابي هذا ما يشدّ عزمهم، وينير قلوبهم، وأن يجد فيه رجال السياسة ما يرفع نفوسهم، ويوجهها للصالح العام، ويعرفها بالله وسننه في وعده ووعيده، وعادته مع المصلحين والمفسدين.

لا عجب أن يعرفوا أن لا غنىٰ لهم عن الأخذ من مشكاة الوحي السماوي، والتضلع من معين المعارف الإلهية التي أودعها الله كتابه الحكيم، حتىٰ يكونوا ساسة علماء، وقادة حكماء، يبصرهم الله فيبصرون، ويعرفهم فيعرفون.

إذا كان من الواجب علىٰ الزعماء السياسيين، وقادة الشعوب، أن يدرسوا تاريخ النهضات في الأرض؛ ليضموا عقولًا إلىٰ عقولهم= فأولىٰ بهم أن يدرسوا تاريخ الرسل، وسيرة أول المصلحين في الأرض من مصدرها الصحيح، وينبوعها الصافي، وهو القرآن الكريم، وأنا زعيم بأنَّ دراستهم لتاريخ الرسل ستجعلهم قادة علىٰ نمط لم يألفوه من قبل، ثم يكون للمسلمين شأن جديد بعد هذه الزعامة التي تبني علىٰ سنن حكيمة عادلة، وإخلاص طيبة مرضية، وعقيدة كالجبال ثباتًا ورسوخًا، وبذلك يَسعَدون ويُسعِدون أممهم.

لو أنَّ الناس عُنوا بدراسة كتابهم السماوي عنايتهم بكتب الناس= لكان لهم شأن غير هذا الشأن، وحال غير ذلك الحال، ولكن ماذا نصنع، وقد كتب الله علينا الجحود حتىٰ علىٰ رجال المدنية منا، وقدّر لنا الحرمان، لطائفة تعدّ نفسها من المثقفين المتعلمين.

ويجمل بي -وقد وصلت بالقارئ إلىٰ ما وصلت- أن أسوق قصة طريفة، وإن كانت مؤسفة: أبلغني المرحوم صديقي الشيخ عبد العزيز الخولي[1] أنَّه تحدث إليه رجل من الذين درسوا دراسة واسعة، وحصلوا علىٰ شهادات عالية، وأبلغه أنه درس كتبًا كثيرة في الاجتماع، ولم يعجبه مسلك القرآن الكريم في

---

(١) له كتاب: «القرآن الكريم وصفه أثره هدايته وإعجازه». انظر: مناهل العرفان: (١/ ٣٨). (عمرو)

مسألة خاصة، فسأله ما هي؟ قال: إنَّ القرآن يأمر بقتال الناس حتىٰ يقولوا: لا إله إلا الله؛ فأسف المرحوم الشيخ الخولي لهذه الجهالة من رجل دارس كهذا، وقال: كان يجمل بك قبل أن تعيب علىٰ القرآن مسلكه في مسألة عينتها أن تعطيه من العناية شيئًا ممَّا أعطيته لغيره من الكتب، ومن المؤسف أن تدرس كل شيء في موضوعك إلَّا القرآن؛ ليس في القرآن آية بهذا المعنىٰ الذي استشكلته، إنَّما هو حديث نبويّ للعلماء كلام طويل في تأويله وبيان معناه.

فانظروا كيف يصل بنا تناسي القرآن الكريم إلىٰ أيِّ حد، وكيف يُحرم الرجل ما في كتاب الله من معارف وعلوم أحوج ما يكون إليها؛ لأنَّه تعوَّد أن يأخذ العلم من كتب وضعها الناس، لا من كتاب أنزله الله؛ ليكون قانونًا عامًا للبشر، ودستورًا صالحًا لكل زمان ومكان.

إنَّ الذي يتأمل تاريخ أولئك الرسل الذين عرضت لهم في كتابي هذا يجدهم متواطئين علىٰ دعوة الناس إلىٰ التوحيد، والإيمان بالبعث والجزاء، والإيمان بالرسل جميعهم، لا فرق بين رسول ورسول، وأنَّ المكذِّب لرسولٍ من رسل الله -تعالىٰ- مكذِّب بالرسل جميعهم، ألا ترىٰ إلىٰ قول الله -تعالىٰ-: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥]، مع أنهم لم يكذبوا إلا رسولًا واحدًا هو نبي الله نوح، ويقول: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٠]، وكذلك يقول في عاد، ونرىٰ القرآن الكريم قد أهدر إيمان الرجل إذا هو فرّق في الإيمان بين رسول ورسول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٥٠-١٥٢].

وكذلك كانت دعوتهم أساسها العمل الصالح، والخلق الطيب.

علىٰ هذه الأصول اتفقت دعوتهم، واجتمعت كلمتهم، وبذلك كانت الشرائع متحدة في أصولها، وإن تفاوتت في مشاربها وأساليبها.

ترىٰ الرسل دائمًا يُذكِّرون أقوامهم بماضيهم معهم، وأنهم لم يُبعَثوا فيهم جبارين، بل مبشَّرين ومنذرين، أمناء ناصحين، لا يبتغون من دعوتهم سوىٰ إرضائهم لربهم، وإسعادهم لشعوبهم، لا ينتظرون منهم أجرًا علىٰ دعوتهم، بل ينتظرونه من الذي فَطَرهم، مؤمنين بأحقية ما يقولون، وجدير بقوم ذلك حالهم، وهذا ماضيهم، أن يَسمَع الناس لهم.

إنَّ الرسل -صلوات الله وسلامه عليهم- علىٰ اتفاقهم علىٰ أولئك الأصول يُعنَون عناية خاصَّة بالأمراض التي تحيق بأقوامهم، فتجد نبي الله إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- يهتم كثيرًا للتوحيد، ومحاربة الشرك، حتىٰ ليخيل لمن يقرأ قصته في القرآن الكريم أنه لم يُبعث إلا بالتوحيد، لتفشي الوثنية في عهده، وفتنة الناس بالأصنام في مدته؛ ولذلك اشتُهر بأنَّه شيخ الموحدين.

وتجد نبي الله لوطًا يُعنىٰ بمحاربة الفاحشة التي فشت في قومه حتىٰ ألفها الناس، وأصبح التنزه منها جرمًا يستحق عليه صاحبُه النفي والتغريب، وذلك منتهىٰ الفساد الخُلُقي، والنزول عن مستوىٰ الإنسانية؛ ألا ترىٰ إلىٰ القوم يقولون في شأن لوط وحزبه: ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٨٢].

وتجد نبي الله شعيبًا يدعو القوم بعد توحيد الله -تعالىٰ- إلىٰ أن يوفوا الكيل، ويزنوا بالقسطاس المستقيم؛ لأنَّ مرض الغش والتدليس كان شائعًا فيهم.

وترىٰ نبي الله موسىٰ يُعنىٰ بإنقاذ بني إسرائيل من مخالب فرعون، ويعمل علىٰ إحباط ظلمه، ومحاربة طغيانه، ويجدُّ في تربية العزة والكرامة في نفوس القوم؛ لأنَّهم ألفوا الذل زمنًا طويلًا.

كل ذلك لنفهم أنَّ المصلح دائمًا يجعل همه محاربة المرض الموجود، وإذا كان هناك أمراض عمد إلىٰ أفتكها بالنفوس، وأضرها علىٰ الخلق والنفس، كالطبيب إذا عُرِض عليه رجل عنده أمراض ليس في استطاعته أن يعالجها دفعة؛ فإنَّه يبدأ بأهمها خطرًا.

وطريقتي في كتاب «**دعوة الرسل**» أن أستعرض قِصص الرسول في القرآن كله، وقد لا أترك منها إلَّا ما يتشابه مع ما أذكره من القصص تشابهًا كاملًا، ثم أبدأ بالقصة مرتبة علىٰ نظام القرآن الكريم، وأعقب القصة من كل سورة بالشرح

والتعليق، وإذا طالت القصة من السورة الواحدة جعلتها قطعًا، وعقبت كل قطعة بشرحها، والتعليق عليها.

وكذلك التزمت أن أجعل كل رسول حيث وضعه التاريخ، فأبدأ -مثلًا- بنبي الله نوح، وأعقبه بنبي الله هود، ثم بنبي الله صالح، ثم بنبي الله إبراهيم، ثم بنبي الله لوط، ثم شعيب، ثم يوسف، ثم موسىٰ وهارون، ثم داود وسليمان، ثم عيسىٰ ثم نبينا -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين-.

ورأيت أن يكون تعليقي علىٰ القصة بعيدًا عن الاصطلاحات العلمية، حتىٰ يكون سهل التناول، مُيَسَّرًا علىٰ من يريده، من المشتغلين بالعلم وغير المشتغلين، وأن يكون الشرح والتعليق علىٰ هيئة فقرات مُرقَّمَة بأرقام متسلسلة، كل فقرة تتعلق بناحية خاصة في الآية.

كما قصدت أن يكون شرحي بعيدًا عن الإسرائيليات التي تعوّد المفسرون أن يشحنوا بها الكتب، ويملئوا بها أدمغة القارئين.

فقد أصيب الدين فيما أصيب بالأحاديث التي وضعت علىٰ رسول الله ﷺ وأخذها العامة دينًا، وبما حُشيت به كتب التفسير من إسرائيليات نقلها فريق من اليهود بقصد إفساد دين المسلمين عليهم، كالقصة التي ينسبونها زورًا لنبي الله داود مع أحد قُوَّاده.

وإذا كان العلماء قد وضعوا قوانين بها عرف الموضوع من الصحيح، واستطاعوا أن يقاوموا الأحاديث الموضوعة بعض المقاومة؛ فإنَّ ما شُحنت به بعض كتب التفسير من الإسرائيليات لا يزال الناس تقاسي آلامه، ويجد المفسر من العناء في تفنيده وإقامة الأدلة علىٰ بطلانه ما يجد[1].

(١) لعلماء التفسير تفصيل في التعامل مع الإسرائيليات. ولقد وقف الناس في زمان المؤلف موقفًا متشددًا من الإسرائيليات، وانعكس هذا الموقف علىٰ طريقة التعامل مع مرويات بني إسرائيل في كتب التفسير، وظل الناس علىٰ هذا الموقف زمانًا حتىٰ أعيد تحرير الموقف من الرويات الإسرائيلية في كتب التفسير، فطالعها -إن شئت- في كتاب: «مراجعات في الإسرائيليات»، لمجموعة من الباحثين، من إصدارات مركز تفسير للدراسات القرآنية. ولكاتب التعليق مقال بعنوان: «الجواب عن اعتراض الشيخ د. حسين الحربي حول عد الإسرائيليات من مصادر التفسير»، منشور بملتقىٰ أهل التفسير.
يقول أبو فهر محمود شاكر: «ولمّا رأيتُ أن كثيرًا من العلماء كان يعيبُ علىٰ الطبري أنه حشدَ في =

من أجل ذلك قصدت أن يكون تعليقي علىٰ الآية بعيدًا كل البعد عن الروايات صحيحها وضعيفها؛ لأنَّ فهم الآية لا يتوقف عليها، وأن يكون شرحي للقصة متمشيًا مع سياق الآية، ومتفقًا والأصول العامة للدين، مسايرًا لما ينبغي لرسل الله من عصمة، لائقًا بما أعده الله لهم من زعامة، وما هيأه لهم من منصب.

وتجدني دائمًا في تعليقي علىٰ قصص الأنبياء أعول علىٰ ما قرره العلماء من أصول صحيحة، فأرجع في التراجيح عند التعارض إلىٰ قاعدة علماء الجرح والتعديل، فإذا ورد حديث ظاهره طعن في عصمة رسول من الرسل= رجعت بالقارئ إلىٰ ما اتفق عليه العلماء من أن عصمة الأنبياء وردت من طريق قطعي، فلا نبطلها من طريق ظني، وخذ مثلًا لذلك قول الله -تعالىٰ- في نبيه إبراهيم: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٤١]، وما رواه بعض المحدثين من حديث: «**كذب إبراهيم ثلاث كذبات**»، فماذا نصنع في التوفيق بين الحديث والآية؟ لا شيء أكثر ممَّا قرره العلماء، من أنَّ الآية أقوىٰ من الحديث فتقدم عليه، ومن أجل ذلك يُردّ الحديث، وتعجبني **كلمة للفخر الرازي**: «إذا دار الأمر بين كذب الراوي وكذب الرسول؛ وجب أن نعمد إلىٰ كذب الراوي»[(١)].

بمثل هذه القاعدة يمكن إبطال كثير من الإسرائيليات[(٢)]، وبمثل هذه القاعدة تستطيع أن تدفع عن عصمة الأنبياء ما ورد عليها من شبه وشكوك.

= كتابِهِ كثيرًا من الرواية عن السالفين، الذين قرأوا الكُتُب، وذكروا في معاني القرآنِ ما ذكروا من الرواية عن أهل الكتابَيْن السالِفَيْن: التَّوراة والإنجيل -أحببتُ أن أكشف عن طريقة الطبري في الاستدلال بهذه الرواياتِ روايةً روايةً، وأبيّن كيف أخطأ الناسُ في فهم مقصده، وأنّه لم يَجْعل هذه الروايات قطُّ مهيمنةً علىٰ كتاب الله الذي لاَ يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وأحببتُ أن أبيّن عند كُلِّ روايةٍ مقالة الطبريّ في إسنادِها، وأنه إسنادٌ لاَ تقوم به حُجَّةٌ في دين الله، ولا في تفسير كتابه.

[وأن استدلاله بها كان يقوم مقام الاستدلالِ بالشِّعر القديم، علىٰ فهم معنىٰ كلمة، أو للدلالة علىٰ سياقِ جملة]»، جامع البيان، ت: محمود شاكر، (١/١٦-١٧). (عمرو)

(١) لم أقف علىٰ هذه العبارة، لكن تكلم الرازي في المحصول: (٤/ ٢٩١)، عن الخبر الذي يقطع بكونه كذبًا علىٰ رسول الله ﷺ. (عمرو)

(٢) اتفق العلماء علىٰ رد الإسرائيليات إذا خالفت الكتاب والسنة.

وقد يقع الردُّ من بعض الناس لبعض الإسرائيليات بدعوىٰ مخالفة الشرع، ولا يكون ذلك صحيحًا؛ لأنَّ ما ينسبه للشرع قد لا يكون صحيحًا أنه منه، بل هو رأي عقلي محضٌ وقع فيه شبه عنده أنه من =

وسترىٰ عند الكلام علىٰ سيرة كل رسول ما يجلي لك ناحية العَظَمة والخلق المتين فيه، وأن القرآن الكريم أحسن معبر عن سيرة الرسل الطيبة متىٰ فهم فهمًا مرضيًا، وجُرِّد عن كل ما أحاطه به بعض المفسرين من إسرائيليات.

وأوَّل رسول عرضت لقصته نبي الله نوح ﷺ: عرضت لها في سورة الأعراف، ويونس، وهود، والمؤمنون، والشعراء، وسورة نوح.

وأوَل شيء يلفت نظرك في هذه القصة صبر نوح علىٰ الدعوة ذلك الوقت الطويل، الذي يحدثنا الله عنه في قوله: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤]، فليعتبر بذلك الدعاة الذين تغلَّب علىٰ نفوسهم اليأس، ليعتبروا بذلك الصبر الخارق، وتلك الإرادة الحديدية، ولو لم يكن لنوح من الآيات الخلقية سوىٰ هذه الآية لكفته دليلًا علىٰ تأييده من ربه، وصدقه في دعوته، دع أدبه مع قومه، وتوكُّله علىٰ مولاه، وقد أنزل فيه مع قومه سورة كاملة تمثل لك كيف يكون الجمود علىٰ الباطل، والدفاع عن الشرك، وكيف استباح نوح بعد أن لبث فيهم ذلك الوقت الطويل أن يدعو عليهم بقوله: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦].

الثاني نبي الله هود ﷺ: وقد عرضت لقصته في سورة الأعراف، وهود، والشعراء، والذي تراه جديدًا في قصة هود أن يذكر قومه أن الله جعلهم خلفاء في الأرض من بعد قوم نوح، وزادهم في الخلق بسطة، وأنه ينبغي لهم أن يذكروا هذه النعم ليصلوا بها إلىٰ مُسديها، وأمرهم باستغفار الله والتوبة إليه، ليرسل السماء مدرارًا عليهم، ويزيدهم قوة إلىٰ قوتهم، فيرمونه بأن بعض آلهتهم مسَّه بسوء، ومن أجل ذلك يحقرهم، فيشهد الله ويشهدهم أنه بريء من شركهم وآلهتهم، ثم يذكرهم بنعم الله عليهم في رفع البناء الشامخ، لا لأغراض صحيحة ومنافع تعود عليهم بالخير، بل للعبث واللهو، ويذكرهم أنَّ من خُلقهم أنهم إذا بطشوا بالضعيف بطشوا جبارين، كغلاة المستعمرين في كل زمان، فيقولون له: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ۝ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٦، ١٣٧].

= الشرع، ويظهر ذلك جليًا فيما يتعلق بعصمة الأنبياء، إذ معرفة حدود هذه العصمة قد دخله التخريج العقلي، والتأويل المنحرف بدعوىٰ تنزيه الأنبياء. (عمرو)

الثالث نبي الله صالح: عرضت له في سورة الأعراف، وهود، والشعراء، والنمل، وأظهر شيء في دعوته الناقة، وتحذير الله لهم أن يمسها أحد بسوء، لا في شربها ولا في جسمها، وأن أولئك القوم عقروا الناقة، وعتوا عن أمر ربه، وطلبوا من صالح أن يأتيهم بما يعدهم به من عذاب الله إن كان صادقًا، فأخذتهم الرجفة فأصبحوا جاثمين علىٰ ركبهم.

ومن مواطن العبرة في القصة أنَّ الذي عقر الناقة واحد منهم، ولكن القوم كانوا راضين عن عمله، فنسب العقر لهم، وعمَّهم الله بعذابه، ليرينا أن الناس إذا لم يأخذوا علىٰ يد الظالم عمهم الله بعذاب من عنده: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥].

الرابع نبي الله إبراهيم عليه السلام: وقد عرضت لدعوته في سورة البقرة، والأنعام، وسورة إبراهيم، والنحل، ومريم، والأنبياء، والشعراء، والصافات، والممتحنة؛ ويمتاز إبراهيم بإتمام الكلمات التي ابتلاه الله بها، وبشارة الله له أن يجعله إمامًا للناس، وبدعواته الحكيمة الموافقة للسنن الإلهية، وبنائه البيت هو وولده إسماعيل، وتطهيره من الأرجاس الحسية والمعنوية.

كما يمتاز بإيتاء الله له الحجة، وأدبه مع أبيه في دعوته إلىٰ الله -تعالىٰ-، وكراهته للأصنام، ممَّا اضطر المبطلين أن يلجئوا معه إلىٰ الحديد والنار، حينما أعوزتهم الحجة، كما يمتاز إبراهيم بقصة ابتلاء الله له بذبح ولده، واستسلامهما لله -تعالىٰ-، ممَّا يدل علىٰ علوّ منزلتهما، وأنَّهما قدوة صالحة في التضحية ونكران الذات، وناهيك قول الله في شأنه: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠].

الخامس نبي الله لوط عليه السلام: وقد عرضت لقصته في الأعراف، وهود، والشعراء، والعنكبوت؛ نهىٰ لوط عليه السلام قومه عن الفاحشة المعروفة، وأراهم أنَّها جناية علىٰ الفطرة، وإذلال للرجال بكسر ما فيهم من إباءٍ وشَمَم، وتعطيل للنسل، ومفسدة للنساء بتعريضهم للزنا، كما أراهم أنَّهم مسرفون بذلك العمل، متجاوزون للحدود، وقد هددوه بإخراجه من بلده إن لم يرجع عن دعوته، وقد كان عاقبة أمرهم أن أخذهم الله بعذابه، وأنجىٰ لوطًا وأهله.

السادس نبي الله يوسف عليه السلام: وقد عرضنا لقصته من سورة يوسف، ويا لها من قصة! فيها من الآيات والعبر ما لا يقف عند حدّ، وقد أَخَذَت قسطًا كبيرًا من الكتاب، شغلت منه ثمانين صفحة، لو طبعت علىٰ حدة لكانت رسالة.

افتتحت القصة بالكلام علىٰ القصص ومعناه وأغراض الناس منه، ثم برؤيا يوسف، وبحث طويل في الرؤىٰ والأحلام، وآراء العلماء إسلاميين وغير إسلاميين فيها وفي تعليلها، وفي أصول التأويل، ثم تآمر أخوة يوسف عليه وإلقائه في الجبّ، وكيف أوصله الله بتدبيره ولطفه إلىٰ أكبر بيت في مصر، هو بيت العزيز.

ومن أهمِّ ما في القصة فتنة امرأة العزيز به، ومراودتها إياه عن نفسه، ورده عليها بإباء وشَمَم، شأن من أعده الله لمنصب الرسالة وهيأه لزعامة الناس، وقوله: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣]، وبيانٌ أنَّ الهَمَّ الذي حصل من امرأة العزيز هَمٌّ يتناسب مع شهوتها وجهلها، أما هَمُّ يوسف فهو همٌّ بالخلاص منها، وقد سخَّر الله له العزيز في الوقت الذي استحكم فيه الخلاف، شأنه مع أحبابه وأوليائه يجعل لهم من كل ضيق مُخَلِّصًا، ومن كل همٍّ فرجًا، ثم شهد الله له بأنه من عباده المخلَصين، وشهدت له امرأة العزيز بأنها راودته فاستعصم، ثم عرضتُ لقصته في السجن، وامتناعه علىٰ الملك بعد أن طلبه إلَّا أن تظهر براءته، وذلك صبر خارق، وانتهاء القصة بشهادة امرأة العزيز مرةً ثانية، وشهادة النسوة اللاتي قطعن أيديهن بأنهنّ ما علمن عليه من سوء.

ومن أهم ما في القصة أنَّ الملك طلبه؛ ليكون بطانة خالصة له بعد تجربةٍ دامت سنين، وقال له: ﴿إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ﴾، وأنَّ نبي الله يوسف طلب منه أن يجعله وزيرًا لمالية الدولة، وعلَّل ذلك بقوله: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾، يُعلِّم الملك كيف يختار الوزراء من ذوي الخلق والعلم، وأنَّ الخلق أول شيء يجب أن يحرص عليه الملوك في اختيار الوزراء، وتبعَ ذلك بحثٌ طويل في بطانة الملوك، وأثرها في سعادة الأمم وشقائها.

ولو أنَّ ملوك المسلمين تأسوا بذلك الملك، فاحتضنوا النابه الأمين من الأمة لكان لهم ولأممهم حال غير هذه الحال.

السابع نبي الله شعيب ﷺ: وقد عرضت لدعوته في سورة الأعراف، وهود، والشعراء، وأظهر شيء فيها دعوته إلىٰ الصدق في البيع والشراء وما إلىٰ ذلك، وأنَّ قومه هدَّدوه إن لم يرجع عن دعوته أن يخرجوه والذين معه من بلده، فيقول لهم شعيب: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ [الأعراف: ٨٨]، ثم يؤيسهم من هذه العودة، ويريهم أنَّ ذلك لم يكن شأن الرسول الذي يدعو الناس إلىٰ الحق، فيقول: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩]، وأن قومه أخذوا يتهكمون به، ويسخرون من عبادته، ويقولون له: ﴿مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: ٩١].

فيرد عليهم نبي الله شعيب بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ [هود: ٩٢، ٩٣].

الثامن والتاسع نبيا الله موسىٰ وأخوه هارون ﷺ: عرضت لقصتهما في المائدة، والأعراف، ويونس، وإبراهيم، وطه، والمؤمنون، والشعراء، والنمل، والقصص، وغافر، والدخان، والنازعات؛ وهذه السيرة لها شأن عظيم في القرآن؛ ولهذا أطال فيها إطالة لا تكاد تجدها في غيرها من السير، ولا عجب فهي قصة الاستبداد المقنع، والظلم الصارخ، والطغيان البالغ منتهاه، هي قصة الخروج علىٰ دساتير العدل، وقوانين الفطرة، وحرمة الإنسانية، وجديرٌ بالإنسان أن يقف علىٰ هذه القصة العجيبة، قصة ظلم الإنسان لأخيه الإنسان، جديرٌ به أن يعرف كيف نشأ ذلك الظلم، ولماذا أقدم فرعون عليه، وأن يعرف كيف كانت عاقبة الظالمين.

علَّمنا الله في هذه القصة أنَّ فرعون استخفَّ قومه فأطاعوه، فكان منه ما كان من عسف وجور، وأنَّ كل ظالم شأنه شأن فرعون، متىٰ وجد بطانة تحببه في الظلم وتعينه عليه= عظم أمره، وانتشر شرّه: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤].

كما يرينا أنَّ عاقبة الظلم الهلاك الدائم، والتنكيل بالظالمين؛ عَرَضَت هذه القصة لمهمة نبي الله موسىٰ وأخيه هارون، ويا لها من مهمة شاقة، لتعلقها بفرعون الطاغية، ولأن بني إسرائيل قوم ألفوا الذل، ووطَّنوا أنفسهم علىٰ الاستعباد، فتربية العزة والكرامة في نفوسهم أشق شيء علىٰ المصلح، كما عرضت فيها للسحر وأنواعه، وكيف أن الملأ من قوم فرعون كان يغريه بنبي الله موسىٰ وأخيه هارون ويريه أنهما يريدان ملكًا لا رسالة، وتلك ألعن دسيسة تعوَّد الناس أن يتقدموا بها للملوك.

وناهيك بقصة السحرة الذين حشرهم فرعون ليتغلبوا علىٰ موسىٰ، وما في هذه القصة من عبَر، وكيف أن الحق استولىٰ عليهم؟ فلم يحفلوا بتهديد فرعون لهم أن يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، ويصلبهم في جذوع النخل؛ لتفهم أنَّ الحق متىٰ وصل إلىٰ النفوس لا تستطيع قوة في الأرض أن تقاومه، كما عرضت لحديث السامري، وصنعه العجل الذي عبدوه بعد ذهاب موسىٰ إلىٰ ميقات ربه، ودعوة موسىٰ المستجابة علىٰ فرعون وقومه أن يطمس علىٰ أموالهم، ويشدّ علىٰ قلوبهم، وأنَّ إيمان فرعون عند وقوع الهلاك به لم ينجه؛ لأنَّه إيمان المضطرّ، وكيف طمأن الله موسىٰ عند تخوّفه من فرعون، وطلب من الله -تعالىٰ- أن يعينه بأخيه هارون، وفيها بحث عن وزارة الرسل، والغاية منها، والفرق بينها وبين الوزارات المدنية اليوم.

كما عرضت لجبروت فرعون وعلوّه في الأرض، وجعله أهلها شيعًا وأحزابًا، يستعين ببعضهم علىٰ بعض، ووعد الله للمستضعفين أن يمكنهم في الأرض، وقصة تربية موسىٰ في بيت فرعون، وقتله للقبطي خطأً، وقصة زواجه، ووعظ مؤمن آل فرعون، وما فيه من عبر، ولا تنس افتتان فرعون بملكه، وقوله: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف: ٥١].

ولو كان للملوك عقول لاعتبروا بفرعون وملكه، وعرفوا أن الاستبداد ما كان يومًا طريقًا لعمارة الأرض، والاحتفاظ بالعروش.

وختمت القصة بقطعة من سورة النازعات جَمَعَت أصول ما تفرق في السور من سيرة فرعون، لنلفت النظر إلىٰ إعجاز القرآن في إطنابه وإيجازه، بأسلوبه القاهر، وبيانه الأخَّاذ.

وجملة القول: إنَّ قصة نبي الله موسىٰ وأخيه هارون مع فرعون= هي قصة حافلة بالعظات، غاصَّة بالعبر، فيها من الدروس النافعة ما لا يستغني عنه مصلح، ولا سيما إذا كان مصلحًا سياسيًا، ولذلك أطال القرآن الكريم فيها، وقد شغلت من كتابي هذا مائة صفحة وستًّا، ولو شئت أن أزيد في بسطها لفعلت، ولكني خشيت الملل، فوقفت عند هذا الحد.

العاشر والحادي عشر نبيًّا الله داود وولده سليمان ﷺ: عرضت لقصتهما في سورة البقرة، والأنبياء، والنمل، وسبأ، وسورة ص، وإنك لترىٰ في قصة هذين الرسولين من عظمة الملك، واتساع السلطان ما يبهر نفسك، وترىٰ بجانب هذه العظمة شكرًا لله -تعالىٰ- واعترافًا بإحسانه، تجد لنبي الله داود قصة تتجلىٰ فيها شجاعته، كما تجد نعمة الله علىٰ سليمان وأبيه بالحكم والعلم، علىٰ تفاوتٍ بينهما، ونعمته علىٰ داود بصناعة دروع الحرب، وتسخير الريح والشياطين لسليمان، وتعليم الله له منطق الطير، وقصة ملكة سبأ، ونقل عرشها، وتسخير الجبال والطير، وإلانة الحديد لداود، وإسالة معدن النحاس، وكذلك قصة موت سليمان، وقصة الخصم والمحراب، وفتنة داود وسليمان، وإلقاء جسدٍ علىٰ كرسيه، كما عرضت في هذه القصة للقضاء، وما يجب أن يكون عليه، وكيف أن الهوىٰ قد استولىٰ علىٰ الناس فأفسد عليهم كلّ شيء.

الثاني عشر نبي الله عيسىٰ ﷺ: عرضت لقصته في سورة آل عمران، والمائدة، ومريم، والزخرف، والحديد، والصف؛ وأهم شيء فيها بعد بيان آياته علىٰ الصدق، وقصة ولادته الخارقة= فتنة الناس به وبأمه، وبراءتهما من عبادة الناس لهما، ودعوة عيسىٰ الناس إلىٰ التوحيد، شأن عباد الله المقرّبين، وحسبنا أنَّ الله يقول في عيسىٰ وأمه: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ﴾ [المائدة: ٧٥]، ويقول: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الزخرف: ٥٩].

كما عرضت في قصته للرأفة والرحمة التي جعلها الله في قلوب أتباعه، وأن أولئك المستعمرين الجبارين ليسوا من أتباع المسيح في شيء.

الثالث عشر نبينا محمد ﷺ: وحسبها أنَّها الدعوة الباقية إلىٰ قيام الساعة، والمتفقةُ في أصولها العامة والأزمنةَ المقبلة، والملائمةُ لرشد الناس وثقافتهم التي أعدهم الله لها في قرونهم الأخيرة.

وقد أردت أن أصوِّر للناس الأسس التي قامت عليها الدعوة، في مرحلتيها بمكة والمدينة، وأريهم الفرق بين القسم المكي من القرآن، والمدني منه، وأنَّ المكي كان يدور حول الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وحول توحيده في الألوهية والربوبية والدعوة إلىٰ العمل الصالح والأخلاق الطيبة.

وعرضت لطوائف من آي القرآن الكريم في هذه الأصول، وتجد من بين هذه الطوائف جدل الناس في الرسالة، وكيف أنَّ القرآن الكريم دفع هذه الشبه حتىٰ قامت حجته علىٰ العصاة والمكابرين؟ كما تجد قسمًا كبيرًا من آي القرآن في الأخلاق والعمل الصالح.

وكذلك عرضت في هذا القسم لوظيفة الرسول، وأنَّها التبشير والإنذار، والقدوة الصالحة، والسيرة المرضية، كما عرضت لتربية الله له، وإعداده لمنصب الرسالة، وكان من تربيته إياه أن قصَّ عليه من سيرة الماضين ما فيه العبرة، ولا غنىٰ لواعظ أو مصلح عن دراسة ذلك النوع من الآيات.

وكذلك عرضت لتعنُّت المشركين مع رسول الله ﷺ، وإحراجه باقتراح الآيات، وتيئيس الله إياه من إيمانهم؛ لأنَّهم معاندون، والمعاند لا يقنع بشيء، وتسلية الله له علىٰ ما لقي من المشركين من شدة، وما قاسىٰ من ألم، وأنَّ ذلك شأن الناس مع المصلحين.

تلك هي الأصول التي كان يدور عليها التشريع بمكة، وهي لا تعدو العقائد، والأخلاق، والدعوة إلىٰ العمل الصالح، لم يفرض الله -تعالىٰ- من العبادات بمكة سوىٰ الصلاة، فرضها في السلم والحرب، والسفر والإقامة.

أمَّا دعوة الرسول ﷺ بالمدينة، فقد كان فيها التشريع الديني والمدني والسياسي والاجتماعي، ولم يُعنَ القرآن الكريم بالعقائد فيها إلا في محاجته لليهود والنصارىٰ في شأن عيسىٰ وأمه، والعزير، وسبب ذلك فتنة فريق من الناس بهم.

ومن أهم ما شرعه الله في المدينة القتال، وقد عرضنا له، وجمعنا كثيرًا من آي القرآن الكريم فيه، لنُري القارئ لماذا شُرع القتال؟ وأنه لم يكن لإكراه الناس علىٰ الدين، بل كان لحماية الدعوة والداعي، حتىٰ يكون الناس آمنين علىٰ دينهم وعقائدهم، ثم عرضنا لآيات الله في التحريض علىٰ القتال، وسلوكه طرائق عجيبة في تهييج النفوس.

وكذلك عرضت في هذه الدعوة لمسألة الإيمان، والكفر، والنفاق، وأنَّ **الناس** كانوا ولا يزالون حيال كل إصلاح **أقسامٌ ثلاثة**: فريق يناصر المصلح ظاهرًا وباطنًا، وهو **المؤمن**، وفريق يعاديه سرًّا وعلانية، وهو **الكافر**، وفريق ثالث يوارب ويداجي، وهو **المنافق**، فيناصره ظاهرًا، ويحاربه باطنًا.

ثم عرضت لخصائص المؤمنين والآيات فيهم، ولخصائص الكافرين كذلك؛ فقد يظن الرجل نفسه مؤمنًا، وهو كافر في واقع الأمر، وقد يزعم أنه من المؤمنين مع أنه من المنافقين، وجديرٌ بالمؤمن أنْ يمعن النظر في آيات الله في المؤمنين، وآياته في الكافرين.

وكذلك عرضت لآيات القرآن الكريم في المنافقين، وذكرت منها قسمًا كبيرًا، وختمت ذلك القسم بسورة المنافقين، ذلك أنَّ المنافقين شر مستطير علىٰ الإصلاح في كل زمان، وما من إصلاح في الأرض سواء كان دينيًّا أم سياسيًّا أم خلقيًّا أم اقتصاديًّا إلا ولهم في إفساده ضلع كبير.

ثم عرضت بعد سوق الآيات في المنافقين إلىٰ: «كبريات العبر في المنافقين» أبنت فيها ما نقاسيه من آثار النفاق والمنافقين، ثم أخذت من آي القرآن الكريم ثلاثة عشر خُلُقًا من أخلاق المنافقين، تجد فيها بحثًا مستفيضًا في الأخلاق والاجتماع، والسياسة، وكيف أنَّ كثيرًا من أصحاب هذه الأخلاق كان شرًّا علىٰ إصلاحنا السياسي والعلمي، بل كان شرًّا علىٰ كل شيء.

أطلت في هذا القسم من أمراض الأمة؛ لأنَّ مصيبتنا به كبيرة، وشقاءنا به عظيم.

ثم عرضت لأشهر الغزوات: غزوة بدر الكبرىٰ، وغزوة أحد، وغزوة الخندق، من طريق القرآن الكريم؛ لأُري القارئ كيف يكون فهمه للحوادث، وانتفاعه بالعبر.

ثم تكلمت علىٰ الزكاة، وبيان حكمتها، وأنها صلة بين الغني والفقير، وطهرة لنفوس الأغنياء من مرض الشحّ، الذي هو خطر داهم علىٰ مصالح الأمة ومرافقها، وكذلك عرضت للصيام وحكمته، وتيسير الله إياه علىٰ عباده، بإسقاطه عن أصحاب الأعذار والمشقات.

وعرضت للحج وفائدته الدينية، والاجتماعية، والسياسية، والخلقية، ولأصول المعاملات العادلة، ونظام البيوت والأسر، ونظام التوريث المبني علىٰ الحكمة والعدل، وللحكومة في الإسلام أساسها الشوريّ.

وختمت الدعوة ببيان العقوبات في الإسلام، ووجه الحاجة إليها؛ من قصاص، وحدّ لقاطع الطريق، وللسارق والزاني والقاذف، وأنَّ ذلك كله مقتضىٰ الحكمة.

تلك هي: «دعوة الرسل إلىٰ الله -تعالىٰ-» أولهم نوح ﷺ، وآخرهم محمد ﷺ، كلها هدىٰ وخير، وحكمة وعبرة، وعِظة وتذكير.

﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

محمد أحمد العدوي

دعوة نوح[1] إلى الله -تعالى-

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ[2] مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٩-٦٤].

---

(١) ورد ذكر نوح ﷺ في القرآن ثلاثًا وأربعين مرة. وتناولت الآيات التي ذكر فيها ثلاثة محاور أساسية، وهي:

١- الحديث عن إرساله، وتفصيل قصته مع قومه، أو التذكير بها.

٢- الحديث عن أهله وقومه، ومصيرهم، والتذكير بهم مقارنة مع أقوام آخرين، وذلك باستقلالية عن الحديث عن نوح ﷺ.

٣- الحديث عنه في سياق غيره من الأنبياء، من حيث: اصطفاؤه مع غيره من الأنبياء، ووحدة الوحي إليهم، وهدايتهم، وأخذ الميثاق عليهم، وتشابه ما شرع إليه، وارتباط الأنبياء بعده بذريته.

وقد وصف نوح ﷺ في القرآن بالرسالة تسع مرات، فيما لم يوصف بالنبوة.

انظر: رسالات الأنبياء، عبد الرحمن حللي، مركز نماء: (٥٨)، القصص القرآني، للخالدي: (١/ ١٥١). (عمرو)

(٢) الأشراف والسادة يجتمعون على رأي، فيملؤون العيون رواءً ومنظرًا، والنفوس بهاءً وجلالًا.

«عمين» جمع عمي، والمراد بهم: فاقدوا البصيرة.

* **شرح وعبرة:**

(١) لقد كان أول شيء بدأ به نبي الله نوح ﷺ قومه أن دعاهم إلىٰ عبادة الله وحده، وسترىٰ ذلك في دعوىٰ غيره، كهود وشعيب وصالح، وغيرهم من الرسل ﷺ، ولا عجب فإنَّ الدعوة إلىٰ التوحيد هي أساس كل رسالة، وقد بذلوا في سبيل التوحيد أكثر وقتهم، وخاطروا بمهجهم وأرواحهم؛ يتجلىٰ ذلك في سيرة نبي الله إبراهيم، وما لاقاه من قومه عبدة الأوثان[1]، ولم يشأ نبي الله نوح أن يدعو قومه إلىٰ التوحيد دعوة خالصة من تخويفهم من عذاب الله وبطشه، فقال بلسان الخائف المشفق: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾، وهو يوم القيامة، أو اليوم الذي ينزل عليهم فيه عذاب العصيان والمخالفة في الدنيا وهو الطوفان.

* **كيف كان جواب قومه؟**

﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾. لم يكن هذا جواب قومه عامة، وإنَّما هو جواب (الأشراف والسادة) الذين امتلأت نفوسهم بحبِّ الجاه والسمعة والرياسة والاستئثار، وهم المترفون الذين قال الله فيهم: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٣٤ وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٤، ٣٥]، يا سبحان الله! إنَّ الذين يسمون أنفسهم الأشراف والسادة هم عقبة الإصلاح منذ نشأ العالم، وهم الذين يحسدون كل داعٍ إلىٰ خير، ويقفون حجر عثرة في سبيل دعوته.

ألا ترىٰ ذلك الملأ من الأشراف والسادة يقول لنبي الله هود ﷺ: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦]، وكذلك الملأ من قوم صالح يقول للمؤمنين منهم ﴿أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ٧٥ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥، ٧٦]، ثم ألا ترىٰ ما يحكيه الله لنا عن شعيب وقومه؛ إذ يقول: ﴿۞ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ [الأعراف: ٨٨]؛ تلك آثار الأشراف والسادة، وهذه أعمالهم مع الرسل وأئمة الإصلاح.

---

(١) يقول ابن تيمية: «وجميع الرسل افتتحوا دعوتهم بهذا الأصل». أمراض القلوب: (٦٠).

(٢) أمَّا جمهرة الشعب الذين سلمت قلوبهم من الضغن، وطهرت من الحسد= فهم أتباع الرسل في كل زمان، وهم أنصار كل داعٍ إلىٰ الحق، وحسبك في فهم هذه السنة أنْ تعرف أنَّ هرقل وهو يسأل أبا سفيان عن محمد بن عبد الله قال له: «**فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ قال أبو سفيان: بل ضعفاؤهم، فقال له هرقل كذلك أتباع الرسل**» [رواه البخاري][(١)].

وحسبك أن تعرف أنَّ صناديد قريش هم الذين ناصبوا الرسول ﷺ العداوة، وقلبوا له الأمور، ومكروا به، ولكن مكر الله كان فوق مكرهم، وتدبيره قضىٰ علىٰ تدبيرهم، ولم يستقر أمر للرسول ﷺ إلَّا بعد أن نكل الله بهم، فمنهم من قتل بأحد وبدر ومنهم من خذل؛ وهنالك استقرّت الدعوة، وظهر أمر الله وهم كارهون.

(٣) وتأمل كيف يسرف الملأ من قوم نوح في الطعن عليه والزراية به، فيقول بصيغة المؤكد: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، وليتهم وقفوا عند رميه بالضلال، بل أرادوا أن يفهموه أنَّ ضلاله جدّ واضح يستطيع كلّ أحد أن يتبيَّنه، فيقول نبي الله لهم: يا قوم ليس بي شيء من الضلال، ولكني رسول من الله المربي لأجساد العالم بالنعم، ولأرواحه بالشرائع، أبلغكم أوامر الله ونواهيه، ومواعظه وزواجره، وأمحض لكم النصح، وأعلم من أمر الله ما لا تعلمونه، فأعلم من صفات الله وقدرته الباهرة، وبطشه بأعدائه ما جهلتم، وأعلم أنَّ بأسه لا يُردُّ عن القوم المجرمين، ثم أراد أن يريهم أنه لم يكن موضع عجب ودهشة أن يجيئهم وعظ علىٰ لسان رجل منهم ليخوّفهم عذاب الله، وليتقوا محارمه، وليهيئهم لرحمة الله ورضوانه، فماذا كان من قومه بعد هذا الرد المتواضع والنصح الخالص؟ لم يكن منهم سوىٰ التكذيب، فأنجىٰ الله نوحًا ومن معه في السفينة من الطوفان، وأغرق المكذبين، وعلل ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾ عن الحق، متغافلين عن الحجة، وقوم هذا حالهم= يستحقون من عذاب الله ما حلّ بهم، **وفي القصة من العبر مقابلة السفه بالحلم**: رموه بالضلال، فكان

---

(١) رواه البخاري: (٧)، ومسلم: (١٧٧٣)، ولفظه: «وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم، فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل». (عمرو)

ردّه عليهم أنَّه ليس به ضلال، ولكنَّه رسول من الله، فكان موقفه موقف المدافع عن نفسه، وأنَّ رميه بالضلال لم يوغر صدره من جهتهم، بل أخذ ينصحهم ويخوّفهم ويريهم أن عليه واجبًا هو تبليغ رسالات الله، وليس من شأن الداعي إلىٰ الله أن يصرفه عن دعوته ما يسمعه من قول ممضّ[1]، أو لفظ منفر. **وإغراق المكذبين**، ونجاة الرسل، وأتباع الرسل، **وتعليل ذلك بعماهم عن الحق.**

(١) أي: محرق، مؤلم. انظر: المحكم: (٨/ ١٦٧). (عمرو)

نوح عليه السلام

﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ(1) عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ(2) ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [يونس: ٧١-٧٣].

---

(١) عظم وشق. ﴿مَّقَامِى﴾: قيامي ومكثي بين أظهركم، ﴿فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ من أجمع الأمر نواه وعزم عليه، والواو بمعنىٰ مع، ﴿غُمَّةً﴾: سترة؛ من غمّه: ستره، ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ﴾ أنفذوه، ﴿ٱلْفُلْكِ﴾ السفينة. ويستعمل في الواحد والجمع، ﴿خَلَٰٓئِفَ﴾ يخلفون الهالكين بالغرق.

(٢) فالإسلام هو «دينه الذي ارتضاه الله لنفسه هو دين الإسلام: الذي بعث الله به الأولين والآخرين من الرسل، ولا يقبل من أحد دينا غيره لا من الأولين ولا من الآخرين.

وهو دين الأنبياء وأتباعهم. كما أخبر الله تعالىٰ بذلك عن نوح ومن بعده إلىٰ الحواريين.

قال تعالىٰ: ﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٧١-٧٢].

وقال تعالىٰ عن إبراهيم: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٠-١٣٢].

وقال تعالىٰ عن يوسف الصديق: ﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

وقال تعالىٰ عن موسىٰ: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤].

وأخبر تعالىٰ عن السحرة، أنهم قالوا لفرعون: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦].

وقال تعالىٰ عن بلقيس ملكة اليمن: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤]. =

* شرح وعبرة:

(١) يأمر الله -تعالىٰ- نبيه محمدًا ﷺ أن يتلو علىٰ قومه قصة نوح وهو يقول يا قوم إن كان قد ثقل عليكم إقامتي فيكم زمنًا طويلًا، وتذكيري لكم بآيات الله فمللتم دعوتي؛ فإنِّي متوكل فيها علىٰ ربي الذي أرسلني، وهو الذي يؤيدني وينصرني، فأجمعوا ما تريدون من أمركم مع شركائكم الذين تعبدونهم من دون الله، ثم لا يكن أمركم الذي تعتزمونه خفيًّا فيه شيء من الحيرة واللبس الذي يقتضي التردّد في الإنفاذ، ثم أنفذوا إليَّ ذلك الأمر بعد إجماعه واعتزامه، ولا تمهلون بتأخير هذا القضاء، فإن انصرفتم عني، فلا حقَّ لكم في ذلك الإعراض؛ لأنِّي ما سألتكم علىٰ هذا التذكير أجرًا ومكافأة، وإنَّما أطلب الأجر من ربي الذي أرسلني، وقد أُمرت أن أكون من المذعنين لما أدعوكم إليه أسلمتم أم كفرتم، ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾؛ فأصروا علىٰ تكذيبه بعد أن أقام لهم الحجة بقوله وعمله علىٰ حقية دعواه، فأنجاه الله ومن معه في الفلك، وجعلهم خلائف من المكذبين، وأغرق المكذبين بآياته، فانظر كيف كان عاقبة الذين خوّفوا من عذاب الله فأصروا علىٰ تكذيبه.

(٢) وفي القصة من العبر أنَّه إذا سأم المدعوُّون من طول مدة الدعوة، فليس للداعي أن يسأم، واعتماد الداعي في دعوته= علىٰ ربه؛ لأنَّ ذلك يملأ قلبه شجاعة وأملًا، واستهانته بكل ما يلاقي في سبيل الدعوة، ويمحص قلبه، ويرفع منزلته، فهذا نبي الله نوح لا يبالي بتجمع قومه عليه، واستعانتهم بشركائهم،

= وقال تعالىٰ عن أنبياء بني إسرائيل: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ [المائدة: ٤٤].

وقال تعالىٰ عن المسيح: ﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢].

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١].

فهذا دين الأولين والآخرين من الأنبياء، وأتباعهم هو دين الإسلام، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وعبادته تعالىٰ في كل زمان ومكان، بطاعة رسله ﷺ.

فلا يكون عابدا له من عبده بخلاف ما جاءت به رسله»، الجواب الصحيح: (١/ ٨٣).

ويأمرهم بأن يجمعوا أمرهم، وينفذوا قضاءهم فيه؛ لأنَّه واثق بأن النصر حليفة، والعاقبة له ولأنصاره.

يلفتك نبي الله نوح إلىٰ مسألة هي جديرة بالاهتمام: هي أنَّه ما سأل قومه أجرًا علىٰ دعوته، والشأن في كل داعٍ لا يطلب أجرًا إلَّا مرضاة ربه أن يكون مخلصًا في دعواه، وهذه نغمة نسمعها من جميع الرسل، وهي جديرة بالعناية، ومقياس صدق الداعي، وبرهان أنَّ دعوته تتصل بالقلب والوجدان، وحسبنا أنَّ الله -تعالىٰ- يقول: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [يس: ٢٠، ٢١]؛ لنعرف أنَّ من لا يسأل الأجر علىٰ دعواه، وهو يعمل بما يدعو الناس إليه= هو داعي صدق، وصاحب عقيدة خالصة، ومبدأ حق يقف عند عقيدته، ويكافح عن مهمته، ويرحب بكل أذًىٰ يناله من ذلك الطريق.

نوح عليه السلام

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٥) أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ
أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦) فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا
بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا(١) بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا
مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَـٰذِبِينَ (٢٧) قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى
رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَـٰرِهُونَ (٢٨) وَيَـٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ
مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَـٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ
قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٩) وَيَـٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣٠) وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ
عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن
يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ (٣١) قَالُوا۟ يَـٰنُوحُ قَدْ
جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم
بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (٣٣) وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ
ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ(٢) هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤) أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ
ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥) وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن
قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ (٣٦) وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا

---

(١) أخساؤنا وأدنياؤنا الذين ليس لهم رزانة عقل أو أصالة رأي، جمع أرذل، والمراد بهم فقراء المؤمنين.
﴿بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ ظرفٌ لقوله: ﴿ٱتَّبَعَكَ﴾، والمراد أنّهم اتبعوه من غير روية ونظر ﴿عميت﴾: أُخفِيت، وقُرِئ: (عَمِيَتْ) -بالتخفيف-: خَفِيَت.

(٢) ﴿يُغْوِيَكُمْ﴾: يهلككم، ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾: اختلقه، ﴿تَبْتَئِسْ﴾: تحزن حزن البائس. ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾: ملحوظًا برعايتنا، ﴿ٱلتَّنُّورُ﴾: وجه الأرض، كما قال: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١١، ١٢]. ﴿وَٱسْتَوَتْ﴾: استقرت. ﴿ٱلْجُودِىِّ﴾: جبل في نواحي «ديار بكر» من بلاد الجزيرة.

تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن
قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ
مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا
ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ
مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ
﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب
مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ
ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ
ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ
ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ
عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي
بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا
وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٨﴾
تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ
ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٢٥-٤٩].

* شرح وعبرة:

(١) يرىٰ قوم نوح أنَّ نوحًا بشر مثلهم يأكل ممَّا يأكلون منه ويشرب ممَّا يشربون، ومن كان كذلك لا يصح أن يكون رسولًا، وهذه الشبهة هي التي قالها أقوام الرسل حينما دعوهم إلىٰ الله؛ ألا ترىٰ إلىٰ قول الله -تعالىٰ- في سورة الأنبياء: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١-٣]، وقد ردّ الله علىٰ هذه الشبهة بقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧، ٨]، وقال في سورة الفرقان: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ

إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا﴾ [الفرقان: ٢٠]، وفي سورة إبراهيم: ﴿قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴿١٠﴾ قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأۡتِيَكُم بِسُلۡطَٰنٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [إبراهيم: ١٠، ١١]؛ فالآيات المذكورة ترينا أنَّ البشرية لا تنافي الرسالة، ولا مانع من أن يمن الله علىٰ بعض البشر فيختاره لذلك المنصب الجليل، ويصطفيه للوحي ينزل عليه ويبلغه للناس، ولله در بعض المفسرين[1] إذ يقول: «**ما أعجب شأن أهل الضلال لم يرضوا للنبوة ببشر، ورضوا للألوهية بحجر**».

(٢) إنَّ أتباعه من أراذل القوم وأدناهم منزلة، كأصحاب المهن الحقيرة من الصناع والعمال، ولو كانت دعوته حقة كان أتباعه من أصحاب العقول الراجحة، والثراء الواسع، وذوي المكانة الذين يتبعونه عن بحث واقتناع، أما أراذل القوم فيتبعونه (بادئ الأمر): بدون روية ولا نظر، ويصح أن يكون تقرير الشبهة علىٰ وجه آخر تفسره القصة في سورة الشعراء: ﴿۞ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]، يريدون أن لا ينبغي أن نتبعك وقد اتبعك سفلة القوم وفقراؤهم، ولا يصح لنا -مع ما نحن فيه من القوة والغنىٰ- أن نكون قرناء لأولئك الأرذلين، فيجمعنا معهم دين واحد، وملة واحدة، وسواء جرينا علىٰ الوجه الأول أو الوجه الثاني فاتباع الأرذلين لنبي الله نوح ذنب له وسيئة من سيئاته، فيعتذر نبي الله لهم بأن لا يستطيع أن يطرد المؤمنين لبساطة عقولهم، أو دناءة مهنتهم، ويقول لخصومه: مَنْ الذي ينصره من عذاب الله إذا هو طردهم عن مجلسه؟ وأبعدهم من عطفه، وما دام صاحب مبدأ وعقيدة فهو يرحب بكل من يعتنق ذلك المبدأ أيًّا كانت مهنته، ولو كانوا من أهل العلم ما عابوا علىٰ نوح أن يتبعه الفقراء والضعفاء؛ لأنَّهم أتباع الرسل في كل زمان ومكان، ولكنَّهم قوم يجهلون سنة الله

---

(١) هو الزمخشري. كما في الكشاف: (٣/ ١٨٣)، وفتوح الغيب: (١٠/ ٥٧١). وانظر: السراج المنير: (٢/ ٥٧٦)، حاشية الشهاب: (٦/ ٣٢٧). (عمرو)

في ذلك، كما يجهلون أنَّ نوحًا ﷺ جاء برسالة من ربه، ويهمه أن تبلغ الناس، ملوكهم وسوقتهم، أغنياءهم وفقراءهم، ولا يستطيع أن يحتقر مؤمنًا لفقره، أو يقدس غنيًا لغناه، تلك هي شبهة قوم نوح علىٰ نوح، وذلك هو ذنبه عند خصومه وأعدائه، وقد يُخيَّل إليك وأنت تقرأ هذه الشبهة أنَّ المستعمرين لبلاد المسلمين وصنائع المستعمرين= قد تمكنت تلك الشبهة من نفوسهم، وتغلغلت في أحشائهم، فأخذوا يدفعون بها في صدور الزعماء، الذين يطالبونهم بالجلاء، ويوهمون الناس أنَّهم لا يعترفون بزعامتهم، ولا ينصاعون لرغباتهم، إلَّا حيث التفت حولهم علية القوم وأشراف الناس، وأصحاب المصالح في البلاد؛ أمَّا الزعماء الذين يؤيدهم سواد الأمة، والرعاع منها، وأصحاب المهن الحرة كالعمال وأرباب الصناعات= فلا يقام لزعامتهم وزن، ولا يعمل لها حساب، يريدون بذلك الغضَّ من قيمة الزعماء، والتخلص من طلبهم، وتعجيزهم عن الاضطلاع بمهمتهم، ومضيهم للحصول علىٰ غايتهم، وهم يعلمون أنَّ انصياع الأشراف والسادة لهم ضرب من المحال؛ لأنَّهم جدّ حريصين علىٰ مصالحهم، يداورون لقضاء حاجاتهم، والإبقاء علىٰ ثروتهم، فلا يستطيعون أن يُعرِّضوا أنفسهم لسخط المستعمرين، وأصحاب النفوذ والسلطان، يقول المستعمرون ذلك لزعماء الأمة، وفي الوقت نفسه يعترفون من قراره قلوبهم أنَّ أولئك الأرذلين، أو رعاع الناس غوغاؤهم= هم الشر المستطير علىٰ المستعمر، وهم الذين يقضون مضجعه، ولا يستطيع أن يجد إلىٰ إرضائهم سبيلًا، وآية ذلك أنه يعمل لهم ألف حساب وحسابًا في بلاده، وكثيرًا ما زلزلوا عروشًا، وأقاموا دولًا، وألفوا علىٰ حسابهم وزارات يُولُونها الثقة، ويناقشونها الحساب.

أولئك هم الذين سماهم قوم نوح ﴿ٱلْأَرْذَلِينَ﴾ ويعيبون نوحًا؛ لأنَّ توابعه منهم، وأولئك هم **الرعاع** الذين يعيبون الزعماء بإصاختهم لدعوتهم وانصياعهم لمبادئهم، وأولئك هم الضعفاء أتباع الرسل في كل زمان ومكان، كما قال هرقل لأبي سفيان حين سأله: أيتَّبِعْه أشراف الناس أم ضعفاؤهم؟ فقال: بل ضعفاؤهم، قال: كذلك أتباع الرسل، وأولئك هم المساكين الذين قال الرسول ﷺ فيهم:

«اللهم أحيني مسكينًا، وتوفني مسكينًا، واحشرني في زمرة المساكين»[1].

(٣) يقول قوم نوح له ولأتباعه: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ يجعلكم أهلًا للرسالة وزعامة الناس في الدين، وعقبوا ذلك بقولهم: ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ وقد اقتصروا في نسبة الكذب إلىٰ نبي الله نوح، فلم يقطعوا به حتىٰ لا يُنسبوا إلىٰ المجازفة، فيجيبهم نبي الله بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ يطالب قومه أن يخبروه إذا كان علىٰ برهان من ربه، ورزقه النبوة بلا كسب منه ولا تعب، وقد خفي عليهم ذلك وجهلوه، فماذا يصنع معهم؟ وماذا يفعل بهم؟ أيلزمهم الاهتداء بالنبوة، ويلجئهم إلىٰ الاعتراف بها، وهم لها كارهون لا يختارونها، ولا يتأملون فيها؟ لا يكون ذلك؛ لأنَّه لا إكراه في الدين، ولا سبيل إلىٰ وصول الدين إلىٰ النفوس إلا بإقبالهم علىٰ الداعي، وعنايتهم بالدعوة، وتفهمها من طريقها الصحيح، ثم ينبِّههم إلىٰ أنَّه لم يقل إنَّ عنده خزائن الله، أو إنه يعلم الغيب، أو يقول إنه ملك فيدعي أنَّه يفضلهم في شيء من ذلك، ولا يحكم علىٰ من استُرذِلوا من المؤمنين لفقرهم أنَّ الله لن يؤتيهم خيرًا لهوانهم عليه، ولو قال ذلك لكان ظالمًا؛ لأنَّ الله أعلم بما في أنفسهم فيحاسبهم عليه، ويجزيهم بما تكنه صدورهم، ويصح أن يراد أنكم زعمتم أن عهد النبوة لا يناله إلَّا من له فضل علىٰ سائر الناس، فأخبروني إن امتزت عنكم بحيازة فضيلة من ربي، وآتاني بحسبها نبوة من عنده، فخفِيَت عليكم تلك المزية، ولم تنالوها، ولم تعلموا حيازتي لها، أنلزمكم قبول نبوّتي التابعة لها، والحال أنكم كارهون لذلك؟ وسواء فهمنا هذا أو ذاك فهو جواب علىٰ قولهم: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ يجعل نوحًا أهلًا للرسالة وزعامة الناس في الدين، وحسبه أن يقيم البراهين علىٰ صدقه في دعوته، وحقِّيَّة ما يقول، ولذلك خلص من ذلك القول إلىٰ دلائل الصدق، فقال: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا﴾ والشأن فيمن لا يسأل الناس مالًا علىٰ قبول دعوته، وأن

---

(١) أخرجه **الطبراني في «الدعاء»**. ورجاله موثَّقون.

قلت: (عمرو) أخرجه عبد بن حميد، في مسنده: (١٠٠٢)، ت: الصعيدي، والترمذي: (٢٣٥٢)، والطبراني في الدعاء: (١٤٢٥)، وانظر في توجيه معنىٰ هذا الحديث. البيهقي في السنن: (٧/ ١٨).

يعمل بما يدعو الناس إليه= أن يكون صادقًا فيما يقول، مخلصًا فيما يدعي.

(٤) ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ يقول قوم نوح له: إنَّه افترىٰ علىٰ الله الكذب، واختلق هذه الدعوىٰ، فيرد عليهم بالمنطق ويقول: إن كنتم صادقين في أنني اختلقته، وجئت به من قبل نفسي= فعليّ عقاب جرمي، وإنْ كنت صادقًا وكذبتموني= فعليكم عقاب ذلك التكذيب، ومن إيجاز القرآن أن يحذف هذه البقية؛ لأنَّ الكلام دالٌّ عليها، وهو كقوله في سورة الأحقاف: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الأحقاف: ٨].

(٥) بعد أن أقام نوح علىٰ قومه الحجة، وشرح لهم وظيفة الرسول، قال له قومه: ﴿يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ استعجلوا عذاب الله، وطلبوا منه الآيات التي تخضع لها أعناقهم، وتذل لها نفوسهم، وجعلوا وقوع هذه الآيات أمارة صدقه، ودليل نبوته، فأخبرهم أنَّ الإتيان بالآيات شأن من شؤون الله، يأتي بها إن شاء، ويؤخرها متىٰ شاء، وسواء أتىٰ الله بالآيات أو أخرها= فلستم بمعجزين له في الأرض، وأراهم أن نصحه لهم لا يجدي إذا كان الله قد طمس علىٰ قلوبهم، وحال بينهم وبين الهداية بما كسبته أيديهم، وبإعراضهم عن الحق.

(٦) بعد ذلك أوحىٰ الله إلىٰ نوح أنَّه لن يؤمن من قومه إلَّا من قد آمن، فلا تحزن لعملهم، وأمره بصناعة الفلك تحت رعايته وبواسطة إلهامه، ونهاه أن يخاطبه في شأن من شؤون الظالمين؛ لأنَّه حقت عليهم كلمة العذاب، واستأهلوا الغرق، فلم يكن من نوح إلَّا امتثال أمر ربه، فأخذ في صناعة الفلك ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ﴾، فيقول لهم ﴿إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ۝٣٨ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ [الأعراف: ٣٨، ٣٩] يريد به عذاب الغرق.

وهنا ينبغي أن نقف وقفة لها مغزاها عند قوله ﴿عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ لننبه القارئ إلىٰ أنَّ من العذاب ما هو مشرِّفٌ لذَاتِ المعذَّب، رافعٌ له فوق الهامات، كالعذاب الذي يحلّ بالرسل عند قيامهم بواجبهم، وعذاب المصلحين وأرباب

المبادئ الحقة حينما يدعون الناس إلىٰ عقائدهم، فأولئك عذابهم مرٌّ علىٰ الأجسام، حُلوٌ علىٰ القلوب، عذابهم رفع لدرجاتهم، وتمحيص لنفوسهم، وهذا عذاب المجاهدين في سبيل الله، والمقاتلين لإعلاء كلمته، يتقدم إليه المؤمنون، ويسارع إليه المخلصون، لا لأنَّه حلو المذاق، لذيذ الطعم، بل لأنَّ من ورائه من النعيم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر، ذلك هو العذاب العذب، الذي يجعل صاحبه مثلًا كاملًا في الفضيلة ونكران الذات[1].

أما عذاب أعداء الحق، وحزب الشيطان، وأنصار الشهوة والهوىٰ، فذلك هو العذاب الذي يخزي صاحبه، ويفضح من وقع به، ذلك هو عذاب أعداء الرسل وخصوم الحقّ.

(٧) بعد أن قضي الأمر، وحلّ بالقوم من الغرق ما حلّ، قال الله للأرض: ابلعي ماءك، وللسماء: أقلعي عن المطر، فلم يكن منهما سوىٰ الطاعة والرضا، فغاض الماء، واستقرّت السفينة بمن فيها علىٰ الجبل المسمىٰ بالجودي، ﴿وَقِيلَ بُعْدًا﴾ وطردًا ﴿لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هنالك نادىٰ نوح ربه، وقال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ

---

(١) ومن شواهد ما ذكره المؤلف ﷺ:

١- عن أنس بن مالك، قال: جاء ناس إلىٰ النبي ﷺ، فقالوا: أن ابعث معنا رجالا يعلمونا القرآن والسنة. فبعث إليهم سبعين رجلا من الأنصار، يقال لهم: القراء، فيهم خالي حرام، يقرءون القرآن، ويتدارسون بالليل يتعلمون، وكانوا بالنهار يجيئون بالماء فيضعونه في المسجد، ويحتطبون فيبيعونه، ويشترون به الطعام لأهل الصفة وللفقراء، فبعثهم النبي ﷺ إليهم، فعرضوا لهم، فقتلوهم قبل أن يبلغوا المكان، فقالوا: اللهم، بلغ عنا نبينا أنا قد لقيناك فرضينا عنك، ورضيت عنا، قال: وأتىٰ رجل حراما، خال أنس من خلفه، فطعنه برمح حتىٰ أنفذه، فقال حرام: فزت ورب الكعبة، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «**إن إخوانكم قد قتلوا، وإنهم قالوا: اللهم بلغ عنا نبينا أنا قد لقيناك فرضينا عنك، ورضيت عنا**»، رواه البخاري: (٢٨٠١)، ومسلم: (٦٧٧).

٢- وفي الحديث: «... قال رسول الله ﷺ: «**قوموا إلىٰ جنة عرضها السموات والأرض**»، قال: -يقول عمير بن الحمام الأنصاري:- يا رسول الله، جنة عرضها السموات والأرض؟ قال: «**نعم**»، قال: بخ بخ، فقال رسول الله ﷺ: «**ما يحملك علىٰ قولك بخ بخ؟**» قال: لا والله يا رسول الله، إلا رجاءة أن أكون من أهلها، قال: «**فإنك من أهلها**»، فأخرج تمرات من قرنه، فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتىٰ آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة، قال: فرمىٰ بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتىٰ قتل»، رواه مسلم: (١٩٠١).

(عمرو)

أَهۡلِي﴾، وقد أغرقته فيمن غرق، وقد وعدتني أن تنجي أهلي، فما بال ولدي؟ فردّ الله عليه ردّ القوي القاهر: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ تأملْ ذلك الحكم العادل الذي فرق بين نوح وبين فلذة كبده، فجعل ولده في جملة الهالكين، وجعل نوحًا في عداد المرسلين المجاهدين، وإنَّها لعبرة كبرىٰ، وآية عظمىٰ، أن يكون الوالد في ناحية، والمولود في ناحية أخرىٰ، الوالد في عداد الناجين، والولد في جملة الهالكين؛ لأنَّ الولد عمل غير صالح، ولعل في هذه القصة عبرة لمن يعتمدون علىٰ أنسابهم، ويتَّكِلون علىٰ غير عملهم، وينسَون قول الله -تعالىٰ-: ﴿أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ۝٣٦ وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ۝٣٧ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ ۝٣٨ وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩ وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ ۝٤٠ ثُمَّ يُجۡزَىٰهُ ٱلۡجَزَآءَ ٱلۡأَوۡفَىٰ﴾ [النجم: ٣٦-٤١].

(٨) ﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ يرينا الله بهذه الآيات أنَّ قصة نوح مع قومه من أخبار الغيب، أوحاها الله إلىٰ محمد ﷺ، ما كان يعلمها هو ولا قومه من قبل هذا، وهي من دلائل نبوته، ثم يختتم القصة بأمره محمدًا بالصبر كما صبر نوح علىٰ قومه؛ فإنَّ العاقبة ستكون له كما كانت لنوح من قبله؛ فإنَّ سنة الله أنَّها تكون للمتقين، يمكن لهم في الأرض، ويجعلهم أئمة، ويجعلهم الوارثين وما أحوج الداعي إلىٰ الصبر والثبات علىٰ الدعوة، وعدم تسرّب اليأس إلىٰ نفسه.

نـوح عليه السلام

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا
تَتَّقُونَ (٢٣) فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ(١)
عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ (٢٤) إِنْ هُوَ إِلَّا
رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ (٢٥) قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ (٢٦) فَأَوْحَيْنَآ
إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن
كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ
ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٢٧) فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ
ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٢٨) وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ (٢٩) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ
وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٣-٣٠].

* شرح وعبرة:

(١) يطالب نبيُّ الله نوح قومَه بعبادة الله وحده في رفق ولين، فيقابله الملأ المستكبر مقابلة منكرة، ويرمونه بأنَّه لا يريد بهذه الدعوة إلَّا أن يتفضل علىٰ الناس ويرأسهم؛ لأنَّه بشر يماثل الناس، وليس له مزية عليهم بها يكون رسولًا، وهي الفرية التي قالها فرعون لنبي الله موسىٰ وأخيه هارون: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٧٨]،

---

(١) يرأسكم. ﴿تَرَبَّصُوا۟﴾: انتظروا، ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾: إلىٰ زمان ينجلي فيه أمره، ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾: بحفظنا وكلاءتنا، ﴿ٱلتَّنُّورُ﴾: وجه الأرض، ﴿ايات﴾: عبر، ﴿مبتلين﴾: مصيبين قوم نوح ببلاء عظيم، أو: مختبرين العباد بهذه الآيات لننظر من يعتبر بها ومن لا يعتبر.

وقد سبق الرد علىٰ شبهة أنَّ نوحًا بَشَرٌ في القصة من سورة هود، أمَّا أنَّ نوحًا يريد أن يفضُل الناسَ ويرأسهم؛ فذلك خلق الأشراف والسادة الذين يريدون أن يتعبدوا الناس، أمَّا الرسل الذين يحملون في حنايا[1] دعوتهم أنَّ كل الناس لآدم، وآدم من تراب، وأنَّه لا فضل لأحد علىٰ أحد إلَّا بالتقوىٰ= فلا حظ لهم من هذه الفرية، لا في قليل ولا كثير، وفي المثل العربي: «**رَمَتْنِي بدائها وانسَلَّت**»[2] الرسل لم يريدوا أن يتفضلوا علىٰ الناس، ولكن عاقبة أمرهم أن يكونوا قادة، وأئمة إصلاح، يلتف الناس حولهم، ويترسَّمون خطاهم، وذلك ما يخشاه المستكبرون وعُبَّاد الشهوة علىٰ أنفسهم، فهم يعلمون أنَّ الرسل ما أرادوا التفضل علىٰ الناس، ولكنَّهم تضطرهم مهمتهم التي كُلِّفوا بها من الله -وهي: خلافته في عمارة الأرض، والإصلاح فيها- أن يكونوا سادة الأمم، حاملين لواء الحق، مكافحين عن بيضة الدين، قدوةً صالحة، ومُثُلًا عالية في الخلق والفضيلة، وإنَّها لعاقبة ما أشدّها علىٰ المستكبرين، الذين لم يريدوا أن يفضلوا الناس بعلم أو عمل، وإنَّما يريدون أن تكون لهم العظمة والعزة؛ لأنَّهم من البيوتات الكبيرة، وأصحاب الثروة الطائلة، فنبيّ الله نوح ﷺ لم يرد أن يتفضل علىٰ الناس، ولم يخطر له ذلك الخاطر علىٰ بالٍ، وإنَّما أراد أن يبلغ رسالات ربه، ويقوم بما أوجبه الله عليه، فإذا عنَّ له أن يفضل الناس؛ فإنَّما يريد أن يفضلهم في أداء الواجب، والاضطلاع بمهامّ الرسالة، والصبر علىٰ الإيذاء، والاحتمال في ذلك السبيل، ممَّا يجعله مضرب الأمثال في الخلق الطيب، والسيرة المرضية، ذلك هو الذي يريد أن يفضُل الناس به، وأنَّ الذي يريد أن يفضل الناس في العلم والعمل، ويواصل الليل بالنهار ليصل إلىٰ ذلك الغرض= هو رجل عالي الهمة، كبير النفس، شريف الغاية؛ أمَّا رجل يريد أن يتفضل بدون فضل، ويمتاز بلا ميزة، فذلك ما يمقته الدين، ولا يرضىٰ عنه خلق، ولا يستسيغه عقل، وهو ما ينبغي أن يحارَب من خُلُق المستكبرين والمتعاظِمين.

---

(١) حنايا: أقواس، مفردها: حَنِيَّة.

(٢) قيل في امرأة عيرت أخرىٰ بعيب فيها، «هذا المثل لإحدىٰ ضرائر رهم بنت الخزرج امرأة سعد بن زيد مناة، رمتها رهم بعيب كان فيها، فقالت الضرة: رمتني بدائها وانسلت». انظر: تهذيب اللغة: (١١/ ٤٤)، زهر الأكم: (٣/ ٦٠). (عمرو)

(٢) يقول الملأ من قوم نوح: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ يريدون لو شاء الله أن تكون هناك رسالة في الأرض لجعلها في الملائكة، وبذلك تكون هذا الجملة متمِّمة لقوله: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾، أو أرادوا: لو شاء الله أن يدلِّلَ علىٰ رسالته لأنزل ملائكة يشهدون له بالرسالة، ويعترفون له بالصدق، ومثله في سورة الفرقان: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧].

وقد ردَّ الله -تعالىٰ- علىٰ الشبهة بشقَّيها في سورة الأنعام: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٨، ٩]، والمراد أنَّ الله -تعالىٰ- لو أنزل معه ملكًا يصدقه، وأجابهم إلىٰ ما اقترحوه من الآيات= لقضىٰ الأمر بإهلاكهم، ثم لا يؤخَّرون ليؤمنوا، بل يأخُذُهم العذاب عاجلًا، أو لقضىٰ الأمر بقيام الساعة، وفي معنىٰ هذا قول الله -تعالىٰ- في سورة الحجر: ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ [الحجر: ٧، ٨]؛ أي: لم يكن من شأن الله أن ينزل الملائكة إلا نزولًا ملتبسًا بالحق، وهو الرسالة للرسل، أو العذاب للأمم المعاندين لهم، وكذلك قول الله -تعالىٰ- في سورة الفرقان: ﴿۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا[1]﴾ [الفرقان: ٢١، ٢٢].

أما الشق الأول من الشبهة فقد ردَّ الله عليه بقوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾، فلو جُعِل الرسول ملكًا لجُعِل الملك متمثلًا في صورة البشر ليمكنهم رؤيته، وسماع كلامه الذي يبلِّغه عن الله -تعالىٰ-، ولو جعله ملكًا في صورة البشر لاعتقدوا أنَّه بشر؛ لأنَّهم لا يدركون إلَّا صورته البشرية التي تمثل بها، وحينئذٍ يقعون في اللبس والاشتباه الذي يلبسون علىٰ

---

(١) هي كلمة استعاذة، وكأنَّ المعنىٰ: أسأل الله أن يحجر ذلك حجرًا، ويمنعه منعًا.

أنفسهم باستنكارهم جعل الرسول بشرًا، ولا ينفكون يقترحون جعله ملكًا.

(٣) يقول قوم نوح: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾، ما سمعنا بنوح أو بدعوة نوح في آبائنا الأولين، وهو يدل علىٰ أنَّهم قوم كانوا في فترة متطاولة[1]، وأنَّهم لمَّا لم يهتدوا إلىٰ معرفة الحق من الباطل، والصدق من الكذب بأنفسهم، رجعوا إلىٰ الآباء، شأن الضعيف الذي لا يثق بنفسه، ويعيش علىٰ حساب غيره، شأنه إذا خرَّ في عنقه الدليلُ، وسدَّ عليه البرهانُ الطرقَ= أن يرجع إلىٰ الآباء فيتمسح بهم، وإلىٰ الأولين فيتحكك فيهم، ذلك إذا كانوا صادقين في تحيرهم لهذه الشبهة، وارتباكهم لذلك التقليد، أمَّا إذا كانوا متعنتين مع الرسل، مشاقين لهم، متقوّلين عليهم ما يعتقدون أنَّهم برآء منه، فشأنهم في ذلك الإعنات أعظم، واجتراؤهم علىٰ ذلك التخلص أشدّ وأنكىٰ، ولم لا يكون هذا أقرب إلىٰ الصواب، وأدنىٰ إلىٰ الحق؟ وقد سمحوا لأنفسهم أن يصفوه بالجنون، وهم يعلمون أنَّه من أرجح الناس عقلًا، وأوزنهم قولًا، وصموه بتلك الوصمة وقالوا في شأنه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ عله بطول الزمن يفيق من جنونه، وينجلي أمره، وهي فرية قيلت لجميع الرسل، ألا ترىٰ إلىٰ قول الله -تعالىٰ-: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣]، كأنَّ بعضهم كان يوصي بها البعض الآخر، ولا عجب فنفوس المستكبرين متشابهة، وشهواتهم متفقة، فلا عجب أن تكون آثارهم في محاربة الحق قد تشابهت، وكلماتهم في الطعن علىٰ المصلحين قد تقاربت، فيقولون لمحمد ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦]، ويقال له في التسلية: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ [فصلت: ٤٣]، فيكون رده علىٰ ذلك الطعن البذيء، والاعتداء الصارخ= أن يلجأ إلىٰ ربه، فيطلب منه النصر علىٰ

---

(١) عن ابن عباس، قال: «كان بين نوح، وآدم، عشرة قرون، كلهم علىٰ شريعة من الحق، فاختلفوا، ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣]»، تفسير الطبري: (٣/٦٢١).

ولم يذكر الله في القرآن رسولًا قبل نوح ﷺ، فهو أول رسول في الأرض، والشرك إنما ظهر في زمانه.

انظر: الرد علىٰ المنطقيين: (٢٨٥)، قاعدة عظيمة، لابن تيمية: (٤٢). (عمرو)

خصومه، فيقول: ﴿رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾: أبدلني من غمّ تكذيبهم لي سلوة النصر عليهم، فيجيب الله دعوته، ويوحىٰ إليه أن يصنع الفلك التي فيها نجاة نوح ومن تابعه، ويأمره أن يحمل فيها ما يحتاجه لحياته وأهله، سوىٰ من حقّت عليه كلمة العذاب، ثم ينهاه أن يخاطبه في شأن الظالمين، وأن يحمد ربه علىٰ نجاته منهم حينما يستقر هو ومن معه علىٰ الفلك، ليستشعر فضل ربه عليه، ومقدار عنايته بالمصلحين، وتنكيله بالظالمين، كما يطلب منه أن ينزله منزلًا يبارك له فيه، وإنه خير المنزلين.

(٤) ولقد كانت آخر كلمات هذه القصة: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ وَإِن كُنَّا لَمُبۡتَلِينَ﴾؛ ليرينا أن في هذه القصة -قصة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ مع قومه- عبرًا عظيمة، تفيد المؤمن، وتنفع الداعي، ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١]، في هذه القصة نزاهة القول، ومقابلة السيئة بالحسنة، واللجوء إلىٰ الله -تعالىٰ- عند الشدّة، وخذلان الله للمفسدين، ونصره للمصلحين وتعليم نبي الله نوح كيف يدعو ربه، ويحمده علىٰ نعمه؛ في هذه القصة هذه الآيات والعبر، وفيها ابتلاء قومه ببلاء عظيم، وعقاب شديد، وابتلاء العباد بهذه الآيات، لينظر من الذي يعتبر ويدّكر، كما قال في سورة القمر: ﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةٗ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ جعلنا الله من المدّكرين بآياته المنتفعين بعظاته.

نـوح عليه السلام

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ
أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ
﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ(١) ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى
بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾
إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى
كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى
ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٠٥-١٢٢].

*** شرح وعبرة:**

(١) يطالب نبي الله نوح كعادته في رفقٍ ولين قومَه بالتقوىٰ، ويريهم أنَّه كان ولا يزال معروفًا بالأمانة فيهم، كمحمد ﷺ في قريش، وما كان له أن يدع الكذب علىٰ الناس، ثم يستبيح لنفسه أن يكذب علىٰ الله، يذكرهم بماضيه معهم، علهم يقدرون قيمة ذلك، وهو رسول أمين بمعنىٰ أنَّه ناصح لهم، فهو

---

(١) سبق شرحها عند الكلام علىٰ القصة من سورة هود، ونزيد هنا أنَّ ابن عباس فسرهم بالغاغة من الناس، وقيل: هم أصحاب الصناعات الدنيَّة كنسج الثياب، والسكافة، وإنَّما استرذلوهم لفقرهم، وقلة نصيبهم من الدنيا. ﴿فَٱفْتَحْ﴾: احكم، والفتاح: الحاكم؛ لأنَّه يفتح المستغلق، كما سمي فيصلًا؛ لأنَّه يفصل بين الخصومات. ﴿ٱلْمَشْحُونِ﴾ المملوء.

أمين في رسالته، ليس له أن يخون في شيء منها، فيبلغها لهم كاملة غير منقوصة، وهي أمانة الله عنده لا يستطيع أن يبدّل فيها أو يغير، كما قال لمحمد ﷺ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧]، وهي من الصفات التي اتصف بها جميع الرسل، وما دام نوح رسولًا من عند الله، أمينًا علىٰ رسالته، فينبغي أن يتلقوها بالقبول ويأخذوها بالرضا، ثم كرَّر أمر قومه بالتقوىٰ والطاعة، وعقب ذلك بما يرشدهم إلىٰ أمانته وصدقه، إذ يقول: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ وعقب ذلك بطلب التقوىٰ والطاعة، شأن المهتم المعنيّ، المتفاني في نجاح مهمته، والحصول علىٰ غايته، فماذا كان منهم بعد هذا التلطف، وماذا أجابوا به بعد تكرار الطلب؟ كان منهم بعد ذلك أن قالوا:

(٢) ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾، فلا يليق بهم -وهم من عليه القوم وسادتهم- أن ينقادوا لنوح وقد اتبعه سفلة القوم وضعفاؤهم، وأصحاب العقول الصغيرة، والمهن الحقيرة، وأين السادة من العبيد، وخاصَّةُ الناس من عامتهم وسوقتهم، وكيف يليق في حكم التقاليد أن يجمعنا بهم مجلس، أو تربطنا بهم رابطة؟ وهم علىٰ ما نعرف من الضَّعَة والفقر، ونحن علىٰ ما ترون من العظمة والجاه، وكيف تتفق الديموقراطية بأوسع معانيها، والأستقراطية بأخص أوصافها، وأين المثقفون وأصحاب العقل الراجح من السذج البسطاء الذين آمنوا بك بادئ الأمر (بدون روية ولا نظر)، فيقول لهم نبي الله نوح: ﴿وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ حاسبوه علىٰ سذاجتهم، وأنهم لم يؤمنوا عن روية وعقل، فقال وأي شيء يعلمني بنياتهم وضمائرهم، وما حسابُهم في ذلك إلا علىٰ ربي لا عليّ، فالله محاسبهم ومجازيهم، وما أنا إلا منذر لو تشعرون ذلك ما وجهتم إليّ لومًا، ولكنكم تجهلون، وتنساقون مع الجهل حيث سيَّركم، وكأنه يلفتهم بذلك إلىٰ إنكار أن يسمىٰ المؤمن رذلًا وإن كان أفقر الناس، وأوضعهم نسبًا، فإن الغنىٰ غنىٰ الدين والخلق، والنسب نسب التقوىٰ، ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إرضاءً

لشهواتكم، وتطييبًا لنفوسكم، ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أخوّفكم عذاب الله وأقيم حجته علىٰ العصاة، وأرباب الشهوات، بطريق بين واضح، فيقولون له:

(٣) ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ آخر سهم في كنانة القوم، لجأوا إلىٰ القوة بعد أن أعوزتهم الحجة، يذكرهم بماضيه معهم، وأنه كان ولا يزال أمينًا، فلا يجديهم ذلك التذكير، ينبِّههم إلىٰ أنَّه لم يطلب منهم أجرًا ولا مالًا، وهو أسبقهم إلىٰ ما يطالبهم به، أبعدهم عما ينهاهم عنه، فلا ينفعهم ذلك التنبيه.

يعتذرون عن قبول دعوته بضَعَةِ أَتْبَاعه وفقرهم، فيريهم أنَّه رسول لا يستطيع أن يطرد مؤمنًا لفقره، ولا أن يقبل كافرًا لغناه، وأنه لا يشق عن قلوب الناس؛ ليعرف من آمن عن اقتناع، ومن آمن بدون نظر وروية، فلا تنفعهم المناقشة، ويقولون له: ﴿يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [هود: ٣٢]، فيريهم أنَّ الإتيان بالآيات لم يكن من شأنه، وإنَّما هو شأن من شؤون الله -تعالىٰ- يأتي به متىٰ شاء، يسلك بهم كل أولئك المسالك، ويترفق بهم إلىٰ حد كبير، فينتهي بهم الأمر أن يهددوه بالرجم بالحجارة، واللجوء إلىٰ الحديد والنار، وهي حجة القوة الغاشمة، لم يكن من نبي الله نوح بعد أن أعذر إلىٰ قومه، وبشر وأنذر إلَّا أن يرجع إلىٰ ربه ويطلب منه أن يفتح بينه وبينهم، فتحًا لا استغلاق بعده، ويحكم له حكمًا يكون فيه النصر لعباد الله الصالحين، والخزي لأعدائه المستكبرين، وما هو إلَّا أن أجاب الله دعوته، فأنجاه ومن معه في الفلك المشحون، وأغرق الظالمين المتعنتين، وهي عبرة ما أبردها علىٰ قلوب المؤمنين ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٣].

نوح عليه السلام

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١ قَالَ
يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ٢ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ
وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ[1] مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ٤ قَالَ رَبِّ إِنِّى
دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ٦ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ
جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ٧ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ
جِهَارًا ٨ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ٩ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا
١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا
١٢ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ١٤ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ
سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ١٥ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ١٦ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ
نَبَاتًا ١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ١٨ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا[2] ١٩
لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ٢٠ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا

---

(١) الوقت المضروب لهم، والمراد أنَّهم إذا أطاعوه أمهلهم ومكنهم من الوقت الذي يعملون فيه؛ فإنَّه إذا جاء الأجل الذي ضربه لوفاتهم لا يؤخر. ﴿وَٱسْتَغْشَوْا۟﴾: طلبوا أن تغاشهم وتغطيهم. ﴿مِّدْرَارًا﴾: كثير الدرور. ﴿جَنَّٰتٍ﴾: بساتين. ﴿وَقَارًا﴾: تعظيمًا منه لكم. ﴿أَطْوَارًا﴾: طورًا بعد طور، وحالًا بعد حال. ﴿طِبَاقًا﴾: بعضها فوق بعض.

(٢) ﴿بِسَاطًا﴾ مبسوطة تتقلبون عليها، كما يتقلب الرجل على بساطه. ﴿فِجَاجًا﴾: واسعة. ﴿كُبَّارًا﴾ مبالغة في الكبر. ﴿تَذَرُنَّ﴾: تتركن. ﴿دَيَّارًا﴾ أحدًا، وهو من الأسماء المستعملة في النفي العام. ﴿تَبَارًا﴾ هلاكًا.

خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا﴾ [نوح: ١-٢٨]

* شرح وعبرة:

(١) ينبهنا الله -تعالىٰ- في هذه السورة إلىٰ أن نوحًا ﷺ أنذر قومه وبشرهم، ووعدهم إذا هم أطاعوه أن يغفر الله لهم ما فرط من الذنوب، ويؤخرهم في تمكن من الطاعة، متمتعين بما سخر الله لهم من خيرات هذه الحياة إلىٰ الوقت المضروب لموتهم، وهو كقوله في سورة هود: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود: ٣].

وأراهم أنَّ أجل الله الذي حدده لهلاك الأمم وعقوبتها إذا جاء لا يمكن تأخيره ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

وقد تمنىٰ نوح ﷺ أنَّه لو كان قومه يعلمون من الله هذه السنن في عقوبة الأمم والشعوب حينما تفسق عن دين الله، وتعصي أمره ونهيه، ووعدهم كذلك أن يرسل السماء كثيرة الدرّ عليهم، فينتفعوا بالماء في الشرب والزرع وحياة الحيوان، ويجعل لهم البساتين والأنهار العذبة.

(٢) ثم رجع إليهم بعد ذلك الوعد، وقال: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾؛ يسائلهم أي شيء يمنعهم أن يرجو من الله تعظيمًا لهم في دار الثواب وقد خلقهم علىٰ أطوار مختلفة، وحالات متفاوتة، فخلقهم من سلالة من طين، ثم جعلهم نطفة في قرار مكين، ثم خلق النطفة علقة، فخلق العلقة مضغة، ثم جعل المضغة عظامًا، فكسا العظام لحمًا، ثم أنشأها خلقًا آخر، فشق لها أذنًا تسمع، وعينًا تبصر، ولسانًا ينطق، ودماغًا يفكر، فتبارك الله أحسن الخالقين؛ إلهٌ له هذه الآيات لماذا ينصرف الناس عنه، ولا يدينون له بالطاعة؟

(٣) ثم قصد إلىٰ طريق آخر يُرغِّب به في طاعة الله، والوقوف عند حدوده، فأخذ يذكرهم بآيات الله في سمائه وأرضه، وما جعل فيهما من نور القمر، وضوء الشمس، وكيف أنبتنا الله من الأرض نباتًا، ثم يعيدنا فيها، ويخرجنا منها عند البعث إخراجًا، وكيف جعل لنا الأرض بساطًا، ومهَّدها للزرع والمشي، لنسلك منها السبل، ونستخرج منها الزرع، ونستخلص منها المعادن.

(٤) شكا نبي الله نوحٌ قومَه إلىٰ ربه، وأنَّه دعاهم ليلًا ونهارًا، فلم يزدهم دعاؤه إلا فرارًا، وأنَّه كلَّما دعاهم سدوا مسامعهم، وتغطوا بثيابهم، حتىٰ لا يسمعوا قولًا للداعي، ولا يبصروه، وأصروا علىٰ عنادهم، واستكبروا علىٰ رسولهم، وقد لوَّن لهم الدعوة، وفاوت بين الأساليب؛ فمرة يخوّف، وأخرىٰ يبشر، ومرة يشتد، وأخرىٰ يلين، ومرة يَعِدُهم بنعم الله، وأخرىٰ يذكرهم بآياته في الآفاق وفي أنفسهم، فلم تنفعهم مع ذلك الموعظة، ولم تفدهم الذكرىٰ، ومكروا بدعوته، وأصروا علىٰ عصيانه ومخالفته، ووصىٰ بعضهم بعضًا بالباطل، وقالوا:

(٥) ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾.

كانت أصنامًا تعبد لقوم نوح، نهاهم عن عبادتها، وواصل الليل بالنهار في تنفيرهم منها، وبعد الجهد الطويل، ومئات السنين التي أنفقها في الدعوة إلىٰ عبادة الله وحده، يوصي بعضهم بعضًا أن لا يدعوا هذه الآلهة، ولا يتركوا أولئك الأصنام، وقد روىٰ المحدثون وعلماء الأثر أنَّ أولئك الآلهة كانت أسماء لرجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحىٰ الشيطان إلىٰ قومهم أن انصبوا إلىٰ مجالسهم التي كانوا يجلسون إليها أنصابًا، وسموها بأسمائهم، ففعلوا فلم تعبد، حتىٰ إذا هلك أولئك، وذهبت علامات تلك الصور عبدت، وقد أخذ نبي الله نوح يشكو من أولئك الأصنام، وإضلالها للناس، أو من رؤوس الكفر الذين يتواصون بالباطل.

(٦) بعد أن عِيلَ صبره[1]، ونفدت جميع أساليبه في الدعوة إلىٰ الله، أخذ

---

(١) (عيل) بكسر العين، وفتح اللام، أي: غلب صبره. انظر: الزاهر في معاني كلمات الناس: (١/ ١٤٠). (عمرو)

يدعو عليهم: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾، ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾، وعلل ذلك بقوله: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا﴾؛ فإنَّهم أئمة الضلال، ورؤوس الكفر، وما داموا علىٰ ذلك الحال فهم خطر علىٰ كل موحد، وحجر عثرة في سبيل الإصلاح؛ لذلك دعا الله أن لا يدع علىٰ وجه الأرض واحدًا منهم؛ لأنَّه إن تركهم أضلوا عباده، وإن ولدوا نشَّأوا أولادهم علىٰ الشرك، وربوهم علىٰ الكفر، ثم أخذ يدعو ربه أن يغفر له ولوالديه، ولمن دخل بيته مؤمنًا، وللمؤمنين والمؤمنات، وما طلب مغفرةً لكافر ولا لمشرك، وإنَّما طلبها لنفسه وأقاربه المؤمنين ولمن دخل بيته منهم، وختم دعاءه بقوله: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارَۢا﴾ وهلاكًا.

(٧) وقد أجمل الله في هذه السورة عقوبة قوم نوح علىٰ مخالفة أمره، فقال: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا﴾؛ ليرينا أنَّه غرقٌ سببه الخطيئة، وأن ذلك الغرق الذي حل بهم لم يستطع أحد أن ينقذهم منه.

ومن مواطن العبرة في القصة أنَّ الله -تعالىٰ- يقول فيهم: ﴿أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا﴾؛ ليرينا أنَّه ليس بينهم وبين أن يدخلوا نار جهنم سوىٰ فترة قصيرة، وأنه لا غنىٰ لهم عن نار الآخرة بعد أن أخزاهم الله في الدنيا بالغرق، فخسروا الدنيا والآخرة بعصيان الله، كما فاز من فاز بسعادة الدارين بطاعته والوقوف عند حدوده.

دعوة هود[1] إلى الله -تعالى-

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ[2] وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً[3] ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ[4] ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ[5] مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ[6] وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ[7] ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٦٥-٧٢].

(١) لم تذكر قصة هود وصالح ﷺ مع قومهما عاد وثمود في التوراة، وكانت هذه القصص معروفة عند العرب قبل الإسلام، وقد ذكر الطبري عددًا من القصص في معرفة العرب بهذه الأقوام، وذكرهم لهم في أشعارهم، انظرها في تاريخ الطبري: (١/ ٢١٧)، وما بعدها.
وقد ذكر هود ﷺ في القرآن عشر مرات، واقترن فيها بذكر قومه، كما انفرد ذكر قومه عاد في سبع عشرة آية أخرى. (عمرو)

(٢) خفة الحلم، وسخافة العقل.

(٣) سعة.

(٤) نعمه، جمع (إلْي)، ك: ضِلَع، وأضلاع.

(٥) نترك.

(٦) عذاب.

(٧) استأصلهم.

* **شرح وعبرة:**

(١) يرينا الله -تعالىٰ- أنَّه أرسل إلىٰ عاد أخاهم هودًا، وسماه أخًا لهم باعتبار النسب، كما يقال في أخوّة الجنس كله: يا أخا العرب[١]، فطالبهم بعبادة الله -تعالىٰ- شأن جميع الرسل، ثم قال: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ ما يسخط الله -تعالىٰ- من الشرك والمعاصي، وهو إنكار من نبي الله هود أن يكون من قومه شرك وعصيان، بعد أن كان من عقاب الله -تعالىٰ- لقوم نوح، وقال في سورة هود: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؛ أي: أليس عندكم من العقل ما يحول بينكم وبين عصيان الله -تعالىٰ- والفسوق عن أمره؟ وغايَرَ بين الأسلوبين لتنويع الفائدة، ودفع الملل عن القارئ، كما هي سنة القرآن في القصص.

(٢) ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ الملأ: الأشراف والسادة، وقيَّد الملأ هنا بذلك الوصف، وهو الذين كفروا، دون الملأ من قوم نوح؛ لأنَّ في أشراف قوم هود من آمن به، ولم يكن في أشراف قوم نوح مؤمن[٢]، ونحوه قوله -تعالىٰ-: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [المؤمنون: ٣٣]، ويجوز أن يكون وصفًا واردًا للذم لا غير، وقد وصفوا نبي الله هودًا بأنهم يرونه في سفاهة، وهو أبلغ في الذم من قولهم: نراك قد سفهت؛ لأنَّهم أرادوا بالظرفية علىٰ سبيل المجاز أنه متمكن فيها[٣]، غير منفك عنها، ثم زادوا علىٰ ذلك أنَّهم يظنونه كاذبًا في جملة الكاذبين في دعوىٰ الرسالة عن الله -تعالىٰ-، وهو يتضمن تكذيب كل رسول، إذ عبَّروا عن أصحاب هذه الدعوىٰ بالكاذبين، وجعلوا هودًا واحدًا منهم، فكان رد نبي الله عليهم غايةً في الأدب والإغضاء[٤]، إذ ترك مقابلتهم بالمثل، مع علم

---

(١) انظر: الغريبين، لأبي عبيد: (١/ ٥٥)، قال: «وقوله: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ جعله أخاهم؛ لأنه وإياهم ينتسبون إلىٰ أب واحد، كما يقال: يا أخا العرب: يا صاحب العرب، والمعنىٰ أرسلنا إلىٰ عاد هودًا أخاهم». (عمرو)

(٢) انظر: مفاتيح الغيب: (١٤/ ٣٠٠)، ملاك التأويل: (١/ ١٩٢). (عمرو)

(٣) مراد المؤلف أن الظرف الذي أفاده حرف الجر (في) تعبير مجازي عن تمكنه في السفاهة، حتىٰ كأنه محيط به من جوانبه إحاطة الظرف بالمظروف. (عمرو)

(٤) أي: الصبر. (عمرو)

نبي الله أن خصومه أضل الناس وأسفههم، وفي ذلك من الأدب الحسن، والخلق العظيم ما يتناسب مع مركز الدعوة إلىٰ الله -تعالىٰ-، والإرشاد إلىٰ طريقه، فأخذ يريهم أنَّه لم يكن به شيء من السفاهة، ولكنه رسول من رب العالمين، مهمتي أن أبلغكم رسالات ربي، وأنا لكم ناصحٌ فيما أدعوكم إليه؛ لأنَّ فيه سعادتكم، أمينٌ علىٰ ما أقول عن الله -تعالىٰ-؛ فإنِّي لا أكذب عليكم حسب ما عوَّدتكم من سيرتي، فكيف لا أستبيح الكذب عليكم وأستبيحه علىٰ ربي ﷻ؟ ﴿أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾، أي: أكذبتم وعجبتم أن جاءكم موعظة من ربكم علىٰ لسان رجل منكم ليحذركم عذاب الله، ثم أخذ يذكر فضل الله عليهم علَّهم ينتفعون بذلك النوع من التذكر، فأمرهم أن يذكروا في نفوسهم أن الله -تعالىٰ- جعلهم خلفاء في الأرض من بعد قوم نوح، وزادهم سعة وبسطة في الخلق، بسعة الملك والحضارة، ثم أعاد عليهم أن يذكروا نعم الله عامَّةً؛ رجاء أن يفلحوا بذلك الذكر، وهو يشبه قول نبي الله نوح: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: ١٥-٢٠]؛ يلوِّن لهم الخطاب، ويتفنن في أسالب الدعوة، فمرة يخوفهم، وأخرىٰ يبشرهم، وأحيانًا يذكرهم بنعم الله عليهم، وآونةً ينذرهم عذابه وبطشه.

(٣) فكان جوابهم بعد ذلك كله أن قالوا: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ فأنكروا عليه أن يجيئهم بالتوحيد، وترك ما كانوا عليه من شرك وأصنام كان يعبدها الآباء، ثم قالوا له ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في إنذارك، أو في دعواك أنك رسول من رب العالمين، فيقول الرسول لهم بعد هذه المقابلة المنكرة، والتحدي المكشوف، بلسان الواثق من وعيد ربه، المطمئن لنصره ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ وذكر الغضب بعد الرجس لبيان أن الرجس قد أريد به الانتقام الحتم، فلا يمكن رفعه، ونعوذ بالله من رجس معه غضب، والرجس الذي توعدهم به نبي الله هود هو العذاب الذي بينه الله في سورة القمر، إذ يقول: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى

وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا[1] فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ[2] ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾﴾ [القمر: ١٨-٢١]، ثم قال لهم منكرًا عليهم: أتخاصمونني في أسماء وضعتموها أنتم وآباؤكم الذين قلدتموهم علىٰ غير علم ولا هدىً منكم، ما أنزل الله بها من حجة ولا سلطان، فانتظروا نزول العذاب الذي طلبتموه إني معكم من المنتظرين، فكان عاقبة أمره أن نجاه الله ومن آمن معه برحمة عظيمة من الله -تعالىٰ-، واستأصل أعداءه بريح ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٥].

(١) ذات صوت شديد عاتية.

(٢) تصرعهم علىٰ الأرض ﴿مُّنقَعِرٍ﴾: قُلِع عن منابته، وزال عن أماكنه.

هود عليه السلام

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ
إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ۚ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا[1]
وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ[2] وَمَا
نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ[3] بَعْضُ
آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ۗ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا
ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ۚ إِنَّ
رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا
غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ[4] ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا
وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ
وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا
إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ[5] قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: ٥٠-٦٠].

---

(١) كثيرة الدرور كالمغزار.

(٢) حجة.

(٣) مسّك، وأصابك.

(٤) رقيب.

(٥) دعاء بالهلاك.

* شرح وعبرة:

(١) يرينا الله -تعالىٰ- في هذه السورة أنَّه أرسل إلىٰ عاد أخاهم هودًا، وأنه دعاهم إلىٰ عبادة الله وحده، ثم قال لهم: إنَّكم مفترون علىٰ الله الكذب باتخاذ الأوثان شركاء له، ثم أراهم أنه لم يطلب علىٰ دعوته أجرًا منهم، وإنَّما يطلب الأجر من الله -تعالىٰ-، وإنَّك لو قرأت دعوة الرسول جميعهم لرأيتهم جميعهم يواجهون قومهم بذلك القول؛ ليعرفونا أنَّ شأن الرسول تمحيض النصح لأقوامهم، وذلك لا يكون إلا حيث خلت دعوتهم عن المطامع، وتمخضت لإرضاء الله -تعالىٰ-، والرغبة فيما عنده من ثواب، ولذلك عقب ذلك بقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؛ إذ تردون نصيحة من لا يطلب أجرًا إلا من الله، ثم أخذ يدعوهم إلىٰ استغفار الله -تعالىٰ- من الشرك السابق وإلىٰ الإيمان به، ويريهم أنَّ ذلك الاستغفار يكون سببًا في إرسال السماء عليهم بالأمطار كثيرة الدرور، وفي أن يزدادوا قوة إلىٰ قوتهم، فقد كانوا أقوياء، واستكبروا في الأرض بسبب قوتهم: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، فوعدهم الله -ووعده الحق- أنَّهم إن آمنوا بربهم؛ ازدادوا قوة علىٰ قوتهم، ثم قال لهم: ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾، لا تعرضوا عني وعمَّا أدعوكم إليه مُصِرِّين علىٰ إجرامكم وآثامكم.

(٢) فكان ردّهم علىٰ هود نبي الله ورسوله أن قالوا: ﴿يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾، وهو كذب منهم وجحود، كما قالت قريش لرسول الله ﷺ: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ مع فوت آياته الحصر. ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾: لا ندع آلهتنا صادرين في ذلك الترك عن قولك ونصحك، بل سنظل لها عابدين، ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ إقناطًا له من الإجابة، وتيئيسًا له من الإيمان، ثم لم يقفوا من نبي الله عند ذلك الحد، بل قالوا في سبب دعوته لهم: إنَّ آلهتهم التي يعبدونها قد مسته بسوء، وخبل، لصدِّه الناس عنها، وعداوته لها، ومن أجل ذلك يهذي في نظرهم هَذَيان المجانين، وقد دلَّت أجوبتهم أنَّ القوم كانوا جفاة، غلاظ الأكباد، لا يبالون بالبهت ولا يلتفتون إلىٰ النصح، ولا تلين شكيمتهم[١]

(١) فُلَان شَدِيد الشَّكِيمة، أي شَدِيد النَّفس.
انظر: جمهرة اللغة: (٢/ ٨٧٨)، تهذيب اللغة: (١٠/ ٢٢)، مقاييس اللغة: (٣/ ٢٠٦). (عمرو)

للرشد، ولا سيما قولهم: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾؛ فإنَّه يدل علىٰ جهلٍ مفرط، وبَلَه مُتَنَاهٍ، حيث اعتقدوا في حجارة أنَّها تنتصر وتنتقم، ولعلهم حين أجازوا لها أن تعاقب كانوا يجيزون لها أن تثيب.

(٣) فكان من نبي الله بعد ذلك التهديد أن قال لهم: ﴿إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾، ومن أعظم آيات الصدق، والإخلاص أن يواجِه بهذا الكلام رجلٌ واحد أمَّةً عطاشًا إلىٰ إراقة دمه، يرمونه عن قوس واحدة؛ ثقةً بربه أن يعصمه منهم فلا تنشب فيه مخالبهم، ومثل ذلك قول نوح عليه السلام: ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾، وانظر إلىٰ قوله: ﴿فَكِيدُونِى جَمِيعًا﴾ يريد أنَّني لا أبالي بكم وبكيدكم، ولا أخاف معرتكم وإن تعاونتم عليّ، وأنتم الشداد الأقوياء، فكيف تضرني آلهتكم، وما هي إلا جماد، وكيف تنتقم مني إذا نلت منها، وصددت عن عبادتها، بأن تخبلني وتذهب بعقلي. نعم؛ إنَّ هذه آية من آيات الله في أنصار الحق، وعبرة من العبر، من آيات الله فيهم أن يزيل من قلوبهم هيبة الظالمين، وخشية المفسدين؛ لأنَّ قلوبهم امتلأت بالخشية من الله والخوف منه، ولأنَّهم واثقون بضعف كيد الشيطان، وأنصار الباطل، وقد أرانا الله -تعالىٰ- أنَّ الباطل لَجْلَج، وأنَّ الحق واضح أَبْلَج، وأنَّ العاقبة لأوليائه، والخذلان لأعدائه، وقدوتنا الحسنة في ذلك أئمة الهدىٰ، وهداة البشر، مَن اختارهم الله -تعالىٰ- لقيادة الناس، وسعادة الإنسانية، فهم الذين يرسمون لنا طريق الدعوة، ويعرفوننا الاستهانة بالباطل، وإكبار الحق، ومن أجل ذلك كانوا أشجع الناس قلوبًا، وأوثقهم عقيدة، وأربطهم جأشًا، تضطرب الأرض ومن عليها بفساد المفسدين وهم لا يضطربون، وتضجّ من هول الجبابرة والمستكبرين، وهم علىٰ دينهم دائبون، وبدعوتهم معتصمون، وعلىٰ ربهم متوكلون، وانظر إلىٰ قوله بعد ذلك التحدي: ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾؛ لتعلم سر هذه الشجاعة النادرة، والثقة الغالية، سرها أنه متوكل علىٰ ربه، معتصم بمولاه ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١]، وجديرٌ بمن يتوكل علىٰ ربه، ويلجأ إلىٰ خالقه أن يبدل خوفه أمنًا، وضعفه قوّة، ويرزقه عزًّا لا ينقطع، وقوّة لا تقف عند حدّ ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨]. وما أحوج

الداعي إلىٰ الله لذلك التوكل، وتفويض الأمور إلىٰ الله -تعالىٰ-، والاستعانة بالصبر والرضا، وطلب الأجر منه -تعالىٰ-، ثم وصف الرب الذي توكل عليه، ووثق به في حفظه وكلاءته بما يوجب التوكل عليه، فقال: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ﴾، والناصية: منبت الشعر في مقدم الرأس، وإذا وصفوا إنسانًا بالذلة والخضوع قالوا: ما ناصية فلان إلَّا بيد فلان، يريد أنَّه مطيع له؛ لأنَّ كل من أَخَذْت بناصيته فقد قهرته؛ أي: ما من حيوان إلا تحت قهره وقدرته ومنقادٌ لقضائه وقدره، ثم ختم ذلك بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ يريد أنَّه علىٰ طريق الحق والعدل في ملكه، لا يفوته ظالم، ولا يضيع عنده معتصم به.

(٤) ثم أراهم أنَّهم إن أعرضوا عنه بعد ذلك فقد قام بما أوجبه الله -تعالىٰ- عليه، وأبلغهم رسالات ربه فلا يعاقَب علىٰ تفريط في الإبلاغ، وهم الذين يعاقَبون علىٰ عنادهم، وامتناعهم من إجابة داعي الحق، ثم توعدهم بأنَّ الله -تعالىٰ- سيستخلف قومًا غيرهم في ديارهم وأموالهم بعد أن يُهلِكَهم، كما قال في سورة محمد: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨]. ولا تضرون ربكم شيئًا من الضرر بذلك التولي، وإنَّما تضرون أنفسكم، ثم علَّل ذلك بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ﴾ فما تخفىٰ عليه أعمالكم، ولا يغفل عن مؤاخذتكم.

(٥) ثم أرانا أنَّه لمَّا جاء أمر الله بالعذاب= نجَّىٰ هودًا والذين آمنوا معه من ذلك العذاب؛ أي: بسبب رحمةٍ من الله لهم، وهي ما هداهم إليه من الإيمان به والعمل الصالح، ثم أراد الله أن يرينا مقدار فضله عليهم في هذه التَّنجِيَة، فقال: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾، وقد شرح القرآن الكريم ذلك العذاب الغليظ في سورة الذاريات: ﴿وَفِي عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ ٤١ مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤١، ٤٢][1]، وكذلك في سورة الحاقة: ﴿وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ٦ سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗاۖ فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ ٧ فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ﴾ [الحاقة: ٦-٨]، والريح الصرصر: ذات الصوت الشديد لعتوِّها وشدتها، ﴿حُسُومٗاۖ﴾: متتابعة، ثم

---

(١) التي لا تُلَقِّح سحابًا ولا شجرًا، ﴿الرميم﴾: الفتات من الخشب والتين.

قال مهدِّدًا لقريش، ومَن علىٰ دين قريش، ﴿وَتِلْكَ عَادٌۖ﴾، فسيحوا في الأرض وانظروا إلىٰ قبورهم، واعتبروا بآثارهم، ﴿وَتِلْكَ عَادٌۖ﴾ التي نَسِيَت ربها، واعتزَّت بسلطانها وقوتها، واغترَّت بأبهتها وعظمتها ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةًۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ[1] لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٥، ١٦]، ثم أراد أن يبين سبب ذلك العذاب، فقال: ﴿جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾، والجحود: نفي ما في القلب إثباته، وإثبات ما في القلب نفيه، ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤] ترينا الآية أنَّ أولئك أنكروا آيات الله لا عن شبهة في أنفسهم، بل الذي حملهم علىٰ الإنكار= الظلم والاستكبار، أما قلوبهم فهي مستيقنة بها، مقتنعة بأحقِّيتها. وقال في سورة العنكبوت: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت]، وقال ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]؛ من ذلك كله نعرف أنَّ عادًا جحدوا بآيات ربهم وهم يعلمون أنها حق من عند الله، وذلك هو السبب الأول للعذاب الذي حلَّ بهم؛ أما قوله: ﴿وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ﴾، ومثله ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ مع أنهم لم يعصوا إلا رسولهم وهو هود ﷺ، فهو يرينا أن من يعصي رسولًا واحدًا فقد عصىٰ جميع الرسل؛ لأنه عصاه من أجل رسالته، وخالفه مع قيام الحجة علىٰ حقِّية دعوته، فصار عاصيًا لكل الرسل؛ لأنَّهم جميعهم أُرسِلوا لإصلاح الخلق، وإقامة الحجة علىٰ أرباب الشهوة والهوىٰ، ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ وهي كلمة لها خطر علىٰ قوم يدعون الإيمان ببعض الرسل؛ كموسىٰ وعيسىٰ ﷺ، ثم هم مع ذلك ينكرون الإيمان بمحمد ﷺ، ولو كانوا صادقين في دعوىٰ الإيمان برسولهم لآمنوا بسائر الرسل؛ فإنَّه لا فرق بين رسول ورسول، فإذا كان عيسىٰ رسولًا حقًّا لأنَّه أقام البينة علىٰ دعواه، فمحمد كذلك أقام البينة علىٰ دعواه، أما أن نتعصب لبعض الرسل، ونبحث في أدلَّته وبراهينه، ثم نغمض العين عن رسولٍ

(١) مشؤومات.

آخر، فذلك ما لا يرضاه الإنصاف، وحسبنا أنَّ القرآن الكريم يقول في ذلك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٥٠-١٥٢].

وقوله: ﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ يرينا أنَّ أولئك الأقوام استمعوا إلىٰ رؤسائهم وكبرائهم في الكفر والضلال، وأطاعوهم طاعةً عمياء، فأضلوهم السبيل، فكان جزاؤهم علىٰ ذلك الجحود وعصيان الرسل، وتقليد الرؤساء= أن أُتبِعوا لعنة، وبُعدًا عن رحمة الله في هذه الحياة، ثم لعنة أخرىٰ يوم القيامة، تحول بينهم وبين مواطن الكرامة.

ثم أَخَذَ ينبِّه النفوس إلىٰ ما حاق ويحيق بأولئك التعساء في الدنيا والآخرة، فقال مهوِّلًا لأمرهم، ومفظِّعًا له: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾: دعاء بالهلاك بعد وقوعه، ليرينا أنَّهم قد استأهلوه بعملهم، واستحقوه بجحودهم وعصيانهم، وقوله ﴿قَوْمِ هُودٍ﴾ ليرينا أنَّ عادًا نوعان: **عاد الأولىٰ** وهو **قوم هود**، وأنَّ ذلك العذاب الذي بينه في هذه القصة هو لهم، **والثانية** هم **إرم ذات العماد**، فذكر ذلك لإزالة الاشتباه(١).

(١) قال الطبري: «وقوله: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ﴾ [النجم: ٥٠] يعني تعالىٰ ذكره بعاد الأولىٰ: عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح، وهم الذين أهلكهم الله بريح صرصر عاتية، وإياهم عنىٰ بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ﴾ [الفجر: ٦، ٧].

وإنما قيل لعاد بن إرم: عاد الأولىٰ، لأن بني لقيم بن هزال بن هزيل بن عبيل بن ضد بن عاد الأكبر، كانوا أيام أرسل الله علىٰ عاد الأكبر عذابه سكانا بمكة مع إخوانهم من العمالقة، ولد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح، ولم يكونوا مع قومهم من عاد بأرضهم، فلم يصبهم من العذاب ما أصاب قومهم، وهم عاد الآخرة، ثم هلكوا بعد وكان هلاك عاد الآخرة ببغي بعضهم علىٰ بعض، فتفانوا بالقتل»، تفسير الطبري: (٢٢/٨٦)، وانظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: (١/٢٩٩-٣١٤). دراسات في تاريخ العرب القديم، محمد بيومىٰ مهران: (١٤٥). (عمرو)

هود عليه السلام

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ
﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾
أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ[1] ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ[2] لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا
بَطَشْتُم[3] بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾
أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا۟
سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ[4] ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ
بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ
ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٢٣-١٤٠].

* شرح وعبرة:

(١) الجديد في هذه السورة أنَّ نبي الله هودًا عليه السلام بعد أن دعاهم إلىٰ التقوىٰ، وعرفهم أنَّه رسول أمين، لا يسألهم علىٰ تبليغهم رسالة الله أجرًا، بعد ذلك كله أخذ ينهاهم أن يتخذوا بكل مكان مرتفع من الأرض بناءً شامخًا هو آية للناس، وعَلَم ظاهر يلفت نظر كل من يراه، وأنَّهم لم يبنوا أولئك الآيات لأغراض صحيحة، ومصالح تعود عليهم بالنفع، وإنَّما كانوا عابثين لاعبين، فكانوا سفهاء في بعثرة المال، وإضاعة الثروة، وما أكثر هؤلاء في زماننا، ما

(١) المكان المرتفع الذي يبدو من بعيد، و﴿ءَايَةً﴾: بناءً عاليًا، وقيل: العلم.

(٢) جمع مصنعة. كالحوض يجمع فيها ماء المطر.

(٣) البطش: تناول الشيء بصولة، ﴿جَبَّارِينَ﴾: قاهرين.

(٤) عادة.

أكثر البانين للعب والعبث، والمشيِّدين للرياء والفخر، وما أضيع المال في أيدي أولئك السفهاء العابثين، وما أحوجهم إلىٰ أوصياء يضربون علىٰ أيديهم، ويَحُولُون بينهم وبين ذلك العبث، وهي دعوة من نبي الله هود ﷺ إلىٰ الاقتصاد وتوفير المال، ووَضْعِه حيث يفيد ويثمر، وما فائدة الأمة من قصر مشيد قد بذل في بنائه عشرات الآلاف من الجنيهات؟ ما فائدة الأمة من ذلك القصر الذي يلهو به ويتمتع رجلٌ واحد، والملايين من الأمة لا تجد ما تأكل، ولا تعرف أين تعيش؟ نعم إن ذلك القصر وأمثاله يكون قذًىٰ في عين كل عاقل، ما دامت مرافق الأمة ضائعة، وصناعاتها معطلة، وأيديها العاملة لا تجد مكانًا تعمل فيه، ولعل لأغنيائنا الذين لم يعرفوا قيمة للمال ولا منزلة للثروة، أن يعتبروا بتلك النصيحة، فيبني الثري منهم علىٰ قدر متاعه، غير لاعب ولا عابث، ذاكرين أن المال قد جعله الله قيامًا للناس في معاشهم ومصالحهم، وأنَّهم خلفاء الله فيه، وسيحاسبهم عليه الحساب العسير، كما يحاسبهم علىٰ كل نعيم ينعمون به، كما ينكر عليهم نبي الله أن يتخذوا مآخذ للماء يجمعونه فيها كالأحواض، راجين أن يخلدوا في هذه الحياة؛ فنبي الله لم ينكر عليهم بناء الآيات، وإنَّما أنكر عليهم أن يعبثوا بذلك البناء، ولم ينكر عليهم اتخاذ المصانع، بل أنكر عليهم رجاءهم الخلود بها، ونسيانهم الموت وما بعد الموت، ثم قال لهم: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ يريد أنكم قساة غلاظ، إذا سُلِّطتم علىٰ من هو دونكم في القوة= كان بطشكم بهم بطش جبابرة، لا ترعون له عهدًا، ولا تعملون لجواره حسابًا.

وما أقرب ذلك الوصف الذي يصف به نبي الله هود قومه عادًا إلىٰ غلاة المستعمرين، ودول الحضارة اليوم، إذا سلطهم الله علىٰ شعب من الشعوب بطشوا به بطش الجبابرة، وأذاقوه العذاب ألوانًا؛ فيَتَّموا الأطفال، وسَبَوا النساء، وهتكوا الحرمات، ومزقوا المصاحف، وقتلوا الأبرياء، وهذه آثارهم في كل مكان تشيب الطفل، وتضج لها الإنسانية، ويغيض لها ماء الحياة.

(٢) ثم أخذ يكرر مطالبتهم بالتقوىٰ والطاعة، ويذكرهم بما أمدَّهم الله به من أنعام وبنين، وجنات وعيون، ويخوِّفهم من عذاب الله إذا هم خالفوه، فكان جوابهم بعد تلك العِظَة أن قالوا له: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ

﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ لم يبالوا بوعظه، ولم يعملوا حسابًا لتذكيره، فسيَّان عندهم كلامه وسكوته، وما عكوفهم علىٰ آلهتهم إلا عادة من سبقهم من الأمم، وتقدمهم من الآباء والجدود، ولا غنىٰ لهم عن سنة آبائهم، وتقليد أسلافهم، ولم يريدوا أن يقفوا من نبي الله عند ذلك الحد، بل قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ علىٰ ذلك الشرك، ولا ندري بأي حجة يضمنون لأنفسهم النجاة من العذاب، إذا كانوا مؤمنين بالحساب، ولعلهم أرادوا بقولهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أنَّ ما نحن عليه من حياة وموت إن هو إلا عادة لم يزل عليها الناس من قديم الدهر، فليس هناك ثواب ولا عقاب، ولا جنة ولا نار، كما يقول الدهريُّون، ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤]، ثم أرانا أنَّهم كذبوا نبي الله هودًا فأهلكهم الله بذلك التكذيب، وأنَّ في ذلك التكذيب عبرةً للمعتبرين، وما كان أكثر قوم هود مؤمنين، وإن ربك ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب علىٰ أمره، لا يفلته ظالم، ولا يعجزه متكبر، وهو رحيم بالناس في عقوبتهم، لطيف بهم في معاملتهم، ومن ناحية أخرىٰ يرينا أنَّه مع عزتِه وقهرِه هذا= واسعُ الرحمة، ورحمته سبقت غضبَه.

دعوة صالح[1] إلى الله -تعالى-

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ[2] مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ[3] فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟[4] ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ[5] فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ[6] ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٣-٧٩].

---

(١) ورد ذكر صالح ﷺ في القرآن تسع مرات. واقترن فيها بذكر قومه كما انفرد ذكر قومه ثمود في عشرين آية أخرى، وتتشابه دعوة صالح ﷺ مع دعوة هود ﷺ. (عمرو)

(٢) آية واضحة.

(٣) أنزلكم فيها، وجعلها مباءة لكم.

(٤) نحروا، ﴿عَتَوْا﴾: تمرّدوا مستكبرين.

(٥) الزلزلة.

(٦) باركين على ركبهم من شدّة الهول.

*** شرح وعبرة:**

(١) يرينا الله -تعالىٰ- أنَّه أرسل إلىٰ ثمود أخاهم في النسب والوطن صالحًا، وقد سمَّاه أخًا بذلك الاعتبار؛ سئل الإمام **عبد الله بن أبي ليلىٰ** عن اليهودي، والنصراني يقال له أخ؟ فقال الأخ في الدار، واستدل بالآية، رواه **أبو الشيخ**[١]، وقد قال لهم نبي الله بعد أن طالبهم بعبادته وحده شأن بقية الرسل: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، وقد أرانا الله في قصة صالح من سورة هود أنَّه أراهم آية في الناقة بعد ردِّهم لدعوته، وتصريحهم بالشك في صدقه، وجاء في سورة **الشعراء** أنَّهم طلبوا منه الآية وتحدوه بها؛ إذ قالوا: ﴿فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ ومن مجموع السور نعرف أنَّ الدعوة إلىٰ الله -تعالىٰ-، والتخويف من عذابه وبطشه كانت أولًا، والإتيان بالآية بعد طلبها كان ثانيًا، ولم يُعْنَ القرآن بترتيب الحوادث فيذكرها علىٰ نسبة أوقاتها؛ لأنَّ القرآن لم يكن كتاب تاريخ جاء لتحديد الحوادث، وبيان أوقاتها، وإنما هو كتاب عبرة ببيان سنن الله -تعالىٰ- في البشر، وهداية الرسل ﷺ، ولذلك ترىٰ القصة الواحدة فيها الإجمال والبسط، والتقديم والتأخير، وفيها زيادات في بعض السور لم تكن في البعض الآخر، وكلها صحيحة، لا يتنافىٰ إجمالها وتفصيلها، ولا يتناقض ما فيها من زيادات، بل يكمل بعضها بعضًا، وقوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ للإعلام بأن هذه الآية لم تكن من عمل نبي الله صالح، ولا ممَّا ينالها كسبه ﷺ، شأن ما يؤيد الله -تعالىٰ- به الرسل من خوارق العادات، ومنه نعلم أن الخوارق لم تكن من كسب الصالحين بالأولىٰ.

(٢) وقد بين البينة التي جاء بها، فقال: ﴿هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وقد وصف العذاب في سورة الشعراء بالعظيم، فهو أليم وعظيم، ووصفه في سورة هود بالقريب، وهو أنه يقع بعد ثلاثة أيام من مسِّهم لها بسوء، وقد أضاف الناقة إلىٰ اسمه الكريم تعظيمًا لشأنها، وقيل لأنَّه لم يكن لها مالك، وقد أراهم الله أن الماء الذي سخره لهم قسمه بينهم وبين تلك الناقة، تشرب منه يومًا، ويشربون

---

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور: (٣/ ٤٨٩)، وانظر: تفسير المنار: (٨/ ٤٦٦). (عمرو)

منه يومًا آخر؛ ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥]، وقال في سورة القمر: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ[1] ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ [القمر: ٢٧-٣٠]، وجاء في سورة الشمس: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ[2] عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ [الشمس: ١١-١٥]، فدل مجموع الآيات أن آية الله -تعالىٰ- في الناقة أن لا يتعرض لها أحد من القوم بسوء في نفسها، ولا في أكلها، ولا في شربها، والمتبادر من إضافة الأرض إلىٰ الله -تعالىٰ- أن المراد بها المباحة للأنعام أن ترعىٰ فيها، دون ما يزرعه الناس ويحمونه لأنفسهم، وفيه مراعاة النظير بين ناقة الله وأرض الله؛ أي فدعوا ناقته تأكل من أرضه، والمتبادر من كلمة، ﴿سُوٓءٍ﴾ أنَّ الوعيد مرتب علىٰ أي نوع من أنواع الإيذاء جلّ أو حقُر؛ لأنه نكرة بعد نهي.

(٣) ثم أخذ نبي الله يُذكِّرهم بنعم الله عليهم، وأنَّه جعلهم خلفاء لعاد في الحضارة والعمران، والقوة والبأس، وأنَّه بوَّأهم في الأرض، وجعلها منازل لهم، وقد بين ذلك بقوله: ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ يذكرهم بما ألهمهم من فنون الصناعة، وهندسة البناء، ودقة النجارة، وما علمهم من فن النحت، وآتاهم من القوّة والصبر؛ قيل كانوا يسكنون الجبال في الشتاء، لما في البيوت المنحوتة من القوة علىٰ الأمطار والعواصف، ويسكنون السهول في سائر الفصول لأجل الزراعة والعمل.

انظر كيف يُذكِّر القرآن قوم هود بأنَّه جعلهم خلفاء من بعد قوم نوح، ويذكر قوم صالح بأنَّه جعلهم خلفاء من بعد عاد، وذلك أسلوب من أساليب التربية، وضرب من ضروب العِظَة، يُذكِّر فيها القرآن أولئك القوم بأنَّه غمرهم بفضله، وعمَّهم بإحسانه، وجعلهم أجلاء عظماء في شؤون الحياة، ووسائل العمران، ولا ينبغي ممن كرّمهم الله ذلك التكريم أن يلوثوا أنفسهم بالمعاصي، ويدنسوها

---

(١) محضور لهم أو للناقة.

(٢) أطبق عليهم العذاب، ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾، أي: الدَّمْدَمَة، لم يفلت منها صغيرهم ولا كبيرهم.

بالجرائم، بل اللائق بذلك النوع من الناس أن يكون ممن يكرم نفسه، حيث أكرمه الله، ولا ينبغي له أن يعمل علىٰ بخس نفسه حقها، ونقصها قيمتها، وعلىٰ هذا الأسلوب قول الله -تعالىٰ-: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠]، وقوله: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٠] ذلك الأسلوب الذي يشعر المخاطب بعلو نفسه، وكبر منزله، ثم يطالبه بحقوق هذه العزة، وما تتطلبه تلك المنزلة، ويريه أن عصيان الله -تعالىٰ- هو امتهان للنفس، ونزول عن المكان اللائق بها، وكثيرًا ما يثمر ذلك النوع من التأثير في نفس المستمع، وكثيرًا ما انتفع الناس بالعظة من ناحية ما في نفوسهم من عظمة، وكثيرًا ما يلجأ الواعظ إلىٰ أن يقول للمسرف علىٰ نفسه: إنَّك رجل من بيت طيب، وأرومة[1] عالية، وأبوين شريفين، وقد كان لأبيك من المجد والسؤدد كيت وكيت، فلا يليق بك أن تجاري أولئك النحوت[2] وسفلة الناس في تهافتهم علىٰ المعصية، وانحدارهم إلىٰ سفاسف الأمور، وكثير من الناس يعف عن المحرمات؛ لأنَّها لا تتفق وما ينبغي لمثله من عظمة، ولا تتناسب مع منزلته في الحياة، وأن الطامَّة الكبرىٰ، والبلاء الذي لا نجد له علاجًا، تلك الطائفة التي لا تشعر لنفسها بكرامة، ولا تحس بمنزلة، فلا تبالي أن تكون نفسها نفس إنسان أو حيوان، ولا يعنيها أن تكون حقيرة أو عظيمة، بل المهانة أحب إليها من الكرامة، وعبوديتها للشهوة والهوىٰ أعذب لديها من الحزم والعزم، نعم إنَّ هذه الطائفة هي لغز الواعظ، وعقبته الكأداء، إذا شاء أن يستعين عليها بما في نفسها من حياء= وجد معين الحياء قد نضب، وإذا أراد أن ينمي فيها عاطفة احترام النفس، وتكريم الإنسانية= رأىٰ أنَّها قد انحدرت إلىٰ دركة الحيوان الأعجم، فيقف مكتوف الأيدي أمام تلك النفس الوضيعة، وهيهات أن يجد لها علاجًا ناجعًا، أو دواء نافعًا؛ لذلك عني القرآن الكريم بذلك النوع من التذكير، وهذا الأسلوب من التربية، لذلك يبدئ ويعيد في ذلك التذكير، وبعد أن ذكَّرهم بنعمٍ

(١) أصل.

(٢) هكذا في المطبوع، ولم أقف علىٰ معناها، والسياق واضح. (عمرو)

خاصة، قال لهم: ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ عليكم عامة، واشكروا هذه النعم باستعمالها فيما فيه صلاحكم، ولا تتصرفوا في هذه النعم تصرف عثيان وكفر بمخالفة ما يرضىٰ الله فيها، متصفين بالإفساد، ثابتين عليه.

(٤) بعد ذلك قال الملأ المستكبر من قوم صالح للمستضعفين المؤمنين: ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾، قدَّمنا في قصة نبي الله نوح ﷺ أنَّ الملأ هم الأشراف والسادة، الذين هم عقبة الإصلاح في كل زمان، وأن أتباع الرسل دائمًا المستضعفون، لا الأغنياء المترفون؛ لأنَّه لا يثقل علىٰ المستضعفين أن يكونوا تابعين لغيرهم، وليس في قلوبهم من حب الرياسة ما يمنع من استماعهم للحق، أما السادة والأشراف فيشق عليهم أن يكونوا مرؤوسين، وأن يخضعوا للأوامر والنواهي التي تحرم عليهم الإسراف الضارّ، وتقف بشهواتهم عند حدود الحق والاعتدال، علىٰ هذه السنة جاء سؤال المستكبرين للمستضعفين، وعلىٰ هذه السنة كان جوابهم لهم: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾، وعلىٰ هذه السنة كان رد المستكبرين عليهم: ﴿إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، وقد أسند الله العقر إلىٰ أولئك المستكبرين الكافرين -والمتعاطي له واحد منهم- لأنَّه بتواطئهم ورضاهم، كما قال في آية القمر: ﴿فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾؛ ليرينا أنَّ مثل هذا من أعمال الأمم ينسب إليها في جملتها، كما أنَّها تعاقب عليه في جملتها، ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥]، ومنه نعلم أن الأمة متضامنة متكافلة في الخير والشر، وأنها متىٰ سكتت علىٰ منكر، وكان في استطاعتها أن تقف في سبيل صاحبه= عاقبها الله علىٰ ذلك السكوتِ العقابَ الشامل، روىٰ أبو داود، والترمذي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: **يا أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ﴾**، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا علىٰ يديه أوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده»**[١].

---

(١) رواه أبو داود: (٤٣٣٨)، والترمذي: (٢١٦٨). (عمرو)

فليعتبر بذلك المسلمون الذين تحللت روابطهم، وتفككت عُرَاهم، وأصبح كل واحد لا يهمه سوىٰ شخصه ومصلحته الخاصة، وإذا رأىٰ الظلم يحزّ في عنق إخوانه وبني جلدته لم يحرك لذلك الظلم ساكنًا، ما دام هو ممتلئ البطن، آمنًا علىٰ نفسه ومصالحه، فليعتبر بذلك المسلمون، وليعلموا أنَّهم ما أُصيبوا إلَّا من جراء ذلك التفكك والانحلال، وليثقوا أن ذلك الظالم هو معهم اليوم، وعليهم في الغد، وأنه يستعين علىٰ بعض الأمة ببعضها الآخر، فيعطي من معه من الشهوات والمصالح ما يسخره به لقضاء مصلحته، ثم متىٰ انتهت حاجته منه قلب له ظهر المِجَنّ، ونكَّل به كما نكل بأخيه، ليعتبر بذلك المسلمون، وليفطنوا لما يريده العدو الغاصب من اتخاذ بطانة منَّا، وأيدٍ عابثة فاجرة، يستعين بها علىٰ امتلاك بلادنا وإذلال أمتنا، ولو كانوا ممن ينتفعون بالقرآن وعظاته لعرفوا أن إقرار الظلم في الأمة وسكوتها عليه هو شر مستطير، لا يعلم مداه إلا الله - تعالىٰ -، وأنه يعاقبنا عليه بانتقاص بلادنا، وتثبيت أقدام الغاصب فيها، وتسخير خيراتنا وجهودنا لمصلحة ذلك العدو الذي لا يرعىٰ لنا ذمه، ولا يحفظ لنا عهدًا.

هؤلاء قوم **صالح** لما رضوا عن عقر الناقة نسب الله إليهم المعصية، وعاقبهم عليها العقاب الشامل، مع أنَّ الذي عقرها واحد منهم، ولكنه عقرها علىٰ رضًا منهم، وكان في استطاعتهم منعه، والضرب علىٰ يديه، ولكنَّهم بدل أن يمنعوه شجَّعوه، فكان عذابهم من أجل ذلك عذابًا شاملًا، وعقوبة عامة.

وهذه شعوب المسلمين المحتلة يسلِّط عليها الغاصب من نفسها أناسًا يظلمونها، ويسومونها سوء العذاب، ثم هي ترضىٰ عن ذلك الظلم، وتستكين للهوان، ولا تأخذ علىٰ يد الظالم فتحول بينه وبين الظلم، فيعاقبها الله بتمكين الغاصب في الأرض، وتثبيت قدمه، واستيلائه علىٰ خيرات هذه الأرض، وهي عقوبة لا تصيب الظالم وحده، بل تشمله وغيرَه، بل وتشمل الأجيال المقبلة، وما أشدها من عقوبة، وما أقساه من انتقام يسوقه الله؛ لأنَّنا قصرنا في الأمر، وخنعنا للظلم.

(٥) بعد ذلك قالوا لنبي الله صالح: ﴿ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، وقد نادوه باسمه تهوينًا لشأنه، وتعريضًا بما يظنون من عجزه:

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾، وفي سورة هود: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ﴾، وفي سورة فصلت: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧]، وفي سورة الذاريات: ﴿فَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٤]؛ أما الرجفة فهي الزلزلة والاضطراب، وأما الصيحة فهي رفع الصوت، ولما كانت الصيحة قد تُفزع عبر بها عن الفزع، وأما الصاعقة فهي اشتعال يحدثه الله -تعالىٰ- عند اختلاف كهربائيَّة سحابة قريبة من الأرض مع كهربائية الأرض؛ إيجابًا وسلبًا، ولا تنافي بين الرجفة، والصيحة، والصاعقة؛ ذلك أنَّ الصاعقة هي الشرارة الكهربائية التي تتصل بالأرض فتحدث بها تأثيرات عظيمة بقدرها، كصعق الناس والحيوان وموتهم، وهدم المباني أو تصديعها، وإحراق الشجر والمتاع وغير ذلك، تلك الصاعقة لها صيحة شديدة القوّة والطغيان، ترجف من وقعها الأفئدة، وتضطرب الأبدان، فقوم ثمود عاقبهم الله بذلك كله، أخذهم بالصاعقة التي لها صوت شديد مزعج، يصحبه زلزلة، فإذا قال القرآن: فأخذتهم الرجفة، أو قال: فأخذتهم الصيحة، أو قال: فأخذتهم الصاعقة= كان ذلك كله حقًّا وصحيحًا.

ومن الجائز أن يكون الخالق القادر المقدِّر قد جعل هلاكهم في وقت ساق فيه السحاب المتشبع بالكهرباء إلىٰ أرضهم بأسبابه المعتادة، ويجوز أن يكون قد خلق تلك الصاعقة لأجلهم علىٰ سبيل خرق العادة، وأيًّا ما كان فالآية قد وقعت، وصدَق الله رسوله في إنذار قومه: ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾، والمراد أنَّهم سقطوا علىٰ ركبهم مصعوقين، وجثموا هامدين خامدين، ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ بعد ما أبصرهم جاثمين تولي متحسرٍ علىٰ ما فاته من إيمانهم، ويقول لهم: يا قوم لقد بذلت فيكم وسعي، ولم آل جهدًا في إبلاغكم النصيحة لكم، ﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾، وقد يقول الرجل لصاحبه وهو ميت -وكان قد نصحه حيًّا فلم يسمع منه حتىٰ ألقىٰ بنفسه في التهلكة-: يا أخي كم نصحتك وكم قلتُ لك فلم تقبل مني، وفي سورة هود أنَّ صالحًا ﷺ أمهل قومه ثلاثة أيام بعد عقر الناقة، فلمَّا انتهت أنجاه الله -تعالىٰ- ومن معه من المؤمنين برحمة منه، وأنزل العذاب بالباقين الظالمين بعد إنجائه، وإنَّما يكون الإنجاء من عذاب صيحة الصاعقة بالبعد عن المكان الذي تقع فيه، والمعهود في مثل هذه الآية أن تتقدم علىٰ ما

قبلها في الذكر، كتقدم مدلولها بالفعل، ولكن عُهِد في كلام العرب ترك الترتيب بين المعاني لنكت في الكلام، ولا سيما كلام يعرف فيه الترتيب بالضرورة، أو ما يقرب منها في الظهور، فيكون تولي نبي الله عنهم حين رأىٰ العلامات قبل نزول العذاب، ويكون خطابه لهم وتعنيفه إياهم جاء حسب المألوف من خطاب الأحياء، والله أعلم.

صالح عليه السلام

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ(١) فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا(٢) قَبْلَ هَٰذَآۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ(٣) ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ(٤) ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدًا(٥) لِّثَمُودَ﴾ [هود: ٦١-٦٨].

*** شرح وعبرة:**

(١) يرينا الله -تعالىٰ- في هذه السورة أنه أرسل إلىٰ ثمود أخاهم صالحًا وطالبهم بالتوحيد، ثم ذكرهم بتنشيئه لهم من الأرض، وقد أجمل في هذه الكلمة ما فصله الله في آيات أُخر، كما تدل عليه آيات «**المؤمنين**»: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ

---

(١) فوض إليكم عمارتها، ومكّنكم فيها.

(٢) مأمول الخير.

(٣) مُوقع في الريبة، وقلق النفس.

(٤) إهلاك وضلال.

(٥) دعاء عليها بالهلاك.

مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤]. فهو يلفتهم إلىٰ آيات الله فيهم من جهة خلقهم الأول، علهم يذكرون أن من قَدَر علىٰ ذلك الخلق هو علىٰ الإعادة أقدر، وعلهم يذكرون أنَّ صاحب النشأة الأُولىٰ هو الأَولىٰ بأن يعبد، وأنه ليس من الرأي التسوية بين من يخلق ومن لا يخلق، ثم ذكَّرهم بنعمة أخرىٰ هي نعمة استعمار الأرض، فقال: ﴿وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾ جعلكم عُمَّارًا لها، تشقون فيها الأنهار، وتنشِئون فيها البساتين، وتبنون فيها القصور، وتنتفعون بما فيها من خيرات ومعادن وجبال وبحار، وتستخدمون كل شيء فيما خُلِقَ له، يذكرهم الله -تعالىٰ- بهذه النعم، وأنه هو الذي أسداها إليهم، وهداهم إليها، وخلقهم مستعدين لها، بما وهبهم من عقول، وما ألهمهم من صناعات وعلوم، وما منحهم من الصبر والجلد علىٰ حذق أولئك الصناعات، والتفنن فيها، وهو يشبه قوله في سورة **الأعراف**: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧٤]، وقوله في قصة هود من سورة الأعراف: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩]، وقد عقب تذكير الله لهم بهذه النعم بقوله: ﴿فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ﴾؛ لأنَّ ذلك هو اللائق بإله له هذه النعم، اللائق به أن ترجع إليه الناس في مغفرة الذنوب وقبول التوبة؛ فإنَّه داني الرحمة، سهل المطلب، مجيب لمن دعاه.

(٢) ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ﴾ ذلك هو ردهم علىٰ نبي الله صالح أنه كان مأمول الخير تلوح فيه مخايل الرشد، قبل أن يقوم بهذه الدعوة فيسفّه أحلامهم، ويعيب آلهتهم؛ أما الآن فقد انقطع رجاؤهم فيه، وخاب ظنهم من ناحيته، أو كانوا يؤملون فيه أن يشاركهم في عبادتهم، ويدخل معهم في دينهم؛ لأنَّهم كانوا يعرفون فيه لين الجانب، وحُسنَ الخلق، ثم أخذوا ينكرون عليه نهيهم عن عبادة الأوثان، فقالوا: ﴿أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ﴾.

يا سبحان الله كأنَّ الناس قُدّوا من أَدِيم واحد، هؤلاء قوم صالح يعترفون له بأنَّه كان مرجوّ الخير، مأمول الرشد، قبل أن يقوم فيهم بالدعوة، ويبين لهم ما هم عليه من أخطاء، أما بعد أن قام فيهم بالدعوة، وأخذ يعيب عليهم ما هم عليه من باطل، يقومون في وجهه، ويناصبونه العداوة، ويقلبون له ظهر المِجَنّ، وهذه قريش كان محمد فيها الصادق الأمين، لم يجرّبوا عليه كذبًا: فلمَّا أخبرهم عن الله أنَّه رسوله جاء ليبشر وينذر= قامت قيامتهم، وتألبوا عليه، وفعلوا به ما فعلوا من الكيد والمكر، وحاولوا أن يفتنوه عما أوحاه الله إليه، وهناك يكون خليلًا لهم محبوبًا، ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥۖ وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا﴾ [الإسراء: ٧٣]، ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠]، وهؤلاء الذين كفروا بالرسل جميعهم يقولون لهم: ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ﴾ [إبراهيم: ١٣]، ومن العجيب أنَّ قوم صالح يطمعون في حسن خلقه، وطهارة ماضيه، وغفلوا عن أن تلك الناحية كان عليهم أن ينتفعوا بها، وكثيرًا ما يقول الرسول لقومه: ﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾، يريد: أنني لم أُعرف فيكم بخيانة، ولم تجربوا عليَّ كذبًا في شأن واحد منكم، فكيف أجرؤ أن أكذب علىٰ ربي؟ فإن كان صالح مرجو الخير قبل هذا، وكان تاريخه أبيض ناصعًا، وحياته حياة أطهار، فقد نقيت سيرتهم، وحسنت معاملتهم، أفلا يكون ذلك حاملًا لكم علىٰ تصديقه، والعناية بدعوته، ثم لماذا يكون مرجو الخير مأمول الرشد ما دام لم يعرض لآلهتكم بسوء، فإذا هو عابها، وبين أنها لا تصلح أن تكون آلهة تُعبَد= يكون ميؤوس الخير، مقطوع الرجاء؟ أليس ذلك تعصبًا أعمىٰ، وسيرًا وراء الشهوات والأهواء.

(٣) ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٖ﴾ يتلطف معهم نبي الله صالح، ويخاطبهم خطاب المتردد في أنه علىٰ بينة، وإن كان يقطع بأنه علىٰ بينة، ويقول لهم: خبروني إذا كنت علىٰ برهان من ربي في أني رسول لكم، وآتاني منه رحمة وهي الرسالة، ثم عصيته ووافقتكم علىٰ ما أنتم عليه من باطل، فمن ينصرني منه

إن عصيته؟ أتنصرني آلهتكم وهي أضعف من أن تنصر نفسها؟ أم تنصروني أنتم من عذابه؟ وما أنتم إلا عبيد لا تملكون لأنفسكم نفعًا ولا ضرًا؟

الحق أنَّه لا جواب لهم من ذلك السؤال، ولذلك قال عقب ذلك ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾، يريد: أنَّه لو فرض أنَّه انضم إليهم وعصىٰ ربه فلا يزيدونه إلا هلاكًا وضلالًا، وبذلك أيأسهم من إجابتهم إلىٰ طلبهم، ثم أراهم أن الله -تعالىٰ- أرسل الناقة آية له علىٰ صدقه، وأمرهم أن يتركوها تأكل في أرض الله، ولا يتعرّضوا لها بسوء، وأنَّهم إن تعرضوا لها بنوع من أنواع الأذىٰ أخذهم عذاب قريب، فلم يكن منهم إلَّا أنَّهم نحروها، فقال لهم: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾، وإن ذلك وعد صدق، ولما جاء أمر الله بالعذاب نجَّىٰ صالحًا والمؤمنين معه رحمةً من الله من ذلك العذاب، ومن خزي ذلك اليوم الذي حل بقوم صالح، ولا عجب في أن يحل بالقوم من عذاب الله ما يحل، وأن ينجي صالحًا والذين آمنوا معه من ذلك العذاب ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾، فلا يستطيع أحد أن يُفلِت من عذابه إذا جاء وقته، ولا يستطيع أحد أن يَخذُل من أنصاره من تكفل الله له بالنجاة، وبعد هذه النجاة أخذ الذين ظلموا صيحة العذاب، فأصبحوا في بلادهم جاثمين علىٰ ركبهم، ثم بيَّن أسباب هذه العقوبة، فقال: ﴿أَلَا إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾؛ ليرينا أنَّ عاقبة الكافرين بربهم بعد وضوح الأدلة علىٰ الإيمان= أن يصيروا إلىٰ ما صار إليه قوم صالح، ثم ختم القصة بقوله: ﴿أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ﴾ دعاء عليهم بالهلاك بعد أن وقع، نعرف منه أنهم استأهلوه، وأنه وقع بهم وقوعًا عادلًا حكيمًا.

صالح عليه السلام

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ١٤١ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٤٢ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ
أَمِينٌ ١٤٣ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٤٤ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ
١٤٥ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ١٤٦ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ١٤٧ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا[(١)]
هَضِيمٌ ١٤٨ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ[(٢)] ١٤٩ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٥٠ وَلَا تُطِيعُوٓا۟
أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ١٥١ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ١٥٢ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ[(٣)]
١٥٣ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٥٤ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا
شِرْبٌ[(٤)] وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ١٥٥ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ١٥٦
فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ١٥٧ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم
مُّؤْمِنِينَ ١٥٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾. [الشعراء: ١٤١-١٥٩].

* شرح وعبرة:

(١) أضاف إلىٰ ثمود في هذه السورة تكذيب الرسل جميعهم، مع أنهم لم يكذبوا إلا صالحًا؛ ليريك أن من يكذب رسولًا مع قيام الأدلة عنده علىٰ صدقه هو مكذب للرسل جميعهم؛ لأنه لا فرق بين رسول ورسول، وبعد أن طالبهم بتقوىٰ الله -تعالىٰ-، وعرفهم أنه رسول أمين علىٰ دعوته لم يخن فيها شيئًا من

---

(١) ما يبدو من ثمره في أول ظهوره، ﴿هَضِيمٌ﴾ لطيف ضامر؛ من قولهم: كَشحٌ هضيم، وطلع إناث النخل فيه لطف، وقيل اللّيِّن النضيج، أو متدل متكسر من كثرة الحمل.

(٢) حاذقين.

(٣) الذي سحر كثيرًا حتىٰ غلب علىٰ عقله.

(٤) نصيب من الماء.

الخيانة، وأنه لم يسألهم علىٰ تبليغه لهم أجرًا، ومن كان كذلك ينبغي أن تُقابَل دعوته بالرضا، بعد ذلك كله قال لهم: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾ يُذكِّرهم بنعمته عليهم في تخلية الله إياهم وما يتمتعون به من الجنات وغيرها معَ الأمن والدَّعَة، وهي من أجل نعم الله علىٰ عباده: أن يغمرهم بنعيم الأرض، وأن يعدهم لاتخاذ بيوت من جبالها في حذق وإتقان، ثم هم مع ذلك وادعون آمنون. ويجوز أن يكون إنكارًا من نبي الله صالح ﷺ علىٰ قومه أن يفهموا أنهم يتركون في هذه النعم التي غرمهم الله بها، آمنين علىٰ أنفسهم من حلول عذب الله بهم، فيبدل نعيمهم شقاء، وأمنهم خوفًا، مع أنَّ موقفهم من صاحب النعم موقف الكافر لا موقف الشاكر، وأن يكون نبي الله صالح ينكر عليهم أن يفهموا أنهم يتركون في هذه النعم بدون جزاء عليها، وكأنه يقول لهم: إذا فهمتم من حالكم الوادع المطمئن أن هذه كل حياتكم، وأن ليس لكم حياة وراء هذه الحياة محاسبون فيها علىٰ كل ما قدمتم من خير أو شر، إذا فهمتم ذلك فأنتم خاطئون، ولا بُدَّ لكم من يوم تجزون فيه علىٰ أعمالكم، وتحاسبون علىٰ ما قدمتم في دنياكم، وخص النخل بقوله: ﴿طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾؛ ليرينا أنها نخل من نوع الإناث المثمر، لا من نوع الذكور، أو من صنف جيد، أو كثير الحمل، ولذلك كان موضع الامتنان، وخص النخل بعد دخوله في جنات تنبيهًا علىٰ انفراده عنها بفضله عليها، أو لعله كان أكثرها نفعًا عندهم.

(٢) بعد ذلك عاد فأمرهم بتقوىٰ الله -تعالىٰ- وطاعته، ونهاهم أن يطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون، يريد بهم أئمة الضلال وأساطين الكفر، وهم الملأ من قوم صالح، وقد وصفهم بعدم الإصلاح بعد وصفهم بالإفساد؛ ليرينا أن أولئك القوم فسادهم فساد مصمت، ليس معه شيء من الإصلاح، كما تكون حال بعض المفسدين، فيكون جواب قومه: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ رموه بأنه مغلوب علىٰ عقله، ولذلك دعاهم إلىٰ ما دعاهم إليه، ثم قالوا له: ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾، ومن كان كذلك لا يكون رسولًا؛ لأنَّهم يدعون أن الرسول لا يصح أن يكون بشرًا، وقد سبق لنا الرد علىٰ هذه الشبهة الواهية الضئيلة في قصة نبي الله نوح من سورته.

ثم طالبوه بالآية التي تخضع لها أعناقهم إن كان صادقًا في دعوىٰ الرسالة، فقال لهم بعد ذلك التحدي: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ . . . إلخ، فهذه آية الله لنبيه صالح، وقد صدقهم الله وعده، وحل بهم من العذاب علىٰ عقر الناقة ما حل، وكانت عقوبة الله لهم علىٰ عصيانه، والخروج عن أمره= آيةً من آياته، وعبرة من العبر، وما كان أكثر قوم صالح مؤمنين برسالته، ولا موقنين بصدقه، لذلك حلَّ بهم من العذاب ما حل، ولا غرابة في ذلك فإن الله عزيز، والعزيز لا يغلب، ومع عزته هو رحيم في هذه العزة، فلا يسلط عذابه للتشفي، وإنما يسلطه للتأديب والإصلاح في الأرض، فهو رحيم في عزته، لطيف في تأديبه لمن عصاه، ولا تفهم من قوله ﴿فَأَصْبَحُواْ نَٰدِمِينَ﴾ أنهم ندموا علىٰ عقر الناقة ندمَ توبةٍ، ولكنهم ندموا ندم خائف أن يعاقب علىٰ العقر عقابًا عاجلًا، ولذلك لم يفدهم ذلك الخوف، فأخذهم العذاب، ولو كان ندم توبة فإنه لا يجديهم؛ لأنَّه عند معاينة العذاب فتوبتهم توبة إلجاء لا فضل لهم فيها، كتوبة فرعون وهو يقاسي شدة الغرق.

صالح عليه السلام

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ
﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ
﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا(١) بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ(٢) عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾
وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ(٣) يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ
لَنُبَيِّتَنَّهُۥ(٤) وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟(٥)
مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ
أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً
لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [النمل: ٤٥-٥٣].

* شرح وعبرة:

(١) يرينا الله في هذه السورة أنه أرسل إلىٰ ثمود أخاهم صالحًا، ولم يلبث أن يدعوهم إلىٰ عبادة الله حتىٰ صاروا فريقين مختصمين: فريق مؤمن يدافع عن الإيمان بالحجة والبرهان، وفريق كافر يدعو إلىٰ الكفر ويتعصب له، شأن الناس في كل زمان إذا وصلتهم دعوة جديدة، فتجدهم حزبين: حزب يناصرها، وحزب يحاربها، فليست هذه التفرقة ذنبًا للداعي، ولا سيئة من سيئاته، وإنما هي من

---

(١) تشاءمنا.

(٢) سببكم الذي يجيء منه خيركم وشركم عند الله، وهو قدره وقسمته.

(٣) من ثلاثة إلىٰ عشرة يقال له رهط.

(٤) نباغتهم ليلًا.

(٥) دبروا الفتك بصالح في الخفاء، ومكر الله إهلاكهم من حيث لا يشعرون.

طبع الدعوىٰ، وأثرها الذي لا يفارقها، وكثير من الناس إذا رأىٰ ذلك الانقسام في بلد من البلاد التي بدأ فيها الوعظ والدعوة إلىٰ الله -تعالىٰ- ينسبه إلىٰ الواعظ، ويعده سيئة من سيئاته، ويقول: إنَّ فلانًا قسم البلد قسمين، وشطرها إلىٰ فريقين، ولو علم أنَّ الواعظ لم يرد ذلك ولم يعمل له، وإنَّما أراد أن تسمع الناس له، وتصغي إلىٰ قوله ونصائحه، لو علم ذلك ما عاب ذلك الواعظ بذلك العيب، بل لو علم أنَّ سُنة الله في الناس إذا جاءهم رسول من الرسل أن ينقسموا إزاء دعوته، ففريق منهم يناصره، وآخر يعاديه ويخاصمه= ما عاب الواعظ ولا أضاف له هذه السيئة، سيئة التفريق بين الناس، وإن نظرة واحدة فيما حولنا من حوادث ترينا كيف كان الناس جدّ مختلفين أمام دعوة الرسل؛ فقد رأينا عند نهضة البلاد إلىٰ طلب استقلالها، وقيام زعماء فيها، ينقسمون علىٰ أنفسهم انقسامًا غير محدود، ويختصمون في مبادئها اختصامًا واسعًا، حتىٰ إنَّك تجد أهل البيت الواحد علىٰ أقسام شتىٰ، فتجد رئيس البيت في ناحية، وأبناءه في ناحية أخرىٰ، وقد تجد الرجل علىٰ عقيدة سياسية، وزوجه علىٰ عقيدة تضادها وتصادمها، فهل الزعيم السياسي هو الذي فرق بين هؤلاء، أو طبيعة دعوته هي السبب الأول لهذه التفرقة، وكانت هذه سنة في العالم لا تتبدل؛ لأنَّ النفوس في استعدادها للحق، وتقديرها للبرهان والدليل، وطهارتها من الأمراض التي تحول بينها وبين قبول الدعوة= متفاوتة بحسب تربيتها، وما يحيط بها من بيئات وأوساط، وما ورثته عن البيوت والأسر من أخلاق وعادات، وآية ذلك أتباع الرسل في كل زمان ومكان؛ فإنَّك تجدهم من الضعفاء، وجمهرة الشعب، وفقراء القوم، وتجد علىٰ عكس ذلك السادة والأشراف الذين يعبر القرآن الكريم عنهم بالملأ، فالصنف الأول من الناس قد خلت نفوسهم من الحقد، ولم ينشؤوا علىٰ الكبر والغطرسة، ولم يكن لهم من عظمة الآباء ما يخشون إضاعته، ولا من المكانة في المجتمع ما يحول بينهم وبين اتباع الرسول؛ لذلك كان الناس جدًا متفاوتين في قبول الدعوة، وكان من الطبعي أن ينقسموا علىٰ الداعي، وينقسموا علىٰ أنفسهم فقد كنا نرىٰ في بعض الغزوات الإسلامية أن الرجل يقاتل -فيمن يقاتل- أباه، ويبرز له بالسيف، وليس ذلك إنكارًا لما أسداه له من جميل، وما قدمه له من تربية، وإنَّما هي العقيدة تسلطت علىٰ النفوس، واستولت علىٰ

المشاعر، فنسيت كل الأوامر إلا أوامر الدين، وروابط الطاعة لله -تعالىٰ-: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

(٢) هنالك قال نبي الله صالح للفريق الكافر، وقد بلغ من عناده وعتوّه ما بلغ حتىٰ قال له: ﴿يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾، هنالك قال لـهـم: ﴿يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ يريد أن الله -تعالىٰ- قد مكنهم من رحمته وثوابه، فلماذا يستعجلون بالعقوبة السيئة، وهي إتيانهم بالعذاب الذي توعدهم به نبي الله صالح قبل الفعلة الحسنة وهي التوبة فيؤخرونها، ثم عقَّب ذلك بقوله: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، هنالك ﴿قَالُوا﴾ لصالح ﴿اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ كان الرجل يخرج مسافرًا فيمر بطائر فيزجره، فإذا مر من الميامن إلىٰ المياسر تيمن، وإذا مر من المياسر إلىٰ الميامن تشاءم، فلما نسبوا الخير والشر إلىٰ الطائر استعير اسمه لما كان سببهما من قدر الله وقسمته، ومنه قالوا: طائر الله لا طائرك؛ أي: قدر الله الغالب الذي ينسب إليه الخير والشر، لا طائرك الذي تتشاءم به وتتيمن، فلما قالوا لصالح ﴿اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾، أي: تشاءمنا، قال لهم: ﴿طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ﴾، أي: سببكم الذي يجيء منه خيركم وشركم عند الله، وهو قدره وقسمته، إن شاء رزقكم، وإن شاء حرمكم، ويجوز أن يراد بقوله ﴿طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ﴾ أنَّ عملكم مكتوب عند الله، ومن ذلك العمل نزل بكم ما نزل عقوبةً لكم وفتنة، ومنه قوله ﴿طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ [يس: ١٩]، ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ [الإسراء: ١٣].

وانظر كيف يطالب نبي الله صالح قومه باستغفار الله والرجوع إليه، وعدم التعرض لعذابه فيقولون له: ﴿اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾، وأيُّ صلة بين طلب المغفرة من الله التي دعاهم إليها نبيهم، وبين تشاؤمهم به، لم يكن هناك صلة بين الأمرين، وإنما هو العناد والعتوّ، وكراهتهم للدعوة، وتمحُّل أسباب للجحود والإنكار، ولم تكن تلك المقابلة المنكرة خاصة بقوم صالح، فهؤلاء أصحاب القرية يحكي لنا القرآن ما كان منهم مع الرسل: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا

فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ١٤-١٩]، وهؤلاء قوم موسىٰ يقص الله عليهم قصصهم: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٠، ١٣١]، وقوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾، أي: مستعدون للفتنة والزلزلة في عقائدكم، بواسطة شياطين الإنس والجن فيكم، ولعله يشير إلىٰ أنَّ أولئك القوم لـمَّا لم يفتحوا آذانهم للمحق ولا قلوبهم للوحي، بل عموا عن الدعوة وصمّوا= كانوا بذلك مستعدين لأن يتأثروا خطىٰ رؤسائهم والمستكبرين منهم، ولو أنَّهم اعتصموا بالله لهداهم إلىٰ صراط مستقيم وحال بينهم وبين الفتنة.

(٣) يرينا الله أنَّه كان في مدينته تسعة هم رهط، أو تسعة من الرهط، والمراد أنَّهم تسع جماعات، ويرينا أنَّ أولئك كانوا يفسدون في الأرض ولا يصلحون، وأنَّهم قالوا لبعضهم: تقاسموا بالله . . . إلخ، أو قالوا ذلك متقاسمين بالله أن يفاجئوه وأهله بالغيلة، ثم لنقولن لولي أمره وصاحب الدم: ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾.

وانظر كيف عزم قوم صالح علىٰ جريمتين، مباغتة صالح، ومباغتة أهله حتىٰ لا يوجد من أهله من يرشد إلىٰ المجرم، ويصير دمه هدرًا، ثم انظر كيف يؤكدون ذلك العزم علىٰ الجريمتين بالقسم بالله، ثم انظر كيف يدبرون حيلة ليخلصوا بها إذا وُجِّه إليهم اتهام: هي أن يقولوا لولي أمر صالح: ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾، كأنَّهم اعتقدوا أنَّهم إذا بيتوا صالحًا وبيتوا أهله فجمعوا بين البياتين، ثم قالوا: ما شهدنا مهلك أهله، فذكروا أحدهما كانوا صادقين؛ لأنَّهم فعلوا البياتين جميعًا لا أحدهما، أو ما حضرنا مهلك أهله، وإنا لصادقون؛ لأنَّ الشاهد للشيء غير المباشر له.

هذه حيلتهم التي دبروها ليخلصوا بها من ولي نبي الله صالح، وهي حيلة مكشوفة، وكيف ينجو من قتل صالحًا وأهله إذا قال ما قتلت أهله!! أم كيف يصدق من قتل محمدًا وإبراهيم، ثم قال ما قتلت إبراهيم؛ لأنَّه قتل محمدًا معه!! ثم كيف يكونون صادقين في قولهم: ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾؛ لأنَّ الشاهد للشيء غير المباشر له، مع أنَّ المباشر للقتل قاتل وشاهد؛ لأنَّ الشهود هو الحضور، ومنه أخذت الشهادة؛ لأنَّ الأصل في الشاهد أن يكون حاضرًا مع المشاهدة بالبصر أو البصيرة، وقد وصف الله المؤمنين بأنَّهم: ﴿لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾، أي: لا يحضرونه، فهم ينفرون من حضور مجلسه فضلًا عن الشهادة عليه، ثم تأمل كيف يحرصون علىٰ الصدق ولا يبالون بقتل نبيٍّ من الأنبياء؟ وهل ذلك القتل من الصدق مع الله في عهوده ومواثيقه التي أخذها علىٰ عامة البشر؟ وهل أولئك القوم إذا كانوا صادقين في ظاهر الأمر أمام الناس قد صدقوا أمام أنفسهم ومن قرارة قلوبهم؟ وهل هذا إلا اعتراف بقبح الكذب، وإيمان بأن الفطر لا ترضىٰ لأصحابها إلَّا الصدق، ولذلك تحتال في الحصول عليه، وتكد في الفرار من الكذب؟ تلك الفطر التي تكافح عن الكفر، وتحارب الرسل، وتعمل لتدبير المكائد لها ولدعوتها، ولو لم يكن من قبح الكذب سوىٰ فرار الكفرة أعداء صالح نبي الله منه لكفىٰ أهله معرّة وذمًّا.

(٤) ثم أرانا الله -تعالىٰ- أنَّهم دبروا لنبي الله ما دبروا، واحتالوا لإهلاكه ما احتالوا، فدبروا أن يباغتوه ليلًا حتىٰ لا يراهم أحد، ولا يستعد هو لدفعهم، ثم دبروا أن يكون التبييت له ولأهله حتىٰ لا يوجد من يُرشد إلىٰ الجريمة إذا هي وقعت، ثم دبروا أن يقولوا لوليه: ما شهدنا مهلك أهله، دبروا ذلك كله وهم لا يشعرون أن تدبير الله فوق تدبيرهم، ومكره غالب علىٰ مكرهم؛ لأنَّ مكرهم شرّ كله، أما مكر الله فهو للخير العام، ولذلك يقول: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤]، وقال: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣]، ثم قال: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وبعد أن أرانا أنه أهلكهم وقومهم قال: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾ من أراد أن ينظر إليها فلينظر، خاليةً من ساكنيها، أو ساقطةً متهدمة، إنَّ في ذلك الذي حلَّ بقوم صالح لعبرة لقوم هم من أهل العلم والذكرىٰ، وأرانا بعد ذلك أنه أنجىٰ الذين آمنوا وكانوا يتقون الكفر والمعاصي من هذا التدمير العام، والعذاب الشامل.

دعوة إبراهيم[1] إلى الله -تعالى-

﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ[2] إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ
قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً[3] لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ
إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ
ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم
بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾
وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾

---

(١) إبراهيم ﷺ هو أحد أكثر الرسل ذكرًا في القرآن، وقد أمرنا باتباعه، والسير على منهاجه، وقد ذكر في القرآن تسعًا وستين مرة، وذكر في خمس وعشرين سورة، معظمها مكي. وقد فسر هذا الحضور في السور المكية لحضور شخصيته لدى العرب قوم النبي ﷺ. ويمكن تصنيف الآيات التي ذكر فيها إبراهيم ﷺ إلى المحاور التالية:

١- الحديث عن علاقة إبراهيم ﷺ العائلية، وحمل زوجته منه على كبر. وذكر ذريته ممن أوتي النبوة، وما جرى بينه وبينهم.

٢- بحثه عن الحق. ومعاناته في سبيل ذلك، وإنجاء الله له.

٣- عمارته للبيت الحرام، والدعوة إلى الحج.

٤- علاقته بالرسول الخاتم عليهم الصلاة والسلام.

٥- علاقته بالرسل عليهم الصلاة والسلام.

٦- التذكير بدين إبراهيم، وملته، والتأكيد على الإسلام والحنيفية، ونفي انتسابه إلى اليهودية أو النصرانية أو الشرك.

انظر: رسالات الأنبياء: (٧٣-٧٥). (عمرو)

(٢) اختبر.

(٣) مرجعًا.

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا(١) وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ(٢) وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ(٣) نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ(٤) الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٢٤-١٣٢].

* شرح وعبرة:

(١) يرينا الله -تعالىٰ- أنَّه اختبر إبراهيم ﷺ بتكاليف فأتمَّها إبراهيم، وقام بها كما يريده الله، ولم يبيِّن لنا ما هذه الكلمات، وما عددها، وحسبنا أن نعرف أنَّها تكاليف اختُبِر بها نبي من الأنبياء فأداها كاملة غير منقوصة(٥)، ومن فوائد ذلك الابتلاء تعريف إبراهيم ﷺ بنفسه، وأنَّه جدير بما اختصه الله به، وتقوية له علىٰ القيام بما يوجَّه إليه، وهذه الكلمات التي اختُبِر بها نبي الله إبراهيم كالتمهيد لجعله إمامًا للناس، ولذلك يقول عقبها: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، ولم يقل: فقال إني جاعلك؛ ليدلنا علىٰ أن هذه الإمامة بمحض فضل الله -تعالىٰ- واصطفائه، لا بسبب إتمام الكلمات، فإن الإمامة هنا عبارة عن الرسالة، وهي لا تنال بكسب الكاسب، والمراد أنَّ إبراهيم ﷺ جدير بذلك المنصب الجليل وهو إمامة الناس، فالله -تعالىٰ- قد جعل الرسالة في مكانة هو أهل لها، ولعلنا نلمح من هذه القصة أن منزلة الرجل من ربه تكون بمقدار قيامه بما أوجبه الله عليه، وعنايته بالتكاليف، والناس جد متفاوتين في أداء أولئك التكاليف، ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ

---

(١) علمنا مناسكنا، جمع منسك، من النُّسُك بضمتين، وهو: غاية العبادة، ثم غلب استعماله في عبادة الحج.

(٢) القرآن، وقيل مصدر كتب. والمراد صنعة الكتابة لحاجة الأمة إليها؛ لأنَّها أمة أمية. و«الحكمة»: معرفة سر الشيء وفائدته. والمراد بها أسرار الأحكام الدينية والشرائع، مأخوذة من **الحَكَمَة** بالتحريك. وهي ما أحاط بحنكي الفرس من اللجام. وفي ذلك معنىٰ ما يضبط الشيء، ومن ذلك إحكام الشيء وإتقانه.

(٣) امتهن.

(٤) اختاره لكم.

(٥) قال الطبري: «وكان اختبار الله تعالىٰ ذكره إبراهيم اختبارا بفرائض فرضها عليه. وأمر أمره به. وذلك هو الكلمات التي أوحاهن إليه وكلفه العمل بهن امتحانا منه له واختبارا». التفسير: (٢/٤٩٨). (عمرو)

سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢]، لم يقنع إبراهيم بأن يكون إمامًا للناس وقدوة صالحة فطلب من الله -تعالىٰ- أن يجعل من ذريته أئمة للناس، وقد جرىٰ إبراهيم علىٰ سنة الفطرة في دعائه، فإنَّ بقاء الذرية الصالحة بقاء للإنسان، ولذلك دعا بمثل ذلك في سورة إبراهيم: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ﴾ وقد راعىٰ الأدب في الطلب، فلم يطلب الإمامة لجميع ذريته بل لبعضها؛ لأنَّه الممكن، وفيه إرشاد لأدب من آداب الدعاء، وهو أن يكون موافقًا لسنن الله في خليقته، وقد أجاب الله نبيه إبراهيم بقوله: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وهو وعد ضمني بأن يجعل من ذريته أئمة للناس، ولكن عهده بالإمامة لا ينال الظالمين؛ لأنَّهم ليسوا أهلًا لأن يقتدىٰ بهم، لينفر ذرية إبراهيم من الظلم ليتحاموه، ويُنشِئوا أولادهم علىٰ كراهته، ولتنفير سائر الناس من الظالمين، وترغيبهم من الاقتداء بهم.

يذكرنا الله -تعالىٰ- بهذه القصة قصة ابتلاء إبراهيم بكلمات وإتمامه لها، وجعله إمامًا للناس وقدوة صالحة في الخير، وحرص علىٰ أن تبقىٰ الإمامة في ذريته ليدوم الإصلاح في الأرض، واقتصاده في الدعاء بوقوفه عند ما تقضي به سنن الفطرة، من أنَّ الناس فيهم الصالح، وغير الصالح، يذكرنا بذلك كله علَّنا نكون أئمة في الخير، وقدوة صالحة في القيام بالتكاليف، والوقوف في أدعيتنا عند حدود الأدب.

(٢) يذكرنا نعمة أخرىٰ، هي جعله البيت الحرام مرجعًا للناس، يأمن فيه الخائف، ويطمئن عنده المذعور، وقد أودع الله في قلوب جميع الطوائف محبة هذا البيت، وإجلاله، واحترام اللاجئين إليه، وامتنَّ علىٰ العرب بقوله: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡۚ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، وقال لهم للتأسي بإبراهيم: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلًّىۖ﴾ وهو الحرم كله، أو مواقف الحج كلها، وعَهِد لإبراهيم وإسماعيل بطهارة البيت من الأرجاس حسيِّها ومعنويِّها، كالشرك وأصنامه، واللغو، والرفث، والقاذورات ﴿لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾؛ ليرينا كيف نهتم ببيوت الله -تعالىٰ- وأماكن العبادة، ونطهرها من الأرجاس، كما طهرها نبي الله إبراهيم وولده إسماعيل، وإنها لمهمة شاقة ومجهود كبير، وقد تأسىٰ بهم رسول الله ﷺ فطهر الكعبة ممَّا حولها من الأصنام فكان بيت الله خالصًا له وحده لا يعبد فيه غيره، ولا يصمد فيه سواه.

وها هي بيوت الله اليوم، ومساجد المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، كثير منها أنشئت علىٰ قبور للصالحين، وقباب للمشاهير منهم، ولا سيما المساجد التي أنشئت في عهد الفاطميين.

ها هي بيوت الله يطالبنا الله بتطهيرها من الرجس، وإبعادها من الشرك؛ لتكون عبادة الله فيها خالصة لوجهه، والتوجه إليها توجهًا إلىٰ الله وحده، لا توجهًا إلىٰ صاحب القبر، ولا استعانة به في شأن من شؤون الحياة، فهل عهْد الله إلىٰ إبراهيم وإسماعيل بطهارة البيت الحرام خاص به، أو هو عام ينبغي أن يكون في كل مسجد من مساجد المسلمين، وكل معبد أعدوه لما تعد لمثله المساجد من صلاة ودعاء، إنَّ الأسوة الحسنة في إبراهيم وإسماعيل تقضي علىٰ المسلم أن يترسم خطاهما في كل عمل من أعمال الخير، ولا سيما عمل يتعلق بتوحيد الله في العبادة، وتطهير أماكن العبادة من الشرك وذرائع الشرك، وإذا كانت مساجد المسلمين التي بها قباب ومشاهد للصالحين قد خلت من الشرك الظاهر؛ فإنَّها لم تخلُ من الشرك الخفي وذرائع الشرك، وإن كنتَ في شكٍّ من ذلك؛ فاذهب إلىٰ مسجد الحسين رضي الله عنه، أو مسجد الإمام الشافعي؛ فإنَّك ترىٰ فيه ما لا يرضاه الله، ولا يرضاه صاحب القبر.

(٣) يذكرنا الله -تعالىٰ- بدعوة إبراهيم أن يجعل اللهُ مكَّة بلدًا آمنًا لا يستطيع أن يعتدي عليه أحد بسوء ما، وهي غير أمن الناس فيه التي امتنَّ الله بها، وكذلك يذكرنا بدعوته أن يرزق أهل ذلك البيت المؤمنين منهم من الثمرات، وقد أجاب الله دعوته، فقال: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧]، ثم أراه أنه سيرزق من كفر كما يرزق المؤمن، فإنَّ رزق الدنيا عام للمؤمن والكافر ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠]، ولكن تمتيع الكافر محدود بذلك العمر القصير، ثم يضطره الله إلىٰ عذاب النار وبئس المصير.

(٤) يذكرنا الله -تعالىٰ- بقصة بناء إبراهيم وإسماعيل للبيت ورفع قواعده؛ ليرينا أنَّ إقامة بيوت الله التي أعدت لعبادته وتقديسه= من أهمِّ القُرب التي يُتَقرَّب بها إلىٰ الله -تعالىٰ-، وأنَّه لا ينبغي لإنسان كائنًا من كان أن يستنكف من

مساهمته فيها، وأخذه بحظٍّ وافرٍ منها، فهذا نبي الله إبراهيم وولده إسماعيل يرفعان قواعد البيت، ويؤسسان أصوله بأنفسهما، كما هو الظاهر من نسبة العمل إليهما، وإنَّهما لقدوة حسنة في ذلك العمل الجليل، وأسوة صالحة لمن بعدهما من عباد الله المؤمنين، لم يستنكف نبي الله إبراهيم ولا ولده إسماعيل أن يكونا عاملين في بناء البيت؛ لأنَّهما يعلمان أن ذلك العمل ممَّا يثيب الله -تعالىٰ- عليه، ولذلك أخذا يلهجان بالدعاء خلال ذلك العمل أن يتقبل الله منهما عملهما؛ فإنَّه السميع لأقوالهما، العليم بنياتهما، وأن يجعلهما منقادَين له، ويجعل من ذريتهما أمة مسلمة له، ليبقىٰ توحيد الله في الأرض ببقاء الذرية، كما طلبا منه أن يعلِّمهما مناسكهما، ويتوب عليهما إنه هو التواب الرحيم.

يذكرنا الله -تعالىٰ- بذلك كله ليعلمنا كيف نتأسىٰ بإبراهيم وولده إسماعيل في إقامة بيوت الله، وأن نرجع إليه في قبول الأعمال، وأن نلجأ إليه في تعليمنا أمور الدين، وفي قبول توبتنا.

(٥) من دعاء نبي الله إبراهيم أن يبعث في ذريته رسولًا منهم، يتلو عليهم آيات الله ودلائل قدرته، وعلمه وحكمته، ويعلمهم القرآن، ويوقفهم علىٰ أسرار الشريعة، ومقاصد الأحكام، وتلك هي الحكمة التي قال الله فيها: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ٢٦٩]، وقد أجاب الله دعوته كما ورد في حديث أحمد: «أنا دعوة إبراهيم وبشارة عيسىٰ»[١]، ثم أرانا الله بعد ذلك أنه لا يرغب عن ملة إبراهيم من التوحيد الخالص، وإسلام الوجه لله، والقيام بما أوحاه الله كاملًا غير منقوص، إلا من امتهن نفسه وازدراها، وأنَّ الله اختاره في الدنيا لإمامة الناس، وجعل في ذريته النبوة والكتاب، وإنه في الآخرة لمن الصالحين لجوار ربه، المتمتعين برحمته ورضوانه؛ لأنَّ الله قال له أسلم، فقال: أسلمت لرب العالمين، ووصىٰ بها إبراهيم بنيه ويعقوب، وهو يقول: ﴿يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

---

(١) رواه أحمد: (١٧١٥٠)، والطبري في جامع البيان: (٢/ ٥٧٢)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة: (٤/ ٨٣٠)، (١٤٠٤). (عمرو)

إبراهيم عليه السلام

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا(١) ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ
مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ(٢) ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾
فَلَمَّا جَنَّ(٣) عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا
رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ
﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ
مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا(٤) ۖ وَمَآ أَنَا۠
مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ
بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ
أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ(٥)
فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ
أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ(٦) ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ
دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٧٤-٨٣].

---

(١) قيل: فرقٌ بين الوثن والصنم، هو: أنَّ الوثن: ما له جثة تُنصب فتُعبَد، والصنم: الصورة بلا جثة. وقيل: لا فرق بينهما ويطلقان على المعنيين.

(٢) مُلك.

(٣) غطّاه. أفَل: غاب واحتجب.

(٤) من الحَنَف -بالتحريك-: وهو الميل من المعوجّ إلى الاستقامة.

(٥) برهانًا. يَلْبِسوا: يخلطوا.

(٦) الدلالة المبينة للمقصد المستقيم.

* شرح وعبرة[1]:

(١) قال ابن القيم: «[إنها] أحسن مناظرةٍ وأبْيَنَها. ظهرت فيها حُجّته. ودَحضَت حجتهم، فقال بعد أن بَيّن بطلان إلهية الكواكب والقمر والشمس بأفولها، وأن الإله لا يليقُ به أن يغيب ويأفُل، بل لا يكونُ إلا شاهدًا غير غائب، كما لا يكون إلا غالبًا قاهرًا، غير مغلوب ولا مقهور، نافعًا لعابده، يملك لعابده الضّرّ والنفع، فيسمع كلامه، ويرىٰ مكانه، ويَهْدِيه، ويُرْشِدُهُ، ويدفع عنه كل ما يضُرّه ويؤذيه، وذلك ليس إلا الله وحده، فكل معبودٍ سواه باطلٌ.

فلما رأىٰ إمامُ الحنفاء أن الشمس والقمر والكواكب ليست بهذه المثابة، صعد منها إلىٰ فاطرها وخالقها ومبدعها، فقال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ٧٩].

وفي ذلك إشارة إلىٰ أنه سبحانه خالق أمكنتها ومحَالّها، التي هي [١٥٠ أ] مفتقرة إليها، ولا قِوام لها إلا بها، فهي محتاجة إلىٰ محل تقوم به، وفاطر يخلقها ويدبِّرها ويَرُبُّها. والمحتاج المخلوق المربوب المدبَّر لا يكون إلهًا، فحاجّه قومه في الله، ومن حاجّ في عبادة الله فحجَّته داحضة، فقال إبراهيم ﷺ: ﴿قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾؟ وهذا من أحسن الكلام، أي: أتريدون أن تصرفوني عن الإقرار بربي وبتوحيده، وعن عبادته وحده، وتُشككوني فيه، وقد أرشدني وبيّن لي الحق، حتىٰ استبان لي كالعيان، وبيّن لي بطلان الشرك وسوء عاقبته، وأن آلهتكم لا تصلح للعبادة، وأن عبادتها توجب لعابديها غاية الضرر في الدنيا والآخرة. فكيف تريدون مني أن أنصرف عن عبادته وتوحيده إلىٰ الشرك به، وقد هداني إلىٰ الحق وسبيل الرشاد؟

فالمحاجَّة والمجادلة إنما فائدتها طلب الرجوع والانتقال من الباطل إلىٰ الحق، ومن الجهل إلىٰ العلم، ومن العمىٰ إلىٰ الإبصار. ومجادلتكم إيّاي في الإله الحق الذي كلّ معبود سواه باطل تتضمن خلاف ذلك!

فخَوَّفوه بآلهتهم أن تصيبه بسوء، كما يخوِّفُ المشركُ الموحدَ بإلهه الذي يَأْلَهُهُ مع الله أن يناله بسوء، فقال الخليل: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾، فإن آلهتكم أقلّ وأحقر من أن تَضُرَّ مَنْ كفر بها وجحد عبادتها. ثم رد الأمر إلىٰ مشيئة الله وحده، وأنه هو الذي يخُاف ويُرجَىٰ، فقال: ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾، وهذا استثناء منقطع، والمعنىٰ: لا أخاف آلهتكم، فإنها لا مشيئة لها ولا قدرة، لكن إن شاء ربي شيئًا نالني وأصابني، لا آلهتكم التي لا تشاء ولا تعلم شيئًا، وربي له المشيئة النافذة، وقد وَسع كل شيءٍ علمًا، فمن أولىٰ بأن يخُاف ويعبد؟ هو سبحانه أم هي؟

ثم قال: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٨٠]، فتعلمون بطلان ما أنتم عليه من إشراك مَنْ لا مشيئة له ولا يعلم شيئًا، ممن له المشيئة التامة والعلم التامُّ؟

ثم قال: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٨١]؟

وهذا من أحسن قَلْبِ الحجة، وجعل حجة المبطل بعينها دالَّةً علىٰ فساد قوله، وبطلان مذهبه. فإنهم خوفوه بآلهتهم التي لم يُنزل الله عليهم سلطانًا بعبادتها، وقد تبيّن بطلانُ إلهيتها ومضرّة عبادتها، ومع هذا فلا تخافون شرككم بالله وعبادتكم معه آلهةً أخرىٰ؟

فأيّ الفريقين أحق بالأمن وأولىٰ بأن لا يلحقه الخوف؟ فريق الموحدين أم فريق المشركين؟ =

(١) يرينا الله -تعالىٰ- أنَّ نبي الله إبراهيم رأىٰ أباه وقومه يعبدون الأصنام فأنكر عليهم، ولم تمنعه الأبوة من ذلك الإنكار؛ ليرينا أنَّه لم يكن من الأدب مع الآباء تركهم وما هم فيه من باطل تأدُّبًا معهم، ولئن كان ذلك العمل مغضِبًا للآباء فهو مرضٍ للرب، وحق الله فوق حق الآباء، ومن ناحية أخرىٰ؛ فإنَّ الأب قد أحسن إلىٰ ولده الإحسان كله بتربيته والإنعام عليه، فكان من اللائق مكافأته علىٰ ذلك الإحسان، وإنَّ أكبر إحسانٍ للأب دعوته إلىٰ ما فيه سعادته، وإنقاذه من

= فَحَكَم الله سبحانه بين الفريقين بالحُكم العدل، الذي لا حكم أصحّ منه. فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ أي: بشرك ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

ولمَّا نزلت هذه الآية شقّ أمرها علىٰ الصحابة، وقالوا: يا رسول الله! وأيُّنا لم يظلم نفسه؟ فقال: «إنما هو الشرك، ألم تسمعوا إلىٰ قول العبد الصالح: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]؟».

فحكمَ سبحانه للموحِّدين بالهدىٰ والأمن، وللمشركين بضدّ ذلك، وهو الضلال والخوف.

ثم قال: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣]»، إغاثة اللهفان: (٢/ ١٠١٣-١٠١٥).

وقال في الصواعق: (٢/ ٤٨٨): «﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٨١]

يقول لقومه كيف يسوغ في عقل، أو عند ذي لب أن أخاف ما جعلتموه لله شريكا في الإلهية، وهي ليست بموضع نفع ولا ضر، وأنتم لا تخافون أنكم أشركتم بالله في إلهيته أشياء لم ينزل بها حجة عليكم، ولا شرعها لكم، فالذي أشرك بخالقه وفاطره وباريه -الذي يقر بأنه خالق السماوات والأرض ورب كل شيء ومليكه ومالك الضر والنفع- آلهة لا تخلق شيئًا وهي مخلوقة ولا تملك لأنفسها ولا لعابديها ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا وجعلها ندا له ومثلا في الإلهية تعبد ويسجد لها ويخضع لها ويتقرب إليها = أحق بالخوف ممن لم يجعل مع الله إلها آخر، بل وحده وأفرده بالإلهية والربوبية والعظمة والسلطان والحب والخوف والرجاء.

فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون؟!

فحكم الله سبحانه بينهما بأحسن حكم خضعت له القلوب وأقرت به الفطر وانقادت له العقول فقال ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]

فتأمل هذا الكلام، وعجيب موقعه في قطع الخصوم، وإحاطته بكل ما وجب في العقل أن يرد به ما دعوه إليه وأرادوا حمله عليه، وأخذه بمجامع الحجة التي لم تبق لطاعن مطعنا ولا سؤالا، ولما كانت بهذه المثابة أشار سبحانه بذكرها وعظمها بالإشارة إليها وأضافها إلىٰ نفسه تعظيما لشأنها فقال: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ [الأنعام: ٨٣].

فعلم السامع بإضافته إياها إلىٰ نفسه أنه هو الذي فهمها خليله ولقنها إياه وعنه سبحانه أخذها الخليل، وكفىٰ بحجة يكون الله ﷻ ملقنها لخليله وحبيبه أن تكون قاطعة لمواد العناد، قامعة لأهل الشرك والإلحاد».

عذاب الله، ومن فوائد دعوة إبراهيم لأبيه أن يقيم الحجة علىٰ قومه، حتىٰ لا يقولوا لماذا يدع أقاربه في ضلالهم ويدعونا؟ أليس من اللائق ألا يفرق بين قريب وبعيد إذا كان ما يقوله حقًّا، فلكي تنقطع أعذارهم دعا أباه إلىٰ عبادة الله وحده، كما دعا قومه، ولعل هذا هو السر في تكليف نبينا محمد ﷺ بإنذار عشيرته الأقربين قبل إنذاره لقومه، وقد صدع بالأمر، وأخذ يجمعهم ويخوفهم من الله، ويريهم أنه لا يغني عنهم من عذاب الله شيئًا إذا هم خالفوه، وأخذ يقول: «**يا عباس بن عبد المطلب! لا أغني عنك من الله شيئًا، يا صفية عمة رسول الله! لا أغني عنك من الله شيئًا، ويا فاطمة بنت محمد! سليني ما شئتِ من مالي، لا أغني عنك من الله شيئًا**»[1] من ذلك نعرف أنَّ نبي الله إبراهيم كان قويًّا في الحق، شديدًا علىٰ أهل الضلال أيًّا كانت مكانتهم منه، ألا تراه يقول لأبيه آزر: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾، وكما أرىٰ الله إبراهيم قبح عبادة الأصنام أراه ملكوت السماوات والأرض، وما أودع فيهما من آيات، وما اشتملا عليه من دلائل، ولأجل أن يكون إبراهيم موقنًا بوحدة الله وقدرته وحكمته= فعل به ما فعل، وأراه بعيني بصيرته من جلال الله وجماله ما أراه.

(٢) تأمل كيف استطاع إبراهيم عليه السلام أن يحج قومه بطريق الاستدراج، فحينما غطىٰ عليه الليل رأىٰ كوكبًا، فقال لقومه بأسلوب المتهكم ﴿هَٰذَا رَبِّيۖ﴾ فلما غاب ذلك الكوكب قال: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾، فلا أعبد إلهًا يحضر أحيانًا ويغيب أحيانًا، ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾، وكيف أعبد إلهًا يضيء بعض الوقت ويغيب البعض الآخر، ومن الذي يهديني من الضلال إذا هو غاب؟ ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ﴾؛ لأنَّ ضوءها أشد، ونفعها أشمل وأعمّ ﴿فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾، وهي مهارة من نبي الله إبراهيم، واستدراجه للقوم حتىٰ أقام عليهم الحجة، ووضع أيديهم علىٰ مواطن الضعف منهم، انتقل بهم من

---

(١) رواه البخاري في تفسيره.

قلت (عمرو): أي: في كتاب تفسير القرآن: (٤٧٧١)، ومسلم: (٢٠٦).

كوكب إلىٰ كوكب، وأراهم أن موقفه منهم موقف الباحث، حتىٰ لا ينفروا من مجادلته، وأراهم أنَّ الكواكب علىٰ اختلافها قوّةً وضعفًا لا يصلح واحد منها أن يكون إلهًا معبودًا؛ لأنَّها تغيب وتحضر، ثم بعد أن أقام الحجة عليهم بذلك الأسلوب اللين، أملىٰ عليهم عقيدته، فأراهم أنَّه بريء ممَّا يشركون بالله، وأنَّه أسلم وجهه للإله الذي فطر السماوات والأرض مائلًا من الباطل إلىٰ الحق، وما أنا من المشركين.

(٣) يرينا الله -تعالىٰ- أنَّ قوم إبراهيم جادلوه في الله، وحاجوه في توحيده، وخوفوه من آلهتهم أن يصيبه سوء منهم، فأنكر عليهم هذه المحاجَّة وقد هداه الله -تعالىٰ- إلىٰ التوحيد، وأراهم أنَّه لا يخاف شركاءهم أن ينزلوا به سوءًا إلَّا إذا شاء الله ذلك السوء، فهو الذي يخاف؛ لأنَّه وسع كل شيء علمًا، ولو كانوا من أهل التذكر ما خوّفوه من آلهتهم، ثم أراهم أنه كيف يخاف شركاءهم وهم خلقٌ من خلق الله، ولا يخافون هم أن يشركوا بالله ما لم ينزل به عليهم برهانًا ودليلًا، وأي الفريقين أحق بالأمن: إبراهيم الموحد، أم قومه المشركون، ثم ختم الآية بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾؛ ليريهم أنَّ الأحق بالأمن هم أهل التوحيد الخالص، والإيمان الصحيح، الذين لم يخلطوا إيمانهم بظلمهم لأنفسهم، أما أهل الشرك، وعباد الأوثان فليسوا أهلًا للأمن من عذاب الله، وطمأنينة القلب ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

(٤) بعد ذلك امتنَّ الله -تعالىٰ- علىٰ إبراهيم بتلك الحجة العظيمة التي أقامها إبراهيم ﷺ علىٰ قومه، وأنَّ الذي آتاها إبراهيم هو الله -تعالىٰ-، ولولا هدايته لإقامة هذه الحجة ما اهتدىٰ، فهو الذي يرفع من يشاء في العلم والحكمة وإقامة الحجة درجات، وهو الذي يهب الناس قوة البيان، وحضور البديهة، يمتن الله -تعالىٰ- علىٰ إبراهيم بأنَّه آتاه حجة بالغة، وقد أريناك في هذه السورة كيف تغلب إبراهيم علىٰ قومه بذلك الأسلوب الساحر، وأعجب منه تلك المحاجة التي ينبهنا الله لها في سورة البقرة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ

ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، يقول إبراهيم لمناظره: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾، والمراد أنَّه هو الذي يهب الحياة وينزعها، فقال: ﴿أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ ۖ﴾ يريد أنه يستبقي الحي، وتلك حياة له، وأنه يعتدي علىٰ الحي فيموت، وبذلك ظن أنه يماثل إله إبراهيم، وأنه حجة، فترك إبراهيم ﷺ ذلك الطريق، وسلك به أسلوبًا آخر لا يستطيع أن يرد عليه، فقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾، وهي حجة لا تقبل جدلًا، ولا تتحمل تأويلًا، ولذلك بهت بها الذي كفر، وفَلَجَ[1] بها نبي الله إبراهيم، وهي مقدرة عظيمة، وقوة نادرة يهبها الله لمن شاء من عباده، ومِن شُكْر الله علىٰ هذه النعمة ألا نستعملها في إضعاف حق، أو ترويج باطل، وألا نعطلها عند الحاجة إليها، وكثير من الناس يعطىٰ حجة دامغة، وبيانًا قويًا، ولكنه يقف من الحق كالشيطان الأخرس، يسكت علىٰ الباطل حتىٰ يشيع، ويترك الحق مخذولًا غير منتصر، وسيحاسبه الله -تعالىٰ- علىٰ ذلك البيان، وهذه النعمة ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨].

(١) أي: ظهر بحجته. انظر: التقفية في اللغة: (٣٣٤)، والمخصص: (٣/٤٠٩). (عمرو)

إبـراهيـم عليه السلام

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ
﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ
﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ
فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً[1] مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ
إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾
ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ
ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ
وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٣٥-٤١].

* **شرح وعبرة:**

(١) أهم شيء في هذه القصة من سورة إبراهيم عليه السلام التأسي به في الدعاء، وهو باب كبير من أبواب عبادة الله -تعالىٰ-، وقد ورد في الحديث الصحيح «**الدعاء هو العبادة**»[2]؛ لأنَّه مظهرٌ واضح من مظاهر العبودية للمدعوّ، واعترافٌ بأنَّه أهلٌ لأن ترفع له الحاجة، ويَلجأ إليه الداعون عند الشدة، وقد غفل كثير من الناس عن ذلك فوجهوا وجوههم شطر الصالحين، ويمَّموا الأضرحة والتوابيت، وأخذوا يستغيثون بأصحابها، ويستنصرون بهم في قضاء حوائجهم ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ

---

(١) قلوبًا. تهوي: تميل.

(٢) أخرجه أحمد: (٣٠/٢٩٨)، (١٨٣٥٢)، وأبو داود: (١٤٧٩)، والترمذي: (٢٩٦٩). (عمرو)

بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٦، ١٠٧].

(٢) طلب من الله -تعالىٰ- أن يجعل مكة حرمًا آمنًا من اعتداء الناس عليه، وقَصْدِه بسوء، وأن يجنِّبه وذريته عبادة الأصنام التي كان يبغضها بغضًا شديدًا، وقد بين سبب بغضه لها في قوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ وما كان سببًا في ضلال الناس جديرٌ به أن يبغض، وجدير به أن تطهر منه الأرض؛ ولذا تجد نبي الله إبراهيم في سورة الأنبياء أقسم بالله ليكيدنَّ أصنامهم، وقد برَّ في قسمه، ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٨]؛ ليرينا أنَّ الطريق في إفراد الله بالعبادة هي إزالة كل أسباب الشرك، وذرائع الوثنية، وهو الذي حمل رسول الله محمدًا ﷺ علىٰ أن يزيل من حول البيت كل صنم، وحمل خلفاءه الراشدين ألَّا يدعوا تمثالًا إلا هدموه، ولا قبرًا مشرفًا علىٰ الأرض إلا سَوَّوه، وهو الذي حمل عمر بن الخطاب أن يقطع الشجرة التي كانت عندها بيعة الصحابة حينما شعر أنَّ الناس سيتبركون بها فرأىٰ أن ذلك عرق من عروق الشرك، وباب من أبواب الفساد[١]، وذلك السبب نفسه هو الذي حمله علىٰ أن يزيل مظلة وضعها بعض الناس لأحد الموتىٰ، فسأله لماذا وضعت عليه هذه القبة؟ قال لتظله، فقال عمر: «**دعوه يظله عمله**»[٢].

وهو الذي دعا المسلمين في الصدر الأول لإزالة القباب من فوق القبور، وهو الذي حمل الإمام عبد العزيز آل سعود علىٰ أن يزيل القباب من بلاد الحجاز، كما أزالها سلفه في نجد، كل ذلك لأنها تُضِل كثيرًا من الناس، وتفتح عليهم بابًا من أبواب الشرك، فالتأسي بإبراهيم ﷺ في بغضه للشرك وذرائع

---

(١) أخرجها ابن سعد في الطبقات الكبرىٰ: (٢/ ١٠٠). والفاكهي في أخبار مكة: (٥/ ٧٧-٧٨)، لكن في أسانيدها نظر. وقال الطبري: «وزعموا أن عمر بن الخطاب ﷺ مر بذلك المكان بعد أن ذهبت الشجرة، فقال: أين كانت، فجعل بعضهم يقول هنا، وبعضهم يقول: ههنا، فلما كثر اختلافهم قال: سيروا هذا التكلف فذهبت الشجرة وكانت سمرة إما ذهب بها سيل، وإما شيء سوىٰ ذلك»، التفسير: (٢١/ ٢٧٥). (عمرو)

(٢) أخرجه البخاري معلقًا عن ابن عمر، «ورأىٰ ابن عمر ﷺ، فسطاطا علىٰ قبر عبد الرحمن، فقال: «انزعه يا غلام، فإنما يظله عمله» »، انظر: فتح الباري: (٣/ ٢٢٣). (عمرو)

الشرك، والتأسي بإبراهيم عليه السلام في تطهير الأرض من كل ماله علاقة بالشرك؛ ليبقىٰ توحيد الله خالصًا لا يشوبه شيء من الوثنية، والتأسي بإبراهيم عليه السلام في تدبر هذه الكلمة التي قالها نبي الله إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾؛ لنعرف أسباب فتنة الناس في دينهم، وصرفهم عن الحق الذي أتىٰ به الرسل، فكل من كان قدوة سيئة في الباطل، وسببًا في صرف الناس عن الدين، ينبغي للمؤمن أن يبغضه، ويعمل علىٰ الحيلولة بينه وبين الناس، حتىٰ لا يفتنوا به، ثم قال إبراهيم: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، يريد إبراهيم أنَّ من تبعه في محبة الحق والعمل له؛ فإنَّه بعض مني، وقد أجاب الله فيه دعوته، ومن عصاني ثم تاب ممَّا فرط منه فإن الله يغفر له ذنبه، ويقبل توبته.

(٣) ثم دعا ربه أن يجعل قلوب الناس تهوي إلىٰ بعض أبنائه الذي أسكنهم بمكة عند بيت الله المحرم، وهي بلدٌ مجدِب لا زرع فيه، وأنه يرزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون فضله عليهم، وقد أجاب الله دعوته، فحبَّبَ الناس في ذلك البيت، وأودع في قلوب الناس إجلاله وتوقيره، وجلب إليه الثمرات من جهات شتَّىٰ، فترىٰ فيه الفاكهة علىٰ اختلاف أنواعها: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧]، ثم قال مخاطبًا لربه: ﴿إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾، وما طلبنا منك لنعرفك ما لا تعرف، وإنَّما طلبنا منك اعترافًا بقدرتك، وإذعانًا لربوبيتك، وافتقارًا لِمَا عندك، واستعجالًا لنَيل أياديك، ثم حمد ربه أن وهبه مع كبر سنه إسماعيل وإسحاق، بعد أن طلب منه أن يهبه ذرية صالحة، حمده أن سمع دعاءه، وأجابه إلىٰ ما طلب، ثم طلب منه أن يجعله مقيمًا للصلاة[1]، وأن يجعل مِنْ ذريته مَنْ يقيمها، وأن يتقبل دعاءه، ويغفر له ولوالديه وللمؤمنين يوم يقوم الحساب.

---

(١) وقد استجاب الله دعاءه. فقال عن إسماعيل بن إبراهيم: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٤، ٥٥]. (عمرو)

إبـراهـيـم عليه السلام

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠-١٢٣].

*** شرح وعبرة:**

(١) إنَّ القلم ليقف حيران لا يدري ماذا يكتب في تصوير هذه الكلمة التي وصف الله بها نبي الله إبراهيم، وتقريبها من نفوس القارئين، وهو يقول: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾، ولو أمعن الإنسان النظر فيها= لرأىٰ أنَّها مقال مسهب في مدح نبي الله إبراهيم، بل هي رسالة من رسائل الثناء، يرينا الله بها أنَّ إبراهيم قد بلغ من الكمال في صفات الخير ما استحق به أن يكون أمة وحده، فكل ما تفرق في الناس من خلالٍ طيبة وشِيَم مرضية، وخُلُق طاهر، قد جمعه الله -تعالىٰ- لنبيه إبراهيم، وبذلك صار إبراهيم أمة، فهو أمة في الدعوة إلىٰ الله -تعالىٰ-، في الاحتمال والصبر، في لين الجانب وجمال الأسلوب، في الثبات في الحق، في التأفُّف من الباطل، والاشمئزاز منه، وحضور البديهة، وسرعة الخاطر، في التواضع والخشية من الله -تعالىٰ-، وما إلىٰ ذلك من صفات الكمال.

ولَيسَ علىٰ الله بمُستَنْكَرٍ أنْ يَجْمَعَ العالم في واحد[١]

(٢) ثم وصف الله -تعالىٰ- إبراهيم بأنه (قَانِتٌ) لله وهو القائم بأمر الله -

---

(١) البيت لا يستقيم وزنه إلا بحذف الواو، وهو كذلك في بعض المصادر، والبيت من كلام أبي نواس، انظر: الديوان: ١/٣٤٩)، وخزانة الأدب: (٢/٣٧٣)، ولباب الآداب: (١٧٤). (عمرو)

تعالىٰ-، الخاضع له، و(حَنِيف) وهو المائل إلىٰ ملة الإسلام مَيلًا لا يزول عنه، وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ردٌّ علىٰ اليهود الذين ادَّعوا أنهم علىٰ ملة إبراهيم، وكذلك النصارىٰ، وأخذ كل فريق يضمه إليه علىٰ ما هم عليه من الشرك.

وقد ردَّ الله عليهم في سورة آل عمران ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٥-٦٨]، ومن خلال إبراهيم أنَّه شاكرٌ لأنعم الله، وهي كلمة جامعة لأنواع الشكر الذي يقابله الكفر، ومن الغضّ من شكر إبراهيم لربه أن يفسره بعض العلماء بأنه عليه السلام كان لا يتغذَّىٰ إلا مع ضيف، إلا أن يكون ذكر ذلك علىٰ سبيل المثال(١)، وإلا فالشكر لأنعم الله -تعالىٰ- أعم من شكره علىٰ نعمة المال، والولد، والصحة، وغير ذلك من أنواع النعم التي لا يحصيها العدّ، وما أحسن قول الله ﴿ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؛ فإنَّ الاجتباء هو أن تأخذ الشيء جميعه، من جَبَبْتُ الماء في الحوض: جمعته، فالاجتباء: الجمع علىٰ طريق الاصطفاء، وكأنَّ الله -تعالىٰ- يلفتنا إلىٰ أن الله ضمه إليه ليصطفيه لذلك المنصب الجليل، وهو منصب النبوة، في هداه إلىٰ صراط مستقيم في الدعوة إلىٰ الله -تعالىٰ-، والترغيب في الدين الحق، والتنفير عن الباطل، ثم قال: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ قيل هي إقرار أهل الأديان به، وقيل هي قول المصلي: «**كما صليت علىٰ إبراهيم وعلىٰ آل إبراهيم**»(٢). وقيل الذكرىٰ الطيبة تحقيقًا لطلبه: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى

---

(١) التفسير بالمثال لا يفيد الحصر، فلو عمد مفسِّرٌ متأخرٌ إلىٰ بيان العموم في آية ذكر السلف فيها مثالات، أو أضاف مثالًا لم يقل به السلف والعموم يحتمله، فإنه يقبل.

وقد تنبه المصنف رحمه الله إلىٰ هذا المعنىٰ، فكون إبراهيم عليه السلام لا يتغذىٰ إلا ومعه ضيف، نوع من شكر الله تعالىٰ علىٰ نعمه، ولا يعني كون هذه الصورة هي الوحيدة في شكر إبراهيم عليه السلام لربه سبحانه. (عمرو)

(٢) هذه إحدىٰ صيغ الصلاة علىٰ النبي ﷺ، وقد رواها البخاري في صحيحه: (٣٣٧٠)، عن عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ، قال: لقيني كعب بن عجرة، فقال: ألا أهدي لك هدية سمعتها من النبي ﷺ؟ فقلت: بلىٰ، فأهدها لي، فقال: سألنا رسول الله ﷺ فقلنا: يا رسول الله، كيف الصلاة عليكم أهل البيت، فإن الله قد علمنا كيف نسلم عليكم؟ قال: «قولوا: اللهم صل علىٰ محمد وعلىٰ آل محمد، كما =

﴿ٱلْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤]، وقيل الصدق والوفاء والعبادة، ويصح أن يراد بالحسنة كل ذلك، ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ كما طلب ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الشعراء: ٨٣][(١)].

(٣) يرينا الله -تعالىٰ- أنه بعد أن عرف محمدًا صلىٰ الله عليه سلم ما كان عليه إبراهيم من كمال الصفات، وأحاسن الأخلاق، وبعد أن عرفه أنه كان أمة جامعًا لصفات الخير، مطيعًا لله مائلًا عن الباطل إلىٰ الحق، وأنه كان شاكرًا لنعم الله، وأنَّ الله اجتباه وهداه، ورزقه حسنة في الدنيا وهو في الآخرة من الصالحين، بعد ذلك كله أراه أنه أوحىٰ إليه أن يتبع ملة إبراهيم، ويتأسىٰ به في: **الاحتمال والصبر** علىٰ إيذاء الناس له ووضعهم العقبات في سبيل دعوته، **ومجادلتهم بالحسنىٰ**، فالمراد أن يتبعه في طريق الدعوة إلىٰ التوحيد، وهو أن يكون بطريق الرفق والسهولة، وإيراد الدلائل مرة بعد أخرىٰ، ونظيره: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وقوله: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، أو يتبع ملته في التوحيد الخالص، وبغضه للشرك وذرائع الشرك.

وقد خصَّ إبراهيم بذلك لأنه رئيس الموحدين وقدوة العباد والناسكين، والمشركون علىٰ اختلاف نحلهم كانوا مفتخرين به، معترفين بحسن أسلوبه، مقرِّين بوجوب الاقتداء به، وآية ذلك أن اليهود ادعَوا أنهم علىٰ ملته، والنصارىٰ يقولون إنهم علىٰ طريقته.

وقد رد الله عليهم بأنَّه لم يكن يهوديًا ولا نصرانيًا، ولكن كان حنيفًا مسلمًا، فلم يكن معكم في الشرك، فإذا شئتم النسبة إليه فاتَّبعوه في التوحيد، واسلكوا طريقه في ملته الحنيفيَّة، فلا عجب أن ينفي الله عن نبيه إبراهيم في هذه القطعة من السورة نسبته إلىٰ الشرك مرتين؛ فمرة يقول: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، ومرة يقول: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

= صليت علىٰ إبراهيم، وعلىٰ آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلىٰ آل محمد، كما باركت علىٰ إبراهيم، وعلىٰ آل إبراهيم إنك حميد مجيد». (عمرو)

(١) انظر هذه الأقوال في تفسير الطبري: (١٤/ ٣٩٧). (عمرو)

(٤) وهناك نكتة لطيفة في قوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ . . . إلخ ترينا أن أشرف ما أوتي خليل الله من الكرامة، وأعظم ما حباه الله -تعالىٰ- من نعم= اتِّبَاع رسول الله ﷺ ملته، وهي تدل علىٰ تعظيم منزلة رسول الله ﷺ وإجلال مكانته، صلوات الله وسلامه عليه وعلىٰ آله وصحابته وتابعيه، وعلىٰ حامل لواء التوحيد نبي الله إبراهيم، صلاةً تليق بمقامهم، وتتناسب مع مكانتهم، وعلو منزلتهم.

إبـراهيـم عليه السلام

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا(١) نَّبِيًّا ۝٤١ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ۝٤٢ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ۝٤٣ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ(٢) ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ۝٤٤ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا(٣) ۝٤٥ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا(٤) ۝٤٦ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا(٥) ۝٤٧ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا﴾ [مريم: ٤١-٤٨].

* شرح وعبرة:

(١) يأمر الله نبيه محمد ﷺ أن يذكر في الكتاب إبراهيم ليعتبر الناس بسيرته، ويذّكروا بقصته، وقد كان أول خُلُقٌ في نبي الله إبراهيم أنه كان من الصدِّيقين، و**الصِّدِّيق** من أمثلة المبالغة كـ: منطيق، واستحق ذلك اللقب الكبير لفرط صدقه، حتىٰ صار الصدق خُلُقًا راسخًا فيه، أو لفرط تصديقه بآيات الله وكتبه ورسله؛ فسماه الله **صِدِّيقًا** لذلك، وكان مع ذلك نبيًّا، أي: كان جامعًا خصائص الصديقين والأنبياء حينما خاطب أباه تلك المخاطبات.

---

(١) خلقه الصدق.

(٢) لطع.

(٣) ناصرًا.

(٤) طويلًا.

(٥) سبأ.

وتأمل كيف وصفه الله -تعالىٰ- بذلك الوصف، وهو أنه صِدِّيق قبل أن يصفه بالنبوة، ليرينا قيمة الصدق وأنه مِلاك أمر النبوة، ولعلَّ في ذلك مدّكرًا لقوم يطمعون في إمامة الناس، ثم هم مع ذلك لا يتحرجون من الكذب، وإذا أنت أخذت تلومهم رأيت منهم المعاذير تلو المعاذير، وأسهل شيء عندهم أن يقولوا: إنه كذبٌ قضت به المصلحة، وما دروا أن هذا العذر يفتح عليهم بابًا من أبواب جهنم، وأي باب من أبواب الكذب لا يستطيع الرجل أن يعتذر عنه بمثل هذا؟ فشاهد الزور أمام المحاكم يحرف في الشهادة لأن تحريفه لها قضت به مصلحته المادية، وكاتم الشهادة يكتم شهادته لاعتقاده أن هذه الشهادة إن أُدِّيت علىٰ وجهها الصحيح أضرَّت بالمشهود عليه، والذي يفتي للناس بغير ما يعتقد اتّباعًا لشهواتهم وأهوائهم إنما يتقي بهذه الفتوىٰ ضررًا يلحق به، أو يجلب نفعًا يعود عليه، وكل كذب من العقلاء لا يمكن أن يكون لغير مصلحة، إما جلب نفع، أو دفع ضرر، ولذلك عظم أمر الصدق، وإقامة الشهادة علىٰ وجهها الصحيح ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥]، وهي خلة لا يقوىٰ عليها سوىٰ أقوياء الإيمان، ثابتي العقيدة، ما أبرد الصدق علىٰ النفوس، وما أشقه في هذه الأوساط الموبوءة، ما أبرده علىٰ نفوس الأتقياء المؤمنين، وما أصعبه علىٰ نفوس الضعفاء والمنافقين.

(٢) لو تأملت أسلوب نبي الله إبراهيم مع أبيه في هذه القصة لرأيت فيها العجب، ترىٰ فيها أدبًا جمًّا، وتلطفًا بأبيه غير محدود، وتواضعًا في تزكية نفسه، وحجة دامغة، وأسلوبًا سهلًا، يقول له: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾، فيستهل خطابه بتذكيره برابطة الأبوة، وهي رابطة من أقوىٰ الروابط، من شأنها أن تجعل كلا من المترابطين جدّ حريص علىٰ مصالحة صاحبه، ومن ناحية أخرىٰ يحاول نبي الله إبراهيم أن يكسر بذلك الأسلوب الجذاب حدة أبيه، حتىٰ يستطيع أن يبلغه رسالة الله، ويقيم عليه حجته وهو هادئ غير ثائر، بعد أن ناداه بذلك الأسلوب الموجب للحنان والعطف قال له في أدب: لم تعبد إلهًا لا يسمعك إذا ناديته، ولا يبصرك إذا عبدته، ولا يغني عنك -إذا حل بك مكروه- شيئًا من الغناء، وهل يستوي إله يسمع، وإله أصم؟ وهل يستوي أعمىٰ وبصير.

(٣) ثم عقب ذلك بدعوة أبيه إلىٰ الحق في رفق ولين، فلم يصف أباه بالجهل المفرط، ولا نفسه بالعلم الفائق، فقال: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾، ثم أخذ ينهاه عن طاعة الشيطان؛ فإنَّ الشيطان عصىٰ الله -تعالىٰ-، ولا ينبغي للإنسان أن يطيع من عصىٰ ربه، ثم ختم وعظه بإشفاقه علىٰ أبيه، وخوفه أن يصاب بعذاب من الله فيكون وليًّا الشيطان، وقد أمرنا الله باتخاذ الشيطان عدوًّا لا وليًّا، فقال: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]، فماذا كان من أبيه بعد ذلك الترفق البليغ؟ كان منه أن قال له: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ أنكر علىٰ ولده إبراهيم أن يرغب عن آلهة أبيه آزر، ثم أخذ يقابل اللين بالشدّة، والرفق في القول بالفظاظة، فناداه باسمه، ولم يقابل: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ كلمة العطف بقوله: ﴿يَٰبُنَيَّ﴾، وأراه أن آلهته لا ينبغي أن يرغب عنها أحد، ثم لجأ إلىٰ طريق التهديد، فقال: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ﴾ يريد بذلك الشتم والسب، ومنه الرجم المرمي باللعن، أو لأطردنك رميًا بالحجارة، وأصل الرجم: الرمي بالرجام وهي الحجارة، ثم طلب منه أن يهجره زمنًا طويلًا لا يراه فيه.

(٤) فلم يكن من إبراهيم بعد الشدة التي رآها من أبيه سوىٰ أن قال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ﴾ سلام توديع ومتاركة، كقوله: ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥]، وقوله في وصف عباد الرحمن: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، ثم وعده مع ذلك أن يستغفر له ربه، علّه يغفر له ذنبه، وكان ذلك قبل يأسه من إيمانه، أما بعد أن تبيَّن له أنه عدو لله، لا يقبل في آلهته كلامًا، ولا يستطيع أن يدع عبادتهم، فقد تبرأ منه وكفّ عن الاستغفار له ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٣، ١١٤]، ثم وعده بأن يعتزله هو وآلهته ويدعو ربه وحده رجاء أن لا يكون شقيًّا بذلك الدعاء، عرَّض بشقاوتهم بدعاء آلهتهم مع تواضعه لله بكلمة ﴿عَسَىٰ﴾ وما في ذلك التواضع من هضم النفس، يرينا نبي الله إبراهيم أنه لما لم يستطع أن يحول بين أبيه وقومه، وبين عبادة الأوثان= تجنبهم هم ومعبوديهم،

حتىٰ لا يكون مظهره من أولئك القوم مظهر الراضي عن عبادتهم؛ ليرينا أن من رأىٰ صاحبه علىٰ منكر فليعمل علىٰ إبعاده منه، فإن أخفق في ذلك فليتجنبه في ذلك المنكر، وإن كان أقرب الناس إليه، ولا يمنعه ذلك أن يؤدّي للأبوّة حقها من البر؛ فإنَّ ذلك حق مستقل لا صلة له بالعقيدة، ولذلك يقول الله: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَاۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًاۖ﴾ [لقمان: ١٥]، فإذا طالبك أبوك بمعصية الله، فلا تطعه؛ فإنَّ حق الله فوق حق الوالد، وإن طلب منك مالًا فأجبه فإن ذلك من الصحبة بالمعروف، وكفاء حسن التربية بالحسنة، وذلك هو نهاية الحكمة، وغاية الإنصاف.

إبراهيم عليه السلام

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا
هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ
أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ
رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ(١) وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ
أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا(٢) إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ
﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ
إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا
بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾
فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟(٣) عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ
عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا
يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ(٤) لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ
وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾

---

(١) أبدعهنّ، وخلقهنّ.

(٢) قطعًا صغيرة.

(٣) من النَّكْس، وهو قلب الشيء على رأسه ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾ نردّه إلى ما كان عليه من ضعف الجسم والعقل.

(٤) أصل **الأُفّ** -بالضم-: كل مستقذر، وتقال لكل مستخف استقذارًا له، وقد أَفَّفْت -بالتشديد- لكذا، إذا قلت ذلك استقذارًا له.

﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ۝٧٠ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ۝٧١ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً(١) وَكُلًّا جَعَلْنَا صَـٰلِحِينَ ۝٧٢ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَـٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١-٧٣].

* شرح وعبرة:

(١) يرينا الله -تعالىٰ- أنَّه أعطىٰ إبراهيم رشده وهداه لوجوه الصلاح من قبل موسىٰ وعيسىٰ، وكان عالمًا به حينما قال لأبيه وقومه تلك القصة الآتية، والمراد أن إبراهيم ﷺ قد أوتي رشده، وكان موضع رضا الله وهو يناقش قومه ويحاججهم، وما دام إبراهيم كذا فتأسَّ به، وترسَّم خطاه، ﴿إِذْ قَالَ﴾ إبراهيم ﴿لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَـٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَـٰكِفُونَ﴾ وهو تجاهلٌ من إبراهيم لأصنامهم وتغابٍ، ليحقِّر آلهتهم، ويصغِّر من شأنها مع علمه بتعظيمهم إياها، وإجلالهم لها، كما تقول إذا ذكر أمامك رجل من الناس -بلسان المستخفّ المنكر لأن يكون هناك رجل له ذلك الاسم-: ومن ذلك الرجل؟ فكان جوابهم عن ذلك أن قالوا: ﴿وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَـٰبِدِينَ﴾، فكل ما عندهم من حجة لعبادة أولئك الأصنام أن وجدوا آباءهم عابدين لها، وما دام ذلك عمل الآباء والأجداد فكيف نحيد عنه؟ وهي شبهة أعداء الرسل جميعهم، وتكأتهم في صدِّ الناس عن الحق، وإبعادهم عن الرشد، عمدوا إلىٰ العقول فعطَّلوها، وإلىٰ الأسماع فأصمُّوها، وإلىٰ الأبصار فأعموها، اعتمادًا علىٰ عقل الآباء والأجداد، وتعويلًا علىٰ سمع السابقين والمتقدمين، وكأن الله -تعالىٰ- خلق لهم هذه الأسماع والأبصار، ووهبهم أولئك العقول، ليعطلوها عن وظائفها، ويحولوا بينها وبين أداء واجبها، وما دروا أن الله -تعالىٰ- يمتن علينا بهذه النعم، ويذكرنا بتلك المواهب لنشكره عليها بأعمالها، ولا نكفره فيها بتعطيلها وإهمالها ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]، وحسبنا أنَّ أهل النار يقولون وهم يصطرخون فيها: ﴿لَوْ

---

(١) زلد الولد، من النَّفْل، وهو الزيادة.

كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا(١) لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠، ١١]، وأنَّ الله -تعالىٰ- يقول في صفات أهل جهنم الذين خلقوا لها وخلقت لهم، وبها تستطيع أن تعرفهم في هذه الحياة ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، نعم إنَّ هذه السُّنَّة -سُنَّة التقليد- هي سنة أعداء الرسل جميعهم، وعادتهم في التخلص من دعوة الحق، أنَّ يعمدوا إلىٰ الآباء فيتمسحوا بهم، ويلجؤوا إلىٰ السابقين فيستمسكوا بطريقهم، وإن كان السابقون ليسوا من العقل في قليل ولا كثير، وليسوا من العلم في نَقِير أو قِطْمِير ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠]، ونظيره قول الله -تعالىٰ- في سورة **المائدة**: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤]، ولله درّ **الزمخشري** إذ يقول: «ما أقبح التقليد، والقول المتقبل بغير برهان، وما أعظم كيد الشيطان للمقلدين حين استدرجهم إلىٰ أن قلَّدوا آباءهم في عبادة التماثيل، وعفروا لها جباههم، وهم معتقدون أنهم علىٰ شيء، وجادُّون في نصرة مذهبهم، ومجادلون لأهل الحق عن باطلهم، وكفىٰ أهل التقليد سبة أن عَبَدَة الأصنام منهم»(٢)، فلا عجب إذا لم يُقِم نبي الله إبراهيم لهذه الشبهة وزنًا، ولم يعمل لها حسابًا، بل قال: ﴿لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾؛ لأنَّكم لا تعتمدون علىٰ دليل، بل علىٰ هوىً مُتَّبع، وشيطان مُطاع.

(٢) قد عجب قوم إبراهيم من صنيعه معهم، وحسبوا أنه قال ما قال في آلهتهم علىٰ وجه المزاح والمداعبة، لا علىٰ سبيل الجد، فقالوا له: ﴿أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾، فأراهم أنَّ الأمر جدٌّ لا لعب، وأنَّ أولئك الأصنام لا تستحق أن تكون لكم أربابًا، بل الذي يستحقَ ذلك ويستأهله ربّ السماوات

---

(١) بعدًا وهلاكًا.

(٢) الكشاف: (٣/ ١٢١)، فتوح الغيب: (١٠/ ٣٦٣). (عمرو)

والأرض الذي خلقها علىٰ غير مثال سابق، أو فطر الأصنام التي تعبدونها، وأنا شاهد علىٰ ذلك بالحجة والبرهان؛ لأنِّي لست مثلكم، فأقول ما لا أقدر علىٰ إثباته ثم لم يكتفِ نبيُّ الله إبراهيم بإنكاره علىٰ قومه عبادة الأصنام، وتضليلهم في ذلك العمل هم وسلفهم، بل أتبع القول بالعمل، فأقسم ليكيدن أصنامهم بعد أن يتركوها، فأخذ يجذهم صنمًا بعد صنم، حتىٰ صارت قطعًا صغيرة، عدا صنمهم الأكبر، تركه بدون جذّ، علهم إليه يرجعون في حلّ ذلك الإشكال، ومعرفة المعتدي علىٰ جيرانه من الأصنام، أو علهم يرجعون إليه فيسألوه لماذا تتحمل الإهانة للأصنام وأنت مطرق ساكت؟ لماذا لا تذود عنهم ذلك الأذىٰ الذي حلّ بهم؟ ولعل ذلك المنطق يقودهم إلىٰ معرفة الإله الحق، ويقولون في أنفسهم ما بالنا نعبد آلهة لا تدفع الشر عن نفسها؟ وإذا كانت من العجز إلىٰ ذلك الحد فكيف تدفع الشرّ عن عابديها؟ وما قيمة إله بلغ من العجز إلىٰ ذلك الحدّ المزري؟ ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٣] ﴿قَالُوا﴾ فيما بينهم ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وأخذوا يبحثون عنه، ويتلمسونه في القوم، فقال قائلهم: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ فأمروا أن يؤتىٰ به علىٰ مرأىٰ من الناس؛ علّهم يشهدون عليه بما فعل، ويشهدون عقوبتنا له علىٰ ذلك العمل الجريء، ثم سألوه: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾؟ قال متهكّمًا بهم: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ فلما ألقمهم الحجر، وأخذ بمخانقهم ﴿فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بسؤال إبراهيم، وعدم سؤال الصنم الأكبر، أو رجعوا إلىٰ أنفسهم ليحاسبوها علىٰ عبادة أولئك الأصنام التي بلغت من الضعف إلىٰ ذلك الحد المُخجِل، فقالوا: إنَّكم أنتم الظالمون لأنفسكم بعبادتها، ثم انتكسوا وانقلبوا راكبي رؤوسهم عن تلك الحالة، فأخذوا في المجادلة بالباطل، أو قلبوا علىٰ رؤوسهم خجلًا من إبراهيم وانكسارًا، قائلين له: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾، فلماذا تدعونا إلىٰ سؤالهم، وهل تريد بذلك السؤال شيئًا وراء التهكُّم بآلهتنا؟ والزراية بمعبوداتنا؟ فلما علم نبي الله إبراهيم أنَّهم لا يصيخون لحجة، ولا ينصاعون لبرهان، ﴿قَالَ﴾ لهم بأسلوب المتضجر: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ قيمةَ الحجة، ومكانة البرهان؟

(٣) بعد أن أقام نبي الله عليهم الحجة، وأخذ عليهم طرق الجدل والكلام، لجؤوا إلىٰ الحديد والنار، فقالوا فيما بينهم: ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾، والمراد: إن كنتم تريدون نصر الإله نصرًا مؤزّرًا، فقال الله للنار: ﴿كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ وتلك سنة الله مع الرسل إذا حزبهم الأمر، وبلغت بهم الشدة منتهاها، سنته معهم أن يجيئهم النصر من عنده، فينجو به المتقون، ويخذل المستكبرون والمعاندون ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠]، فلا عجب أن ينجيه الله ومعه لوط إلىٰ بلاد الشام، ويهب له إسحاق ويعقوب، ويجعلهم كلهم صالحين، ويجعلهم أئمة يهدون الناس إلىٰ الحق بأمر الله، ويوحي إليهم بفعل الخيرات، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ويكونون لله -تعالىٰ- عابدين، وعند حدوده واقفين.

إبراهيم عليه السلام

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعۡبُدُ
أَصۡنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ
﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمۡ
وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾
وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ
﴿٨١﴾ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي
بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ(١) فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾
وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ
﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ [الشعراء: ٦٩-٨٩].

* شرح وعبرة:

(١) يسأل نبي الله إبراهيم أباه وقومه عن معبوديهم، حتىٰ إذا أجابوه ناقشهم في جوابهم فأقام عليهم الحجة، يسألهم عن المعبودين لهم فيقولون في جوابه: ﴿نَعۡبُدُ أَصۡنَامًا﴾ ولم يقفوا عند حدّ المسؤول عنه، بل قالوا: ﴿فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾ ليظهروا ما في نفوسهم الخبيثة من الابتهاج بذلك، فيسألهم إبراهيم: ﴿هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ﴾، فلا يستطيعون أن يجيبوا

---

(١) ذكرًا حسنًا وسيرة مرضية، أو المراد أنه سأل الله -تعالىٰ- أن يجعله صالحًا، بحيث إذا أثنىٰ عليه من بعده لم يكن ذلك الثناء كذبًا، بل يكون كما قال الشاعر:

إذا نحن أثنينا عليك بصالحٍ ... فأنت الذي نُثني وفوق الذي نثني

إبراهيم بأنَّ أصنامهم كذلك، تسمعهم إذا دعوهم، أو تجلب لهم نفعًا، أو تدفع عنهم ضُرًّا، ويجيبون جواب المفحَم المبهوت، فيقولون: ﴿بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾، فيقول لهم إبراهيم: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ﴾، يريد: أَنَظَرْتم فأبصرتم معبوديكم أنتم وآباؤكم حقَّ الإبصار؟ فإن أولئك المعبودين بُغَضَاء لي، وأعداء لا أبالي بهم، لكن رب العالمين ليس كذلك، بل هو وليِّي في الدنيا والآخرة.

ثم بيَّن الصفات التي يستحق بها أن يكون إلـٰه ومعبودة، فقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ بما وهبني من الفطرة التي تدعوني إلىٰ جلب النافع ودفع الضار، وأعطاني من السمع والبصر والعقل ما أستطيع به أن أعرف الحق من الباطل، وأقف به علىٰ ملكوت السماوات والأرض، وهداني بالوحي السماوي إلىٰ ما فيه سعادتي في الدنيا والآخرة، وإلـٰهٌ له ذلك كله لا يستوي هو وأصنام لا تملك من ذلك شيئًا، بل هي ملكٌ لله -تعالىٰ- وخلق من خلقه.

ثم وصفه بقوله: ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾ بما سخر لي من أسباب الرزق ووسائل العيش، وبما أنزله وينزله من الأمطار، ويفجره من العيون، ويجريه من الأنهار، ودعاني إليه من العمل، وأعدَّني له بصحة وعافية، واستطاعة لعمارة الأرض والانتفاع بخيراتها.

ثم وصفه بوصف آخر هو قوله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾، وقد أضاف المرض إلىٰ نفسه؛ لأن كثيرًا من أسباب المرض يحدث بتفريط من الإنسان في مطاعمه ومشاربه ووسائل حياته، وقد نسب الشفاء إلىٰ ربه؛ لأنَّه خلق لكلّ داء دواء، وهدىٰ الناس إلىٰ علاج أمراضهم عن طريق البحث في العقاقير، ووسائل الأدوية(١).

---

(١) قال ابن كثير: «أسند المرض إلىٰ نفسه، وإن كان عن قدر الله وقضائه وخلقه، ولكن أضافه إلىٰ نفسه أدبا، كما قال تعالىٰ آمرا للمصلي أن يقول: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧] فأسند الإنعام إلىٰ الله، ﷻ، والغضب حذف فاعله أدبا، وأسند الضلال إلىٰ العبيد، كما قالت الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠]؛ ولهذا قال إبراهيم: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ أي: إذا وقعت في مرض فإنه لا يقدر علىٰ شفائي أحد غيره، بما يقدر من الأسباب الموصلة إليه». التفسير: (٦/ ١٤٧). (عمرو)

وقد قطع الناس شوطًا كبيرًا في ذلك، وأصبحوا بواسطة العلم يهتدون إلىٰ علاج مقدار كبير من الأمراض، فتقدموا تقدمًا يذكر في الوقوف علىٰ العقاقير التي تعالج بها الأمراض، كما نبغوا في طريق كشف الأمراض، والوقوف علىٰ مكنونات الأجسام بواسطة الأشعة الكهربائية، وذلك كله فضل من الله، وهداية لبني الإنسان إلىٰ ما فيه حفظ حياتهم وصحتهم، فهو الذي يستحق الشكر علىٰ هذه الهداية.

ثم وصفه كذلك بأنه الإله الذي يملك الإماتة والإحياء، وأنه الذي يطمع أن يغفر له خطيئته يوم القيامة، وإلهٌ له كلّ هذه الخصائص جدير بأن يكون وليًا لإبراهيم، ومعبودًا لإبراهيم، ومَنْ علىٰ ملة إبراهيم.

(٢) انتقل نبي الله إبراهيم من وصف ربه بجلائل الصفات إلىٰ دعوته بأن يهبه الحكمة، وهي الكمال في العمل، بحيث يتمكن من خلافة الحق، ورياسة الخلق، وأن يوفقه من الأعمال والعلوم ما يؤهله للانتظام في زمرة الكاملين، وأن يرزقه جاهًا وحسن صيت في الدنيا بحيث يبقىٰ أثره إلىٰ يوم الدين، وقد أجاب الله دعوته، فما من أمة من الأمم إلا وهي مُحِبة له، مثنية عليه، أو اجعل لي لسانًا صادقًا من ذريتي، يجدد أصل ديني، ويدعو الناس إلىٰ ما كنت أدعوهم إليه من التوحيد، وهو النبي ﷺ، ولذا قال ﷺ: «**أنا دعوة أبي إبراهيم**»، ثم طلب أن يجعله في الآخرة من ورثة جنة النعيم، وأن يغفر لأبيه أنه كان في الدنيا من الضالين.

وقد سبق أنَّ ذلك الدعاء كان عند طمعه في إسلامه. وقد وعده إبراهيم أن يستغفر الله له، أمَّا بعد أن تبين له أنه عدوّ لله فقد تبرَّأ منه، ثم طلب ألَّا يخزيه الله في الآخرة في اليوم الذي لا ينفع فيه مال ولا بنون، إلَّا من أتىٰ الله بقلب سليم من الشرك، بعيد عن النفاق.

(٣) لعل في هذه القصة عبرة لمن يدْعُون من الموتىٰ من لا يسمعهم، ولا يملك أن يضرهم أو ينفعهم، ولعل في القصة عبرة لقوم ألفوا البطالة، وتركوا العمل، معتمدين علىٰ أنَّ الإله يطعمهم ويسقيهم، ذاهلين عن قوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠]، وقوله -تعالىٰ-:

﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ [الملك: ١٥]، لعل فيه عبرة لقوم أرادوا أن يكونوا عالةً علىٰ غيرهم في هذه الحياة، ثم يزعمون مع ذلك أنهم ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ كيف وعمر بن الخطاب يقول: «لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق، ثم يمد يده إلىٰ السماء يقول: «يا رب!»؛ فإنَّ السماء لا تمطر ذهبًا لا فضة!»[1].

(٤) ولعل في القصة عبرة لقوم جهلوا سنة الله في هذه الحياة، وجهلوا أنَّ البيوت إنَّما يَلِجُها الناس من أبوابها، فتركوا رجال العلم، وأساتذة الطب، الذين درسوه دراسة عميقة، ولا يزالون يدرسون وينقبون، ويجربون ويختبرون، ويعملون المؤتمرات، ويواصلون الليل بالنهار، للوقوف علىٰ أسباب الأمراض وعلاجها، وخصائصها وأعراضها؛ تركوا أولئك القوم الذين درسوا ذلك العلم، ولجأوا إلىٰ طرق ما أنزل الله بها من سلطان، فأحيانا يلجؤون إلىٰ باب **زَوِيلة** المعروف في مصر بـ: «**بوّابة المتولىٰ**» يعلقون عليه الشعور لشفاء ما برأسهم من صداع، وأحيانًا يلجؤون إلىٰ بعض المنائر في مساجد المسلمين، يصعدون عليها علَّها تزيل ما بهم من عقم، ومرة يلجئون إلىٰ الدجاجلة والنصابين، حملة كتب الدجل والشعوذة، والضاربين للرمل، والمُحضِّرين للشياطين، وغير ذلك.

وقد خرجوا بعملهم هذا علىٰ قول الله -تعالىٰ-: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١٨٩].

---

(١) ذكره الغزالي في الإحياء: (٢/ ٦٢). (عمرو)

إبراهيم عليه السلام

﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ
مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا[(١)] ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً
فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ[(٢)] ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا
تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ[(٣)] عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ[(٤)]
﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى
ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾
رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ
أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ
مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ
إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾

---

(١) الإفك: كل مصروف عن وجهه الذي يحق أن يكون عليه، ومنه: ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾، أي: يصرفون عن الحق في الاعتقاد إلى الباطل. ومن الصدق في المقال إلى الكذب. ومن الجميل في الفعل إلى القبيح. وقد يستعمل الإفك في الكذب ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ﴾، ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾﴾ و﴿إِفْكًا﴾ في الآية مفعول ﴿تُرِيدُونَ﴾. و﴿ءَالِهَةً﴾ بدل منه، ويكون قد سماهم إفكًا على المبالغة. ويصح أن يكون إفكًا مفعول من أجله: أي: أتريدون آلهة من أجل الإفك الذي كان، منكم وصرف الأمور عن وجهها الذي يحق أن تكون عليه.

(٢) مريض النفس من إعراضهم عن الله.

(٣) مال نحوهم لأمر يريده منهم بالاحتيال، من الرَّوغ، وهو الميل.

(٤) يسرعون، ﴿تله﴾ أسقطه على التل، ﴿صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ نسبتها إلى الصدق، أو حققتها وحصل المقصود منها، ﴿ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾: الاختبار الظاهر، ﴿بذبح﴾: مذبوح.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ٨٣-١١١].

* شرح وعبرة:

(١) يرينا الله -تعالىٰ- في هذه القصة أن إبراهيم ﷺ من شيعة نبي الله نوح، وشيعة الرجل: الذين يتقوىٰ بهم، مِن شاع الخبر: كثر وقوي، والمراد أن نبيّ الله إبراهيم علىٰ دين نوح وسنته، ومنه تعلم أن الأنبياء ﷺ بشايع بعضهم بعضًا في الحق والدعوة إلىٰ الله -تعالىٰ-، والتصلب في دينه ومصابرة المكذبين.

وقد بين الله -تعالىٰ- ما شايعه فيه بقوله: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ ... إلخ، والمراد أنَّه سليم من أمراض القلوب كالنفاق والحسد، والخور والضعف أمام العدو القوي[١].

ثم بيَّن تهكم إبراهيم بالأصنام، وقوله منكِرًا لعملهم: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾، والمراد أتريدون آلهة من دون الله إفكًا، فسمَّىٰ الآلهة إفكًا علىٰ المبالغة؛ فإنَّ الإفك هو الكذب، ويصحُ أن يكون المراد أتريدون آلهة من أجل الإفك الذي كان منكم، وصرفكم الأمور عن وجهها الذي يحق أن تكون عليه، ثم سألهم: ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أي: شيء هو حتىٰ جعلتم الأصنام له أندادًا، وما ظنكم فيما هو فاعل بكم من عقوبة علىٰ ذلك الشرك، وتسويتكم القويّ بالضعيف، والمخلوق بالخالق.

(٢) يرينا الله -تعالىٰ- أنَّ نبي الله نظر نظرة في النجوم، وعبادة القوم لها مع أنها تنادي بلسان حالها بأن لها ربًّا دبَّرها، وخالقًا سيَّرها، وما قصته في سورة الأنعام ببعيدة، وفيها أنه حينما رأىٰ كوكبًا من الكواكب قال لقومه: «هذا ربي» علىٰ زعمكم، فلمَّا أفل قال لقومه: «لا أحب الآفلين»، فأيأسهم من عبادته ذلك الكوكب، بعد ذلك رأىٰ القمر بازغًا، فقال لقومه: «هذا ربي»، فلما غاب قال: «إنَّ هذا الكوكب لا يهديني؛ لأنَّه يغيب ويحضر، فلا يصلح إلهًا»، فلما

---

(١) لم يذكر القلب السليم في القرآن. إلا مع ذكر الخليل إبراهيم:
ففي سورة الشعراء أخبر ﷺ أنه لا ينفع يوم البعث مالٌ ولا بنون ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.
وفي سورة الصافات. وصف الله قلب إبراهيم بالسلامة. ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾. (عمرو)

رأىٰ الشمس بازغةً قال لقومه: «هذا ربي، هذا أكبر الكواكب»، فلما أفلت قال: «يا قوم إني بريء ممَّا تشركون».

تلك نظرة نبي الله إبراهيم في الكواكب، واقتناعه أنَّها لا تصلح أن تكون آلهة تعبد، ومع ذلك كله يصرّ قومه علىٰ عبادتها، فتلك هي نظرته في النجوم، وذلك هو سقمه من عبادة الناس لها وكفرهم بخالقها، والمهيمن عليها، فهو سقيم من كفر القوم وعنادهم.

وجدير بمن يجد من كفر الناس وعنادهم ما وجد نبي الله إبراهيم أن يسقم قلبه، ويتألم ضميره ووجدانه، بعد أن عرفهم ذلك انصرفوا عنه مدبرين عن دعوته، مولين عن طريقه.

(٣) بعد ذلك ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾، مِن: رَاغَ الثعلب يَرُوغ رَوَغانًا: إذا مال إليه علىٰ سبيل الاحتيال لأمر يريده، وبعد أن وصل إليهم أخذ يتهكم بهم، ويقول: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ ۝٩١ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾، ثم أقبل إليهم يضربهم بقوّة، وذلك مظهر من مظاهر غيظ إبراهيم منهم، وحدته عليهم، وهو الذي يقول في دعائه: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾.

وجدير بالعاقل أن يبغِض مَن هذا حاله، فأخذ قومه يسرعون إليه، لانزعاجهم من تحقير معبوديهم، والتهكُّم بآلهتهم، فأخذ يناقشهم: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝٩٥ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ يستنكر عليهم أن يصنعوا آلهة بأيديهم، ثم هم مع ذلك يعبدونها، وينكر عليهم أن يعبدوا آلهة هي وهم من خلق الله -تعالىٰ-، وكانت الأصنام من خلق الله ومن عملهم؛ كالباب والكرسي، هما من عمل النجار باعتبار الشكل والصورة، ومن خلق الله -تعالىٰ- باعتبار الذات والجوهر، وكالسوار والخلخال من عمل الصائغ من جهة شكلها، ومن خلق الله باعتبار جوهرها.

وقد أطال المتكلمون في الكلام علىٰ هذه الآية من جهة دلالتها علىٰ أن العمل مخلوق لله -تعالىٰ-، والآية ليست في باب العمل الذي هو مصدر، وإنَّما هي في العمل الذي هو معمول، أي: مكان العمل؛ لأنَّ قوله: ﴿وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ ترجمة عن قوله: ﴿مَا تَنْحِتُونَ﴾، و﴿مَآ﴾ في قوله: ﴿مَا تَنْحِتُونَ﴾ اسم موصول،

وليست مصدرية، فكذلك في قوله ﴿وَمَا تَعْمَلُونَ﴾، وإلَّا لاختلفت الترجمة والمترجم عنه، ولما كان لاحتجاج إبراهيم علىٰ قومه معنىٰ، إذا كان المراد والله خلقكم وخلق عملكم، وإنَّما تنتظم الحجة ويستقيم الاستدلال إذا كان المراد أتعبدون ما تنحتونه بأيديكم، والله خلقكم وخلق ما عملتم وهم أولئك الأصنام التي مِن صنع يدكم(١).

---

(١) قال الطبري: «وقوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] يقول تعالىٰ ذكره مخبرا عن قيل إبراهيم لقومه: والله خلقكم أيها القوم وما تعملون وفي قوله: ﴿وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] وجهان:
أحدهما: أن يكون قوله: ما بمعنىٰ المصدر. فيكون معنىٰ الكلام حينئذ: والله خلقكم وعملكم.
والآخر أن يكون بمعنىٰ الذي. فيكون معنىٰ الكلام عند ذلك: والله خلقكم والذي تعملونه: أي والذي تعملون منه الأصنام. وهو الخشب والنحاس والأشياء التي كانوا ينحتون منها أصنامهم. وهذا المعنىٰ الثاني قصد إن شاء الله». التفسير: (١٩/ ٥٧٥).
وقال ابن تيمية: «أما جوابه عن احتجاجهم بقوله تعالىٰ: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٥٩-٩٦] بأن المراد بذلك الأصنام، فلا ننازعه في أن المراد بذلك الأصنام، فإن هذا هو أصح القولين. و«ما» بمعنىٰ الذي، ومن قال: إنها مصدرية والمراد والله خلقكم وعملكم فهو ضعيف، فإن سياق الكلام إنما يدل علىٰ الأول؛ لأنه قال: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٥، ٩٦] فأنكر عليهم عبادة المنحوت. فالمناسب أن يذكر ما يتعلق بالمنحوت وأنه مخلوق لله.
والتقدير والله خلق العابد والمعبود، ولأنه لو قال: والله خلقكم وعملكم لم يكن في هذا ما يقتضي ذمهم علىٰ الشرك، بل قد يقال: إنه إقامة عذر لهم.
وذلك لأن الواو في قوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ واو الحال. والحال هنا شبه الظرف، كلاهما قد يتضمن معنىٰ التعليل كما يقال: أتذم فلانًا وهو رجل صالح وتسيء إليه وهو محسن إليك؟ فتقرر بذلك ما يوجب ذمه ونهيه عما أنكرته عليه.
وهو سبحانه ينكر عليهم عبادة ما ينحتون، فذكر قوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ متضمنا ما يوجب ذمهم علىٰ ذلك ونهيهم عنه. وذلك كون الله تعالىٰ خلق معمولهم. ولو أريد والله خلقكم وعملكم الذي هو الكفر وغيره، لم يكن في ذلك ما يناسب ذمهم. ولم يكن في بيان خلق الله تعالىٰ لأفعال عباده ما يوجب ذمهم علىٰ الشرك.
لكن يقال: هذه الآية تدل علىٰ أن أعمال العباد مخلوقة؛ لأنه قال: والله خلقكم والذي تعملونه من الأصنام. والأصنام كانوا ينحتونها. فلا يخلو: إما أن يكون المراد خلقه لها قبل النحت والعمل. أو قبل ذلك وبعده.
فإن كان المراد ذكر كونها مخلوقة قبل ذلك لم يكن فيها حجة علىٰ أن المخلوق هو المعمول المنحوت. لكن المخلوق ما لم يعمل ولم ينحت.
وإن كان المراد خلقها بعد العمل والنحت. فمن المعلوم أن النحت الذي فيها هو أثرهم وعملهم.
وعند القدرية أن المتولد عن فعل العبد فعله لا فعل الله. فيكون هذا النحت والتصوير فعلهم لا فعل =

(٤) بعد أن أخذ عليهم نبي الله إبراهيم كلَّ باب من أبواب الحجة، لجأوا إلىٰ الحديد والنار، فقالوا لبعضهم: ﴿ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ﴾، وهي النار الشديدة الوقود، وقيل: كل نار علىٰ نار، وحجر فوق حجر= فهو جحيم، وقد أخبرنا الله -تعالىٰ- أنَّهم أرادوا بإبراهيم كيدًا فرد الله عليهم كيدهم، ومكروا فكان مكر الله فوق مكرهم، ودبروا فكان تدبيره خيرًا من تدبيرهم.

وقد أرانا الله -تعالىٰ- في سورة الأنبياء أنَّ الله -تعالىٰ- قال للنار: ﴿كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ عقب قولهم ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾، بعد أن نجَّاه الله من قومه قال: ﴿إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ أراد بذلك مهاجرته إلىٰ حيث أمره الله بالمهاجرة إليه من أرض الشام، كما قال: ﴿إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾، ثم طلب من الله أن يهبه من الأولاد الصالحين. فبشره الله بغلام حليم.

(٥) من عادة القرآن أن يحذف من القصة ما لا تدعو إليه العبرة، ولا يتوقف عليه الفهم؛ اعتمادًا علىٰ فطنة السامع، فيرينا الله -تعالىٰ- أنَّه بعد أن بَّشره بغلام ووهبه ذلك الغلام، ثم نشأ وترعرع حتىٰ وصل إلىٰ سن يستطيع معه أن يسعىٰ، قال له: ﴿يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾؟ وهي استشارة تحمل في حناياها لواعج الألم، ومثيرات الحزن والأسىٰ، استهلَّها

= الله. فإذا ثبت أن الله خلقها بما فيها من التصوير والنحت، ثبت أنه خالق ما تولد عن فعلهم والمتولد لازم للفعل المباشر وملزوم له، وخلق أحد المتلازمين يستلزم خلق الآخر. فدلت الآية أنه خالق أفعالهم القائمة بهم، وخالق ما تولد عنها، وخالق الأعيان التي قام بها المتولد، ولا يمكن أن يكون أحد المتلازمين عن الرب والآخر عن غيره، فإنه يلزم افتقاره إلىٰ غيره.

وأيضا فنفس حركاتهم تدخل في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ﴾، فإن أعراضهم داخلة في مسمىٰ أسمائهم، فالله تعالىٰ خلق الإنسان بجميع أعراضه، وحركاته من أعراضه، فقد تبين أنه خلق أعمالهم بقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ﴾ وما تولد عنه من النحت والتصوير بقوله: ﴿وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ فثبت أنها دالة علىٰ أنه خالق هذا وهذا، وهو المطلوب. مع أن الآيات الدالة علىٰ خلق أعمال العباد كثيرة، كما تقدم التنبيه عليها. لكن خلقه للمصنوعات مثل الفلك والأبنية واللباس هو نظير خلق المنحوتات، كقوله تعالىٰ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يس: ٤١، ٤٢] وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: ٨١]»، منهاج السنة: (٣/ ٣٣٦-٣٣٩). (عمرو)

نبي الله بقوله: ﴿يَـٰبُنَيَّ﴾، وكأنَّه يقول: يا بني، ويا فلذة كبدي، الذي وهبك الله لي بعد دعائي إياه أن يهب لي ذرية صالحة تعاونني في الدعوة، وتناصرني في إقامة دين الله، إنِّي أرىٰ في المنام أني أذبحك، فما الذي أنت فاعل في ذلك البلاء؟ وبأي عزيمة تلقىٰ تلك المحنة؟ وإنَّها لمحنة ما أشدها علىٰ نفوس الوالد والولد، فماذا كان جوابه عن ذلك السؤال الرهيب وتلك الاستشارة الموجعة؟ ولو أنَّ ملكًا من ملوك الدنيا بعث إلىٰ رجل من رعيته برسوله له، يبلغه أن ذلك الملك المطاع، أمر أن تصادر أملاكه، ويعيش صفر اليدين، أو أمر أن ينفي من بلده، ويحال بينه وبين مواطنيه، لو أن رجلًا من الناس بلغه ذلك علىٰ لسان رسول لا يكذب= لكان من شأن ذلك الخبر أن ينخلع له قلب ذلك الرجل عند سماع القصة، فكيف بصبي يبلغه عن ربه، بواسطة أبيه، وأبوه رسول لا يكذب، مطيع لا يعصي، أن يحرمه من هذه الحياة، ويحول بينه وبين أن يعيش، كيف بصبي يبلغه أبوه رؤياه المناميَّة أنه يذبحه!! ماذا تكون نفسه التي بين جنبيه في ذلك الحين؟ وماذا يكون قلبه؟ وماذا تكون إجابته؟ وقد استشير، ولو أنَّ الأمر كان من طريق القسر لكان أهون علىٰ النفس، وأخفّ في الاحتمال، كان جواب ذلك الصبي أن يقول قَالَةَ الراضي المطمئن: ﴿يَـٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾، وكأنَّه يقول لأبيه: إنَّني أقدر قيمة ألمك لتلك التضحية، وجهاد نفسك في ذلك العمل الشاق؛ لأنِّي قطعة منك، ولكنَّ حقَّ الله عليك فوق حق الأبناء والأحفاد، وإجابتك لداعيه أهمّ من إجابتك لدواعي الفطرة، فأجِب داعي الله، وتغاضَ عن داعي الشفقة والحنان، واصدع بأمر الله، إرغامًا للشيطان، فإذا كنت قد ناديتني بقولك: ﴿يَـٰبُنَيَّ﴾؛ فإنِّي أناديك بقولي لك: ﴿يَـٰٓأَبَتِ﴾، وأقول لك قول الراضي بقضاء الله وحكمه: ﴿ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ﴾، وسوف لا تراني ممتعضًا بذلك البلاء ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾، فلم يكن من نبي الله إبراهيم وولده سوىٰ استسلامهما لأمر الله، فأخذ إبراهيم ينفذ أمره، وأخذ ولده يصبر لقضاء الله وحكمه، فحينما أسقطه علىٰ التلّ، ناداه الله أن إبراهيم، قد حققت الرؤيا فاغتبط وأبشر بالفرج بعد الشدة، واليسر بعد العسر، ولا تعجب من ذلك، فإن هذه سنتنا في جزاء المحسن.

ثم أرانا الله -تعالىٰ- أنَّ ذلك البلاء الذي ابتلىٰ به إبراهيم وولده هو الاختبار البيِّن الذي يتميز به المخلصون، أو هو المحنة البينة الصعوبة التي لا محنة أصعب منها، وأي محنة أشد من محنة الرجل بابنه وفلذة كبده، ثم فداه الله بمذبوح سمين.

ثم أرانا الله -تعالىٰ- أنَّه ترك علىٰ إبراهيم في الآخرين من الأمم هذه الكلمة: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾، وأنَّه -تعالىٰ- يجزي المحسنين بتخليد ذكرهم وإبقاء أثرهم.

فانظر كيف وصل نبي الله إبراهيم من طاعته لربه إلىٰ ذلك الحد، وكيف وصل ولده من رضاه بقضاء الله وحكمه إلىٰ ذلك المكان من الرضا، ولعلنا إذا قسنا التكاليف بتلك الفتنة؛ فإنَّها تصغر أمامها وتذبل، ولعلنا نتأسىٰ بذلك النبي الذي هو قدوة صالحة في الصدع بأمر الله، وبولده في الرضا بقضاء الله.

هذه قصة نبي الله إبراهيم وولده الذبيح[1]، وهي لا تتجاوز آيات تُعَدُّ علىٰ

---

(١) قال ابن تيمية: «فإن الذبيح هو إسماعيل علىٰ أصح القولين للعلماء، وقول أكثرهم كما دل عليه الكتاب والسنة، فقال الخليل: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ قال الله: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ والغلام الحليم إسماعيل، وأما إسحاق فقال فيه ﴿نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾، وإسحاق بشرت به سارة أيضا لما غارت من هاجر، والله ذكر قصته بعد قصة الذبيح، فانه لما ذكر قصة الذبيح قال بعدها: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾. والمقصود هنا أن الله أمر الخليل بذبح ابنه بكره امتحانًا له وابتلاءً ليخرج من قلبه محبة ما سوىٰ الله، ليتم كونه خليلًا بذلك فهذا هو الكمال». الرد علىٰ المنطقيين: (٥١٧-٥١٨).

وقال في موطن آخر: «ومما يدل علىٰ أنه إسماعيل قصة الذبيح المذكورة في سورة الصافات. قال تعالىٰ: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ وقد انطوت البشارة علىٰ ثلاث: علىٰ أن الولد غلام ذكر، وأنه يبلغ الحلم، وأنه يكون حليما.

وأي حلم أعظم من حلمه حين عرض عليه أبوه الذبح فقال: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾؟

وقيل: لم ينعت الله الأنبياء بأقل من الحلم وذلك لعزة وجوده، ولقد نعت إبراهيم به في قوله تعالىٰ ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾، ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ لأن الحادثة شهدت بحلمهما.

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ -إلىٰ قوله- ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾.

فهذه القصة تدل علىٰ أنه إسماعيل من وجوه:

أحدها: أنه بشره بالذبيح وذكر قصته أولًا فلما استوفىٰ ذلك قال: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ =

. . . .

= ﴿وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ﴾ فبين أنهما بشارتان: بشارة بالذبيح، وبشارة ثانية بإسحاق وهذا بين.

الثاني: أنه لم يذكر قصة الذبيح في القرآن إلا في هذا الموضع. وفي سائر المواضع يذكر البشارة بإسحاق خاصة، كما في سورة هود: من قوله تعالىٰ ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾ فلو كان الذبيح إسحاق لكان خلفا للوعد في يعقوب.

وقال تعالىٰ: ﴿فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ﴿٢٨﴾ فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ﴾، وقال تعالىٰ في سورة الحجر: ﴿قَالُواْ لَا تَوۡجَلۡ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرۡتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُواْ بَشَّرۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡقَٰنِطِينَ﴾ ولم يذكر أنه الذبيح، ثم لما ذكر البشارتين جميعًا: البشارة بالذبيح والبشارة بإسحاق بعده كان هذا من الأدلة علىٰ أن إسحاق ليس هو الذبيح.

ويؤيد ذلك أنه ذكر هبته وهبة يعقوب لإبراهيم في قوله ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ﴾ وقوله: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ولم يذكر الله الذبيح.

الوجه الثالث: أنه ذكر في الذبيح أنه غلام حليم. ولما ذكر البشارة بإسحاق ذكر البشارة بغلام عليم في غير هذا الموضع. والتخصيص لا بد له من حكمة، وهذا مما يقوي اقتران الوصفين، والحلم هو مناسب للصبر الذي هو خلق الذبيح، وإسماعيل وصف بالصبر في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، وهذا أيضًا وجه ثالث فإنه قال في الذبيح: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، وقد وصف الله إسماعيل أنه من الصابرين. ووصف الله تعالىٰ إسماعيل أيضا بصدق الوعد في قوله تعالىٰ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ﴾ لأنه وعد أباه من نفسه الصبر علىٰ الذبح فوفىٰ به.

الوجه الرابع: أن البشارة بإسحاق كانت معجزة: لأن العجوز عقيم؛ ولهذا قال الخليل ﷺ ﴿أَبَشَّرۡتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ وقالت امرأته: ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ﴾ وقد سبق أن البشارة بإسحاق في حال الكبر. وكانت البشارة مشتركة بين إبراهيم وامرأته.

وأما البشارة بالذبيح فكانت لإبراهيم ﷺ وامتحن بذبحه دون الأم المبشرة به وهذا مما يوافق ما نقل عن النبي ﷺ وأصحابه في الصحيح وغيره: من أن إسماعيل لما ولدته هاجر غارت سارة فذهب إبراهيم بإسماعيل وأمه إلىٰ مكة وهناك أمر بالذبح.

وهذا مما يؤيد أن هذا الذبيح دون ذلك.

ومما يدل علىٰ أن الذبيح ليس هو إسحاق أن الله تعالىٰ قال: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾ فكيف يأمر بعد ذلك بذبحه؟ والبشارة بيعقوب تقتضي أن إسحاق يعيش ويولد له يعقوب. ولا خلاف بين الناس أن قصة الذبيح كانت قبل ولادة يعقوب بل يعقوب إنما ولد بعد موت إبراهيم ﷺ. وقصة الذبيح كانت في حياة إبراهيم بلا ريب.

ومما يدل علىٰ ذلك: أن قصة الذبيح كانت بمكة، والنبي ﷺ لما فتح مكة كان قرنا الكبش في الكعبة. فقال النبي ﷺ للسادن: إني آمرك أن تخمر قرني الكبش فإنه لا ينبغي أن يكون في القبلة ما يلهي المصلي.

ولهذا جعلت منىٰ محلا للنسك من عهد إبراهيم وإسماعيل ﷺ. وهما اللذان بنيا البيت بنص القرآن. =

أصبع اليد الواحدة ومع ذلك نرىٰ بعض الخطباء في يوم العيد الأكبر يذكرون هذه القصة، ويضيفون إليها من الإسرائيليات ما تمجه النفوس، رجاء أن يؤثروا علىٰ العامة بذلك الحشو، وقد سمعت خطيبًا يتلو في هذه القصة وما أضافه إليها من حشو زهاء نصف ساعة، ولا أدري من أين للخطباء ذلك اللغو الذي يضعونه في هذه القصة، وهل التاريخ يحفظ للناس ما كان من نبي الله إبراهيم مع ولده حتىٰ يستطيعوا أن يعوّلوا عليه؟ اللهم إنَّا لا نعلم من قصة إبراهيم مع ولده وقومه إلَّا ما علمناه منك، ولا نعلم من قصة يوسف وإخوته إلَّا ما علَّمتنا علىٰ لسان نبيك، وكذلك بقية الرسل، فعلمنا كيف نأخذ الغيب عنك، وكيف نتأدّب معك، ونفيض في القصص حيث أفاض كتابك، ونسكت حيث سكت ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

= ولم ينقل أحد أن إسحاق ذهب إلىٰ مكة لا من أهل الكتاب ولا غيرهم لكن بعض المؤمنين من أهل الكتاب يزعمون أن قصة الذبح كانت بالشام فهذا افتراء

فإن هذا لو كان ببعض جبال الشام لعرف ذلك الجبل. وربما جعل منسكا كما جعل المسجد الذي بناه إبراهيم وما حوله من المشاعر.

وفي المسألة دلائل أخرىٰ علىٰ ما ذكرناه. وأسئلة أوردها طائفة كابن جرير والقاضي أبي يعلىٰ والسهيلي. ولكن لا يتسع هذا الموضع لذكرها والجواب عنها». مجموع الفتاوىٰ: (٤/ ٣٣٢-٣٣٦). (عمرو)

إبراهيم عليه السلام

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً[(١)] لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الممتحنة: ٤-٦].

* شرح وعبرة:

(١) الذي يقرأ سورة الممتحنة وسابق الآية ولاحقها= يستطيع أن يفهم المراد من الآيات، ينهانا الله في أول السورة أن نتخذ عدوّه وعدونا في دينه أولياء، نناصرهم ونعينهم علىٰ المؤمنين، ونلقي إليهم بالمودة، وقد كان منهم أن كفروا بما جاءنا من الحق، وأخرجوا رسولنا وأخرجونا من مكة، لا لذنب سوىٰ إيماننا بالله ربنا وخالقنا.

وقد شرح حنق أولئك الأعداء علىٰ المؤمنين في قوله: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ﴾؛ ليرينا أنَّ ذلك النفر من الكفار إن عثروا عليكم كانوا أعداء لكم، وبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء لينالوا به منكم.

---

(١) ابتلاءً واختبارًا، والمراد: لا تجعلنا قدوة سيئة لهم تحملهم علىٰ الكفر وتحببهم فيه، بل اجعلنا قدوة صالحة في الإيمان كما تفيد الآية السابقة واللاحقة.

وقومٌ حالهم معكم حرب مستمر لا ينبغي أن تتخذوا منهم أولياء، ولا أن يكون بينكم وبينهم مودة، هذا ما يعطيه سابق الآيات، وأما لاحقها فيرينا الله فيه أنَّه لا ينهانا عن الذين لم يقاتلونا في الدين، ولم يخرجونا من الديار أن نبرّهم ونقسط إليهم، إنَّما ينهانا عن الذين قاتلونا في الدين، وأخرجونا من ديارنا، وظاهروا علىٰ إخراجنا، أن نتولاهم ولايةَ نُصرَةٍ ومودة.

من ذلك كله نستطيع أن نفهم التأسي بنبي الله إبراهيم ﷺ والذين معه، في تبرُّئهم من عبادة غير الله، وكُفرهم بمعبوديهم، وإعلانهم العداوة والبغضاء لهم إلىٰ أن يؤمنوا بالله وحده؛ لأنَّ سبب حنق أولئك علىٰ المؤمنين هو شركهم، ومتىٰ زال ذلك الشرك زال الحنق، وحلَّت المودة محل الخصومة؛ لذلك غيَّىٰ نبي الله إبراهيم عداوته لأولئك بهذه الغاية، وليس المراد أننا نعادي كل من يخالفنا في الدين، وإن لم يقاتلنا فيه، ولم يخرجنا من الديار، ولم يظاهر الناس علىٰ إخراجنا، ولو كان ذلك هو المراد لناقض القرآن بعضه بعضًا، ولكان ذلك العمل مخالفًا للحكمة والمنطق، ومخالفًا لسيرة الرسول ﷺ العملية، وسيرة خلفائه الراشدين، فقد وادع النبي ﷺ اليهود حين قدم المدينة وأقرهم علىٰ دينهم وأموالهم، فالتأسي بنبي الله إبراهيم في كراهة المشركين وإعلان عداوتهم وبغضائهم لم يكن لحجر شركهم، بل لدفاعهم عن الشرك، وإيذاء أنصار التوحيد، وفتنتهم الناس في عقائدهم، حتىٰ لا يكونوا آمنين علىٰ دينهم، أمَّا الشرك الذي لا يحارب توحيدًا، ولا يصدّ أصحابه الناس عن الإيمان، ولا يَعرِضون لهم بشيء من الأذىٰ= فلا معنىٰ لعداوة أصحابه ومحاربتهم.

أمَّا قوله: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾؛ فهو استثناء من الأمر بالتأسي بإبراهيم، والمراد أنَّ إبراهيم لا ينبغي التأسي به في وعده أباه أن يستغفر الله له؛ لأنَّ القرآن يرينا أنَّه لا ينبغي لنبي ولا لمؤمن أن يستغفر لمشرك، ولو كان قريبًا له، من بعد ما ظهر له أنَّه من أهل النار، وأن نبي الله إبراهيم لم يستغفر لأبيه آزر إلَّا لأنَّه وعده الاستغفار، فلما ظهر له أنه عدوٌّ لله، مصرٌّ علىٰ الشرك، محارب للتوحيد= تبرأ منه؛ لذلك لم يكن إبراهيم أسوة صالحة في ذلك؛ لأنَّ الله نهانا عنه.

(٢) أما قول إبراهيم: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، فهي دعوة ما أعظم شأنها وأجل قيمتها، وأصل المادة من: **الفَتْن**، وهو إدخال الذهب النار لتظهر جودته من رداءته، فالفتنة هي الاختبار والمحكّ الذي به يظهر حال الإنسان، ومن أجل ذلك كانت الشدائد فتنة، وكان المال فتنة، وكانت الأولاد فتنة، وكانت المناصب فتنة، وكان لا غنىٰ للمؤمن عن أن يختبر في دنياه بأنواع من الاختبار ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٢، ٣]، وتطلق الفتنة علىٰ تضليل الرجل، وزلزاله بواسطة الشدائد التي تقع عليه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠]، ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣]، ﴿وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المدثر: ٩٤]؛ أي: يوقعوك في بلية وشدّة في صرفهم إياك عما أوحي إليك.

فنبي الله إبراهيم يطلب من ربه ألا يكون فتنة واختبارًا للذين كفروا، يحببهم في الكفر، ويصرفهم عن الإيمان، أو يطلب من الله -تعالىٰ- ألا يكون فاتنًا لهم، ومضللًا عما يجب أن يكونوا عليه، من الحق والهدىٰ، وإنَّما يكون ذلك إذا كان نبي الله إبراهيم قدوة سيئة، ومثلًا غير صالح؛ لأنَّ القدوة السيئة من رجل ينتسب إلىٰ الدين تؤثر علىٰ ضعاف العقيدة، ضعاف النفوس، ولعلك تفهم من ذلك قول الكفار وهم يعتذرون عن سيئاتهم: ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٧]، فكان رؤساؤهم فاتنين لهم عن الحق، صارفين لهم عن الدين، وفي ذلك المعنىٰ يقول حكيم الإسلام المرحوم **جمال الدين الأفغاني**: «ليس بيننا وبين إقناع الغربيين بالدين سوىٰ إقناعهم بأننا لسنا مسلمين»؛ لأنَّ الغربيِّين يفهمون الدين من عملنا أكثر من فهمه من أقوالنا، وكثيرًا ما قالوا: إذا كان دين المسلمين مصدر سعادتهم، فلماذا نراهم أشقياء؟ وإذا كان دينهم طريق عزتهم، فلماذا نجدهم أذلاء؟ وسبب تلك الفتنة أنَّنا صِرنا حجة علىٰ الدين، ودعاية عليه لا له. فيريد ذلك المصلح أن يقول: إذا اقتنع الغربيون بأن الإسلام شيء والمسلمون شيء آخر= هنالك يسلمون، وهنالك تزول الحجب التي بينهم وبين الإسلام.

ومن المفسرين من فسَّر الفتنة بالعذاب؛ أي: لا تجعلنا معذبين بأيديهم حتىٰ يعتقدوا أنَّ ذلك العذاب؛ لأنَّنا مبطِلون وهم محقون، والآية تشمل ذلك كله، والمراد لا تجعل حالنا فاتنًا لهم وسببًا في ضلالهم، سواء أكانت الفتنة بسبب أننا قدوة سيئة أو بسبب أننا ضعفاء ومعذَّبون، فيقع في وهمهم أن ذلك الضعف أمارة أننا علىٰ باطل، وهم علىٰ حق.

دعوة لوط[1] إلى الله -تعالى-

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ[2] ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ[3] ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ[4] فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠-٨٤].

* شرح وعبرة:

(١) يرينا الله -تعالىٰ- في هذه الآيات أنّه أرسل نبيه لوطًا: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾، وأطلق عليها فاحشة؛ لأنّ النفوس السليمة تستفحشها وتعدّها قبيحة، وقوله: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ يريهم أنّهم أول من عمل هذه الفاحشة، فهم قدوة سيئة عليهم وزرها

---

(١) ورد ذكر لوط ﷺ في القرآن سبعًا وعشرين مرة، بعضها في سياق ذكر بعض الأنبياء والتذكير بهم، لا سيما إبراهيم ﷺ الذي عاصره لوط وآمن به. وتكرر الربط بينهما في معظم الايات التي فصلت أخبار لوط مع قومه، والتي وردت بكثرة. وبعضها في إطار متابعة الحديث عن عاد وثمود، وتتميز التفاصيل التي وردت عن لوط ﷺ باختصاصها بالحديث عن مشكلة مركزية في قومه هي الانحراف الأخلاقي الذي تمثل في الشذوذ الذي لم يسبقوا إليه مما أدىٰ لإهلاكهم. وجعلهم مثلًا لعاقبة الجحود والطغيان.

انظر: رسالات الأنبياء: (١٠٥). (عمرو)

(٢) يتنزهون.

(٣) الذين غبروا في ديارهم: أي بقوا فهلكوا.

(٤) أنزل الله عليهم نوعًا من المطر عجيبًا هو الحجارة.

ووِزر العاملين بها إلىٰ يوم القيامة، وقوله: ﴿شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ يريهم أنَّه لا حامل لهم علىٰ هذه الفاحشة إلا مجرد الشهوة، والمراد أنَّهم خرجوا بعملهم هذا عن مقتضىٰ الفطرة، وصاروا أخسّ من العجماوات التي تطلب إناثها بسائق الشهوة لأجل النسل الذي يحفظ به نوع كلٍّ منها.

ألا ترىٰ إلىٰ الطير والحشرات تبدأ حياتها الزوجية ببناء المساكن الصالحة لنسلها في راحته، وحفظه ممَّا يعدو عليه؛ من عشّ في الأشجار، أو جحر في باطن الأرض، أما هؤلاء المجرمون فلا غرض لهم إلا إرضاء حسّ الشهوة، وقضاء وطر اللذة، ومَنْ قَصَد الشهوات لذاتها، والتمتع بلذاتها دون الفائدة التي خلقها الله لأجلها= جنىٰ علىٰ نفسه غائلة الإسراف فيها، فانقلب نفعها ضرًّا، وصار خيرها شرًّا، بجعل الوسيلة مقصدًا، وصيرورة الإسراف فيه خلقًا؛ إذ الفعل يكون عن داعية ثابتة، لا عن علة عارضة، فلا يزال صاحبه يعاوده حتىٰ يصير ملكه راسخة له، فتكرار العمل يُكوّن المَلَكة، والمَلَكة تدعو إلىٰ تكرار العمل والإصرار عليه.

(٢) ثم عقب ذلك بقوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾؛ ليرينا أنَّهم قوم أسرفوا في إتيان هذه الفاحشة وتجاوزوا الحدود، وقال في سورة **الشعراء**: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾، أي: تجاوزتم بذلك العمل الفاحش حدود الفطرة، وحدود الشريعة، وفي سورة **النمل**: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾، وهو يشمل الجهل الذي يضادّ العلم، والجهل الذي هو بمعنىٰ السفه والطيش.

ومجموع الآيات يرينا أنَّهم كانوا مرزوئين بفساد العقل والنفس، فلا هم يعقلون ضرر هذه الفاحشة في الجناية عن النسل، وعلىٰ الصحة والفضيلة، والآداب العامة، ولا هم علىٰ شيء من الحياء وحسن الخلق يصرفهم عن ذلك.

وكانت هذه الفعلة فاحشة؛ لأنَّها جناية علىٰ الفطرة البشرية، ومفسدة للشبان بالإسراف في الشهوة، وإذلال للرجال، وكسر لما فيهم من إباءٍ وشَمَم، وتعطيل للنسل، ومفسدة للنساء اللواتي تَصرِف أزواجهنَّ عنهنَّ، حتىٰ يُقصِّروا فيما يجب عليهم من إحصان، وكم من امرأة اضطرّها زوجها إلىٰ الزنا لانصرافه عنها بتلك الفاحشة، مع وفور جمالها وكمالها.

ومن آثار تلك الفاحشة أنَّها ذريعة للاستمناء، وإتيان البهائم، وهما معصيتان قبيحتان شديدتا الضرر في الأبدان والآداب؛ لأنَّ تلك الفاحشة تمرن الإنسان علىٰ قصد الشهوة لذاتها، بقطع النظر عن المكان المُعدّ لها، وهو يفضي إلىٰ وضعها في غير موضعها، وإنَّما موضعها الزوجة الشرعية المتَّخذة للنسل، وفي الحياة الزوجية الشرعية إحصان كل من الزوجين الآخر، بقصر لذة الاستمتاع عليه، وجعله وسيلة للحياة الوالدية التي تنمَّىٰ بها الأمة، ويحفظ النوع البشري من الزوال.

(٣) ومن العجيب أن يكون جواب قومه له: ﴿أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوهُم مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ﴾، وتعليلهم الإخراج بأنَّهم أناس يتطهرون، ويتنزهون عن مشاركتهم في الرجس.

من العجيب أن تكون الطهارة ذنبًا يُعاقَب صاحبه عليه، وينفىٰ من بلده من أجلها، وأن ترتكس النفوس في المحرمات، وتنتكس بالجرائم حتىٰ تستقبح الحسن، وتستحسن القبيح، وتفسد منها الفطرة إلىٰ ذلك الحد المُزْري، وهي سخريةٌ بنبي الله لوط ومن معه، وتهكُّمٌ بطهارتهم من الفواحش، وافتخار بما كانوا عليه من القذارة، كما يقول الفسقة لبعض الصُلَحَاء إذا وعظهم: أبعدوا عنا هذا المتقشف، وأريحونا من هذا المتزهّد.

وللنقص والرزائل دركات، كما أنَّ للكمال والفضائل درجات، فأولاها: أن يُلِمَّ بالرذيلة وهو يشعر بقبحها، ويلوم نفسه عليها، ويليها: أن يعود إليها المرة بعد المرة مستخفيًا، ويليها: أن يصر عليها حتىٰ يزول شعوره بقبحها، ويليها: أن يجهر بها ويكون قدوة سيئة، وأحطُّ دركاتها: أن يفاخر بها أهلها، ويحتقر من يتنزهون عنها، وهذه دركة قوم لوط، ولا يهبط إليها من يؤمن بالله واليوم الآخر، وقد وصف الله المؤمنين بأنَّهم إذا عملوا السيئات يعملونها بجهالة، ثم يتوبون من قريب، وأنهم لا يُصرّون علىٰ ما فعلوا وهم يعلمون.

(٤) كانت عاقبة نبي الله لوط ومن معه من المؤمنين أن نجّاه الله من عذابه، وأمطر علىٰ قومه مطرًا عجيبًا، وهو الحجارة التي رُجِموا بها، ثم أمر الله أن ينظر عاقبة أولئك المجرمين؛ ليرينا أنَّ هذه سنة فيمن عصاه وفسق عن أمره،

وهي سنن لا تتبدّل، ولولا أنَّ رسولنا محمدًا ﷺ نبي الرحمة لحلَّ بنا من أنواع العذاب ما حلّ بأولئك الأقوام.

وتأمل كيف استثنىٰ الله -تعالىٰ- امرأة لوط ممَّن نجاهم، وأنَّها كانت في جماعة الهالكين؛ ليرينا أنَّ ما عنده من رضا ورحمة= لا ينال بنسب أو قرابة للرسل، وإنَّما ينال بالطاعة، ولو كان النسب منجيًا لصاحبه لنجا من الهلاك امرأة لوط.

وقد ضرب الله المثل في سورة **التحريم**: ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠]، كما ضرب لنا مثلًا قصة نوح وابنه، الذي أغرقه الله وهو يقول: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٤٥ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٤٦ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٥-٤٧].

لوط عليه السلام

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا ۖ قَالَ سَلَامٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ
حَنِيذٍ(١) ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ(٢) مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا لَا
تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ
إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ
﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۖ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ۚ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾
فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ(٣) وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ(٤)
أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۖ إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ
﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ(٥) بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾
وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ(٦) إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ۚ قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ
أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ

---

(١) مشوي على حجارة محماة، وقيل: يقطر دسمه لسمنه، ويدل عليه قوله في سورة أخرىٰ: ﴿بعجل سمين﴾.

(٢) أضمر.

(٣) الخوف.

(٤) كثير التأوُّه والتوجع، ﴿منيب﴾: راجع إلىٰ الله -تعالىٰ-.

(٥) قال «الأزهري»: الذَّرع يوضع موضع الطاقة، والأصل فيه البعير يذرعه بيديه في سيره ذرعًا علىٰ قدر سعة خطوته، فإذا حمل عليه أكثر من طاقته ضاق ذرعه عن ذلك فضعف، ومدَّ عنقه، فجعل ضيق الذرع عبارة عن قدر الوسع والطاقة، فيقال: ما لي به ذرع ولا ذراع، أي: ما لي به طاقة، ﴿عَصِيبٌ﴾: شديد، من عَصَبه: شدّه.

(٦) يسرعون.

مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ[(١)] إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ[(٢)] مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ[(٣)] مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٦٩-٨٣][(٤)].

---

(١) أستَنِد.

(٢) قطعة. والمراد هاجر بهم ليلًا.

(٣) شيء مركب من الحجارة والطين. وفي منتهىٰ الصلابة. ﴿مَّنضُودٍ﴾: يرسل بعضه في أثر بعض متتابعًا. ﴿مُّسَوَّمَةً﴾: معدة للعذاب.

(٤) قال ابن القيم: «تأمل خبث اللوطية وفرط تمردهم علىٰ الله. حيث جاؤوا نبيهم لوطا لما سمعوا بأنه قد طرقه أضياف هم من أحسن البشر صورا. فأقبل اللوطية إليه يهرولون. فلما رآهم قال لهم: ﴿يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود: ٧٨]. ففدىٰ أضيافه ببناته. يزوجهم بهن. خوفا علىٰ نفسه وأضيافه من العار الشديد، فقال: ﴿يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِيٓ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود: ٧٨]، فردوا عليه، ولكن رد جبار عنيد: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود: ٧٩]. فنفث نبي الله نفثة مصدور، وخرجت من قلب مكروب عميد، فقال: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠].

فنفس له رسل الله، وكشفوا له عن حقيقة الحال، وأعلموه أنهم ليسوا ممن يوصل إليهم ولا إليه بسببهم، فلا تخف منهم، ولا تعبأ بهم. وهون عليك. فقالوا: ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ﴾ [هود: ٨١]. وبشروه بما جاؤوا به من الوعد له. ولقومه من الوعيد المصيب. فقالوا: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾ [هود: ٨١]. فاستبطأ نبي الله موعد هلاكهم. وقال: أريد أعجل من هذا. فقالت الملائكة: ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾.

فوالله ما كان بين هلاك أعداء الله ونجاة نبيه وأوليائه إلا ما بين السحر وطلوع الفجر. وإذا بديارهم قد اقتلعت من أصولها. ورفعت نحو السماء. حتىٰ سمعت الملائكة نباح الكلاب ونهيق الحمير. فبرز المرسوم الذي لا يرد من عند الرب الجليل إلىٰ عبده ورسوله جبريل بأن يقلبها عليهم. كما أخبر به في محكم التنزيل. فقال عز من قائل: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [هود: ٨٢].

فجعلهم آية للعالمين. وموعظة للمتقين. ونكالا وسلفا لمن شاركهم في أعمالهم من المجرمين. وجعل ديارهم بطريق السالكين.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٧٥-٧٧].

أخذهم علىٰ غرة وهم نائمون. وجاءهم بأسه وهم في سكرتهم يعمهون. فما أغنىٰ عنهم ما كانوا يكسبون. فانقلبت تلك اللذات آلاما فأصبحوا بها يعذبون:

مآرب كانت في الحياة لأهلها ... عذابا فصارت في الممات عذابا

* شرح وعبرة:

(١) عرضنا في هذه السورة لطائفة من قصص نبي الله إبراهيم لاتصالها بقصة لوط، و﴿ٱلْبُشْرَىٰ﴾ هنا فيما يظهر هي البشرىٰ بالولد ﴿قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ نسلم عليك سلامًا، والمراد طمأنته حتىٰ لا يخاف، وبعد أن قدَّم إليهم عجلًا مشويًا ليأكلوه، فلم يمدوا إليه أيديهم توجس الشرَّ منهم؛ لأنَّ الشأن فيمن يريد السلام أن يأكل، فطمأنوه، وأفهموه أنَّهم ملائكة الله، أرسلهم إلىٰ قوم لوط ولم يرسلوا له، وكانت امرأته قائمة فسمعت ذلك فضحكت سرورًا بزوال الخيفة، أو سرورًا بهلاك أهل الخبث، فبشرها الله بواسطة الملائكة بإسحاق ثم بيعقوب، فتعجبت من البشارة، وقالت: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾، وكان عجبها لكبر سنها وسنِّ زوجها إبراهيم، فقالو لها: أتعجبين من أمر الله، وأنت في بيت النبوة، التي هي مهبط المعجزات، وخوارق العادات؟

= ذهبت اللذات، وأعقبت الحسرات. وانقضت الشهوة، وأورثت الشقوة. تمتعوا قليلا، وعذبوا طويلا. رتعوا مرتعا وخيما، فأعقبهم عذابا أليما. أسكرتهم خمرة تلك الشهوة، فما استفاقوا منها إلا في ديار المعذبين. وأرقدتهم تلك الغفلة. فما استيقظوا إلا وهم في منازل الهالكين. فندموا والله أشد الندامة حين لا ينفع الندم. وبكوا علىٰ ما أسلفوه بدل الدموع بالدم.

فلو رأيت الأعلىٰ والأسفل من هذه الطائفة، والنار تخرج من منافذ وجوههم وأبدانهم، وهم بين أطباق الجحيم، وهم يشربون بدل لذيذ الشراب كؤوس الحميم، ويقال لهم، وهم علىٰ وجوههم يسحبون: ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الزمر: ٢٤]. ﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦].

ولقد قرب الله سبحانه مسافة العذاب بين هذه الأمة وبين إخوانهم في العمل. فقال مخوفا لهم أن يقع الوعيد: ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣].

فيا ناكحي الذكران يهنيكم البشرىٰ ... فيوم معاد الناس إن لكم أجرا
كلوا واشربوا وازنوا ولوطوا وأبشروا ... فإنكم زفا إلىٰ الجنة الحمرا
فإخوانكم قد مهدوا الدار قبلكم ... وقالوا: إلينا عجلوا لكم البشرىٰ
وها نحن أسلاف لكم في انتظاركم ... سيجمعنا الجبار في ناره الكبرىٰ
ولا تحسبوا أن الذين نكحتم ... يغيبون عنكم بل ترونهم جهرا
ويلعن كل منكم لخليله ... ويشقىٰ به المحزون في الكرة الأخرىٰ
يعذب كل منهم بشريكه ... كما اشتركا في لذة توجب الوزرا».

الداء والدواء: (٤٠٢-٤٠٥).

ولذلك عقبوا ذلك بقولهم: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾، أرادوا أنَّ هذه وأمثالها ممَّا يكرمكم به رب العزة، ويخصكم بالأنعام به يا أهل بيت النبوة، وكان عليكِ أن تُسبِّحي الله -تعالىٰ- وتمجِّديه مكان التعجب، و﴿حميد﴾ فاعل ما يستوجب الحمد من عبادة، و﴿مَّجِيدٌ﴾ كريم كثير الإحسان إليهم.

(٢) يرينا الله -تعالىٰ- أنَّه لـمَّا ذهب الروعُ عن نبي الله إبراهيم، وجاءته البشرىٰ بالولد= اجترأ علىٰ خطاب الله -تعالىٰ-، وأخذ يجادل في شأن عذاب قوم لوط، ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾، وهي صفات تدل علىٰ رقة القلب، والرأفة والرحمة، وذلك هو ما حمله علىٰ المجادلة فيهم؛ رجاء أن يُرفَع العذاب عنهم، ويُمْهَلوا لعلَّهم يُحدِثون توبة وإنابة، كما حملته هذه الصفات علىٰ استغفاره لأبيه، فقال الله له: ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ﴾، فلا فائدة فيه ﴿إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ بالعذاب، وهو قضاء وحكم لا يصدر إلا عن صواب وحكمة، والعذاب نازل بالقوم لا مردَّ له بجدال ولا دعاء.

(٣) لـمَّا وصلت رسل الله -تعالىٰ- إلىٰ نبيه لوط حَسِب أنَّهم إنس، فخاف عليهم خبث قومه، وأن يعجز عن مقاومتهم، فساءه رؤيتهم، وضاقت بهم طاقته، وقال هذا يوم عصيب، وجاءه قومه مسرعين إليه، ومن قبل ذلك كانوا يعملون الفواحش ويكثرونها فضروا بها، ومرنوا عليها، فلذلك جاؤوا مجاهرين لا يكُفُّهم حياء، ولا يردعهم خلق، فأراد أن يقي أضيافه ببناته، فقال: ﴿يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ فتزوجوهن[1]، ومن سفه القول أن يفهم أحد كائنًا من كان

---

(١) قال الطبري: «قال لوط لقومه لما جاءوا يراودونه عن ضيفه: هؤلاء يا قوم بناتي يعني نساء أمته فانكحوهن فـ ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود: ٧٨]». التفسير: (١٢/٥٠٢)، وقال ابن كثير: «وقوله: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ يرشدهم إلىٰ نسائهم، فإن النبي للأمة بمنزلة الوالد للرجال والنساء، فأرشدهم إلىٰ ما هو أنفع لهم في الدنيا والآخرة، كما قال لهم في الآية الأخرىٰ: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٥، ١٦٦]، وقوله في الآية الأخرىٰ: ﴿قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الحجر: ٧٠] أي: ألم ننهك عن ضيافة الرجال ﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧١، ٧٢]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ قال مجاهد: لم يكن بناته، ولكن كن من أمته، وكل نبي أبو أمته»، التفسير: (٤/٣٣٧). (عمرو)

﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى﴾ لتستبدلوا فاحشة اللواطة بفاحشة الزنا، وما قيمة المجهود الذي يعمله نبي الله لوط إذن، وهل يليق بنبيٍّ أن يدعو الناس إلىٰ فاحشة، وهل مهمته تتفق وذلك؟

ثم عقب ذلك بقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِيٓ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾، ومن ذلك الأسلوب تفهم مقدار الضيق الذي كان عند نبي الله لوط من ذلك الحادث، يطلب منهم أن يتقوا الله، ولا يفضحوه في حق ضيوفه، فإن ضيف الرجل إذا خزي كان خزيه يلحق مضيفه، ثم يقول أليس منكم رجل واحد يهتدي إلىٰ الحق، وفعل الجميل، والكفّ عن السوء، وهي كلمة اليائس من أن يوجد فيهم رجل واحد يناصره في الدعوة، ويأخذ بيده في إنقاذه من خزي ضيفه، فقابلوه بقولهم: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾؛ لأنَّ إتيان الذُّكران صار مذهبًا لهم وديدنًا، فكان هو الحق عندهم، ونكاح الإناث هو الباطل، ويجوز أن يكون قولهم هذا علىٰ وجه الخلاعة، والغرض أنهم لا يشتهون الإناث؛ لأنَّ نفوسهم انصرفت عنهنّ، ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ من إسراعنا إلىٰ ضيفك.

(٤) عند ذلك قال نبي الله: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾؛ أي لفعلت بكم وصنعت، وهي أمنية من نبي الله أن يقوىٰ عليهم بنفسه، أو يأوي إلىٰ ركن قويّ يستند إليه، فيحميه منهم ويحمي ضيفه[(١)]، ومنهم من جعل (أو) بمعنىٰ (بل) الإضرابية[(٢)] يتنقل بها من ذلك التمني إلىٰ ركونه إلىٰ ربه، واعتصامه به.

وقد روىٰ البخاري: «**يغفر الله للوط! إن كان ليأوي إلىٰ ركن شديد، وهو ربه وخالقه**»[(٣)]، والغرض من الحديث: دفع شبهة تتعلق بنبي الله لوط، وهي أنه

---

(١) قال الطبري: «قال لوط لقومه حين أبوا إلا المضي لما قد جاءوا له من طلب الفاحشة وأيس من أن يستجيبوا له إلىٰ شيء مما عرض عليهم: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ [هود: ٨٠] بأنصار تنصرني عليكم وأعوان تعينني، ﴿أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠] يقول: أو أنضم إلىٰ عشيرة مانعة تمنعني منكم، لحلت بينكم، وبين ما جئتم تريدونه مني في أضيافي. وحذف جواب «لو» لدلالة الكلام عليه، وأن معناه مفهوم». التفسير: (١٢/٥٠٨). (عمرو)

(٢) انظر: التحرير والتنوير: (٦/١٨٨). (عمرو)

(٣) أخرجه البخاري: (٣٣٧٥)، ومسلم: (١٥١)، وليس فيه: «وهو ربه وخالقه». =

يتمنىٰ أن يستند إلىٰ ركن شديد، وأيّ ركن شديد أقوىٰ من ربه وخالقه؟ فالحديث يرينا أن لوطًا كان يأوي إلىٰ ركن شديد هو ربه وخالقه، والركن الشديد الذي تمنَّاه مرجع من الخليقة كعصبية، أو حزب قوي، فهو يتمنىٰ أن يكون قويًا بنفسه، أو قويًا بغيره ليفعل مع أولئك المجرمين ما يستحقون.

(٥) في خلال هذه الشدة، وفي ظلام هذه الفتن= ناداه الرسل: ﴿يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ﴾، فلسنا بشرًا كما فهمت، بل نحن رسل عذاب، وقد جئنا لتنفيذ أمر الله -تعالىٰ- بالهلاك فدعنا وهم، فهاجر بقومك في جنح الليل، ولا يلتفت منكم أحد إلىٰ ما في البلد من مال وأصدقاء ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ﴾ فدعها ولا تسافر بها، إنه سيحل بها من العذاب ما يحل بالقوم، وموعدهم في الهلاك الصبح ﴿أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ﴾، فلما جاء أمر الله بالعذاب جعل عالي القرية سافلها، وهو كناية عن محوها وذهاب معالمها، وأمطر عليها من الحجارة المتتابعة ما شاء أن يمطر، ثم ختم القصة بقوله: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ﴾، وهو وعيد لأهل مكة وصناديد قريش، يقول لهم: ما هذه القرىٰ التي دمرها الله لفسوق أصحابها ببعيدة عنكم، أو ما هذه الحجارة التي سلطها علىٰ قوم لوط ببعيدة عنكم، ومن السهل أن يعاقبكم الله بها كما عاقب مَن سبقكم.

= كأنه صلوات الله عليه استغرب عنه هذا القول، وعده بادرة منه؛ إذ لا ركن أشد من الركن الذي يأوي إليه.

انظر: فتوح الغيب: (١٤٨/٨). (عمرو)

لـوط عليه السلام

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ
أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ
الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ
أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ(١) ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم
مِّنَ الْقَالِينَ(٢) ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي
الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٦٠-١٧٥].

* شرح وعبرة:

(١) يطالب نبي الله لوط قومه بالطاعة في رفق ولين، ويذكرهم بأنه رسول أمين لا غنىٰ له عن تبليغ رسالة ربه، ثم يكرر عليهم طلب التقوىٰ والطاعة، ثم يريهم أنه لا يطلب منهم أجرًا علىٰ رسالته، وإنما يطلبه من الله -تعالىٰ-، ثم ينتقل إلىٰ إنكار فاحشتهم مستقبحًا لها، فيقول: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ يريهم أنَّهم بصنعهم ذلك عطَّلوا ما خُلِق للتمتع وهُنَّ الأزواج، ولجأوا إلىٰ الذكران الذين خلقوا للعمل في هذه الحياة، وأنَّهم بذلك العمل عكسوا الفطرة التي فُطر الناس عليها، وبذلك صاروا قومًا عادين للحدود، متجاوزين لها، كما وصفهم في آية

---

(١) متجاوزون للحد.

(٢) الباغضين.

أخرىٰ بأنَّهم قوم مسرفون، وقوم يجهلون سنة الله ونظامه، فهم بذلك العمل جَنَوا جنايتين.

الأولىٰ: إفسادهم للذكران، والقضاء علىٰ شهامتهم، وكسر ما فيهم من إباء وشَمَم.

والثانية: تعطيلهم النساء من التمتع بهن وقد خلقن لذلك، ويتبع ذلك تعريضهنّ للزنا والقضاء علىٰ النسل، وذلك مضادّ لنظام الحياة، وهدم لكيان المجتمع.

(٢) يقابله قومه في هذه الموعظة اللَّيِّنة، وذلك الأسلوب الهادئ بقولهم: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ يطالبون لوطًا بالانتهاء عن تقبيح أعمالهم، فإذا لم ينتهِ عن ذلك النهي أخرجوه من بلده، وحالوا بينه وبين وطنه، وأخرجوه فيمن أخرجوا[1].

يا سبحان الله! رسولٌ من الله، يدعو الناس إلىٰ الطهر، ويحببهم في النزاهة، ويحول بينهم وبين فساد الفطر، يكون جزاؤه من قومه أن يهدِّدوه بالنفي، ويتوعدوه بالتغريب، ولا ذنب له في ذلك سوىٰ طهارة غايته، وسموُّ مبادئه، ونبل مقصده، ذلك هو ذنبه عند قومه، وقد صرحوا بذلك في سورة الأعراف؛ إذ يقولون: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾، وكان الوطن الذي نشأ فيه الرجل، وأعقب فيه مالًا وأولادًا، هو المكان المحبوب الذي يُهدَّد به كل مصلح، ويُتوعد به أرباب المبادئ الصحيحة، إلىٰ أن ينزلوا عن مبادئهم، ويسكتوا عن دعوتهم، فهؤلاء قوم لوط يقولون لرسولهم: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾، وهذا الملأ من قوم شعيب يقول له: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨].

---

(١) قال ابن تيمية: «قد واجههم بذمهم وتوبيخهم علىٰ فعل الفاحشة، ثم إن أهل الفاحشة توعدوهم وتهددوهم بإخراجهم من القرية، وهذا حال أهل الفجور إذا كان بينهم من ينهاهم طلبوا نفيه وإخراجه. وقد عاقب الله أهل الفاحشة اللوطية بما أرادوا أن يقصدوا به أهل التقوىٰ؛ حيث أمر بنفي الزاني ونفي المخنث فمضت سنة رسول الله ﷺ بنفي هذا وهذا، وهو سبحانه أخرج المتقين من بينهم عند نزول العذاب»، مجموع الفتاوىٰ: (١٥/ ٣٣٤). (عمرو)

فليس بعجيب أن يلجأ المستعمرون في أنحاء الأرض إلىٰ ذلك العمل الذي لجأ إليه أعداء الرسل في كل زمان ومكان: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾.

ليس بعجيب أن يلجأ المستعمرون إلىٰ ما لجأ إليه أعداء الرسل من نفي وتغريب، ولكن الله -تعالىٰ- تكفل لهم بالنصر، ووعدهم ميراث الأرض، كما توعد أعداء الرسل بالهلاك: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٣ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٣، ١٤]، فليمعن المبطل في باطله، ولْيَزْدَد الفاجر من فجوره، ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧].

(٣) لم يكن من نبي الله لوط بعد ذلك التهديد سوىٰ أن قال لهم: ﴿إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾، فهو ينكر عليهم صنيعهم، ويبغض عملهم، ثم لجأ إلىٰ الله -تعالىٰ- في أن ينجيه هو وأهله من عقوبة عملهم، كأنَّه كان متوقِّعًا أن يحل بهم من العذاب ما يستحقون، فأجاب الله دعوته وأنجاه وأهله إلَّا عجوزًا هلكت مع الهالكين، هي زوجه، ثم دمر الله الآخرين، وأمطر عليهم مطرًا فساء مطرهم، ثم ختم القصة بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً﴾، نعم فيه عبرة لمن أراد العبرة، وذكرىٰ لمن أراد أن يذكر، فيه عبرة للعصاة علهم يكفون عن عصيانهم، وللفَسَقَة رجاء أن ينخلعوا عن فسقهم، وفيه ذكرىٰ للمؤمنين ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

لوط عليه السلام

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ(١) ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا إِنَّا مُهْلِكُوٓا أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا(٢) مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٨-٣٥].

*** شرح وعبرة:**

(١) ينكر نبي الله لوط علىٰ قومه إتيان الرجال، وقطع السبيل؛ قيل كانوا يعترضون المارة بالفاحشة، وقيل يقطعون سبيل النساء بالإعراض عن الحرث، وإتيان ما ليس بحرث، فإن النساء هي المعدة لتربية الولد في الرحم، وقد خلقن لذلك، وقيل يقطعون السبيل بالقتل وأخذ المال، ولا مانع من إرادة ذلك كله، كما أنكر عليهم إتيان المنكر في مجلسهم علىٰ مرأىٰ ومسمع منهم، ولم يبيِّن لنا

---

(١) المجلس فيه أهله.

(٢) عذابًا.

ما ذلك المنكر، والظاهر أنه فاحشة اللواطة كانوا يفعلونها جهارًا، والمجاهرة بالعصيان من مضاعفات الفاحشة، فهو ينكر عليهم كل هذه الرذائل، فيكون جواب قومه أن يقولوا له: ﴿ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، فيما تعدنا من نزول العذاب، فيرجع إلىٰ ربه يستنصره علىٰ أولئك القوم الذين أفسدوا في الأرض بهذه الفواحش، فكانوا قدوة سيئة، ومثلًا غير صالح.

(٢) يرينا الله -تعالىٰ- أن رسله لما جاءت نبيَّه إبراهيم بالبشرىٰ قالوا له: ﴿إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ﴾، ثم عللوا ذلك بقولهم: ﴿إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾، فقال لهم نبي الله إبراهيم: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ﴾، وهو بريء من الظلم، قال ذلك إظهارًا للشفقة عليه، وما يجب للمؤمن من التحزن لأخيه، والخوف من أن يمسه أذىٰ، فكان جوابهم: ﴿نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ﴾، فخفض علىٰ نفسك، وهوّن عليك الخطب، ثم وعدوه بالنجاة، فقالوا: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ﴾، وانظر إلىٰ قوله: ﴿بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ لتعلم أن سبب هلاك أولئك القوم هو فسوقهم عن أمر ربهم، وانتهاكهم لحرمة دينهم، وافتياتهم علىٰ رسولهم ونبيهم، ثم ختم القصة بقوله: ﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ هي آثار منازلهم الخربة، وقيل الخبر عما صنع الله بهم.

دعوة يوسف[1] إلى الله -تعالى-

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ[2] بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ[3] ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف: ١-٦].

* **شرح وعبرة:**

(١) ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾، القصص: اتباع الخبر بعضه بعضًا، وأصله في اللغة المتابعة، قال -تعالىٰ-: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ [القصص: ١١]؛ أي اتبعي أثره، وقال -تعالىٰ-: ﴿فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف: ٦٤]، أي: يقصّانهما قصصًا، ويتبعانهما اتباعًا، وإنما

---

(١) ورد ذكر يوسف ﷺ في القرآن سبعًا وعشرين مرة، ويكتسب ذكره خصوصية عن غيره من الأنبياء، إذ وردت قصته في ساق واحد في سورة واحدة حملت اسمه، ولم يرد ذكره في غير هذه السورة إلا في موضعين، الأول: في سياق ذكر إبراهيم ونوح وذريتهما، والثاني: في إطار تذكير مؤمن آل فرعون قومه ببعثة يوسف إليهم قبل موسىٰ وتذكيرهم بما جاء به.

وتعد قصة يوسف ﷺ أنموذجًا في منهج الرسالة ومضمونها العقدي.

انظر: رسالات الأنبياء: (١١٥-١١٧). (عمرو)

(٢) من القصّ، وهو تتبع الأثر. فالقصص هو الأخبار المتتابعة.

(٣) بيان ما تؤول إليه من المعنى، وهو تعبير الأحلام.

سميت الحكاية قصصًا؛ لأنَّ الذي يقصّ الحديث يتبعه شيئًا فشيئًا ليبلغه للسامع.

والقصص في هذه الآية يحتمل أن يكون مصدرًا بمعنىٰ الاقتصاص، من **قصّ الحديث**: طرده وساقه، كما يقال أرسله يرسله إرسالًا، ويجوز أن يكون من باب تسمية المفعول بالمصدر، كقولك هذا قدرة الله؛ أي: مقدوره، وهذا الكتاب علم فلان؛ أي: معلومه، وهذا رجاؤنا؛ أي: مرجوّنا، فإن حملناه علىٰ المصدر وهو الاقتصاص كان الحُسن عائدًا إلىٰ البيان لا إلىٰ القصة، والمراد من هذا الحسن كون هذه الألفاظ فصيحة بالغة في الفصاحة إلىٰ حدّ الإعجاز؛ لأنَّ هذه القصة مذكورة في كتب التاريخ، مع أن شيئًا منها لا يشابه هذه السورة في فصاحتها وحسن بيانها، وخفتها علىٰ السمع وإن تكرّرت.

وإن حملنا القصص علىٰ المقصوص كان معنىٰ كونه أحسن القصص أنَّه حوىٰ من الحكم والعجائب ووسائل تربية النفس، وتهذيب الخلق ما ليس في غيره من القصص.

ولا عجب، فقد ساقه الله في كتابه الكريم لأمثال هذه الغايات، كما قال: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠]، وقال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

وما دام القصص في القرآن الكريم قد سيق لأمثال هذه الغايات، ولم يسق لمجرد إيناس النفس وإبعادها عن ملل الحياة، وترويحها بنقلها من مطالعة أمور شاقة إلىٰ أمور سهلة، كما هو الحال في الروايات القصصية التي يعمد إليها كثير من الناس لمثل ذلك الغرض= وجب أن يكون القصص الذي حواه القرآن الكريم أحسن القصص[1].

---

(١) يقول شيخ الإسلام في كلام نفيس حول قوله تعالىٰ: ﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾، وبيان موقع قصة يوسف ﷺ من القصص القرآني:

« «وأحسن القصص» قيل إنه مصدر، وقيل إنه مفعول به.

قيل: المعنىٰ نحن نقص عليك أحسن الاقتصاص، كما يقال: نكلمك أحسن التكليم، ونبين لك أحسن البيان، قال الزجاج: نحن نبين لك أحسن البيان.

والقاص الذي يأتي بالقصة علىٰ حقيقتها. =

= ... وليس القصص بالفتح جمع قصة، كما يظنه بعض العامة، فإن ذلك يقال في قِصص بالكسر، واحده قِصة، والقصة هي الأمر والحديث الذي يقص، فعلة بمعنىٰ مفعول، وجمعه قصص بالكسر.

وقوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ بالفتح، لم يقل أحسن القصص بالكسر ولكن بعض الناس ظنوا أن المراد أحسن القصص بالكسر، وأن تلك القصة قصة يوسف وذكر هذا طائفة من المفسرين!

ثم ذكروا: لم سميت أحسن القصص؟

فقيل: لأنه ليس في القرآن قصة تتضمن من العبر والحكم والنكت ما تتضمن هذه القصة.

وقيل: لامتداد الأوقات بين مبتداها ومنتهاها.

وقيل: لحسن محاورة يوسف وإخوته وصبره علىٰ أذاهم وإغضائه عن ذكر ما تعاطوه عند اللقاء وكرمه في العفو.

وقيل: لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين، والملائكة والشياطين، والإنس والجن، والأنعام والطير، وسير الملوك والمماليك، والتجار، والعلماء والجهال، والرجال والنساء، ومكرهن وحيلهن.

وفيها أيضًا: ذكر التوحيد، والفقه، والسير، وتعبير الرؤيا، والسياسة، والمعاشرة، وتدبير المعاش .. فصارت أحسن القصص لما فيها من المعاني والفوائد التي تصلح للدين والدنيا.

وقيل: فيها ذكر الحبيب والمحبوب.

وقيل «أحسن» بمعنىٰ أعجب.

والذين يجعلون قصة يوسف أحسن القصص؛ منهم من يعلم أن «القصص» بالفتح هو النبأ والخبر ويقولون هي أحسن الأخبار والأنباء، وكثير منهم يظن أن المراد أحسن القصص بالكسر، وهؤلاء جهال بالعربية، وكلا القولين خطأ.

وليس المراد بقوله: (أحسن القصص) قصة يوسف وحدها، بل هي مما قصه الله ومما يدخل في أحسن القصص، ولهذا قال تعالىٰ في آخر السورة: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، فبين أن العبرة في قصص المرسلين، وأمر بالنظر في عاقبة من كذبهم وعاقبتهم بالنصر.

ومن المعلوم أن قصة موسىٰ وما جرىٰ له مع فرعون وغيره أعظم وأشرف من قصة يوسف بكثير كثير، ولهذا هي أعظم قصص الأنبياء التي تذكر في القرآن، ثناها الله أكثر من غيرها وبسطها وطولها أكثر من غيرها.

بل قصص سائر الأنبياء -كنوح وهود وصالح وشعيب وغيرهم من المرسلين- أعظم من قصة يوسف، ولهذا ثنىٰ الله تلك القصص في القرآن، ولم يثن قصة يوسف، وذلك لأن الذين عادوا يوسف لم يعادوه علىٰ الدين بل عادوه عداوة دنيوية، وحسدوه علىٰ محبة أبيه له وظلموه فصبر واتقىٰ الله، وابتلي صلوات الله عليه بمن ظلمه وبمن دعاه إلىٰ الفاحشة فصبر واتقىٰ الله، في هذا وفي هذا، وابتلي أيضا بالملك. =

. . . .

= فابتلي بالسراء والضراء فصبر، واتقىٰ الله في هذا وهذا، فكانت قصته من أحسن القصص وهي أحسن من القصص التي لم تقص في القرآن.

فإن الناس قد يظلمون ويحسدون ويدعون إلىٰ الفاحشة ويبتلون بالملك؛ لكن ليس من لم يذكر في القرآن ممن اتقىٰ الله وصبر مثل يوسف، ولا فيهم من كانت عاقبته أحسن العواقب في الدنيا والآخرة مثل يوسف.

وهذا كما أن قصة أهل الكهف وقصة ذي القرنين، كل منهما هي في جنسها أحسن من غيرها.

فقصة ذي القرنين أحسن قصص الملوك، وقصة أهل الكهف أحسن قصص أولياء الله الذين كانوا في زمن الفترة.

فقوله تعالىٰ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ يتناول كل ما قصه في كتابه فهو أحسن مما لم يقصه. ليس المراد أن قصة يوسف أحسن ما قص في القرآن.

وأين ما جرىٰ ليوسف مما جرىٰ لموسىٰ ونوح وإبراهيم وغيرهم من الرسل؟ وأين ما عودي أولئك مما عودي فيه يوسف؟ وأين فضل أولئك عند الله وعلو درجتهم من يوسف -صلوات الله عليهم أجمعين؟ وأين نصر أولئك من نصر يوسف؟

فإن يوسف كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ وأذل الله الذين ظلموه، ثم تابوا، فكان فيها من العبرة أن المظلوم المحسود إذا صبر واتقىٰ الله كانت له العاقبة، وأن الظالم الحاسد قد يتوب الله عليه ويعفو عنه، وأن المظلوم ينبغي له العفو عن ظالمه إذا قدر عليه.

وبهذا اعتبر النبي ﷺ يوم فتح مكة لما قام علىٰ باب الكعبة وقد أذل الله له الذين عادوه وحاربوه من الطلقاء -فقال: ماذا أنتم قائلون؟ فقالوا: نقول أخ كريم وابن عم كريم. فقال: إني قائل لكم كما قال يوسف لإخوته: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

وكذلك عائشة لما ظلمت وافتري عليها وقيل لها: إن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه فقالت في كلامها: أقول كما قال أبو يوسف ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾.

ففي قصة يوسف أنواع من العبرة للمظلوم والمحسود والمبتلىٰ بدواعي الفواحش والذنوب وغير ذلك.

لكن أين قصة نوح وإبراهيم وموسىٰ والمسيح ونحوهم، ممن كانت قصته أنه دعا الخلق إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له، فكذبوه وآذوه، وآذوا من آمن به؟

فإن هؤلاء أوذوا اختيارا منهم لعبادة الله، فعودوا وأوذوا في محبة الله وعبادته باختيارهم، فإنهم لولا إيمانهم ودعوتهم الخلق إلىٰ عبادة الله لما أوذوا.

وهذا بخلاف من أوذي بغير اختياره، كما أخذ يوسف من أبيه بغير اختياره، ولهذا كانت محنة يوسف بالنسوة، وامرأة العزيز، واختياره السجن علىٰ معصية الله = أعظم من إيمانه ودرجته عند الله، وأجره من صبره علىٰ ظلم إخوته له».

[قلت (عمرو): في هذه العبارة قلق واضح، ومراد الشيخ: أن محنة يوسف ﷺ بالنسوة، وامرأة العزيز، والسجن، أعظم من محنته بأخذه من أبيه، ومن ظلم إخوته له]. =

. . . .

= ثم قال: «ولهذا يعظم يوسف بهذا أعظم مما يعظم بذلك، ولهذا قال تعالىٰ فيه: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ وهذا كالصبر عن المعاصي مع الصبر علىٰ المصائب، فالأول أعظم وهو صبر المتقين أولياء الله.

قال سهل بن عبد الله التستري: أفعال البر يفعلها البر والفاجر، ولن يصبر عن المعاصي إلا صديق. ويوسف صلوات الله عليه كان صديقًا نبيًا.

وأما من يظلم بغير اختياره ويصبر فهذا كثير، ومن لم يصبر صبر الكرام سلا سُلُوَّ البهائم.

وكذلك إذا مُكِّن المظلوم وقهر ظالمه، فتاب الظالم وخضع له، فعفوه عنه من المحاسن والفضائل، لكن هذا يفعله خلق كثير من أهل الدين وعقلاء الدنيا، فإن حلم الملوك والولاة أجمع لأمرهم وطاعة الناس لهم، وتأليفهم لقلوب الناس.

. . . وأما الصبر عن الشهوات والهوىٰ الغالب لله، لا رجاء لمخلوق ولا خوفا منه مع كثرة الدواعي إلىٰ فعل الفاحشة، واختياره الحبس الطويل علىٰ ذلك، كما قال يوسف: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ فهذا لا يوجد نظيره إلا في خيار عباد الله الصالحين وأوليائه المتقين. كما قال تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾. فهذا من عباد الله المخلصين الذين قال الله تعالىٰ فيهم: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾.

ولهذا لم يصدر من يوسف الصديق ذنب أصلًا، بل الهم الذي هم به لما تركه لله كتب له به حسنة، ولهذا لم يذكر عنه سبحانه توبة واستغفارا، كما ذكر توبة الأنبياء كآدم وداود ونوح وغيرهم، وإن لم يذكر عن أولئك الأنبياء فاحشة، ولله الحمد، وإنما كانت توباتهم من أمور أخر هي حسنات بالنسبة إلىٰ غيرهم، ولهذا لا يعرف ليوسف نظير فيما ابتلي به من دواعي الفاحشة وتقواه وصبره في ذلك.

. . . وإذا كان الصبر علىٰ الأذىٰ لئلا يفعل الفاحشة أعظم من صبره علىٰ ظلم إخوته. فكيف بصبر الرسل علىٰ أذىٰ المكذبين لئلا يتركوا ما أمروا به من دعوتهم إلىٰ عبادة الله وحده، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر؟

فهذا الصبر هو من جنس الجهاد في سبيل الله، إذ كان الجهاد مقصودا به أن تكون كلمة الله هي العليا، وأن الدين كله لله، فالجهاد والصبر فيه أفضل الأعمال.

فالصبر علىٰ تلك المعصية صبر المهاجر الذي هجر ما نهي عنه، وصبر المجاهد الذي جاهد نفسه في الله، وجاهد عدو الله الظاهر والباطن، والمهاجر الصابر علىٰ ترك الذنب إنما جاهد نفسه وشيطانه، ثم يجاهد عدو الله الظاهر، لتكون كلمة الله هي العليا ويكون الدين كله لله وصبر المظلوم صبر المصاب. لكن المصاب بمصيبة سماوية تصبر نفسه ما لا تصبر نفسه من ظلم الناس، فإن ذاك يستشعر أن الله هو الذي فعل به هذا فتيأس نفسه من الدفع والمعاقبة وأخذ الثأر، بخلاف المظلوم الذي ظلمه الناس فإن نفسه تستشعر أن ظالمه يمكن دفعه وعقوبته وأخذ ثأره منه، فالصبر علىٰ هذه المصيبة أفضل وأعظم، كصبر يوسف صلوات الله عليه وسلامه، وهذا يكون لأن صاحبه يعلم أن الله قدر ذلك فيصبر علىٰ ذلك كالمصائب السماوية، ويكون أيضًا لينال ثواب الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين، وليسلم قلبه من الغل للناس، وكلا النوعين يشترك في أن صاحبه يستشعر أن ذلك بذنوبه =

. . . .

= وهو مما يكفر الله به سيئاته، ويستغفر ويتوب، وأيضًا فيرىٰ أن ذلك الصبر واجب عليه، وأن الجزع مما يعاقب عليه.

وإن ارتقىٰ إلىٰ الرضا = رأىٰ أن الرضا جنة الدنيا، ومستراح العابدين، وباب الله الأعظم.

وإن رأىٰ ذلك نعمة لما فيه من صلاح قلبه ودينه وقربه إلىٰ الله وتكفير سيئاته وصونه عن ذنوب تدعوه إليها شياطين الإنس والجن شكر الله علىٰ هذه النعم.

فالمصائب السماوية والآدمية تشترك في هذه الأمور ومعرفة الناس بهذه الأمور وعلمهم بها هو من فضل الله يمن به علىٰ من يشاء من عباده؛ ولهذا كانت أحوال الناس في المصائب وغيرها متباينة تباينًا عظيمًا.

ثم إذا شهد العبد القدر وأن هذا أمر قدره الله وقضاه وهو الخالق له فهو مع الصبر يسلم للرب القادر المالك الذي يفعل ما يشاء، وهذا حال الصابر، وقد يسلم تسليمه للرب المحسن المدبر له بحسن اختياره الذي لا يقضي للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له: إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له . . وهذا تسليم راض لعلمه بحسن اختيار الله له وهذا يورث الشكر.

وقد يسلم تسليمه للرب المحسن إليه المتفضل عليه بنعم عظيمة.

وإن لم ير هذا نعمة فيكون تسليمه تسليم راض غير شاكر.

وقد يسلم تسليمه لله الذي لا إله إلا هو المستحق لأن يعبد لذاته، وهو محمود علىٰ كل ما يفعله، فإنه عليم حكيم رحيم لا يفعل شيئًا إلَّا لحكمة، وهو مستحق لمحبته وعبادته وحمده علىٰ كل ما خلقه = فهذا تسليم عبد عابد حامد، وهذا من الحامدين الذين هم أول من يدعىٰ إلىٰ الجنة، ومن بينهم صاحب لواء الحمد وآدم فمن دونه تحت لوائه.

وهذا يكون القضاء خيرا له، ونعمة من الله عليه، لكن يكون حمده لله ورضاه بقضائه من حيث عرف الله وأحبه وعبده لاستحقاقه الألوهية وحده لا شريك له فيكون صبره ورضاه وحمده من عبادته الصادرة عن هذه المعرفة والشهادة، وهذا يشهد بقلبه أنه لا إله إلا الله، والإله عنده هو المستحق للعبادة بخلاف من لم يشهد إلا مجرد ربوبيته ومشيئته وقدرته، أو مجرد إحسانه ونعمته فإنهما مشهدان ناقصان قاصران، وإنما يقتصر عليهما من نقص علمه بالله وبدينه الذي بعث به رسله وأنزل به كتبه كأهل البدع من الجهمية والقدرية الجبرية والقدرية المعتزلة فإن الأول مشهد أولئك. والثاني مشهد هؤلاء وشهود ربوبيته وقدرته ومشيئته مع شهود رحمته وإحسانه وفضله مع شهود إلهيته ومحبته ورضاه وحمده والثناء عليه ومجده = هو مشهد أهل العلم والإيمان من أهل السنة والجماعة التابعين بإحسان للسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار.

. . . والمقصود هنا: أن هذا يكون للمؤمن في عموم المصائب، وما يكون بأفعال المؤمنين فله فيه كظم الغيظ والعفو عن الناس.

ويوسف الصديق صلوات الله عليه كان له هذا، وأعلىٰ من ذلك الصبر عن الفاحشة مع قوة الداعي إليها، فهذا الصبر أعظم من ذلك الصبر. بل وأعظم من الصبر علىٰ الطاعة.

. . . ويوسف ﷺ صبر علىٰ الذنب مطلقًا، ولم يوجد منه إلا هم تركه لله كتب له به حسنة.

وقد ذكر طائفة من المفسرين أنه وجد منه بعض المقدمات، مثل: حل السراويل، والجلوس مجلس =

وسترىٰ من فوائد القصص في هذه السورة أنه لا دافع لقضاء الله -تعالىٰ-، ولا مانع من قدره، وأنَّه -تعالىٰ- لو قضىٰ للإنسان بسعادة ومكرمة واجتمع العالم كله علىٰ أن يمنعوه ما قدّر له ما وجدوا لذلك سبيلًا، وكذلك سترىٰ من هذه القصة أن مغبة الحسد الخذلان، وعاقبة الصبر الفرج والفوز، إلىٰ غير ذلك من

= الخاتن. ونحو ذلك. لكن ليس هذا منقولًا نقلًا يصدق به. فإن هذا لم ينقل عن النبي ﷺ.

ومثل هذه الإسرائيليات إذا لم تنقل عن النبي ﷺ لم يعرف صدقها. ولهذا لا يجوز تصديقها ولا تكذيبها إلا بدليل. والله تعالىٰ يقول في القرآن: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ فدل القرآن علىٰ أنه صرف عنه السوء والفحشاء مطلقًا ولو كان قد فعل صغيرة لتاب منها. والقرآن ليس فيه ذكر توبته.

ومن وقع منه بعض أنواع السوء والفحشاء لم يكن ذلك قد صرف عنه بل يكون قد وقع وتاب الله عليه منه. والقرآن يدل علىٰ خلاف هذا.

وقد شهدت النسوة له أنهن ما علمن عليه من سوء. ولو كان قد بدت منه هذه المقدمات لكانت المرأة قد رأت ذلك. وهي من النسوة اللاتي شهدن وقلن ما علمنا عليه من سوء وقالت مع ذلك: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ وقالت: ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

وقوله ﴿سُوٓءٍ﴾ نكرة في سياق النفي، فدل ذلك علىٰ أن المرأة لم تر منه سوءًا، فإن الهم في القلب لم تطلع عليه، ولو اطلعت عليه فإنه إذا تركه لله كان حسنة، ولو تركه مطلقا لم يكن حسنة ولا سيئة، فإنه لا إثم فيه إلا مع القول أو العمل.

وأما قصة نوح وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ وغيرهم صلوات الله عليهم فتلك أعظم والواقع فيها من الجانبين - فما فعلته الأنبياء من الدعوة إلىٰ توحيد الله وعبادته ودينه. وإظهار آياته وأمره ونهيه. ووعده ووعيده. ومجاهدة المكذبين لهم. والصبر علىٰ أذاهم = هو أعظم عند الله.

ولهذا كانوا أفضل من يوسف صلوات الله عليهم أجمعين. وما صبروا عليه وعنه أعظم من الذي صبر يوسف عليه وعنه، وعبادتهم لله وطاعتهم وتقواهم وصبرهم بما فعلوه، أعظم من طاعة يوسف وعبادته وتقواه.

أولئك أولوا العزم الذين خصهم الله بالذكر في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ وقال تعالىٰ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾.

وهم يوم القيامة الذين تطلب منهم الأمم الشفاعة. وبهم أمر خاتم الرسل أن يقتدىٰ في الصبر فقيل له: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ فقصصهم أحسن من قصة يوسف؛ ولهذا ثناها الله في القرآن لا سيما قصة موسىٰ.

... والمقصود هنا أن قوله: ﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ قد قيل إنه مصدر، وقيل إنه مفعول به والقولان متلازمان.

لكن الصحيح أن القصص مفعول به، وإن كان أصله مصدرًا فقد غلب استعماله في المقصوص ...»، مجموع الفتاوىٰ: (١٧/١٨-٣٣)، بتصرف. (عمرو)

العبر ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾، أي: خالي الذهن من قصة يوسف وإخوته؛ لأنَّك ما علمتها إلَّا بالوحي الإلهي.

ولذلك ختم القصة بقوله: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢] يريد إخوة يوسف وهم يمكرون به ويتآمرون عليه، ولكن الله علمك ما لم تكن تعلم من أخبار الرسل، أو الغافلين عن الدين والشريعة قبل ذلك، كما قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورىٰ: ٥٢].

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ هذا بدء لقصة يوسف مع إخوته، وقوله لأبيه يعقوب ﷺ إنِّي رأيت أحد عشر كوكبًا.

وقد أخذ منه بعض العلماء أنَّ إخوة يوسف كانوا أحد عشر، والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين، أي: رأيت الشمس والقمر، وهما أعظم الكواكب التي يستضيء بها أهل هذه الأرض خاضعين لي، وقد فطن والده يعقوب لخطر هذه الرؤيا، وأنَّ إخوته إذا سمعت منه ذلك حسدته علىٰ ذلك الخير المقدّر له، فقال له: يا بني لا تقصص رؤياك علىٰ إخوتك فيكيدوا لك كيدًا، ثم علل ذلك بأن الشيطان عدوٌّ مبين للإنسان، وهم عرضة لأنَّ يسلط عليهم.

ومنه نعلم أن يعقوب ﷺ لم يكن مؤمنًا بعصمة أولاده من حسد أخيهم، وتدبير المكايد له، بل كان مشفقًا علىٰ يوسف أن تحسده إخوته، وأن يدبروا له ما يودي بحياته، ويقضي عليه، وذلك وحده كافٍ في أنَّ إخوة يوسف لم يكونوا أنبياء ولا رسلًا[1]؛ لأنَّ ذلك الحسد الذي ظهر علىٰ إخوة يوسف مرض قلبي

---

(١) ذهب بعض العلماء إلىٰ أن إخوة يوسف ﷺ كانوا من الأنبياء، وذهب آخرون إلىٰ خلافه. قال ابن كثير: «واعلم أنه لم يقم دليل علىٰ نبوة إخوة يوسف، وظاهر هذا السياق يدل علىٰ خلاف ذلك. ومن الناس من يزعم أنهم أوحي إليهم بعد ذلك. وفي هذا نظر.

ويحتاج مدعي ذلك إلىٰ دليل. ولم يذكروا سوىٰ قوله تعالىٰ: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ [البقرة: ١٣٦]. وهذا فيه احتمال؛ لأن بطون بني إسرائيل يقال لهم: الأسباط. كما يقال للعرب: قبائل. وللعجم: شعوب؛ يذكر تعالىٰ أنه أوحىٰ إلىٰ الأنبياء من =

. . . .

= أسباط بني إسرائيل، فذكرهم إجمالا لأنهم كثيرون، ولكن كل سبط من نسل رجل من إخوة يوسف، ولم يقم دليل على أعيان هؤلاء أنهم أوحي إليهم، والله أعلم»، تفسير ابن كثير: (٤/ ٣٢٧)، وقال السيوطي رحمه الله: «في إخوة يوسف عليه السلام قولان للعلماء، والذي عليه الأكثرون سلفا وخلفًا أنهم ليسوا بأنبياء». الحاوي للفتاوي: (١/ ٣٦٧).

وقال ابن تيمية في بيان حافل: «الذي يدلُّ عليه القرآنُ واللغةُ والاعتبار أن إخوةَ يوسف ليسوا بأنبياء، وليس في القرآن ولا عن النبي ﷺ بل ولا عن أصحابه خبرٌ بأن الله تعالىٰ نبّأهم. وإنما احتجَّ من قال إنّهم نبّئوا بقوله في آيتي البقرة والنساء (وَٱلۡأَسۡبَاطِ)، وفسّر الأسباط بأنهم أولاد يعقوب، والصواب أنه ليس المراد بهم أولادُه لصلبه بل ذُرِّيَّتُه، كما يقال فيهم أيضا «بنو إسرائيل»، وكان في ذريته الأنبياء، فالأسباط من بني إسرائيل كالقبائل من بني إسماعيل.

قال أبو سعيد الضرير: أصل السِّبْط شجرةٌ ملتفةٌ كثيرة الأغصان.

فسُمُّوا الأسباط لكثرتهم، فكما أن الأغصان من شجرة واحدة، كذلك الأسباط كانوا من يعقوب. ومثل السبط الحافد، وكان الحسن والحسين سِبْطَي رسولِ الله ﷺ، والأسباط حفدة يعقوب ذَرارِي أبنائه الاثني عشر. وقال تعالىٰ: ﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ١٥٩ وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗاۚ﴾، فهذا صريحٌ في أن الأسباط هم الأمم من بني إسرائيل، كلُّ سِبْطٍ أمةٌ، لا أنهم بَنُوه الاثنا عشر. بل لا معنىٰ لتسميتهم قبل أن تنتشر عنهم الأولاد أسباطًا، فالحال أن السِّبْط هم الجماعة من الناس.

ومن قال: الأسباط أولاد يعقوب، لم يُرِد أنهم أولادُه لصلبه، بل أرادَ ذريتَه، كما يقال: بنو إسرائيل وبنو آدم. فتخصيصُ الآية ببنيه لصلبه غلط، لا يدلُّ عليه اللفظُ ولا المعنىٰ. ومن ادّعاه فقط أخطأ خطًا بيّنًا.

والصواب أيضًا أن كونهم أسباطًا إنما سُمُّوا به من عهد موسىٰ للآية المتقدمة، ومن حينئذٍ كانت فيهم النبوة، فإنه لا يُعرَف أنه كان فيهم نبيّ قبلَ موسىٰ إلا يوسف. ومما يؤيّد هذا أنّ الله تعالىٰ لما ذكر الأنبياء من ذرية إبراهيم قال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ﴾ الآيات، فذكر يوسف ومن معه، ولم يذكر الأسباط، فلو كان إخوةُ يوسف نُبّئوا كما نبيَ يوسف لَذُكِروا معه.

وأيضًا فإن الله يذكر عن الأنبياء من المحامد والثناء ما يناسب النبوة، وإن كان قبل النبوة، كما قال عن موسىٰ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ الآية، وقال في يوسف كذلك، وفي الحديث: **«أكرم الناس يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، نبيّ من نبي من نبي»**.

فلو كانت إخوتُه أنبياء كانوا قد شاركوه في هذا الكرم، وهو تعالىٰ لما قصّ قصّةَ يوسف وما فعلوا معه ذكر اعترافهم بالخطيئة وطلبهم الاستغفار من أبيهم، ولم يذكر من فضلهم ما يناسب النبوة، ولا شيئا من خصائص الأنبياء، بل ولا ذكر عنهم توبةً باهرةً كما ذكر عن ذنبه دون ذنبهم، بل إنما حكىٰ عنهم الاعتراف وطلب الاستغفار. ولا ذكر سبحانه عن أحدٍ من الأنبياء -لا قبلَ النبوة ولا بعدها- أنه فعلَ مثلَ هذه الأمورِ العظيمة، من عقوق الوالد وقطيعةِ الرحم وإرقاقِ المسلم وبيعه إلىٰ بلاد الكفر والكذب البيّن وغير ذلك مما حكاه عنهم، ولم يَحْكِ شيئًا يناسب الاصطفاءَ والاختصاصَ الموجب لنبوتهم، =

من شأنه أن لا يفارق صاحبه ما دام في هذه الحياة، ولو كان ذنب إخوة يوسف معه شيئًا وراء الحسد لقلنا: إنَّه ذنب وقع قبل النبوة وفارقهم بعدها، والأنبياء ليسوا معصومين في ذلك الحين، أما وهو مرض نفسي يتعلق بالقلب[1]، ثم هو حقد علىٰ أخيهم يوسف؛ لأنَّه سيكون له شأن من ناحية الرسالة والملك، فمن الصعب أن نوفق بين ذلك المرض وبين النبوة أو الرسالة بحال من الأحوال،

= بل الذي حكاه يخالف ذلك، بخلاف ما حكاه عن يوسف.

ثمّ إن القرآن يدلُّ علىٰ أنه لم يأتِ أهلَ مِصْرَ نبيٌّ قبلَ موسىٰ سوىٰ يوسف. لآية غافر. ولو كان من إخوة يوسف نبيٌّ لكان قد دعا أهل مصر، وظهرت أخبار نبوته. فلما لم يكن ذلك عُلِمَ أنه لم يكن منهم نبيٌّ. فهذه وجوهٌ متعددة يُقوّي بعضُها بعضًا.

وقد ذكر أهل السير أن إخوة يوسف كلهم ماتوا بمصر، وهو أيضًا، وأوصىٰ بنقله إلىٰ الشام، فنقلَه موسىٰ.

والحاصل أن الغلط في دعوىٰ نبوتهم حَصَلَ من ظَنِّ أنهم هم الأسباط، وليس كذلك. إنما الأسباط ذرّيتهم الذين قُطِّعُوا أسباطًا من عهد موسىٰ. كل سِبْطٍ أمة عظيمة. ولو كان المراد بالأسباط أبناء يعقوب لقال: «ويعقوب وبنيه»، فإنه أوجز وأَبْيَنُ. واختير لفظ «الأسباط» علىٰ لفظ «بني إسرائيل» للإشارة إلىٰ أن النبوة إنما حصلتْ فيهم من حينِ تقطيعِهم أسباطًا من عهد موسىٰ. والله أعلم»، جامع المسائل، المجموعة الثالثة: (٢٩٥-٢٩٩).

وله قول بنبوتهم: «وقد أخبر الله عن إخوة يوسف بما أخبر. ثم نبأهم بعد توبتهم. وهم الأسباط الذين أمرنا أن نؤمن بما أوتوا في سورة البقرة وآل عمران والنساء»، منهاج السنة: (٧/ ١٣٥)، وانظر: مجموع الفتاوىٰ: (١٠/ ٣١٠). (عمرو)

(١) «والمقصود أن «الحسد» مرض من أمراض النفس وهو مرض غالب فلا يخلص منه إلا قليل من الناس، ولهذا يقال: ما خلا جسد من حسد، لكن اللئيم يبديه والكريم يخفيه.

وقد قيل للحسن البصري: أيحسد المؤمن؟ فقال: ما أنساك إخوة يوسف لا أبا لك. ولكن عمِّه في صدرك. فإنه لا يضرك ما لم تعد به يدا ولسانا.

فمن وجد في نفسه حسدا لغيره، فعليه أن يستعمل معه التقوىٰ والصبر.

فيكره ذلك من نفسه، وكثير من الناس الذين عندهم دين لا يعتدون علىٰ المحسود، فلا يعينون من ظلمه، ولكنهم أيضًا لا يقومون بما يجب من حقه، بل إذا ذمه أحد لم يوافقوه علىٰ ذمه ولا يذكرون محامده. وكذلك لو مدحه أحد لسكتوا. وهؤلاء مدينون في ترك المأمور في حقه مفرطون في ذلك؛ لا معتدون عليه. وجزاؤهم أنهم يبخسون حقوقهم. فلا ينصفون أيضًا في مواضع، ولا ينصرون علىٰ من ظلمهم. كما لم ينصروا هذا المحسود.

وأما من اعتدىٰ بقول أو فعل فذلك يعاقب.

ومن اتقىٰ الله وصبر، فلم يدخل في الظالمين = نفعه الله بتقواه»، مجموع الفتاوىٰ: (١٠/ ١٢٦). (عمرو)

وكان ذلك وحده كافيًا في ألا يفهم الناس أنهم أنبياء، بل هم من عامّة القوم يجري عليهم ما يجري علىٰ بقية الناس، فكيف إذا كانت النبوّة أو الرسالة لا تثبت إلا بنصٍّ قاطع!! وأولئك الإخوة لم يرد فيهم نصّ من الكتاب ولا من السنة الصحيحة يدل علىٰ أنهم أنبياء أو رسل، وإنَّما ورد النص القاطع بأنَّهم دبروا ليوسف ما دبروا، وكادوا له ما كادوا، وكذبوا علىٰ أبيهم ما شاء لهم الهوىٰ، فكيف يكون أولئك الأخوة أنبياء أو رسلًا.

وقد دلَّ تحذير يعقوب ليوسف ﷺ أن يقصّ رؤيته علىٰ إخوته أنهم كانوا مستعدين لفهم هذه الرؤيا، وأنَّهم في نهاية أمرهم سيكونون تبعًا ليوسف خاضعين له، وكذلك أبواه سيخضعون له، وهي من الرؤىٰ الواضحة التي يفهمها كثير من الناس، ولا سيما إخوة يوسف الذين هم أحد عشر، وتأويل الشمس والقمر، وهما أعظم الكواكب بالأبوين واضح جليّ من شأنه أن يفهمه إخوة يوسف.

(٢) ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ . . . إلخ بشارة من نبي الله يعقوب ﷺ لولده يوسف -بناءً علىٰ وحي سماوي- بأنَّ الله -تعالىٰ- كما ألهمه هذه الرؤيا العظيمة يجتبيه للرسالة ويعلمه من تأويل الأحاديث . . . إلخ، أو أنَّ تلك البشارة مبنية علىٰ فراسة من نبي الله يعقوب، وقرائن لمحها في استعداد ولده يوسف، وكأنه يقول لولده: إنِّي أرجو أن يجتبيك الله ويصطفيك، كما اجتباك لهذه الرؤيا التي تدل علىٰ مستقبل مملوء بعظائم الأمور.

فقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾، أي: ومثل ذلك الاجتباء البديع الذي شاهدت آثاره في عالم المثال، من سجود تلك الأجرام العلوية لك، ﴿يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾: يصطفيك علىٰ أشراف الخلائق، ويبرز مصداق تلك الرؤيا في عالم الشهادة؛ أي: كما سُخِّرت لك الأجرام العظام يُسخَّر لك وجوه الناس ونواصيهم، مذعنين لطاعتك، خاضعين لك، ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ توطين لنفس يوسف ﷺ؛ أي: فتطلع علىٰ حقِّيَة ما أقول، والمراد بتأويل الأحاديث: تعبير الرؤيا؛ إذ هي أحاديث المَلَك إن كانت صادقة، وأحاديث النفس أو الشيطان إن لم تكن كذلك[1]، وقيل هو تأويل غوامض كتب الله -تعالىٰ-

(١) الحُلم بالمعنىٰ اللغوي، وهو ما يراه الإنسان في منامه من الخير والشر، مرادف للرؤيا، إلا أنه غلب =

وسنن الأنبياء ﷺ، والأول هو الأظهر[1]، وتسمية التعبير تأويلًا؛ لأنَّه جعل المَرئيّ في النوم آيلًا إلىٰ ما يذكره المعبر وراجعًا إليه، من (**الأوْل**)، وهو الرجوع[2]، وكلمة: ﴿تَأْوِيلُ﴾ في القرآن الكريم يراد منها ما يؤول إليه الشيء ويرجع إليه، فإذا قال الله -تعالىٰ- في شأن المتشابه من القرآن ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، فالمراد ما تؤول إليه تلك الآيات في الواقع، من كيفية صفات الله -تعالىٰ-، وكيفية عالم الغيب من الجنة والنار وما فيهما، فلا يعلم أحد كيفية قدرته وتعلقها بالإيجاد والإعدام، وكيفية استوائه علىٰ العرش، ولا كيفية نعيم أهل الجنة أو عذاب أهل النار، فليست نار أهل النار كنار الدنيا، وليست ثمرات الجنة ولبنها وعسلها من جنس المعهود لنا، وإنما هو شيء آخر يليق بذلك العالم ويناسبه[3]، وإذا قال الله -تعالىٰ- ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ

= في الاصطلاح الشرعي استعمال الرؤيا في الخير والشيء الحسن، وغلب استعمال الحلم علىٰ خلافه.

ودل علىٰ هذا التفريق أحاديث كثيرة، منها ما أخرجه البخاري ؒ من حديث أبي قتادة ؓ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**الرؤيا الصادقة من الله، والحلم من الشيطان**»، البخاري: (٦٩٨٤).

ولعل الحكمة والله أعلم في نسبة الرؤيا إلىٰ الله، والحلم إلىٰ الشيطان، أن الله ﷻ كره أن يسمىٰ ما كان من الله وما كان من الشيطان باسم واحد. فشرع التفريق بين الحق والباطل، بأن جعل الرؤيا ما كان من الله، والحلم ما كان من الشيطان، لأنه الذي يخيل بها ولا حقيقة لها. فهي من إلقائه وتشويشاته وتلاعبه ووسوسته وتحزينه للإنسان، كما دلت علىٰ ذلك الأحاديث الكثيرة في نسبتها إلىٰ الشيطان وبيان عداوته للإنسان.

وهذا التفريق بين الرؤيا والأحلام من الاصطلاحات الشرعية. وإن كان كل من الرؤيا والحلم من عند الله ﷻ. وإنما ذلك جار علىٰ أدب العبودية من إضافة الخير إلىٰ الله وإضافة الشر إلىٰ غيره. كما قال تعالىٰ: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩].

وكقوله عن الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ﴾ [الجن: ١٠].

انظر: الرؤىٰ عند أهل السنة: (٦٦-٦٧). (عمرو)

(١) ولا يعرف هذا القول الثاني عن السلف. وأورده الزمخشري في التفسير: (٢/٤٤٥). (عمرو)

(٢) انظر في الأصل اللغوي: لسان العرب (١٤/٢٩٧) مادة رأىٰ. الناشر: دار صادر. بيروت، وانظر: الصحاح للجوهري (٦/٢٣٤٩) والقاموس المحيط للفيروز آبادي (١٦٥٨). (عمرو)

(٣) قال ابن تيمية: «وإنما كان لفظ التأويل في عرف السلف يراد به ما أراده الله بلفظ التأويل في مثل قوله تعالى ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٥٣]، وقال تعالي ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]، وقال يوسف ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف: ١٠٠]، وقال يعقوب له ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ٦]، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ [يوسف: ٤٥]، وقال يوسف ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾ [يوسف: ٣٧]. =

﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]، فالمراد به أحسن مآلًا وعاقبة، ولذلك فسره **مجاهد**، **وقتادة** بالثواب والجزاء، **والسدّي**، **وابن زيد**، **وابن قتيبة**، **والزجاج** بالعاقبة، وكلاهما بمعنىٰ المآل، لكن الثاني أعمّ؛ لأنّه يشمل حسن المآل في الدنيا[(١)]، وإذا قال الله -تعالىٰ- ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٢، ٥٣]، فالمراد بتأويله ما يؤول إليه، ولذلك فسره **ابن عباس** بتصديق وعده ووعيده؛ أي يوم يظهر صدق ما أخبر به من أمر الآخرة، وقال **قتادة**: تأويله ثوابه، **ومجاهد**: جزاؤه[(٢)]، ومثله في سورة **يونس** ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ [يونس: ٣٩]. المراد منه ما يؤول إليه الأمر من ظهور صدقه، وكذلك يقال في قوله: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾؛ أي: بيان ما تؤول إليه الرؤىٰ والأحلام، وكذلك قوله في آخر السورة لأبيه يعقوب ﷺ: ﴿يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾؛ أي: هذا الذي وقع من سجود أبويه وإخوته الأحد عشر له هو الأمر الواقعي الذي آلت إليه رؤياه المذكورة في أول السورة: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾، فتأويل الرؤيا الإخبار بما تؤول إليه، وذلك التأويل هو الذي يسمونه تعبيرًا، وهو العبور من ظاهر الرؤيا إلىٰ باطنها، وأصله من **العبر**، وهو التجاوز من حال إلىٰ حال وخصّوا تجاوز الماء بسباحة أو غيرها بلفظ العبور، وكأنّ المعبّر تجاوز لفظ الرؤية، وظاهرها إلىٰ عاقبتها وباطنها، وأخذ من ظاهر اللفظ ما يوصله إلىٰ باطنه فيرجع إلىٰ معنىٰ التأويل، وهو ما تؤول إليه الرؤيا من

= فتأويل الكلام الطلبي: الأمر والنهي، وهو نفس فعل المأمور به وترك المنهي عنه . . . وأما تأويل ما أخبر الله به عن نفسه وعن اليوم الآخر فهو نفس الحقيقة التي أخبر عنها. وذلك في حق الله: هو كنه ذاته وصفاته التي لا يعلمها غيره، ولهذا قال مالك وربيعة وغيرهما: الاستواء معلوم، والكيف مجهول». درء التعارض: (١/ ٢٠٧). (عمرو)

(١) انظر: تفسير الطبري: (٥/ ٢٢٠)، (٧/ ١٨٧)، زاد المسير: (١/ ٤٢٥). (عمرو)

(٢) انظر: تفسير الطبري: (١٠/ ٢٤٠)، زاد المسير: (٢/ ١٢٦). (عمرو)

الحقائق، وهو لا يخالف من قال: إن تعبير الرؤيا تفسيرها؛ لأنَّ المفسر يعبر اللفظ إلىٰ المعنىٰ ويتجاوز ظاهر الرؤيا إلىٰ باطنها، ويفسر ما تؤول إليه وتنتهي عنده، و﴿ٱلرُّءْيَا﴾ بوزن فُعْلىٰ: ما يراه الشخص في منامه، وقد تجيء بمعنىٰ الرؤية البصرية علىٰ ندور وقلة، ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ . . . إلخ؛ أي: يضم إلىٰ النبوة المستفادة من الاجتباء المُلك، ويجعله تتمة لها، و﴿ءَالِ يَعْقُوبَ﴾: أهله من بنيه وغيرهم، ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ﴾ باتخاذ إبراهيم ﷺ خليلًا، وإنجائه من النار، وإعفائه من ذبح الولد الذي هو فلذة كبده، ونعمته علىٰ إسحاق بإنجائه من الذبح، وفدائه بذِبْح عظيم، وإخراج يعقوب والأسباط من صلبه، ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ﴾: فيعلم من يستحق الاجتباء وما يتفرع عليه من التعليم المذكور، وإتمام النعمة العامة ﴿حَكِيمٌ﴾: فاعل لكل شيء حسبما تقتضيا الحكمة والمصلحة.

* آراء العلماء في الرؤىٰ والأحلام(١):

(٣) «قال **المازري**(٢): كثر كلام الناس في حقيقة الرؤيا وقال فيها غير الإسلاميين أقاويل كثيرة منكرة؛ لأنَّهم حاولوا الوقوف علىٰ حقائق لا تدرك بالعقل، ولا يقوم عليها برهان، وهم لا يصدقون بالسمع، فاضطربت أقوالهم، فمن ينتمي إلىٰ الطب ينسب جميع الرؤيا إلىٰ الأخلاط، فيقول من غلب عليه البلغم رأىٰ أنه يسبح في الماء، ونحو ذلك لمناسبة الماء طبيعة البلغم، ومن

---

(١) إنما اختلف الناس في بيان كيفية هذه الرؤىٰ وحقيقتها اختلافًا عظيمًا ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وسبب اختلافهم في حقيقة الرؤيا، هو إعراضهم عن الكتاب والسنة، ومحاولة الوقوف علىٰ أمور لا تدرك بالعقول.

انظر: الرؤىٰ عند أهل السنة: (٤٤).

وانظر في أقاويل الناس في الرؤىٰ: انظر: مقالات الإسلاميين (٢/ ١٠٧) تحقيق: محمد محيي الدين، الطبعة الأولىٰ، عام (١٣٦٩) هـ، مكتبة النهضة المصرية، والفصل (٥/ ١٢٣، ١٢٤) بتحقيق محمد نصر وعميرة دار الجيل (١٤٠٥) هـ.

(٢) المعلم بفوائد مسلم (٣/ ١١٥) تقديم وتحقيق: محمد الشاذلي النيفر، دار العرب الإسلامي، بيروت الطبعة الثانية (١٩٩٢) م.

غلبت عليه الصفراء رأىٰ النيران والصعود في الجوّ، وهكذا إلىٰ آخره، وهذا وإن جوّزه العقل، وجاز أن يُجري الله العادة به، لكنه لم يقم عليه دليل، ولا اطّردت به عادة، والقطع في موضع التجويز غلط، ومن ينتمي إلىٰ الفلسفة يقول: إنَّ صور ما يجري في الأرض هي في العالم العلوي كالنقوش، فما حاذىٰ بعض النقوش منها انتقش فيها، قال: وهذا أشد فسادًا من الأول، لكونه تحكُّمًا لا برهان عليه، والانتقاش من صفات الأجسام، وأكثر ما يجري في العالم العلوي الأعراض، والأعراض لا ينتقش فيها، قال: والصحيح ما عليه أهل السنة أن الله يخلق في قلب النائم اعتقادات كما يخلقها في قلب اليَقْظان، فإذا خلقها فكأنه جعلها عَلَمًا علىٰ أمور أخرىٰ يخلقها في ثاني الحال، ومهما وقع منها علىٰ خلاف المعتقد فهو كما يقع لليقظان، ونظيره أن الله خلق الغيم علامة علىٰ المطر، وقد يتخلف، وتلك الاعتقادات تقع تارة بحضرة الملك فيقع بعدها ما يسرّ، أو بحضرة الشيطان فيقع بعدها ما يضرّ، والعلم عند الله -تعالىٰ-.

وقال **القرطبي**[(١)]: سبب تخليط غير الشرعيين إعراضهم عما جاءت به الأنبياء من الطريق المستقيم، وبيان ذلك أنَّ الرؤيا من إدراكات النفس، وقد غُيِّب عنَّا علم حقيقتها؛ أي: النفس، وإذا كان كذلك فالأولىٰ ألَّا نعلم علم إدراكاتها، بل كثير ممَّا انكشف لنا من إدراكات السمع والبصر إنَّما نعلم منه أمورًا جُمَلِيَّة لا تفصيلية.

ثم قال: ثم جميع المرائي تنحصر في قسمين: **الصادقة**، وهي رؤيا الأنبياء ومن تبعهم من الصالحين، وقد تقع لغيرهم بندور، وهي التي تقع في اليقظة علىٰ وفق ما وقعت في النوم، **والأضغاث**، وهي التي لا تنذر بشيء، وهي أنواع:

الأول: تلاعب الشيطان ليحزن الرائي كأن يرىٰ أنه قطع رأسه وهو يتبعه، أو رأىٰ أنَّه واقع في هول، ولا يجد من ينجده، ونحو ذلك.

الثاني: أن يرىٰ أنَّ بعض الملائكة تأمره أن يفعل المحرّمات مثلًا، ونحوه من المحال عقلًا.

---

(١) هو أبو العباس، أحمد بن عمر بن إبراهيم الأنصاري القرطبي المالكي الفقيه المحدث، وهو شيخ القرطبي المفسر (٥٧٨-٦٥٦ هـ).

الثالث: أن يرىٰ ما تتحدّث به نفسه في اليقظة، أو يتمناه فيراه كما هو في المنام، وكذا رؤية ما جرت به عادته في اليقظة، أو يغلب علىٰ مزاجه، ويقع علىٰ المستقبل غالبًا، وعن الحال كثيرًا، وعن الماضي قليلًا»[1] (اهـ).

* وقال الشيخ **النابلسي** في مقدمة كتابه **«تعطير الأنام في تعبير المنام»** ما نصه:

«وقد قال بإبطال الرؤيا قوم من الملحدين يقولون: إنَّ النائم يرىٰ في منامه ما يغلب عليه من الطبائع الأربعة، فإن غلبت عليه السوداء رأىٰ الأجداث والسواد والأهوال والأفزاع، وإن غلبت عليه الصفراء، رأىٰ النار والمصابيح والدم والمعصفرات، وإن غلب عليه البلغم رأىٰ البياض والمياه والأنهار والأمواج، وإن غلب عليه الدم رأىٰ الشراب والرياحين والمعازف والمزامير.

وهذا الذي قالوه نوع من أنواع الرؤيا، وليست الرؤيا منحصرة فيه؛ فإنَّا نعلم قطعًا أنَّ منها ما يكون من غالب الطبائع كما ذكروا، ومنها ما يكون من الشيطان، ومنها ما يكون من حديث النفس، وهذه أصح الأنواع الثلاثة». (اهـ).

(٤) وقال الأستاذ الشيخ طنطاوي جوهري في كتابه: **«الجواهر في تفسير القرآن»**:

* اعلم أنَّ الرؤىٰ علىٰ أقسام:

- **القسم الأول**: ما نشأ من غلبة الدم الناجم من الإكثار من الأغذية الدموية الحارة الرطبة كالطبائخ الدسمة، والحلواء، فتهيج الطبيعة، فتبخر في الدماغ بخارًا حارًّا رطبًا، فيكون الصداع العظيم، وفترة الحواس، وقد يزداد فتحمرّ العين، ويكون وجع الحلق، وذات الجنب، وورم الكبد والطحال والأمعاء والأُنثَيَيْن، ويرىٰ في منامه الرعاف والاحتجام والدم واللعَّابين والرقاصين.

- **القسم الثاني**: ما نشأ من غلبة الصفراء الناجمة من الإكثار من الأغذية اليابسة، كالعسل، ولحم الكبش الحولي، ونحو ذلك، فتحترق الطبيعة من الجوف إلىٰ الدماغ ببخار صفراوي غير معتدل، فيكون صداع في الرأس وشقيقة

---

(١) انظر: «فتح الباري شرح صحيح البخاري»: (١٢/ ٢٨٤، ٢٨٥).

وقلة نوم وحرارة اللمس، وقد يصفرُّ اللون والعين ويكون الفم مرًّا، ويرىٰ في منامه النيران والشمس المحرِقة والصواعق والحروب، ولا يزال مغتمًّا مهتمًّا.

- **القسم الثالث**: الرؤيا الناشئة من البلغم الناجم من الإكثار من الأغذية الباردة الرطبة، المولدة بخارًا رطبًا يوقع فترة من الجسم، ورخاوة في المفاصل، وكثرة الريق، ولزوجيته، وبرد الجسم، وقلة شهوة الطعام أول النهار، وقلة العطش وضعف المعدة وبياض البول، وكثرة النوم والكسل والنسيان، وأن يرىٰ صاحبه في نومه الأمطار والمياه والأودية والاغتسال والسباحة.

- **القسم الرابع**: الرؤىٰ الناجمة من غلبة السوداء، الناشئة من الإكثار من الأغذية السوداوية، كالعدس والدخن ولحم البقر والباذنجان، فيبتدئ المرض السوداوي بفترة في البدن، وشدة عطش، وقلة نوم، وقد يطغىٰ المرض إذا لم يُتدارَك= فيكون الجذام، والجرب، والحكة، والفالج، والسكتة، وخفة الرأس، والرعاف، والثآليل، والباسور، والصرع، والماليخوليا، والقوبا، والبهقة، والسعال اليابس ... إلخ، ويرىٰ في منامه الأهوال والمخاوف والخيالات والظلمة والأشياء السوداء المحرقة، ويهرب من كل أحد، ويرىٰ الأموات ونحو ذلك، وأكثر ما يقع ذلك من أكل الملوحة والحموضة والفول والعدس.

- **القسم الخامس**: أن تكون القوة المخيلة في الدماغ مشغولة بصور واردة عليها من الحواس مخزونة فيها، ومن خصائص هذه القوّة العجيبة أنها تحلل تلك الصور وتركبها كأن تتخيل:

أَعْلَامُ يَاقُوتٍ نُشِرْ ... نَ عَلَىٰ رِمَاحٍ مِنْ زَبَرْجَد

وكأن تتصور إنسانًا مقطوع الرأس وهو لا يزال حيًّا.

- **القسم السادس**: أن تحاكي القوة المتخيلة المذكورة ما غلب علىٰ النفس من منازعها الشهوية الطبيعية، كشهوة الطعام وشهوة التزاوج والتناسل؛ فإنَّ تلك القوة تخترع الأعاجيب في المنام، فتقدم للنائم الطعام والشراب، والأنس والأصحاب، والأوانس والغادات؛ مضاهاة ومحاكاة لما يحصل في العيان.

- **القسم السابع**: أن تحاكي تلك القوة ما غلب علىٰ النفس قبل من القوة الغضبية والحمية والعصبية، فتخترع له تلك القوة آلاتٍ للقتال، ودروعًا للنضال،

وسيوفًا وحرابًا لملاقاة الأبطال، ومدافع لكفاح الأعداء، فتجد ما كان في النهار قوة كامنة في النفس ظاهرًا في النوم عند تلك القوة تفتك بأقرانه، وتجندل أعداءه، وهو منصور في المنام.

القسم الثامن: أن يكون البدن هادئًا ساكنًا لم تغلب عليه الصفراء ولا السوداء ولا الدم ولا البلغم ولا الشهوة البهيميَّة، ولا القوة الغضبية، ولم تزدحم معدته بالطعام؛ فإنَّ هذا ربما يرىٰ في منامه واردات من عالم العقل فترتسم تلك المعاني العالية الواردة عليه، وتصور بصور المحسوسات وقد تكون بديعة جدًّا، بهية المنظر، وقد تكون تلك الواردة عليه أقوالًا لطيفة ورموزًا لها معان إجمالية تخبر بأمر في الحال أو الاستقبال، فهذه هي الأقسام الثمانية التي لا يخلو منها، أو من بعضها أصحاب الرؤىٰ من الناس.

واعلم أيها الذكي أنَّ هذا القول ملخص ما ذكره **الفارابي** في علم النفس، وملخص ما جاء في علم الطب في هذا المقام، فهذا المقام أصوله في فلسفة الفارابي، وفي علم الطب، قد فصلته لك تفصيلًا، ومزجته مزجًا جميلًا، وأبنته أيما تبيان، وعلىٰ ذلك تكون الأقسام السبعة وهي حال الصفراء، والدم، والبلغم، والسوداء، والصور الواردة من الحواس، وغلبة القوّة الغضبية، والقوة الشهوية= الرؤىٰ فيها أضغاث أحلام لا تأويل لها، وإنَّما هي نتيجة ما قام بالجسم من الأمزجة والأحوال؛ فأما القسم الثامن فإنَّ له ضروبًا شتىٰ وأحوالًا مختلفة، فمنها ما يكون واضح الدلالة، ومنها ما يحتاج إلىٰ تأويل، وهذا هو الذي تكون منه الرؤيا الصادقة، وهي نادرة في النوع الإنساني، فأما أكثر الرؤىٰ فإنها أضغاث أحلام، وهي تلك السبع، والله أعلم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون، وهذا خير ما اطلعتُ عليه ممَّا ذكره أهل العلم في الرؤىٰ والأحلام، والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

ثم قال الأستاذ: (هل من علاقة بين الأحلام والحوادث؟)، ونقل عن مجلة علمية فصلًا حاولت به المجلة أن تشرح به مسألة الأحلام، وتثبت أن بينها وبين الحوادث التي تقع حولنا علاقة لا يمكن إنكارها.

فمن ذلك ما رآه الدكتور «**دي سرمين**» وهو أنَّه حلم ذات يوم أن ولده وقع

في نار ملتهبة واحترق، فأخذ يراقب ولده في اليوم التالي فوجده صحيح الجسم، ولكنه أصيب في اليوم الذي بعده بالتهاب الرئة الحادّ، وتُوفي بعد بضعة أيام.

ومنه ما وقع لسيدة من أهالي مدينة **فيلادلفيا** بأمريكا حلمت أنَّ ابنها -وهو رجل كهل- سقط بين عجلات الترامواي وقتل، فنهضت من نومها مذعورة، فنامت مرة ثانية، فتكرر الحلم، ففي اليوم التالي ذهبت إلىٰ **نيويورك** حيث كان ابنها يسكن، وما كادت تخرج من محطة **نيويورك** حتىٰ أبصرت جمهورًا من الناس حول رجل ميت دهمه الترامواي، وكان ذلك الرجل هو ابنها.

ومن ذلك القبيل أنَّ ضابطًا أمريكيًا يدعىٰ الكابتن **«مكجون»** عزم أن يذهب هو وولده إلىٰ مسرح **بروكلين**، فطلب من إدارة المسرح أن تحجز له ثلاثة أماكن، وفي الليلة السابقة للمسرح حلم أن نارًا عظيمة شبت في المسرح والتهمته، فهلك ثلاثمائة نفس، فهبّ من نومه مذعورًا، وأخبر إدارة المسرح أنَّه عدل عن الذهاب هو وولداه، وفي تلك الليلة شبت نار هائلة التهمت المسرح كله، وهلك بالنار ثلاثمائة نفس بين رجال ونساء، ومن الناس من استفاد من الأحلام فربح جوائز اليانصيب أو الرهن علىٰ الجياد الفائزة في ميادين السباق.

ثم قال: والحوادث التي من هذا القبيل كثيرة متعددة، ولكن لا يصعب إرجاع معظمها إلىٰ مبدأ الاتفاق التي تسميه العامة المصادفة، إلَّا إذا حلم المرء أنَّ الرقم الفلاني من أرقام أوراق اليانصيب ربح الجائزة الكبرىٰ، وفي الواقع ربح ذلك الرقم الجائزة؛ فإن الربح في هذه الحالة لا يمكن إرجاعه إلىٰ ناموس الاتفاق، بل يجب تعليله علىٰ وجه آخر.

ثم ختمت المجلة بحثها بقولها: إنَّ العلماء يواصلون البحث لمعرفة أسرار الأحلام والوصول إلىٰ تعليلها تعليلًا علميًا صحيحًا، ولا بُدَّ أن ينتهوا إلىٰ حل يحسن السكوت عليه، فيثبتوا أن الأحلام ليست مجرد مشاهد تعرض للنائم بلا سبب منطقي، بل إن بينها وبين الحوادث علاقة لا سبيل إلىٰ إنكارها»[1]. (اهـ).

(١) انظر: (٧/١٦-٢٩).

* تعليل العلماء للرؤيا:

(٥) علَّلَ العلامة **ابن خلدون** في مقدمته الرؤيا بأن الروح العاقل المدرك في الإنسان إنما يمنع من تعقله للمدارك الغيبيَّة حجاب الاشتغال بالبدن، وقواه وحواسه، فإذا تخلص عن بعض ذلك الحجاب بالنوم= خفَّت شواغله، فاستعد لقبول ما هنالك من المدارك اللائقة، وانكشف للروح العاقل من المدارك الغيبية ما هو مستعدّ له.

ويرىٰ **ابن خلدون** في الفرق بين الرؤيا والأضغاث -وإن كان كل منهما صورًا وأمثلة في خيال النائم- أنَّ تلك الصورة إن كانت متنزِّلة إلىٰ الخيال عن طريق الروح العقلي المدرك فهي رؤيا، وإن كانت مأخوذة من الصورة التي أُودعت في الحافظة منذ اليقظة فهي أضغاث أحلام، ولم يُرِد ابن خلدون بذلك حصر الأضغاث في ذلك النوع، بل ذلك النوع من الأضغاث، وكذلك يرىٰ **ابن خلدون** أنَّ الخيال إذا ألقىٰ إليه الروح العاقلة ما أدركه= صوَّره في القوالب المعتادة للحس.

فمن وُلِد أعمىٰ لا يصوّر له الخيال السلطان بالبحر، ولا العدو بالحية، ولا الإنسان بالأواني؛ لأنَّ حسه لم يتعود إدراك هذه، وإنما يصور له الخيال أمثال هذه فيما يناسبها من جنس مداركه التي هي المسموعات والمشمومات، ثم قال: «وليتحفظ المعبر من مثل هذا فربما اختلط به التعبير وفسد قانونه»[١]. (اهـ بتصرف).

* وقال في «فتح الباري»:

«ونقل **القرطبي** عن بعض أهل العلم أنَّ لله -تعالىٰ- ملكًا يعرض المرئيات علىٰ المحل المدرك من النائم، فيمثل له صورة محسوسة، فتارة تكون أمثلة موافقة لِمَا يقع في الوجود، وتارة تكون أمثلة لمعانٍ معقولة، وتكون في الحالين مبشرة ومنذرة، قال -أي: **القرطبي**-: ويحتاج فيما نقله عن الملك إلىٰ توقيف من الشرع؛ وإلَّا فجائز أن يخلق الله تلك المثالات من غير ملك.

---

(١) انظر: (ص/ ٤٥٠) الطبعة الأميرية الثالثة.

وقيل: إنَّ الرؤيا إدراك أمثلة منضبطة في التخيل، جعلها الله أعلامًا علىٰ ما كان أو يكون. (ا. هـ)، وهو الموافق لما تقدم عن **المازري** من أنَّ الله -تعالىٰ- يخلق في قلب النائم اعتقادات كما يخلقها في قلب اليقظان، فإذا خلقها فكأنَّه جعلها عَلَمًا علىٰ أمور أخرىٰ يخلقها في ثاني الحال، ومهما وقع منها علىٰ خلاف المعتقد فهو كما يقع لليقظان، ونظيره أن الله خلق الغيم علامة علىٰ المطر، وقد يتخلف، وتلك الاعتقادات تقع تارة بحضرة الملك فيقع بعدها مايسرّ، أو بحضرة الشيطان فيقع بعدها ما يضر. والعلم عند الله -تعالىٰ-». (اهـ).

وقال القاضي **أبو بكر بن العربي**: الرؤيا إدراكات علقها الله -تعالىٰ- في قلب العبد علىٰ يدي ملك أو شيطان؛ إمَّا بأسمائها -أي: حقيقتها-، وإما بكُنَاها -أي: بعبارتها-، وإمَّا تخليط، ونظيرها في اليقظة الخواطر؛ فإنَّها قد تأتي علىٰ نسق في قصة، وقد تأتي مسترسلة غير محصلة.

هذا حاصل قول الأستاذ **أبي إسحاق**، قال: وذهب القاضي **أبو بكر بن الطيب** إلىٰ أنها اعتقادات، واحتجَّ بأن الرائي قد يرىٰ نفسه بهيمة أو طائر مثلًا، وليس هذا إدراكًا فوجب أن يكون اعتقادًا؛ لأنَّ الاعتقاد قد يكون علىٰ خلاف المعتقد، قال **ابن العربي**: والأول أولىٰ، والذي يكون من قبيل ما ذكره **ابن الطيب** من قبيل المثل، فالإدراك إنما يتعلق به لا بأصل الذات[1]. (اهـ)[2].

---

(١) انظر: «**الفتح**»، (١٢/ ٢٨٤، ٢٨٥).

(٢) ذكر هذه الأقوال، وناقشها الدكتور سهل العتيبي في كتابه: الرؤىٰ عند أهل السنة: (٤٥-٦٣).

وذكر أن أهل السنة قالوا: لا نعدوا قول نبينا ﷺ فقد بين الرؤيا بيانًا واضحًا شافيًا فقسمها إلىٰ ثلاثة أقسام: رؤيا حق من الله ﷻ، والله أعلم بكيفية ذلك، ورؤيا باطلة فهي أضغاث أحلام من تهويل الشيطان وتحزينه وتمثيله لابن آدم، أو مما يحدث به المرء نفسه في اليقظة فيراه في المنام.

قال ابن عبد البر رحمه الله: «وجملة القول في هذا الباب أن الرؤيا الصادقة من الله، وأنها من النبوة، وأن التصديق بها حق، وفيها من بديع حكمة الله ولطفه، ما يزيد المؤمن إلىٰ إيمانه.

ولا أعلم بين أهل الدين والحق، من أهل الرأي والأثر خلافًا فيما وصفت ولا ينكر الرؤيا إلا أهل الإلحاد، وشرذمة من المعتزلة». التمهيد: (١/ ٢٨٥).

فنحن لا نقول كما تقول المعتزلة أن الرؤىٰ كلها خيالات باطلة لا حقيقة لها، ولا كما تقول الفلاسفة أنها من فعل الطبائع بل نقول كما يقول ربنا ﷻ: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّءْيَا بِالْحَقِّ﴾ [الفتح: ٢٧] =

* ما ورد في صحيح البخاري في الرؤيا:

(٦) قد وضع البخاري في الرؤيا كتابًا سماه: **(كتاب التعبير)**[(١)] وقد جمع فيه نيفا وأربعين بابًا، وصدره بحديث: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم؛ لأنَّها أصل ذلك الباب، ثم عقبه باب رؤيا الصالحين، وقوله -تعالىٰ-: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾؛ ليرينا أنَّه كان من وحي الله -تعالىٰ- لنبيه محمد ﷺ بعد النبوة وحي طريقه الرؤيا، وبحديث: «**الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة**».

- وقد اختلف الشراح في معنىٰ ذلك اختلافًا كبيرًا، وممَّا قالوه: إنَّها مدرك من مدارك الغيب، وهي بهذا الاعتبار جزء من النبوّة؛ لأنَّ النبوة تعتمد الإخبار بالغيب، ثم حديث: «**الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ مِنَ اللهِ، وَالْحُلْمُ مِنَ الشَّيْطَانِ**».

= وكما يقول نبينا ﷺ «**الرؤيا الصادقة من الله، والحلم من الشيطان**».

وفي بيان حقيقة الرؤيا الصادقة وأنها حق، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في قول رسول الله ﷺ: «**من رآني في المنام فقد رآني حقًا، فإن الشيطان لا يتمثل في صورتي**»، هو كما قال ﷺ رآه في المنام حقًا، فمن قال: ما رآه في المنام حقًا فقد أخطأ. ومن قال: إن رؤيته في اليقظة بلا واسطة كالرؤية بالواسطة المقيدة بالنوم فقد أخطأ، ولهذا يكون لهذه تأويل وتعبير دون تلك.

وفي مواضع متعددة يقرر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أن ما يراه النائم في نومه عبارة عن أمثال مضروبة له.

فيقول في كتابه منهاج السنة النبوية: «والنائم يرىٰ في المنام إنسانًا يخاطبه ويشاهده، ويجري معه فصولًا، وذلك المرني قاعد في بيته، أو ميت في قبره، وإما رأىٰ مثاله».

وفي كتابه الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان يقول رحمه الله ما ملخصه: «إن النائم يرىٰ الأشياء في منامه ولها وجود وتحقق. ولكنها أمثلة فلما عزب عقله في أثناء النوم ظنها الرائي نفس الحقائق كالذي يرىٰ نفسه في مكان آخر يكلم أمواتًا ويكلمونه. ويفعل أمورًا كثيرة، وهو في النوم يجزم بأنه نفسه الذي يقول ويفعل: لأن عقله عزب عنه، وتلك الصورة التي رآها مثال صورته لكن غاب عقله عن نفسه، حتىٰ ظن أن ذلك المثال هو نفسه. فلما ثاب إليه عقله علم أن ذلك مثالات.

ومن الناس من لا يغيب عقله: بل يعلم أن ذلك في المنام. وهو كالذي يرىٰ صورته في المرآة، أو صورة غيره».

وقد ذكر قريبًا من ذلك في كتابه قاعدة في المعجزات والكرامات.

انظر: مجموع الفتاوىٰ: (١٢/ ٢٧٨)، (١٣/ ٧٦)، (١١/ ٦٣٦-٦٣٧)، ومنهاج السنة: (٥/ ٣٧٨)، بيان تلبيس الجهمية: (١/ ٧٢). (عمرو)

(١) صحيح البخاري. الطبعة السلطانية: (٩/ ٢٩)، وبدأت الأحاديث برقم: (٦٩٨٢) إلىٰ (٧٠٤٧). (عمرو)

- **قال الشراح**: إنَّ الرؤيا الصادقة هي الخالية عن الأضغاث، والحلم هو الأضغاث، وأضافه إلىٰ الشيطان؛ لأنَّه الذي يخيل بها ولا حقيقة لها في نفس الأمر، ولأنَّها تحزن صاحبها، وذلك غرض من أغراض الشيطان، ولذلك أضيفت إليه، كما حدّثنا **البخاري** عن رسول الله ﷺ أنَّ الرجل إذا رأىٰ رؤيا يحبها فهي من الله وليحمد الله عليها، وليحدّث بها الناس، وإذا رأىٰ غير ذلك ممَّا يكره فإنما هي من الشيطان؛ فلْيستعذ بالله من شرّها، ولا يذكرها لأحد؛ فإنَّها لا تضره، وذلك أدب من آداب الرؤيا، ثم عرض لحديث: «**لَمْ يَبْقَ مِنَ النُّبُوَّةِ إِلَّا الْمُبَشِّرَاتُ**»، قالوا لرسول الله ﷺ: وما المبشرات؟ قال: «**الرُّؤْيَاالصَّالِحَةُ**»، زاد **مسلم في صحيحه**: «**يَرَاهَا الْمُسْلِمُ، أَوْ تُرَىٰ لَهُ**»[1]، ثم عرض لباب رؤيا يوسف، ورؤيا إبراهيم ﷺ، ثم باب رؤيا أهل السجون والفساد والشرك؛ لقوله -تعالىٰ-: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ﴾؛ ليرينا أنَّ الرؤيا الصحيحة، وإن اختصت غالبًا بأهل الصلاح، لكن قد تقع لغيرهم من المشركين أو الفسقة، نقل صاحب «**الفتح**» عن أهل العلم بالتعبير أنَّه إذا رأىٰ الكافر أو الفاسق الرؤيا الصالحة؛ فإنَّها تكون بشرىٰ له بهداية إلىٰ الإيمان مثلًا أو التوبة، أو إنذارًا من بقائه علىٰ الكفر أو الفسق، وقد تكون لغيره ممَّن ينسب إليه من أهل الفضل؛ أي: كما تقدّم في **مسلم**: «**يَرَاهَا الْمُسْلِمُ، أَوْ تُرَىٰ لَهُ**»، وقد يرىٰ ما يدل علىٰ الرضا بما هو فيه ويكون من جملة الابتلاء، أو الغرور والمكر، نعوذ بالله من ذلك[2].

ثم عقب ذلك بـ: (باب من رأىٰ النبي ﷺ في المنام)، وحديث: «**مَنْ رَآنِي فِي المَنَامِ فَسَيَرَانِي فِي اليَقَظَةِ**»، وفي رواية: «**فَكَأَنَّمَا رَآنِي فِي الْيَقَظَةِ، وَلَا يَتَمَثَّلُ بِي الشَّيْطَانُ**»، قال **أبو عبد الله البخاري**: **قَالَ ابْنُ سِيرِينَ**: «**إِذَا رَآهُ فِي صُورَتِهِ**»؛ أي: التي كان عليها في الدنيا.

- **قال الشراح**: المراد من قوله «**فَسَيَرَانِي فِي اليَقَظَةِ**» أنَّه سيرىٰ تفسير ما رأىٰ؛ لأنَّه حق، وقوله: «**فَكَأَنَّمَا رَآنِي فِي الْيَقَظَةِ**»؛ أي هي رؤيا حق لا شك

(١) صحيح مسلم: (٤٧٩). (عمرو)

(٢) فتح الباري: (١٢/ ٣٨١)، وانظر: شرح البخاري. لابن بطال: (٩/ ٥٢٢). (عمرو)

فيها، ويدل له قوله: «**وَلَا يَتَمَثَّلُ بِي الشَّيْطَانُ**»؛ أي: إنَّ الله -تعالىٰ- حفظ مثاله من أن يتمثل به الشيطان، فمن رآه في منامه لم تكن رؤياه من قبيل الأضغاث، ويدل لذلك رواية أخرىٰ للبخاري: «**مَنْ رَآنِي فَقَدْ رَأَىٰ الحَقَّ**».

ثم وضع البخاري **بابًا** لرؤيا الرجل بالليل، **وبابًا** لرؤياه بالنهار، وساق أحاديثه في البابَين؛ ليرينا أن الرؤيا لا تختص بالليل، بل تكون في النهار كما تكون في الليل.

*** طائفة من تأويلات الرؤيا:**

(٧) روىٰ **البخاري** أنَّ رسول الله ﷺ رأىٰ في منامه أنَّه أتي بقدح من لبن فشرب منه حتىٰ روي، ثم أعطىٰ فضله عمر، قالوا فما أولته يا رسول الله؟ قال: «**العلم**».

وروىٰ أنَّه ﷺ مرّ علىٰ عمر بن الخطاب في النوم وعليه قميص يجره، قالوا ما أولته يا رسول الله؟ قال: «**الدين**».

وروىٰ **البخاري** أنَّ عبد الله بن سلام رأىٰ في منامه كأن عمودًا نصب في روضة خضراء، وفي رأسه عروة، وفي أسفله منصف؛ أي: خادم، فقيل لعبد الله: اصعد عليه، فصعد حتىٰ أخذ العروة، فقُصَّت علىٰ رسول الله ﷺ فقال: «**يَمُوتُ عَبْدُ اللهِ وَهُوَ آخِذٌ بِالعُرْوَةِ الوُثْقَىٰ**».

وروىٰ عن **عائشة** عن رسول الله ﷺ: «**أُرِيتُكِ قَبْلَ أَنْ أَتَزَوَّجَكِ، والمَلَكَ يَحْمِلُكِ فِي سَرَقَةٍ مِنْ حَرِيرٍ** -أي: قطعة من أجوده- **فَقُلْتُ لَهُ: اكْشِفْ، فَكَشَفَ، فَإِذَا هِيَ أَنْتِ، فَقُلْتُ: إِنْ يَكُ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ يُمْضِهِ**».

وروىٰ أنَّه ﷺ رأىٰ وهو نائم أنَّه أوتي مفاتيح خزائن الأرض فوضعت في يديه، قال أهل التعبير: المفتاح عزّ وسلطان.

وروىٰ أنَّ ابن عمر رأىٰ كأنَّ في يديه سَرَقة من حرير لا يهوي بها في مكان في الجنة إلا طارت به إليه، فقصها علىٰ حفصة فقصتها علىٰ رسول الله ﷺ، فقال: «**إِنَّ أَخَاكِ رَجُلٌ صَالِحٌ**».

وروىٰ أنَّه رئي لعثمان بن مظعون في المنام عين تجري، فأولها رسول الله ﷺ بعمله الذي يجري له.

وروىٰ أنَّ النبي ﷺ رأىٰ في منامه أنَّه بينما هو علىٰ بئر ينزع منها؛ إذ جاءه **أبو بكر**، فأخذ الدلو فنزع ذَنُوبًا أو ذَنُوبين، وفي نزعه ضعف، ثم أخذهما عمر فاستحالت دلوًا عظيمًا، فلم ير أحدًا من الناس ينزع نزعه، وقد أولها العلماء بخلافة أبي بكر وعُمَر، وما يجري فيهما من الفتوحات الإسلامية علىٰ يديهما.

وروي أنَّ النبي ﷺ رأىٰ أنَّه في الجنة، وأنَّ امرأة تتوضأ إلىٰ جانب قصر، فقال: «**لمن هذا القصر؟**»، فقيل لعمر، فذكر غيرته، فولىٰ مدبرًا، فلما بلغ عمر ذلك بكىٰ وقال: أعليك بأبي أنت وأمي يا رسول الله أغار!!

- **قال أهل التأويل**: القصر في المنام عمل صالح لأهل الدين، ولغيرهم حبس وضيق، وروي أنَّ رسول الله ﷺ رأىٰ نفسه في المنام يطوف بالكعبة، قال أهل التعبير: الطواف يدل علىٰ الحج، وعلىٰ التزويج، وعلىٰ حصول أمر مطلوب من الإمام، وعلىٰ برّ الوالدين وعلىٰ خدمة عالم، والدخول في أمر الإمام.

وروي عن ابن عمر أنَّه رأىٰ في منامه أنَّ ملكين جاءاه، في يد كلٍّ منهما مقمعة من حديد يُقبِلان به إلىٰ جهنم، فاستعاذ بالله منها، وأنَّ ملكًا آخر طمأنه، وقال له: نعم الرجل أنت لو تكثر الصلاة، فانطلقوا به إلىٰ شفير جهنم، فرأىٰ صفتها وما فيها من رجال، فقصها علىٰ رسول الله ﷺ فقال: «**إِنَّ عَبْدَ اللَّهِ رَجُلٌ صَالِحٌ**»، فلم يزل بعد ذلك يكثر الصلاة.

وروي أنَّ رسول الله ﷺ رأىٰ في منامه أنَّ في يديه سوارين من ذهب، فكرههما، فأُذِن له فنفخهما فطارا، فأولهما بكذابين يخرجان، فقال عبيد الله: إحداهما **العنسي** الذي قتله **فيروز** باليمن، والآخر **مسيلمة**، قال في «**الفتح**»: إنَّما أول السوارَين بالكذابَين؛ لأنَّ الكذب وضع الشيء في غير موضعه، فلمَّا رأىٰ في ذراعيه سوارين من ذهب، وليسا من لبسه؛ لأنَّهما من حلية النساء= عرف أنه سيظهر من يدَّعي ما ليس له، وأيضًا ففي كونهما من ذهب والذهب منهي عن لبسه دليل علىٰ الكذب، وأيضًا فالذهب مشتق من الذهاب، فعلم أنَّه شيء يذهب عنه، وتأكد ذلك بالإذن له فينفخهما فطارا، فعلم أنَّه لا يثبت لهما أمر. (اهـ).

وروي أنَّ رسول الله ﷺ رأىٰ كأنَّ امرأة سوداء ثائرة الرأس خرجت من المدينة حتىٰ قامت بمهيعة، وهي الجحفة، فأوَّلها بأنَّه وباء المدينة نقل إليها، قال

ابن **المهلب**: هو ممَّا ضرب به المثل، ووجه التمثيل أن شُقَّ من اسم **السوداء**: السوء، والداء، فتأول خروجها بما جمع اسمها.

وروي أنَّه ﷺ رأىٰ أنَّه هز سيفًا فانقطع صدره، فإذا هو ما أصيب من المؤمنين يوم أحد، ثم هزه مرة أخرىٰ فعاد أحسن ما كان، فإذا هو ما جاء الله به من الفتح واجتماع المؤمنين.

ثم ختم **البخاري** ذلك الكتاب بأحاديث النهي عن الكذب في الرؤيا كحديث «**مَنْ تَحَلَّمَ بِحُلْمٍ لَمْ يَرَهُ؛ كُلِّفَ أَنْ يَعْقِدَ بَيْنَ شَعِيرَتَيْنِ، وَلَنْ يَفْعَلَ**»، ثم (باب: إذا رأىٰ الرجل ما يكره)، وساق أحاديث منها: «**إِذَا رَأَىٰ أَحَدُكُمُ الرُّؤْيَا يُحِبُّهَا؛ فَإِنَّهَا مِنَ اللهِ، فَلْيَحْمَدِ اللهَ عَلَيْهَا وَلْيُحَدِّثْ بِهَا، وَإِذَا رَأَىٰ غَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا يَكْرَهُ؛ فَإِنَّمَا هِيَ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَلْيَسْتَعِذْ مِنْ شَرِّهَا، وَلَا يَذْكُرْهُ لِأَحَدٍ؛ فَإِنَّهَا لَاتَضُرَّهُ**»[1].

* أصول التأويل:

(٨) يقول **ابن القيم** بعد أن تكلم علىٰ ضرب الأمثال في القرآن الكريم وتوسع فيها:

«وقد ضرب الله ﷻ الأمثال وصرفها قدرًا وشرعًا، ويقظة ومنامًا، ودلَّ عباده علىٰ الاعتبار بذلك، وعبورهم من الشيء إلىٰ نظيره، واستدلالهم بالنظير علىٰ النظير، بل هذا أصل عبارة الرؤيا التي هي جزء من أجزاء النبوة، ونوع من أنواع الوحي؛ فإنَّها مبنية علىٰ القياس والتمثيل، واعتبار المعقول بالمحسوس.

ألا تر أنَّ الثياب في التأويل كالقمص تدل علىٰ الدين، فما كان فيها من طول أو قصر أو نظافة أو دنس فهو في الدين، كما أول النبي ﷺ القميص بالدين والعلم، والقدر المشترك بينهما أن كلًا منهما يستر صاحبه ويجمِّله بين الناس، فالقميص يستر بدنه، والعلم والدين يستر روحه وقلبه، ويجمله بين الناس.

ومن هذا تأويل اللبن بالفطرة لما في كلٍّ منهما من التغذية الموجبة للحياة، وكمال النشأة وأن الطفل إذا خُلِّي وفطرته لم يعدل عن اللبن، فهو مفطور علىٰ

---

(١) انظر: (١٢/٢٨٧-٣٥٨) من «الفتح».

إيثاره علىٰ ما سواه، وكذلك فطرة الإسلام التي فطر الله الناس عليها.

ومن هذا تأويل البقر بأهل الدين والخير اللذين بهما عمارة الأرض، كما أنَّ البقر كذلك مع عدم شرّها وكثرة خيرها، وحاجة الأرض وأهلها إليها، ولهذا لمَّا رأىٰ النبي ﷺ بقرًا تنحر كان ذلك نحرًا في أصحابه.

ومن ذلك تأويل الزرع والحرث بالعمل؛ لأنَّ العامل زارع للخير والشرّ، ولا بُدَّ أن يخرج له ما بذره كما يخرج للباذر زرع ما بذره، فالدنيا مزرعة والأعمال البذور، ويوم القيامة يوم طلوع الزرع وحصاده.

ومن ذلك تأويل الخشب المقطوع المتساند بالمنافقين، والجامع بينهما أنَّ المنافق لا روح فيه ولا ظل ولا ثمر، فهو بمنزلة الخشب الذي هو كذلك؛ ولهذا شبَّه -تعالىٰ- المنافقين بالخُشُب المسندة؛ لأنَّهم أجسام خالية عن الإيمان والخير، وفي كونها مسنَّدة نكتة أخرىٰ، وهي أنَّ الخشب إذا انتفع به جعل في سقف أو جدار أو غيرهما من مظانِّ الانتفاع، وما دام متروكًا فارغًا غير منتفع به جعل مسندًا بعضه إلىٰ بعض، فشبه المنافقين بالخشب في الحالة التي لا ينتفع فيها بها.

ومن ذلك تأويل النار بالفتنة، لإفساد كل منهما ما يمرّ عليه ويتصل به، فهذه تحرق الأثاث والمتاع والأبدان، وهذه تحرق القلوب والأديان والإيمان.

ومن ذلك تأويل النجوم بالعلماء والأشراف؛ لحصول هداية أهل الأرض بكل منهما، ولارتفاع الأشراف من الناس كارتفاع النجوم.

ومن ذلك تأويل الغيث بالرحمة والعلم والقرآن والحكمة وصلاح حال الناس.

ومن ذلك خروج الدم في التأويل يدلّ علىٰ المال، والقدر المشترك أن قوام البدن بكل واحد منهما.

ومن ذلك الحدث في التأويل يدل علىٰ الحدث في الدين، فالحدث الأصغر ذنب صغير، والأكبر ذنب كبير. ومن ذلك اليهودية والنصرانية في التأويل بدعة في الدين، فاليهودية تدل علىٰ فساد القصد واتباع غير الحق، والنصرانية تدل علىٰ فساد العلم والجهل والضلال.

ومن ذلك الحديد في التأويل وأنواع السلاح يدل علىٰ القوة والنصر، بحسب جوهر ذلك السلاح ومرتبته. ومن ذلك الرائحة الطيبة تدل علىٰ الثناء الحسن، وطيب القول والعمل، والرائحة الخبيثة بالعكس، والميزان يدل علىٰ العدل، والجراد يدل علىٰ الجنود والعساكر والغوغاء الذين يموج بعضهم في بعض، والنحل يدل علىٰ من يأكل طيبًا، ويعمل صالحًا، والديك رجل عالي الهمة بعيد الصيت، والحية عدوّ أو صاحب بدعة يهلك بسمه، والحشرات أوغاد الناس، والخلد[1] رجل أعمىٰ يتكفف الناس بالسؤال، والذئب رجل غشوم غادر فاجر، والثعلب رجل غادر محتال مكار مراوغ عن الحق، والكلب عدوّ ضعيف كثير الصخب والشرّ في كلامه وسبابه، أو رجل مبتدع متبع هواه مؤثر له علىٰ دينه، والسنور العبد والخادم الذي يطوف علىٰ أهل الدار، والفأرة امرأة سوء فاسقة فاجرة، والأسد رجل قاهر مسلط، والكبش الرجل المنيع المتبوع.

(٩) ومن **كليات التعبير** أنَّ كل ما كان وعاء للماء فهو دالّ علىٰ الأثاث، وكل ما كان وعاء للمال كالصندوق والكيس والجراب فدال علىٰ القلب، وكلّ مدخول بعضه في بعض وممتزج ومختلط، فدال علىٰ الاشتراك والتعاون أو النكاح، وكل سقوط وخرور من علو إلىٰ سفل فمذموم، وكل صعود وارتفاع فمحمود إذا لم يجاوز العادة وكان ممَّا يليق به، وكل ما أحرقته النار فجائحة وليس يرجىٰ صلاحه ولا حياته، وكذلك ما انكسر من الأوعية التي لا ينشعب مثلها، وكل ما خطف وسرق من حيث لا يرىٰ خاطفه ولا سارقه؛ فإنَّه ضائع لا يرجىٰ، وما عرف خاطفه أو سارقه أو مكانه أو لم يغب عن عين صاحبه؛ فإنه يرجىٰ عوده، وكل زيادة محمودة في الجسم والقامة واللسان والذَّكَر واللحية واليد والرجل فزيادة خير، وكل زيادة متجاوزة للحد في ذلك فمذمومة وشر وفضيحة، وكل ما رؤي من اللباس في غير موضعه المختص به فمكروه كالعمامة في الرِّجل، والخف في الرأس، والعقد في الساق، وكل من استقضىٰ أو استخلف أو أمَّر أو استوزر أو خطب ممَّن لا يليق به ذلك= ناله بلاء من الدنيا، وشر وفضيحة، وشهوة قبيحة، وكل ما كان مكروهًا من الملابس فخلقه أهون علىٰ

(١) من معانيه: الفأرة العمياء.

لابسه من جديده، والجوز مال مكنوز فإن تفقع كان قبيحًا وشرًا، ومن صار له ريش أو جناح صار له مال، فإن طار سافر، وخروج المريض من داره ساكتًا يدل علىٰ موته، ومتكلمًا يدل علىٰ حياته، والخروج من الأبواب الضيقة يدل علىٰ النجاة والسلامة من شر وضيق هو فيه، وعلىٰ توبة ولا سيما إن كان الخروج إلىٰ فضاء وسعة، فهو خير محض، والسفر والنقلة من مكان إلىٰ مكان= انتقال من حال إلىٰ حال بحسب حال المكانين، ومن عاد في المنام إلىٰ حال كان فيها في اليقظة عاد إليه ما فارقه من خير وشرّ، وموت الرجل ربما دل علىٰ توبته ورجوعه إلىٰ الله؛ لأنَّ الموت رجوع إلىٰ الله، قال -تعالىٰ-: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ﴾، والمرهون مأسور بدين أو بحق عليه، لله أو لعبيده، ووداع المريض أهله أو توديعهم له دالٌّ علىٰ موته.

وبالجملة: فما تقدَّم من أمثال القرآن كلها= أصول وقواعد لعلم التعبير لمن أحسن الاستدلال بها، وكذلك من فهم القرآن؛ فإنَّه يعبر به الرؤيا أحسن تعبير، وأصول التعبير الصحيحة إنَّما أخذت من مشكاة القرآن، فالسفينة تعبَّر بالنجاة؛ لقوله -تعالىٰ-: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾، وتعبر بالتجارة، والخشب بالمنافقين، والحجارة بقساوة القلوب، والبيض بالنساء، واللباس أيضًا بهن، وشرب الماء بالفتنة، وأكل لحم الرجل بغيبته، والمفاتيح بالكسب، والخزائن والأموال، والفتح يعبرونه بالدعاء ومرة بالنصر، وكالملك يُرىٰ في محلة لا عادة له بدخولها يعبر بإذلال أهلها وفسادها، والحبل يعبر بالعهد والحق والعضد، والنعاس قد يعبر بالأمن، والبقل والبصل والفوم والعدس يعبر لمن أخذه بأنه قد استبدل شيئًا أدنىٰ بما هو خير منه من مال أو رزق أو علم أو زوجة أو دار، والمرض يعبر بالنفاق والشك وشهوة الرياء، والطفل الرضيع يعبر بالعدوّ؛ لقوله -تعالىٰ-: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ﴾، والنكاح بالبناء، والرماد بالعمل الباطل؛ لقوله -تعالىٰ-: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾، والنور يعبر بالهدىٰ، والظلمة بالضلال.

ومن ها هنا قال عمر بن الخطاب لحابس بن سعد الطائي وقد ولَّاه القضاء، فقال له: يا أمير المؤمنين إنِّي رأيت الشمس والقمر يقتتلان، والنجوم

بينهما نصفين، فقال عمر: مع أيهما كنت؟ قال مع القمر علىٰ الشمس، قال: كنت مع الآية الممحوّة، اذهب فلست تعمل لي عملًا، ولا تقتل إلا في لبس من الأمر، فقتل يوم صفين(١).

وقيل لعابر: رأيت الشمس والقمر دخلا في جوفي، فقال تموت، واحتج بقوله -تعالىٰ-: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (٧) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (٨) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (٩) يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ﴾(٢).

وقال رجل لابن سيرين: رأيت معي أربعة أرغفة حين طلعت الشمس، فقال: تموت إلىٰ أربعة أيام، ثم قرأ قوله -تعالىٰ-: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (٤٥) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾، وأخذ هذا التأويل أنه حمل رزقه أربعة أيام، وقال له آخر: رأيت كيسي مملوءًا أرضة، فقال: أنت ميت، ثم قرأ: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ﴾، والنخلة تدل علىٰ الرجل المسلم، وعلىٰ الكلمة الطيبة، والحنظلة تدل علىٰ ضد ذلك، والصنم يدل علىٰ العبد السوء الذي لا ينفع، والبستان يدل علىٰ العمل، واحتراقه يدل علىٰ حبوطه؛ لما تقدم في أمثال القرآن.

---

(١) يقول الشيخ مشهور حسن في تحقيقه للإعلام: «حكاه أبو سعد الواعظ في كتابه «تفسير الأحلام الكبير» (٢٦٢)، وأفاد صاحبه أن القصة وقعت لقاضي حمص مع عمر، وفي آخرها: «وصرفه عن عمل حمص: فقضىٰ أنه خرج مع معاوية إلىٰ صفّين: فقتل»، ثم ظفرتُ به مسندًا: فعزاه الحافظ ابن كثير في «مسند الفاروق» (٢/٥٤٨) إلىٰ أبي يعلىٰ. قال: حدثنا غسان بن الربيع، عن حماد بن سلمة، عن عطاء بن السائب، عن مُحارب بن دثار عن عمر به؛ ثم ظفرت به من طريق حماد عند ابن أبي الدنيا في «الإشراف» (رقم ٢٥٥).
ورجال اسناده ثقات: إلا أن إسناده ضعيف، حماد سمع من عطاء قبل اختلاطه وبعده، ولم يتميز حديثه فترك، وفي سماع محارب من عمر نظر، انظر ترجمة (محارب) في «تهذيب الكمال» (٢٧/ ٢٥٥).
وتابع حمادًا ابن فضيل، وعنه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٧/ ٢٤١-ط دار الفكر)، ولكن فيه: «عن عطاء»: قال: حدثني غير واحد أن قاضيًا من قضاة أهل الشام أتىٰ عمر بن الخطاب: فقال ...» وذكر نحوه، ولم يعزه في «كنز العمال» (١١/ ٣٤٩/رقم ٢١٧٠٩) إلا له.
فائدة: طبع كتاب «تفسير الأحلام الكبير» منسوبًا لابن سيرين وهو خطأ، وصوابه أنه لأبي سعد الواعظ، وكنت نفيت صحة نسبته لابن سيرين في كتابي: «كتب حذر منها العلماء» (٢/ ٢٧٥ وما بعدها)، وسردت أدلة علىٰ ذلك، ووقفت فيما بعد علىٰ اسم مؤلفه، وهو ممن يروي عن ابن جُميع الصيداوي وطبقته». إعلام الموقعين: (٢/ ٣٢٨) حاشية (٤). (عمرو)

(٢) انظر: تفسير الأحلام الكبير: (٢٦٢)، لأبي سعد الواعظ. (عمرو)

ومن رأىٰ أنه ينقض غزلًا أو ثوبًا ليعيده مرة ثانية؛ فإنَّه ينقض عهدًا وينكثه، والمشي سويًّا في طريق مستقيم يدل علىٰ استقامته علىٰ الصراط المستقيم، والأخذ في بنيات[1] الطريق يدل علىٰ عدوله عنه إلىٰ ما خالفه، وإذا عرضت له طريقان ذات يمين وذات شمال فسلك أحدهما؛ فإنَّه من أهلها، وظهور عورة الإنسان له= ذنب يرتكبه ويفتضح به، وهروبه وفراره من شيء نجاة وظفر، وغرقه في الماء فتنة في دينه ودنياه، وتعلقه بحبل بين السماء والأرض تمسكه بكتاب الله وعهده واعتصامه بحبله، فإن انقطع به فارَق العصمة إلا أن يكون وَلِيَ أمرًا؛ فإنَّه قد يقتل أو يموت.

فالرؤيا أمثال مضروبة يضربها الملك الذي قد وكله الله بالرؤيا ليستدل الرائي بما ضرب له من المثل علىٰ نظيره، ويعبر منه إلىٰ شبهه، ولهذا سمىٰ تأويلها تعبيرًا، وهو تفعيل من (العبور)، كما أن الاتعاظ يسمىٰ اعتبارًا وعبرة لعبور المتعظ من النظير إلىٰ نظيره، ولَوْلا أن حكم الشيء حكم مثله وحكم النظير حكم نظيره= لبطل هذا التعبير والاعتبار، ولما وجد إليه سبيل»[2]. (اهـ).

(١٠) وقال الشيخ **محمد بن سيرين** في أول كتاب **«تعبير الرؤيا»**[3] ما نصّه:

«اعلم وفقني الله وإياك إلىٰ طاعته أنَّ الرؤيا لما كانت جزءًا من ستة وأربعين جزءًا من النبوّة= لزم أن يكون المعبر عالمًا بكتاب الله، حافظًا لحديث رسول الله ﷺ وعلىٰ آله، خبيرًا بلسان العرب واشتقاق الألفاظ، وعارفًا بهيئات الناس ضابطًا لأصول التعبير، عفيف النفس، طاهر الأخلاق، صادق اللسان، ليوفقه الله لما فيه الصواب، ويهديه لمعرفة معارف أولي الألباب؛ فإنَّ الرؤيا قد تعبر باختلاف أحوال الأزمنة والأوقاف، وتارة تعبر من كتاب الله، وتارة تعبر من حديث رسول الله ﷺ، وتارة تعبر من المثل السائر، وربما صرفت عن الرائي إلىٰ نظيره أو سميِّه وقد تأول الرؤية مرة من لفظ الاسم؛ ومرة من معناه، ومرة من ضده، ومرة من اشتقاقه، ومرة بالزيادة، ومرة بالنقصان.

---

(١) الأباطيل.

(٢) انظر: أعلام الموقعين (١/٢٢٨-٢٣٤)، طبع فرج الله الكردي.

(٣) سبق أنه ليس لابن سيرين، وإنما هو لأبي سعد الواعظ. (عمرو)

فأما التأويل من القرآن فكالبيض يعبر عنه بالنساء، لقوله -تعالىٰ-: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾، وكالحجارة يعبر عنه بالقسوة، لقوله -تعالىٰ-: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾، وكاللحم الطري يعبر عنه بالغيبة، لقوله -تعالىٰ-: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾، وكالمفاتيح فإنه يعبر عنها بالكنوز، لقوله -تعالىٰ-: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾، فتزيد أمواله لأن الكنوز لا يتوصل إليها إلا بالمفاتيح، وكالسفينة يعبر عنها بالنجاة، لقوله -تعالىٰ-: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾، ولقوله -تعالىٰ-: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾، وكالملك يرىٰ أنَّه قد دخل دارًا أو بلدة أو محلة، ولم يكن له عادة بالدخول إليها يعبر عنها بحلول مصيبة أو ذلّ ينال أهل ذلك الموضع؛ لقوله -تعالىٰ-: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ إلىٰ قوله: ﴿أَذِلَّةً﴾، وكاللباس يعبر عنه بالنساء، لقوله -تعالىٰ-: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾، وأشباه ذلك كثير.

وأمَّا التأويل من حديث رسول الله ﷺ فكالغراب يعبر عنه بالرجل الفاسق؛ لأنَّ رسول الله ﷺ سماه فاسقًا، وكالفأرة يعبر عنها بالمرأة الفاسقة، لقوله ﷺ: «**الفأرة فاسقة**»[1]، وسماها أيضًا فويسقة، وكالضلع يعبر عنه بالمرأة أيضًا؛ لأنَّ رسول الله ﷺ قال: «**المرأة خلقت من ضلع أعوج**»[2]، وأسكفة الباب السفلىٰ -أي: عتبته- يعبر عنها بالمرأة، لما روي عن خليل الله إبراهيم عليه السلام أنه قال لولده إسماعيل: «غير أسكفة بابك»[3]، يعني زوجته، وأشباه ذلك ممَّا لا يعد.

وأما التأويل من الأمثال السائرة فكالرجل يرىٰ في يده طولًا؛ فإنَّه يعبر عنه باصطناع المعروف لقولهم: هذا أطول منك يدًا أو باعًا؛ أي أكثر عطاء، وكالاحتطاب يعبر عنه بالنميمة لقولهم: «من مشىٰ بين الناس بنميمة؛ فإنه يحتطب»، وكالمرض يعبر عنه بالنفاس، لقولهم لمن لا يوفي وعده: «فلان

---

(١) رواه أحمد: (٢٥٧٥٣)، وإسناده صحيح. (عمرو)

(٢) رواه البخاري: (٣٣٣١)، مسلم: (١٤٦٨)، ولفظه: «إن المرأة خلقت من ضلع لن تستقيم لك علىٰ طريقة، فإن استمتعت بها استمتعت بها وبها عوج، وإن ذهبت تقيمها، كسرتها وكسرها طلاقها». (عمرو)

(٣) لم أقف عليه بهذا اللفظ. والأسكفة: هي عتبة الباب السفلىٰ.

يمرض في وعده»، وكالمخطة يعبر عنها بالولد، لقولهم للذي يشبه أباه: «هو مخطة الأسد»، وكالذي يرمي الناس بالسهام والبندق والحجارة يعبر عنه بأنَّه يذكرهم بسوء، لقولهم: «رمىٰ فلان فلانًا وقذفه»، وكالرجل الذي يرىٰ أنَّه يغسل يده بالأشنان، ونحوه كالصابون= يعبر عنه بالإياس من الشيء، لقولهم: «غسلت يدي بالأشنان منك»؛ أي: قد أيست من خيرك، وكالكيس يعبر عنه بالرجل العزيز في قومه المنيع فيهم، وأشباه ذلك ممَّا لا يعد.

وأمَّا التأويل بظاهر الاسم، فكرجل اسمه الفضل؛ فإنَّه يعبر عنه بالفضل، وراشد يعبر عنه بالرشد، وسالم يعبر عنه بالسلامة وشبه ذلك.

وأما التأويل بالمعنىٰ فمثل النرجس والورد إذا عبر بهما لمن يسأل عنهما أو من ينسبان إليه= يعبر عنهما بقلة البقاء، والآس بالضد لبقائه ونضارته، وأشباه ذلك.

وأما التأويل بالضد فمثل البكاء يعبر عنه بالفرح، ما لم تكن معه رنة أو صوت أو شق جيب، والفرح والضحك والرقص يعبر عنه أنه حزن وهم وغم.

ومثل الرجلين يقتتلان أو يصطرعان فإن المصروع هو الغالب، ومثل الرجل يرىٰ أنه يحتجم فإنه يكتب عليه شرط، أو يرىٰ أنه يكتب عليه شرط فإنه يحتجم.

ومثل الرجل يرىٰ أنه يدخل قبرًا فإنه يسجن، أو يرىٰ أنه يسجن في موضع مجهول الأهل والهيئة؛ فإنه يقبر إذا لم يكن يرىٰ أنه قد خرج من ذلك الموضع.

ومثل الحرب يعبر عنه بأنه تهجم، وإن رأىٰ عدوًّا هجم فإنه سيل يسيل.

ومثل الجراد يعبر عنه أنه جند، والجند جراد، وأشباه ذلك كثيرة لا تحصىٰ، وأما الجراد فيعبر عنه بمال مكنوز، ما لم يسمع معه قعقعة فهو خصومة، وفي الشعر أنه مال وزينة، فإن سال علىٰ الوجه أو كثر علىٰ الخدّ فهو غمّ وهمّ، وقيل إنه كسوة، فإن كان مكفوفًا فهو كلام سوء يُرمىٰ به ولا يقدر علىٰ دفعه، ومن رأىٰ أن له ريشًا وجناحين؛ فإنه مال ورياش، فإن طار بهما سافر، ومن رأىٰ أن يده قطعت فاحتملها وبقيت معه فهو أخ أو ولد يستفيده، فإن فارقته فهي مصيبة له في أخ أو ولد، وفي المريض يرىٰ أنه صحيح يخرج من بيته ولا يتكلم؛ فإنَّه يموت، وإن تكلم يبرأ، وفي المقامات أنها نساء غير عفيفات،

ما لم تختلف ألوانها، وإن كانت بيضاء وسوداء فهي الأيام والليالي، وفي السمك إن عرف عدده فهو نساء، وإن لم يعرف فهو مال وغنيمة، وأشباه ذلك كثيرة.

وأما اختلاف الناس وهيئاتهم فقد تختلف الرؤيا باختلاف ذلك، مثل الرجل يرىٰ أنه مغلول اليد أو العنق؛ فإن كان الرجل سيماه الخير والدين فهو صلاح في حقه واجتناب الشرّ والفساد، وإن كان سيماه ضدّ ذلك فهو كثير المعاصي من أهل النار، أجارنا الله منها بكرمه، آمين.

وأما اختلاف الأوقات فمثل الرجل يرىٰ أنَّه راكب فيلًا، فإن كان ذلك ليلًا نال أمرًا جسيمًا كامل المنفعة، وإن كان نهارًا طلَّق زوجته». (ا. هـ).

*** وقال الشيخ ابن خلدون في مقدمته:**

«ثم إنَّ علم التعبير علم بقوانين كلية يبني عليها المعبر عبارة ما يقصّ عليه وتأويله، كما يقولون البحر يدلّ علىٰ السلطان، وفي موضع آخر يقولون البحر يدل علىٰ القيظ، وفي موضع آخر يقولون البحر يدلّ علىٰ الهمّ والأمر الفادح، ومثل ما يقولون الحية تدل علىٰ العدو، وفي موضع آخر يقوون هي كاتم سرّ، وفي موضع آخر يقولون تدلّ علىٰ الحياة، وأمثال ذلك، فيحفظ المعبر هذه القوانين الكلية، ويعبر في كل موضع بما تقتضيه القرائن التي تعين من هذه القوانين ما هو أليق بالرؤيا، وتلك القرائن منها في اليقظة ومنها في النوم، ومنها ما ينقدح في نفس المعبر بالخاصية التي خلقت فيه، وكلٌّ ميسر لما خلق له، ولم يزل هذا العلم متناقلًا بين السلف، وكان **محمد بن سيرين** فيه من أشهر العلماء، وكتب عنه في ذلك **«القوانين»**، وتناقلها الناس لهذا العهد، وألف **الكرماني** فيه من بعده، ثم ألف المتكلمون والمتأخرون وأكثروا، والمتداول بين أهل الغرب لهذا العهد كتب **ابن أبي طالب القيرواني** من علماء القيروان؛ مثل: **«الممتع»**، وغيره، وكتاب **«الإشارة»** للسالمي، وهو علم مضيء بنور النبوة للمناسبة بينهما، كما وقع في الصحيح، والله علام الغيوب»[1] (اهـ).

---

(١) (ص/ ٤٥٢)، الطبعة الأميرية الثالثة.

يوسف عليه السلام

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ(١) لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ
إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ(٢) أَرْضًا
يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ
وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ(٣) ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ
لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ
لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ
غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُواْ
بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ
﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ
مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ
بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ
﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ(٤) فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً(٥)
وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ(٦) بِثَمَنۢ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ

---

(١) عِبَر وعظات.

(٢) ألقوه في أرض منكرة= تسلم لكم محبة أبيكم.

(٣) ما غاب منه عن الناظر، وأظلم من أسفله. ﴿ٱلسَّيَّارَةِ﴾: المارة.

(٤) الذي يَرِد الماء ليستقي للقوم.

(٥) أخفوه على أنه متاع للتجارة.

(٦) باعوه بثمن ناقص عن قيمته.

ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ[1] عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ[2] عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٧-٢٢].

* شرح وعبرة:

(١) ﴿۞ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾، أي: لقد كان في قصة يوسف وإخوته علامات ودلائل علىٰ قدرة الله -تعالىٰ- وحكمته في كل شيء ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾، أي: المفكرين الذين من شأنهم أن يسألوا عن الأمور ويفكروا فيها، وفيها من العبر ما يتسلىٰ به رسول الله ﷺ علىٰ إيذاء قريش له؛ لأنَّه إذا عرف ما فعله إخوة يوسف به -ويجمعهم به أبٌ واحد- وأنهم دبروا له ما دبروا لمجرد أن يعقوب عليه السلام كان يختص ولده يوسف وأخاه بشيء من العطف والحنان، إذا عرف الرسول ما فعله أولئك الإخوة بأخيهم مرضاةً لعامل الحسد في قلوبهم فإنه لا يحزن من عمل قريش، الذين ناصبوه العداوة، وصنعوا معه من صنوف الإيذاء ما لا يليق ولا ينبغي.

﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾: فهم المفسرون أن ذلك الأخ كان أخًا من الأم ليوسف، أما هم فكانوا إخوة من الأب فقط، والآية ترينا السبب الذي حمل إخوة يوسف علىٰ حسده، وقولهم: ﴿لَيُوسُفُ﴾ بلام القسم، إشارة إلىٰ أنهم تأكدوا من أبيهم ذلك الإيثار ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ جماعة أقوياء فينا الكفاية والمنفعة، فنحن أولىٰ بهذه المحبة من صغيرَين لا كفاية فيهما ولا نفع، وفاتهم ما قاله بعض فصحاء العرب لكسرىٰ حين سأله، أيُّ بنيك أحب إليك؟ قال: الصغير حتىٰ يكبر، والغائب حتىٰ يؤوب، والمريض حتىٰ يبرأ[3].

ويوسف كان صغيرًا، وفوق ذلك كانت تظهر عليه مخايل النجابة والذكاء،

---

(١) منزله ومقامه. والمراد: تفقديه بالإحسان.

(٢) لا أحد يمنعه ممَّا يشاء.

(٣) مجاني الأدب: (١٩٨/٢). (عمرو)

وقوّىٰ ذلك الرؤيا العجيبة الدالة علىٰ مستقبل باهر، كما نسوا أن مسألة المحبة قد لا يكون للإنسان كسب فيها، فقد يكون للرجل ولدان، ولكنه يشعر بمحبة لأحد الولدين فوق محبته للآخر، وإن كان الغالب أن المحبة للأولاد في الكبر تعتمد الخصائص والمزايا، فمن كان مطيعًا لوالديه كانت محبتهما له أكثر، ومن كان فيه نجابة وذكاء وحرص علىٰ مصلحته ومصلحة أبويه، وما إلىٰ ذلك كان إقبال أبويه عليه أكثر لهذه الأسباب، ولا بُدَّ أن يكون يعقوب كان حبه ليوسف إلهامًا من الله -تعالىٰ-، أو لما رأىٰ فيه من الخصائص ما لم يَرَ في غيره من بقية إخوته، فلا ذنب له في هذه المحبة، وعلىٰ فرض أن له ذنبًا فما ذنب يوسف وأخيه في أن يحبهما أبوهما يعقوب؟ وهل يستطيع أن يقول لأبيه: انزع من قلبك حبي وإشفاقك عليّ، وسوّني بإخوتي في المحبة؟ هذا ما لا يستطيعه يوسف ولا سبيل إليه، ولا ذنب له فيه، ولكن الحسد وحبّ الإيثار يحملان إخوة يوسف علىٰ أن يكيدوا ليوسف وأخيه ذلك الكيد، ويدبروا لهما ذلك التدبير.

وقد أوجد الله في الإنسان غريزة الحسد لطلب المجد والرفعة وعلوّ الشأن، وليسابق الإنسان غيره في المفاخر والفضائل والمجد، فيكثر العمل ويزداد العمران، وهو الذي يسمىٰ بالغبطة، ولكن الإنسان أساء في استعمال ذلك الخلق، وطغىٰ في تصريفه والانتفاع به، فأخذ يعمل علىٰ إزالة النعمة والفضل عن المحسود، وبذلك لحقه من الذم وعقاب الله ما لحقه، ويظهر أن الحاسد الذي يتمنىٰ زوال نعمة الغير، ويعمل لذلك، يحس من نفسه انحطاطًا عن المحسود، وأنه لا قبل له بمجاراته في وسائل النعمة، وطرائق الفضل، وأن الطريق المألوف لتلك المجاراة يكلفه من الجهد والمشقات ما لا قبل له به، وأنه لذلك أراد أن يختصر علىٰ نفسه الطريق، ويصل إلىٰ غايته بدون أن يكلف نفسه مشقة أو عناء، فعمل علىٰ أن يفتك بالمحسود، ويحول بينه وبين الحياة، وبذلك يصل إلىٰ أمنيته من طريق يراها سهلة، ولكنها محفوفة بالأخطار والمخاوف.

فقد كانت عاقبة الحسد من إخوة يوسف إقدامهم علىٰ الكذب، وإلقاء أخيهم يوسف في ذل العبودية، وإبعاده عن أبيه المشفق، وإلقاء أبيهم في الحزن الدائم والأسف العظيم.

والشأن في الحسد ألا يكون إلا بين المتشاركين في حال؛ كالجار، والعبد والقريب، والمشارك لك في صناعة أو تجارة أو زراعة أو إمارة أو علم أو سنّ، أو المقيم معك في مدرسة أو منزل أو شارع، وكلما ارتفع صيت الإنسان حسده من يشاركه في ذلك الصيت، وترىٰ العالم لا يودّ أن يشاركه في ذلك المجد أحد، ويزداد الحسد كلما ازداد الصيت وحسن الذكر، ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ خطأ بيِّن في تدبير أمر الدنيا، وكيف يؤثر حب يوسف علينا مع صغره وعدم نفعه، ونحن عصبة نقوم بمصالحة من أمر دنياه ومواشيه.

(٢) ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ نزول علىٰ طاعة داعي الحسد، وشروع في قضاء شهوتهم في يوسف، وكأن ذلك الرأي كان محل وفاق منهم، إلا الذي قال: ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾، ﴿أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ منكورة مجهولة بعيدة عن العمران ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ يقبل عليكم إقبالة واحدة لا يلتفت عنكم إلىٰ غيركم، فالمراد سلامة محبته لهم ممن يشاركهم فيها، وينازعهم إياها، فكان ذلك الوجه لتصوير معنىٰ إقباله عليهم؛ لأنَّ الرجل إذا أقبل علىٰ الشيء أقبل بوجهه، ويجوز أن يراد بالوجه الذات، كما قال -تعالىٰ-: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٢٧][(١)]، ذلك هو الذي يحملهم علىٰ أن يكيدوا ليوسف ويمكروا به، وهو أن تسلم لهم محبة أبيهم، ويخلو لهم وجهه، فلا يلتفت إلىٰ غيرهم، ويختصهم بالعطف والرعاية، ولو صحَّ هذا سببًا للحسد لساغ للمرأة أن تقتل ضرتها ليخلو لها وجه الزوج، وللتلميذ أن يقتل زميله ليخلو له وجه أستاذه، وللموظف في عمل من الأعمال أن يفتك بأخيه في ذلك العمل ليخلو له وجه رئيسه، ولبطانة الملك أن يقتل صاحبه ليخلو له وجه الملك، والأمر الواقع أن الناس قد غلب عليهم ذلك الخُلُق: خلق الحسد المذموم، وأغضبوا به ربهم وخالقهم، والذي يزين لهم ذلك العمل الشيطاني هو أن يخلو لهم الوجه، ويستأثروا بالمنفعة، وأنهم يتأسون بأخوة يوسف في كيدهم ومكرهم بأخيهم، ولا فرق بين ما تعمله

---

(١) وجه الرب جل جلاله حيث ورد في الكتاب والسنة فليس بمجاز بل علىٰ حقيقته. ولا بأس بالمعنىٰ الذي ذكره المؤلف، مع عدم نفي صفة الرب سبحانه، وتعالىٰ. انظر: مختصر الصواعق: (٤٠٧)، وما بعدها.

الناس وبين إخوة يوسف إلَّا أشكال ومظاهر، أمَّا الجوهر فهم متفقون فيه، ذلك أن القتل حسي ومعنوي، أو بعبارة أخرىٰ مادي وأدبي، فإخوة يوسف اتفقوا في أول الأمر علىٰ قتل يوسف قتلًا ماديًا، أو ما يؤول إلىٰ ذلك القتل من وضعه في أرض مهجورة لا أمان للذي يعيش بها، ثم لما أشار عليهم واحد منهم بأن القتل عظيم، وحسَّن لهم إلقاءه في قعر الجب= أجابوه إلىٰ ما قال.

أما القتل الفاشي اليوم في المتنافسين فهو قتل أدبي، ألا ترىٰ إلىٰ الرجلين وقد وليا عملًا من الأعمال يكيد خبيث النفس منهما للآخر، ويدبر له من وسائل الفتك ما لا يعلم حده إلا الله -تعالىٰ- ليخلو له وجه الرئيس، ويستأثر بالحظوة منه والمكانة عنده، ولا سيما إذا كان الرئيس صاحب نفوذ وسلطان؛ لأنَّه يرىٰ زميله مشاركًا له في تلك المحبة، أو يمتاز عليه فيها، فتسوّل له نفسه أن تختلق علىٰ صاحبه المفتريات، ويدس بينه وبين ذلك الرئيس حتىٰ تسوء بينهما العلاقات، وقد ينتهي الأمر بإبعاد ذلك الزميل من العمل الذي يعمله فيه إن لم يكن بفصله منه، وذلك قتل أدبي سببه حرص الإنسان الظالم علىٰ أن يخلو له وجه رئيسه.

ثم ألا ترىٰ ذلك الخلق -خلق الحسد- فاشيًا في بطانات الملوك والأمراء؛ كلٌّ يريد أن يكون موضع السر ومكان الحظوة والرضا، ولا يسمح لزميله أن يظفر بتلك المنزلة، وهو قادر علىٰ أن يحول بينه وبينها، ولذلك تجدهم أحزابًا وشِيَعًا، كلّ حزب يكيد للآخر ويدسّ له، ويعمل علىٰ إسقاطه والتنكيل به، إلا مَن كان له خلق متين، ودين صالح؛ فإنَّه لا يسمح لنفسه بذلك العمل الخبيث، وقليلٌ ما هم، وذلك الصنف من البطانة لا تلبث مع الملوك إلا قليلًا؛ لأنَّها لا تستطيع أن تعيش في جوّ مملوء بالدسائس، كما لا تستطيع أن تجاري أصحاب الأهواء والشهوات، فتحاربهم بسلاحهم، وتناضلهم بمثل ما يناضلون به، ذلك شيء من العبرة في يوسف وإخوته، وما قصه الله علينا من عملهم وسيرتهم.

نرجو ألا نكون ممَّن تأسىٰ بأولئك الإخوة في ذلك الحسد المذموم الذي جرّ عليهم من غضب الله وسخطه ما جرّ، وأن يكون حسدنا لغيرنا ممن فضَّله الله علينا في العلم والفضل هو الغبطة لهم، وتمني مثل ما لهم، وأن لا يكون

هذا التمني ممَّا يمقته الله -تعالىٰ- ويبغضه، بل يكون تمنيًا للخير مع الأخذ في أسبابه والعمل علىٰ الوصول إليه، وأن يكون مَوقِفنا ممن أعطاه الله مالًا أو جاهًا موقف الراضي بما أعطاه الله وقسمه، المطمئن لقول الله -تعالىٰ-: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا[(١)] ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا[(٢)] لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٢-٣٥].

﴿وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ الضمير ليوسف عليه السلام، أو للقتل الذي يدل عليه قوله: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ﴾، والمراد بكونهم صالحين صَلَاح دنياهم وانتظام أمورهم بخلوّ وجه أبيهم لهم، أو ﴿صَالِحِينَ﴾ تائبين إلىٰ الله -تعالىٰ- ممَّا جنيتم، وما أشبه هذا بقول الفَسَقَة إذا أنت أردت أن تردعهم عن الفسق، وتحول بينهم وبين الفجور: نتوب إلىٰ الله بعد أن نمتع أنفسنا وباب التوبة مفتوح.

وهذا إمعان في المعصية، وكأنهم أخذوا علىٰ الله عهدًا أن يبقيهم إلىٰ ما بعد المعصية، وأن يمهلهم حتىٰ يتمكنوا من التوبة إذا كانوا يريدونها، وما علموا أن الموت قد يفجأهم فلا يُمَكَّنون من توبةَ، ولا يوفَّقون لإنابة، وهنالك يندمون ولا ينفعهم الندم، علىٰ أن ذلك القول ليس من شأنه أن يصدر من رجل حريص علىٰ التوبة، وإنما يصدر من رجل لا يبالي أعصىٰ الله أم أطاعه، أرضاه أم أسخطه، وإلا فكيف يحرص علىٰ التوبة من يقدم علىٰ عصيان الله -تعالىٰ- راضيًا مختارًا ولا همّ له إلا إرضاء شهوة نفسه، معتمدًا علىٰ أن يصلح ما بينه وبين الله بعد ذلك العصيان.

والشأن في المؤمن أن يكون خائفًا وجِلًا من عصيان الله -تعالىٰ-، ولا يقع فيه إلا لأسباب وقتية جاهلة، وبزوالها تزول المعصية كالرجل الطيِّب الخُلُق، الوادع، لا يسب أحدًا أو يشتمه إلا إذا طرأ سببٌ قاهر، كأن أغضبه أحد

(١) يسخر غنيهم فقيرهم.

(٢) أمّة واحدة؛ أي في الكفر.

أو حرَّك فيه داعية الانتقام، فوقع منه على خلاف العادة سبٌّ أو لعن، فإن ذلك الحدث النادر لا يخرجه عن أن يكون طيب الخلق وادع النفس، ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١١٧]، وكذلك يقال إذا قلنا المراد من قوله: ﴿صَٰلِحِينَ﴾، أي: يُصلِح ما بينكم وبين أبيكم بعذر تمهدونه؛ فإنَّه تعليل بالأماني، وكأنهم يتغفلون أباهم يعقوب ﷺ بذلك القول فيما بينهم، ويقولون نعمل بيوسف ما نعمل، وبعد ذلك نصلح أبانا ونرضيه، وهو شيء هيِّن، وما دروا أن ذلك العمل سيجر عليهم مغارم، وأن أباهم سيتألم منهم ألمًا لا يُحَدّ، وستسوء العلاقة بينهم وبينه حتىٰ لا يكون فيها شيء من الصلاح، ولكن الشيطان يهون علىٰ الإنسان المعصية، ويريه أن الخلاص من آثارها أسهل شيء علىٰ النفس، ومن شأنه دائمًا أنه إذا زين للرجل سوءًا ينسيه عاقبته التي تحل به، ويريه أنه من السهل عليه الفرار منه، فإذا كان سارقًا أراه أنه في استطاعته أن لا يعلم به أحد، وإذا اعترضه أحد في الطريق فتك به وخلص منه، وإذا زيَّن له زنًا أراه أن في استطاعته أن يعمل ذلك العمل وهو بعيد عن الرقباء حتىٰ لا يفضح أمره، وإذا زين له القتل أوهمه أنه قلَّ أن تتوفر عليه شهادة الشهود حتىٰ يقتل في ذلك القتل، وهكذا، وهكذا.

(٣) ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ﴾ . . . إلخ؛ أي إن ذلك القائل وهو واحد منهم لم يسمه الله لنا؛ لأن العبرة لا تتوقف علىٰ معرفة اسمه= قد خالف إجماعهم واستعظم القتل، وأشار بإلقائه في غيابة الجب؛ أي: قعره، سمي به لغيبوبته عن العيوب. و**الجب**: البئر الكبيرة التي لم تبن، وسمىٰ بذلك لأنه جُبَّ؛ أي: قُطِع ولم يُطوَ ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ يأخذه من البئر ويرفعه منه بعض الذين يسيرون في الأرض ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾، أي: إن كنتم مصرين علىٰ عملٍ يتعلق بيوسف، ويشير بهذا التعليق إلىٰ أنه متألم من ذلك العمل، ولكنه يشير بذلك لأنه أقلّ أثرًا من القتل، وفيه توفيق بين أغراض إخوة يوسف، وبين مصلحته بوضعه في ذلك المكان علّ بعض المارة يلتقطه فيحفظ حياته.

ومنه نعلم أن القوم أو الجماعة إذا قسوا وغلظت منهم الكباد لا نَعْدِم أن نجد فيهم من رقّ قلبه، وغلب عليه الإشفاق؛ فإخوة يوسف أصرّوا علىٰ قتل

أخيهم أو ما يكون ذريعة إلىٰ ذلك القتل، لكنَّ واحدًا منهم أشار عليهم بعدم القتل رجاء أن يكون في ذلك الرأي مصلحة ليوسف وإنقاذًا لحياته، ويظهر أن داعي الشفقة قد تغلب علىٰ داعي الانتقام لأنهم إخوة قبل كل شيء، فنزلوا علىٰ رأي ذلك القائل، وعدلوا عن قتله ﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ اعتراف منهم بأن يعقوب ﷺ كان يحسّ منهم بما يوجب عدم أمنهم عليه، فأخذوا يسألونه عن السبب ويعجبون منه؛ أي: لَم تخافنا عليه ونحن نريد له الخير ونشفق عليه، وذلك قوله: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ يحاولون أن ينزلوه عن رأيه في حفظه منهم، والحيلولة بينهم وبينه.

ثم أخذوا يرغبونه بما يحببه في تركه لهم، فقالوا ﴿أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ يريدون أنه يشترك معنا في التمتع بأكل الفواكه ونحوها، من (**الرتعة**)، وهي الخصب والسعة، ويشاركنا في الألعاب التي تعودناها بالاستباق والصيد والركض وغير ذلك، ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ من أن يناله شيء من الأذىٰ، وقالوا ذلك بأسلوب المؤكد؛ لأنَّ يعقوب كان شديد الحرص علىٰ ولده يوسف وكان سيء الاعتقاد في إخوته، فبالغوا في دعوىٰ حرصهم عليه؛ فقالوا **أولًا**: وإنا له لناصحون، **وثانيًا**: وإنا له لحافظون.

﴿قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ﴾: أراهم أن ذهابهم بيوسف محزن له، ويخشىٰ من تركه معهم أن يأكله الذئب في وقت يغفلون عنه فيه.

ومنه نعلم أن يوسف كان صغيرًا في ذلك الوقت؛ لأنَّ الذي يُخشىٰ عليه من الذئب هو الصغير، والذي يغفل عنه إخوته ويكون مُعَرَّضًا للخطر لهذه الغفلة هو الصغير، أما تحديد سنه في ذلك الوقت فلا سبيل إليه إلا بوحي عن المعصوم، وهنا تتجلىٰ شفقة الآباء علىٰ أبنائهم الصغار وحنانهم عليهم في وقت الضعف، ولو علم الأبناء ما تقاسيه الآباء في سبيل حرصهم علىٰ حياتهم= ما فكر ولد في عقوق والديه، وما تأفف منهما عند الكبر والضعف عن الكسب، وهذه الشفقة التي يضعها الله -تعالىٰ- في قلوب الوالدين هي لحكمة بالغة وغايات سامية، وهي بقاء النسل وعمارة هذه الحياة، ولولا تلك الشفقة، وذلك

العطف المبالغ لمات الأبناء جوعًا، وتُركوا للطوارئ تفعل بهم ما تفعل، وتعرضوا لأخطار لا قِبَل لهم بها، وهلكوا من الجهل وسوء التربية، ولكن حكمة الله -تعالىٰ- قضت بأن يجعل في قلوب الآباء ذلك الحنان والعطف، وتحت تأثير هذه العوامل تعيش الأبناء، وتربىٰ التربية الصالحة، ويضحىٰ في سبيل حياتهم الصالحة ومستقبلهم المرجو من شقاء الأبوين ما يضحىٰ، ولولا أن هذه العاطفة التي أودعها الله في الأبوين قد يكون معها جهل الأبوين بوسائل السعادة للأبناء= لآتت هذه العاطفة أكلها كل حين بإذن ربها، وأثمرت ثمرتها الصالحة، ولكن الجهل في كثير من الآباء يجعل هذه العاطفة شرًّا مستطيرًا علىٰ الأبناء، وخطرًا علىٰ أخلاقهم وحياتهم.

ألا ترىٰ إلىٰ الأم الجاهلة بوسائل التربية كيف تعطي ولدها من الأطعمة الغليظة ما يفسد معدته، ويجعل حياته ضعيفة ضئيلة، وبذلك يكون مستعدًا للأمراض، مُعرَّضًا للآفات، بل قد نرىٰ من بعض الأمهات الجاهلات من تكون حائلًا بين الولد وبين شفائه إذا أوجد الطبيب له من الأدوية ما تعود به صحته، وما حملها علىٰ ذلك كراهتها الصحة ولدها، وإنما هو الجهل يريها النافع ضارًّا، والضار نافعًا، وقد يصاب الولد بمرض خبيث يوجب علىٰ أبويه أن يذهب به إلىٰ مستشفىٰ من المستشفيات العامة حتىٰ لا تنتشر العدوىٰ فيمن يتصل به من إخوته وأبويه، فنقف الأم الجاهلة أو الأب الجاهل حجر عثرة في سبيل نقله من البيت وإسعافه بالعلاج الناجع حيث المستشفيات العامة المستعدة لمثل هذه الأمراض، فإن وجوده بالمستشفىٰ ومعه أطباء كثيرون فيه استعداد للطوارئ ومضاعفات المرض، أما البيوت فإنها لم تعد لمثل ذلك، ولا سيما إذا كانت بيوت فقراء، فإنها لم تبن علىٰ قواعد الصحة، ولم يتوفر فيها من الهواء الطلق ونظافة البقعة ما يساعد المريض علىٰ شفائه من المرض، بل هي بما اشتملت عليه من القذارة ورداءة الموقع وخبث الهواء تضاعف المرض، وتحول دون الشفاء، كل ذلك من جهل الآباء وتحكيم العاطفة تحكيمًا أعمىٰ.

ثم قد نرىٰ من النساء الجاهلات حيلولة بين الولد وبين تربيته؛ لأن أستاذه قَسَا عليه يومًا، فتكون تلك القسوة سببًا في حرمانه من التعليم، وبقائه في ظلمات

الجهل والفساد، وقد يتعلم الولد تعليمًا ناقصًا ثم تريد الحكومة أن تكمل له التعليم وترسله في بعثة إلىٰ بلد أجنبي، فيكون الحائل بين الولد وذلك الخير أمه الجاهلة، حرصًا منها علىٰ مصلحة ولدها فيما تزعم، وخوفًا عليه من الغربة، والذنب في ذلك كله لم يكن علىٰ الأم وإنما هو علىٰ من أهملها وتركها بدون تربية حتىٰ نشأت علىٰ ذلك الجهل الفاضح، وتحكمت في بنيِّها ذلك التحكم باسم العاطفة الجاهلة، لا باسم الحق والإنصاف، ولو أنَّها تعلمت لتصرفت تصرفًا معقولًا، فلم تتغلب عاطفتها علىٰ عقلها، بل سارت مع العقل جنبًا إلىٰ جنب، وخافت علىٰ ولدها في موضع الخوف، وأمنت في موضع الأمن، وشجعته علىٰ الأسفار، وغرست في نفسه محبة المجد، والاستهانة بالمشاق والعقبات، ومتىٰ يمن الله علينا بتلك الأم وذلك الوالد؟ ومتىٰ تكون الآباء قدوة صالحة للأبناء، ومثالًا يحتذىٰ في الخير والفضيلة والشجاعة الأدبية؟

نسأل الله أن يجعل ذلك الزمن قريبًا، وأن يمهد لنا أسباب السعادة ووسائل الحياة الحقة.

﴿قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ يريدون أن يؤكدوا لأبيهم يعقوب عليه السلام أنه لا يمكن أن يسلط عليه الذئب الذي تخشاه، لأنهم جماعة أقوياء قادرون علىٰ دفع الذئب عنه، ولو حصل ذلك لكانوا جماعة خاسرين وضعفاء لا يستطيعون حفظ مواشيهم، ولا حراسة أموالهم. وأي خسارة أكبر من أن يتهاونوا في أخيهم حتىٰ يعدو عليه الذئب؟

اعتذر لهم نبي الله يعقوب بأمرين:

الأول: قوله: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ﴾.

الثاني: قوله: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾.

وقد أجابوا أباهم عن الثاني، أما الأول فأعرضوا عنه؛ لأن حزن يعقوب عليه السلام علىٰ ولده هو الذي كان يغيظهم، فكان من المعقول أن يعيروا ذلك العذر آذانًا صُمًّا، ولم يجيبوا أباهم عنه.

(٤) ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ ... إلخ: جواب **(لما)** محذوف؛ تقديره: أقدموا علىٰ فعلهم، وقد أكثر المفسرون فيما حصل من

يوسف عند إلقائه في الجب من أحاديث البكاء والامتناع وغيرهما، ونحن نمسك عنها؛ لأنَّه لا طريق لإتيانها إلا خبر المعصوم، وليس عندنا خبر صحيح فيها: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، أي: ألهم الله يوسف ليخبرن إخوته بصنيعهم هذا به بعد اليوم، وهم لا يشعرون عند إخبارهم بأنك يوسف، أو وهم لا يشعرون بما أوحيناه إليك، والقصد من هذا الإلهام تأنيس يوسف وتقوية قلبه وهو في ظلمة الجب، وبشارته بما يؤول إليه أمره من الخلاص من هذه الشدائد والمحن، وأنه سيستولي عليهم ويصيرون تحت قهره وسلطانه. ولله هذه البشارة في ذلك الوقت العصيب، ما أبردها علىٰ قلب يوسف، وما أحوج يوسف إليها، إنها بشارة تُهوِّن عليه المصاعب، وتشد قلبه علىٰ الصبر، وتعطيه قوة معنوية تجعل الصعب أمامه سهلًا. وتتحول به الظلمة نورًا، والشدة رخاءً، والوحشة أنسًا، كيف وهي بشارة من خالق يوسف ورب يوسف وإخوته، يريه فيها أنه سيأتي عليه وقت يطلع فيه إخوته علىٰ ما كان منهم مع أخيهم، وأنه سيخلصه من هذه الشدائد مرموقًا بعناية الله، مكنوفًا بحياطته، ومن ظفر بهذه البشارة فهو جدير بأن يرضىٰ بكل ما يلقىٰ من شدائد، وما يعمل به من مكروه.

وإن عظماء الرجال ليستعذبون الموت، ويستهينون بالتغريب والنفي في سبيل آمال عظيمة، قد استولت علىٰ نفوسهم، وتملكت مشاعرهم، وفي هذه الآمال يتسلون علىٰ المصائب، وتشتد العزائم، وتقوىٰ الرغائب، وإنَّ هذه الآمال أيًا كانت درجتها لم تصل إلىٰ حد الوحي الإلهي فكيف إذا كانت وحيًا من الله، وبشارة صادقة، يشعر صاحبها بعلم ضروري أن ما فيها حق لا باطل فيه وصدق لا كذب معه، لا شك أن القلب إذا بشر بأمثال هذه البشارة يكون موقف صاحبها من الشدائد فوق موقف صاحب الآمال، ومنزلته من المصائب التي تحل به منزلة المستهين المستخف، وجملة القول إن بشارة يوسف ﷺ بمآل أمره عناية عظمىٰ من الله به في ذلك الوقت العصيب، ورعاية كبيرة من علام الغيوب في وقت من شأنه أن تتزلزل فيه القلوب، وتضطرب له الأفئدة، ودرس من دروس التربية يتقدم الرسالة التي تتطلب من صاحبها جدًا وعزمًا.

﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ بعد أن فعلوا فعلتهم المنكرة، جاؤوا أباهم آخر النهار

يتصنعون البكاء، مزوِّرين في أنفسهم عذرًا باطلًا، وسببًا كاذبًا، هو أنَّهم ذهبوا للاستباق وتركوا يوسف عند المتاع فأكله الذئب، وقولهم: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾، أي: ما أنت بمصدق لنا ولو كنا صادقين لسوء ظنك بنا، وفرط محبتك ليوسف، أو: ولو كنا من أهل الصدق، فكيف مع سوء ظنك بنا؟ وقولهم: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ إحساس منهم بإجرامهم، وشعور بأنهم لا يقع قولهم من أبيهم موقع القبول والرضا، «كاد المرتاب أن يقول: خذوني»، وهو أسلوب من شأن الكاذب أن يلجأ إليه فيعاجل من يتهمه بمثل ذلك القول، ويقول له: مهما قدمت لك من أدلة، وذكرت لك من براهين، فأنت سيئ الظن بي، لا تصدق لي قولًا، ولا تقبل مني دليلًا.

﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ وصف بالمصدر للمبالغة، كأنَّه نفس الكذب وعينه، كما يقال للكذاب هو الكذب بعينه، والزور بذاته، قيل إنهم ذبحوا سخلة(١) ولطخوا القميص بدمها، وفَاتَهم أن يشقوه، فقال يعقوب كيف أكله الذئب ولم يشق قميصه؟ فاتهمهم بذلك، والقرآن لم يبين لنا طريق الدم ولا الحيوان الذي أخذ منه، وإنما أخبرنا أن الدم كذب وزور.

أما ملاحظة يعقوب عليه السلام علىٰ ذلك القميص الملوّث بالدم فهي ملاحظة عقل وفكر؛ لأنَّ الذئب إذا أكل طفلًا فالشأن فيه أن يمزق قميصه، فبقاء القميص سالمًا من التمزيق عنوان كذب هذه الدعوىٰ، وما أشبه ذلك بدعوىٰ امرأة العزيز أنَّ يوسف أراد بها سوءًا، فجاء الشاهد الذي هو من جهتها، وقال: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾، وهو تحكيمٌ للقرائن؛ لأنَّ الشأن في المرتاب أن يتأخر ويجرّه البريء إلىٰ الباب، فإذا كانت امرأة العزيز صادقة كان تمزيق قميصه من أمام؛ لأنها تجره منه إلىٰ الباب وهو يمتنع عليها، وإن كانت كاذبة يكون هو الذي يسارع إلىٰ الباب ليشكوها إلىٰ سيده، فتجرّه لتمنعه فيمزق قميصه من خلف، فلما رأىٰ القميص قُدّ من دبر قال العزيز لامرأته ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾.

---

(١) السخل: ولد الشاة، انظر: العين: (٤/ ١٩٧)، تهذيب اللغة: (٧/ ٨٠)، الصحاح: (٥/ ١٧٢٨). (عمرو)

﴿قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗا﴾، أي: قال يعقوب ليس الأمر كما تدعون، بل زينت لكم أنفسكم أمرًا عظيمًا ارتكبتموه مع يوسف ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞ﴾؛ أي: فأمري صبر جميل، أو فصبر جميل أمثل من الشكوىٰ، وإذا لم يكن الصبر من نبي الله يعقوب علىٰ مصيبته في ابنه وفلذة كبده جميلًا فممن يكون؟ ﴿وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾، أي: علىٰ احتمال ما تصفون من هلاك يوسف، ونبي الله يعقوب قدوة صالحة في الصبر علىٰ المصائب، واحتمال المكاره والرجوع إلىٰ الله -تعالىٰ- في أن يربط قلبه علىٰ الحق، فلا يجد السخط إليه سبيلًا، وما أجدرنا بالتأسي به في مثل ذلك المصاب، والرجوع إلىٰ الله -تعالىٰ- كما رجع يعقوب عليه السلام، والصبر الجميل هو الذي ليس معه شكوىٰ للمخلوق وبث حزن إليه، ونبي الله يعقوب كان علىٰ ذلك الحال، فقد قال حينما اشتد به الحزن وأفزعه الأسىٰ: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾؛ لأنه رسول ومن شأن الرسول ذلك، فلا بد أن يكون صبره جميلًا، وإن الصبر علىٰ أمثال هذه المصائب هو جهاد للنفس ومحاربة للهوىٰ، وإرغام للشيطان، وما أحوج صاحبه إلىٰ أن يستعين بربه علىٰ ذلك الجهاد المر، والعمل الشاق، ولا عجب أن يجعل الصبر نصف الإيمان لهذه الاعتبارات.

(٥) ﴿وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ جاء رفقة يسيرون من مَدْين إلىٰ مصر فنزلوا قريبًا من الجب ﴿فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ﴾ الذي يتقدم الرفقة إلىٰ الماء فيهيئ الأرشية[1] والدلاء، يقال أدليت الدلو إذا أرسلتها في البئر، ودلوتها إذا أخرجتها، فرأىٰ يوسف معلقًا بالدلاء، أو رآه في قعر البئر وهو ينزع الماء، أو علىٰ صخرة في البئر؛ كلٌّ محتمل، وقوله: ﴿يَٰبُشۡرَىٰ﴾ نداء لها؛ أي هذا أوانك فاحضري، كأنه يقول لأصحابه أبشروا، وقرئ: (يا بشراي) بالياء[2] ﴿هَٰذَا غُلَٰمٞ﴾ ولم ينزعج الوارد من

---

(١) مفردها: رشاء، وهو الحبل، انظر: جمهرة اللغة: (٢/ ٧٥٥)، وتهذيب اللغة: (١١/ ٢٧٩)، واللسان: (١٤/ ٣٢٢). (عمرو)

(٢) قرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف ﴿يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞ﴾ [يوسف: ١٩] بغير ياء بعد الألف. وقرأ الباقون ﴿يَٰبُشۡرَىٰ﴾ بالألف وفتح الياء.
انظر: المبسوط: (٢٤٥)، النشر: (٢/ ٢٩٣).

تعلق يوسف بحبال الدلاء أو رؤيته في قعر الجب بل استبشر؛ لأن يوسف كان حسن الطلعة جميل الوجه، ومن يراه لا يستطيع أن يجد الحزن إليه سبيلًا، فانطلق لسانه بالبشرىٰ ونداء الأصحاب، وقوله لهم: هذا غلام، ولو كان المرئيّ غير يوسف لفزع الوارد من رؤيته في ذلك المكان الذي لم يؤلف فيه وجود غلمان، ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾، أي: أخفىٰ الوارد وأصحابه أمر يوسف عن بقية الرفقة؛ خيفة أن يطلبوا منهم الشركة فيه، بل يختص به الوارد وأصحابه دون بقية السيارة، **والبضاعة**: ما بُضِع -أي: قطع- من المال للتجارة، أو الضمير للسيارة جميعها، لا لطائفة منها، أي: إنَّ هذه السيارة أخفت أمر يوسف، فلم تُذِعه علىٰ أنه لقيط، بل أخفت أمره وادَّعت أنه بضاعة وصلت إليهم كبقية الأموال، ولعل حكمة ذلك خوفهم أن يكون تبعًا لقوم ضل الطريق منهم فوقع في البئر، فلو أذاعوا أمره علىٰ أنه لقيط لوصلهم أذىٰ من قومه ومتبوعيه، ولذلك أخفوه علىٰ أنه مال كبقية الأموال.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ وعيد للسيارة بأن الله يعلم عملها وسيحاسبها عليه؛ لأنه ما كان لهم أن يستبضعوا ما ليس لهم، أو الضمير لإخوة يوسف، فهو وعيد لهم علىٰ ما صنعوا مع أخيهم يوسف ومع أبيه يعقوب عليهما السلام.

﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۢ بَخۡسٖ﴾ باعوا يوسف بثمن مبخوس ناقص عن القيمة لمثله نقصًا فاحشًا، وقد بين ذلك الثمن القليل بقوله: ﴿دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ﴾ ومن شأن المعدود أن يكون قليلًا، ﴿وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ الراغبين عنه، ولذلك باعوه بثمن طفيف، ولقد كان زهد السيارة في يوسف علىٰ جماله وحسن طلعته لحكمة عالية، وهي بيعهم له من عزيز مصر، وكان من أمره مع ذلك العزيز ما كان، ممَّا سيشرحه القرآن الكريم في الآيات الآتية، ورُبَّ مزهودٍ فيه عند قوم مرغوب فيه عند آخرين، وقد يعثر الطفل أو الجاهل علىٰ الدرة فيظنها حجرًا عاديًا، فيلقيها إلىٰ من يعرف قيمتها ويعلم مقدارها.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾ قيل إن الذي اشتراه **قطفير** صاحب أمر الملك، وكان علىٰ خزائن مصر، وكان يسمىٰ العزيز، وليس عندنا نص قاطع علىٰ أن امرأته كانت تسمىٰ **زليخا**

أو **راعيل**، والعبرة لا تتوقف علىٰ معرفة الأسماء، ولذلك لم يعرض القرآن لها، فسواءٌ علينا أصحت الروايات التاريخية بها أم لم تصح، وقوله: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَنْهُ﴾، أي: اجعلي مقامه عندنا كريمًا وحسنًا؛ أي: أحسني تعهده ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ في ضِيَاعِنا أو أموالنا، ونستعين به علىٰ مصالحنا ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًاۚ﴾ نتبناه، ويظهر أنه كان عقيمًا، وقد تفرس الرشد في يوسف، ويحتمل أنه لم يكن عقيمًا، ولكنه أحب يوسف وقال: لا مانع من تبنيه، لأنه تفرس فيه حسن المستقبل وعظمة التاريخ.

قال العلماء: أفرس الناس ثلاثة: عزيز مصر، وابنة شعيب التي قالت يا أبت استأجره، وأبو بكر حين استخلف عمر[1].

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، أي: وعلىٰ ذلك النحو الذي رأيت، والصنع اللطيف الذي قدمناه بإنجائه من كيد إخوته، وتعطيف قلب عزيز مصر عليه= مكنَّا له في أرض مصر، إذ صار واحدًا من بيت العزيز الذي هو علىٰ خزائن مصر، وصاحب أمر الملك ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ﴾، أي: صنعنا به من ألطافنا الخفية ما صنعنا ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ لا يرده شيء في أمر يوسف ولا في غيره، وقد أراد إخوة يوسف أمرًا، ودبر الله غيره فغلبهم ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ٥٠]، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لطائف صنعه، وخفايا لطفه، وأن الشر الظاهر قد يكمن فيه الخير الكثير، كما حصل ليوسف في الجب، وأن الخير والنصر الظاهري قد يكون وراءه الندامة والحسرة، كما نصر إخوة يوسف ورموه في الجب، ثم انتهىٰ الأمر بأن صار سيدهم، وأن ما فعلوا به كان من أسباب ارتقائه.

وقيل: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، أي: جعلناه ملكًا في أرض مصر ليقيم العدل ويدبر أمور الناس، ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ﴾ فيعلم معاني كتب الله وأحكامه، وتعبير المنامات، والمراد أن الله -تعالىٰ- كما أنجاه من كيد إخوته، وعطّف قلب العزيز عليه، جعله ملكًا علىٰ أرض مصر، لأنَّ ذلك هو

---

(١) من قول ابن مسعود. رواه ابن منصور في التفسير: (١١١٣)، وابن أبي شيبة: (٣٧٠٨٥)، والطبري: (١٣/ ٦٣)، وغيرهم. (عمرو).

المتبادر من كلمة ﴿مَكَّنَّا﴾ كما قال: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٥، ٦]، فالتمكين في الأرض: جعله صاحب مكانة فيها وتثبيت قدمه عليها، وكأنه جبل شامخ لا يستطيع أحد أن يزلزله عن مكانه، وذلك لا يكون إلا بالقوة التي أعطاه الله إياها، والنفوذ والسلطان الذي حصل عليه.

ثم عقب ذلك بقوله: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ ... إلخ؛ ليرينا أنَّه لا غرابة فيما صنعه الله -تعالىٰ- مع يوسف؛ لأنَّه غالب علىٰ أمره، ولا رادّ لقضائه وحكمه ويظهر أن كلمة (**مَلِك**) التي جرت في عبارة المفسرين يريدون بها صاحب السلطان والنفوذ، فهي ترادف كلمة (**سلطان**)؛ ولذلك جاء في هذه السورة: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ۝٥٤ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ۝٥٥ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، فالتمكين في الأرض في هذه الآيات هو التمكين في تلك، وإنما يراد به أن يكون وزيرًا نافذ الكلمة، صاحب حول وطول، ولم يرد بقوله: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾ أن يتنازل له عن ملكه؛ لأن ذلك غير معهود طلبه من الملوك، وكذلك لم يعهد أن الملوك تجيب إليه علىٰ فرض طلبه منها، فالملك لما أحبه وطلب أن يحضروه ليستخلصه لنفسه، وشهد له بالأمانة والمنزلة= طلب منه يوسف لذلك أن يوليه خزائن الأرض؛ لأنَّه حفيظ عليم، وقد أجابه إلىٰ ذلك، فأصبح بهذه التولية صاحب أمر ونهي، وصار وزيرًا له مكان العزيز.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ تكملة لقصة يوسف عليه السلام، فبعد أن قصَّ علينا رؤياه، وحسد إخوته له علىٰ محبة أبيه، ومكرهم به وإحباط ذلك المكر، وتعطيف قلب عزيز مصر عليه حتىٰ وصل إلىٰ ما وصل إليه من النفوذ، أرانا أنه لما بلغ أشده؛ أي: منتهىٰ استعداد قوته؛ ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، قيل: الحكم هو الحكمة، وقيل: العلم المؤيد بالعمل، وقيل: قوة الحكم بين الناس والقضاء في مصالحهم، أو الحكم هنا حكم النبوة، و﴿عِلْمًا﴾، أي: فقها في الدين، وتنكيرهما للتفخيم؛ أي: حكمًا وعلمًا لا يعرف كُنهُهما،

ولا يقدر قدرهما، والآية ليست نصًا في نبوة يوسف ﷺ، وإنما يدلّ علىٰ ذلك آيـات أخـر، كـآيـة: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ [غـافـر: ٣٤]، ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ أي: كما جزينا يوسف علىٰ صبره بالعلم النافع والحكمة الصالحة نجزي كل محسن علىٰ إحسانه.

يـوسـف عليه السلام

﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ[1] لَكَۚ قَالَ
مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ[2] بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا
لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ
﴿٢٤﴾ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ
أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ
شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن
كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ
إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ
كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن
نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا[3] عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ أَرۡسَلَتۡ
إِلَيۡهِنَّ وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ
وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ وَقُلۡنَ حَٰشَ[4] لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ ﴿٣١﴾ قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي
لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ[5] وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ
ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ

---

(١) تعالَ، وقرئ: (هئت) بكسر الهاء، وضم التاء: تهيأت.

(٢) لتنتقم منه؛ لأنه لم يطاوعها، وهَمّ بها ليدفع عن نفسه.

(٣) خرق حبه شغاف قلبها حتىٰ وصل إلىٰ الفؤاد، والشغاف: حجاب القلب.

(٤) بعدًا منه وتنزيهًا له.

(٥) امتنع بشدة وقوة.

أَصْبُ[1] إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [يوسف: ٢٣-٣٥].

* شرح وعبرة:

(١) ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ . . . إلخ ليس المراد أن يوسف ﷺ وقع له ذلك الحادث بعد أن آتاه الله حكمًا وعلمًا كما هو الظاهر من ذكره بعده؛ لأنَّ القرآن -كما قلنا غير مرة- ليس من أغراضه أن يذكر الحوادث مرتبة علىٰ حسب أزمنتها، كما هو الشأن في كتب التاريخ، بل مهمة القرآن مهمة هداية وعبرة، فقد يذكر القصة ويبدأ فيها بالحادثة قبل حادثة تسبقها في الزمن؛ لأنَّها أهم منها، ولحكمة قضت بذلك، والله -تعالىٰ- أراد أن يرينا قصة يوسف في صغره وعطف أبيه عليه، والمنام الذي رآه وقصّه علىٰ أبيه، وتحذير أبيه له أن يقصه علىٰ إخوته فيكيدوا له كيدًا.

ثم انتقل إلىٰ حسد إخوته له علىٰ هذه المحبة، وتدبير مكيدة له.

ثم عقب ذلك بمطالبة أبيهم أن يتركه ليشترك معهم في السباق والتمتع، وخوف أبيه عليه، ثم حادث إلقائه في البئر والتقاط بعض السيارة له، ثم بيعه إلىٰ رجل من مصر، ثم تمكينه في الأرض وإعطائه حكمًا وعلمًا، ثم تعليل ذلك بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، أي: كما جزىٰ يوسف علىٰ إحسانه يجزي كل محسن.

ثم شرح لنا حادثًا من حوادث إحسان يوسف الذي جازاه الله عليه، فقال: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ﴾ . . . إلخ الآيات، فقصة المراودة، وسجن يوسف، وظهور براءته، كل ذلك من إحسانه الذي كافأه عليه بالحكم والعلم، وكل ذلك كان قبل أن يسلطه الله علىٰ مصر، ويختاره الملك علىٰ خزائن أرضها، والذي جرَّأ امرأة العزيز علىٰ مراودته أنه كان خادمًا عندها في البيت، فطمعت فيه كما يطمع النساء المخدومات في خدمهن، بل كانت تظن أنها ستجاب إلىٰ ما طلبت، وهي صاحبة الفضل عليه شأن سائر النساء اللائي يَكُنَّ مثلها في الغنىٰ والجاه والسلطان الذي

(١) أميل، من الصبوة، وهي الميل إلىٰ الهوىٰ.

سرىٰ إليها من زوجها العزيز، ولكنَّ يوسف عليه السلام أراها أنه لم يكن خادمًا عاديًا، بل هو فتىٰ ذو خطر كبير، وشأن عظيم، وأن الله -تعالىٰ- سيختاره لخدمته قبل أن تصطفيه امرأة العزيز لقضاء لبانتها، وأنه أجلّ وأعظم من أن يكون خادمًا لامرأة شهوانية ترضىٰ عنه إذا هو خالف ربه ومولاه، وتغضب عليه إذا هو اعتصم وحافظ علىٰ أخلاقه ودينه ﴿وَرَاوَدَتْهُ﴾ من: رَادَ يَرُودُ، إذا جاء وذهب، كأن المعنىٰ خادعته عن نفسه وفعلت ما يفعله المخادع لصاحبه عن الشيء الذي لا يريد أن يخرج من يده يحتال أن يغلبه عليه ويأخذه منه، وهي مفاعلة من طرف واحد نحو مطالبة الدائن، ومماطلة المديون، ومداواة الطبيب، ويصح أن يراد بصيغة المفاعلة مجرد المبالغة في الاحتيال، والتمحُّل في مواقعته إياها.

وفي ذكر الموصول[1]، وبيان أن يوسف في بيتها وتحت سلطانها، ثم تغليق الأبواب واستعدادها له= إعلاء لشأن يوسف ولأن ذكر الاسم فضيحة، وكونه في بيتها وتغليق الأبواب، كل ذلك داعٍ إلىٰ المواقعة؛ فإن المستتر لا سيما مع من يملك أمره يفعل ما لا يفعله الذي استبان فعله وانكشف حاله، فالعفة مع هذه الأحوال، وتسهيل سبيل الفاحشة، وتوفر أسبابها= أرقىٰ ما وصل إليه الأخيار.

وقوله: ﴿وَغَلَّقَتِ﴾ يشير إلىٰ أنَّ الأبواب كانت كثيرة ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾؛ أي: أقبِل وبادِر، وقرئ: «هئت لك»[2]، أي: تهيأت لك، من هاء يهيء، -ك: جاء يجيء- إذا تهيأ.

﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ أعوذ بالله معاذًا أن أقع في مثل ذلك، وهي كلمة تدل علىٰ النفور من المعصية والاشمئزاز، وذلك هو المنتظر من فتىٰ أعده الله لأن

---

(١) وهو قوله: ﴿الَّتِي﴾. (عمرو)

(٢) قرأ أبو جعفر ونافع وابن عامر ﴿وَقَالَتْ هِيتَ لَكَ﴾ بكسر الهاء وفتح التاء، وقرأ ابن كثير ﴿هَيْتُ لَكَ﴾ بفتح الهاء وضم التاء. وقرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ بفتح الهاء والتاء.

وروي الهمز عن هشام.

انظر: السبعة: (٣٤٧)، المبسوط: (٢٤٥)، جامع البيان، للداني: (٣/ ١٢٢٦)، النشر: (٢/ ٢٩٣). (عمرو)

يكون رسولًا، وقدوة صالحة في الخير، ومثالًا يحتذىٰ في البعد عن المآثم، ولم يرد يوسف ﷺ أن يقف عند حدّ تعوذه بربه، وتحصنه به من إجابة امرأة العزيز إلىٰ ما طلبت، فأضاف إلىٰ ذلك قوله: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ والضمير لله -تعالىٰ-، والربّ هو المربي له بنعمته الظاهرة والباطنة، وهو الذي حفظه في الجبّ، وعطف عليه قلب العزيز، وأنجاه من مكر إخوته، وإذا كان هذا فعل الله معه، فكيف يقابل ذلك الإحسان بالإساءة؟ وكيف يقارف امرأة ليست له بزوج؟ ثم عقبه بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ يريد أنه إذا فعل ما طلب منه كان ظالمًا، ولم يكتب الله للظالمين فلاحًا، وإنما حظهم دائمًا الخيبة والخسار، **فأوّلًا** استعاذ بالله، **ثم** علله بقوله: إنه ربي أحسن مثواي، **ثم** بقوله: إنه لا يفلح الظالمون.

وقيل الضمير في قوله: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ للعزيز، والمراد: أنه رب البيت ورئيسه، أو سيده الذي رباه في بيته، وجعله تحت رعايته وكنفه، وقوله: ﴿أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾، أي: أكرم نزلي، وإقامتي ببيته، وأوصىٰ امرأته بذلك، إذ قال لها: ﴿أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ﴾، أي: أكرم نزلي، وإقامتي ببيته، وأوصىٰ امرأته بذلك؛ إذ قال لها: ﴿أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ﴾، ولا يليق أن أقابل ذلك الإكرام الذي تقدم به العزيز بإساءة، ومن اللؤم أن أخونه في أهله، ولو فعلت ذلك كنت ظالمًا، ولا يفلح الظالم، ولا مانع من إرادة كلٍّ من المعنيين لكلمة ﴿رَبِّيٓ﴾، والمراد أن إجابتها لما طَلَبت= إغضاب لله -تعالىٰ- المربي لنا بنعمه، وخيانة لصاحب البيت، ومقابلة للحسنة بالسيئة، حيث أوصىٰ امرأته أن تكرم مثواي، فلا يليق بي أن أقابل ذلك الإكرام بإساءة؛ لأني لو فعلت ذلك كنت ظالمًا مع خالقي، ومع رب البيت، ولا أرضىٰ لنفسي ذلك الخلق، ومهما يكن من شيء فإن يوسف غير مستعدّ لأن يجيب المرأة إلىٰ ما طلبت، ونافر نفورًا شديدًا من السير في ذلك الطريق الوعر الذي يغضب الله ويسخطه، ويجعله رجلًا لئيمًا يجحد الجميل وينكر الإحسان.

ولعل في عفة يوسف ﷺ، وقوله في شأن العزيز: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ عبرة لقوم انحطت نفوسهم، وتدنست أخلاقهم، وفقدوا معنىٰ كرم الطبع وشرف النفس، فلم يتعففوا أن يفسقوا بامرأة جار أو قريب أو صاحب فضل، لعلّ هناك

عبرة لهؤلاء الذين أغضبوا ربهم، وقطعوا حقوق جيرانهم وأقربائهم، ونسوا قول الرسول ﷺ: «**ما زال جبريل يوصيني بالجار حتىٰ ظننت أنه سيورثه**»[1]، كما نسوا حق القرابة، وأن الزنا بامرأة الجار عذابه مضاعف، وكذلك الزنا بامرأة القريب فاحشة وقطيعة رحم؛ لأنَّ الشأن في الزنا أن يورث عداوةً في القلوب، ويترك أثرًا غير محمود. فإذا قال نبي الله يوسف: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾، فليقل الرجل إذا سولت له نفسه أن يفسق بحليلة جاره: «إنه جاري أحسن جواري»، وإذا سولت له نفسه أن يفجر بامرأة قريبه يقول: «إنه قريبي قد وصل رحمي»، وكذلك إذا زينت له نفسه أن يواقع امرأة صاحبه يقول: «إنه صاحبي أحسن الصحبة».

وجملة القول: إن نبي الله يوسف كان مثالًا صالحًا في الوفاء، ورعاية حق المحسنين، ومقابلة الإحسان بإحسان مثله، فليكن لنا عبرة في ذلك الرسول، واتعاظ بسيرته وأخلاقه.

(٢) ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ﴾[2] يستطيع القارئ

---

(١) رواه البخاري ومسلم.
رواه البخاري: (٦٠١٥)، ومسلم: (٢٦٢٥).

(٢) قال الطبري: «وأولىٰ الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله جل ثناؤه أخبر عن هم يوسف، وامرأة العزيز كل واحد منهما بصاحبه. لولا أن رأىٰ يوسف برهان ربه، وذلك آية من آيات الله، زجرته عن ركوب ما هم به يوسف من الفاحشة. وجائز أن تكون تلك الآية صورة يعقوب، وجائز أن تكون صورة الملك، وجائز أن يكون الوعيد في الآيات التي ذكرها الله في القرآن علىٰ الزنا. ولا حجة للعذر قاطعة بأي ذلك من أي.

والصواب أن يقال في ذلك ما قاله الله تبارك وتعالىٰ، والإيمان به، وترك ما عدا ذلك إلىٰ عالمه»، فالصحيح من كلام أهل العلم من الصحابة ومن بعدهم، أن الهم وقع من يوسف ﷺ. قال الواحدي: «فقال المفسرون الموثوق بعلمهم المرجوع إلىٰ روايتهم: هَمّ يوسف أيضًا بهذه المرأة همًا صحيحًا، وجلس منها مجلس الرجل من المرأة، فلما رأىٰ البرهان من ربه زالت عنه كل شهوة»، لكن لم نقف علىٰ أحد قال من السلف أنه هم بها ليدفعها، كما ذكر المؤلف هنا، وغيره، فتنبه لهذا، وعظم ما ورد عن الصحابة والتابعين، وافهمه علىٰ وجهه.

انظر في تفسير هذه الآية: جامع البيان، للطبري: (١٣/ ٨٠-١٠٠)، والتفسير البسيط: (١٣/ ٧٣).

وقد وقع لبعض أهل العلم أن الهم الذي وقع من يوسف هو هم الخاطر، لا هم الإصرار، وضعفت هذه الفئة ما يقال أنه هم بها ليدفعها، منهم ابن عطية، وشيخ الإسلام ابن تيمية في جماعة من العلماء، =

. . . .

= انظر: تفسير ابن عطية: (٣/ ٢٣٤)، الفتاوىٰ الكبرىٰ: (٥/ ٢٦١)، منهاج السنة: (٢/ ٤١١).
وإذا تقعد ذلك عندك، علمت خطأ أبي حيان (ت: ٧٤٥) في رده الوارد عن السلف في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: ٢٤]، بدعوىٰ أن تفسيرهم لا يساعد عليه كلام العرب.
قال: «والذي روي عن السلف لا يساعد عليه كلام العرب؛ لأنهم قدروا جواب «لولا» محذوفا، ولا يدل عليه دليل؛ لأنهم لم يقدروا: لهم بها، ولا يدل كلام العرب إلا علىٰ أن يكون المحذوف من معنىٰ ما قبل الشرط؛ لأن ما قبل الشرط دليل عليه، ولا يحذف الشيء لغير دليل».
وهذا منه رحمه الله غير سديد؛ لأن هؤلاء السلف -الذين يزعم أن كلام العرب لا يساعد علىٰ قولهم- عرب، وهم أدرىٰ منه بلغتهم، وأقدر علىٰ تحديد مراد الله بكلامه من غيرهم من المتأخرين عنهم، فكيف غفل عن هذا؟!
ولو كان رحمه الله يجعل تفسيرهم حجة يحتكم إليه، ويبني عليه الإعراب، لما قال هذا القول.
وهذا الاعتراض -فيما يبدو- متناسق مع رأيه في أن النحوي قادر علىٰ معرفة التفسير بدون الرجوع إلىٰ تفسير السلف، وقد حكىٰ مذهبه هذا في مقدمة تفسيره.
قال: «ومن أحاط بمعرفة مدلول الكلمة، وأحكامها قبل التركيب، وعلم كيفية تركيبها في تلك اللغة، وارتقىٰ إلىٰ تمييز حسن تركيبها وقبحه = فلن يحتاج في فهم ما تركب من الألفاظ إلىٰ مفهم ومعلم، وإنما تفاوت الناس في إدراك هذا الذي ذكرناه، فلذلك اختلفت أفهامهم، وتباينت أقوالهم.
وقد جرينا الكلام يوما مع بعض من عاصرنا، فكان يزعم أن علم التفسير مضطر إلىٰ النقل في فهم معاني تراكيبه الإسنادية إلىٰ مجاهد وطاوس وعكرمة وأضرابهم، وأن فهم الآيات متوقف علىٰ ذلك.
والعجب له أنه يرىٰ أقوال هؤلاء كثيرة الاختلاف، متباينة الأوصاف، متعارضة ينقض بعضها بعضا . . .».
وهذه دعوىٰ عريضة، ولم يدلل عليها أبو حيان، وهو عالم باللغة، ولو تأمل أقوال السلف بحسه اللغوي، لما وجد هذا التناقض الكثير الذي يزعمه، ولكن يبدو أن موقف رد هذا القول جعله يصدر هذا الحكم.
ولن يكون أبو حيان -أو من جاء بعد هؤلاء السلف- أشد تعظيما للأنبياء منهم، لذا فالصواب أن يجعل ما ورد عن هؤلاء من لغة العرب، وأن يحمل نحو القرآن وإعرابه علىٰ ما فسروه، لا أن يرد ويزعم أن تفسيرهم لا يساعد عليه كلام العرب، والله أعلم.
وقد أخرج قوم هم يوسف ﷺ إلىٰ غرائب لا يقبلها سياق الآية، وما حملهم علىٰ ذلك إلا دعوىٰ العصمة التي أثبتوا أمورها بعقولهم، فأولوا كل ما يخالف ما قرروه مما أثبته الله عليهم، فقال بعضهم: هم بالفرار منها، وقال بعضهم: هم بضربها، وحمله آخرون علىٰ التقديم والتأخير، وقالوا: لم يهم أصلا؛ لأن المعنىٰ: لولا أن رأىٰ برهان ربه لهم بها.
وقد أشار ابن قتيبة (ت: ٢٧٦) إلىٰ أصحاب هذه التأويلات الغريبة، فقال: «يستوحش كثير من الناس من أن يلحقوا بالأنبياء ذنوبا، ويحملهم التنزيه لهم صلوات الله عليهم علىٰ مخالفة كتاب الله جل ذكره، واستكراه التأويل، وعلىٰ أن يلتمسوا لألفاظه المخارج البعيدة بالحيل الضعيفة التي لا تخيل عليهم أو علىٰ من علم منهم أنها ليست لتلك الألفاظ بشكل، ولا لتلك المعاني بلفق». =

. . . .

= وقد نص علىٰ قاعدة التأويل في مسألة العصمة الشريف المرتضىٰ (ت:٤٣٦)، فقال: «إذا ثبت بأدلة العقول التي لا يدخلها الاحتمال والمجاز ووجوه التأويلات: أن المعاصي لا تجوز علىٰ الأنبياء ﷺ. صرفنا كل ما ورد ظاهره بخلاف ذلك من كتاب أو سنة إلىٰ ما يطابق الأدلة ويوافقها . . .».

وهذا الذي ذهب إليه غير سديد، بل القاعدة في ذلك أن يثبت ما أثبته الله، فلا يخالف ذلك بسبب أدلة العقول التي يزعمونها. وهي أدلة لا ثبات فيها. ولا اتفاق. والله أعلم.

وليس في وقوع الهم منه ﷺ ما يوجب التشنيع عليه في نبوته ولا أن في ذلك خللا منه. بل كان ذلك منه حسب الطبيعة البشرية التي هي جزء من النبي ﷺ لا تنفك عنه. ولكن الله عصمه من الوقوع في المعصية، لا من الهم بها.

والحديث في هذه الآية يطول، ويكفي ذكر بعض أقوال أهل العلم في رد مثل هذه التأويلات. فمن ذلك قول أبي عبيد (ت:٢٢٤): «وقد زعم من يتكلم في القرآن برأيه أن يوسف ﷺ لم يهم بها، يذهب إلىٰ أن الكلام انقطع عند قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾، قال: ثم استأنف فقال: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾، بمعنىٰ: لولا أن رأىٰ برهان ربه لهم بها، واحتج بقوله: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ [يوسف: ٥٢]، وبقوله: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾ [يوسف: ٢٥]. وابن عباس ومن دونه لا يختلفون في أنه هم بها. وهم أعلم بالله، وبتأويل كتابه، وأشد تعظيما للأنبياء، من أن يتكلموا فيهم بغير علم».

وقال أبو جعفر النحاس (ت:٣٣٨): «وكلام أبي عبيد هذا كلام حسن بين لمن لم يمل إلىٰ الهوىٰ . . .».

وقال أبو بكر بن الأنباري (ت:٣٢٨): «والذي نذهب إليه ما أجمع عليه أصحاب الحديث وأهل العلم، وصحت به الرواية عن علي بن أبي طالب رضوان الله عليه. وابن عباس ﵄، وسعيد بن جبير، وعكرمة. والحسن. وأبي صالح. ومحمد بن كعب القرظي. وقتادة. وغيرهم، من أن يوسف ﷺ هم هما صحيحا علىٰ ما نص الله عليه في كتابه، فيكون الهم خطيئة من الخطايا وقعت من يوسف ﷺ كما وقعت الخطايا من غيره من الأنبياء.

ولا وجه لأن نؤخر ما قدم الله، ونقدم ما أخر الله، فيقال: معنىٰ: وهم بها: التأخير معه قول الله ﷻ: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾. إذ كان الواجب علينا واللازم لنا أن نحمل القرآن علىٰ لفظه، وألا نزيله عن نظمه. إذا لم تدعنا إلىٰ ذلك ضرورة، وما دعتنا إليه في هذه الآية ضرورة.

فإذا حملنا الآية علىٰ ظاهرها ونظمها كان ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ معطوفا علىٰ ﴿هَمَّتْ بِهِۦ﴾ و﴿لَوْلَآ﴾ حرف مبتدأ، جوابه محذوف بعده، يراد به: لولا أن رأىٰ برهان ربه لزنا بها بعد الهم. فلما رأىٰ البرهان زال الهم ووقع الانصراف عن العزم.

وقد خبر الله جل وعز عن أنبيائه بالمعاصي التي غفرها وتجاوز عنهم فيها، فقال تبارك وتعالىٰ: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١]، وقال لنبيه محمد ﷺ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ [الشرح: ١-٣]، وخبر بمثل هذا عن يونس وداود ﷺ، وقال النبي ﷺ: ما من نبي إلا قد عصىٰ الله، إلا يحيىٰ بن زكريا.

وقال أبو عبيد: قال الحسن: إن الله جل وعز لم يقصص عليكم ذنوب الأنبياء تعييرا منه لهم. ولكنه قصها عليكم لئلا تقنطوا من رحمته. =

أن يفهم المراد من هذه الجملة بعد أنْ سمع أنَّ نبي الله يوسف أجاب امرأة العزيز تلك الإجابة الجافة التي تدل علىٰ نفرته من المعصية، وتعليل ذلك النفور بقوله: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ﴾ إلىٰ آخر الآية، ويستطيع القارئ أن ينزه نبي الله يوسف ممَّا شحن به بعض كتب التفسير ممَّا لا يليق بفتىٰ أعدَّه الله لأن يكون رسولًا، وهيَّأه ليتولىٰ زعامة أمَّةٍ في دينها وخلقها، ولولا أن بطلانه من الظهور إلىٰ حد كبير لعنيت بالرد عليه، وحسب القارئ أن يفكر في القصة وهو بعيد عن آراء المفسرين، والقرآن كفيل بأن يفهمها نقية خالصة من الإسرائيليات والمفتريات.

فالقرآن يرينا أنَّ امرأة العزيز تعلق قلبها بيوسف وظنت -وبعض الظن إثم- أنه خادم كبقية الخدم لا يخالف لها أمرًا، فراودته عن نفسه، وهيأت له أسباب الفاحشة، بأن غلقت الأبواب، وخلصت إليه حتىٰ لا يحتشم من شيء، فلم يطعها في ذلك، واستعاذ بالله، وقال لو فعلت ذلك أكون ظالمًا، وانقلب من خادم وادع، وفتىٰ مطيع إلىٰ شخص ثائر، ويدل لثورته هذه الكلمات؛ لأنها لا تصدر إلا من قلب امتلأ بالغضب، وبذلك يمكنك أن تفهم المراد من قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾، وهو أنها همت به لتنتقم منه؛ لأنها حانقة عليه إذ لم يجبها إلىٰ ذلك الطلب، وهي سيدة مطاعة لم تتعود أن يُعصىٰ لها أمر، ولا سيما من خادم كيوسف، ومن ناحية أخرىٰ فإن شغفها بيوسف قد وصل بها إلىٰ حد الجنون، فإذا تأبىٰ عليها وحال بينها وبين ما تشتهي؛ فإن ذلك يؤلمها ألمًا شديدًا، بل ويزعجها، فإذا همت بيوسف هم إيذاء فلأنه أضاع عليها فرصة كانت تعتقد أنها مواتية، وخيَّب ظنها في وقت كانت تعتقد فيه أنه عند ظنها فيه، ولا يعقل أن يكون همها بيوسف بعد نفرته منها واستعاذته بربه إلا علىٰ ذلك النحو.

= قال أبو عبيد: يذهب الحسن إلىٰ أن الحجج من الله جل وعز علىٰ أنبيائه أوكد، ولهم ألزم. فإذا قبل التوبة منهم، كان إلىٰ قبولها منكم أسرع.

وإلىٰ مذهبنا هذا كان يذهب علماء اللغة: الفراء، وأبو عبيد، وغيرهما».

انظر: أنواع التصنيف المتعلقة بالقرآن، د. مساعد الطيار: (٤١)، والتفسير اللغوي، له: (٥٢٩-٥٣٢).

فتأمل هذا، وافهمه، ثم اقرأ كلام المصنف رحمه الله تعالىٰ.

(عمرو)

أما همه بها فهو هم دفاع عن النفس، وفرار من المعصية، وسدٌّ لأبواب الشرّ والفسق؛ لأنَّ ذلك هو اللائق بيوسف من جهة مكانته، ومن جهة مستقبله، ومن جهة الواجب عليه في ذلك الظرف العصيب، وما أدق موقف يوسف في ذلك الوقت، وما أشق مهمته مع امرأة جاهلة، قد تملكتها الشهوة، وغرّها مركزها ومركز زوجها العزيز، وهو فتىً يخدم في ذلك البيت، وليس له ناصر إلا مولاه وخالقه، ولا مغيث له إلا من يعلم سرّه ونجواه، وما الذي كان يفكر فيه يوسف ليخلص من ذلك البلاء، وماذا كان يفعل لو طال به ذلك الحال بينه وبين امرأة العزيز؟ وتحت يدها الخدم والحشم، وفي قبضة يدها السلطة والنفوذ؟ وما الذي كان يمنعها من قتل يوسف في ذلك الوقت الذي يغلي فيه قلبها كما يغلي المرجل؟ وما الذي كان يمنع يوسف من مقابلة الشر بالشر، والشدة بالشدة؟ وهل إذا طال ذلك الوقت بامرأة العزيز ويوسف، هل كان يقف تيار الشرّ عند حد الاثنين، أو يتخطاهما إلىٰ أناس آخرين؟ ذلك هو الذي سوّغ حذف جملة الجواب في قوله: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾، والرب هنا هو رب البيت، وهو العزيز، وبرهانه علامة أنه حضر؛ أي: لكان ما كان ممَّا لا يعلم حدّه إلَّا الله -تعالىٰ-، فحذف الجواب لتذهب النفس فيه كل مذهب ممكن، وذلك أسلوب من أساليب التفخيم والتعظيم، وكأنَّه يريد أن يرينا أن جواب هذا الشرط لا تستطيع العبارة أن تفي به، وأي جواب قدَّرته فهو أقل ممَّا أريد به، ولذلك حذف الجواب، فإذا قلتَ: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ لقتلته، لم يفِ بالمراد، وكذلك إذا قلت: لقتلها، وكذلك إذا قلت: لتطاير الشر وتفاقمت الفتنة، وما إلىٰ ذلك ممَّا يناسب المقام.

وجملة القول: إنَّ امرأة العزيز همَّت بيوسف لتنتقم منه إن لم يجبها إلىٰ طلبها، وهم بها ليدفع عن نفسه، فالهمّ هنا هم بعمل هو الانتقام من ناحية امرأة العزيز، وهو عمل إيجابي، ودفاع عن يوسف، وهو موقف سلبي، وقد ينقلب إيجابيًا، وهو كقوله: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ [غافر: ٥]، وقوله: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾، أي: لحصل ما حصل ممَّا لا يعلم كنهه إلا الله -تعالىٰ-، ويدلّ لذلك قوله بعدُ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾، أي: فعلنا بيوسف ﴿كَذَٰلِكَ﴾ من تسخير العزيز للحضور في ذلك

الظرف، الذي اشتدّ فيه النزاع بين يوسف وامرأته، وهو نعمة كبرىٰ علىٰ يوسف، ومخرج من ذلك المأزق، وتخليص له من يد امرأته، ولولا حضور العزيز في ذلك لكان ما كان.

فالله -تعالىٰ- يُرينا أنَّه هيَّأ ليوسف ذلك المَخْلَص ليصرف عنه السوء والفحشاء، ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾، أي: الذين أخلصوا في عبادة الله -تعالىٰ-، ومن كان كذلك، فقد تكفل الله له بمثل ذلك، أو الذين استخلصهم الله لأن يكونوا رسلًا وأئمة، وما دام يوسف من ذلك الصنف، تكفل الله له بأن يصرف عنه السوء والفحشاء، ونظيره قول الله -تعالىٰ-: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ . . . ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٢-٤].

(٣) ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ تسابقا إليه، فحذف الجارّ، أو ضمَّن الفعل معنىٰ ابتدر؛ أي: ابتدر كل منهما الباب وسبق إليه، فأما يوسف، فقد أراد الفرار منها ليخرج وليشكوها إلىٰ سيدها، وأما هي فأسرعت وراءه تريد أن تمنعه الخروج، واجتذبته من ورائه فانقد قميصه، والقدّ: الشق طولًا ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾، أي: وجدا سيدها وهو العزيز لدىٰ الباب، ولم يدخل؛ لأنَّ الأبواب كانت مغلقة: ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وفي الأمثال: «ضربني وبكىٰ وشتمني واشتكىٰ»[(١)] كذلك امرأة العزيز مع يوسف لما رأت سيدها عند الباب يريد الدخول، وقد يكون أحس وهو لدىٰ الباب بشيء ممّا دار بين يوسف وامرأته من نزاع، أرادت أن تشفي غلّ صدرها وحنقها علىٰ يوسف لما فاتها من التمتع به، وتوقِعه في الشرّ جزاء إبائه عن مطاوعتها، تقدمت إلىٰ زوجها شاكية باكية قائلةً: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ تريد أن تُفْهِمَه بذلك أنه هو الذي راودها وأنه لم يكن منها سوىٰ الآباء، وفي قولها: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ﴾ بصيغة الماضي، وتحديدها

---

(١) وأورده العلامة تيمور بلفظ: «ضرب وبكىٰ، وسبق واشتكىٰ»، وهو مثل يضرب لمن يشكو وهو المعتدي. ويرادفه من أمثال العرب: تلدغ العقرب، وتصيء، أي: تصيح. يضرب للظالم في صورة المتظلم، والمثل قديم في العامية.

انظر: الأمثال العامية، لتيمور: (٣٦٥). (عمرو)

الجزاء بسجن أو عذاب= تمويه على العزيز، ومحاولة إفهامه أن ذلك أمر وقع من يوسف، وأن جزاءه على ذلك أمر لا يصحّ أن يكون موضع مناقشة أو جدل، بل هو أمر مفروغ منه، وقولها: ﴿بِأَهْلِكَ﴾ استفزاز للعزيز، وإشعال لنار الغيرة في نفسه؛ لأنَّ فتاه أراد سوءًا بأهله، ولو قالت: ما جزاء من أراد بي سوءًا= لفات ذلك الغرض، وهو محاولة إلهاب العزيز والتأثير عليه، وتلفتنا الآية من جهة أخرىٰ إلىٰ أن امرأة العزيز كانت صاحبة سلطان عليه ودلال، حتىٰ اجترأت أن تُحدِّد الجزاء وتقترح علىٰ زوجها أحد أمرين: السجن، أو العذاب الأليم.

ولو أنَّ امرأة العزيز كانت امرأة عادية لأبلغته الحادث مجردًا عن تحديد العقوبة، فبادرت إلىٰ ذلك القول لتري العزيز أنها غاضبة للشرف والكرامة اللذين يحميهما ويذود عنهما، ولتشفي صدرها باقتراح عقوبة في اعتقادها أن العزيز ينزل علىٰ رأيها فيها، وفي اعتقادها أن أمثال هذه التهمة لا تحتاج إلىٰ بحث وتحقيق؛ لأنَّها تتعلق بشرف العزيز وأهله، فليس بعد البلاغ إلا العقوبة، وفاتها أن هناك إلهًا يرقبها، وربًّا هو لها بالمرصاد، وأن ذلك الإله ادخر لمن أطاعه في وقت الشدة، وجاهد في سبيل دينه وخلقه ما شاء الله أن يجاهد ما يخلِّصه منها وضاءَ الجبين أبيض الصحيفة، وأنه سيقيِّض له من أقاربها ما يشهد ببراءة يوسف من ذلك الجرم الذي حاولت إلصاقه به، وسيقيض لها من النسوة كذلك من يشهد هذه الشهادة، وستعترف هي ببراءة يوسف ممَّا نسبته إليه من إرادة السوء بها، وستقول هي للنسوة أنا ﴿رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾، وهكذا ينتصر حق يوسف علىٰ باطل امرأة العزيز، ويبوء بالعزة والكرامة، وتبوء هي بالخزي وسوء السيرة ﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾، أي بعد أن قالت فيه ما قالت واتهمته عند زوجها بأنه أراد بها سوءًا، واقترحت علىٰ العزيز عقوبة، وحاولت إلهاب نفسه بذلك الأسلوب الذي بيناه، عند ذلك لم يجد بُدًّا من أن يقول الحق، وهي أنها راودته عن نفسه، وهي كلمة جريئة من خادم لسيده أمام مخدومته، من شأنها أن تصدر من قلب مؤمن مطمئن، ومن شأنها أن تدل علىٰ صدق قائلها، ولو كان يوسف علىٰ ريبة من جهة نفسه ما استطاع أن يواجه امرأة العزيز في حضرة زوجها بذلك القول، وأن يبهتها ذلك البهت، ولكنه الحق لا يخشىٰ باطلًا، ولا يعمل حسابًا لشيء، ولا يحابي ولا يداجي، ظهر علىٰ لسان فتىٰ خادم، ضدّ سيدة مخدومة

مطاعة في بيتها وأبهتها وعظمتها، تستطيع أن تدبر لذلك الخادم من أنواع التنكيل والعذاب ما شاء لها الهوىٰ، وسوّلت لها النفس.

لم يبالِ يوسف بكل ذلك، بل قال الحق، والحق أحق أن يقال، ولو أنَّ امرأة العزيز لم تبادر يوسف بتلك التهمة أمام زوجها لاستحىٰ يوسف أن يقول ما قال لزوجها، ولكتم عليها تلك الفعلة، ولكنَّها بدأت، والبادئ أظلم، بدأت فقالت فيه الباطل، فاضطر أن يقول فيها الحق.

(٤) ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ . . . إلخ، كثر كلام المفسرين في ذلك الشاهد أكان رجلًا أم صبيًّا، ورجَّح الرازي في تفسيره الكبير أنَّه كان رجلًا[١] لوجوه:

- **الأول:** أنَّ الله -تعالىٰ- لو أنطق الطفل بذلك الكلام= لكان مجرّد قوله إنَّها كاذبة برهانًا علىٰ كذبها، أمَّا الاستدلال بما في قوله من المنطق، من قدّ القميص من قُبُل ومن دُبُر فلم يكن محتاجًا إليه.

- **الثاني:** قوله من أهلها؛ فإنَّها سيقت لتقوية الشهادة، ولا يصار إلىٰ هذه التقوية إلا حيث كان الشاهد رجلًا، ولو كان صبيًّا في المهد لكان قوله حجة، ولم يبقَ لهذا القيد فائدة.

- **الثالث:** أنّ لفظ الشاهد لا يقع إلا لمن تقدّمت له معرفة بالواقعة؛ وإحاطة بها، وذلك لا يكون إلا من رجل.

والذي حمل المفسرين علىٰ ذلك ولوعهم بالغريب، وورود حديث ينسبه المفسر **أبو السعود** لـ «**الحاكم**»، وفيه: «**تَكَلَّمَ أَرْبَعَةٌ وَهُمْ صِغَارٌ: ابن مَاشِطَةِ بنت فِرْعَوْنَ، وَشَاهِدُ يُوسُفَ، وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ، وَعِيسَىٰ** عليه السلام»[٢]، وتصحيح الحاكم إذا تفرَّد به لا يوثق به عند المحدّثين[٣]؛ فإنَّ من عادته أن يتساهل في التصحيح، فيصحح الضعيف.

---

(١) ورجح الطبري كونه صبيًا في المهد، فقال: «والصواب من القول في ذلك، قول من قال: كان صبيا في المهد؛ للخبر الذي ذكرناه عن رسول الله ﷺ أنه ذكر من تكلم في المهد، فذكر أن أحدهم صاحب يوسف»، التفسير: (١٣/ ١١١). والمسألة خلافية كما ذكر.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك: (٢/ ٥٣٨)، (٣٨٣٥)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي. (عمرو)

(٣) انظر: مقدمة ابن الصلاح: (٨٩)، قال: «واعتنىٰ الحاكمُ أبو عبدِ اللهِ الحافظُ بالزيادةِ في عددِ =

وعندي أنَّ ذلك الشاهد هو رجل كما رأىٰ **الفخر** نقلًا عن جماعة من المفسرين، وأنَّ الحجة في منطق الشاهد وتحكيمه العقل في شهادته، وفراسته في تحقيق الحق من قولهما؛ إذ يقول: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ . . . إلخ؛ لأنَّ الهاجم علىٰ المرأة وهي تدافعه إنما يظهر أثر دفاعها في مقدم قميصه، والهارب من المرأة العالقة بثوبه إنما يظهر أثر ذلك في ثوبه من الخلف، لأنَّه يكون مستدبرًا لها وهي تجاذبه من خلف، فظهر صدق يوسف وكذب امرأة العزيز حينما رأوا قميصه قد من دبر، فعاد العزيز علىٰ امرأته باللوم، وقال: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾، وأمر يوسف بكتمان الخبر، وأمرها بالاستغفار لذنبها، وجزم بأنها مخطئة فيما صنعت.

ذلك هو المنطق الذي امتازت به شهادة ذلك الشاهد، وتَبين به الحق للعزيز، أما كونه من أهلها؛ فلأنَّ الشأن في أمثال هذه الحوادث أن يطلع عليها أهل المرأة أولًا، وتكون محصورة فيهم؛ لأنَّها مسألة تتعلق بالأعراض، ومن شأن الأهل أن يحرصوا علىٰ كتمانها جهد المستطاع، ويروىٰ أن ذلك الشاهد كان مع العزيز عند وصوله إلىٰ الباب، وقيل: إنه كان بالبيت مختفيًا لم يشعر به أحد، وسواء صح ذلك أم لم يصح؛ فإنَّ المهم شهادته وما فيها من حجة ومنطق.

= الحديثِ الصحيحِ علىٰ ما في الصحيحينِ، وجَمَعَ ذلكَ في كتابٍ سمَّاهُ «المستدركَ» أودَعَهُ ما ليسَ في واحدٍ مِنَ «الصحيحينِ» ممَّا رآهُ علىٰ شرطِ الشيخينِ قدْ أخرجا عنْ رواتِهِ في كتابَيْهِما، أو علىٰ شرطِ البخاريِّ وَحْدَهُ، أو علىٰ شرطِ مسلمٍ وحدَهُ، وما أدَّىٰ اجتهادُهُ إلىٰ تصحيحِهِ وإنْ لَمْ يكُنْ علىٰ شرطِ واحدٍ منهما.

وهوَ واسعُ الخَطْوِ في شرطِ الصحيحِ، متساهِلٌ في القضاءِ بهِ.

«فالأَوْلَىٰ أنْ نتوسَّطَ في أمرِهِ فنقولَ: مَا حَكَمَ بصِحَّتِهِ وَلَمْ نَجِدْ ذلكَ فيهِ لغيرِهِ مِنَ الأئمَّةِ، إنْ لَمْ يكُنْ مِنْ قَبِيلِ الصحيحِ فَهوَ مِنْ قَبيلِ الحسنِ يُحتجُ بهِ ويُعْملُ بهِ، إلاَّ أنْ تظهرَ فيهِ عِلَّةٌ تُوجِبُ ضَعْفَهُ». وانظر: الفتاوىٰ الكبرىٰ، لابن تيمية: (٢/ ١٧٥)، وقاعدة جليلة: (١٨٢)، (١٨٤)، وقال: «ولهذا كان أهل العلم بالحديث لا يعتمدون علىٰ مجرد تصحيح الحاكم، وإن كان غالب ما يصححه فهو صحيح، لكن هو في المصححين بمنزلة الثقة الذي يكثر غلطه، وإن كان الصواب أغلب عليه. وليس فيمن يصحح الحديث أضعف من تصحيحه». (عمرو)

وأن ما شهد به ذلك الشاهد علىٰ حادث امرأة العزيز مع يوسف= يصلح أساسًا للتحقيقات الجنائية التي يقوم بها ضباط المباحث ورجال النيابات عندما يريدون أن يقفوا علىٰ حقيقة واقعة من الوقائع، ويتبينوا وجه الصواب في المسألة والأخذ بالقرائن وتحكيم العقل في الحوادث والجنايات هو شأن الناس في كل زمان، وقد تقدم ذلك النوع من تحكيم القرائن، وأصبح له شأن كبير حتىٰ أنشأوا له في مصر وغيرها وظائف، وأعدوا له ما يلزم من معدات، وكم كشف ذلك النوع عن مخبآت، وفضح من أستار جنايات، وأعان القضاء علىٰ أداء مهمته، وسهل له المضي في عمله.

وإنَّك لترىٰ للمحققين أساليب باهرة عند شروعهم في تحقيق قضية، وترىٰ رجال المحاماة قد برعوا في توجيه أسئلة للشهود تكشف من القضية كل غامض، وتزيل منها كل لبس، ممَّا يجعل الحق واضحًا أبلج، والباطل كاسفًا لجلج، ولو أنَّك ذهبت إلىٰ قاعات المحاكم الجنائية لرأيت من ذلك النوع ما يثلج صدرك، ويُطَمئن نفسك، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ الضمير فيه لما حصل من امرأة العزيز مع يوسف حيث خانت زوجها، واتهمت يوسف بأنَّه طلب منها الفاحشة ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾، أي: معاشر النساء؛ لأنَّكنَّ ألطف حيلة، وأعظم كيدًا.

قال بعض العلماء: إنِّي أخاف من النساء أكثر ممَّا أخاف من الشيطان؛ لأنَّ الله -تعالىٰ- قال: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾، وقال: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦][(١)].

وعندي أنَّ الله -تعالىٰ- وصف كيد الشيطان بالضعف؛ لأنَّ من استولىٰ عليه الشيطان، أو طاف حوله طائف منه يذهب عنه الشيطان عند تذكره لربه ورجوعه إليه، ولذلك يوصف الشيطان بالخنَّاس، الذي يخنس وينقبض كلما ذكر

---

(١) الكشاف للزمخشري: (٢/ ٤٦١)، فتوح الغيب: (٨/ ٣١٠).

وهي مسألة خلافية، والصحيح فيها: أن الله تعالىٰ لم يذكر كيد النساء في مقابلة كيد الشيطان، وإنما ذكرها في مقابلة كيد الرجال، فكيد المرأة أقوىٰ من كيد الرجل، وللرجال كيد أيضًا .. أما أن يكون أكبر من كيد الشيطان فلم تصرح به النصوص.

(عمرو)

اسم الله -تعالىٰ-، ولذلك يقول في شأنه: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٩]، فالشيطان ضعيف في كيده لا يسلط إلا علىٰ ضعيف الإيمان الذي لم يعتصم بربه وخالقه، وإن ذلك الكيد عظيم في ذاته، باعتبار أثره وعاقبته.

أما كيد النساء فهو عظيم في ذاته، وهو لم يصل إليهن إلا بواسطة تسويل الشيطان لهن، ولولا أنه ينفخ في أوداجهن، ويغريهن بالفاحشة ما فَعَلْن فِعْلهن، وكل امرأة فاسقة معها شيطان أو شياطين، يزين لها الفاحشة، ويتلمس لها طريق الخلاص منها، فالشيطان هو الذي أغراها حتىٰ طلبت من يوسف الفاحشة، والشيطان هو الذي عظَّم في عينها امتناع يوسف وتأبِّيه عليها، وقال لها كيف يكون خادمًا لك ثم يمتنع عليك ذلك الامتناع، ولولا شيطانها ما ألصقت بيوسف أنه أراد بها سوءًا، ولشكرته علىٰ عفته، واستخلصته لنفسها لأمانته كما طلبه الملك بعد ظهور براءته، وقال: ﴿ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾، وقال له: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾.

وقد راجعتُ **النيسابوري** بعد الفراغ من التعليق الذي علقته علىٰ قول بعض العلماء، وإذا هو يقول: وأقول لا شك أن القرآن كلام الله، إلا أن هذا حكاية قول الشاهد فلا يثبت به ما ادعاه ذلك العالم، ولو سلم فالمراد أن كيد الشيطان ضعيف بالنسبة إلىٰ ما يريد الله -تعالىٰ- إمضاءه وتنفيذه، وكيد الشيطان ضعيف بالنسبة إلىٰ كيد الرجال؛ فإنَّهن يغلبنهم ويسلبن عقولهم إذا عرضن أنفسهن عليهم، ولهذا قال ﷺ: **«النساء حبائل الشيطان»**[(١)]. (اهـ)[(٢)].

وجملة القول: إنَّ كيد النساء جزء من كيد الشيطان، وهو عظيم الخطر، كبير الأثر، لأنَّه كيد فيما يتعلق بالأعراض، وما كان من ذلك النوع فهو جد خطير، وإن كيد الشيطان قد وصفه الله بالضعف؛ لأنَّه يعتمد الباطل، ويعول علىٰ زخرف القول، كقول الرجل البخيل لك: «احرص علىٰ مالك، ولا تضعه، فإن الرجل إنما يكون رجلًا بالمال، ومن ليس معه قرش لا يساوي قرشًا»، يحاول

---

(١) ضعيف، انظر: السلسلة الضعيفة، للألباني: (٥/ ٨٠)، (٥/ ٤٨٣). (عمرو)

(٢) تفسير النيسابوري: (٤/ ٨١). (عمرو)

بذلك أن يصرفك عن بذل المال في وجوه الخير، وهو كما يقول الله في شأن الشيطان الذي يأمر بالشح: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨]، فكيده لا يعدو أن يكون تضليلًا، وكيدٌ ذلك حاله هو كيدٌ ضعيف، ومن ناحية أخرىٰ فإن أول الآية يطالب بالجهاد والشجاع، ويقوي قلوب المؤمنين، ويرينا الفرق بين قتال المؤمنين وقتال الكافرين، وأن المؤمنين يقاتلون في سبيل الله، وأن الكافرين يقاتلون في سبيل الطاغوت والباطل، ويحرض المؤمنين أن يقاتلوا أولياء الشيطان وأنصاره؛ لأنَّهم لا قلب لهم، فهم ضعفاء العقيدة ضعفاء النفوس، لا يؤمنون بعاقبة، ولا يدينون دين الحق ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]، ولا شكَّ أنَّ براءة يوسف من تهمة امرأة العزيز أمام زوجها وأمام ذلك الشاهد، وقوله لها: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ﴾ . . . إلخ هي أول شهادة ليوسف عليه السلام بالبراءة، من رجل حاولت امرأة العزيز أن تؤلبه عليه، وتثير فيه عاطفة الغيرة، وتريه أن يوسف الذي أمر بإكرام مثواه أراد بأهله سوءًا، ولذلك عقبه بقوله: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾، أي: دع هذا الحديث، ولا تذكره؛ لئلا يفشو بين الناس، أو: لا تكترث بهذا الأمر وتتأثر به، ثم التفت إليها وقال: ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ أمرها بالاستغفار من ذنبها.

ثم علل ذلك بأنَّها كانت في عملها هذا مع يوسف من جملة الخاطئين، وحكاه بصيغة التأكيد لأنه وثق من صدق يوسف، وكذب امرأته، ولا سيما بعد شهادة الشاهد.

وفيه دليل علىٰ أن العزيز حليم قليل الغيرة، إذ لم يزد علىٰ ذلك مع امرأته، ولذلك كثرت الإشاعة حتىٰ اتهمها نساء المدينة بأنها راودته عن نفسه(١).

(١) قال ابن تيمية: «زوجها كان قليل الغيرة أو عديمها، وكان يحب امرأته ويطيعها؛ ولهذا لما اطلع علىٰ مراودتها قال: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾، فلم يعاقبها، ولم يفرق بينها وبين يوسف حتىٰ لا تتمكن من مراودته، وأمر يوسف أن لا يذكر ما جرىٰ لأحد؛ محبة منه لامرأته، ولو كان فيه غيرة لعاقب المرأة». مجموع الفتاوىٰ: (١٥/ ١١٩). (عمرو)

(٥) ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ . . . إلـــخ، لما شاع أمر يوسف تحدث به النسوة، وخاضوا في شأن امرأة العزيز وضعفها أمام شهوتها، وقالوا إنها تراود فتاها -وهو الشاب الحديث السن- ﴿عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾، أي: شق شغاف قلبها -وهو حجابه- حتىٰ وصل إلىٰ فؤادها، و(حبًا) منصوب علىٰ التميز المحوّل عن الفاعل؛ أي: شق حبه شغاف قلبها حتىٰ وصل إلىٰ الفؤاد، وذلك أشد أنواع الحب ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾؛ لأنَّه لا يليق بها وهي امرأة العزيز، وفي ذلك البيت الكبير أن تنزل إلىٰ ذلك المستوىٰ الذي لا يليق بمثلها، وهو مراودة الفتىٰ، فإنَّ اللائق بمثل امرأة العزيز أن تكون في عفة وعزة، ولم تكتف النسوة بوصف امرأة العزيز بالضلال، بل وصفته بأنه بيِّن وواضح. لا يشك فيه أحد ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ . . . إلخ، لما بلغ امرأة العزيز ما قاله النسوة وخوضهن في قصتها، والمكر هنا الغيبة، وسُمِّيت مكرًا لما فيها من الخفاء، وقيل إن امرأة العزيز استكتمت النسوة أمرها فأفْشَينه عليها، لما سمعت امرأة العزيز قول النسوة فيها: ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ هيَّأت لهن ما يتكئن عليه من نمارق ومساند، ويتبع ذلك إعداد طعام يُقدَّم لهنّ، ويطلق (المتكأ) علىٰ نفس الطعام، فإنَّ كل من دعوته ليطعم من عندك فقد أعددت له وسائد يجلس ويتكئ عليها، فيكون الطعام متكأ علىٰ سبيل المجاز، وسواء أكان المتكأ هو ما يتكأ عليه عند الطعام والشراب أو نفس الطعام، فإن المآل واحد، فإن امرأة العزيز أعدت طعامًا وفيه ما يقطع من لحم وفاكهة ﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ علىٰ ما هي العادة في أطعمة المتمدينين من قدماء المصريين، فلما أخذن يأكلن وأمسكت كل واحدة بسكينها انتهزت تلك الفرصة، ﴿وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ يا يوسف، وهو لا يعصىٰ لها أمرًا ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ﴾، أي: رأىٰ النسوةُ يوسف ﴿أَكْبَرْنَهُۥ﴾ أعظمنه، ودُهِشن عند رؤيته؛ لذلك الحسن الرائق والجمال الفائق، كما شاهدن فيه مهابة وهيبة وعدم التفات إلىٰ الشهوات من النساء والمطاعم، وإذا كان الجمال مقرونًا بهذه الصفات حُق للنسوة أن يهبنه ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ أخذن يقطعن أيديهن بالسكاكين التي معهن، وهن يظننَّ أن يقطعن ما معهن من طعام أو فاكهة، أذهلهن جمال يوسف وكماله عن نفسهن، فلم يشعرن بأن التقطيع في الأيدي أو فيما معهن من الطعام ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ معاذ

الله ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾، أي: تنزيهًا لله أن يخلق هذا بشرًا؛ لأنّا لم نعهد في البشر ذلك الجمال والكمال، ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾، وحين ذاك وصلت امرأة العزيز إلىٰ ما كانت تقصد من دعوة النساء للطعام، ونجحت في تلك الوليمة التي أعدتها للنساء الخائضات في شأنها مع فتاها.

﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾، أي: ذلك الفتىٰ الغريب في حسنه، البعيد في مكانته، الخارق للعادة في صفاته، هو الفتىٰ الذي صوَّرتن في أنفسكن، وفهمتن أنه فتىٰ عادي كبقية الفتيان، وقلتن في أنفسكن إنها امرأة ضعيفة أمامه لم تستطع ضبط نفسها، ولا ملك عواطفها من جهته، وقد مر عليكن -لأول مرة- فذهلتن عن أنفسكن، ونسيتن أن في الأيدي سكاكين تشتغل بقطع الطعام ولذائذ الفاكهة، فقطعتن أيديكن، وقلتن: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾، فلماذا لا تعذرنني فيما فعلت، وقد أمضيت معه زمنًا طويلًا، أطالع جماله، وأرىٰ حسنه في كل وقت من أوقات الخدمة؟ وحين ذاك اشترك معها النسوة في محبة يوسف، وإكبار يوسف، فلم تبق فريدةً في تلك المحبة، وإن كانت المحبة تتفاوت، فإن المحبة التي مضىٰ عليها زمن طويل تختلف اختلافًا كبيرًا عن المحبة التي حدثت.

وما دامت النسوة قد اشتركن مع امرأة العزيز في محبة يوسف وإكباره، أو ما دامت النسوة قد علمن من حسن يوسف وجماله ما تُعذَر فيه امرأة العزيز، فلا تحتشم أن تصارحهم بالأمر، وتكاشفهم بالحقيقة، وتقول لهم: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾، وهي شهادة من امرأة العزيز بصدق يوسف فيما قال لزوجها، وبراءته ممَّا اتُّهم به، وليست هذه شهادة عادية، بل هي شهادة لها شأنها وقيمتها؛ لأنَّها شهادة ممن اتهمته بإرادة السوء وهي امرأة العزيز، وهي خصم في قضية الاتهام، والفضل ما شهدت به الأعداء، وقولها: ﴿فَٱسْتَعْصَمَ﴾، ولم تقل: «فامتنع»؛ لتدلنا علىٰ أن يوسف كان شديدًا في امتناعه، كما تدل عليه الصيغة؛ فإنَّ الاستعصام بناء مبالغة يدل علىٰ الامتناع البليغ والتحفظ الشديد، كأنَّه في عصمة، وهو يجدّ في الاستزادة منها، ونحوه: استمسك، واستجمع الرأي، واستفحل الأمر.

والعجيب لبعض المفسرين ينسبون ليوسف ﷺ من الأكاذيب ما تنزهه منه التي اتهمته وهي امرأة العزيز، وكأنهم أصبحوا خصمًا ثانيًا ليوسف ﷺ يحاولون بشتىٰ الأساليب أن ينسبوا إليه ما هو منه براء، ويا ليتهم كانوا في إنصافهم كامرأة العزيز، بل كانوا أقل منها إنصافًا.

ومن عجيب أمرهم أن يقبلوا في قصة يوسف ما صح وما لم يصح من الروايات، ذاهلين عن أنه فتىٰ أعده الله؛ لأنَّ يكون رسولًا، وهيأه لأن يكون قدوة صالحة، ومثالًا يُحتذىٰ في العفة والأمانة، يجب أن يُهَذَّب بذلك المثل العملي النساءُ والرجال، ونسُوا أن العبرة في قصة يوسف مع امرأة العزيز أنه شاب من أجمل الشبان صورة، وأكملهم بنية، يخلو بامرأة ذات منصب وسلطان، هي سيدة له وهو عبد لها، فيحملها الافتتان بجماله وكماله علىٰ أن تذل له، وتخون بعلها، وتدوس شرفها، وتراوده عن نفسه، والمعهود في أدنىٰ النساء تربية ومنزلة أن يكن مطلوبات لا طالبات، فيُسمِعها يوسف من حكمته، ويريها من كماله وعصمته ما هو أفضل قدوة في الإيمان بالله والاعتصام به، وفي حفظ أمانة السيد الذي أحسن مثواه، وائتمنه علىٰ عرضه وشرفه، ويقول لها: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ﴾ فتشعر بالذلة والمهانة، والتفريط بالشرف والصيانة، فتهم بضربه أو قتله، ويهم هو بالدفاع عن نفسه، ويكاد يحصل ما لا تحمد عقباه من جراء ذلك النزاع ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾.

فكيف يتفق ذلك وما قاله المفسرون من أقوال منكرة، وما نسبوه إليه من روايات مختلفة، ولكن الله -تعالىٰ- تكفل ببراءة يوسف علىٰ يد العزيز بعد شهادة الشاهد، وتكفل ببراءة يوسف علىٰ لسان امرأة العزيز نفسها أمام النسوة، وهي شهادة لها قيمتها في المسألة؛ لأنها الخصم ليوسف ومصدر اتهامه.

(٦) لما شعرت امرأة العزيز بأن النسوة عذرنها في شغفها بيوسف، واشتركن معها في إكبار ذلك الجمال= اعترفت أمامهن بأنَّها التي راودته عن نفسه فاستعصم، ولم ترد أن تقف عند ذلك الحد، بل أصرت علىٰ التمادي في الباطل، فقالت: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾، قلنا: فيما تقدم أن حبها ليوسف قد وصل بها إلىٰ حد الجنون، ولولا ذلك ما أصرت علىٰ

مطالبة يوسف بالفاحشة، وما تجرأت علىٰ هذه الكلمة في جمع من النسوة.

ولعل الذي هون عليها ذلك أنَّها أمنت أمر النساء؛ لأنهن أصبحن شريكات لها في محبة يوسف، أو عاذرات لها في تلك المحبة، ورأت من زوجها العزيز سهولة وليـنًا؛ إذ كل ما قاله لها عند ظهور كذبها وصدق يوسف ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَاۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾.

وإذا كان زوجها من اللين وعدم الغيرة إلىٰ ذلك الحد، والنسوة اللاتي تكلمن في شأنها قد أمِنَتهن أن يتكلمن فيها مرة ثانية، وهي امرأة العزيز صاحب خزائن الملك، وهي السيدة المطاعة، ويوسف فتاها وخادمها، فلماذا لا تبقىٰ علىٰ طمعها فيه، ورجائها في الحصول علىٰ غايتها وقد خاطبت يوسف أول مرة بقولها: ﴿هَيْتَ لَكَۚ﴾، أي: بأسلوب لين هين، فيه إغراء للمطلوب، فلم يجبها يوسف إلىٰ ما طلبت، فرأت أن تلوّن له الخطاب، وتغير له الأسلوب، فخاطبته خطاب المهدد المتوعد، وقالت: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾، وهنا كشفت القناع عن أنها صاحبة الأمر والنهي، وأن أمر السجن والتعذيب في يدها وتحت سلطانها، فأقسمت للنسوة إن لم يفعل يوسف ما تريده منه لا بُدَّ أن يسجن ويحشر مع الأذلاء، من اللصوص وسفاكي الدماء وأصحاب الجرائم.

ماذا كان من يوسف؟

﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِۖ﴾[1] جواب رجل أعده الله؛ لأنَّ

---

(١) وفي قول يوسف: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ عبرتان:

إحداهما: اختيار السجن والبلاء علىٰ الذنوب والمعاصي.

والثانية: طلب سؤال الله ودعائه أن يثبت القلب علىٰ دينه ويصرفه إلىٰ طاعته، وإلا فإذا لم يثبت القلب صبا إلىٰ الآمرين بالذنوب وصار من الجاهلين.

ففي هذا توكل علىٰ الله واستعانة به أن يثبت القلب علىٰ الإيمان والطاعة. وفيه صبر علىٰ المحنة والبلاء والأذىٰ الحاصل إذا ثبت علىٰ الإيمان والطاعة.

ولا بد من أذىٰ لكل من كان في الدنيا، فإن لم يصبر علىٰ الأذىٰ في طاعة الله، بل اختار المعصية = كان ما يحصل له من الشر أعظم مما فر منه بكثير. =

يكون نبيًا، وهيأه لأن يكون زعيمًا دينيًا، جوابٌ ما أبرده علىٰ قلب المؤمن، وأحبه إلىٰ نفسه، يقول يوسف فيه مخاطبًا لربه ومولاه وصاحب الفضل الأول عليه: إنَّ السجن -علىٰ ما فيه من شظف العيش، وخشونة الفراش، وحيلولة بين الرجل وبين الحياة- هو أحبُّ إلىٰ نفسي ممَّا يدعونني إليه؛ لأنَّهُنَّ يدعونني إلىٰ عصيانك، والخروج علىٰ طاعتك، وامتهان النفس، وضياع الخلق والكرامة، وضعف الإرادة، فأنا أفضل أن أعيش في السجن متحملًا ما فيه من تعذيب علىٰ ما يدعونني إليه من عصيانك، والفسوق عن أمرك.

وإنَّها لعبرة عظيمة من نبي الله يوسف، ترينا كيف يُؤثرُ الإنسانُ غليظ العيش علىٰ ناعمه ما دام ذلك العيش الناعم من ورائه ضرر يتعلق بالخلق أو النفس، ومن حق الزعماء أن يكثروا من قراءة هذه الجملة عندما يعاملهم الغاصب معاملة امرأة العزيز ليوسف، حينما طلبت منه ما لا يليق بخلقه وكرامته، وتوعدته إن لم يجبها إلىٰ ما طلبت أن يسجن، أو يعذب العذاب الأليم، فقال لها: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾، فإذا كانت امرأة العزيز تملك سجني؛ فإنَّها لا تملك خلقي وكرامتي، وإذا كانت تستطيع أن تعذب جسمي؛ فإنَّها لا تملك أن تعذب روحي ونفسي.

وكذلك المستعمرون إذا طلبوا من الزعماء أمرًا يضر بمصالح بلادهم، ويعود عليها بالشر، كأن يطلبوا منهم أن يسكتوا عن المطالبة بالجلاء، أو يقدموا

= ومن احتمل الهوان والأذىٰ في طاعة الله علىٰ الكرامة والعز في معصية الله. كما فعل يوسف ﷺ وغيره من الأنبياء والصالحين، كانت العاقبة له في الدنيا والآخرة. وكان ما حصل له من الأذىٰ قد انقلب نعيمًا وسرورا، كما أن ما يحصل لأرباب الذنوب من التنعم بالذنوب ينقلب حزنا وثبورا.

فيوسف ﷺ خاف الله من الذنوب. ولم يخف من أذىٰ الخلق وحبسهم إذا أطاع الله. بل آثر الحبس والأذىٰ مع الطاعة علىٰ الكرامة والعز وقضاء الشهوات ونيل الرياسة والمال مع المعصية. فإنه لو وافق امرأة العزيز نال الشهوة وأكرمته المرأة بالمال والرياسة، وزوجها في طاعتها. فاختار يوسف الذل والحبس وترك الشهوة والخروج عن المال والرياسة مع الطاعة، علىٰ العز والرياسة والمال وقضاء الشهوة مع المعصية.

بل قدم الخوف من الخالق علىٰ الخوف من المخلوق وإن آذاه بالحبس والكذب فإنها كذبت عليه؛ فزعمت أنه راودها ثم حبسته بعد ذلك.

مجموع الفتاوىٰ: (١٥/ ١٣٠). (عمرو)

لهم مصالح البلاد لقمة سائغة، وهددوهم إن لم يصيخوا لأمرهم أن يضعوهم في السجن، أو يعذبوهم العذاب الأليم، فليقولوا لهم ما قال يوسف: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾؛ لأنَّ السجن لا يضيع حقًّا، بل يثبته، ولا يزعزع عقيدة، بل يقويها ويؤيدها، والسجن سكن العظماء، ومأوىٰ المصلحين، وأرباب المبادئ.

وكم أعان السجن علىٰ حق، ومحّص من نفوس، وأعدها لأن تكون قوية مستعدة للطوارئ والأحداث، وكم خلق السجن لأنصار الباطل أعداءً، ولأنصار الحق أولياءً، ولحزب الشيطان قوة لا قبل لهم بها، وما من مبدأ من المبادئ إلا وهو في حاجة إلىٰ ما ينميه، ويضع فيه إكسير الحياة، ولا شيء أنفع للمبادئ من اضطهادها، وللعقائد من الفتن التي تمر بأصحابها.

﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ فزعٌ من يوسف إلىٰ الله -تعالىٰ- في ذلك الوقت العصيب، ورجوع إليه في وقت اشتدت فيه ظلمات الفتنة، واستفحل أمر النسوة، وكاد أن يطغىٰ فيه حزب الشيطان علىٰ حزب الرحمن، فخلا الجو لامرأة العزيز، وأمنت كلام النسوة، واطمأنت من جهة زوجها؛ لأنَّها جرَّبت عليه ضعف الغيرة، فهددت وتوعدت، وأرغت وأزبدت، وقالت له بلغة الآمر الذي لا يخالَف: إنك إن لم تفعل ما آمرك به سجنتك وعذبتك، وأنزلتك من ذلك البيت الرفيع إلىٰ درجة المجرمين، فيخاطب ربه بأن السجن أحب إليه ممَّا يدعونه إليه، ثم يلجأ إليه أن يصرف عنه كيدهن بلطفه وتدبيره، وأنه إن لم يفعل الله -وهو فاعل ولا بد- يميل يوسف إليهن ويدخل في عداد الجاهلين الذين لا يعملون بما يعلمون، وهو في معنىٰ الدعاء من يوسف في وقت الشدة.

وجديرٌ بمن دعا ربه في ذلك الوقت ليخلصه من محنته، وينقذه من فتنته، ولا هم له من طلب الخلاص إلا إرضاء ربه، والوقوف عند حدوده، جدير بمن لجأ إلىٰ ربه في ذلك الوقت أن يستجيب الله دعوته، ويعطيه ما طلب، ولذلك قال: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾، ثم علّل ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، فهو سميع لأقوال يوسف، عليم بما يريد ويقصد، وكذلك هو سميع

لامرأة العزيز، عليم بجبروتها وسلطانها، وفتنتها ليوسف بوسائل مختلفة، فمرة تحاول الوقيعة بينه وبين العزيز، وتقلب الحق باطلًا، والباطل حقًا، وتريه أنَّه أراد سوءًا بأهله، وجزاؤه في ذلك: السجن أو العذاب الأليم، ومرة تقول للنسوة علىٰ مسمع من يوسف: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾، ونسيت أنَّ هناك إلهًا يعلم سرها ونجواها، ويدبر ليوسف الخير كما تدبر له الشرّ، وأن تدبيره فوق تدبيرها؛ لأنَّ تدبيرها إلىٰ فساد، وتدبيره إلىٰ صلاح.

وقد نسب يوسف المكر إلىٰ النسوة جميعهن في قوله: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ﴾؛ لأنَّهن شاركن امرأة العزيز في محبته والتولّه به، أو لأنَّهن عذرنها في محبتها، وطلبن منه أن يطيعها، وزيَّنَّ له مطاوعتها، وقلن له إياك وإلقاء نفسك في السجن والصغار.

وعندي أنَّ يوسف قد نسب المكر إلىٰ النسوة جميعًا مع أن الماكر به امرأة العزيز وحدها؛ لأنَّ مكر المرأة الواحدة ينسب إلىٰ الصنف كله، فهو مكر لصنف النسوة، أو للإشارة إلىٰ أن مكرها بلغ من عظم أثره أن صار مكرًا للنساء جميعهن، فهو كيد امرأة واحدة فيظاهر الأمر، ولكنه في معنىٰ مكر الجماعة.

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ الضمير في (لهم) للعزيز وأهله؛ أي: ظهر للعزيز وأهله من بعد ما رأوا الآيات الدالَّة علىٰ صدق يوسف، وبراءته ممَّا نسب إليه أن يسجنوه إلىٰ زمان، وذلك أنَّها أفهمت العزيز أن بقاء يوسف في البيت قد يكون سببًا في إشاعة الفاحشة، وفي فضيحة العزيز، فوضعه في السجن أعون علىٰ الستر، وفي الوقت نفسه تري يوسف أنَّها استطاعت أن تنفذ وعيدها معه، وتجعله في السجن؛ لأنَّ ذلك الوعيد لم يعلم به العزيز، وإنَّما كان بمحضر النسوة علىٰ مسمع من يوسف، فتم لها ما أرادت، وتغلبت علىٰ العزيز وألقت يوسف في السجن، وهي مع ذلك لا تزال طامعة فيه، ممنِّية نفسها بذلك الوقت الذي يرسل لها فيه أنه علىٰ استعداد لإجابة طلبها، والنزول علىٰ إرادتها، وحين ذاك يصدر الأمر العزيزي بإخراج يوسف من السجن، ونسيت قوله: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾، وأن يوسف أبعد من ذلك كله غرضًا، وأعلىٰ نفسًا، وأصلب عودًا، وهيهات أن يلين لامرأة شهوانية همها في

قضاء حاجتها، ورضاؤها في الحصول علىٰ مأربها، هيهات أن يؤثر يوسف مرضاة امرأة علىٰ مرضاة ربه، ونعيمًا زائلًا علىٰ نعيم مقيم[1].

---

(١) قال ابن القيم: «أخبر [القرآن] عن عشق امرأة العزيز ليوسف وما راودته وكادته به، وأخبر عن الحال التي صار إليها يوسف بصبره وعفته وتقواه، مع أن الذي ابتلي به أمر لا يصبر عليه إلا من صبره الله عليه. فإن موافقة الفعل بحسب قوة الداعي وزوال المانع، وكان الداعي ها هنا في غاية القوة، وذلك من وجوه:

أحدها: ما ركبه الله سبحانه في طبع الرجل من ميله إلىٰ المرأة كما يميل العطشان إلىٰ الماء والجائع إلىٰ الطعام، حتىٰ إن كثيرا من الناس يصبر عن الطعام والشراب ولا يصبر عن النساء. وهذا لا يذم إذا صادف حلا بل يحمد.

الثاني: أن يوسف ﷺ كان شابا، وشهوة الشباب وحدته أقوىٰ.

الثالث: أنه كان عزبا ليس له زوجة ولا سرية تكسر شدة الشهوة.

الرابع: أنه كان في بلاد غربة يتأتىٰ للغريب فيها من قضاء الوطر مالا يتأتىٰ له في وطنه بين أهله ومعارفه.

الخامس: أن المرأة كانت ذات منصب وجمال بحيث إن كل واحد من هذين الأمرين يدعو إلىٰ مواقعتها.

السادس: أنها غير ممتنعة ولا آبية، فإن كثيرا من الناس يزيل رغبته في المرأة إباؤها وامتناعها، يجد في نفسه من ذل الخضوع والسؤال لها. وكثير من الناس يزيده الإباء والامتناع إرادة وحبا. كما قال الشاعر:

وزادني كلفا في الحب أن منعت ... أحب شيء إلىٰ الإنسان ما منعا

فطباع الناس مختلفة في ذلك، فمنهم من يتضاعف حبه عند بذل المرأة ورغبتها، ويضمحل عند إبائها وامتناعها.

وأخبرني بعض القضاة أن إرادته وشهوته تضمحل عند امتناع امرأته أو سريته وإبائها بحيث لا يعاودها. ومنهم من يتضاعف حبه وإرادته بالمنع، وتشتد شهوته كلما منع، ويحصل له من اللذة بالظفر نظير ما يحصل من لذة بالظفر بالصيد بعد امتناعه ونفاره، واللذة بإدراك المسألة بعد استعصائها وشدة الحرص علىٰ إدراكها.

السابع: أنها طلبت وأرادت وراودت وبذلت الجهد، فكفته مؤنة الطلب وذل الرغبة إليها، بل كانت هي الراغبة الذليلة، وهو العزيز المرغوب إليه.

الثامن: أنه في دارها وتحت سلطانها وقهرها بحيث يخشىٰ إن لم يطاوعها من أذاها له؛ فاجتمع داعي الرغبة والرهبة.

التاسع: أنه لا يخشىٰ أن تنم عليه هي ولا أحد من جهتها، فإنها هي الطالبة والراغبة، وقد غلقت الأبواب، وغيبت الرقباء.

العاشر: أنه كان في الظاهر مملوكا لها في الدار بحيث يدخل ويخرج ويحضر معها ولا ينكر عليه. فكان الإنس سابقا علىٰ الطلب، وهو من أقوىٰ الدواعي؛ كما قيل لامرأة شريفة من أشراف العرب: =

. . . .

= ما حملك على الزنىٰ؟ قالت: «قرب الوساد، وطول السواد». تعني قرب وساد الرجل من وسادي، وطول السواد بيننا.

الحادي عشر: أنها استعانت عليه بأئمة المكر والاحتيال. فأرته إياهن. وشكت حالها إليهن. لتستعين بهن عليه؛ فاستعان هو بالله عليهن، فقال: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣].

الثاني عشر: أنها تواعدته بالسجن والصغار. وهذا نوع إكراه، إذ هو تهديد ممن يغلب على الظن وقوع ما هدد به، فيجتمع داعي الشهوة وداعي السلامة من ضيق السجن والصغار.

الثالث عشر: أن الزوج لم يظهر منه من الغيرة والنخوة ما يفرق به بينهما، ويبعد كلا منهما عن صاحبه، بل كان غاية ما قابلهما به أن قال ليوسف: ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾. وللمرأة: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٢٩] وشدة الغيرة في الرجل من أقوى الموانع. وهذا لم يظهر منه غيرة.

ومع هذه الدواعي كلها، فآثر مرضاة الله وخوفه، وحمله حبه لله على أن اختار السجن على الزنىٰ، فقال: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي﴾ [يوسف: ٣٣]، وعلم أنه لا يطيق صرف ذلك عن نفسه، وأن ربه تعالىٰ إن لم يعصمه ويصرفه عنه صبأ إليهن بطبعه، وكان من الجاهلين. وهذا من كمال معرفته بربه وبنفسه.

وفي هذه القصة من العبر والفوائد والحكم ما يزيد على ألف فائدة، لعلنا إن وفق الله أن نفردها في مصنف مستقل»، الداء والدواء: (٤٨٢-٤٨٧). (عمرو)

يوسف عليه السلام

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ
أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾
قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى
تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ
وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى
ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ
ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ
ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ[1] وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا
ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِى
ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى[2] عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى
ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ
عِجَافٌ[3] وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ
لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ[4] أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى

(١) الثابت الذي تقوم به مصالح الناس.

(٢) صفني عند الملك بصفتي.

(٣) جمع عجفاء، وهي الهزيلة.

(٤) جمع ضغث، وهو الحزمة من الحشيش أو القضبان، وبه شبه الأحلام المختلطة.

نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ(١) بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا(٢) فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ(٣) ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ(٤) ﴿٤٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ(٥) ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ(٦) أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ(٧) مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يوسف: ٣٦-٥٧].

* شرح وعبرة:

(١) ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، أي: دخل في صحبة يوسف فتيان، قيل كانا فتيين للملك؛ أحدهما خبازه، والثاني شرابيّه -أي: صاحب الشراب- وأنهما أدخلا السجن بتهمة السمّ

---

(١) تذكر. ﴿أمة﴾: مدة طويلة.

(٢) دائبين؛ أي: مستمرين.

(٣) تخبئون.

(٤) العنب والزيتون والسمسم، أو من عصره إذا أنجاه.

(٥) ثبت واستقر.

(٦) صاحب مكانة ومنزلة.

(٧) يتخذ منها متبوأ له ومسكنًا.

للملك، وفهم الآية لا يتوقف علىٰ صحة هذه الأخبار: ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾، وهو صاحب شراب الملك، ﴿وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ﴾، وهو الخبّاز.

﴿نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ﴾ أخبرنا بتأويل ما رأينا ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، أي: من الذين يجيدون عبارة الرؤيا ويحسنونها، أو من المحسنين لأهل السجن في معاملتك لهم، والأحسن أن يطلق لفظ المحسنين ويراد به أنه من أهل الإحسان، والإحسان: الإتقان وتأدية الشيء كاملًا، ومنه حديث: «**إنَّ الله كتب الإحسان علىٰ كل شيء**»(١)، ومن الإحسان تعبير الرؤيا وتأويلها تأويلًا صحيحًا.

﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ﴾ قال السدّي: لا يأتيكما طعام ترزقانه في النوم، يريد بذلك أنَّ علمه بالرؤيا ليس بقاصر علىٰ ما قصصتما عليّ، وقيل لا يأتيكما طعام في اليقظة إلا أخبرتكما أي طعام هو؟ وأي لون هو؟ وكم تكون عاقبته إذا أكله الإنسان، وحاصله ادّعاء العلم بالمغيبات، وهو يجري مجرىٰ قول عيسىٰ عليه السلام: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ﴾ [آل عمران: ٤٩]، ولعلّ حكمة مبادرتهما بذلك تطمين صاحبيه علىٰ حياتهما، لأنَّه عهد عندهما وفي عصرهما أن الملك إذا أراد قتل إنسان صنع له طعامًا مسمومًا فأرسله إليه، وكأنَّه يقول لهما: اطمئنا علىٰ ما يقدّم لكما من طعام، فكلّ ما يصل إليكما أبلغكم ما فيه من خير أو شرّ، وصحة أو مرض.

﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ﴾، أي: ذلك التأويل للرؤىٰ والأحلام ممّا علمني ربي وفقهني فيه، وعلم تأويل الرؤيا يعتمد فقه الإنسان وفراسته، كما يعتمد صفاء النفس وقوة التفكير، وكلّ ذلك فضل من الله -تعالىٰ- يؤتيه للإنسان، ولذلك نسب تعليمه إلىٰ ربه؛ لأنَّه الواهب لذلك الاستعداد، المانح لذلك الفضل.

هذا إذا ذهبنا إلىٰ المعنىٰ الأول في قوله: ﴿لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ﴾ ... إلخ، أما إذا فهمنا أنَّه إشارة إلىٰ إخبار الصاحبين بالغيب، وبيان ما في الطعام من صحة أو مرض، وأمثال ذلك= يكون قوله: ﴿مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ﴾ أوحىٰ إليّ؛ لأنَّ علم الغيب مقصور عليه -تعالىٰ- لا يطلع عليه أحد إلا من طريقه هو ﴿إِنِّي تَرَكۡتُ

---

(١) رواه مسلم: (١٩٥٥). (عمرو)

﴿مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ * وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ تعليل لقوله: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ﴾، أي: إن سبب ذلك التعليم: أني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله . . . إلخ، وهو يرينا أن المؤمن بالله أهل؛ لأنَّ يفيض الله عليه من العلم والمعرفة ما لا يعلم حده إلا الله -تعالىٰ-.

وقد انتهز يوسف هذه الفرصة لينصح صاحبيه في السجن، وينشر مبدأه من الإيمان بالله -تعالىٰ-، وتوحيده، والإيمان بالبعث والجزاء.

وقد جمع يوسف في تلك الدعوة أصول الإيمان الثلاثة، وهي الإيمان بالله، وتوحيده، والإيمان باليوم الآخر، وهل يوسف جاءته الرسالة وهو في السجن؟ ولما لم يجد معه سوىٰ صاحبيه دعاهم إلىٰ أصول الإيمان الثلاثة، أو أن ذلك كان ملةً لآبائه فأخذه عنهم، ودعا دعوتهم؟ كلٌّ محتمل، وسواء قلنا: إن يوسف نبئ في ذلك الوقت، أم لم ينبأ؛ فإنه افترص هذه الفرصة وأخذ يدعو من معه إلىٰ دين الأنبياء جميعهم، وقد تقدم بذلك بين يدي تأويل رؤيا الصاحبين؛ لأنَّه لو أجابهما إلىٰ ما طلبا أولًا لضاعت عليه هذه الفرصة، وما استطاع أن يبلغهما التوحيد والإيمان بالله وثوابه وعقابه، ولا سيما أن أحد الفتيين قد تأول له رؤيا تأويلًا يزعجه، وهو أنه يصلب فتأكل الطير من رأسه.

فيوسف ﷺ يرينا أنَّ صاحب المبدأ والعقيدة من شأنه أن ينتهز الفرص لنشر مبدئه وعقيدته، ومن شأنه أنه إذا طولب بشيء أو سئل عنه يخلق لها المناسبة لينشرها بين الناس، وفي الأمثال: «**إن صحَّ منك الهوىٰ: أُرشِدت للحيلِ**»[1]، ويرينا يوسف ﷺ ألا مانع من تعريف العالم نفسه بالناس وأن يخبرهم أنَّه يحسن كذا وكذا من العلم، وليس في ذلك غضاضة علىٰ نفسه، فيوسف لم يجد بأسًا في أن يقول للصاحبين: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا

---

(١) عجز بيت لأبي نواس، صدره:

أَتْبَعْتِ لَمَّا نَدِمْتِ اللَّوْمَ بِالعِلَلِ لَوْ صَحَّ مِنْكَ الهَوَىٰ أُرْشِدْتِ لِلْحِيَلِ

انظر: الدر الفريد وبيت القصيد: (٢/ ١٢٣). (عمرو)

بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ﴾ ... إلخ؛ ليلفت نظر الفتيين إليه، ويحملهما علىٰ التوجه له، وقوله: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ تحريض لهما علىٰ الإيمان بالله؛ لأنَّ عاقبة المؤمن به أن يفقهه الله في دينه، ويعلِّمه كما علَّم يوسف، وقوله: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ﴾ يريد أنَّه من بيت النبوة، تربىٰ علىٰ الإيمان الصحيح، والتوحيد الخالص، والحكمة العالية، والعلم النافع المفيد، فاستمعا إليّ، وخذا العلم والحكمة عني، وقوله: ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍۚ﴾، أي: لا يليق بنا ولا ينبغي ونحن من هذه السلالة الطيبة، والبيت الماجد أن نشرك بالله من شيء من الأشياء ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾، أي: إن ذلك التوحيد فضل من الله علينا، وفضل منه -تعالىٰ- علىٰ الناس، ولكن أكثر الناس لا يشكرون الله علىٰ ذلك الفضل الذي هداهم إليه، وأوصله لهم.

(٢) ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ يريد يا ساكني السجن أو صاحبيّ فيه، أأرباب متفرّقون خيرٌ أم الله الواحد القهار؟ يريد هل الخير للإنسان أن يعبد إلهًا واحدًا، يعرف ما يحبه فيبادر إليه، وما يبغضه فيدعه ويتركه، أم الخير للإنسان أن يعبد آلهة كثيرين إن أرضىٰ هذا غضب ذاك، وأن أغضب ذلك رضي هذا، وهو أسلوب بديع من أساليب الإقناع، يُرجِعنا فيه إلىٰ المألوف من عادات البشر، وهو أنَّ الإنسان إذا كان له مُلَّاك يتشاكسون فيه، ويتنازعونه الملك والسلطان، هل يستوي هو وعبد ليس له إلا مالك واحد، يعرف ما يطلبه منه فيعمله، وما ينهاه عنه فيذره؟ إنَّ الفرق بين العبدين كبير، فالعبد الذي له مُلَّاك متشاكسون فيه لا يهدأ له بال، ولا يطمئن له قلب، أما العبد الذي ليس له إلا مالك واحد فيستطيع أن يعيش مع ذلك المالك هادئًا وادعًا، وفي ذلك يقول الله -تعالىٰ-: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ﴾ [الزمر: ٢٩].

فنبي الله يوسف يرينا أن توحيد الإله المعبود مصلحة للناس وخير لهم، وتنظيم لعبادتهم، وجمع لشتاتهم، أما الشرك فهو مدعاة لتشويش نفس العابد، وتفريق أمره، فيما بينه وبين معبوديه، ولذلك كان التوحيد متفقًا مع الفطر،

ومتناسبًا مع العقول، ومتمشيًا مع المصلحة، فمن ناحيةٍ: تعدد الآلهة مدعاة لنزاعها الدائم، وخلافها المستمرّ، وذلك يفسد النظام، كما قال -تعالىٰ-: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وقال ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١]، ومن ناحية أخرىٰ: فإن الشرك مدعاة لتشويش أمر العابد، واختلال نظامه، فلا يستطيع أن يوفق بين مرضاة إلهين أو آلهة اختلفت مشاربهم، وتباينت مطالبهم، ذلك ما يشير إليه نبي الله يوسف ﷺ: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ يريد أنكم سميتم آلهة وعبدتموها، وخلقتم ألفاظًا فارغة لا مسميات لها، وخضعتم لها، والسلطان: الحجة والبرهان، وقوله: ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾، أي: حجة لأنَّها باطل، والباطل لا ينزل الله به حجةً، وإنما ينزل حجة بالحق ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ في أمر العبادة والدين ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ الثابت الذي تقوم عليه مصالح الناس ومعايشهم، وفيه حياتهم في الدنيا والآخرة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قيمة ذلك الدين.

(٣) ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا﴾، وهو الذي رأىٰ أنه يعصر خمرًا، ولم يبيِّن ذلك لأحد لوضوحه وجلائه؛ أي فيخرج من السجن ويعود إلىٰ سيده فيسقيه خمرًا؛ لأنَّ عصير العنب مآله أن يكون خمرًا، والشأن في العاصر أن يعدّ للقوم شرابهم، وكأنَّه أخذ عودته إلىٰ ما كان عليه، وعَصره خمرًا لسيده من قرائن تتعلق بصاحب الرؤيا.

﴿وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ﴾، وهو الذي رأىٰ أنه يحمل فوق رأسه خبزًا تأكل منه الطير؛ لأنَّ ذلك هو المعهود من أكل الطير من رأس الرجل، ولعلّ تعيين طريق القتل وتحديده بالصلب؛ لأنَّ المصلوب يبقىٰ منتصبًا، ومن الممكن أن تسلط عليه الطير وهو علىٰ ذلك الحال، أما الذي يموت بطريق آخر فالشأن فيه أن لا يكون كذلك، فلا تسلط عليه الطير، وإنَّما تسلط عليه ديدان الأرض وهوامها، ويظهر أنه كان من عادتهم إذا صلبوا أحدًا تركوه علىٰ حاله مصلوبًا حتىٰ يتعفن وتأكل منه الطير، ولعلَّ ذلك النوع من التمثيل بالقتيل كان

خاصًا بالجرائم المتعلقة بالملك، وذلك ممَّا يؤيد صحة الأخبار بأن ذلك الرائي كان خباز الملك واتهمه -وما أكثر هذه الاتهامات في كل زمن- بأنَّه دسّ للملك في طعامه سمًّا.

﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾، أي: بُتَّ في تعبيره وتأويله، فليس محلًّا للمناقشة والجدل، وقد ظهر لي الآن حكمة قول يوسف: ﴿أَمَّآ أَحَدُكُمَا﴾، وقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلْأَخَرُ﴾ بلفظٍ مبهم، وهو أن يوسف لم يرد أن يواجه كلَّ واحد من الصاحبين بتأويل ما رأىٰ؛ لأنَّ إحدىٰ الرؤيين سارة، والأخرىٰ مزعجة، ولذلك رأىٰ أن يعبر بذلك اللفظ المبهم، وإن كان المعنىٰ مفهومًا، وذلك تلطُّفٌ من يوسف في التعبير، وحرص علىٰ عدم إزعاج صاحب الرؤيا قدر المستطاع، وهو أدب ينبغي أن يراعىٰ في باب التعبير.

﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾، أي: قال يوسف للصاحب الذي ظن أنه ناجٍ من السجن وعائد إلىٰ ما كان عليه من النعيم ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾، أي: اذكر مظلمتي عند سيدك، والضمير في قوله: ﴿ظَنَّ﴾ إن كان للرجل الناجي فالأمر ظاهر؛ لأنَّه لم يكن هو وصاحبه مؤمنين بنبوة يوسف وإخباره عن الله -تعالىٰ-، بل كانا حسني الاعتقاد فيه، وكأن وعظه لهما قد وصل بهما إلىٰ مجرّد الظن، أو فهما أن تعبير يوسف يرجع إلىٰ الفراسة، وهي لا تفيد أكثر من الظن.

أما إذا كان الضمير ليوسف فالظن بمعنىٰ اليقين؛ لأنَّ يوسف مؤمن بصدق نفسه فيما أخبر عن الله -تعالىٰ- إذا كان تأويل الرؤيا بتوقيف من الله -تعالىٰ-، أو هو ظانٌّ ذلك التأويل إن كان عن اجتهاد وفراسة، وإطلاق الظن علىٰ اليقين مألوف في القرآن الكريم، ومنه قول الله -تعالىٰ-: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٦] قال ذلك في وصف المؤمنين الخاشعين، وإيمان هؤلاء لم يكن مجرد ظن، وإنما هو يقين عُبِّر عنه بالظن لقربه منه في الرتبة والمنزلة، والأظهر أن يوسف كان علىٰ بينة من تأويله، وأن تأويله وصل من نفسه إلىٰ حد القطع واليقين، وآية ذلك قوله للصاحبين بعد تعبير رؤياهما: ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾، أي: إنَّه ليس له تأويل سوىٰ ذلك، وإنَّما يقول ذلك من يثق

بتأويله إلىٰ حدٍّ كبير، وقوله: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾ هو إخبار بأنه علىٰ استعداد لأن يخبرهما عن مآل كل طعام يصل إليهما، ولا يقول ذلك إلا واثق بما يخبر به، وهو ممَّا يرجح أن ذلك التأويل كان إلهامًا من الله -تعالىٰ- مباشرة، وأن مسألة الطعام التي استعد لها يوسف كانت بوحي من الله -تعالىٰ-، كما أخبر عيسىٰ ﷺ أنه مستعد لأن يخبر قومه عما يأكلون وما يدخرون في البيوت.

ولعل تأويل يوسف للرؤىٰ والأحلام، واستعداده للإخبار بالغيبيات هو آية رسالته، ودليل صدقه؛ فإن كل رسول له من الآيات ما من شأنه أن تؤمن عليه الناس، كما ورد في الحديث الصحيح، ويظهر أن تأويل الأحلام كان له شأن في عصر يوسف، وإلا فما بال يوسف بمجرد وضع رجله في السجن يقصّ عليه فتيان دخلا معه السجن ما رأيا، وما بال الملك يرىٰ الرؤيا فيسأل عنها الملأ والأشراف من قومه وعشيرته، ويهتم بتأويل هذه الرؤيا علىٰ غير عادة الملوك في أحلامهم ورؤاهم، فيعتذرون له بأنها أخلاط، وأنهم ليسوا أهلًا لتأويل الأحلام، وليسوا من العلم إلىٰ حد يمكنهم من ذلك.

أما الإخبار بالغيبيات فهو آية واضحة علىٰ صدق يوسف؛ لأنَّ الله استأثر بالغيب فلا يعلمه أحد إلَّا بتعليم منه، وأما تأويل الأحلام فبعضه يعتمد الإلهام والوحي، وبعضه يعتمد الفقه في دين الله، وقياس الأمور بأشباهها، وبعضه يعتمد الكياسة والحذق وفهم الحياة، والفراسة الصادقة ولذلك علمه الرسل وعلمه توابع الرسل، وهذه أئمة المسلمين أخذوا بسهم وافر -بل بأسهم- في ذلك العلم، ووضعوا له قوانين، ونبغوا فيه إلىٰ حد كبير.

وهذه مؤلَّفاتهم بين أيدينا: منها مؤلف **محمد بن سيرين** المحدث المشهور[١]، ومؤلَّف **النابلسي**، وهما مطبوعان بمصر في كتاب واحد، وغيرهما كثير، وهذا **ابن خلدون** يقول في مقدمته:

(أما الرؤيا والتعبير لها فقد كان موجودًا في السلف كما هو في الخلف، وربما كان في الملوك والأمم من قبل؛ إلَّا أنَّه لم يصل إلينا للاكتفاء فيه بكلام

(١) سبق أنه لأبي سعد الواعظ، وليس لابن سيرين.

المعبرين من أهل الإسلام، وإلا فالرؤيا موجودة في صنف البشر علىٰ الإطلاق، ولا بد من تعبيرها، فلقد كان يوسف الصديق -صلوات الله عليه- يعبر الرؤيا كما وقع في القرآن، وكذلك ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ، وعن أبي بكر ﷺ.

ثم اعلم أنَّ التعبير علم بقوانين كلِّيَّة يبني عليها المعبر عبارة ما يقصّ عليه وتأويله، كما يقولون: البحر يدّل علىٰ السلطان، وفي موضع آخر يقولون: البحر يدل علىٰ الهم والأمر الفادح، ومثل ما يقولون: الحية تدل علىٰ العدو، وفي موضع آخر يقولون هي كاتم السر، وفي موضع آخر يقولون تدل علىٰ الحياة، وأمثال ذلك، فليحفظ المعبر هذه القوانين الكلية، ويعبر في كل موضع بما تقتضيه القرائن التي تعين من هذه القوانين ما هو أليق بالرؤيا، وتلك القرائن منها في اليقظة، ومنها في النوم، ومنها ما ينقدح في نفس المعبر بالخاصية التي خلقت فيه، وكل ميسر لما خلق له.

ولم يزل هذا العلم متناقلًا بين السلف، وكان **محمد بن سيرين** فيه من أشهر العلماء، وكتب عنه في ذلك **القوانين**، وتناقلها الناس لهذا العهد، وألف **الكرماني** فيه من بعده، ثم ألف المتكلمون المتأخرون وأكثروا، والمتداول بين أهل المغرب لهذا العهد كتب **ابن أبي طالب القيرواني** من علماء القيروان؛ مثل: «**الممتع**»، وغيره، وكتاب «**الإشارة**» للسالمي، وهو عِلم مضيء بنور النبوة للمناسبة بينهما، كما وقع في الصحيح والله علام الغيوب)[1] (اهـ).

وجملة القول: إنَّ تأويل الأحلام يجوز أن يكون آية ليوسف، ودليلًا من دلائل صدقه، أما إخباره بالغيب في مسألة الطعام إذا فهمنا في الآية أنها في الإخبار بالغيبيَّات فهي آية واضحة علىٰ صدق يوسف، فإذا لم يكن يوسف قد أرسل إليه وهو في السجن كان ذلك إرهاصًا لنبوته، وتمهيدًا لرسالته، وقد عهد في الرسل أن يتقدم رسالاتهم الإرهاصات والخوارق، وقد قال الله وهو يحدثنا عن مؤمن آل فرعون فيما يحدث: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ [غافر: ٣٤]، ولم يبين لنا القرآن ما هذه البينات أهي الآيات المتلوّة من الكتب

(١) «مقدمة ابن خلدون»، (ص/ ٤٥٢). طبع بولاق.

التي كانت تنزل علىٰ الرسل؟ أم هي دلائل صدقه؟ وهل هذه الدلائل خوارق للعادة أو غير خوارق؟ كل محتمل؛ فإنَّ الله -تعالىٰ- لم يلتزم مع كل رسول أن يؤيده بخوارق، بل يؤيده بآيات تدل علىٰ صدقه، ومن آيات الصدق سيرته المرضية وتاريخه المجيد، وعدم طالبة الناس بأجر علىٰ ما يدعو إليه، وأمثال ذلك.

ولقد كان ليوسف الماضي المجيد، والتاريخ الحافل بالعظات، وقوة الإرادة، والصبر والعفة في أحرج أوقات الفتنة، وأشد أنواع الزلزلة، فكان مثلًا صالحًا، وقدوة حسنة في الاستقامة، والتضحية، ونكران الذات، كل ذلك وأمثاله دلائل علىٰ يوسف إذا هو ادعىٰ أنَّه رسول من عند الله، ولعل الله -تعالىٰ- ذكر لنا يوسف في هذه السورة، وقال: ﴿۞ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَـٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ ليرينا أنها هي وحدها تكفي دليلًا علىٰ صدق يوسف عند ادعائه رسالة الله؛ فإنها مشحونة بالعظات، غاصَّة بالعبر، ولا سيما فيما يتعلق بشخص يوسف، وإرادته الحديدية، وصبره علىٰ كيد امرأة العزيز، بعد صبره علىٰ كيد إخوته، وتفضيله السجن علىٰ فساد الخلق ومحاربة الله، وامتناعه عن المَلِك بعد أن طلبه من السجن حتىٰ تقوم الأدلة علىٰ براءته، ويعلم الناس جلية أمره، كل ذلك أدلة علىٰ صدق يوسف، وقوة إرادة يوسف، واصطفاء الله ليوسف، وإعداده لمنصب هو أعلىٰ ما يصل إليه البشر في هذه الحياة، هو منصب الرسالة العظمىٰ، والخلافة في الأرض، ليقيم العدل، ويحكم بين الناس بالحق.

هذا هو الفخر لا قعبان[1] من لبن ... شَيبَا بماءٍ فكانا بعد أبوالا

(٤) ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾، أي: أنسىٰ الشيطان الشرابيَ أن يذكر يوسف وقصته عند ربه وسيده، فكان ذلك سببًا في بقائه في السجن بضع سنين، والبضع من ثلاث إلىٰ تسع، والمراد أنَّه لبث مدة بين ثلاث وتسع، أما تحديدها فلا دليل عليه، وهي عقوبة من الله -تعالىٰ- ليوسف علىٰ قوله للذي ظن نجاته من الرجلين ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ روىٰ ابن جرير عن مالك بن دينار قال: لما قال يوسف للساقي: «اذكرني عند ربك»،

---

(١) واحد قَعب بفتح القاف، وهو القدح، شِيبَا: خُلِطا.

قال: قيل ليوسف: «اتخذت من دون الله وكيلًا؟! لأطيلنّ حبسك»، فبكىٰ يوسف، وقال: «يا رب أنسىٰ قلبي كثرةُ البلوىٰ!»، فقلت كلمة: «فويل لإخوتي».

ورویٰ عن الحسن قال: قال نبي الله ﷺ: «**رحم الله يوسف، لولا كلمته ما لبث في السجن طول ما لبث**»، يعني قوله: «اذكرني عند ربك»، قال ثم يبكي الحسن فيقول: «نحن إذا نزل بنا أمر فزعنا إلىٰ الناس»(١).

وقد عاقب الله -تعالىٰ- يوسف بلبثه في السجن بضع سنين علىٰ هذه الكلمة، وهي قوله: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾؛ ليرينا أنَّه لا ينبغي لمن أعدَّه الله للرسالة أن يعرض حاجته علىٰ أحد سوىٰ الله -تعالىٰ-، ويقول المفسرون: إنَّ هذه العقوبة؛ لأنَّ يوسف ممَّن اصطفاهم الله -تعالىٰ-، فلا يليق به والحالة هذه أن يلجأ إلىٰ مخلوق في دفع ظلامته، وإن كان التعاون علىٰ الخير ودفع الظلم مشروعًا لعامة الناس إلَّا أنَّ اللائق بمقام يوسف تفويضه الأمر إلىٰ الله -تعالىٰ-، وهو كقولهم: «حسنات الأبرار سيئات المقربين»، هكذا يقول المفسرون.

وأنا أرىٰ أن من حق يوسف أن يبلغ ظلامته للملك بواسطة الساقي الذي كان معه، وأن يعمل علىٰ تبرئة نفسه ممَّا ألصق به.

وقد وصف الله المؤمنين بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشورىٰ: ٣٩]، وقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]، وإذا كان يوسف لم يستطع أن ينتصر لنفسه بالعمل، فلا أقل من القول والبلاغ، وإذا لم يكن من حق يوسف أن يدفع الظلم عن نفسه، فلماذا واجه العزيز في حضرة زوجة بقوله: ﴿هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ﴾ أليس ذلك دفاعًا عن النفس، وانتصارًا من الظالم؟ فإذا قال للساقي: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾، فهو يريد دفع ظلمٍ عن نفسه بواسطة رجل أسدىٰ إليه جميلًا، وأحسن إليه أيام إقامته معه بالسجن، عند ملكٍ هو صاحب الأمر والنهي، وإذا أنسىٰ الشيطان الساقي أن يذكر يوسف عند سيده؛ فإنَّما ذلك لأنَّ بلاءه وفتنته لم تنتهِ بعدُ، وقدر الله له أن يبقىٰ في السجن بضع سنين بعد خروج الساقي.

---

(١) هذا الأثر. والذي قبله رواهما الطبري في جامع البيان: (١٣/ ١٧٣)، وانظر في هذه المسألة: مجموع الفتاوىٰ: (١٥/ ١١١)، وما بعده. (عمرو)

وقد يؤيد أن يوسف محقٌّ في رفع ظلامته، وأنها ليست محل غضب الله أو عتبه عليه قوله: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾، أي: إنَّ ذلك الإنساء الذي سلط علىٰ الساقي كان من الشيطان، ولولا أن الذكر كان موضع رضا من الله -تعالىٰ- ما كان الإنساء من الشيطان.

أما ما ورد من روايات كرواية ابن جرير وغيره فقل أن يصح منها شيء كما قال أحمد بن حنبل: قَلَّ أن يصح في باب التفسير شيء.

(٥) ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ رأىٰ الملك هذه الرؤيا، وعرضها علىٰ الملأ والأشراف من قومه من علماء وغيرهم، وطلب منهم أن يفتوه في تلك الرؤيا إن كانوا ممن يعبرون الرؤيا ﴿تَعْبُرُونَ﴾ تذكرون عاقبتها وآخر أمرها كما تقول: عَبرتُ النهر: إذا قطعته حتىٰ تبلغ آخر عرضه، ونحوه أوَّلت الرؤيا: إذا ذكرت مآلها، وهو مرجعها ﴿قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ تخاليطها وأباطيلها، وما يكون منها من حديث نفس أو وسوسة شيطان، وأصل الأضغاث ما جمع من أخلاط النبات وحُزِم، الواحد ضغث، فاستعيرت لذلك، والإضافة بمعنىٰ من؛ أي: أضغاث من أحلام، والمعنىٰ هي أضغاث أحلام، وقد جمع مع أنها حلم واحد، كما تقول: «فلان يركب الخيل، ويلبس عمائم الخز»، لمن لا يركب إلا فرسًا واحدًا، وما له إلا عمامة فردة، تزيُّدًا في الوصف، فهؤلاء أيضًا تزيَّدوا في وصف الحلم بالبطلان فجعلوه أضغاث أحلام، ويحتمل أن الملك قد قصّ عليهم مع هذه الرؤيا غيرها.

﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ إمَّا أن يريدوا المنامات الباطلة خاصة، فيقولوا: ليس لها عندنا تأويل؛ فإنَّ التأويل إنَّما هو للمنامات الصحيحة الصالحة، وإمَّا أن يعترفوا بقصور علمهم وأنَّهم ليسوا في تأويل الأحلام مطلقًا بعلماء نحارير: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ الضمير للصاحبين؛ أي: قال الرجل الذي نجا من الصاحبين وهو الساقي، وقد تذكر علم يوسف بالرؤيا وتأويله لها بعد مدة؛ أي: إنَّه لم يتذكر وهو في مجلس الملك

الذي وجه فيه إلىٰ الملأ سؤالهم عن هذه الرؤيا، بل تذكر قصة يوسف وعلمه، بعد مدة طويلة من الوقت الذي وقع فيه السؤال، ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ أخبركم بمآل هذه الرؤيا وعاقبتها ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾، أي: إلىٰ يوسف في السجن، وسهّلا لي طريق مقابلته فيه، فأرسلوه فذهب إليه وقابله: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾؛ أي: وقال: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ ... إلخ، والقصة فيها إيجاز علىٰ عادة القرآن أن يحذف من القصة ما يدل عليه السياق، وفيه دليل علىٰ أن العلم يَرفع من شأن صاحبه، ويوجه الناس إليه أنَىٰ وجد وحيث حل، وقد وَصَف يوسف بأنَّه صديق، أي: كثير الصدق حتىٰ أصبح الصدق خلقًا له وعادة؛ لما جَرَّب عليه وهو معه في السجن من صدقه البالغ، ولما جرب عليه من صدقه في تأويل رؤياه.

﴿أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ ... إلـخ، ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾، أي: دائبين علىٰ عادتكم المستمرة، أو هو خبر بمعنىٰ الأمر؛ أي: ازرعوا سبع سنين دائبين علىٰ زراعتكم ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾، أي: اتركوا ما حصدتم من الغلال في سنبلة؛ لئلا يأكله السوس إذا درستموه ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾، أي: فادرسوه، والمراد أن يزرعوا سبع سنين بجد واجتهاد، وكل ما جمعوه من الغلال يدخرونه في السنابل حتىٰ لا يتعرض للفساد، ولا يدرسون منه إلَّا القليل الذي يحتاجون إليه في الأكل، ذلك هو تأويل البقرات السمان، والسبع السنابل الخضر أولها بسنين خصبة فيها الزرع والخير؛ لأنَّ السمين من البقر هو الذي يؤكل، وهو الذي فيه الخير لأصحابه في لحمه ولبنه وما يتعلق به، وكذلك السنابل الخضر.

﴿ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾، أي: ثم يأتي بعد السنين السبع الخصبة سبع سنين مجدبة شديدة علىٰ الناس يفنين ما قدمتم لهن؛ أي: يأكل أهلن ما ادخرتم لأجلهن في السنين الخصبة ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ تحرزون لبذور الزراعة، ذلك هو تأويل البقرات العجاف والسنابل اليابسات، ﴿ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾، أي: ما يصلح للعصر كالعنب والزيتون والسمسم، والمراد: بذلك كثرة النعم، وعموم الخصب في الزرع والثمار، فيغاثون فيه بالمطر، ومتىٰ حل المطر حل الخصب والخير.

وقد أخذ يوسف عليه السلام من تحديد البقرات والسنابل بالسبع أن سني القحط سبع، وأن سني الخصب كذلك، أمَّا الإخبار بأن يكون عام بعد السبع فيه يغاث الناس، فليس في الرؤيا ما يدل عليه، فليكن ذلك من إلهام الله ووحيه له، ولو قال: «ثم يأتي من بعد ذلك وقت فيه يغاث الناس»؛ لقلنا: «إنَّ يوسف فهم ذلك من تحديد البقر والسنابل بالسبع»، ومعناه أن بعد السبع المجدب الماحل يكون الخصب المستمر، أما وقد حدده بالعام، والعام: هو السنة فلا سبيل إلىٰ ذلك التحديد إلَّا من طريق الوحي، أو من طريق اختص يوسف بفهمه، وهو تأويل خطير يهم الملك أن يقف عليه، ويعلم مصدره ويتبين قيمة هذه الرؤيا؛ لأنَّه خطر يهدد دولته وأمته، وهو خطر المجاعة التي أخبر عنها يوسف، ولو كانت مجاعة تبقىٰ شهرًا أو سنة لهان الأمر، ولكنها مجاعة تبقىٰ سنين، والمهم من تأويل يوسف فوق إخباره بهذه المجاعة أنه وصف للملك طريق الخلاص منها، وتوقِّيها، حتىٰ لا تقع أمته في ضيق؛ ذلك كله ممَّا حمل الملك علىٰ أن يطلب يوسف، وهو لم يعلم من أمره أكثر من أنه فتىٰ سجين، وكان يظن أنَّه سجن بجريمة عادية نسبت إليه كبقية السجناء، وما كان يدري أنَّ هناك مؤامرة قد دبرت ضده كفاء أمانته وعفته، وإبقائه علىٰ شرف العزيز، ومقابلة الإحسان بالإحسان، وجريمة هذه أسبابها لا بُدَّ أن يقيض الله للمتهم بها من يخلصه منها.

(٦) ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ طلب يوسف لمناسبة تأويله رؤياه الخطيرة، فلم يكن من يوسف إلا التأبي، وقال للرسول: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾، وسيدك وهو الملك ﴿فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾، أي: ما شأنهم وقصتهم، وهل لاحظن علىٰ يوسف ما يؤيد تهمة امرأة العزيز أو ما يبرئه؟ ولعل يوسف طلب أن يكون السؤال للنسوة؛ لأنَّه لم يكن يظن أن امرأة العزيز تعترف أمام الملك بأنَّها هي الخاطئة، فكان أمله في النسوة فوق أمله في امرأة العزيز.

وتأمل ذلك الصبر البالغ، وهذه الإرادة الحديدية التي تجلت في يوسف، يطلبه الملك من السجن لحاجته إليه، ومعنىٰ ذلك أن مدة المحنة قد انتهت، وآذنت بالخروج، وكان المنتظر أن يتلقىٰ يوسف ذلك الأمر بفارغ الصبر، فيهرول

إلىٰ الخروج، ولكن يوسف الصديق، يوسف المعد لأن يكون رسولًا، يوسف الذي امتحن بامرأة العزيز وراودته عن نفسه فقال لها: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، فحفظ لرب البيت إحسانه، ولمولاه وخالقه فضله عليه، يوسف صاحب هذا الخلق المتين لم يكن همه أن يخرج من السجن فحسب، وإنَّما همُّه أن يخرج ظافرًا منتصرًا، همه أن يخرج من هذه الفتنة كالإبريز الخالص، وأن يُظهِر للجماهير أنَّه قدوة حسنة، ومثال صالح في الخلق وحسن السيرة.

ولو تصور الإنسان ما يقاسيه السجين، وما يلقىٰ من شظف العيش، وأن يوسف قد لبث فيه بضع سنين بسبب نسيان صاحبه أن يذكره عند ربه وقد أوصاه بذلك، لو تصور الإنسان ذلك كله= لعلم مقدار التضحية التي ضحىٰ بها يوسف الصديق في رده رسول الملك وقوله له ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ﴾، ومعنىٰ ذلك أنَّه لا يريد أن يخرج من السجن إلَّا حيث ثبتت براءته، وعلم الناس جميعًا أنَّ صحيفته بيضاء نقية، لم تتدنس بشيء من الغبار، وذلك حزم وعزم من يوسف يحفظه له التاريخ، وحسبه أنَّ رسول الله ﷺ يقول فيه: «**لو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي**»[1].

وهي شهادة لها قيمتها، ومنقبة ما أعظمها من منقبة، تعلمنا كيف يستهين الإنسان بالشدائد في سبيل طهارة النفس وبراءة العرض، وترينا أن عذاب الجسم وإن عظم دون عذاب الروح؛ فإنَّ عذاب الجسم إلىٰ زوال، أما عذاب الروح، وألم الضمير ووخزه فهو عذاب الأبد، فلا يوازيه شيء من عذاب الجسم، ألا ترىٰ إلىٰ المؤمنين في كل زمان يستهينون بعذاب أجسامهم في الجهاد والحروب في سبيل راحة قلوبهم، وقيامهم بواجبهم نحو دينهم وربهم.

وقد ترىٰ في الرجل ما لا يحصىٰ من الضربات والطعنات ويبلغ به الألم الجسماني ما يبلغ، وهو راضٍ مطمئن؛ لأنَّه في سبيل راحة قلبه واطمئنان نفسه، ولا عجب فهو ألم مؤقت في سبيل نعيم دائم، وهو كما يتلقىٰ الرجل العمليات الجراحية وفيها شق بطن أو بتر عضو من أعضائه برباطة جأش وقلب راضٍ، في سبيل أن يعيش بعد ذلك عيشة مريحة، ويحيا حياة هادئة مطمئنة.

---

(١) رواه البخاري: [(٤٦٩٤)].

وقد حدثنا التاريخ عن سلفنا الصالح أنَّ الرجل كان ينتهي من ميدان القتال وفيه من أثر الطعن والنزال ما يودي بحياته، ويمرّ عليه صاحبه وهو يلفظ النفس الأخير، فيأخذ في تسليته فيلقاه مغتبطًا بحاله، مسرورًا بما آل إليه؛ لأنَّه مات في سبيل الواجب، وقتل لإعلاء كلمة الله، وسيموت شهيدًا يشهد له دمه وعمله، وسيكون قدوة صالحة لمن يأتي بعده.

كل ذلك في سبيل راحة النفس وسعادتها، وكل ذلك في سبيل حياة طيبة تتبع هذه الحياة، وكل ذلك في سبيل الذكرىٰ الطيبة والسيرة الحسنة.

فنبي الله يوسف يضرب لنا ذلك المثل وهو رضاه بالسجن حتىٰ تظهر براءته ليرينا أنَّ شظف العيش، وخشونة الحياة، وحرمان الرجل من ذلك النعيم الذي نرىٰ= سهل وهين في سبيل السيرة الطيبة، وراحة القلب، وأن تعلم الناس أن السجين بريء ممَّا نسب إليه، بعيد ممَّا رمىٰ به، وهكذا يجب أن يضحي الناس براحة أجسامهم في سبيل راحة قلوبهم، وأن يفضلوا الحياة الخشنة التي فيها كرامتهم علىٰ الحياة الناعمة إذا كان فيها مساس بخلقهم.

وقد نلمح من خُلُق يوسف المتين، وإرادته الحديدية، وصبره علىٰ المكاره، واحتماله في سبيل الكرامة وحفظ الخلق، قد نلمح من ذلك سلوة الزعماء وهم في غيابة السجون ورضاهم وهم مكبلون بالسلاسل والأغلال، وطمأنينة نفوسهم وإن كانت أجسامهم في شقاء، وثبات أفئدتهم وإن كانت أجسادهم، عناء.

نعم قد يكون ذلك في الزعماء ما داموا مؤمنين بصحة مبادئهم، موقنين بأن حقهم سينتصر علىٰ باطل غيرهم، واثقين بأن الله ناصرهم ومؤيدهم، فإذا جاءهم رسول وهم في السجن يساومهم علىٰ بلادهم في سبيل راحة أجسامهم رفضوا ذلك بإباء وشمم، وقالوا للرسول كما قال يوسف: ارجع إلىٰ ربك وقل له: ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾، ولا سبيل إلىٰ المساومة في مصالح البلاد، ونكون خائنين للأمانة التي وضعت في أعناقنا، والعهد الذي أخذناه علىٰ أنفسنا، إذا نحن آثرنا راحة أجسامنا علىٰ راحلة قلوبنا وضمائرنا، ونكون مثلًا سيئًا وقدوة غير صالحة إذا نحن أجبناه إلىٰ ما طلب، وقديمًا عُذِّب الناس في

سبيل مبادئهم، فكان عذابهم نصرًا لها، وتأييدًا وكان سجنهم إطلاقًا للبلاد من أغلالها، وفكًا لها من قيودها وسلاسلها.

وليقولوا للرسول الغاصب: إنَّ لنا قدوة حسنة في نبي الله يوسف، وضعته الشهوة الجامحة في السجن، فلمَّا طلبه الملك لعلمه وفضله، قال له لا أخرج من السجن إلا حيث أجيب طلبي، وهو أن تسأل النسوة عن أمري، ليخبِرْنَك أبريء أنا أم مجرم؟ وهل سجني كان ظلمًا أم حقًا؟ فلتكن إجابتنا لك كإجابة يوسف لرسول الملك: لا نخرج من السجن إلا إذا نظر الذي أرسلك في مطلبنا، واعترف بأننا محقون لا مبطلون، وأننا بريئون لا متهمون، وإذا لم نستطع أن نكون كنبي الله في إيثار السجن إلىٰ أن نجاب إلىٰ ما نطلب، فلنكن كنبي الله في أن لا يكون خروجنا من السجن في سبيل عمل هو ضار ببلادنا، وله مساس بخُلقنا وكرامتنا، فلا أقل من أن نخرج كرماء كما دخلنا، لم نتسبب لأمتنا في ضرر، ولم نُخلِّف لها عارًا، وذلك أقل ما تتطلبه الزعامة من حق، وما توجبه من تضحية؛ أما أن ندخل السجن؛ لأنَّنا نطالب بحق، ونخرج منه لأنَّنا اعترفنا بأننا مخطئون فيما نطالب به= فذلك ما لا يليق بزعيم، ولا ينبغي لمن يعرف لنفسه كرامة.

(٧) ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّـٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ طالب رسول الملك أن يرجع إلىٰ ربه وهو الملك الذي طلب يوسف، وأن يسأل عن النسوة اللاتي كنَّ مع امرأة العزيز وقطَّعن أيديهن ما شأنهم؟ والمراد تهييج الملك ليقف علىٰ حقيقة الواقعة التي تتعلق بيوسف في ذلك الوقت الذي يحتاج إليه فيه، وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ أراد به مولاه وخالقه، فهو عليم بكيدهن، وسيجازيهن علىٰ ذلك الكيد، أو أراد به العزيز، علم كيدهن عند وقوع الحادثة، وشهادة الشاهد أمامه، وقال بعد شهادة الشاهد: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾، ولك أن تقول: إنه أراد بالرب الملك، وأنه عليم بكيد النساء.

ومن أدب يوسف مع امرأة العزيز أنه لم يذكرها بسوء أمام الرسول، ولم يعرض لها في القصة وكأنها أجنبية عنها، بل طلب من الملك أن يسأل النسوة.

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾، أي: فاحضر الملك النسوة ومعهن امرأة العزيز وسألهن ذلك السؤال.

وقد أضاف المراودة إلىٰ النسوة جميعهن؛ لأنَّهن راودنه لأجل امرأة العزيز، لا لأنفسهن، وقلن له: أطع مولاتك وسيدتك، متعاونات معها علىٰ الإثم، مشتركات في الحرمة؛ لذلك نسب المراودة إليهن.

أمَّا القول بأنَّ كل واحدة من النسوة راودت يوسف عند الوليمة التي أقامتها امرأة العزيز فهو بعيد؛ لأنَّهن في ضيافتها؛ **أوَّلًا** فلا يشاركنها في معشوقها، ولأنَّهن رأينه لأول مرة يمر عليهن، **ثانيًا** ولم تجر العادة بأن امرأة تراود رجلًا أو فتىٰ لأول مقابلة. فالظاهر أن المراودة كانت منهن لأجل امرأة العزيز. أو لم يكن منهن مراودة ما وإنما كان منهن رضا، وإقرار لما فعلته امرأة العزيز في قولها: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾، وقد عهد إضافة الفعل إلىٰ الراضي به، وعقوبته عليه لجريمة الرضا.

وقد نسب الله -تعالىٰ- إلىٰ قوم صالح أنهم عقروا الناقة، وما عقرها إلا واحد منهم، ولكنهم لما رضوا بذلك العمل المنكر وأقروه، وكان في استطاعتهم إنكاره= نسب العقر إليهم جميعًا؛ ليرينا أنَّ الأمة متضامنة متكافلة في خيرها وشرّها، وأن علىٰ الناس إذا رأوا منكرًا أن يضربوا علىٰ يد صاحبه، وإلا عمهم الله بعذاب من عنده.

وأولئك النسوة لم يبلغنا الله -تعالىٰ- عنهن الإنكار علىٰ امرأة العزيز عندما قالت: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾، بل حدثنا القرآن أنَّهن أخذتهن نشوة الجمال، وذهلن عن أنفسهن عند مرور يوسف عليهن، وأن امرأة العزيز استطاعت أن تعذر إلىٰ نفسها أمامهن، حيث ثملن بيوسف إلىٰ ذلك الحد الذي أنساهن أنفسهن حتىٰ قطعن أيديهن، واستطاعت أن تقطع ألسنتهن عن الكلام في شأنها، والتحدث في قصتها، وكأنها تقول لهن لم تستطعن أن تثبتن أمام جمال ذلك الفتىٰ لأول مرة مرّ عليكن فيها، فلْتعذُرْنَنِي وقد عاشرته المدة الطويلة وصبرت عليه ذلك الزمن، فهن راضيات عن عمل امرأة العزيز مع يوسف، وتهديدها له، بل وفوق الراضيات، ولو كن في مركز امرأة العزيز لفعلن كما فعلت، وأكثر ممَّا فعلت.

فلا عجب أن ينسب الملك المراودة إليهن جميعًا مع أن الذي راود يوسف هو امرأة العزيز وحدها.

﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾، وحاش لله: كلمة تنزيه، والمراد تنزه الله أن ينسب سوءًا ليوسف، كأنَّ نسبة السوء إليه ضرب من المحال ينبغي تنزيه الله منه، والمراد منها مع التنزيه التعجُّب من عفته ونزاهته، ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾، أي: من نوع من أنواع السوء كما يعطيه لفظ «من» الدال علىٰ النفي المستغرق ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ **حَصْحَصَ**؛ أي: ظهر الحق أجرد أمرد، لا تستره شبهة ولا تهمة، كما يحصّ ويسقط الشعر أو ريش الطائر، **أو**: ثبت واستقرّ، من قولهم حصحص البعير إذا ألقىٰ مباركه للإناخة، فالكلمة بمعنَيَيْها أبلغ ما يعبَّر به عن المعنىٰ المراد في هذا المقام، وكانت حصحصة الحق وظهوره بما ظهر من وقائع القصة، **وهي**: فرار يوسف منها **أولًا**، ومن إيثاره عيشة السجن البائسة في خشونتها ومهانتها علىٰ عيشة القصور العالية في نعمتها وزينتها **ثانيًا**، ومن شهادة النسوة اللائي تصببنه[1] **ثالثًا**، ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ مغلوبة علىٰ نفسي، فاقدة لعقلي وشرفي وحسي ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في قوله ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾.

قال المفسرون: لما راعىٰ يوسف حرمة سيدته في قوله: ﴿مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ دون أن يقول ما بال **زليخا**= أرادت أن تكافئه علىٰ ذلك الفعل الحسن، فأزالت الغطاء واعترفت بأن الذنب منها.

ونظيره ما يحكىٰ أن امرأة جاءت بزوجها إلىٰ القاضي وادّعت عليه المهر، فأمر القاضي بأن يكشف عن وجهها حتىٰ يتمكن الشهود من أداء الشهادة، فقال الزوج: لا حاجة إلىٰ ذلك؛ فإنِّي مقرّ بصدقها في دعواها، فقالت المرأة لما أكرمني إلىٰ هذا الحدّ فاشهدوا أني أبرأت ذمّته من كلّ حق لي عليه. (اهـ).

يريدون أنَّ امرأة العزيز لما رأت أدبًا جمًّا من يوسف قابلت ذلك الأدب بتلك الشهادة ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، ولم يكن ذلك أول أدب رأته من يوسف فإن الفتىٰ الذي يؤدبه ربه ليصطفيه لرسالته، ويهذبه ليختاره

---

(١) أي: وقعوا في محبته، وعشقه، ولا أعلم هل هذا التصريف صحيحٌ أم لا؟

وسيطًا بينه وبين خلقه، لا ينتظر منه إلا أن يكون مؤدبًا، وهل أوقعه في هذه المحنة مع امرأة العزيز إلا أدبه مع مولاه الذي قال لامرأته: ﴿أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ﴾.

ولو أنَّ امرأة العزيز أرادت أن تقابل يوسف بمثل ما فعل، وتجزيه علىٰ أدبه جزاءً وفاقًا، ما وقفت منه هذه المواقف، ولكن سلطان الجمال، وضعف الخلق، وسوء التربية، هو جعلها تسقط هذه السقطة، وتكبو تلك الكبوة، وقد لا يكون في حسبانها أن تسيء إليه، ولكنها الشهوة الجاهلة، والمحبة العمياء، وغرورها بنفسها وسلطنة زوجها، أوقعتها فيما أوقعتها، ووصلت بها إلىٰ ما وصلت، فلما عاد إليها رشدها، ويئست من الحصول علىٰ غايتها، ووصلت المسألة إلىٰ الملك وطلب النسوة، وسألهن عما يعلمن في يوسف، وظهر للناس من أمر يوسف ما يثبت براءته رأت أن تعترف بالحق وتبرئ ساحة ذلك الفتىٰ المتهم، فقالت: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ ولم تقف في تزكيتها ليوسف عند ذلك الحد، بل جعلته في عداد الصادقين في كل ما يقول ويفعل، وهي شهادة لها قيمتها من امرأة العزيز أمام الملك، بعد شهادتها ببراءته أمام النسوة، وقولها لهن: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَ﴾، أي: امتنع بقوّة وشدة، فوق براءة يوسف أمام العزيز عقب حادث المراودة، فالنسوة سمعن من امرأة العزيز براءته، وشهدن أمام الملك ببراءته، وامرأة العزيز اعترفت أمام الملك بالبراءة، والعزيز علم من تحقيق تهمة المراودة، وشهادة الشاهد أن يوسف بريء، والله شهد له بعد هذا وذاك، [وطوبىٰ لمن شهد الله له]، وأنه صرف عنه السوء والفحشاء وأنه من عباده المخلصين، فماذا بقي بعد هذا من شبهة تُوجَّه إلىٰ يوسف؟ أو مُمَاحكة يتعلق بها الكاتبون والمؤلفون؟

﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ من كلام امرأة العزيز؛ لأنَّ ذلك وقع وهو في السجن ينتظر جواب الرسول، والضمير في ﴿يَعۡلَمَ﴾ ليوسف؛ أي: إنَّها أقرت بنزاهته وعفته وهو في السجن؛ ليعلم أنَّها لم تتكلم فيه وهو غائب بباطل حتىٰ تكون خائنة له؛ لأنَّ الله لا يهدي كيد خائن، وكأنها تلوم نفسها علىٰ تلك الخيانة التي خانتها لخادمها الأمين، وفتاها المطيع؛

إذ ألصقت به تهمة هو بريء منها، كما تعنف نفسها علىٰ خيانة بعلها وزوجها العزيز إذ راودت فتاها عن نفسه، وذلك خيانة له، وتغبط يوسف علىٰ أمانته وعفته في بيت سيده الذي أمرها أن تكرم مثواه، كما تغبطه علىٰ أمانته مع ربه وخالقه في قولها: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾(١)، وكأنها تقول: إن الله -تعالىٰ- لم يوفقها في كيدها ليوسف؛ لأنَّه كيد أساسه الخيانة، وكيدٌ ذلك حاله لا يهدي الله صاحبه ولا يوفقه للنجاح، أما الكيد الذي أساسه الإصلاح، وتثبيت الفضيلة في الأرض ومحاربة الفساد؛ فإنَّه كيد محمود ومكر حسن.

وجدير بذلك الكيد أن يؤيده الله وينصره، كما يمكر الرجل المربي بولده ليصرفه عن الفاحشة، ويحوّله إلىٰ الطاعة، وكما يمكر الله بأعداء الرسل ويدبر لهم، لينصر الحق، ويخذل الباطل ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤]؛ لأنَّ مكره للإصلاح، أما مكرهم فهو للإفساد ومحاربة الرسل.

ثم ترينا الآية الكريمة -وفيها الشهادة ليوسف من امرأة العزيز بالصدق والعفة- أن الله -تعالىٰ- وضع في نفوس الفسقة إجلال الأتقياء وإكبارهم، وإن لم يضع في قلوبهم محبتهم، فامرأة العزيز علىٰ حرمانها من طلبها، وتعفف يوسف عن تمكنها من شهوتها، وذلك من شأنه أن يوغر الصدور، ويملأها حقدًا وحنقًا، وهو ما دعاها إلىٰ أن تلصق به من التهم ما هو منه بريء شهدت له في النهاية بالصدق والعفة، واعترفت له بالكرامة، وهي تحله من سويداء القلب المحلَّ الأول في الاحترام والإجلال.

---

(١) الخيانة ضد الأمانة وهما من جنس الصدق والكذب. ولهذا يقال: الصادق الأمين. ويقال: الكاذب الخائن.

وهذا حال امرأة العزيز؛ فإنها لو كذبت علىٰ يوسف في مغيبه وقالت راودني لكانت كاذبة وخائنة، فلما اعترفت بأنها هي المراودة كانت صادقة في هذا الخبر أمينة فيه؛ ولهذا قالت: ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فأخبرت بأنه صادق في تبرئته نفسه دونها.

فأما فعل الفاحشة فليس من باب الخيانة والأمانة؛ ولكن هو من باب الظلم والسوء والفحشاء، كما وصفها الله بذلك في قوله تعالىٰ عن يوسف: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ولم يقل هنا الخائنين.

ثم قال تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ ولم يقل لنصرف عنه الخيانة؛ فليتدبر اللبيب هذه الدقائق في كتاب الله تعالىٰ.

انظر: مجموع الفتاوىٰ: (١٥/ ١٤٣). (عمرو)

وتلك آية من آيات الله في الفرق بين أهل الاستقامة وأهل الفسوق والفجور، أودع الله في قلوب الناس إجلال المطيعين، واحترامهم، حتىٰ من الفسقة والفجرة. وإنَّك لترىٰ ذلك ظاهرًا جليًا في طبقات الفراشين والبوابين فترىٰ المستقيم منهم يهابه سيده، ويخشاه رب البيت، ويعمل لغضبه حسابًا أي حساب، وإن كان سيده فاسقًا، وترىٰ سيده الفاسق علىٰ العكس من ذلك، تراه صغيرًا في نظر بوابه، مهينًا عند فرَّاشه وسائر خدمه، حتىٰ ولو كانوا فسقة يشتركون معه في الفسق والفجور، ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ من تتمة كلام امرأة العزيز تقول فيه: إنَّها لم تبرئ نفسها من الإثم، ولم تنزهها من الفاحشة؛ لأنَّ النفس أمارة بالسوء، فهي لم تخرج عن أنها امرأة غير معصومة، عرضة للعصيان، فإذا نسبت إلىٰ يوسف تهمة هو بريء منها فذلك من نفسها الأمارة بالسوء ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾(1) بالعصمة من المحرمات ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ رجوع منها إلىٰ الله -تعالىٰ- في أن يغفر لها ما سلف ويرحمها في جملة من يرحمهم.

(٨) ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ﴾. بعد أن ظهرت براءة يوسف ممَّا نسب إليه، وخرج من الفتنة مرفوع الرأس وضَّاء الجبين، وبعد أن طلبه الملك؛ ليخرج من السجن فأبىٰ إلا أن تظهر براءته ممَّا

---

(١) وهذا يدل علىٰ أنه ليس كل نفس أمارة بالسوء؛ بل ما رحم ربي ليس فيه النفس الأمارة بالسوء.

وإذا كانت النفوس منقسمة إلىٰ مرحومة وأمارة فقد علمنا قطعا أن نفس امرأة العزيز من النفوس الأمارة بالسوء؛ لأنها أمرت بذلك مرة بعد مرة، وراودت وافترت واستعانت بالنسوة وسجنت، وهذا من أعظم ما يكون من الأمر بالسوء.

وأما يوسف عليه الصلاة والسلام فإن لم يكن نفسه من النفوس المرحومة عن أن تكون أمارة، فما في الأنفس مرحوم.

فإن من تدبر قصة يوسف علم أن الذي رحم به وصرف عنه من السوء والفحشاء من أعظم ما يكون؛ ولولا ذلك لما ذكره الله في القرآن وجعله عبرة، وما من أحد من الصالحين الكبار والصغار إلا ونفسه إذا ابتليت بمثل هذه الدواعي أبعد عن أن تكون مرحومة من نفس يوسف.

وعلىٰ هذا التقدير: فإن لم تكن نفس يوسف مرحومة: فما في النفوس مرحومة فإذا كل النفوس أمارة بالسوء وهو خلاف ما في القرآن.

انظر: مجموع الفتاوىٰ: (١٥/ ١٤٤). (عمرو)

نسب إليه، بعد ذلك كله طلبه الملك ليستخلصه لنفسه؛ أي: يجعله خالصًا له من شائبة الاشتراك، وقد كان يوسف قبل ذلك خالصًا للعزيز: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ﴾ أي فلما حضر يوسف من السجن وكلمه الملك، وعرف مواهبه وكفايته، قال إنك اليوم عندنا ﴿مَكِينٌ﴾ صاحب مكانة ومنزلة ﴿أَمِينٞ﴾ علىٰ كل شيء يسند إليك؛ لأنَّ الذي ائتمن علىٰ امرأة سيده عند طلبها الفاحشة، وبعد أن غلقت الأبواب، وقالت له: ﴿هَيۡتَ لَكَۚ﴾، ولم يكن له فيه مانع من الفاحشة سوىٰ نفسه التي بين جنبيه وضميره الذي يتوعده بالتأنيب والتوبيخ، إنَّ الذي يؤتمن في مثل ذلك الوقت الذي مهدت له فيه وسائل المعصية، وأزيل من طريقها كل عقبة، وقد طلبته إليها سيدته ومولاته فيقابلها بالنفور والاشمئزاز، ويستعصم من المعصية في قوة وشدة، الذي يصنع ذلك كله، ويؤثر حياة السجن علىٰ المعصية، وشظف العيش في سبيل مرضاة الله علىٰ نعيمه في سبيل مرضاة الشيطان= جديرٌ بالملك أن يطلب أن يكون بطانة له خالصة من دون الناس، يأتمنه علىٰ أسراره، ويأتمنه علىٰ شؤون دولته، ويأتمنه علىٰ خاصته وآل بيته، ولذلك أطلق في قوله: ﴿أَمِينٞ﴾ ومعناه أمين علىٰ كل شيء يؤتمن عليه؛ فإنَّه لا شيء أصدق من التجربة، ولا أدلّ من الفتنة، والأعاصير تمر بالإنسان، فيخرج منها إما مزعزع العقيدة ضعيف الإرادة، وإما ثابت القلب رابط الجأش، قد صهرته الشدة، وصقلته الحوادث، ومحَّصت نفسه الشدائد، وأصبح رجلًا عظيمًا مستعدًّا للطوارئ، مهيئًا للأحداث.

وقوله: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾ يشير إلىٰ أنَّ الملوك من شأنها إذا سمعت برجل نابه وشاب مثقف، خبير بالشؤون العامة، يستطيع أن يستفيد منه الملك في مهام دولته، وأن يستعين به علىٰ المشاكل التي تعرض له، من شأن الملوك الذين يحرصون علىٰ مستقبل دولتهم، ويعملون علىٰ أن يبقىٰ الملك فيهم، أن يتخيروا لمملكتهم أصلح الناس، وأعلمهم بشؤون الحياة، وأدراهم بتسيير الأمور.

ومن الملوك من يحقد علىٰ الرجل النابه، ويتألم من ذائع الصيت، ويتأفف من حسن المسلك وكأنَّ الرجل الكفء في أمته عدوّ من ألد أعدائه، وخصم من خصومه، وما درىٰ أنَّه قوّة من قواه وعدّة ينفعه وقتًا ما، وأنَّ العلم في كل زمان

لا غنىٰ للناس عنه، والكفاءة في الرجال ممن تنتفع بها الدولة، وتسود بها البلاد، وأنَّ الفقر المدقع، والشقاء الذي لا يدانيه شقاء، في خلو الدولة من رجال ذوي كفاءة ومقدرة في شتىٰ الشؤون، ومختلف العلوم، وأنَّه لا تستوي أمة غنية برجالها وعلمها، وأمة فقيرة في العلم والرجال، وما سبقنا الغربيون إلا بغناهم برجالاتهم، وعلومهم النافعة المفيدة، وما تأخر المسلمون إلَّا بفقرهم من هذه النواحي.

ولو أنَّ ملوك المسلمين تأسَّوا بذلك الملك الذي طلب يوسف ليستخلصه لنفسه، ويدخره للمُلَمَّات، لو أنَّهم تأسوا بذلك الملك، فاحتضنوا النابه من أممهم، والكفء من رجالاتهم= لسعدوا، وأسعدوا شعوبهم بذلك العمل، ولكنَّهم مع الأسف الشديد يستخلصون من يوافقونهم علىٰ شهواتهم، ويطاوعونهم علىٰ أهوائهم، ويسارعون إلىٰ إشباع نهمهم، وسد مطامعهم، يستخلصون من القوم أدناهم نفسًا، وألأمهم طبعًا، وأكثرهم نفاقًا، وأبعدهم عن الأمانة، وعزة النفس، وهم الذين إذا استشارهم الملوك ضللوهم، وإذا استنصحوهم خانوهم، ويصورون لهم النابه من الأمة بصورة بشعة، ويعملون علىٰ أن يجعلوا بينه وبين الملك سدًّا، كما يصورون نهضة الأمة التي فيها حياتها وحياة ملكها بصورة تتقذَّذ منها النفوس، وتأنف لها الطباع، ويجتهدون في أن يضعوا الأشواك والعقبات في سبيل هذه النهضة لدىٰ الملك، ويفهمونه أنَّها حركة يراد بها الشر، ولا يراد بها الخير، فيحولون وجهه عنها، ويصرفونه عن العناية بها.

وكأنَّ هذه البطانة فهمت أنَّ النصح لا يستسيغه الملك ولا يتقبله، فآثروا عليه الغش، وعلمت أنَّها إن أظهرته علىٰ أمور الدولة علىٰ حقيقتها سوف يضلله شخص آخر، فيعود علىٰ البطانة باللائمة، ويعتقد فيها الغش والتدليس.

لذلك رأت أن تؤثر عليه من الناحية التي يميل إليها، وتصل إلىٰ محبته لها من الطريق الذي ترىٰ أنه أدنىٰ لوصولها، ولو أنَّ تلك البطانة انتقلت إلىٰ ملك مصلح لسارعت إلىٰ الإصلاح والدعوة إليه، وحببته في ذلك العمل؛ لأنَّها تعرف من نفسه ميلًا إلىٰ الإصلاح.

وجملة القول: إنَّ بطانة الملوك اليوم إلَّا القليل منها تأخذ من نفسية الملك وتشير عليه، ومن ميوله فتنصح له، فما تأمر به البطانة هو ما يهواه الملك ويحبه، وما تنهىٰ عنه البطانة هو ما يبغضه الملك ويكرهه، فهي تردِّد صداه في أمرها ونهيها، وتنطق باسمه في ترغيبها وترهيبها، فليس لها كلمة مع الملك، ولا تستطيع أن تقول له: إنَّ ما تشير به قد خفي عليك وجه المصلحة فيه، وأن الخير في تركه، وما تنهىٰ عنه= الخير للناس في العمل به؛ لأنَّها قبلت ذلك العمل علىٰ هذا الأساس وهي أنَّها لا رأي لها مستقلًّا، ولا كلمة لها إذا كانت تُغضِب صاحب الأمر والنهي، ومن دخل عملًا علىٰ أساس أنَّه لا رأي له فيه ولا إرادة، بل إرادته تبع لإرادة الغير، وتفكيره كذلك، لا غنىٰ له عن التزام ما دخل علىٰ أساسه.

وما الذي يُنتظر من رجل يريد أن يعيش من ذلك الطريق، وأن يثري علىٰ أساس مثل هذه الوظائف، لا ينتظر من ذلك الصنف إلا أن ينسىٰ نفسه واستقلاله في سبيل حصوله علىٰ الحطام، وأنه يرىٰ الحق مهيض الجناح ضعيف الجانب فلا يستطيع أن ينصره بكلمة، وأنه يرىٰ الباطل قد طغىٰ علىٰ الحق، فلا يجد من نفسه شجاعة علىٰ كلمة حق؛ لأنَّه يتوهم أن في كلمته إغضابًا للملك، وهو حريص علىٰ رضاه.

أمَّا البطانة التي تتصل بالملوك من غير طريق الوظائف فقد يرجىٰ فيها ما لا يرجىٰ من بطانة الموظفين؛ فإنَّهم إذا نصحوا لا يخشَون ضياع رزق أو فوات مال، وإذا غضب الملك لنصيحتهم اليوم فسيرضىٰ عنها وقتًا ما، وكذلك البطانة التي يختارها الملك بعد الاختبار، ويصطفيها لنفسه بعد التجربة الصحيحة كيوسف؛ فإنَّها تستطيع أن تصل إلىٰ ما لا تستطيع البطانة الأولىٰ، وإن الملك الذي يوفق إلىٰ بطانة من ذلك الصنف لهو الملك الذي أراد الله بملكه خيرًا.

يحدثنا أبو داود عن عائشة ﵂ قالت: قال رسول الله ﷺ: «**إذا أراد الله بالأمير خيرًا جعل له وزير صدق: إن نسي ذكره، وإن ذكر أعانه، وإن أراد به غير ذلك جعل له وزير سوء: إن نسي لم يذكره، وإن ذكر لم يعنه**»[(١)].

---

(١) رواه أحمد في المسند: (٢٤٤١٤)، وأبي داود: (٢٩٣٢)، وهو صحيح. (عمرو)

وروىٰ **البخاري** عن **أبي سعيد** أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلَّا كانت له بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالشرّ وتحضه عليه، والمعصوم من عصمة الله**»[1].

(٩) ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ من حق يوسف بعد ذلك البلاء الطويل، وبعد مرور فتن كقطع الليل المظلم، وبعد هذه التجارب التي عرفته كيف يكيد الإخوة لأخيهم، وكيف يفعل الحسد بالنفوس، وكيف يفعل مكر النساء بالرجال الأبرياء، والنفوس الطاهرة، من حق يوسف بعد ذلك كله، وبعد أن قال له الملك: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ أن يطلب منه ذلك الطلب، وهو أن يجعله وزيرًا علىٰ خزائن أرض مصر، يتولىٰ تدبير شؤونها، ويحفظ خيراتها، ويستعدّ للخطر الداهم الذي سيهاجم المصريين في سنيهم المقبلة وأخبر به الملك في تأويل رؤياه.

﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ تعليل لجعله علىٰ خزائن الأرض بأنه يحفظ ما استحفظه عليه من شؤون الدولة، عليم بتصريف الأمور وإدارتها علىٰ وجه مرضي لا اتكال فيه ولا تعقيد، ومنهم من يفهم من قوله: ﴿عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِۖ﴾ اجعلني وزيرًا لمالية مصر؛ لأنَّ الخزائن جمع خزانة، والشأن في الخزائن أن يودع فيها المال، وقوله حفيظ؛ أي: أمين علىٰ المال، لا أبعثره في الشهوات، و﴿عَلِيمٌ﴾: عندي علم بجمع المال وتصريفه، ولا شيء يحتاجه الوزير أهم من أمانته وعلمه، ولا غنىٰ لأحدهما عن الآخر، فقد يكون أمينًا ولكنه جاهل، فيضيع مال الدولة بجهله، وقد يكون عالمًا، ولكنَّه خبيث النفس خائن، فيبعثر المال في شهوته ومصالحه، وقدم الصفة الأولىٰ وهي قوله: ﴿حَفِيظٌ﴾ ليرينا أنَّها أهم شيء في الوالي أو الوزير، وأن الفاقد للأمانة خطر داهم علىٰ الدولة ومرافق البلاد، وإذا كان عالمًا مع فقده لذلك الوصف كان خطره أشد، فيستطيع أن يلعب بمال الدولة، ويستخدم علمه ومواهبه في تضليل الناس وتلبيس الأمور عليهم، أما الأمين إذا كان جاهلًا وغلط كان غلطه عن حسن نية وقصد حسن، وقد يتنبه إلىٰ غلطه فلا يعود إليه بعد، وكم جربت الأمم علىٰ الوالي أو وزير المالية الخائن من

---

(١) رواه البخاري: (٧١٩٨).

خيانات، ووقفت له علىٰ فضائح ومخازي، كل ذلك لأنَّ أمر الدولة لم يسند إلىٰ وزير صالح في خلقه وأمانته، بل أسند إلىٰ لص من اللصوص غير أنَّه لص لم يتعود أن يدخل السجون؛ لأنَّ عنده من الحصانات والوظائف ما يفرق بينه وبين لصوص السجون ومجرميها.

وكان من حق الناس أن تعتبر بقول يوسف للملك: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾؛ ليريه أن من فيه ذلك الخلق، وذلك العلم، فهو أولىٰ بأن يلي أمور الناس، ولا سيما ما يتعلق بحياتهم ومعايشهم: وهو المال، وإن من فقد ذلك الخلق لا يليق لذلك المنصب ولا ينبغي له، بل يجب أن يطرد عن تلك الساحة طردًا، وأن يحال بينه وبينها بشتىٰ الوسائل، ومختلف الطرق، فيوسف الصديق بين للملك كيف يختار الوزراء، ويعلمه كيف يرشح لهذه الوظيفة، ويريه أن **الأساس الأول** لذلك هو: الحفظ والأمانة، و**الأساس الثاني**: هو العلم والدراية، ولا غضاضة علىٰ الملك في أن يسمع من يوسف، وينتفع بنصح يوسف، ويأخذ بمشورة يوسف؛ فإنَّه ملهم من الله، ومؤيد منه، ومن كان كذلك أخذت عنه الحكمة والعلم النافع المفيد.

وفي مطالبة يوسف للملك أن يجعله علىٰ خزائن الأرض؛ لأنَّه حفيظ عليم دليل علىٰ أن المستعد لعملٍ ما له أن يعرض نفسه علىٰ صاحب الشأن فيه لاختياره، وليس في ذلك غضاضة عليه، فالذي يحسن علمًا من العلوم، أو صنعة من الصنائع له أن يعرض نفسه ليفيد ويثمر فيما علم وأتقن، والذي يجد من نفسه استعدادًا للنيابة عن الأمة يعرض نفسه عليها ويبين لها ما يمتاز به علىٰ غيره من علم أو صناعة أو فن من الفنون التي تحتاجها الأمة وتحتاج من يحذقها ويتقنها، والذي يجد من نفسه استعدادًا لأن يقضي بين الناس ويحكم بينهم له أن يطلب القضاء، ويبين مواهبه، وما حصل عليه من شهادات.

وما ورد من النهي عن طلب الإمارة والحرص عليه وكذلك القضاء فمحمول علىٰ الرجل الذي ليس مستعدًا ولا يستطيع أن يقوم بأعبائها، ويدل لذلك أنَّ **أبا ذر الغفاري** طلب من رسول الله ﷺ أن يجعله عاملًا وأميرًا، فضرب

رسول الله ﷺ علىٰ منكبه، وقال: «**يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّكَ ضَعِيفٌ، وَإِنَّهَا إمارة**[1]، **وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ، إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا، وَأَدَّىٰ الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا**» [رواه مسلم].

فما دام الإنسان يأنس من نفسه الضعف، ويعلم أنه لا يستطيع الاضطلاع بالعمل الذي يطلب فمن الإنصاف ألا يطلبه؛ لأنَّه إن أجيب إليه والحالة هذه= كان وجوده في ذلك العمل الذي طلب ضارًّا بمرافق البلاد ومصالحها، وفوق ذلك كان قبوله لذلك العمل تعطيلًا لمواهب الرجل الكفء، وحرمانًا للبلاد منه، ولو أنَّ الناس فطنوا لذلك وتوجه كل واحد لما يحسن من الأعمال، وما يتقن من الفنون= لاستراحوا وأراحوا.

فيوسف عليه السلام يضرب لنا هذا المثل، ويطلب من الملك في شجاعة وجرأة أن يجعله علىٰ خزائن الأرض، ويعلل طلبه بأنَّه حفيظ عليم، لنتأسىٰ به في ذلك، ونطلب من ولاة الأمور أن يضعوا كل واحد فيما يحسن.

أما أن يطلب الرجل العمل ليعيش منه وإن كان يجهله، وهناك من يعلمه من القوم= فذلك ما لا ينبغي ولا يليق، وكما لا يليق بالرجل أن يطلب ما لا حق له فيه كذلك لا ينبغي أن يجاب إلىٰ ذلك الطلب، ولكن الناس غفلوا عن كل هذا، فأخذ كل واحد يطلب ما يحسن وما لا يحسن، وقد يجد ذلك المسيء من ولاة الأمور من يشجعهم علىٰ عبثهم، ويجيبهم إلىٰ طلبهم.

ومن غريب ما رأيت فيما يشبه ذلك ويقرب منه أن رجلًا من المطربشين قابلني يومًا ما، وطلب أن يعرف بيتي ليعمل موعدًا نجتمع فيه، فسألته عن سبب طلب الموعد، فقال: إن له مؤلفًا يريد عرضه عليّ، فسألته في أي فن ذلك المؤلف؟ فعرفني أنه في علم العقائد، فدهشت، وسكت طويلًا؛ لأنِّي أعلم أنَّه كاتب عادي في إحدىٰ الوزارات، وتربىٰ تربية عامة كما يربىٰ طلبة المدارس الابتدائية، فقلت له: وضروري أن تنشر ذلك المؤلف؟ فقال: نعم، وبعد أخذ موعد مني لم يحضر فيه، وكأنه فهم من لهجة الكلام معه استنكاري عليه أن يدخل نفسه في عداد المؤلفين.

وبعد أيام حضر عندي بالمنزل وقدم لي نسخة من الكتاب، وليس في

---

(١) في «صحيح مسلم» [(١٨٥٢)]، وغيره: «أمانة» بدل: «أمارة».

الكتاب جديد، وإنَّما هو قطع من جملة كتب، قد ضمّ بعضها إلىٰ بعض فاعتقد أن مثل ذلك يسمىٰ تأليفًا.

والقرآن الكريم يلفتنا دائمًا إلىٰ الرجوع إلىٰ الرجال المختصين في العلوم والفنون، وأن نسأل أهل الذكر، وأن نأتي البيوت من أبوابها، وينهانا أن نأتيها من ظهورها، ومتىٰ يمتنُّ الله علىٰ الأمة بالوقوف عند تعاليم القرآن، والانتفاع بحكمه وأحكامه.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، أي: مثل تمكيننا له بإنجائه من الجب وتخليصه من السجن وتزيينه في عين الملك، ﴿مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وثبتنا قدمه بها، أو المعنىٰ: وعلىٰ ذلك الأسلوب الذي سمعت من التدرج بيوسف، والتلطف في مسألته؛ إذ ألهمنا واحدًا من إخوته أن يقترح عليهم أن يجعلوه في غيابة الجب، وسخرنا له من التقطه منه، وباعه لعزيز مصر، ثم حببناه فيه، ثم أنجيناه من كيد امرأته، وأعناه علىٰ أن يصبر في السجن بعد أن طلبه الملك حتىٰ وضح أمره، وذاع صيته، وطلبه الملك ليكون صفيًا له من دون الناس.

بهذا الأسلوب اللطيف والتدبير الخفي الذي لا يَعرف ما فيه مِن عبر سوىٰ الخاصة من الناس، مكنا ليوسف في الأرض، ومهَّدنا له طريق الملك والسيادة، وهو الذي تدل عليه الآية في آخر القصة: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ يريد أنَّه إذا شاء أمرًا دبَّر أسبابه، ووضع مقدماته ووسائله، وهو لطيف في صنعه ذلك، ينفذ بلطفه في بواطن الأمور بدقة وخفاء، ولذلك ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

ولا شك أن من يحيط علمه بالأشياء جليلها وحقيرها، خفيها وظاهرها، وهو مع ذلك حكيم في صنعه، لا يعمل إلا وفق المصلحة، هو لطيف لما يشاء، وهو يقرب من قوله في آية أخرىٰ: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ غير أنَّ اللطف يمتاز بأن معه رفقًا بخلقه في تدبيره، ورحمة بهم في الوصول إلىٰ ما يريد، فلطفه تدبيره الخفي في رفق ولين.

ويؤيد ذلك المعاني الواردة في **اللطيف**، فمن معانيه: الشفاف الذي لا يحجب ما وراءه كالزجاج والماء النقي والماء الذي له هذه الصفة لا يُرىٰ له

لون، ومن معانيه الصغير الذي بلغ في صغره إلىٰ حد لا يُمَكِّن الرائي من رؤيته، أو لا يُمكِّنه من الإحساس به، ومن معانيه أنه مقابل للشيء المادي كالروح وكل ما وراء المادة، وهي معانٍ يجمعها معنىٰ الخفاء والدقة؛ ذلك هو المتبادر من كلمة ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾؛ وإلَّا فمن الذي كان يشعر أن حسد إخوة يوسف له علىٰ محبة أبيه له كان سببًا في وصوله إلىٰ بيت من بيوت مصر الكبيرة، ومن الذي كان يشعر أن تهمة امرأة العزيز له كانت سببًا في إعلاء شأنه وذيوع صيته، ومن الذي كان يحس أن وجوده في السجن كان مدعاة لتعرف الملك به، واصطفائه لنفسه، كل ذلك من المقدمات التي لا صلة بينها وبين نتائجها في بادئ الرأي، وهي تتلخص في أن يوسف حسده إخوته، فكان بذلك الحسد وزيرًا لمصر، له الأمر والنهي.

(١٠) ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾. يرينا الله -تعالىٰ- أنَّه مكن ليوسف في الأرض يتبوأ منها من الأمكنة ما شاء، ومعنىٰ (يتبوأ): يتخذها مباءة ومسكنًا له، والمراد أنه مسلط علىٰ أرض مصر جميعها لا فرق بين مكان ومكان: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾، أي: نصيب بعطائنا في الدنيا من الملك والغنىٰ من نشاء من الأفراد والجماعات ممَّا اقتضت الحكمة أن نعطيه إياها، كما قال: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨]؛ أي: بنظام وسنن لا يتخطاها، ولذلك عقبه بقوله: ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، أي: إنَّ عدل الله وحكمته يقضيان بأن لا يضيعا أجر محسن، فمن عمل للغنىٰ بإحسان وإتقان حصل عليه، ومن عمل للعلم بالتعلم تعلم، ومن أحسن إلىٰ ربه وخالقه في غيبته وحضوره حببه إلىٰ النفوس، وسهل له الأمور، وتولىٰ أمور الناس وحكمهم، وفي هذا تحريض علىٰ العمل الصالح، وأنه ينفع في الدنيا قبل أن ينفع في الآخرة، ولذلك يقول الله فيه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، فالحياة الطيبة جزاؤه في الدنيا، والجزاء بأحسن ما عملوا في الآخرة.

﴿وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾، أي: إن الذي أعده الله -تعالىٰ- للمؤمنين الأتقياء خير ممَّا كافأهم به في هذه الحياة، وأن ما يكافئون به في الآخرة فوق ما يكافئون به في الدنيا، بل لا يشترك نعيم الآخرة مع نعيم في الدنيا إلا بالاسم.

وقد بلغني عن الأستاذ الإمام وهو يتكلم علىٰ الفرق الكبير بين ثواب الدنيا وثواب الآخرة أنه قال ما مثاله:

إن الذي يذهب إلىٰ الشام ويرىٰ ما فيه من فاكهة ينكر أن تكون من جنس ما نعرف في مصر، ولا بُدَّ أن يتقزز من فاكهة مصر، فقد تفضل الحبة الواحدة من الفاكهة في الشام الحبة في مصر أضعافًا مضاعفة، في حجمها وطعمها ولذتها.

فإذا كان هذا الفرق الكبير بين نوعين، من فاكهة واحدة، في قطرين متجاورين، فما بالك بفاكهة الدنيا وفاكهة الآخرة؟ وفي الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**قال الله -تعالىٰ-: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر»، واقرأوا إن شئتم:** ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾». ورواه الشيخان[1]، أي: إن نفسًا من النفوس كائنة من كانت لا تعلم ما أعده الله للمؤمنين ممّا تقرّ به عيونهم من النعيم، حسيًا كان أو معنويًا.

ونظير الآية التي نحن بصدد شرحها قول الله -تعالىٰ-: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ۝١٤ ۞ قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۖ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٤، ١٥].

(١) رواه البخاري: (٣٢٤٤)، ومسلم: (٢٨٢٤). (عمرو)

يوسف عليه السلام

﴿وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم(١)
بِجَهَازِهِمۡ قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن
لَّمۡ تَأۡتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي وَلَا تَقۡرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾
وَقَالَ لِفِتۡيَٰنِهِ ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ
يَرۡجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا
نَكۡتَلۡ(٢) وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ
مِن قَبۡلُۖ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ
رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ(٣) أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا
وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ
ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ
يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ
إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ
أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ
لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ
ءَاوَىٰٓ(٤) إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ(٥) بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا

---

(١) هيأ لهم عدة السفر وأمتعته.

(٢) أي من الطعام ما نحتاج إليه.

(٣) نطعم، من (الميرة) وهي الطعام.

(٤) ضم.

(٥) تحزن.

جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ[1] فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ
﴿٧٠﴾ قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ
بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا
سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ
فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن
وِعَآءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا[2] لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ
ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ۞ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ
سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ
مَّكَانًا[3] وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ٥٨-٧٧].

* شرح وعبرة:

(١) ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾، أي: بعد أن مكن الله ليوسف في الأرض، وأعطاه سلطة ونفوذًا، وحل بمصر ما حل من القحط والمجاعة، جاء إخوته يطلبون طعامًا فدخلوا عليه فعرفهم هو، لأنه تركهم وهم كبار فلم يتغير فيهم شيء، أما هم فأنكروه ولم يعرفوه؛ لأنَّهم فارقوه وهو صغير، ومن شأن الصغير أن يتغير بالكبر، ولأنَّ لباس الملك وعظمته من شأنها أن تلبس عليهم الأمور، ومن شأنها أن تحول بين طالبي الحاجة كإخوة يوسف وبين الوالي كيوسف.

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾، أي: ولما أصلح أمر أولئك الإخوة بجهازهم، وهو عدة سفرهم من الزاد وما يحتاجون إليه، وأصل الجهاز: ما يعد من الأمتعة للانتقال كعدد المسافر، وما يحمل من بلد لآخر، ويطلق أيضًا علىٰ ما تزف به المرأة إلىٰ زوجها.

لما جهزهم بجهازهم وأعدّ لهم ما يلزمهم= ﴿قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾، ولما لم يفهم المفسرون وجهًا لذلك الطلب قالوا لا بد أن يكون قد جرىٰ بينهم وبين يوسف ما يوجب هذا الطلب.

---

(١) مشربة، كان يسقي بها الملك، وهي الصواع.

(٢) علمناه الكيد، ودين الملك: شريعته.

(٣) منزلة.

قال **الفخر** في «**التفسير الكبير**»: «واعلم أنَّه لا بد من كلام سابق حتىٰ يصير ذلك الكلام سببًا لسؤال يوسف عن حال أخيهم، وذكروا فيه وجوهًا:

الأول -وهو أحسنها-: أنَّ عادة يوسف ﷺ إذا سأله إنسان أن يعطيه حمل بعير لا يزيد عليه ولا ينقص، وإخوة يوسف الذين ذهبوا إليه كانوا عشرة فأعطاهم عشرة أحمال، فقالوا: إنَّ لنا أبا شيخًا كبيرًا وأخًا آخر بقي معه، وذكروا أن أباهم لأجل سنِّهِ وشدة حزنه لم يحضر، وأنَّ أخاهم بقي في خدمة أبيه، ولا بد لهما أيضًا من شيء من الطعام، فجهز لهما أيضًا بعيرين آخرين من الطعام، فلما ذكروا ذلك، قال يوسف: فهذا يدل علىٰ أن حب أبيكم له أزيد من حبه لكم، وهذا شيء عجيب؛ لأنَّكم مع جمالكم وعقلكم وأدبكم إذا كانت محبة أبيكم لذلك الأخ أكثر من محبته لكم= دلَّ هذا علىٰ أن ذلك الأخ أعجوبة في العقل وفي الفضل والأدب، فجيئوني به حتىٰ أراه»[1]. (اهـ).

وذكر المفسرون في بيان **الوجه الثاني** أنَّ إخوة يوسف لما دخلوا عليه سألهم من أنتم؟ قالوا نحن قوم رعاة من أهل الشام، أصابنا الجهد فجئنا نمتار -أي: نطلب الطعام- فقال لعلكم جئتم عيونًا، فقالوا معاذ الله، نحن إخوة بنو أبٍ واحد، شيخ صدِّيقٍ نبي، اسمه يعقوب، قال كم أنتم؟ قالوا كنا اثنىٰ عشر هلك منا واحد وبقي واحد مع الأب يتسلىٰ به عن ذلك الذي هلك، ونحن عشرة وقد جئناك، قال: فدعوا بعضكم عندي رهينة وائتوني بأخ لكم من أبيكم لِيُبلِّغ إليَّ رسالة أبيكم، فعند هذا أقرعوا بينهم، فأصابت القرعة **شمعون** -وكان أحسنهم رأيًا في يوسف- فخلفوه عنده، ثم ذكر **الفخر الرازي وجهًا ثالثًا** يقرب من الأول.

وقد اختار **الفخر** الوجه الأول وقال إنَّه أحسنها، علىٰ أنه لم يجزم به، بل قال إنَّه محتمل مناسب؛ أي في توجيه الآية وبيان السبب في أن يوسف طلب من إخوته أن يأتوه بأخ لهم من أبيهم، والغرض أنه تحدث إليهم حتىٰ أوجد سببًا يقتضي أن يطلب أخاهم من أبيهم، وهو شقيقه الذي كان يحسده إخوته علىٰ محبة أبيهم له مع يوسف، ولا يستطيع **الرازي** أن يجزم بسبب معين من هذه الأسباب

(١) التفسير الكبير: (١٨/ ٤٧٧). (عمرو)

أو غيرها، ولذلك قال إنَّه محتمل مناسب، وكذلك المفسرون لا يستطيعون الجزم بسبب معين لأنَّه لا طريق إلىٰ الجزم، إنَّما الذي يجزمون به أن يكون هناك حديث مطويّ جرىٰ بين يوسف وبين إخوته انتهىٰ بيوسف إلىٰ طلب أخيهم من أبيهم.

﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾. لما طلب منهم إحضار أخيهم جمع لهم بين الترغيب والترهيب؛ **فالأول**: قوله: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾، أي: المضيفين، وكان قد أحسن ضيافتهم، **والثاني**: قوله ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾، أي: حرمتكم من الطعام الذي سافرتم من أجله وحضرتم للحصول عليه، وكذلك أحرمكم من قرباني وأنا صاحب الطعام، وصاحب الأمر والنهي.

﴿قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾، أي: سنخادعه عنه، ونجتهد حتىٰ ننزعه من يده ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ كل ما في وسعنا في ذلك، أو لقادرون علىٰ المراودة.

وقد عبروا بالمراودة الدالة علىٰ الجهد والمشقة؛ لأنَّهم يعلمون أن أباهم يعقوب سوف لا يكون سهلًا في إجابتهم إلىٰ ما طلبوا، وأنهم سيلقون في ذلك العمل عناءً ومشقة، ولذلك لم يجزموا للعزيز بأنهم سيوفون له بما طلب، وكل ما في الأمر أنهم وعدوه بالعمل للحصول علىٰ أخيهم، وقد لا ينجحون في ذلك، وذلك عقل وحزم من الإخوة، وبعد عن المخاطرة في الوعد.

وهكذا ينبغي للرجل أن يكون محتاطًا في وعوده، ولا سيما إذا كان الموعود به ليس في قبضة الواعد، بل هو شركة بينه وبين غيره.

وكثير من الناس يتورط في مواعيده، ولا يستطيع أن يفي بها، ويعرّض نفسه للكذب، والسبب الغالب علىٰ الناس في تورطهم= أنهم وهم يعطون المواعيد لا يعملون حسابًا للوفاء قبل أن يبتوا بالموعد، والواجب علىٰ من يعطي موعدًا لك بأن يوفيك دَينك في يوم كذا أن يكون مطمئنًا لحصوله علىٰ الدين قبل ذلك اليوم، وكذلك من يعدك بأنه يتم لك العمل في وقت ما، لا بد أن يكون واثقًا من نفسه في إتمام ذلك العمل في الموعد الذي حدده.

أما الذي يَعِد وهو غير واثق من الوفاء، أوْ لم يفكر فيه فهو مخطئ آثم، قد عرض نفسه لأن تتهمه الناس بالكذب والغدر، وحسب الصانع أو التاجر أن يكون كاذبًا في وعده لتضيع ثقة الناس به، وحسب المؤمن الحازم أن يكون صادقًا وفيًا لتثق الناس به.

(٢) ﴿وَقَالَ لِفِتْيَـٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أمر يوسف فتيانه أن يدسوا ما كان معهم من بضاعة ليأخذوا بها الطعام في رحال إخوته، ورحل الرجل: ما يستصحبه من الأثاث ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ﴾ ... إلخ بيانٌ لسر ذلك العمل، وهو أنهم متىٰ وجدوا بضاعتهم التي سافروا بها لتكون ثمنًا للطعام، وعرفوا أن العزيز جمع لهم بين ثمنهم وطعامهم، متىٰ رأوا ذلك= عرفوا حق العزيز عليهم في ردها له، وحقه عليهم في وفائهم بما وعدوا.

فهو أسلوب من أساليب التوريط، لجأ إليه العزيز وهو يوسف الصديق ليكون وسيلة لحسن ظنهم فيه، ويسهل عليهم مهمتهم عند أبيهم يعقوب، وبذلك يرجعون إليه ومعهم أخوهم من أبيهم.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ بعد رجوعهم إلىٰ أبيهم يعقوب قالوا له: يا أبانا منع منا الكيل؛ أي في المستقبل، فأرسل معنا أخانا من أبينا= ﴿نَكْتَلْ﴾، أي: نرفع المانع من الكيل.

ثم لما كان لهم سابقة مع يوسف بادروا أباهم بقولهم: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ من أن يناله مكروه ولم يفصل لنا القرآن ما قالوه لأبيهم في تعليل طلب يوسف لأخيهم، بل أجمله كما أجمله عند قوله ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾، فيجوز أن يكونوا قد شرحوا له ما دار بينهم وبين العزيز، ويجوز أن يكون أبوهم قد سئم مناقشتهم والجدل معهم، واكتفىٰ بقوله لهم: ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ يريد أنّي قد جرّبت أمانتكم ومواثيقكم؛ فإن كنتم قد وفيتم بوعدكم لي عند أخذ يوسف فلتوفوا بوعدكم في حق أخيه.

ويظهر أنّ الضرورة إلىٰ الطعام كانت ملحة وشديدة؛ ولذلك تساهل يعقوب عليه السلام في شأن ابنه الثاني، وقال وهو ممتلئ حزنًا ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا وَهُوَ

﴿أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، وهو لجوء إلىٰ الله -تعالىٰ- في أن يتولىٰ حفظ ابنه الثاني، فإنه نعم الحافظ ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، وأرجو أن ينعم عليّ بحفظه، ولا يجمع علي مصيبتين: مصيبته به، ومصيبته بأخيه.

فإذا كان نبي الله يعقوب قد ضعف أمله في أولاده العشر من جهة ابنه فإن أمله في الله قويَ ورجاءه فيه لم ينقطع، لذلك رجع إليه، واستحفظه ابنه، فإنه خير من يحفظ له ابنه، وهو أرحم الراحمين، فتوجه إليه النفوس عند الشدة، ويقصد عند الاضطرار.

﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ قد بدأ الإخوة بتبليغ أبيهم أنهم قد منعهم العزيز الكيل، وأن يرسل معهم أخاهم ليعطيهم الطعام الذي يحتاجون إليه، لأن ذلك أهم شيء عندهم، يريدون أن يعملوا لتذليل هذه العقبة التي وضعها العزيز في طريق أخذهم ما يحتاجون من الطعام، وكان ذلك قبل أن يفتحوا أمتعتهم فلما فتحوها وجدوا بضاعتهم التي سافروا بها ردت إليهم في متاعهم مع الطعام.

ويقول المفسرون: إن البضاعة كانت أدمًا (جلدًا)، ونعالًا، وورِقًا، ولم يكن معهم نقود في ذلك الظرف، فلجأوا إلىٰ طريق المقايضة، وهي أول شيء بدئ به تبادل الناس في بيعهم وشرائهم، ولا مانع أن تكون بضاعتهم كذلك متىٰ صحت الأخبار.

وفهم الآية لا يتوقف علىٰ معرفة بضاعتهم، ويكفي أنَّها شيء بُضِعَ؛ أي: قطع ليُتَّجر به، وقولهم: ﴿مَا نَبْغِى﴾ يحتمل أن يكون للنفي، والمعنىٰ: ما نبغي في ذلك القول، وإنَّما نقول الحق، وهو من البغي وهو العدوان والتعدي، أو ما نطلب شيئًا وراء ما فعله العزيز، ويجوز أن تكون للاستفهام، أي: ما الذي نبغيه ونطلبه مع ذلك الفعل ومع هذه المكارم؟ وقوله: ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾، أي: إنَّ ذلك هو منتهىٰ الكرم في المعاملة ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ إذا رجعنا إلىٰ العزيز؛ أي: نجلب لهم ميرة، وهي طعام يحمل من غير بلدك ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ من المخاوف ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ -أي: حمله- باستصحاب أخينا، ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ سهل عليه متيسر لا يتعاظمه.

﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾، أي: قال لهم أبوهم: لا أعطيكم أخا يوسف حتىٰ تعطون عهدًا من الله أتوثق به، والمراد عهد مؤكد بذكر الله -تعالىٰ- أو الحلف به علىٰ أن تأتوني به إلا إذا غلبتم فلم تطيقوا حفظه، أو إلا أن تهلكوا جميعًا.

فلما أعطوه العهد والميثاق قال يعقوب: الله شاهد علىٰ ما نقول وحفيظ عليه، وهو الذي سيحاسبكم ويجازيكم إذا كنتم تريدون الوفاء أو الغدر.

(٣) ﴿وَقَالَ يَـٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

قيل إنَّ يعقوب عليه السلام نصح لبنيه ذلك النصح خوفًا عليهم من العين؛ لأنَّ الشأن في الأولاد الذين بلغوا ذلك العدد وكانوا علىٰ شيء من الجمال، ومشوا مجتمعين= أن ينظرهم الناس نظرة حسد، فيعانوا؛ أي: يصابوا بالعين.

وقد ورد في الإصابة بالعين أحاديث، ولم يهتد الناس إلىٰ اليوم إلىٰ كيفية تأثير عين الحاسد علىٰ المحسود، وكل ما قالوه إنَّها خاصة في بعض النفوس تنبعث منها بواسطة العين وغيرها إلىٰ الخارج، كما أودع الله في بعض المعادن خاصة الجاذبية.

وقيل إن نصح يعقوب لبنيه لم يكن خوفًا عليهم من العين، بل لأنَّهم اشتهروا بمصر وتحدث الناس بهم وكمالهم، فقال لهم يعقوب: لا تدخلوا المدينة من باب واحد حتىٰ لا يخافهم الملك الأعظم علىٰ ملكه فيحبسهم، والآية محتملة للأمرين.

﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ استدراك من نبي الله يعقوب علىٰ قوله المذكور، يرينا به نبي الله أن تدبير العبد لا يرفع قضاء الله -تعالىٰ- فقد يكون ناقصًا لا يفي بالغرض؛ لأنَّه تدبير مخلوق محدود في علمه واستعداده.

أمَّا تدبير الله -تعالىٰ- فأساسه العلم المحيط، والحكمة العالية، فإذا دبر الله شيئًا لم يكن إلا ما دبر، أما العبد فقد يدبر، ويأخذ في الأسباب والمقدمات ثم لا تحصل النتائج؛ لأنَّه ترك أسبابًا يجهلها، أو أن السبب الذي أتىٰ به ناقص

غير تام، وليس المراد أننا ندع الحذر ونترك الأسباب؛ لأنَّ الله -تعالىٰ- يقول: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ٧١]، بل المراد الرجوع إلىٰ الله -تعالىٰ- مع الأخذ في الأسباب؛ لأنَّه الذي يلهم الإنسان كيف يحتاط، ويعلمه كيف يرقىٰ في احتياطه شيئًا فشيئًا، ويتعلم من التجاريب والأحداث ما لم يكن يعلم.

فنبي الله يعقوب يرينا أنه يجب علىٰ الإنسان أن يحتاط، ويأخذ في الأسباب. ومع احتياطه يعلم أن احتياطه لا يبطل قضاء الله وقدره، فقد يكون احتياطه من العين مثلًا ناقصًا، فتأتي العين لنقصان المانع منها، وقد يكون احتياط السليم من عدوىٰ المريض كذلك؛ لأنَّه لم يكن علىٰ الطريق الذي رسمه أهل الفن وهم الأطباء، ولذلك تأتي العدوىٰ مع الاحتياط لأنَّه ناقص، وقد يكون آخذًا في أسباب الرزق، ولكنه جاهل بتلك الأسباب؛ كرجل يتجر مع جهله بطرق التجارة فيكون السبب الذي باشره ناقصًا، ومن أجل ذلك لم ترتب عليه نتائجه، وقد يعمل الطبيب أو الرجل الكيماوي تجاريب، ولكنها لم تثمر ولم توصل إلىٰ غايتها؛ لأنَّها تجارب ناقصة، وهكذا وهكذا.

وجملة القول إن يعقوب ﷺ يطالب بالأخذ في الأسباب، وأن ذلك لا ينافي التوكل علىٰ الله -تعالىٰ-، ويرينا أن هناك ربًّا هو رب الأسباب والمسببات، وأن علمه هو العلم المحيط، وحكمته هي الحكمة العالية، وأنه إذا دبر شيئًا، وسبق به علمه، وجرىٰ به قضاؤه؛ فإنَّما يدبره علىٰ ذلك الأساس، فلا يستطيع أن يرده أحد، أما المخلوق فهو محدود في علمه محدود في استعداده محدود في تفكيره، فقد يظن السبب مانعًا، والمانع سببًا، ويرىٰ السبب الناقص كاملًا، والضعيف قويًا؛ لذلك يجب أن يستفيد الإنسان دائمًا من التجاريب، ويطلب المزيد من العلم، ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، وليعترف دائمًا أنَّه ما أوتي من العلم إلا القليل، وأن ما علمه الإنسان في جانب ما جهله ليس بشيء.

﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ نعم إن الحكم لله فهو المنفذ لأمره متىٰ أراد ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أسندت أموري إليه، وفوضتها له ﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾، وعلىٰ كل مؤمن به أن يفوض أموره إليه، فهو الذي

يعلم من الأسباب ما لا نعلم فيعلمها لنا، ويعلم من المواقع والعقبات ما خفي عنا فيرشدنا إليها، وذلك هو معنىٰ التوكل، وهو أن تأخذ في الأسباب بقدر استطاعتك، ثم ترجع إليه وتفوض أمورك إليه فيما وراء الأسباب التي تعلمها، وليس التوكل -كما يفهمه العامة- هو التواكل، وهو أن تدع الأسباب ثم ترجع إلىٰ الله -تعالىٰ- ليوصلك إلىٰ المسببات؛ فإنَّ ذلك حمق وسفه، فالذي يدع العمل للرزق ثم يطلبه من الله ويزعم أنه متوكل عليه= كاذب في دعواه، والذي لا يطلب العلم من طريقه المألوف وهو التعلُّم، ثم يطلبه من الله لأنه متوكل عليه= كاذب كذلك في توكله؛ لأن طريق العلم هو التعلم، والذي يطلب الشفاء من مرضه ثم لا يداوي نفسه بالطريقة المألوفة للناس ويزعم أنه في ذلك متوكل عليه= كاذب. والذي يرمي بنفسه في أحضان المرضىٰ بدون أن يأخذ لنفسه الحيطة والوقاية من العدوىٰ زاعمًا أنَّه متوكل علىٰ الله هو جاهل معنىٰ التوكل، والمرأة التي تدع طعامها مكشوفًا معرضًا للأفاعي والحشرات ثم تدعي أنها متوكلة علىٰ الله= كاذبة في دعواها.

والأمثلة في ذلك كثيرة، وهي كلها ترجع إلىٰ الطمع في النتائج بدون مقدمات، والغايات بدون وسائل، وهو طمع مذموم، وتصلح كاذب، وإنَّما الصلاح الصحيح هو الذي يتفق وسنة الله في ربط الأسباب بمسبباتها، ولذلك يقول عمر: «لا يجلس أحدكم عن طلب الرزق ثم يمد يديه إلىٰ السماء ويقول: اللهم ارزقني؛ فإنَّ السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة»[1].

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾، أي: إنَّ إخوة يوسف أطاعوا والدهم، ودخلوا المدينة متفرقين لا مجتمعين، ولكن ذلك الاحتياط الذي أمرهم به أبوهم لم يدفع عنهم السوء المدخر لهم وهو اتهامهم بالسرقة وأخذ أخيهم بسبب أن صواع الملك وجد في رحله، فيعقوب كان تفكيره متجهًا إلىٰ ناحية وقضاء الله كان متجهًا إلىٰ ناحية أخرىٰ، لنعلم كما قلنا أنَّ تفكير العبد محدود، وتدبيره لا يمكن أن يصل إلىٰ تدبير الإله.

وتأمل نصيحة يعقوب لأولاده وقوله لهم: ﴿يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ﴾،

---

(١) ذكره الغزالي في الإحياء: (٢/ ٦٢). (عمرو)

وقد صنعوا بأخيهم يوسف ما صنعوا؛ لتعلم مقدار شفقة الآباء علىٰ الأبناء، وأن إساءة الأبناء للآباء لا تنزع الشفقة منهم، ولا سيما إذا كان مصدرها حسد البعض للبعض، وحرص الحاسد علىٰ أن يخلو له وجه المحسود، كما يحب الزوج الضرتين وهما يتناحران للاستئثار بمحبته، ويتقاتلان للوصول إلىٰ مرضاته فيعقوب عليه السلام لم تهاوده نفسه علىٰ التفريط في أبنائه، وقد حصل منهم ما حصل؛ لأنَّه عاقل يعلم أن الحسد قد يبلغ بالنفوس إلىٰ مثل ما بلغ بالإخوة وإلىٰ أكثر من ذلك، ويرينا أنه ينبغي للآباء أن تكون من سعة الصدر وتغليب الرحمة علىٰ الغلظة كما كان يعقوب مع بنيه، ينصح لهم بأن لا يدخلوا المدينة من باب واحد.

﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾، أي: إنَّ يعقوب ما كان ليرُدَّ عن أولاده ما ادخر لهم من حادث السرقة، ولكن حاجة في نفس يعقوب أظهرها ووصىٰ بها، وهي دعوة بنيه إلىٰ الأخذ في الأسباب، والاحتياط؛ لأنَّ ذلك هو **الذي يجب علىٰ المؤمن**: أن يأخذ حذره جهد الطاقة، ثم يفوض الأمر بعد ذلك إلىٰ الله -تعالىٰ-: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾، أي: إنَّ يعقوب عليه السلام لصاحب علم بسبب تعليم الله له، ومن علمه الذي علمه له أن يأخذ في الأسباب، ويعتقد بعد ذلك أنَّ احتياط العبد لا يغير شيئًا من قضاء الله -تعالىٰ-، إذا كان قد سبق في علمه شيء وراء ما قدر العبد ودبر، وذلك هو التوكل الصحيح ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ هذه الحكمة العالية والعلم الصحيح، فمنهم الأبله الذي يدع الأسباب جانبًا ويعيش بجهله وحمقه، ويزعم أنه متوكل علىٰ الله، ومنهم الملحد الذي ينكر أن هناك إلهًا قدرته فوق القدر، ومشيئته فوق كل مشيئة، ويرىٰ أن الأسباب التي وصلنا إليها هي كل شيء، وأن النتائج منوطة بها وجودًا وعدمًا، ولو فكروا قليلًا فيما حولهم من حوادث، وما يحيط بهم من عوالم= لعرفوا أنَّ الإنسان قد يريد الخير ويعمل له؛ فيكون الشرّ، وقد يريد الشر بأحد من الناس ويدبر له؛ فيكون الخير، كما حصل ليوسف وإخوته، وقد يريد نفع صديق فيضره، أو إنقاذ مظلوم فيزيده ظلمًا إلىٰ ظلمه، كل ذلك أدلة واضحة علىٰ أنَّ هناك إرادة وراء إرادة الإنسان، وتدبيرًا فوق تدبيره، وأنَّ الركون إلىٰ الأسباب الظاهرة، واعتقاد أنَّها الكل في الكل من الخطأ الفاحش.

(٤) ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، أي: بعد وصية أبيهم لهم ذهبوا إلىٰ العزيز، فلما دخلوا علىٰ يوسف ضم أخاه إليه وهو الذي طلبه منهم ومنع الكيل من أجله، وقال له فيما بينه وبينه ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾ يوسف ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾: لا تكن شديد الحزن بمعاملتهم لي ولك، وهي بشارة ما أبردها علىٰ قلب أخيه، فتًىٰ فقده أبوه منذ سنين، ولم يوقف له علىٰ خبر، فيتلقىٰ بشارته به، وهي بشارة مع معاينة وحضور، ولا يستطيع الكاتب أن يصور مقدار ما يحس به أخو يوسف من السرور في ذلك الوقت، ومن لطف الله به أنه لم يكن سرورًا قاتلًا لأنه سرور مفاجئ، ولو كان سرورًا بوجود الأخ الغائب لكان محدودًا، ولكنه سرور بوجود أخ غائب، وإن ذلك الأخ أصبح عزيزًا لمصر، وصاحب الأمر والنهي.

ولعل قوله: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ تذكير له بما فعله الإخوة ليعلم أنه يوسف حقًّا، فقد يخفىٰ عليه يوسف كما خفي علىٰ إخوته؛ لأنَّه فارقه صغيرًا فتغير بالكبر، ولأنَّ ملابس الملك من شأنها أن تلبس علىٰ الرائي، فأراد يوسف أن يطلعه علىٰ قصته علىٰ وجه مجمل؛ ليطمئن إلىٰ هذه البشارة، ذلك من ناحية، ومن ناحية أخرىٰ: ليكون ذلك تمهيدًا لما يصنع به يوسف من جعل السقاية في رحله، ونسبته إلىٰ السرقة في بادئ الرأي، ولو أنَّه جعل السقاية في رحله قبل أن يخبره أنه أخوه لفزع من ذلك العمل، واعتقد أنه تدبير يراد به سوء، ولكن تقديم هذه البشارة، وتذكيره بما فعله إخوته، وتطمينه من هذه الجهة= جعله في مأمن من إرادة السوء به.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾ السقاية هي المشربة التي كان يشرب بها الملك، وهي الصواع يقال: إنَّها كانت لسقاية الملك، ثم جعلت صاعًا يكال به، فإن صحّ ذلك كان هذا دليلًا علىٰ عزة الطعام، وأنَّه لعزته يكال بكيل حقير ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ نادىٰ منادٍ، وأعلم معلم ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ﴾ العير القافلة، وهي اسم الإبل التي يحمل عليها الأحمال فسمىٰ بها أصحابها.

قيل: إنَّ ذلك التأذين لم يكن بإذن يوسف، وإنَّما الذي صنعه هو أنه جعل السقاية في رحل أخيه، فلما طلبها الفتيان ليكيلوا بها لم يجدوها، ولم يكن هناك

أجنبي سوىٰ الإخوة، فظنوا أنهم هم الذين سرقوها في متاعهم، وقيل: إنَّ ذلك التأذين كان بأمر يوسف، وقول المؤذن: ﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ تعريض بسرقتهم يوسف من أبيه وإلقائه في الجب، وتضليله بأن الذئب أكله، ووضع الدم الكذب علىٰ قميصه، والتعريض لا يعدّ كذبًا كما في قول إبراهيم للنمروذ: «هذه أختي»، والمراد أنها أخته في الدين والملة وإن كانت زوجًا له.

وقيل إن هذه الصيغة ليست صيغة خبر، وإنما هي صيغة استفهام علىٰ حذف الهمزة: أي هل سرقتم الصواع؟ فهي جملة إنشائية، والإنشاء لا يقال فيه صدق ولا كذب.

وسوء كانت الجملة استفهامًا أو خبرًا أريد به التعريض بما فعلوا مع يوسف أو من عمل الفتيان فقد فهم الإخوة منها أنها نسبت إليهم أمرًا لا يليق بهم، لذلك قالوا بعد أن أقبلوا علىٰ الفتيان إقبال دهشة واستغراب ﴿مَّاذَا تَفْقِدُونَ * قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾، أي: قالوا لهم نفقد مشربة الملك، أو الكيل الذي نكيل به الطعام، ولمن جاء به حمل بعير من الطعام؛ لأنَّه كان أهم شيء عندهم، وأنا به زعيم؛ أي كفيل بأن أؤديه إلىٰ مَن رده.

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾، يقول المفسرون: إن قولهم ﴿تَٱللَّهِ﴾ قَسَمٌ فيه معنىٰ التعجب ممَّا أضيف إليهم، وإنما قالوا ﴿لَقَدْ عَلِمْتُم﴾ ليستشهدوا بعلمهم، لما ثبت عندهم من دلائل دينهم وأمانتهم في مجيئهم الأول والثاني ومداخلتهم للعزيز.

﴿قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ﴾؟ أي فما جزاء السارق إن كنتم كاذبين في دعوىٰ البراءة ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وقد جعلوا جزاء السارق أن يؤخذ في سرقته؛ لأنَّهم واثقون من براءتهم، معتقدون أن صعوبة الجزاء لا ينالهم شيء منها ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾، حتىٰ لا يفهموا الحيلة ﴿ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾، أي: كدنا لمصلحته، ودبَّرنا له، وعلمناه الحيلة والمكر بوضع الصواع في رحل أخيه،

ثم سؤالهم عن جزاء السارق، وإفتاء الإخوة بأن جزاءه من وجد في رحله، ثم بدء أوعيتهم في التفتيش قبل وعاء أخيه، وإخبار أخيه قبل هذه الواقعة بأنه أخوه حتىٰ لا ينزعج من حادث السرقة ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾، أي: ما كان يستطيع أن يأخذ أخاه منهم في شريعة الملك وحكمه؛ إلَّا أن يشاء الله سببًا آخر للأخذ، فألهمه ذلك كله ليتم له أخذ الأخ بهذه الحيلة ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ﴾، أي: في العلم والفضل ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾، أي: من هو أعلم منه، وفي ذلك تنويه بشأن العلم والذكاء[1].

---

(١) قال ابن القيم: «لهذا كاد سبحانه ليوسف حين أظهر لإخوته ما أبطن خلافه، جزاء لهم علىٰ كيدهم له مع أبيه، حيث أظهروا له أمرا وأبطنوا خلافه، فكان هذا من أعدل الكيد، فإن إخوته فعلوا به ذلك حتىٰ فرقوا بينه وبين أبيه، وادعوا أن الذئب أكله، ففرق بينهم وبين أخيهم بإظهار أنه سرق الصواع ولم يكن ظالما لهم بذلك الكيد، حيث كان مقابلة ومجازاة، ولم يكن أيضا ظالما لأخيه الذي لم يكده، بل كان إحسانا إليه وإكراما له في الباطن، وإن كانت طريق ذلك مستهجنة، لكن لما ظهر بالآخرة براءته ونزاهته مما قذفه به، وكان ذلك سببا في اتصاله بيوسف واختصاصه به، لم يكن في ذلك ضرر عليه.

يبقىٰ أن يقال: وقد تضمن هذا الكيد إيذاء أبيه وتعريضه لألم الحزن علىٰ حزنه السابق، فأي مصلحة كانت ليعقوب في ذلك؟ فيقال: هذا من امتحان الله تعالىٰ له، ويوسف إنما فعل ذلك بالوحي. والله تعالىٰ لما أراد كرامته كمل له مرتبة المحنة والبلوىٰ ليصبر فينال الدرجة التي لا يصل إليها إلا علىٰ حسب الابتلاء، ولو لم يكن في ذلك إلا تكميل فرحه وسروره باجتماع شمله بحبيبه بعد الفراق، وهذا من كمال إحسان الرب تعالىٰ أن يذيق عبده مرارة الكسر قبل حلاوة الجبر، ويعرفه قدر نعمته عليه بأن يبتليه بضدها، كما أن ﷺ لما أراد أن يكمل لآدم نعيم الجنة أذاقه مرارة خروجه منها، ومقاساة هذه الدار الممزوج رخاؤها بشدتها، فما كسر عبده المؤمن إلا ليجبره، ولا منعه إلا ليعطيه، ولا ابتلاء إلا ليعافيه، ولا أماته إلا ليحييه، ولا نغص عليه الدنيا إلا ليرغبه في الآخرة، ولا ابتلاه بجفاء الناس إلا ليرده إليه». مختصر الصواعق: (٣٠٦).

وقال: «وإذا عرفت ذلك فيوسف الصديق كان قد كِيد غير مرة: أولها أن إخوته كادوا به كيدًا حيث احتالوا به في التفريق بينه وبين أبيه [كما دل عليه قوله: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًاۖ﴾، ثم إن امرأة العزيز كادَتْهُ بما أظهرت أنه راوَدَها عن نفسه (ثم أودع السجن، ثم إن النسوة كادوه حتىٰ استجار باللّه من كيدهن فصرفه عنه، وقال له يعقوب: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًاۖ﴾ [يوسف: ٥] وقال الشاهد لامرأة العزيز: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨]، وقال تعالىٰ في حق النسوة: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّۚ﴾ [يوسف: ٣٤] وقال للرسول: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٠] فكادَ اللّه سبحانه له أحسنَ كيدٍ وألطفه وأعدله، بأن جمع بينه وبين أخيه، وأخرجه من أيدي إخوته بغير اختيارهم كما أخرجوا يوسف من يد أبيه بغير اختياره، وكاد له عوض كيد =

﴿۞ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾.

قيل: إن يوسف دخل كنيسة فأخذ تمثالًا من ذهب فدفنه، وقيل: أعطىٰ دجاجة كانت في المنزل لسائل فنسبه إخوته إلىٰ السرقة لمثل هذه الحوادث، وهي عند التأمل ليست بسرقة.

وقيل: إنَّ ذلك كذب من الإخوة وبهت ليوسف، وقد أسرّ يوسف هذه المساءة في نفسه ولم يبدها لهم، وقال في نفسه ﴿أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ﴾؛ لأنَّكم سرقتم يوسف؛ أي: أنتم شر منزلة في السرقة ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ تقولون أو تكذبون.

= المرأة بأن أخرجه من ضِيق السّجن إلىٰ فضاء المُلْك، ومكّنه في الأرض يتبوّأ منها حيث يشاء، وكاد له في تصديق النسوة اللاتي كذّبنه وراودنه حتىٰ شهدن ببراءته وعفّته، وكاد له في تكذيب امرأة العزيز لنفسها واعترافها بأنها هي التي راودته وأنه من الصادقين؛ فهذه عاقبة مَنْ صبر علىٰ كيد الكائد له بَغْيًا وعُدوانًا». إعلام الموقعين: (٥/ ١٥٨).

يوسف عليه السلام

﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَـٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾
فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟(١) مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم
مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ
ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا
شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا
وَٱلْعِيرَ(٢) ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ
جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ
يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ(٣) ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟(٤)
تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَـٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟
بَثِّى(٥) وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَـٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟(٦)
مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ

---

(١) يئسوا، والسين والتاء للمبالغة، كـ(استعصم)، و(خلصوا منه نجيًّا): انفردوا عن الناس يتناجون.

(٢) القوم الذين معهم أحمال الميرة.

(٣) مكظوم ومملوء بالغيظ على أولاده.

(٤) لا تزال ﴿حَرَضًا﴾ مشرفًا على الهلاك.

(٥) أصل البث التفريق وإثارة الشيء. والمراد ما انطوت عليه النفس من الغم لا يريد أن يبثه لأحد إلا لله -تعالى-.

(٦) تعرّفوا خبرهما، و(رَوح الله): فرجه.

﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ(١) فَأَوْفِ
لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ
وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي ۖ قَدْ
مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ۖ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا
تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ(٢) عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ۖ
يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي
يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ(٣) الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ
رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّا أَن
جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا
تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ
لَكُمْ رَبِّي ۖ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ
ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ۖ(٤) وَقَالَ
يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ
وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ(٥) مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ(٦) الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا
يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ
الْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي
بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ٧٨-١٠١].

* شرح وعبرة:

(١) ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ۖ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

---

(١) تدفعها التجار لرداءتها.

(٢) لا تأنيب ولا عتب.

(٣) خرجت من عريش مصر، (تفندون): تخرفون.

(٤) حيوه بتحية تليق به، وهي سجود لغة.

(٥) البادية.

(٦) أفسد وأغرى.

لمَّا وقع ذلك الحادث وهو وجود الصواع في رحل أخي يوسف، وقد أفتىٰ الإخوة بأنَّ جزاء من وُجِد الصواع في رحله أن يؤخذ فيه= اضطربوا، وتذكروا ما كان من وصية أبيهم وأخذه الميثاق عليهم، فأخذوا يستعطفون العزيز؛ مرة من جهة أبيهم وأنه شيخ كبير، وقد أعدَ هذا الولد لخدمته، ومرة من جهة أخلاقه وشمائله، وقولهم له: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، وقد طلبوا من العزيز أن يأخذ واحدًا منهم رهينة بدله فلم يسمح يوسف بشيء من ذلك، وقال لهم: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾، أي: نعوذ بالله معاذًا من أن نأخذ رجلًا بريئًا مكان رجل وجدنا المتاع عنده.

﴿إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ﴾ إذا نحن أخذنا البريء وتركنا المتهم، وكان ذلك ظلمًا بمقتضىٰ فتواهم أن الذي يوجد الصواع في رحله فجزاؤه أخذه فيه، فهو ظلم حسب مذهبهم الذي أفتوا به يوسف.

﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا﴾، أي: فلما يئسوا من العزيز ومن قبوله شفاعتهم، والسين والتاء للمبالغة؛ أي: فلما يئسوا من العزيز إلىٰ حد بعيد من اليأس، فقد ييأس الإنسان ويكون عنده شيء من الأمل، أمَّا هؤلاء فلم يكن في يأسهم شيء من الرجاء ﴿خَلَصُوا۟ نَجِيًّا﴾ اعتزلوا وانفردوا عن الناس خالصين لا يخالطهم أحد ﴿نَجِيًّا﴾، أي: ذوي نجوىٰ، أو فوجًا نجيًا مناجيًا لمناجاة بعضهم بعضًا، أو تمحضوا كأنهم التناجي نفسه، لاستجماع قواهم وإفاضتهم فيه بجد واهتمام، كأنَّهم في أنفسهم صورة التناجي وحقيقته، كما تقول: رجل جور، ورجال عدل.

وكان تناجيهم في تدبير أمورهم علىٰ أي صفة يذهبون؟ وماذا يقولون لأبيهم في شأن أخيهم؟ والآية تمثل لنا صورة ارتباك الإخوة لذلك الحادث، حادث حجز أخيهم في الصواع، ورجوعهم إلىٰ أبيهم فاقدين له بعد أن فقدوا يوسف، وترينا أنَّ ذلك العمل قد شغل أذهانهم وشتت أفكارهم، وآية ذلك أنَّهم توسلوا إلىٰ العزيز بكلّ أسباب التأثير عليه، فلمَّا لم ينجحوا في مهمتهم اعتزلوا الناس جانبًا، وأخذوا يتناجون، وكأنَّهم لفرط إقبالهم علىٰ ذلك التناجي، واهتمامهم به، وحرصهم عليه= انقلبوا نجوىٰ.

﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾.

يذكرهم كبيرهم في السن أو في العقل أو فيهما معًا بذلك الموثق الذي أخذه عليهم أبوهم وهو يشير إلىٰ قوله: ﴿لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ﴾.

وقوله: ﴿وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ﴾ ما فيه مصدرية، وهي وما بعدها في تأويل مصدر محله الرفع بالابتداء، وخبره: الظرف قبله؛ أي وقع قبل تفريطكم في يوسف، أو محله النصب عطفًا علىٰ مفعول ألم تعلموا، وهو قوله: ﴿أَنَّ أَبَاكُمْ﴾ كأنَّه قيل: ألم تعلموا أخذ أبيكم عليكم موثقًا، وتفريطكم من قبل في يوسف، ولك أن تجعل ما موصولًا اسميًا؛ أي: ومن قبل هذا ما فرطتموه أي قدّمتموه في يوسف من الجناية العظيمة، من الفرط وهو السلف والمقدم، أمّا علىٰ ما قبله فهو من التفريط، وهو التقصير والإهمال.

والمعنىٰ أنَّ كبيرهم يذكرهم بذلك الميثاق الذي أخذه عليهم أبوهم، ويذكرهم بسابقتهم مع يوسف وجنايتهم عليه، يريد أن المسألة بلغت من الصعوبة مبلغًا عظيمًا، ولذلك عقبه بقوله: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ﴾ في الانصراف إليه ﴿أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ﴾ بالانتصاف ممن أخذ أخي، أو بخلاصه من يده بسبب من الأسباب ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾؛ لأنَّه لا يحكم إلا بالعدل.

﴿ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾، أي: إنَّ ذلك الكبير أنفذ رأيه وبقي بمصر فلم يرجع إلىٰ أبيه، وقال لهم ارجعوا إلىٰ أبيكم فقولوا له يا أبانا إن ابنك سرق، وقد نسب إليه السرقة بناء علىٰ ما شاهد من استخراج الصواع من وعائه، أو سرق في قول الملك وأصحابه، أو ظهر عليه ما يشبه السرقة، وإطلاق اسم أحد الشبيهين علىٰ الآخر جائز.

وعن ابن عباس أنَّه قرأ «سُرِّقَ» بضم السين وتشديد الراء علىٰ البناء للمفعول؛ أي نسب إلىٰ السرقة[1].

﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾، أي: بقدر ما تيقنا من رؤية الصواع في وعائه ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾، أي: ما كنا حافظين للأمر الخفي؛ فإنَّ الغيب لا يعلمه إلا الله -تعالىٰ-، ولعل الصواع دُسّ في رحله من حيث لا يشعر، أو ما علمنا أنه سيسرق حين أعطيناك الموثق، ثم بالِغوا لأبيكم في إزالة التهمة، وقُولُوا له: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾.

قيل: القرية هي مصر، وقيل: قرية علىٰ باب مصر، وقع فيها التفتيش، والعير: القافلة، والمراد سل هؤلاء جميعهم وهم يخبرونك بكنه القصة.

(٢) ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾، أي: زينت لكم أنفسكم أمرًا أردتموه، وصورت لكم القبيح حسنًا؛ ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾، أي: فأمري صبر جميل، أو فصبر جميل أمْثَل شيء يصنع في مثل ذلك الوقت العصيب، والصبر الجميل هو الذي لا شكوىٰ فيه للمخلوق، كما قال: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ﴾، أي: بيوسف، وأخيه، والكبير الذي تخلف بمصر حياءً من أبيه وخجلًا منه ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بحالي في الحزن والأسف ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لم يبتلني بذلك إلا لحكمة ومصلحة.

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾، أي: أعرض عن بنيه يعقوبُ كراهةً لما جاؤوا به، أو انحاز في ناحية عنهم حتىٰ لا يظهر أمامهم بمظهر الجذع، وكثيرًا ما يختار الرجل البعد عن الناس في مثل ذلك الوقت ليُنَفِّس عن نفسه، قرئ: (يا أسفي) بياء المتكلم، وقرئ بالألف المنقلبة عن الياء، ينادي أسفه، وكأنه يقول له احضر فهذا وقتك وأوانك، والأسف هو أشد الحزن، وقد تأسف علىٰ يوسف دون أخويه مع أن الرزء الجديد أشدَ علىٰ النفس وأظهر أثرًا، ليرينا أن رزء يوسف لم يزل جديدًا مع تقادم عهده، وأنه أكبر رزء رآه، ولأن الرزء في يوسف كان أصل الرزايا

(١) انظرها في جامع البيان: (١٣/ ٢٨٧). (عمرو)

الأخرىٰ، فكان أسفه عليه أسفًا علىٰ الكلّ، ولأنه كان عالمًا بحياة أخويه دون حياة يوسف.

﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾، أي: إنَّه لما أكثر البكاء محق سواد عينيه فجعله بياضًا فضعف بصره، و﴿كَظِيمٌ﴾ مملوء من الغيظ علىٰ أولاده، ولا يظهر ما يسوءهم، **فعيل** بمعنىٰ **مفعول**، من كظم السقاء إذا شدّه وهو مملوء، أو ﴿كَظِيمٌ﴾ بمعنىٰ كاظم: أي ممسك لحزنه غير مظهر إياه.

ولا ضير في أن يتألم نبي الله يعقوب لهذه الشدائد، ويحزَنَ الحزنَ العميق لتلك الأحداث؛ لأنَّ هذه طبع الإنسان واستعداده، ويمتاز الصالحون بأنهم لا يُغضبون ربهم في حزنهم، ولا يخرجون به إلىٰ ما لا يحسن، ولقد بكىٰ رسول الله ﷺ علىٰ ولده إبراهيم، وقال: إن القلب يحزن، والعين تدمع، ولا نقول إلَّا ما يرضي ربنا، وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون، والأنبياء بشر يجري عليهم ما يجري علىٰ سائر الناس من الحزن والفرح، والتألم للمصائب، والاستبشار بالنعم.

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَـٰلِكِينَ﴾. يقول بعض المفسرين: الأظهر أن الذين قالوا ذلك ليسوا أولاده الذين تولىٰ عنهم، وإنما هم جماعة كانوا في الدار من خدمه، وأولاد أولاده، وهو الظاهر من توليه عن أولاده وبكائه بعيدًا عنهم، والآية تحتمل أن أولاده هم الذين قالوا ذلك بعد أن عرفوا أنه تركهم ليندب حظه مع يوسف وإخوته، وينادي أسفه، وحزنه، ﴿تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَـٰلِكِينَ﴾ هو قسم فيه معنىٰ التعجب من مكث يعقوب علىٰ ذكر يوسف، والحرض فساد في الجسم والعقل للحزن والحب، حتىٰ يكون لا كالأحياء ولا كالأموات، أرادوا أنك تذكر يوسف بالحزن والبكاء عليه، حتىٰ تشرف علىٰ الهلاك، أو تهلك، وهي كلمات إشفاق علىٰ نبي الله يعقوب، كأنهم يقولون له هوِّن علىٰ نفسك الأمر، واقتصد في ذلك الحزن، وارحم نفسك؛ فإنَّها مشفية علىٰ الهلاك.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. قال العلماء: إذا أسر الإنسان حزنه= كان همًّا، وإذا لم يقدر علىٰ إسراره لعظمه

فذكره لغيره= كان بثًا، فالبث أصعب الهم الذي لا يصبر عليه صاحبه فيبثه علىٰ الناس ليفرج عن نفسه، من البث وهو التفريق، فمعنىٰ الآية أنِّي لا أذكر الحزن الشديد ولا القليل إلىٰ أحد من الخلق، وإنما أذكره لله -تعالىٰ-، فخلوني وشكايتي، ودعوني وما أصنع ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، أي: أعلم من رحمته وإحسانه مالا تعلمون، فأرجو أن يأتيني الفرج من حيث لا أحتسب.

﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾. ناداهم بقوله: ﴿يَٰبَنِيَّ﴾ يستحثهم علىٰ تعرف أخبار يوسف وأخيه بذلك الأسلوب، ﴿فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ اطلبوهما من طريق الحاسَّة؛ كالتسمع: طلب المعرفة بالسمع، والتبصر: طلب المعرفة بالبصر، والمراد: أجهدوا حواسكم ومواهبكم في معرفة أخبار يوسف وأخيه، وهو في معنىٰ التجسس بالجيم، وإن كان الثاني كثر في الشرّ ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ﴾ فَرَجه وتنفيسه، وقرئ (من رُوح الله) بضم الراء[1]؛ أي: رحمته ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وكان اليأس من رحمة الله عنوان الكفر؛ لأنَّ اليائس سيء الظن بربه، يعتقد فيه أن قدرته تعجز عن بعض المقدورات، ومثله يأس العاصي من قبول الله -تعالىٰ- له، وتعاظم ذنبه عليه، قد نهىٰ الله عنه في قوله -تعالىٰ-: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِي ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ هنا كلام مطويّ؛ أي: فقبلوا وصية أبيهم، وعادوا إلىٰ مصر، فلما دخلوا عليه، قالوا ذلك القول.

ومرادهم بالضر: الفقر والحاجة إلىٰ الطعام، والمراد بأهلهم: مَن خلفهم ﴿وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ﴾ يدفعها كل تاجر ويردها رغبةً عنها، من أزجَيته إذا دفعته، قال -تعالىٰ-: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا﴾ [النور: ٤٣]، أي: يسوقه ويدفعه بواسطة الريح، وقيل: ﴿مُّزْجَىٰةٍ﴾: قليلة، يريد أننا قوم فقراء، جئناك بثمن قليل،

---

(١) قرأها بضم الراء قَتَادَة، والحسن، الباقون بفتحها، وهو الاختيار، انظر: الكامل في القراءات: (٥٧٧).

وربما يؤيده قوله: ﴿وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ﴾؛ فإنَّ ذلك لا يكون إلَّا حيث كان الثمن الذي معهم قليلًا لا يفي بطلبهم، وقوله: ﴿فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ﴾، أي: الذي هو حقنا، وتصدق علينا بالإغماض عن رداءة البضاعة أو قلتها، والمراد: أعطنا حقنا وزدنا عليه صدقةً منك علينا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ﴾ بما هم أهل له.

(٣) ﴿قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ﴾ أتاهم من جهة الدين، وصاغ الجملة بصيغة الاستفهام ليخفف عليهم وقع القول، أي: هل علمتم قبح ذلك العمل الذي عملتموه مع يوسف وأخيه؟ وقبل أن يتمم الجملة ختمها بكلمة اعتذار عنهم، وهي قوله: ﴿إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ﴾ لا تعلمون قبحه؛ فلذلك قدمتم عليه، أي: هل علمتم قبحه فتبتم إلىٰ الله منه؟ لأنَّ الاستقباح يجر إلىٰ التوبة، فكان كلامه شفقة عليهم وتنصحًا لهم في الدين، لا معاتبة، إيثارًا لحق الله -تعالىٰ- علىٰ حق نفسه في ذلك المقام الذي يتنفس فيه المكروب، ويتشفىٰ المغيظ المحنق، ويدرك ثأره الموتور، فلله أخلاق الأنبياء ما أسهلها، ولله عقلوهم ما أوزنها وأرجحها!

﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ﴾ عرفوه من الخطاب، أو لعله رفع شيئًا من ملابسه فعرفوه ﴿قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ﴾ صرح باسمه تعظيمًا لِمَا جرىٰ عليه من ظلم إخوته، كأنَّه قال: أنا الذي ظلمتموني علىٰ أشنع الوجوه، والله أوصلني إلىٰ أعظم المناصب، أنا ذلك الأخ الذي قصدتم قتله ثم صرت إلىٰ ما ترون، ولهذا قال: ﴿وَهَٰذَآ أَخِيۖ﴾ مع أنَّهم كانوا يعرفونه؛ لأنَّ مقصوده أن يقول: وهذا أيضًا كان مظلومًا كما كنت، فصار منعمًا عليه من الله -تعالىٰ-: ﴿قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ﴾ بكل خير دنيوي وأخروي، أو بالجمع بعد التفريق.

ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ من يتق محارم الله كما اتقيتها، ويصبر عن معاصيه، وعلىٰ التعذيب في سبيل التقوىٰ؛ فإنَّ الله لا يضيع أجره، بل يكافئه في الدنيا ويثيبه في الآخرة.

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ اعتراف منهم بتفضيله عليهم بالتقوىٰ والصبر، وسيرة المحسنين، وإنَّ شأننا أن كنَّا خاطئين، قال الأموي: المخطئ من أراد الصواب فصار إلىٰ غيره، ومنه قولهم: المجتهد

يخطئ ويصيب، والخاطئ: من تعمد ما لا ينبغي[1]، ويؤيده قول العزيز لامرأته ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾، أي: المتعمدين للإثم.

﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ لا تأنيب ولا توبيخ، وقيل: المراد لا أذكر لكم ذنبكم، واشتقاقه من الثَّرْب بسكون الراء، وهو الشحم الذي هو غاشية الكرش، ومعناه إزالة الثرب كالتجليد لإزالة الجلد، والتمريض لإزالة المرض؛ لأنَّه إذا زال الثرب وهو الشحم كان ذلك غاية الهزال والعجف، فضرب مثلًا للتقريع المدنف المضني الذي يمزق الأعراض ويذهب بماء الوجوه، و﴿ٱلْيَوْمَ﴾ ظرف للتثريب؛ أي: لا أثربكم اليوم الذي هو مظنة التثريب، فما ظنكم بغيره؟ ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، وذلك منتهىٰ الكرم من نبي الله يوسف، يعفو عنهم ثم يدعو الله لهم، ولا غرابة فهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم: يوسف بن يعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم[2].

روي أنَّ رسول الله ﷺ أخذ بعضادتي باب الكعبة يوم فتح مكة، وقال لقريش: ما تظنون أني فاعل بكم؟ قالوا نظن خيرًا، أخٌ كريم، وابن أخٍ كريم، وقد قدرت، فقال أقول ما قال أخي يوسف: لا تثريب عليكم اليوم[3].

﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يذكرون في القميص روايات وخصائص، وكل ما تعطيه الآية أية قميص كان معروفًا لنبي الله يعقوب، فهو أمارة أن صاحبه حي ﴿يَأْتِ بَصِيرًا﴾، أي: يصر بصيرًا كقولهم: جاء البناء محكمًا؛ أي: صار محكمًا، ويشهد له قوله: ﴿فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾، وقيل: يأت إليَّ بصيرًا؛ لأنَّ القميص إيذان بأن زمن المحنة قد انتهىٰ، ومدة الحزن قد مضت، وضعف بصر أبيه ما جاء إلَّا من الحزن، فمتىٰ زال السبب زال المسبَّب ﴿وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، أي: يأتني أبي ويأتني آله جميعًا.

---

(١) الصحاح: (١/ ٧٤)، لسان العرب: (١/ ٦٧). (عمرو)

(٢) عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ، قال: «الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ﷺ». رواه البخاري: (٣٣٩٠).

(٣) أخرجه النسائي في الكبرىٰ: (١٠/ ١٥٤)، (١١٢٤)، سبل الهدىٰ والرشاد: (٥/ ٢٤٢).

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾، أي: لما خرجت العير التي تحمل إخوة يوسف وتحمل القميص المبشر بحياته من عريش مصر ذاهبة إلىٰ الشام ﴿قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ﴾، أي: أشم رائحته، وذلك من خوارق العادة لنبي الله يعقوب أن يدرك بحاسة الشم من مسافات ليس من شأنها أن يبلغ الشمّ إليها ﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ تنسبونني إلىٰ الفند، وهو الخرف وإنكار العقل من الهرم ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾، أي: قال الحاضرون عنده لا تزال في ضلالك الأول بما تكابد علىٰ يوسف من الأحزان.

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ﴾ فرجع بصيرًا كما كان، والظاهر أنَّ رجوعه بصيرًا كان لمجرد إلقاء القميص علىٰ وجهه، ولم تمضِ مدة تبرأ فيها عينا يعقوب من آثار الحزن ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، فأعلم أنه رحيم بخلقه، لطيف بعباده، وأن لا يأس من روحه ورحمته ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ اعترفوا لأبيهم بالذنب، وطلبوا منه أن يستغفر اللهَ لهم، فوعدهم ذلك.

(٤) ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾، أي: فلما دخل آل يعقوب علىٰ يوسف= ضم إليه أبويه، وعانقهما؛ قيل: إنَّه حين استقبلهم نزل لهم هو في ضيعة، أو بيت بعيد، فدخلوا عليه وضم إليه أبويه ﴿ءَامِنِينَ﴾ علىٰ أنفسكم وما يلزمكم من طعام أو غيره من وسائل الحياة، وقيل: إنَّ قوله ذلك إذنٌ لهم بالدخول في مصر؛ لأنَّهم كانوا لا يدخلونها إلَّا بجواز، ولعل ذلك إذا صحَّ= سببه القحط الذي حل بمصر، فرأىٰ ولاة الأمور بها أن لا يدخلها الغرباء، لئلا يضاعفوا عليها المجاعة.

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾، أي: السرير الرفيع الذي كان يجلس عليه، أو المكان العالي الذي أعدّ له، وليس بلازم أن يكون سريرًا أو كرسيًّا ﴿وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ﴾. قال ابن عباس: خروا لأجل وجدانه سُجَّدًا لله -تعالىٰ- فكانت سجدة

شكر، وقيل: جعلوا يوسف كالقبلة وسجدوا لله شكرًا علىٰ لقائه، أو يراد بالسجدة التواضع التام علىٰ ما كانت عادته في ذلك الزمان من التحية، ولعلها ما كانت إلَّا انحناء؛ لأنَّ هذا هو اللائق بمركز نبي الله يعقوب ويوسف ﷺ، ولا يعارض ذلك قوله: ﴿وَخَرُّواْ﴾؛ لأنَّه يأتي بمعنىٰ المرور، كقوله: ﴿لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣]، أي: لم يمروا عليها صمًّا وعميانًا ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّاۖ﴾ إشارة إلىٰ رؤية الكواكب الأحد عشر وسجودها له، فذلك تأويلها وتعبيرها، قد جعلها الله رؤيا صادقة ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ لم يعرض لمسألة الإخوة ورميهم له في الجب، لأنه قال لهم ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَۖ﴾، ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾، أي: من البادية، وهي نعمة عظيمة نقل الله فيها آل يعقوب من البادية إلىٰ مصر صاحبة العظمة القديمة ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓۚ﴾ تلطُّفٌ من يوسف؛ إذ نسب نزغ الشيطان ووسوسته إليه وإليهم، ولم يجعلها لهم وحدهم، لما قلنا من أنه لم يرد تأنيبهم ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ﴾ لطيف التدبير لأجل الأمر الذي يشاؤه ويريده، ورفيق حتىٰ يجيء علىٰ وفق الحكمة والصواب، ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ﴾ يذكر فضل الله عليه بأنه أعطاه شيئًا من الملك وهو ملك مصر، ولا يخفىٰ ما في كلمة ﴿مِّن﴾ من الأدب وهضم النفس، وفضله عليه بأن علمه شيئًا من تأويل الأحاديث ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مبدعهما لا علىٰ مثال سبق ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِۖ﴾ ناصري ومتولي شؤوني، ولولا أنك وليِّي وناصري ما وصلت إلىٰ ما وصلت، وما خلصت من هذه الفتن المظلمة، والحوادث الجمة ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾، أي: أمتني منقادًا لأمرك ونهيك، واقفًا عند حدودك، وألحقني بالصالحين من آبائي، أو الصالحين من الأمم، وذلك آخر قصة يوسف ﷺ، يعترف فيه أنَّ الله وليه في الدارين، وناصره في الدنيا والآخرة، ويطلب منه أن يميته علىٰ الطاعة والانقياد، وأن يلحقه بالصالحين في منازلهم التي أعدّها لهم، وفي أعمالهم التي وفقهم لها.

ثم ختم قصة يوسف كعادته بقوله: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ يخاطب بذلك نبيه محمدًا ﷺ، ويريه أن قصة يوسف مع إخوته ومع امرأة العزيز، ومع ملك مصر من الأنباء التي غابت عنك وعن قومك، وهي دليل من دلائل صدقك، وبرهان من براهين رسالتك؛ لأنَّك لم تكن معهم وهم يمكرون بيوسف، ولكنَّه تعليم من الله ووحي صادق منه، علمك إياه وجعله تسلية لك، وحجة علىٰ صدقك، فليعتبر بذلك المعتبرون.

دعوة شعيب[1] إلى الله -تعالى-

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟[2] ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا[3] عِوَجًا وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا

(١) ورد ذكر شعيب ﷺ في القرآن إحدىٰ عشرة مرة، كلها في سياق قص أخباره، وتفصيلها، وجاءت بعد الحديث عن الأقوام الذين اهلكهم الله، من قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط، وكان شعيب يذكر قومه بهم.

ركزت دعوة شعيب ﷺ كسائر الأنبياء علىٰ التوحيد، وعبادة الله، وتقواه، والتذكير بالآخرة، والدعوة للتوبة والاستغفار. واختصت بالحديث علىٰ الانحراف الذي أصاب قومه في الجانب الاقتصادي، وتؤكد دعوته ﷺ علىٰ شمولية الرسالة الإلهية. لجميع شؤون الحياة، وأن الانحراف في بعض أجزائها التفصيلية مع الانحراف الكلي سبب من أسباب الهلاك.

انظر: رسالات الأنبياء: (١٠٧). (عمرو)

(٢) تنقصوا.

(٣) تطلبون الطريق إلىٰ الله ذات عوج بالطعن والتشكيك فيها.

ٱفۡتَحۡ(١) بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ(٢) فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ(٣) عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥-٩٣].

* شرح وعبرة:

(١) يرينا الله -تعالىٰ- أنه أرسل إلىٰ مدين أخاهم في النسب أو الدار شعيبًا، ومدين قبيلة سميت باسم أحد ذرية إبراهيم ﷺ، وأنه حينما بعثه الله إلىٰ مدين ﴿قَالَ﴾ لهم: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ﴾ شأن جميع الرسل في بدء دعوتهم بالتوحيد ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ﴾ حجة وبرهان علىٰ صدق دعوىٰ شعيب.

ومن المفسرين من يرىٰ أنَّ هذه المعجزة لشعيب ﷺ لم تذكر في القرآن كما ذكرت معجزة صالح -وهي الناقة- ومعجزة موسىٰ ﷺ، والأصل أن كل رسول يؤتيه الله من الآيات ما من شأنه أن يؤمن بمثله البشر.

روىٰ الشيخان من حديث أبي هريرة أنَّ النبي ﷺ قال: «**ما من الأنبياء نبي إلَّا وقد أعطىٰ ما مثله آمن عليه البشر، وإنَّما كان الذي أوتيت وحيًا أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة**»(٤).

ومنهم من قال: إنَّ البينة كل ما تبين به الحق، فهي تشمل المعجزات الكونية، والبراهين العقلية، ويرجح الوجه الأول قوله: ﴿فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ ... إلخ؛ فإن عطف الأمر بالفاء لا يصح إلَّا إذا كان مبنيًّا علىٰ ما هو سبب له وهو البينة علىٰ صدقه، ووجوب طاعته، ولو كان معطوفًا علىٰ قوله: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾= لعطف بالواو.

---

(١) افصل واحكم.

(٢) من غني بالمكان: طال مقامه فيه مستغنيًا به عن غيره.

(٣) أحزن الحزن الشديد.

(٤) روه البخاري: (٤٩٨١)، ومسلم: (١٥٢). (عمرو)

(٢) بدأ الدعوة بالتوحيد؛ لأنَّه أساس العقيدة، وركن الدين الأعظم، وقفَّىٰ عليه بالأمر بإيفاء الكيل والميزان إذا باعوا، والنهي عن بخس الناس أشياءهم إذا اشتروا؛ لأنَّ ذلك كان فاشيًا فيهم أكثر من سائر المعاصي، فكان شأنه كشأن لوط ﷺ إذ بدأ بنهي قومه عن الفاحشة التي كانت فاشية فيهم.

وكذلك ينبغي للداعي إلىٰ الله أن يتفقد القوم ليعرف مواطن الضعف منهم، والجرائم المتفشية فيهم، ليعمل علىٰ نهيهم عنها، وتنفيرهم منها.

ومن الجهل الفاضح أن ينهىٰ القوم عن منكرات لا يعرفونها وليست مألوفة لديهم، وقد يكون كلام الداعي في هذه المنكرات مدعاة لسؤالهم عنها وتعرفهم لها، فيكون الواعظ أشبه بداعية إلىٰ المنكرات بدل أن يكون داعية إلىٰ الفضائل.

وجملة القول: إنَّ مركز الواعظ من الأمة مركز الطبيب الذي يعرف الداء فيصف الدواء، وقد يكون هنا أدواء كثيرة ولكن بعضها أخطر من بعض، فمثلًا مرض الحميات والأوبئة أخطر علىٰ الناس من الأمراض الجلدية، فهل من العقل أن يُعنىٰ الطبيب بمرض جلدي يستطيع المريض أن يعيش معه أيامًا وشهورًا ثم يغفل عن مرض من أمراض الحمىٰ الفتاكة، أو يتغاضىٰ عن نوع من أنواع الوباء حتىٰ ينشر، ويقضي علىٰ الأخضر واليابس!!

فإذا كان المتفشي في قرىٰ الريف تقليع الزرع، وتسميم البهائم، وحرق الغلال، وقتل النفس التي حرم الله قتلها، وتأريث العداوة والبغضاء بين البيوت والأسر، وكتمان الشهادة، ومداهنة عصابات السوء، وعدم التعاون علىٰ تأديبهم بواسطة الحكومة، وممالأة الحكام علىٰ أخذ الرِّشا؛ إذا كان ذلك هو المتفشي في قرىٰ الريف، فعلىٰ الداعي إلىٰ الله -تعالىٰ- أن يحصر همه في علاج هذه الأمراض، وتطهير النفوس من أولئك الجرائم.

وإذا كان المتفشي في المدن: مرض الزنا، واللواطة، وشرب الخمر، والإدمان علىٰ المخدرات، واتخاذ أخدان بدل الزوجات، والكذب والنفاق، وضعف العزائم، وما إلىٰ ذلك من فساد، فعلىٰ الواعظ أن يكثر من الكلام علىٰ ذلك النوع من الجرائم.

ومن المضحك أن تسمع من واعظ في القاهرة مطالبة الناس بتنقية الزرع من الدودة في أكبر مسجد من مساجدها، وهو يعلم أنَّه لا يضم بين جوانبه سوىٰ الموظفين في مصالح الحكومة علىٰ اختلاف درجاتهم.

من المضحك أن تسمع من الواعظ أمثال ذلك اللغو في مكان لا صلة له بالمزارع، ولا لأهله بذلك الواجب، ولو أنَّ الواعظ كان بِقُرىٰ الريف، وأخذ يعاون الحكام علىٰ القيام بذلك الواجب إزاء الزراعة التي هي العماد الأول لثروة البلاد= لاستحق من الله علىٰ عمله هذا الأجرَ، ومن الناس الشكر، ولكنَّه مع الأسف الشديد لم يعرف قيمة نفسه، ولم يحدد مركزه ممن يعظهم، وهل هو طبيب يعالج أمراض الناس، أو مهرج، وهل هو قائم بعمل جدِّي سيحاسبه الله عليه، أو هو مجرد رسوم ومظاهر؟

الحق أنَّ الأمة سئمت ذلك النوع من الوعظ الذي لا يتصل بحياة الأمة في أخلاقها، وعلومها وصناعاتها، لا في قليل ولا كثير، والحق أن للأمة بعضَ العذر إذا هي نفرت من ذلك الوعظ نفور الشاة من الذئب.

وإذا كان السواد الأعظم من خطباء المساجد لا يزالون عاكفين علىٰ دواوين فات زمانها، وانتهىٰ وقتها، وعملت لجيل غير الجيل، وزمان غير الزمان، فكيف تنهض بأولئك الخطباء، وكيف نسعد بقوم لا يحسون ما نحس، ولا يشعرون بما نشعر من آلام، ويا ليتهم يأخذون من الديوان الفكرة، ثم يصوغونها في أسلوب جذّاب، وقول طلي، أوليتهم حفظوا ما في الديوان من عبارات ثم أخذوا يؤدونها للناس، ولكنَّهم مع الأسف يصعد الرجل منهم إلىٰ المنبر، ووُرَيقات الديوان في جيبه، فإذا جاء أوان الخطبة وضع عينة في الوريقات، لا يرفعها إلا حيث انتهت الخطبة.

فقل لي بربك: أيُّ صلاح للأمة يرجىٰ من ذلك الواعظ البالي في موضوعه وشكله، وأيُّ حياة للناس يطلبونها من هذه الطائفة التي لم تستطع أن تفهم ما تريد أداءه، فتؤديه بعبارة طليّة جذابة.

وإنَّك لو حاولت أن تصلح من شأن أولئك الضعفاء لرجعت بائسًا خائب الأمل.

فهذا كتاب «**مفتاح الخطابة والوعظ**» الذي طبعته منذ ثمان سنين[1]، وقد فتحت فيه للواعظ باب الارتجال في الوعظ والخطابة، ومهَّدت له الطريق، وسهَّلت له ذلك العمل إلىٰ أقصىٰ حدود التسهيل، فجمعت في الكتاب كلَّ ما يحتاجه الواعظ من أبواب العبادات، والمعاملات، والأخلاق، والمنكرات الظاهرة، ثم جمعت في كل باب ما يناسبه من آيات القرآن الكريم، وأحاديث الرسول ﷺ، وعلَّقت عليه بعض تعليقات تشرح غريبه، وتُبَيِّن مجمله، وتلفت إلىٰ حكم الشريعة في أبوابها المختلفة، طبعت ذلك الكتاب بعد أن عُرِض علىٰ لجنة من كبار العلماء، وقَرَّرَتْ أن الكتاب صالح لأن يكون مادة يستعين بها الوُعَّاظ في دروسهم ومواعظهم، ثم عَرَضَتْه علىٰ وزارة الأوقاف فأخَذَتْ منه ألف نسخة وزَّعتْها علىٰ مساجدها وزواياها؛ ليكون مرجعًا للواعظ يُحَضِّر منه خطبته، ويستعين به علىٰ درسه.

ولو أنَّ الواعظ أراد أن يخطب في موضوع من مواضع الكتاب، ثم لم يكن منه إلَّا أن يتلو آيات القرآن الكريم، وما معها من أحاديث= لكان ذلك العمل اليسير خطبة ملمة بالموضوع الذي يخطب فيه، فكيف إذا أضاف إلىٰ الآيات شيئًا من التعليق والتفسير.

طَبعَتُ ذلك الكتاب وقدَّمَتُهُ لوزارة الأوقاف مقتنعًا بأنَّ الكتاب سيعمل نهضة واسعة في الوعظ والخطابة، ولكن مع الأسف، الوعظ هو الوعظ، والجمود علىٰ القديم هو الجمود، والتعويل علىٰ دواوين الخطباء بالغٌ أشُدَّه، والكتاب ملقًىٰ عند أئمة المساجد كعُهْدَةٍ من عهد الأوقاف، أو قطعة من الحصير البالي، تُرِكَت في زاوية من زوايا المسجد.

والعلة في ذلك كله هم، أولئك الأئمة الذين قعد بهم الضعف عن أن يجاروا الزمن، فيعدوا له ما يناسبه من أساليب، وإنَّك لو فعلت معهم ما فعلت لكي تغير من أساليبهم ما وجدت لذلك سبيلًا.

---

(١) طبع عدة مرات، منها طبعة دار الرائد العربي ببيروت، عام (١٤٠٦ هـ)، (١٩٨٦ م)، واعتمد المؤلف في الكتاب علىٰ تقسيمه لكتب، وتحت كل كتاب عدة مواضيع، وتحت كل موضوع طائفة من الآيات، تتلوها طائفة من الأحاديث، وهكذا إلىٰ نهاية الكتاب. (عمرو)

هذا رأينا في جمهرة أئمة المساجد وإن كان القليل منهم علىٰ ما نحب من قوة ونشاط، وفهم لما يحيط بهم من ظروف، وما يلم بهم من علل وأمراض، ونرجو أن تتغلب تلك القلة، فيصبح الجميع أو الأكثر مؤديًا لعمله، مضطلعًا بما كلفه الله به من مهامَّ وواجبات.

أمَّا أملنا في وعاظ المراكز والأقاليم فهو في جملته فوق أملنا في أئمة المساجد، ورجاؤنا أن يكونوا ممَّن يدعون إلىٰ الله علىٰ بصيرة بدينهم ودنياهم وشؤون أمتهم، وأن يكونوا منها بمنزلة الروح من الجسد، وأن يسدد الله خطاهم ويوفق ولاة الأمور لمساعدتهم في مهمتهم، والأخذ بناصرهم.

(٣) يطالب نبي الله شعيب ﷺ قومه بإيفاء الكيل والميزان؛ لأنَّ التطفيف كان شائعًا فيهم، وقد توعَّد الله المطففين بالويل، فقال: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ١-٦]، وفي الآيات بيان التطفيف، وهو أنَّ الرجل إذا أخذ من الناس مكيلًا أو موزونًا استوفىٰ حقه، وإذا كال الناس أو وزنهم أخسر الكيل والميزان، وهو خُلُق رديء، يوجد الآن في المسلمين ولا سيما التجار منهم، فتجدهم يعملون نوعين من الكيل؛ نوعًا للشراء ونوعًا للبيع، وإذا لم يستطيعوا الوصول لذلك العمل خوفًا من سلطة الحاكم؛ فإنَّهم يستبقون عندهم المكاييل القديمة.

والشأن فيها أن يتآكلها القدم، فتنقص عن المكاييل الجديدة؛ يستبقون ذلك النوع من المكاييل ليكيلوا الناس به إذا هم باعوهم، أما في شرائهم فيعمدون إلىٰ الجديد منها ليكتالوا بها، وهو ضرب من الغش والخديعة، يلجأ إليه التجار وأصحاب الحبوب والمزارع؛ ولذلك نزع الله البركة من التجارة، كما نزعها من الزروع فسلَّط عليها الآفات.

وممَّا نهاهم عنه نبي الله شعيب أن لا يبخسوا الناس أشيائهم، والبخس: هو النقص، والأشياء أعم من المكيل والموزون، كالمواشي والمعدودات، ويشمل البخس في المساومة، والغش والحيل التي تُنتَقص بها الحقوق، ويشمل بخس الحقوق المعنوية كالعلوم والفضائل، وكل ذلك فاشٍ في هذا الزمان فأكثر

التجار باخسون مطفِّفون، مُخسِرون فيما يبيعون ويشترون، وأكثر أهل العلم والأدب وكتاب السياسة بخاسون لحقوق صنفهم، وينكرون علىٰ غيرهم ما أعطاه الله بباعث البغي والحسد والغرور.

وأكبر أنواع البخس، ما نراه من رجال السياسة ودعاة الاستعمار، إذا نبغ فيهم رجل شادوا بذكراه، ووضعوا له التماثيل، وأحلُّوه من المكانة العلمية أو السياسية حيث يستحق، أما إذا نبغ في البلاد التي احتلوها فرد أو جماعة؛ فإنَّهم لا يعترفون لهم بنبوغه، ولا ينزلونهم حيث أنزلتهم مكانتهم في العلم أو الثقافة، بل يتغاضون عنهم، ويتناسَون ما أعطاهم الله من مواهب، وما منحهم من مزايا وخصائص، حتىٰ يموت فيهم ذلك النبوغ، وحتىٰ لا يتأسىٰ أحد بهم في الطريق الذي سلكوه، والتضحيات التي قاموا بها، وكثيرًا ما يلجأ المستعمر إلىٰ قتل النبوغ من ناحية أخرىٰ سوىٰ تثبيط النابغ، والحط من شأنه؛ تلك الناحية هي أن يصرفه عن الجهة التي نبغ فيها، ويشغله بعمل لا يمت علىٰ مواهبه بصلة، فمثلًا إذا نبغ في البلاد رجلٌ مهندس، فإنه يشغله بعمل إداري؛ ليميت فيه تلك الناحية الهندسية التي ترجو البلاد من ورائها نفعًا كبيرًا، وخيرًا واسعًا، وإذا نبغ رجل في علم الكيمياء شغله المستعمر بعمل كتابي أو ما يشبه ذلك العمل، وبمرور الأيام علىٰ ذلك النابه تتأكسد معلوماته، وتنتهي تجاربه، ويصبح أثرًا بعد عين، لم تجن البلاد من نبوغه شيئًا، ولم تستفد من عبقريته فائدة، ألا قاتل الله السياسة وأغراضها؛ فإنَّها هي العلة الأولىٰ في حرمان البلاد من نبوغ أبنائها، والحيلولة بينها وبين ثمرات رجالها، قاتل الله السياسة؛ فإنَّها هي التي تحمل المستعمر علىٰ أن يبخس أهل البلاد حقهم، وينقصهم قيمتهم؛ فإنَّ المستعمر إذا اعترف لأهل البلاد بالنبوغ، واستئهالهم أن يديروا دفتها، ويقوموا بما عليهم لبلادهم من أعمال وتكاليف= فقد أقام علىٰ نفسه الحجة بوجوب الجلاء، وتَرك البلاد لذويها وأصحابها.

بقي من بخس رجال الاستعمار الناس أشياءهم نوع خفي من أنواع البخس، لا يفطن له سوىٰ الخاصة من الناس، ذلك النوع هو شراء ذلك النبوغ بثمن زهيد، لا تستفيد منه البلاد، بل هو شرّ مستطير عليها، شراء ذلك النبوغ

بالمناصب الكبيرة، وشغل أصحابه عن التفكير الجدي فيما يعود علىٰ الأمة بالخير بتلك المناصب التي تشغل جميع أوقات الرجل، وإن الرجل متىٰ أحس بأنه في منصب كبير يدر عليه مالًا جمًّا، وشعر بأنه ذو سلطان ونفوذ؛ متىٰ أحس الرجل ذلك الإحساس، ضعف إحساسه بالواجب عليه نحو أمته، وأصبح يفكر في بقاء ذلك المنصب، ويعمل له حسابًا وألف حساب، وحين ذاك يأخذ في استعمال نبوغه فيما يسمونه الحكمة والتؤدة في الأمور، وإتيان البيوت من أبوابها، وما إلىٰ ذلك من الكلمات المعسولة التي تحمل في طياتها الجبن، والخور، والهزيمة والتردد، كل ذلك بفضل سلطان المنصب الكبير، والمال الجمّ والنفوذ الواسع.

ولو نظر الإنسان نظرة فيها شيء من الإمعان لعرف أن المستعمرين دائمًا يعمدون إلىٰ الأذكياء فيكبلونهم بالمناصب، كيما يضمنوا كمّ أفواههم، وصمَم آذانهم، وبذلك يكون نبوغهم لهم لا عليهم، وذكاؤهم مستخدمًا في تثبيت أقدامهم وشرعية بقائهم.

(٤) ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ بالظلم وأكل أموال الناس بالباطل، والبغي والعدوان علىٰ الأنفس والأعراض، وإفساد الأخلاق والآداب بالإثم والفواحش الظاهرة والباطنة، وإفساد العمران بالجهل وعدم النظام، فقد أصلح الله -تعالىٰ- حال البشر بنظام الفطرة، وكمال الخلقة، ومكنهم من إصلاح الأرض بما آتاهم من القوىٰ العقلية والجوارح، وبما أودع في خلق الأرض من السنن الحكيمة، وبما بعث به الرسل من مكملات الفطرة.

يلفتنا إلىٰ أنَّ الإعراض عن دعوة الرسل، ومناصبتهم العداوة هو إفساد في الأرض؛ لأنَّ الرسل -صلوات الله وسلامه عليهم- إنَّما جاؤوا بسعادة الناس في دينهم ودنياهم، جاؤوا بالأخلاق المرضية والأعمال الصالحة، جاؤوا ليحلوا للناس الطيب، ويحرموا عليهم الخبيث، وما دامت دعوة الرسل هي دعوة إلىٰ الإصلاح في الأرض، فالخروج عليها فتنة في الأرض وفساد كبير ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ الإشارة إلىٰ كل ما تقدم من أمر ونهي؛ أي: هو خير لكم في دينكم ودنياكم، لم يكن تكليف إعنات، فالله -تعالىٰ- لا يأمركم إلا بما هو نافع لكم، ولا ينهاكم إلا عما هو ضارّ بكم، وهو غني عنكم، ولو شاء لأعنتكم، وقوله

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ يريد أن مقتضىٰ إيمانكم بالله، وأنه المشرع الذي لا يعدو حدَّ الحكمة والمصلحة، ولا يُحِلّ للناس إلا الطيب، ولا يحرم عليهم إلا الخبيث؛ مقتضىٰ ذلك الإيمان اتباع رسوله والعمل بجميع ما جاء به من عند الله، وإن خالف الهوىٰ، أو لم تظهر له منفعة بادئ الرأي، بل مقتضىٰ الإيمان اتباع الرسول حتىٰ فيما يظن المؤمن أنه منافٍ لمصلحته، فتحصل له فوائده ومنافعه، وإن لم يعلم أنه علة لها بحسب حكمة الله وسننه، فكيف إذا علم ذلك بالتفقه في الدين، والوقوف علىٰ حكمه وأسراره.

وقد عهد في القرآن الكريم التقيد بهذا الشرط في مواطن كثيرة فتراه في سورة البقرة يؤنب المفرقين بين رسول ورسول في أصل الإيمان، ويقول: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩١]؛ ليريهم أن مقتضىٰ أيمانهم بما أنزل عليهم من الكتب أن لا يقتلوا رسولًا من الرسل، ومثله في سورة آل عمران ﴿قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٨٣].

وترىٰ نبي الله عيسىٰ ﷺ وهو يعظ قومه وقد اقترحوا عليه إنزال مائدة من السماء، يقول لهم: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ١١٢] يريد أن مقتضىٰ إيمانكم ألا تحرجوني، وترىٰ القرآن الكريم في سورة الأنفال يقول: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

وتراه وهو يحرض علىٰ قتال قوم نكثوا الأيمان، وهمّوا بإخراج الرسول من بلده وبدؤوا المؤمنين بالعداوة، يقول لهم في سورة التوبة: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٣].

وتراه في سورة النور بعد أن وعظ الذين جاؤوا بالإفك، وأخذ يذكرهم بما يجب عليهم نحو إخوانهم المؤمنين من ظن الخير، والاحتياط في الرمي بالزنا، وبعد أن بين الله أنه لولا فضل الله عليهم لمسهم فيما أفاضوا فيه عذاب عظيم؛ بعد ذلك كله يقول لهم ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

من ذلك كله تعرف أن الغرض من هذا الشرط حفز النفوس إلىٰ العمل، وسوقها إلىٰ الامتثال ما دامت قد آمنت بأن الله -تعالىٰ- لا يشرع للناس إلّا ما

فيه الخير، ولا يريد بتشريعه إعناتها، وما دام أساس تشريعه العلم المحيط، والحكمة العادلة، وأن الرجل منا إذا وثق بطبيب من الأطباء أسلم له نفسه ليعطيه من الأدوية ما شاء، ويدخل علىٰ نظام معيشته من الأساليب ما يريد، وقد يكون في دوائه القضاء العاجل علىٰ ذلك المريض، بل يسلم الرجل نفسه للطبيب ليبتر عضوًا من أعضائه لا غنىٰ له عن بتره، يُقْبِل المريض علىٰ الطبيب راضيًا مطمئنًا، ثم يكلف نفسه استساغة دوائه المر، وعلاجه الممِضّ، ويصبر علىٰ عملية البتر أو بقر البطن أو إخراج عضو من أعضائه الباطنة، كل ذلك لأنَّه وثق بذلك الطبيب المحدود العلم، القليل البضاعة في صناعة الطب، أفلا يسلم نفسه لإله قادر حكيم، له من العلم المحيط، والقدرة الشاملة، والحكمة الواسعة، ما لا يعرفه غيره، ولا يحيط به سواء؛ إذا كان الإيمان بالطيب -وهو عرضة للخطأ ولم يؤتَ من العلم إلَّا القليل- قد يصل بالرجل إلىٰ حدٍّ أن يسلِّمه نفسه، فيُحرِّم علىٰ نفسه من أنواع المأكولات والمشروبات ما حرمه عليه الطبيب، ويبيح لنفسه ما أباح، وقد يمكث الشهر أو الشهور وهو محمي من بعض الأطعمة أشوق ما تكون إليه، ومن بعض الأشربة ألذ ما تكون عنده، أفلا تكون الثقة بالله -تعالىٰ- أعلىٰ وأغلىٰ من هذه الثقة؟ والاطمئنان إلىٰ تحليله وتحريمه فوق الاطمئنان إلىٰ أوامر الطبيب ونواهيه؟

نعم إنَّ **الإيمان** بالله -تعالىٰ- **أعظم** من إيمان الناس بعضهم ببعض، **والثقة** بتشريع الله الذي لا يأتيه الباطل، ولا يتعرض للخطأ= **أقوىٰ وأشد**، وعلىٰ المؤمن أن يثق بأمر الله -تعالىٰ- ونهيه، ووعده ووعيده، فإن فَقِه حكمة الله في تشريعه فذلك فضله، وإن جهل حكمته فليعمل علىٰ فقهها، ولا يجرمنه جهله بالحكمة أن يدع العمل بما جهل، فإن ثقته العامة بحكمة الشارع تغنيه عن فهم الحكمة الخاصة للباب الذي جهل حكمته.

وقد ضرب الإمام **الغزالي** مثلًا لذلك: الطبيب يصف لك دواء قد ركب من عدة عقاقير، علىٰ نسب خاصة، فهل من العقل أن تقول للطبيب لا أتعاطىٰ دواءك إلَّا بعد أن أعرف ما حواه من عقاقير، وما اشتمل عليه من نسب، أو العقل والحكمة أن تدع ذلك التفصيل للرجل الذي درس العقاقير، وعرف خصائصها،

ودرس الأمراض فعرف علاجها ويركب لها من الأدوية ما يناسبها، وشرط فيها من النسب والأوضاع ما يمكّن من القضاء عليها، فالدين في جملته معقول واضح، وفي أوامره ونواهيه علىٰ وفق الحكمة والمصلحة، وقد يعرض لبعض الناس شبهة في حكمة عمل خاص فتقف به تلك الشبهة عن الاطمئنان لذلك العمل، كالحج شرعه الله ليكون وسيلة من وسائل التعارف واتصال الشعوب بعضها ببعض.

وقد أشار الله -تعالىٰ- إلىٰ تلك الحكمة بقوله: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٩٧]، وقال: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ [الحج: ٢٧، ٢٨]، فإذا جهل الإنسان حكمة السعي بين الصفا والمروة، أو حكمة رمي الجمار فحسبه أن يعرف الحكمة العامة، وكالصلاة شرعها الله -تعالىٰ- لأنَّها تنهىٰ صاحبها عن الفحشاء والمنكر، كما قال: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، فإذا جهلنا حكمته في أن جعلها خمسًا في كل يوم وليلة، وجعل الظهر أربعًا والمغرب ثلاثًا، والصبح اثنين، فلنكل حكمة ذلك التفصيل إلىٰ المشرع الحكيم، كما وكلنا حكمة نسب الدواء إلىٰ الطبيب الذي يعرف جملته وتفصيله، وكالصوم شرعه الله -تعالىٰ- ليُعِدَّنا به للتقوىٰ، كما قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة ١٨٣]، فإذا جهلنا حكمته في جعله شهرًا في كل عام، فلا يقف بنا جهل حكمة العدد عن أداء الصوم، وهكذا.

وحسبنا أن نعرف أنَّ العبادات معقولة في جملتها، وإن كانت تعبدية في تفصيلها، ولعلنا بعد زمن نفقه هذه الحكم، ونقف علىٰ أسرار التشريع، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤]، ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

(٥) ﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ﴾ روي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: «كانوا يجلسون في الطريق فيقولون لمن أتىٰ عليهم: إن شعيبًا كذاب فلا يفتننكم عن دينكم»، وفي

رواية عنه: بكل صراط (طريق) توعدون؛ قال: «تخوفون الناس أن يأتوا شعيبًا»[1].

وروي عن مجاهد تفسيره بالسبيل المجازي؛ أي: بكل سبيل حق، ويصح إرادتهما معًا؛ فهو ينهاهم أن يقعدوا بكل طريق يتوعدون المؤمنين ويتهددونهم إذا هم آمنوا، ويصدون عن سبيل الله ودينه الحق المؤمنين بالقوة، أو بضروب الفتنة والتعذيب، كما حصل من قريش في بدء الإسلام كانوا يعذبون ضعفاء المؤمنين ليفتنوهم عن دينهم، ويصرفوهم عن الحق كـ: «**بلال بن رباح**» كان مملوكًا لأمية بن خلف الجمحي، فكان يجعل في عنقه حبلًا ويدفعه إلىٰ الصبيان يلعبون به وهو يقول: «أَحَدٌ أَحَدٌ»، وكان أمية يخرج به في وقت الظهيرة في الرمل الشديد الحرارة لو وضعت عليه قطعة لحم لنضجت، ثم يؤمر بالصخرة العظيمة فتوضع علىٰ صدره، ثم يقول له: لا تزال هكذا حتىٰ تموت، أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزىٰ، فيقول: «أَحَدٌ أَحَدٌ»[2]، ومثله: «**عمار بن ياسر**»، وأخوه وأبوه وأمه، كانوا يعذبون بالنار، فمر بهم رسول الله ﷺ فقال: «**صبرًا آل ياسر فموعدكم الجنة**»[3]، و«خَبَّاب بن الأرت» سُبِيَ في الجاهلية فاشترته أم أنمار، وكان حدادًا، فلما أسلم كانت مولاته تأتي بالحديد المحماة فتجعلها علىٰ ظهره ليكفر، فلا يزيده ذلك إلَّا إيمانًا[4]، هذه مُثُل ممن فعلته قريش مع المؤمنين ليصدوهم عن سبيل الله، وهو يرينا مقدار حنق أعداء الحق علىٰ المؤمنين، وتألمهم من إيمانهم في كل زمان.

* أما قوله: ﴿وَتَبۡغُونَهَا عِوَجٗاۚ﴾ فالمراد أنهم أضافوا إلىٰ قعودهم بكل طريق يتوعدون المؤمنين فيه، ويصدونهم عن سبيل الله؛ أضافوا إلىٰ ذلك أنَّهم يبغون طريقة الرسل معوجة أو ذات عوج؛ أي: غير مستوية ولا مستقيمة.

فأصحاب الظلم العظيم -وهو الشرك- يشوبون التوحيد بشوائب كثيرة من الوثنية، أعمها الشرك في العبادة، فلا يتوجهون فيه إلىٰ الله وحده، بل يشركون

---

(١) جامع البيان: (١٠/ ٣١٣). (عمرو)

(٢) أخرجه أحمد: (٣٨٣٢)، الإصابة: (١/ ٣٢٦-٣٢٧).

(٣) سيرة ابن هشام: (١/ ٣٢٠).

(٤) سبل الهدىٰ والرشاد: (٢/ ٣٥٩).

معه في الدعاء والتوجه غيره ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥]، وإذا أنكر عليهم مُنكِر يتأولون فيقول العامي: المحسوب منسوب، الواسطة لا تنكر، ويقول دعي العلم: هذا توسل واستشفاع، لا عبادة ولا دعاء، والأولياء أحياء في قبورهم كالشهداء، والظالمون بالابتداع يبغونها عوجًا بما يزيدونه في الدين من البدع والمحدثات، ومستندهم في هذه البدع النظريات الفكرية، والتأويلات الجدلية، واستحسانات ينكرون أصولها، ويأخذون بفروعها، وعوامهم يقولون قال فلان من المؤلفين، وفعل فلان من الصوفية الصالحين، ونحن لا نفهم كلام الله ولا كلام الرسول، وإنما نفهم كلام هؤلاء الفحول.

والظالمون بالزندقة والنفاق يبغونها عوجًا بالتشكيك فيها بضروب من التأويل يقصد بها بطلان الثقة بها والصد عنها.

والظالمون في الأحكام يبغونها عوجًا بترك تحري ما أمر الله -تعالىٰ- به من التزام الحق، وإقامة ميزان العدل، والمساواة فيها بين الناس بالقسط، بأن لا يحابي أحدًا لغناه أو قوته، ولا يهضم حق أحد لضعفه أو فقره، ولا لفسقه أو كفره ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾ [المائدة: ٨]، والظالمون بالغلوّ فيها جعلوا يسرها عسرًا، وسعتها ضيقًا وحرجًا، وزادوا علىٰ ما شرعه الله من أحكام العبادات، والمحظورات والمباحات أضعاف ما أنزله الله في كتابه، وما صحّ من سنة رسوله، ممَّا ضاقت به مطولات الأسفار، التي تنقضي دون تحصيلها الأعمار، ومنهم من جعل غاية الاهتداء بها الفقر والمهانة، والذلة والاستكانة، خلافًا لما نطق به الكتاب من عزة المؤمنين، وكونهم أولىٰ بزينة الدنيا وطيِّباتها من الكافرين.

فهذه أمثلة لمن يبغونها عوجا من المنتمين إليها، والمدَّعين لهدايتها، وأما أعداؤها الصرحاء فهم يطعنون في كتاب الله وفي خاتم رسله جهرًا بما يخلقون من الإفك، وما يحرّفون من الكلم، وما يخترعون من الشبهات، وما ينمقون من المشككات.

ثم أخذ نبي الله شعيب ﷺ يذكرهم بنعم الله عليهم، إذ كانوا قليلي العدد فكثرهم الله -تعالىٰ- بما بارك في نسلهم، فعليهم أن يقابلوا أمثال هذه النعمة

بشكره، والعمل بوصاياه، ثم أمرهم أن ينظروا كيف كان عاقبة المفسدين من الشعوب المجاورة لهم، كقوم لوط وقوم صالح، وكيف أهلكهم الله بفسادهم، فيجب أن يكونوا عبرة لهم في ذلك.

ثم أخذ يقول لهم إذا كان بعضكم قد آمن بما أرسلني الله به إليكم من التوحيد والعبادة والأحكام المقررة للإصلاح، وبعضكم لم يؤمن بها، فاصبروا حتىٰ يحكم الله بيننا وبينكم بالفعل، وهو خير الحاكمين؛ لأنه يحكم بينكم بالحق والعدل، فإن لم يعتبر كفاركم بعاقبة من قبلهم، فسيرَون ما يحلّ بهم.

(٦) ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ كان هذا ردّهم علىٰ دعوة نبي الله شعيب لهم أن يعبدوا الله وحده، وأن يوفوا الكيل والميزان، ولا يبخسوا الناس أشياءهم، ولا يفسدوا في الأرض بعد إصلاحها، ولا يصدوا الناس عن سبيل الله ودينه، ولا يشككوهم في عقائدهم، وأن يذكروا نعم الله عليهم وفضله معهم.

كان ردهم عليه الوعيد والتهديد، بدل أن ينظروا في هذه الدعوة أهي حق أم باطل، وهل هي دعوة إلىٰ مكارم الأخلاق أم إلىٰ الفاسد منها، فأقسموا ليكونن من الملأ المستكبر إخراج شعيب والذين آمنوا معه من بلدهم، أو ليعودن في ملتهم، وعلىٰ شعيب ومن معه أن يختاروا لأنفسهم.

قبل التعبير بالعود يقتضي أن شعيبًا ومن معه كانوا علىٰ ملتهم ثم خرجوا منها، وهو صحيح بالنسبة للمجموع فجاز أن يخاطبوا بذلك -وفيهم نبي الله شعيب- من باب التغليب؛ لأنَّ شعيبًا وجميع الأنبياء معصومون من الكفر حتىٰ قبل النبوة، أو لأنّ شعيبًا لم يُعرف عند قومه قبل النبوة بملة تخالف ملتهم؛ لأنّه وقف من عقائدهم وأعمالهم موقفًا سلبيًا، لم يشاركهم فيها، ولم ينههم عنها فحسبوه واحدًا منهم، كما قالوا لصالح ﷺ: ﴿يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾ وكان رجاؤهم فيه لوقوفه منهم ذلك الموقف، ومنهم من قال: العود الرجوع إلىٰ الشيء بعد الانصراف عنه بالذات، أو بالقول والعزيمة، ومنه ذمّة والدعوة إلىٰ غيره، ولا يقتضي هذا المعنىٰ سبق الكون فيه ولا عدمه.

يقول نبي الله لهم بعد ذلك التهديد ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ يريد أنعود في ملتكم علىٰ كل حال، حتىٰ حال الكراهة لها الناشئة عن اعتقاد بطلانها وقبحها، وما يترتب عليها من الفساد في الدنيا والآخرة، أو ولو كنا كارهين لأحد الأمرين، وهو استفهام تعجب من صنيعهم واستنكار لطلبهم، ووجه التعجب والإنكار جهل هؤلاء بكنه الدين والملة، وكونه عقيدة يدان الله بها، وأعمالًا يتقرب إليه بأدائها، وجهلهم بكون حب الوطن وألف السكن لا يبلغ هذه المنزلة، وبجهلهم هذا ظنوا أن شعيبًا عَلَيْهِ السَّلَامُ قد يؤثر هو ومن معه التمتع بالإقامة في وطنه، ومجاراة أهله في كفرهم ورذائلهم علىٰ مرضاة الله -تعالىٰ- بالتوحيد والفضائل، ذلك بأن الملة عند أولئك الملأ رابطة تقليدية وعصبية قومية.

وملة الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ليست كذلك، بل هي دين مالك للنفس، حاكم علىٰ الوجدان والعقل، يقعد به الكمال البشري الأعلىٰ بمعرفة الله -تعالىٰ- والقرب منه، وما يتبع ذلك من صلاح الدنيا وسعادة الآخرة، فإن تمكن صاحبه من إقامته في وطنه وإصلاح أهله به فهم أحق به بدءًا ودوامًا، وإن منع فيه حرّيته ففتن في دينه كان تركه واجبًا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا(1) كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٧-١٠٠].

هذا؛ وإنَّ طريق نفي المصالح، والحيلولة بينه وبين وطنه، ومسقط رأسه: هو طريق المفسدين وأعداء الإصلاح منذ زمن بعيد، فهؤلاء قوم لوط يدعوهم نبي الله لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ إلىٰ عبادة الله وإلىٰ ترك الفاحشة، فيكون جوابهم له: ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٨٢] يتعاونون علىٰ إخراج لوط وشيعته من بلده، ثم يعللون ذلك الإخراج بأن لوطًا ومن معه أناس يتطهرون

(١) مذهبًا يذهب إليه.

من الفاحشة ومن الذين تلوثوا بها، فأصبحت الطهارة من الفواحش جريمة عند أولئك القوم، يستحق ذَوُوها أن يُحال بينهم وبين وطنهم، كما أصبحت هذه الفاحشة عادة مألوفة لا تمجها الطباع، ولا تنفر منها النفوس، وبذلك صار المعروف عندهم منكرًا، والمنكر معروفًا، وذلك أحطّ دركات النفوس، وأدون منزلة تصل إليها الفطرة.

وهؤلاء الملأ المستكبر من قوم شعيب يتوعدونه بإخراجه من بلده، أو يرجع إلىٰ باطلهم، فيسفِّه عقله، ويدنِّس فطرته، ويهمِل مواهبه، ويلغي ما نصبه الله له من أدلة وبراهين علىٰ حقِّيَّة دعوته، ووضوح طريقة؛ يهددونه ذلك التهديد، ويهددون من معه من المؤمنين المخلصين، الذين عرفوا أن طريقه حق فاتبعوه، وأن ما عند القوم باطل فتركوه، وكأنَّهم يقولون لشيعة نبي الله شعيب: يجب أن تلغوا عقولكم وتهملوا مواهبكم، وتنكروا إنسانيتكم، فلا يكن لكم الحق في أن تختاروا من الطرق أبينها، ومن الخطط أوضحها، ومن الأدلة أقواها، والذي يختار لكم غيرُكم، ويرسم لكم الطريق سواكم، وسواء عليكم بعد ذلك رضيتم أم سخطتم، اطمأننتم إلىٰ ذلك العمل أو اضطربتم.

وهؤلاء الذين كفروا بالرسل جميعهم يقولون لهم: ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ [إبراهيم: ١٣] وهؤلاء المستعمرون وصنائع المستعمرين يقولون لطلاب الاستقلال وزعماء الأمم قالة الكفار للرسول: ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾، وملة المستعمرين أن تبقىٰ البلاد ملكًا لهم، يتمتعون بخيراتها، ويستأثرون بالحكم فيها، يوظفون فيها رجالهم، ويصرفون تجارتهم ومصانعهم، ويوجهونها لخيرهم وخير بلادهم.

ملتهم أن لا يسمحوا لأحد أن يصيح في وجه الظالم ليطالبه بالعدل، أو يرفع رأسًا للمطالبة بحق، ملتهم أن تبقىٰ الناس عبيدًا لهم مسخرين، وأداة طبع، يعملون وهم يتمتعون، ويكدّون وهم مترفهون، إذا ظلموهم شكروهم علىٰ ظلمهم، وإذا استعبدوهم حمدوهم علىٰ أحكامهم.

تلك هي ملة المستعمرين وصنائع المستعمرين، يزعمون أنَّ الله بعثهم لخير الإنسانية، وخلقهم ليكونوا أوصياء علىٰ الشعوب والأمم، يعملون لهم الصالح،

ويتجنبون لهم الضارّ، لا يبلغ شعب من الشعوب سن الرشد إلا حيث شهدوا له بذلك، ولا يصل إلىٰ المكانة اللائقة به من الثقافة إلا حيث اعترفوا له بالوصول، وهم لم يبعثوا إلا لشر الإنسانية، والحيلولة بينها وبين المكان اللائق بها.

ألا ترىٰ كيف يحولون بين الأمم وبين العلم النافع، والتعليم المثمر المفيد، وكيف يسلطون عليها من جيوش الشهوات ما يفسد أخلاقها، ويَذهب بكرامتها، وكيف يحولون بين النبوغ والأمة حتىٰ لا تستطيع أن تنتفع بالنابهين من أبنائها، والأخصائيِّين من علمائها.

ينشرون العلم النافع في بلادهم ويُحرِّمونه علىٰ غيرهم، يهتمون بالعدل والإنصاف في ممالكهم، ويقوضون أركانه في مستعمراتهم، يملؤون العالم بأساطيلهم في البر والبحر، ومعداتهم الحربية في السلم والحرب، ثم لا يسمحون لما معهم من البلاد أن يكون له جيش يذكر، أو معدات تنفع وتفيد، أهذه هي الوصاية التي انتدبهم الله لها علىٰ جميع الشعوب والأمم، أهذا هو الرقي الذي يدَّعون أنَّهم خدامه المخلصون، ورجاله العاملون، أم ذلك هو الخداع والتغرير؟

إنَّ الشعوب والأمم قد عرفت كيف تأخذ لها مكانًا تحت السماء، وتختط لها طريقًا للبقاء، وعرفت أن الذي وهبكم من أسباب القوة ووسائل البطش ما وهبكم= لم تنفد خزائنه.

وفي الحق أنَّه لم يعد الناس يفتحون آذانهم لأولئك الكلمات المعسولة، بعد أن جربوا من دول الاستعمار كل بلاء، وذاقوا منهم الحلو والمر، وعرفوا أنَّهم قوم لا يرهبهم سوىٰ القوة، ولا يخضعهم إلَّا السلطان والنفوذ، ومقياس الطفولة عندهم وبلوغ سن الرشد: القوة والضعف.

فالشعب الذي لا يزال ضعيفًا في حربيته، محدودًا في علمه ومؤهلاته، فقيرًا في رجاله وأبنائه، هو ذلك الشعب الذي يستحق عند القوم الوصاية.

أمَّا شعب استطاع أن يكشر لهم عن نابه، ويقلب لهم ظهر المِجَنّ، ويبدل راحتهم تعبًا، وصفاءهم كدرًا، ويوقعهم في مشاكل لا قبل لهم بها؛ شعب هذا حاله يستحق منهم العناية والنظر، وأن يدخل في مصاف البشر، يستحق أن

يستضيء بالشمس، ويستظل بالسماء، يستحق أن ينتفع بخيراته، ويتمتع بثمرات بلاده.

وترىٰ أولئك الدول مع اعترافهم بنبوغ الشعب وقوته يراوغون معه ويداورن، فإذا طالبهم بإلغاء الحماية التي وضعوها ظلمًا ألغوا اسمها، وأبقَوا حقيقتها، تحت عنوان لذيذ، واسم جذاب، وإذا طالبهم بالاستقلال أجابوه إلىٰ اسمه، وكبلوه بقيود تَذهَب بثمرته، وتُضيع الفائدة منه؛ كل ذلك ليكون مظهرهم أمام العالم المتمدين مظهر المنصف المساير للزمن.

هذه هي وصايتهم علىٰ الأمم، ورقابتهم علىٰ الشعوب، وإذا قام نفر من القوم يواجهون هذه الحقائق، ويصرخون في وجه الاستعمار، قابلوهم مقابلة منكرة، وقالوا لهم ما قاله الكفار للرسل: ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾، وقد نسوا أنَّ الله أوحىٰ إليهم: ﴿لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾، وهو وعد من الله لا يختلف ولا يتخلف، وإنَّنا آمنا بوعد الله ووعيده، وأنَّه لا يرضىٰ ظلمًا في الأرض، ولا أن يتعبد الناس بعضهم بعضًا، وإنَّما يرضىٰ للناس العزة والكرامة، والعدل والاستقامة، فليجرب الظالمون من أنواع الاستبداد بالمصلحين ما شاءت لهم التجارب؛ فإنَّ النصر حليف المتقين: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣].

(٧) ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾ بيان من نبي الله شعيب ﷺ لأهمِّ الأمرين وأولاهما بالرفض والكراهة، وهو إنشاء في لفظ الخبر؛ فإمَّا أن يكون قسمًا مؤكدًا لرفض دعوة الملأ إياهم إلىٰ العود في ملتهم، كما يقول القائل: برئت من الذمة أو من رحمة الله -تعالىٰ- إن فعلت كذا، فيكون مقابلة لقسمهم بقسم أعرق منه في التوكيد وإمَّا أن يكون تعجبًا خرج علىٰ غير مقتضىٰ الظاهر، وأكد بـ(قد) والفعل الماضي.

والمعنىٰ ما أعظم افتراءنا علىٰ الله -تعالىٰ- إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها، وإذا كان من يتبع ملتكم يعد مفتريًا علىٰ الله -تعالىٰ- بقوله عليه ما لا يعلم، لا بهداية من الوحي ولا برهان من العقل، فكيف يكون حال من افترىٰ عليه وضل عن صراطه علىٰ علم ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾.

قد علمت أن شعيبًا عليه السلام مستثنىٰ من ذلك؛ لأنَّه معصوم، والكلام علىٰ التغليب، والمراد بعد أن نجانا الله من الانتماء إليها، ومشايعة أنصارها.

﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ﴾ رفض آخر للعود في ملتهم مؤكد أبلغ التأكيد، معطوف علىٰ مناسِبِه، والتعبير يدل علىٰ نفي الشأن وهو أبلغ من نفي الفعل؛ لأنَّه نفي له بالدليل، وهو كونه غير مستطاع، ولا جارٍ علىٰ سنن الله في الاجتماع.

والمعنىٰ: ليس من شأننا أن نعود فيها إلا حال مشيئة الله المتصرف في جميع الشؤون، فهو وحده القادر علىٰ ذلك لا يقدر عليه غيره، لا أنتم ولا نحن؛ لأنَّا موقنون بأن ملتكم باطلة، وملتنا هي الحق، والموقن لا يستطيع إزالة يقينه ولا تغييره، وإنَّما ذلك بيد مقلب القوب -سبحانه-، ورهن مشيئته، وقوله: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۚ﴾ يرينا أنَّ مشيئته تجري بحسب علمه، وحكمته في خلقه.

ومن حكمته وسننه في خلقه أن يقيم حجته بأهل الحق علىٰ أهل الباطل، وينصرهم عليهم بالقول والفعل، وكأنَّه يقول لهم: إذا كان الأمر كذلك؛ فلا تطمعوا إذًا أن يشاء ربنا الحفي بنا عودتنا في ملتكم بعد؛ إذ نجَّانا بفضله منها، وأقام الحجة عليكم بنا، وما كان -تعالىٰ- ليدحض حجته، ويبطل سنته، فيبدل الهدىٰ ضلالًا، والنور ظلمة، والبصر عمىٰ، حتىٰ يحولنا من إيمان إلىٰ كفر، ومن سعادة إلىٰ شقاء، فقوله: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ﴾ استثناء مؤيس للملأ من قوم شعيب من عودته عليه السلام مع من آمن معه في ملتهم، فهو لتأكيد النفي. ونظيره قول الله -تعالىٰ-: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الأعلىٰ: ٦، ٧]؛ إذ ليس المراد أنَّ الله -تعالىٰ- يشاء نسيانه وقتًاما، وإنَّما المراد أنَّه لا ينسىٰ ما قرأه عليه مطلقًا، والإيثار بالمشيئة للتنبيه علىٰ أن عدم النسيان بفضل الله وكرمه، لا بالإيجاب عليه، فلو شاء أن يجعله كذلك لفعل، وعلىٰ ذلك جاء الاستثناء في قوله -تعالىٰ- في سورة هود: ﴿۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨]، أي: غير مقطوع، فالاستثناء في مثل هذا للتنبيه علىٰ أن ذلك التأبيد والتخليد بكرم الله -تعالىٰ-

وسعة جوده، لا بتحتيم عليه وإيجاب، وأنَّه لو أراد أن يسلب ما وهب= لم يمنعه من ذلك مانع.

(٨) إنَّ من يقابل الملأ المستكبر العاتي بتلك المقابلة لا غنىٰ له عن ركن شديد يأوي إليه، وحصن حصين يعتمد عليه، فليس غريبًا أن يقول شعيب بعد أن هدده قومه بالإخراج من بلده إلا أن يعود في ملتهم، وبعد أن أيأسهم من ذلك العود، وأقام لهم الأدلة علىٰ أنه غير مستطاع؛ ليس غريبًا أن يقول نبي الله شعيب: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَاۚ﴾، أي: إليه وحده وكلنا أمرنا، مع قيامنا بكل ما أوجبه علينا، فهو يكفينا أمر تهديدكم، وكل ما لم يجعله في استطاعتنا من جهادكم ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، وهكذا يجب أن يتوكل علىٰ الله كل داعٍ إليه، ويتأسىٰ بنبي الله شعيب إذا جدَّ به الجد، فتألب عليه أعداء الحق وأنصارُ الباطل، وأخذوا يهددونه بألوان من العذاب لا قبل له بها، فيقوم بما أوجبه الله عليه وما اقتضته حكمته من أسباب النصر الكونية التي تدخل تحت استطاعته، ثم يرجع إلىٰ الله -تعالىٰ- فيما لا يقدر عليه من الأسباب، فإذا كان واعظًا استوفىٰ الموضوع الذي يعظ الناس به بحثًا، وأحاط به من جميع نواحيه، وكوَّن له رأيًا في ذلك الموضوع خالصًا من الشبه، بعيدًا عن الشكوك، وبذلك يكون داعيًا إلىٰ الله علىٰ بصيرة.

ثم بعد ذلك كله، وبعد أن يدعو إلىٰ سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، يكل أمره إلىٰ الله -تعالىٰ- في أن يصرف عنه أذىٰ القوم، ويحول بينهم وبين أن ينالوه بسوء، ثم يرجع إليه فيما يجد من المشاكل ممَّا لم يعمل له حسابًا.

وكثيرًا ما رأينا شكوكًا وشبهًا توجه إلىٰ الداعي ثم يلهمه الله عليها الجواب النافع والرد الحسن، كل ذلك بفضل توكله علىٰ ربه، ورجوعه إلىٰ خالقه وبارئه، بعد أن يعد لموضوعه العدة، ويهيئ له الأسباب والمقدمات، فمن يترك العمل بالأسباب فهو جاهل مغرور، لا متوكل منصور ولا مأجور، فقد قال النبي ﷺ لمن سأله: أيترك ناقته سائبة ويتوكل علىٰ الله -تعالىٰ-: «**اعقلها وتوكل**» [رواه الترمذي][١]، وقال -تعالىٰ- لرسوله بعد أن أمره بمشاورة أصحابه في غزوة أحد:

---

(١) رواه الترمذي: (٢٥١٧).

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وإنَّما يكون العزم بعد الأخذ في الأسباب، ومن أراد أن يكون تاجرًا لا يكفيه أن يكون عنده مال يشتري به ما يريد، بل عليه أن يدرس الموضوع الذي يريد أن يعمل فيه، وقد أصبحت التجارة فنًا من الفنون العظيمة التي ألفت فيها الأسفار، وأنشئت لها المدارس المختلفة.

ومن السفه والحمق أن يأتي الرجل الذي لا يتصل بالتجارة لا في قليل ولا كثير، ولم يتصل بها علمًا ولا عملًا، ثم يعمد إلىٰ طائفة من المال ليشتري بها بقالة أو أقمشة أو ما يشبه ذلك.

إن تاجرًا هذا حاله لا بُدّ أن يكون حظه الفشل، ولا يغنيه أن يقول: إنه متوكل علىٰ ربه؛ لأنه كاذب في ذلك التوكل، ولا يغنيه أن يكون مسلمًا طيب السيرة والسمعة، فإن ذلك كله شيء، والاستعداد للتجارة شيء آخر؛ فإنَّ الله -تعالىٰ- جرت سنته بأن يمُدّ من يعمل للدنيا من طريقها المعتاد، وأسبابها الصحيحة أيًا كانت نحلته، وأن يخذل من لا يأتي البيوت من أبوابها، وإن كان علىٰ دين صحيح، وأخلاق طيبة، ويخطئ بعض الناس حينما يعجبون من صنع الله معهم إذا زوىٰ عنهم الدنيا وأعطاها لغيرهم، الذين هم علىٰ دين باطل ووثنية منكرة.

وسبب خطئهم أنَّهم حسبوا أنَّ الدنيا يعطيها الله -تعالىٰ- لمن يحب وإن خالفوا سنته، ويحرمها من لا يحب وإن حذقوا طريق جمع المال وتثميره بطرق الاقتصاد: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ١٨-٢١].

هذه أمثلة ضربناها للقارئ حتىٰ لا يفهم أن التوكل هو التواكل، بل التوكل الصحيح القيام بما أوجبه الله عليه من الأحكام الشرعية، ومراعاة ما اقتضته حكمته من الأسباب والسنن الكونية والاجتماعية.

ثـم قـال نـبـي الـلـه شـعـيـب: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾.

يطلب من الله -تعالىٰ- بعد أن أدَّىٰ ما عليه من بلاغ وبعد أن صبر علىٰ إيذاء قومه حتىٰ بَلَغتهم الدعوة كاملة غير منقوصة، وقامت عليهم الحجة، أن يفصل بينه وبين قومه بالحق الذي مضت به سنته في التنازع بين المرسلين والكافرين، وبين سائر المحقِّين المصلحين والمبطلين المفسدين في الأرض، وأنت خير الحاكمين لإحاطة علمك بما يقع به التخاصم، وتنزهك عن الظلم، واتباع الهوىٰ في الحكم.

(٩) لما يئس الملأ من عودة شعيب ومن معه أخذوا يقولون لمن معهم: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ لشرفكم ومجدكم، بإيثار ملته علىٰ ملة آبائكم وأجدادكم، وخاسرون لثروتكم وربحكم، بما حذقتموه من تطفيف الكيل والميزان وبخس الناس أشياءهم، وقد أكدوا قولهم هذا في قولهم: ﴿لَئِنِ﴾ الدالة علىٰ القسم، وتوسيط ﴿إِذًا﴾ بين طرفي الجملة، ومجيء الجملة اسمية؛ كل ذلك من المؤكدات لمضمونها، الخادعة لسامعيها ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾، وفي سورة هود: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾.

وقد علمت من قصة نبي الله صالح أنَّ الذي حل بثمود صاعقة يصحبها صوت شديد هو الصيحة ترجف منها القلوب، فالعذاب قد اشتمل علىٰ ذلك كله، كذلك عذاب قوم شعيب هو رجفة وصيحة، فأصبحوا في دارهم التي أرادوا إخراج شعيب منها، والحيلولة بينه وبينها= جاثمين علىٰ ركبهم من هول ما أصابهم.

ثم أراد أن يصور لنا ما أصاب القوم من هلاك، وما حل بهم من تدمير، فـقـال: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾؛ ليرينا أنَّهم أصبحوا أثرًا بعد عين، فانتهت عظمتهم، وزال كبرياؤهم، وجعلهم الله أحاديث.

وانظر كيف يكرر الله علينا كلمة ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا﴾ بأسلوب الخطابة المؤثرة في الوعظ والتوبيخ، كما تقول: أنت الذي جنيت علينا، أنت الذي

سلطت علينا أعداءنا، أنت الذي فرّقت كلمتنا، ثم يختم ذلك الأسلوب بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، وهو ردّ علىٰ قولهم: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾؛ ليريهم أنَّ الذي خسر دينه ودنياه هم الذين كذبوا شعيبًا، أما المؤمنون بشعيب فقد أنجاهم الله في الدنيا وسينجيهم في الآخرة.

ثم كان من نبي الله شعيب أن تولىٰ عن قومه بعد أن حل بهم من عذاب الله ما حل، وأخذ يخاطبهم بأنَّه أبلغهم رسالات ربه، ومحضهم النصح، ولكنهم لا يحبون الناصحين، فالعيب عليهم لا عليه، فكيف يحزن عليهم، وقد أعذر إليهم، وبذل جهده في سبيل هدايتهم ونجاتهم، وإنَّما يأسىٰ من قصر فيما يجب عليه من النصح والإرشاد.

شعيب عليه السلام

﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ وَلَا
تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ[1]
(٨٤) وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ
فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّتُ[2] ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم
بِحَفِيظٖ[3] (٨٦) قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ
فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ (٨٧) قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ
بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ
إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ (٨٨) وَيَٰقَوۡمِ لَا
يَجۡرِمَنَّكُمۡ[4] شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ
لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ (٨٩) وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ[5] (٩٠)
قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ
أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ (٩١) قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ[6]

---

(١) مهلك. أو: مستأصل.

(٢) ما يبقى لكم من الحلال، أو طاعته.

(٣) أحفظكم من القبائح، أو أحفظ عليكم أعمالكم فأجازيكم عليها، أو مستبق عليكم نعم الله -تعالى- مع سوء صنيعكم.

(٤) يكسبنكم معاداتي.

(٥) عظيم الإحسان بالتائبين.

(٦) منسوب إلى الظهر، والكسر من تغييرات النّسب.

﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ۝٩٢ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ[1] إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ
تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ۝٩٣
وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ[2]
فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ[3] ۝٩٤ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾
[هود: ٨٤-٩٥].

* شرح وعبرة:

(١) بعد أن دعاهم شعيب إلىٰ عبادة الله وحده، وعدم نقص المكيال والميزان، قال لهم: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾ يريد أنكم في ثروة واسعة تغنيكم عن التطفيف، أو أراكم بنعمة من الله حقها أن تقابَل بغير ما تفعلون، ثم خوَّفهم من عذاب الله -تعالىٰ- إذا هم خالفوه وخرجوا عن حدوده، فقال: ﴿وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ توعدهم بعذاب يحيط بهم بحيث لا يخرج منه أحد، والمحيط من صفة اليوم في الظاهر، وفي المعنىٰ من صفة العذاب، وذلك مجاز مشهور، كقوله: ﴿هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾، قيل: إنَّه تخويف من عذاب الاستئصال في الدنيا الذي يحيط بهم كإحاطة الدائرة بما في داخلها، فينالهم من كل وجه، وذلك مبالغة في الوعيد، كقوله: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ [الكهف: ٤٢]، وقيل: إنَّه تخويف من عذاب الآخرة؛ لأنَّه اليوم الذي نُصِب لإحاطة العذاب بالمعذبين فلا يشذ منهم أحد، وهو صالح للأمرين جميعًا.

وبعد أن أمرهم ثانيًا بإيفاء الكيل والميزان بالقسط والعدل، وأن لا يبخسوا الناس أشياءهم، قال: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ﴾، وهو كقوله في سورة الأعراف: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، والمراد أنَّ ثواب الله خير لهم من التطفيف والإخسار والبخس، وإنَّما أطلق علىٰ الثواب: ﴿بَقِيَّتُ﴾؛ لأنَّه الذي يبقىٰ لصاحبه، أو المراد: أن ما يبقىٰ لهم من الحلال بعد إيفاء الكيل والوزن خير من التطفيف؛ لأنَّ الناس إذا عرفوا إنسانًا بالصدق

(١) مصدر مكن مكانةً، فهو مكين؛ أي اعملوا علىٰ قدرة منكم علىٰ عداوتي.

(٢) صوت العذاب.

(٣) ميِّتين لازمين لأماكنهم. ﴿يَغْنَوْا۟﴾: يقيموا.

والأمانة، والبعد عن الخيانة، وثقوا به ورجعوا إليه في معاملاتهم، فيفتح عليه باب الرزق، وإذا عرفوه بالخيانة والمكر انصرفوا عنه، ولم يخالطوه فتضيق عليه أبواب الرزق.

ومن ذلك نعرف أنَّ طاعة الله -تعالىٰ- تفيد صاحبها في دنياه وأخراه، وتكسبه من سعة الرزق وثقة الناس به ما لا يكسب غيرها، ويستطيع التاجر الصدوق أن يعيش ورأس ماله تلك الثقة الغالية، يستطيع أن يعيش علىٰ حساب ما لغيره من المال موفور الكرامة محترمًا.

أما التاجر الكذوب فلا يلبث أن ينكشف أمره، وتفضح أعماله، وإذا عاش سنة فلا يستطيع أن يعيش سنين، لذلك كانت: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ﴾ خيرًا للناس في دنياهم، وخيرًا لهم في أخراهم، ولعل في ذلك عبرة لتُجَّارنا الذين مرّنوا علىٰ الكذب، وتعودوا الغش والخديعة.

أما قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾؛ فهو مطالبة بمقتضىٰ الإيمان، وقد استوفينا الكلام علىٰ هذه الجملة في قصة شعيب من سورة الأعراف.

﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ﴾ ما بعثت لأحفظ عليكم أعمالكم وأجازيكم عليها، وإنَّما بعثت مبلغًا، ومنبهًا علىٰ الخير وناصحًا، وقد أعذرت حين أنذرت، أو: لا أستطيع أن أحفظ عليكم نعم الله إذا أنتم كفرتموها، فهو تهديد لقومه بزوال نعم الله عليهم إذا هم استمروا علىٰ عصيانه، والخروج علىٰ حدوده وتعاليمه.

(٢) ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ﴾. قابلوا دعوة نبي الله شعيب الجادة بكلمات المتهكم الساخر، وأراد أن هذا الذي يأمر به من ترك عبادة الأوثان باطل، وأنَّ مثله لا يدعوك إليه داعي عقل، ولا يأمرك به أمر فطنة فلم يبق إلَّا أن يأمرك به أمر هذيان ووسوسة شيطان، وهو صلاتك التي تداوم عليها في ليلك ونهارك، وهي عندهم من باب الجنون الذي يتولع به المجانين والموسوسون، فقد سخروا **أولًا** من نبي الله شعيب عليه السلام في عبادته، ثم سخروا منه **ثانيًا** في أمره ونهيه، وقد أضافوا الأمر إلىٰ الصلاة في تهكمهم؛ لأنَّهم ينكرون أن يكون طريقه الوحي السماوي.

وما أقرب الشبه بين الملأ المستكبر من قوم شعيب وبين طائفة من شبابنا اليوم، الذين لا يقفون من المصلين موقفًا سلبيًّا فحسب، بل يسخرون من صلاتهم، ويتهكمون بهم في ركوعهم وسجودهم، ويستقبحون من الرجل أن يضع جبهته علىٰ الأرض، وأن يعفِّر وجهه بالتراب، خضوعًا لله واعترافًا له بالجميل، وفي الوقت نفسه يسمحون لأنفسهم أن يخروا ساجدين لأرباب النفوذ وأصحاب السلطان، رغبة فيما بأيديهم من حطام، أو رهبة ممَّا عندهم من بطش وقوّة، يستقبحون أن يخضعوا للخالق صاحب السلطان الأعظم، ومالك السموات والأرض، ويُبيحون لأنفسهم أن يذلوا لعبدٍ لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، بل يستبيح فريق منهم أن يذل أمام قبر من قبور الصالحين متوسلًا بصاحب القبر أن يدفع عنه شرًّا، أو يجلب له خيرًا.

فنحن أمام تيارين متناقضين: تيار الإلحاد واللادينيين، الذي ينكر أن هناك إلهًا يستحق أن تخضع له الرقاب، وتذل له النفوس، وتيار الشرك الذي دخل علىٰ المسلمين كما دخل علىٰ غيرهم من الأمم، فخلطوا إيمانهم بظلم، وهم القبوريون الذين يبالغون في تعظيم الصالحين، حتىٰ طلبوا منهم ما لا يُطلب إلا من الله -تعالىٰ-، ووضعوهم موضعًا غير لائق بهم، وسيتبرؤون منهم ومن شركهم، وكلا الطريقين -طريق الإلحاد، وطريق الشرك- ظلمٌ بيِّن، وخروج عما ينبغي.

أمَّا الإلحاد؛ فإنَّه إنكار لما لله من آيات ودلائل في النفوس والآفاق، وهي أوضح من أن تذكر، وأكثر من أن تُعدّ، وأما الشرك فلأنه تسوية للمخلوق بالخالق، والعبد بالرب، والفقير بالغني، والمملوك بالمالك.

فهاتان نزعتان متناقضتان؛ إحداهما تبالغ في العزة حتىٰ تنكر الخضوع لإله، وأخرىٰ تمتهن إنسانيتها حتىٰ تخضع لعبد من عباد الله، وقد تُمعن في امتهانها لنفسها حتىٰ تخضع لحجر تنحته يدُها، أو خشب من صنعها وعملها؛ نعوذ بالله من الإفراد والتفريط، ونعوذ بالله من جهل الرجل بنفسه، ونسيانه خالقه ورازقه، كما نعوذ به من خضوع الإنسان للإنسان، وعبادة المخلوق للمخلوق.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ

بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

وقوله: ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُا۟ۖ﴾ عطف على قوله: ﴿مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾، فالمراد أن نترك أن نفعل في أموالنا ما نشاء؛ من تطفيف وإخسار وغير ذلك، ينكرون على نبي الله شعيب أن يأمرهم بترك عبادة الأوثان، وترك أن يفعلوا في أموالهم عند البيع والشراء ما شاءت لهم الشهوات وزينت لهم المصالح.

﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ أرادوا نسبته إلى غاية السفه والغي، فعكسوا ليتهكموا به، كما يقال للشحيح الخسيس: لو رآك حاتم لسجد لك، أو أرادوا: إنك معروف عند قومك بالحلم والرشد فلماذا تأمرهم بترك دين ألفوه عن آبائهم وأسلافهم، وترك عمل يعود عليهم بالثراء والمال الجمّ؟

وفاتهم أنّ الرشد في أن يعرف الإنسان ربه ويشكره على ما وهبه من النعم، ويضع نفسه حيث وضعها الله من إجلال وإكرام، وأنّ ما هم عليه من عبادة الأوثان، وأكل مال الناس بالباطل= لا يتصل بالرشد في قليل أو كثير.

وإنّما الرشد فيما دعاهم إليه، وحضَّهم على الوصول له، من سعادة في الدنيا والدين.

(٣) ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَـٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

يطالب قومه أن يخبروه إن كان على بينة من ربه بالعلم والهداية، والدين والنبوة، ورزقه رزقًا حسنًا استغنى به عن أن يسأل الناس أجرًا على هدايتهم وتبليغهم الدين، ولا يريد أن يخالف قومه إلى ما ينهاهم عنه فيستأثر به دونهم، وإنّما يريد أن يصلح ما استطاع إصلاحه، ولا يعتمد في إصلاحه إلا على ربه، فهو الذي يوفِّقه، ويزيل مِن بين يديه عقبات الإصلاح، وهو الذي يرجع إليه ويعتمد عليه؛ يطالب قومه أن يخبروه إن كان على هذه الصفات أيليق بهم أن يقولوا في شأنه ما قالوا، وأن يتهكموا به ذلك التهكم الشائن؟ وقد خاطبهم

بأسلوب غير القاطع فأتىٰ بـ (إن) ترفُّقًا بهم، وكأنه يريد أن أولئك الصفات لا تتفق والسفه بحال من الأحوال؛ فإنَّ الرجل الذي آتاه الله علمًا وهداية، فكان علىٰ بينة من ربه، ورزقه الرزق الحسن فكان يعيش من كسبه وكدّه، ولم يطلب من قومه أجرًا علىٰ دعوته، ولا يريد أن يسبقهم إلىٰ شهواتهم التي نهاهم عنها، من تطفيف الكيل وإخسار الميزان، وما إلىٰ ذلك، وإنَّما هو مؤمن بما يدعو إليه، قدوة صالحة في تمسكه بالفضيلة وبعده عن الرذيلة، وهذه الصفة من أخص صفات الدعاة الصادقين؛ ولذلك يلفتنا الله إليها في قوله: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الشعراء: ٢١]، وما دام لم يرد بدعوته أجرًا من المدعوين، وهو مؤمن بما يدعو إليه، مقتنع بأحقِّيَّته= فهو لا يريد سوىٰ إصلاح قومه جهد استطاعته، ورسولٌ ذلك حاله، وتلك دعوته لا يصح أن يقابل بالتهكم والهزء، وإنَّما يقابل بالإجلال.

﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾. يحذرهم نبي الله شعيب ألا تحملهم مُشاقَّتهم له أن يعصوا الله ويخرجوا عن حدوده، فيصيبهم من العذاب ما أصاب مَن قبلهم من المكذبين، وكثيرًا ما يجر التمادي في العداوة إلىٰ ما لا تحمد عقباه، وكأنه يقول لهم: كونوا قومًا عقلاء مفكرين، وزنوا الأمور بميزان الحكمة والإنصاف، وانظروا في دعوتي لكم، لتروا أهي دعوة أساسها الشهوة والهوىٰ، أم أساسها المصلحة وطلب مرضاة الله -تعالىٰ-، ولا تسايروا الهوىٰ وداعية الانتقام، فإن ذلك يجركم إلىٰ مآثم لا قبل لكم بها.

فهؤلاء قوم نوح لـمَّا كذبوا الرسل= أغرقهم الله وجعلهم آية للناس، وهؤلاء قوم هود لما عتوا عن أمر الله وخرجوا عن حدوده= أرسل الله عليهم ريحًا صرصرًا في أيام نحسات ليذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا، وهؤلاء ثمود هداهم الله فاستحبوا العمىٰ علىٰ الهدىٰ فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون، ثم قال لهم: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ يريد أنهم أقربُ الهالكين منكم، فكان عليكم أن تعتبروا بهم، وتذَّكروا بما حصل لهم، ثم أمرهم أن يستغفروا ربهم وأن يتوبوا إليه؛ فإنَّه رحيم بمن استغفره، ودود لمن إليه أناب.

(٤) ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ كان جواب قومه بعد ذلك الترفق البالغ، والأدب الجم، وبعد أن أقام عليهم الدليل علىٰ حقِّيَّة دعوته، وبعد أن خوفهم من عذاب ربه؛ كان ردهم بعد ذلك كله أن يقولوا له: ﴿مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾، وهو كقول قريش لمحمد ﷺ: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ [فصلت: ٥]، قالوه علىٰ وجه الاستهانة به، كما يقول الرجل لصاحبه إذا لم يعبأ بحديثه: لا أدري ما نقول، أو جعلوا كلامه هذيانًا وتخليطًا لا ينفعهم كثير منه، أو قالوا ذلك إخبارًا بالواقع؛ لأنَّهم كانوا لا يلقون إليه أذهانهم رغبةً عنه وكراهية له، فعاقبهم الله -تعالىٰ- علىٰ ذلك الإعراض بعدم فقهه والوقوف عليه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾ [الكهف: ٥٧]، ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا[١] مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥، ٤٦].

لم يقفوا من نبي الله شعيب عند ذلك الحدّ، بل قالوا له: ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ رُبِّيَت فيهم نعرة الجاهلية، وتغلب عليهم بطش الجبابرة، فأخذوا يهددونه بالضعف، ويعيبونه بأنَّه لا يقدر علىٰ الامتناع منهم إذا أرادوا به مكروهًا، ثم أروه أنهم لولا رهطه لم يختاروه عليهم، ولم يتابعوه في الدين= لقتلوه شر قتله ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ وإنَّما يعز علينا رهطك، لأنهم من أهل ديننا، وعلىٰ ملة آبائنا.

وانظر كيف يرد عليهم ردًّا مؤثرًا، فيقول: ﴿يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فتعملون لهم حسابًا دونه، وتخشونهم وهو أحق بالخشية، وكيف يليق بكم أن تتخذوه كالشيء المنبوذ وراء الظهر لا يعبأ به، وذلك جهل فاضح، وضلال بعيد.

ثم من أسوأ ضروب الجهل، وأبشع أنواع الضلال: أن يعمل الناس حسابًا للمخلوق وينسون بطش الخالق، وأن يهون عليهم رسل الله فيكذبونهم ويهددونهم

---

(١) هو حجاب الختم علىٰ القلوب.

بالنفي والقتل وما إلىٰ ذلك، ويعز عليهم أن يغضبوا رهطًا من الناس، وطائفة من البشر، لأنَّهم مالؤوهم في الشهوة، وشاركوهم في الإثم، وإذا كان المخلوق يُعمل لغضبه حساب فأولىٰ بذلك الخالق؛ لأنَّ غضبه سبب في الشقاء الأبدي، والعذاب المقيم.

وقد عقب ذلك الأسلوب المؤثر بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ قد أحاط بأعمالكم علمًا، فلا يخفىٰ عليه شيء منها، وسيحاسبكم عليها الحساب العادل، ويجزيكم الجزاء الأوفىٰ، ثم قال لهم يا قوم اعملوا ما شاء لكم الهوىٰ علىٰ تمكنكم من العمل، وقدرتكم علىٰ الكيد، مغترين بما لكم من قوة وعدة، ناسين ربكم وخالقكم، إني عامل علىٰ مبدئي وعقيدتي سوف لا أحيد عنه، وسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخجله أمام الناس، ويحقره عند الجماهير، وسوف تعلمون الكاذب من الصادق، وانتظروا إني معكم منتظر، وأنا واثق من وعد ربي بالنصر، وعنايته بجنده وحزبه، ولما جاء أمر الله بالهلاك أنجىٰ شعيبًا والذين آمنوا معه بفضل من الله استحقوه بالطاعة، وأخذ الذين ظلموا صيحة العذاب، فأصبحوا في ديارهم باركين علىٰ ركبهم، من شدة ما أصابهم، كأن لم يقيموا في البلاد، ولم ينعموا بخيراتها.

ثم ختم القصة بالدعاء علىٰ مدين بالهلاك كما هلكت ثمود، والغرض من ذلك الدعاء أنَّهم استأهلوا عذاب الله -تعالىٰ- بعصيانهم، وتكذيبهم لرسلهم، وهي عبرة ما أشدّها من عبرة، ونكال ما أعظمه من نكال.

شعيب عليه السلام

﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ[1] ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ[2] ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا[3] مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ[4] ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٧٦- ١٩١].

* شرح وعبرة:

(١) الجديد في هذه السورة أن الله أرسل نبيه شعيبًا إلىٰ أصحاب الأيكة، وهي غيضة تنبت ناعم الشجر كانت بقرب مدين، وكان شعيب أجنبيًّا منهم، أما شعب مدين فلم يكن شعيب أجنبيًّا منهم، ولذلك جعل أخًا لهم دون أصحاب الأيكة، ومكانهم كان بالحجاز ممَّا يلي الشام[5] علىٰ خطّ عرضٍ يوافق خطّ

---

(١) شجر ملتف.

(٢) الخلق.

(٣) قطعًا، جمع كسفة، والسماء: السحاب.

(٤) سحاب يظل، وأكثر ما يستعمل فيما يستوضح ويكره.

(٥) انظر: «قصص الأنبياء» للشيخ النجار.

عرض «**قفط**» في البر الأفريقي، فهي إلىٰ الجنوب من «**القصير**» في الجهة المقابلة(١).

وقد نسب لهم تكذيب المرسلين جميعهم مع أن الذي أُرسِل إليهم شعيب؛ لما قلنا من أن دعوة الرسل واحدة في صدقها وقيامها علىٰ الحجة والبرهان، فالذي يكذب رسولًا من الرسل مع قيام الأدلة عنده علىٰ صدقه= مكذب للرسل جميعهم.

وترىٰ في هذه السورة أنَّ شعيبًا ﷺ قال لأصحاب الأيكة ما قاله لشعب مدين، ومنه تعرف أن أخلاق الشعبين كانت واحدة، وزاد في هذه السورة مطالبتهم بتقوىٰ الله الذي خلقهم وخلق من سبقهم من الأجيال.

بعد هذه الدعوة الوادعة الرشيدة قابلوه بقولهم: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ الذين غلب علىٰ عقولهم، فأصبحوا لا يعون ما يقولون: ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾، ومن كان بشرًا لا يصلح أن يكون رسولًا.

وقد سبق في قصة نبي الله نوح ﷺ الرد علىٰ هذه الكلمة، ونعيد منها الحكمة البالغة التي وردت علىٰ لسان بعض المفسرين.

«عجبًا لأهل الضلال لم يرضوا للرسالة ببشر، ورضوا للألوهية بحجر» وهي حكمة يصفع بها كل من قال: ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ ثم هو مع ذلك يعبد مِن خلق الله ما يعبد، ثم قالوا: ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ في دعوىٰ الرسالة عن الله -تعالىٰ-.

والعجب لأولئك القوم يعرفون أن شعيبًا لم يكذبهم فيما يخبرهم به من أمور الدنيا، ثم يزعمون أنه يكذب علىٰ ربه في أمور الدين، فإذا كان لا يستحل الكذب علىٰ الناس فكيف يستحل الكذب علىٰ الله -تعالىٰ-؟ ثم كيف يلفتهم إلىٰ أنه لم يسألهم أجرًا علىٰ تبليغهم الدين، وإنما يطلب الأجر من الله -تعالىٰ-، وذلك شأن الصادق الذي يعمل عن اقتناع، ويدعو وهو مؤمن يدعو إليه، وهذه أمارة الصدق، ودليل الثقة بصاحب الدعوة، ومع ذلك يقولون له: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ وهل المسحر يدعو الناس علىٰ ذلك الأساس، ويرشدهم بذلك

(١) لعله قصد بلدان بمصر، إحداهما بمحافظة (قنا)، والخرىٰ بمحافظة (البحر الأحمر). (عمرو)

الأسلوب؟ وإذا كان شعيب يدعوهم إلىٰ أن يعطوا كل ذي حق حقه، فلا يطففوا كيلًا، ولا يخسروا ميزانًا، ولا يبخسوا أحدًا شيئًا من حقه؛ إذا كانت هذه الدعوة دعوة مسحر، فكيف تكون دعوة العقلاء؟ وإذا كان ذلك الأسلوب أسلوب كاذب، فكيف يكون أسلوب الصادق المصدوق؟ وإذا كان شعيب مسحرًا في عقله، فلماذا خافه إخوانهم شعب مدين؟ ولماذا كانوا يقعُدون بكل طريق يوعِدون المؤمنين به ويصدونهم عنه؟ ولماذا توعدوه بالنفي هو والمؤمنون من القوم إذا لم يعد في ملتهم؟ وما قيمة رجل مغلوب علىٰ عقله؟ ولماذا لا يستوي عندهم رجوعه في ملتهم وعدم رجوعه؟ وبقاؤه في البلد وعدم بقائه؟ أليس للناس عقول تعرف بها الدعوة المبنية علىٰ العقل والحزم، وتفرق بينها وبين الدعوة التي يوم بها مجنون، ويدعو إليها كاذب؟ إذا كان مغلوبًا علىٰ عقله فدعوه لجنونه يقضي عليه، وإذا كان كاذبًا في دعوته فكذبه سيفضحه يومًا ما.

الحق أنَّ القوم كانوا مضطربين، فلا تستطيع أن توفق بين قولهم وعملهم، ولا تستطيع أن تبني عملهم علىٰ المنطق، فكان طبيعيًا أن يكون موقفهم مع نبي الله شعيب موقف جاحدين لدعوته، مكذبين لرسالته، لذلك كان موقفهم منه أن يقولوا.

(٢) ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾، وهو نظير قول عاد لهود: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠]، وقوله ثمود لنبي الله صالح: ﴿يَـٰصَـٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧]، ويشبه قول كفار قريش لمحمد ﷺ: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]، وهو أسلوب من الجحود بليغ، يطلبون فيه إن كان القرآن هو الحق من عنده أن يعاقبهم علىٰ إنكاره كما فعل بأصحاب الفيل أو بعذاب آخر، يريدون نفي كونه حقًّا وإذا انتفىٰ كونه حقًّا لم يستوجب مُنْكِره عذابًا، كما تقول: إن كان الباطل حقًا فأمطر علينا حجارة، وتسمية القرآن حقًّا علىٰ سبيل التهكم، وكان في وسعهم أن يقولوا: (إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه)، ولكن القوم جاحدون، وبآيات الله مكذبون، وعلىٰ حدود الله خارجون، ولشهواتهم يعملون، فيقابلهم نبي الله

شعيب بقوله: ﴿رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ محيط بما تستوجبون عليها من العقاب، فإن أراد أن يعاقبكم عليها بإسقاط كسف من السماء فعل، وإن أراد عقابًا آخر عاقبكم به، وإن أراد أن يؤخر عذابكم إلىٰ أجل فهو صاحب الشأن في ذلك كله، كما قال نبي الله نوح ﷺ، حين قال له قومه: ﴿يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٣٢ قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ [هود: ٣٢، ٣٣].

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾. يرينا الله -تعالىٰ- أن سبب عذابهم هو تكذيبهم لنبي الله شعيب، وأنه لم يكن هناك فاصل بين التكذيب والعذاب، وهو تهديد لكل ممن يكون منه مثل ذلك التكذيب.

يروىٰ أن الله سلَّط عليهم الحرَّ أيامًا، فأخذ بأنفاسهم لا ينفعهم ظلّ ولا ماء ولا سرب، فاضطروا إلىٰ الخروج للبرية، فأظلتهم سحابة وجدوا لها بردًا ونسيمًا، فاجتمعوا تحتها، فأمطرت عليهم نارًا، فاحترقوا جميعًا، والله أعلم.

ويظهر أن عذاب ذلك اليوم كان معروفًا، وقد عقبه بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾.

وقد ختم القصة بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ۝٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾؛ ليرينا أنَّ فيما صنعه الله مع قوم شعيب عبرة لمن أراد أن يعتبر، وذكرىٰ لمن كان له قلب، وفيه مع ذلك تسلية للرسول ﷺ إذا لم يطعه قومه، حتىٰ لا يتحسر علىٰ عدم إسلامهم، ولا يأسىٰ علىٰ قوم لم يحرصوا علىٰ سعادتهم، وتذكير بعزة الله وغلبته، وأنه القاهر فوق عباده، ولولا رحمته بالناس لعجّل لهم العذاب كما عجل لقوم شعيب ومن تقدّمهم من الأمم.

دعوة موسى[1] إلى الله -تعالى-

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا

---

(١) موسىٰ ﷺ هو أكثر الأنبياء ذكرًا في القرآن المجيد، حيث ورد ذكره (١٣٦) مرة، وكثر ذكر في سور (الأعراف، وطه، والقصص)، وذكر بالرسالة (٢٣)، وبالنبوة في مرة واحدة، ويندرج معه في الذكر هارون ﷺ، فإن الحديث عنه لا ينفصل عن الحديث عن موسىٰ ﷺ في جميع الأماكن التي ورد ذكره فيها في القرآن.

وقد اشتمل الحديث عن موسىٰ ﷺ علىٰ عدة أمور:

١- الحديث عن حياته الخاصة من ولادته إلىٰ زواجه، وبعض المواقف في حياته.

٢- الحديث عن إرساله، وإيتائه الكتاب والصحف، وتاييده باالآيات، وقضايا تتعلق برسالته، وعلاقته بالرسل.

٣- الحديث عن قصة موسىٰ ﷺ مع فرعون، والسحر، وقصته مع قارون.

٤- الحديث عن بني إسرائيل وعنادهم، وموقفهم من موسىٰ ﷺ في مختلف المراحل.

انظر: رسالات الأنبياء: (١٢٧-١٢٨).

ولموسىٰ ﷺ مقام رفيع بين الأنبياء، يقول ابن القيم: «وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية -قدس الله روحه- يقول: انظر إلىٰ موسىٰ -صلوات الله وسلامه عليه- رمىٰ الألواح التي فيها كلام الله الذي كتبه بيده فكسرها، وجر بلحية نبي مثله، وهو هارون، ولطم عين ملك الموت ففقأها، وعاتب ربه ليلة الإسراء في محمد ﷺ ورفعه عليه، وربه تعالىٰ يحتمل له ذلك كله، ويحبه ويكرمه ويدلله، لأنه قام لله تلك المقامات العظيمة في مقابلة أعدىٰ عدو له، وصدع بأمره، وعالج أمتي القبط وبني إسرائيل أشد المعالجة، فكانت هذه الأمور كالشعرة في البحر.

وانظر إلىٰ يونس بن متىٰ حيث لم يكن له هذه المقامات التي لموسىٰ، غاضب ربه مرة، فأخذه وسجنه في بطن الحوت، ولم يحتمل له ما احتمل لموسىٰ، وفرق بين من إذا أتىٰ بذنب واحد، ولم يكن له من الإحسان والمحاسن ما يشفع له، وبين من إذا أتىٰ بذنب جاءت محاسنه بكل شفيع»، انظر: مدارج السالكين: (١/ ٣٣٧). (عمرو)

جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٠-٢٦].

* شرح وعبرة:

(١) لقد كانت مهمة نبي الله موسىٰ ﷺ من أشق المهمات.

أولًا: لأن نبي إسرائيل مُرِّنوا علىٰ الذل، وألفوا الاستعباد، فكان نقلهم من ذلك الحال من أشق الأعمال.

ثانيًا: ما لاقاه من جبروت فرعون وطغيانه.

وقد كان من علاجه لذلة بني إسرائيل أن يذكِّرهم بنعم الله -تعالىٰ- عليهم، وهو أسلوب حكيم في الوعظ يبدأه الداعي إلىٰ الله بإحياء إحساس الشرف وشعور الكرامة في نفوس الموعوظين، لتستعد بذلك لقبول الموعظة، ولفظ (نعمة) يفيد العموم بإضافته إلىٰ اسم الله -تعالىٰ-.

ثم بيَّن مراده بذلك العموم بذكر ثلاثة أشياء، وهي أعظم أركان النعم ومجامعها.

الأول: -وهو أشرفها- جعل كثير من الأنبياء فيهم، وهو يصدق بوجود المبلغ نبي الله موسىٰ، وأخيه هارون، ومن كان قبلهما ﷺ.

الثاني: جعلهم ملوكًا وقد غاير في الأسلوب فقال: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾، ولم يقل وجعل فيكم ملوكًا؛ للإشارة إلىٰ أن معظم رجال الشعب صاروا ملوكًا، بعد أن كانوا كلهم عبيدًا للقبط، ومعنىٰ المَلِك هنا: الحر المالك لأمر نفسه، وتدبير أمر أهله، فهو تعظيم لنعمة الحرية والاستقلال، بعد ذلك الرق والاستعباد.

ففي التفسير المأثور من حديث **أبي سعيد الخدري** مرفوعًا عند [ابن] **أبي حاتم**: **«كانت بنو إسرائيل إذا كان لأحدهم خادم ودابَّة وامرأة كُتِب ملكًا»**[١]،

---

(١) انظر: التفسير البسيط: (٧/ ٣٢١)، والبغوي: (٣/ ٣٥)، وابن كثير: (٣/ ٧٣)، وهو ضعيف مرفوعًا. (عمرو)

وهو مجاز تستعمله العرب، يقولون لمن كان مهنئًا في معيشته، مالكًا لمسكنه، مخدومًا مع أهله: فلان ملك، أو ملك زمانه؛ أي يعيش عيشة الملوك.

الثالث: إيتاؤهم ما لم يؤتَ أحدٌ من عالمي زمانهم وشعوبه، التي كانت مستعبدة للملوك العتاة كالقبط والبابليِّين، وقيل: المن والسلوىٰ، وقيل: الغمام الذي ظللهم في التيه، وهو يشمل كل هذا وغيره من نعم الله التي اختصهم بها.

(٢) ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ﴾، وسماها الله مقدسة لطهارتها من الوثنية بما بعث الله فيها من الأنبياء دعاة التوحيد. ومنهم من فسرها بالمباركة، وهو يصدق بالبركة الحسية والمعنوية.

روىٰ **ابن عساكر** عن **معاذ بن جبل** أنَّ الأرض المقدسة ما بين العريش إلىٰ الفرات، وعن قتادة أنَّها الشام[1]، والمعنىٰ واحد، وهي القطر السوري في عرفنا اليوم، وقيل: هي بيت المقدس، والأول هو الصحيح؛ فإنَّ بني إسرائيل ملكوا الشام وفيه فلسطين: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ كتب لهم الحق في سكناها إذا أنتم أطعتم الله -تعالىٰ-، فهي كتابة مشروطة بشرط هو الطاعة والإصلاح في الأرض، ويؤيد ذلك ما ورد في سورة الإسراء التي تسمىٰ أيضًا سورة بني إسرائيل: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٤-٨]، وهي تفيد أن الله قضىٰ علىٰ بني إسرائيل أن يفسدوا في أرض الشام مرَّتين قبل الإسلام، فيسلط عليهم كل مرة من يذلهم ويستولي علىٰ مدينتهم ومسجدهم، ويهلك ما استولىٰ عليه إهلاكًا، وقد كان ذلك.

ثم ختم القصة بقوله ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾. قال المفسرون: وقد عادوا وعاد انتقام العدل الإلهي منهم، فسلط عليهم الروم قبل المسيحية

---

(١) انظرهما في الدر المنثور: (٣/ ٤٧). (عمرو)

وبعدها، ثم المسلمين، ومُزِّقوا في الأرض كل ممزق.

﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَٰسِرِينَ﴾ لا ترجعوا عما جئتكم به من التوحيد والعدل والهدىٰ، إلىٰ الوثنية والفساد في الأرض بالظلم والبغي، فيكون هذا الرجوع إلىٰ الوراء انقلاب خسران لهذه النعم، ومنها الأرض المقدسة، فتعود الدولة فيها لأعدائكم، ووجه آخر في الارتداد وهو النكوص عن دخولها، والجبن عن قتال من فيها من الوثنيين، وقد فرض عليهم قتالهم، والخسران علىٰ هذا خسران ثواب الجهاد، وخيبة الأمل في امتلاك البلاد، وعقابهم بالتِّيه أربعين سنة ينقرض فيها المرتدون علىٰ أعقابهم.

(٣) ﴿قَالُوا يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾. قلنا: إنَّ مهمة نبي الله موسىٰ شاقة، فقد كان استعباد المصريين لبني إسرائيل قد أذلهم، وأفسد عليهم بأسهم، وكان **بنو عناق** الذين يسكنون أمامهم في الأرض المقدسة أولي قوة وأولي بأس شديد، وكانوا كبار الأجسام طوال القامات، وهو المراد من كلمة (**جبارين**)؛ من قولهم: (نخلة جبارة)، أي: طويلة لا ينال ثمارها بالأيدي، والجبار من أسماء الله -تعالىٰ-، فيه معنىٰ العظمة والقوة، والعلو علىٰ خلقه، وكونه لا يمكن أن يناله أحد بتأثير ما.

فنبي الله موسىٰ لما قرب بقومه من حدود الأرض المقدسة العامرة الآهلة، أمرهم بدخولها مستعدين لقتال من يقاتلهم من أهلها، وأنهم لما غلب عليهم من الضعف والذل باضطهاد المصريين لهم أبوا، واعتذروا بضعفهم وقوة أهل تلك البلاد، وحاولوا الرجوع إلىٰ مصر، **[كما كان بعض العبيد يرجعون باختيارهم إلىٰ خدمة سادتهم في أمريكا بعد تحريرهم ومنع الاسترقاق بقوة الحكومة؛ لأنَّهم ألفوا تلك الخدمة والعبودية، وصارت العيشة الاستقلالية شاقة عليهم]**، وقالوا لموسىٰ: إنَّا لن ندخل هذه الأرض ما دام هؤلاء الجبارون فيها، كأنهم يريدون أن يخرجهم منها بقوة الخوارق؛ لتكون غنيمة باردة لهم، وجهلوا أنَّ هذا يستلزم أن يبقوا علىٰ ضعفهم وجبنهم، وأن يعيشوا بالخوارق ما داموا في الدنيا، لا يستعملون قواهم في دفع الشر عن أنفسهم، ولا في جلب الخير لها وحينئذ يكونون أكفر الخلق بنعم الله، فكيف يؤيدهم بآياته طول الحياة؟

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ﴾. من رحمة الله بالشعوب أنها إذا فسدت لم يكن الفساد عامًّا شاملًا، بل تبقىٰ أقلية محتفظة بصلاح فطرتها، معتزة بكرامتها، فالشعب الإسرائيلي علىٰ إمعانه في الذل، وإخلاده إلىٰ الجبن لم يخل من رجلين قد أنعم الله عليهم بالطاعة والتوفيق، حتىٰ في حال الخوف من الجبابرة، يقولان للشعب ﴿ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ﴾ ويعدانهم بالغلب إذا هم دخلوه، ويأمرون الشعب أن يتوكل علىٰ الله إن كان مؤمنًا به، فلا يعمل حسابًا للجبابرة، ولا يخشىٰ بأسًا للأقوياء، بعد بذل الوسع فيما يصل إليه كسبهم من وسائل القوة، وأسباب القهر، وقد وعدوا الشعب بالغلب لما يعلمون من سنة الله مع الرسل وعادته مع المصلحين.

وما أحسن قول الرجلين: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾؛ لنعرف منه أنَّ الإيمان لا يجامع الجبن والخور، وإنَّما المؤمن كله شجاعة وإباء، لا يرضىٰ بالضَّيم، ولا يخنع للذل، والشأن فيه أن يعيش كريمًا أو يموت كريمًا. ولولا شجاعة سلفنا الصالح وسخاؤه بأعز شيء لديه وهي نفسه التي بين جنبيه، في سبيل إعلاء كلمة الدين؛ لولا ذلك ما انتصر حق علىٰ باطل، وما بقي للمسلمين عز، وللمؤمنين شوكة.

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ(١) وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

(٤) لم تنفع موعظة الرجلين للشعب الإسرائيلي؛ لأنَّ المرض أقوىٰ من الدواء، فلا بد أن يتغلب عليه كما هي سنة الله -تعالىٰ- في تنازع القوي والضعيف، فأكدوا له أنَّهم لا يدخلون الأرض المقدسة ما دام فيها الجبابرة؛ لأنَّ دخولها يستلزم القتال وهم ليسوا أهلًا له: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ إذا كنت قد أخرجتنا من أرض مصر بأمر ربك لنسكن هذه الأرض فاذهب أنت وربك الذي أمرك بذلك فقاتلا الجبارين واستأصلا شأفتهم، ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ يبث حزنه وشكواه إلىٰ الله -تعالىٰ-، ويتنصل عن فسق قومه عن أمره فهو يقول: لا أملك أمر أحد أحمله علىٰ طاعتك إلا أمر

---

(١) معابد النصارىٰ، ﴿بِيَعٌ﴾ معابد رهبانهم، ﴿صَلَوَٰتٌ﴾ معابد اليهود.

نفسي وأمر أخي، ولا أثق بغيره أن يطيعك في العسر واليسر، والمنشط والمكره ﴿فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ بقضاءٍ تقضيه بيننا إذ صرنا خصمًا لهم وصاروا خصومًا لنا، أو افصل بيننا وبينهم إذ أخذتهم بالعقاب علىٰ فسوقهم، فلا تعاقبنا معهم في الدنيا: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ قضىٰ الله -ولا رادَّ لقضائه- أنْ تكون الأرض المقدسة محرمة علىٰ بني إسرائيل تحريمًا فعليًّا، لا تكليفًا شرعيًّا، مدة أربعين سنة، يسيرون في برية من الأرض تائهين، متحيرين، لا يدرون أين ينتهون في سيرهم، من التيه، وهو الحيرة يقال: تاه يتيه، ويتوه لغة، ويقال: مفازة تيهاء، إذا كان سالكوها يتحيرون فيها، عاقبهم الله بحرمانهم من الأرض أربعين سنة، عقابًا عادلًا حتىٰ يبيد ذلك الجيل الذي نشأ علىٰ الذل، وتربىٰ علىٰ العبودية لغير الله -تعالىٰ-، ولذلك يختم القصة بقوله: ﴿فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾.

يسلِّيه حتىٰ لا يبالغ في الحزن علىٰ أمثال هؤلاء الذين فسدت فطرهم، وانحطت مداركهم، ونزلوا عما يليق بالإنسان، وعلينا أن نعتبر بهذه الأمثال التي بينها الله لنا، ونعلم أن إصلاح الأمم معد فسادها بالظلم والاستبداد إنما يكون بإنشاء جيل جديد، يجمع بين حرية البداوة واستقلالها وعزتها، وبين معرفة الشريعة والفضائل والعمل بها، وقد قام بهذا في العصور السالفة الأنبياء، ويقوم به بعد ختم النبوة ورثة الأنبياء الجامعون بين العلم بسنن الله في الاجتماع، وبين البصيرة والصدق والإخلاص في حب الإصلاح، وإيثاره علىٰ جميع الأهواء والشهوات.

ويقول الأستاذ **النجار**: إنَّ قوله -تعالىٰ- ﴿أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ﴾ ليس ظرفًا لقوله: ﴿مُحَرَّمَةٌ﴾؛ فإنَّ تحريم هذه الأرض عليهم تحريم أبدي لا مقيد بأربعين سنة؛ فإنَّ الرجال الصالحين للحرب الذين عصوا أمر موسىٰ ماتوا في البرية أثناء السنين الأربعين ولم يدخل أحد منهم أرض الموعد فكانت محرمة عليهم بإطلاق، ولذلك يرىٰ الوقف علىٰ قوله: ﴿مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ﴾.

وأنا أرىٰ ألا ضرورة إلىٰ ذلك، فإن سنة القرآن أن يخاطب الشعب متكافلًا متضامنًا، وكثيرًا ما تكون النعمة للآباء، ولكنه يمتن بها علىٰ الأبناء، انظر إلىٰ

قوله: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ﴾، وإنَّما نجىٰ آباءهم ووعدهم ما وعدهم، ولكنَّه يخاطبهم بما كان لآبائهم ليريهم أنهم متكافلون مع آبائهم في الخير والشر، والنعمة علىٰ الوالد نعمة علىٰ الولد.

فإذا كان الله -تعالىٰ- قد حرم الأرض علىٰ بني إسرائيل؛ فإنَّما يحرمها علىٰ الشعب نفسه عقوبة له علىٰ الجبن، وإن كان ذلك العقاب في شخص الحاضرين، فالمعنىٰ يستقيم سواء وقفنا علىٰ قوله: ﴿مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ﴾، أو وصلناها بما بعدها.

أما الأرض التي تاهوا فيها فهي أرض سيناء، تاهوا في بريتها من عهد خروجهم إلىٰ أن مات موسىٰ ﷺ، وعبروا نهر الأردن وملكوا أريحا، وما معها من الأرضين.

والسر في ذلك كما أوضحه: «**ابن خلدون**» أنَّ نفس بني إسرائيل كانت حقيرة؛ لأنَّهم ألفوا الذل والهوان في ملك المصريين، ومن كان كذلك لا يصلح لقتال ولا استقلال، والعلماء يقررون أن حضانة العلم خمس عشرة سنة، أما حضانة الأخلاق فمدتها أربعون سنة، فإذا أَخَذَت أمة تستمسك بالأخلاق؛ فإنَّها لا تجني الثمرة إلا بعد أربعين سنة، حتىٰ يفنىٰ الجيل الذي نشأ في الاستعباد، وينشأ جيل ألف الحرية[1].

---

(١) قال ابن القيم: «ومن تلاعب [الشيطان باليهود]: أن الله سبحانه أنجاهم من فرعون وسلطانه وظلمه، وفرَق بهم البحر، وأراهم الآيات والعجائب، ونصرهم وآواهم، وأعزَّهم وآتاهم ما لم يُؤْتِ أحدًا من العالمين. ثم أمرهم أن يدخلوا القرية التي كتب الله لهم.

وفي ضمن هذا بشارتهم بأنهم منصورون، ومفتوح لهم، وأن تلك القرية لهم. فأبوا طاعته وامتثال أمره، وقابلوا هذا الأمر والبشارة بقولهم: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤].

وتأمَّلْ تَلَطُّف نبيّ الله تعالىٰ موسىٰ ﷺ بهم، وحسن خطابه لهم، وتذكيرهم، بنعم الله عليهم، وبشارتهم بوعد الله لهم: بأن القرية مكتوبة لهم، ونهيهم عن معصيته بارتدادهم علىٰ أدبارهم، وأنهم إن عصوا أمره ولم يمتثلوا انقلبوا خاسرين.

فجمع لهم بين الأمر والنهي، والبشارة والنذارة، والترغيب والترهيب، والتذكير بالنعم السالفة. فقابلوه أقبح المقابلة، فعارضوا أمر الله تعالىٰ بقولهم: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمًا جَبَّارِينَ﴾ [المائدة: ٢٢] فَلَمْ يوقِّروا رسوله وكليمه، حتىٰ نادوه باسمه، ولم يقولوا: يا نبي الله! وقالوا: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمًا جَبَّارِينَ﴾ ونسوا قدرة جبار السماوات والأرض الذي يُذلّ الجبابرة لأهل طاعته، وكان خوفهم من أولئك الجبارين =

. . . .

= الذين نواصيهم بيد الله أعظمَ من خوفهم من الجبار الأعلىٰ سبحانه، وكانوا أشدّ رهبةً في صدورهم منه.

ثم صرَّحوا بالمعصية والامتناع من الطاعة. فقالوا: ﴿لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ [المائدة: ٢٢]، فأكّدوا معصيتهم بأنواع من التأكيد:

أحدها: تمهيد عذر العصيان بقولهم: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾.

والثاني: تصريحهم بأنهم غير مطيعين، وصَدّروا الجملة بحرف التأكيد، وهو (إنّ)، ثم حققوا النفي بأداة (لن) الدالة علىٰ نفي المستقبل أي: لا ندخلها الآن، ولا في المستقبل، ثم علّقوا دخولها بشرط خروج الجبارين منها، فقال لهم رجلان من الذين أنعم الله عليهما بطاعته والانقياد إلىٰ أمره، من الذين يخافون الله.

هذا قول الأكثرين. وهو الصحيح.

وقيل: من الذين يخافونهم من الجبارين. أسْلَما واتّبعا موسىٰ ﷺ: ﴿ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ﴾ [المائدة: ٢٣] أي: باب القرية، فاهجموا عليهم، فإنهم قد مُلئوا منكم رعبًا، ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٢٣] ثم أرشدهم إلىٰ ما يحقق النصر والغلبة لهم. وهو التوكل.

فكان جواب القوم أن: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤].

فسبحان من عَظُم حلمه حيث يقابَل أمره بمثل هذه المقابلة، ويُواجَه رسوله بمثل هذا الخطاب، وهو يحلُمُ عنهم، ولا يعاجلهم بالعقوبة، بل وَسعهم حلمه وكرمه، وكان أقصىٰ ما عاقبهم به: أن ردّدهم في بَرّية التّيه أربعين عامًا، يظل عليهم الغمام من الحرّ، ويُنزل عليهم المنّ والسّلوىٰ.

وفي «الصحيحين»: عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: لقد شهدت من المقداد بن الأسود مشهدًا لأن أكون صاحبهُ أحبّ إلي مما عُدل به، أتىٰ النبي ﷺ وهو يدعو علىٰ المشركين، فقال: لا نقول لك كما قال قوم موسىٰ لموسىٰ: اذهب أنتَ وربّك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، ولكنا نقاتل عن يمينك وشمالك، وبين يديك ومن خلفك، فرأيت رسول الله ﷺ أشرق وجهه لذلك وسُرّ به.

فلما قابلوا نبي الله بهذه المقابلة قال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٥، ٢٦]»، إغاثة اللهفان: (١٠٩٣/٢). (عمرو)

موسى عليه السلام

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ
كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾
حَقِيقٌ(١) عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ
إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ
عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ(٢) مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن
قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾
قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ(٣) وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ
ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ
ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ
أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟(٤) أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ
مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ(٥) مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ
﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ
﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ

---

(١) جدير. و(على) معنى الباء، أو حريص. وقرئ: (عليّ) بتشديد الياء، ومعناه واجب علي.

(٢) الذكر العظيم من الحيات.

(٣) أخر أمره وأمر أخيه.

(٤) موّهوا عليهم، وأوقعوا في قلوبهم الرهب والخوف.

(٥) تتناوله وتبتلع ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ يصرفون به الناس عن الحق من السحر.

فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ[1] مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٣-١٢٦].

* شرح وعبرة:

(١) يرينا الله -تعالىٰ- في هذه القصة أنه بعد أن أرسل هودًا وصالحًا ولوطًا وشعيبًا ﷺ بعث موسىٰ بن عمران إلىٰ فرعون وملئه، وقد ذُكرت قصة نبي الله موسىٰ في عدة سور مكية بين مطولة ومختصرة، وتكرر ذكره في خطاب بني إسرائيل من سورة البقرة المدنية حتىٰ زاد ذكر اسمه في القرآن علىٰ (١٣٠ مرة).

وسبب ذلك أن قصته أشبه قصص الرسل ﷺ بقصة خاتمهم محمد -صلوات الله وسلامه عليه-، من حيث إنَّه أوتي شريعة دينية دنيوية، وكوّن الله -تعالىٰ- به أمة عظيمة ذات ملك ومدنية.

أمَّا «**فرعون**»؛ فهو لقب ملوك مصر القدماء، كلقب «**قيصر**» لملوك الروم، و«**كسرىٰ**» لملوك الفرس الأوَّلين، و«**الشاه**» لملوك الإيرانيين في هذا العصر، وكانوا يُطلقون علىٰ فرعون لقب الملك أيضًا.

وقد اختلف في اسمه الحقيقي وزمنه، وأحدث الأقوال أنَّ اسمه: ريان أبا.

وقد اكتشفت جثته في أحد النواويس وكتب بشأنه المرحوم أحمد نجيب بك الأثري الشهير «صاحب الأثر الجليل في قدماء وادي النيل» مقالًا ضافيًا في «**المؤيد**» أيام العثور علىٰ جثة ذلك الرجل وأكَّد أنَّه فرعون موسىٰ، وأنَّ قوله -تعالىٰ-: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ تحقق بالعثور علىٰ جثته، ومن علاماته أن ذلك الرجل أرنبة أنفه مأكولة غير موجودة، فعلل ذلك بأنَّ السمك أكل ذلك المكان من جسمه، وأنه ألقي إلىٰ الساحل، وأن المصريين أخذوه وحنطوه ودفنوه، قال الأستاذ النجار: وأنا أميل إلىٰ رأيه.

وهناك رأي آخر في فرعون موسىٰ هو أنه «**منفتاح**» سليل الأسرة التاسعة

---

(١) تنكر باللسان أو العقوبة.

عشرة، وهو ابن «**رمسيس الثاني**» الذي مَلَك من (سنة ١٢٩٢ إلىٰ سنة ١٢٢٥ قبل المسيح)، وقد نشر ذلك البحث بأهرام (٧ مايو سنة ١٩٣٢م)[(١)].

أمَّا ملأ فرعون فهم أشراف قومه ورجال دولته، ولم يقل إلىٰ فرعون وقومه بل وجه الدعوة إلىٰ فرعون وملئه؛ لأنَّ فرعون ورجال دولته هم الذين كانوا مستعبِدين لبني إسرائيل وبيدهم أمرهم، وليس لسائر المصريين من الأمر شيء.

وقد بعث الله نبيه موسىٰ لإنقاذ قومه بني إسرائيل من فرعون ورجال دولته، فليس من الحكمة أن توجه الدعوة إلىٰ قوم لا يملكون من أمر أنفسهم شيئًا، إنَّما الحكمة أن توجه الدعوة إلىٰ من بيدهم الأمر، وإن كان المقصود بالدعوة الشعب الإسرائيلي، والآيات هي الدلائل التي تدل علىٰ صدقه فيما يبلغه عن الله -تعالىٰ-: ﴿فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ ظلموا أنفسهم وقومهم بالكفر بها كبرًا وجحودًا، فكان عليهم إثم ذلك، وإثم قومهم الذين حرموا من الإيمان باتباعهم لهم: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾، وهو تشويق لتوجيه النظر لما سيقصه الله -تعالىٰ- من عاقبة أمرهم؛ إذ نصر رسوله موسىٰ عليهم وهو فرد من شعب مستعبَد لهم، وهم أعظم أهل الأرض دولةً وصولة.

نصره عليهم بإبطال سحرهم، ثم بإرسال أنواع العذاب علىٰ البلاد، ثم بإنقاذ قومه وإغراق فرعون ومن تَبعه من ملائه وجنوده، وهي عبرة ظاهرة وحجة قائمة مدىٰ الدهر علىٰ القائلين أن الغلب للقوة المادية علىٰ الحق، ولا سيما المغرورين بعظمة دول أوروبا الظالمة لمن استضعفتهم من أهل الشرق، وحجة علىٰ أولئك الباغين بالأولىٰ.

(٢) ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ ... إلخ سيدهم ومالكهم، وأنه بمقتضي هذه الرسالة لا يقول علىٰ الله إلَّا الحق؛ إذ لا يمكن أن يبعث رسولًا يكذب عليه، وهو الذي بيده ملكوت كل شيء، فهو حقيق بالصدق والتزام الحق في التبليغ عن ربه، وهو شديد الحرص علىٰ ذلك الصدق.

وقد اشتمل كلامه علىٰ عقيدة الوحدانية، وهي أن للعالمين كلهم ربًا واحدًا، وعقيدة الرسالة المؤيدة منه -تعالىٰ- بالعصمة في التبليغ.

---

(١) انظر كتاب «**قصص الأنبياء**» للشيخ النجار.

وقد ناقشه فرعون البحث في وحدانية الربوبية العامة لله -تعالىٰ- في سورة الشعراء، فوصفه موسىٰ بما يليق به -تعالىٰ-، كما سأله هو وهارونَ عن ربهما في سياق سورة طه، وجاء فيما حكاه الله عنهما فيها ذكر البعث والجزاء.

فعلم من هذا أنَّ موسىٰ قد بلَّغ فرعون وملأه أصول الإيمان الثلاثة: التوحيد، والرسالة، والبعث والجزاء ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ حجة واضحة عظيمة الشأن، ثم بنىٰ علىٰ هذا قوله: ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ بإطلاقهم من أسرك، وعتقهم من رق قهرك، ليذهبوا معي إلىٰ دار غير دارك، ويعبدوا فيها ربي وربك، فكان جواب فرعون علىٰ هذه الدعوة المتواضعة أن ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

شكَّ أولًا في مجيئه بآية، ثم شكَّ ثانيًا في صدقه فيما يخبر به عن الله -تعالىٰ-؛ ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾. لم يلبث موسىٰ أن ألقىٰ عصاه التي كانت بيمينه أمام فرعون، فإذا هي ثعبان بين لا خفاء في كونه ثعبانًا يسعىٰ وينتقل من مكان إلىٰ آخر تراه الأعين، ونزع يده: أخرجها من جيب قميصه بعد أن وضعها فيه، فإذا هي بيضاء للناظرين إليه، وهم فرعون وملؤه، أو لكلّ من ينظر، والنظارة: هم الذين يجتمعون لرؤية الأمور الغريبة.

وقد وصف الله -تعالىٰ- بياضها في سورة طه والنمل والقصص بأنه ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ أي من غير علة كالبرص.

(٣) ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾؛ لزمتهم الحجة وقام عليهم الدليل، وسدّ عليهم أبواب التفكير بتينك الآيتين الواضحتين؛ آية العصا، وآية اليد، فماذا كان منهم؟ كان منهم أن رموا موسىٰ بالسحر، وأنه عليم بذلك السحر ماهر فيه، ومن الذي رماه بذلك؟ رماه الملأ من قوم فرعون وأعوانه في الاستبداد والظلم.

ثم حاولوا استفزاز فرعون وإلهابه من ناحية موسىٰ فقالوا: إن موسىٰ يريد بذلك العمل أن يخرج فرعون وشيعة فرعون من أرضهم بسحره، ولا شك أن وطن فرعون عزيز عليه فضلًا عن ملكه وسلطانه، فإذا قيل لرجل مستبد: إن فلانًا

من الناس يعمل علىٰ تقويض ملكك وذهاب دولتك، وهو يؤلف الناس حوله علىٰ ذلك الحساب؛ إذا قيل لملك مستبد ذلك القول ذهب صوابه وطار لُبُّه؛ لذلك لجأ الملأ من قوم فرعون حين عرفوا أن موسىٰ ﷺ سيظهر عليهم، ويأخذ الشعب منهم إلىٰ تلك الدسيسة الدنيئة، وذلك الأسلوب المنحط، فأخذوا يؤلِّبون عليه فرعون من ناحية ملكه، ويحرضونه عليه من جهة سلطانه وعظمته، وهي ناحية حساسة تفعل بنفوس المستبدين فوق ما تفعل الخمر.

ولا ندري كيف يتهمون نبي الله موسىٰ بتلك التهمة، وليس لموسىٰ حظ سوىٰ إنقاذ بني إسرائيل من بطش فرعون، وتعريفهم بإلهٍ هو رب فرعون وشيعة فرعون، وسواء عليه بعد ذلك بقي فرعون في أرض مصر أم خرج منها، فذلك شيء لم يكن في حسبان موسىٰ، ولم يدخل في حدود دعوته، ولا برنامج رسالته، ولكن العجز عن مقابلة الحجة بالحجة والدليل بالدليل، يحمل أصحابه علىٰ هذه الفرية وأمثالها؛ نعوذ بالله من الخذلان بعد التوفيق، والضلالة بعد الهدىٰ.

* السحر وأنواعه:

كان السحر فنًّا من فنون قدماء المصريين يتعلمونه في مدارسهم العالية مع سائر علوم الكون، وكان كذلك عند أقرانهم من البابليِّين، وكذا الهنود وغيرهم، ولا يزال يؤثر عن الوثنيين منهم أعمال سحرية غريبة اهتدىٰ علماء الإفرنج وغيرهم إلىٰ تعليل بعضها، أو كشف حقيقته، ولا يزالون يجهلون تعليل بعضه[(١)].

والمعنىٰ الجامع للسحر: أنه أعمال غريبة من التلبيس والحيل تخفىٰ حقيقتها علىٰ جماهير الناس لجهلهم بأسبابها؛ ولذلك كان الأقوام الجاهلون يعدون آيات الرسل الكونية التي يؤيدهم الله -تعالىٰ- بها من قبيل السحر، ويجعلون هذا مانعًا من دلالتها علىٰ صدقهم؛ لأنَّ السحر صنعة تتلقىٰ بالتمرين

---

(١) يقول ابن حجر: «قصة هاروت وماروت كانت من قبل زمن نوح ﷺ، علىٰ ما ذكر ابن إسحاق وغيره، وكان السحر موجودًا في زمن نوح، إذ أخبر الله عن قوم نوح أنهم زعموا أنه ساحر، وكان السحر أيضًا فاشيا في قوم فرعون، وكل ذلك قبل سليمان»، فتح الباري: (١٠/ ٢٢٣).

وانظر في تاريخ السحر. عالم السحر والشعوذة، للدكتور عمر سليمان الأشقر. (١٥-٦٨). (عمرو)

والتعليم، والسحر لا يروج إلا بين الجاهلين، ولا يكاد يوجد في البلاد التي ينتشر فيها العلم، بل يسمىٰ أهله بأسماء أخرىٰ كالمشعوذين والمحتالين والدجالين.

ومن ذلك يخطئ من يقول: إنَّ السحر من خوارق العادات التي هو الجنس الجامع لمعجزات الأنبياء وكرامات الأولياء؛ لأنَّه صناعة تتلقىٰ بالتعليم كما ثبت بنص القرآن، وبالاختبار الذي لم يبقَ فيه خلاف بين أحد من علماء الكون[1]، وهو أنواع[2]:

أحدها: ما يعمل بالأسباب الطبيعية من خواص المادة، المعروفة للعامل، المجهولة عند من يسحرهم بها، ومنها الزئبق الذي قيل إن سحرة فرعون وضعوه في حبالهم وعصيهم، ولو شاء علماء الطبيعة والكيمياء أن يجعلوا أنفسهم سحرة في أواسط أفريقية الهمجية وأمثالها= لأروهم من عجائب الكهرباء وغيرها ما يخضعونهم به لعبادتهم لو ادّعوا الألوهية فيهم.

النوع الثاني: الشعوذة التي مدار البراعة فيها علىٰ خفة اليدين في إخفاء بعض الأشياء وإظهار بعض، وإراءة بعضها بغير صورها، وغير ذلك ممَّا هو معروف في هذه البلاد وغيرها.

---

(١) هناك فرق بين السحر والمعجزة والكرامة، تتمثل في الآتي:
١- السحر علم مكتسب يحصل بالتعلم والصناعة، أما الكرامة فهبة ومنحة، والمعجزة كذلك.
٢- المعجزة والكرامة لا تظهر علىٰ يد فاسق، بخلاف السحر.
٣- لا يمكن إبطال المعجزة، بخلاف السحر فإنه مما يمكن إبطاله.
٤- لا يمكن لأحد أن يأتي بمثل المعجزة، بخلاف السحر.
انظر: عالم السحر والشعوذة: (٧٤-٧٩). (عمرو)

(٢) قسم لعلماء السحر إلىٰ أنواع ثلاثة:
١- السحر الحقيقي.
وهو الذي يؤثر بهمة الساحر، أو بالطلسمات التي هي من فعل الشياطين.
٢- السحر التخييلي.
وقد استظهر بعض العلماء أن سحر قوم فرعون كان من هذا النوع.
٣- السحر المجازي.
وهي أنواع من الحيل المصنوعة، واستعمال خواص الأدوية والأطعمة والملابس.
انظر: عالم السحر والشعوذة: (١٠١-١٤٧). (عمرو)

النوع الثالث: نوع مداره علىٰ تأثير الأنفس ذوات الإرادة القوية في الأنفس الضعيفة ذات الأمزجة العصبية، القابلة للأوهام والانفعالات، التي تسمىٰ في عرف هذا العصر بالهيسترية، وهذا النوع هو الذي قيل: إنَّ أصحابه يستعينون علىٰ أعمالهم بأرواح الشياطين.

ومنهم الذين يكتبون الأوفاق والطلسمات للحب والبغض وغير ذلك.

ومن هذا النوع ما استحدث في هذا العصر من التنويم المغناطيسي، أما مأخذ السحر من اللغة فهو كل ما لطف مأخذه ودق وخفي، وقالوا سحره وسحَّره[1]، بمعنىٰ: خدعه وعلله، وقالوا: عين ساحرة وعيون سواحر، وفي الحديث الصحيح: «**إنَّ من البيان لسحرًا**»[2]، والسحر -بالفتح والتحريك- الرئة، وهي أصل هذه المادة، والرئة في الباطن. فما لطف مأخذه ودقّ صنعه حتىٰ لا يهتدي إليه غير أهله فهو باطن خفي، ومنه الخداع، وهو أن يظهر لك شيئًا غير الواقع في نفس الأمر فالواقع باطن خفي، وتأثير العيون في عشاق الحسان، والكلام البليغ في عشاق البيان ممَّا يخفىٰ مسلكه ويدق سببه، حتىٰ يعسر علىٰ أكثر الناس الوقوف علىٰ العلة في تأثيره.

﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ من قولهم: «مرني»، بمعنىٰ أشر عليّ، وقولهم: تآمر القوم وائتمروا، مثل: تشاوروا، واشتوروا؛ أي: فما الذي تشيرون به في أمر ذلك الرجل؟ ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾.

قال الملأ لفرعون بعد التشاور: أخِّر أمره وأمر أخيه، ولا تفصل فيه بادئ الرأي، وأرسل في مدائن ملكك ﴿حَٰشِرِينَ﴾ جامعين للسحرة منها: ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ بفنون السحر ماهر فيها، وهم يكشفون لك كنه ما جاء به موسىٰ.

(٤) رضي فرعون بذلك الرأي فبعث في طلب السحرة فجاؤوا، وقالوا لفرعون: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾.

طلبوا من فرعون أجرًا إن هم غلبوا موسىٰ، فأجابهم إلىٰ ما طلبوا، وزاد عليه أن لهم مع ذلك الأجر المادي أجرًا أدبيًا هو أن يكونوا من المقربين منه،

---

(١) بتشديد الحاء مفتوحة.

(٢) رواه البخاري: (٥١٤٦). (عمرو)

فيجتمع لهم المال والجاه، وذلك منتهىٰ نعيم الدنيا، وقد حكىٰ عدتهم بالقربىٰ بصيغة المؤكد لنفهم منه أن كان حريصًا علىٰ الغلب لموسىٰ ﴿قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾.

خيروه لثقتهم بأنفسهم، واعتدادهم بسحرهم، وإرهابًا له ﴿قَالَ أَلْقُواْ﴾.

أمرهم أن يتقدموه فيما جاؤوا لأجله ولا بد لهم منه وهو السحر، وأراد التوسل به إلىٰ إظهار بطلان السحر، وإلىٰ بناء ثبوت الحق علىٰ بطلانه، ولم يكن ثم وسيلة لإبطاله إلا ذلك، وقد صرح به فيما حكاه الله عنه في سورة يونس: ﴿قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾، ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾، وفي سورة طه: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، وإنَّما أضاف السحر إلىٰ الأعين ليرينا أن ذلك النوع من السحر تمويه وتخييل، ولذلك شرحه في آية طه بقوله: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ﴾.

والمراد أنَّهم أوقعوا في خيال الناس أن لذلك السحر حقيقة في الخارج، مع أنه لم يكن إلا مجرد صنعة وخيال.

وقد قيل: إنَّها كانت عصيًا مجوّفة قد ملئت زئبقًا، وكذلك الحبال كانت معمولة من أدم -أي: جلد- محشوة زئبقًا، وقد حفروا قبل ذلك تحت المواضع أسرابًا وجعلوا فيها آزاجًا[1] ملؤوها نارًا، فلما طرحت عليه وحمي الزئبق حركها؛ لأنَّ من شأن الزئبق إذا أصابته النار أن يطير، فأخبر الله أن ذلك كان مموَّهًا علىٰ غير حقيقته، ويحتمل أن يكون بحيلة أخرىٰ كإطلاق أبخرة أثرت في الأعين فجعلتها تبصر ذلك، أو بجعل العصي والحبال علىٰ صورة الحيات، وتحريكها بمحركات خفيَّة سريعة لا تدركها أبصار الناظرين، وكانت هذه الأعمال من الصناعات وتسمىٰ السيمياء[2].

---

(١) (آزاج) -مفرده (أَزَج) بالتحريك-: ضربٌ من الأبنية يشبه المواسير تحت الأرض.

(٢) هي نوع من السحر، ويعرف «بالعلم الذي يتصرف به في خيال الإنسان ليحدث منه مثالات خيالية لا وجود لها في الخارج، ويلتذ بها ويفزع عنها، كما يلتذ يفزع بالصور الخارجية». انظر: دستور =

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ . . . إلخ. أوحىٰ الله إلىٰ موسىٰ بأن ألق عصاك، فقد جاء وقتها، فإذا هي تبتلع ما يأفكون من السحر، وسمىٰ السحر إفكًا لأنَّه يأفك الناس ويصرفهم عن الحق إلىٰ الباطل.

والمعنىٰ: أنَّ عصا موسىٰ أزالت ما أحدثه سحرهم في أعين الناس من تمويه وخداع؛ ولذلك عقبه بقوله: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، أي: فثبت الحق وفسد ما كانوا يعملون من الحيل والتخييل، وذهب تأثيره ﴿فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ﴾ غلب فرعون وملؤه في ذلك المجتمع العظيم الذي كان في عيد لهم، ويوم زينة من مواسمهم، لتكون الفضيحة ظاهرة لجماهير الناس، ولم يضف الغلب لموسىٰ؛ لأنَّ ذلك لم يكن بكسبه وصنعه ﴿وَٱنقَلَبُوا۟﴾ عادوا من ذلك المجتمع صاغرين أذلة بما رزئوا من الخذلان والخيبة ﴿وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ خروا سجدًا كأنَّها ألقاهم مُلْقٍ لشدة خرورهم.

والمراد أنَّ ظهور بطلان سحرهم، وإدراكهم فجأة حقيقة آية موسىٰ، وعلمهم أنَّها من عند الله -تعالىٰ- قد ملأت عقولهم يقينًا، وقلوبهم إيمانًا، فكان هذا اليقين في الإيمان البرهاني الكامل، والوجداني الحاكم علىٰ الأعضاء والجوارح= هو الذي ألقاهم علىٰ وجوههم سُجَّدًا لله رب العالمين، ولم يبقَ في أنفسهم أدنىٰ مكان لفرعون وعظمته الدنيوية الزائلة ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾.

فانظر كيف يجمعهم فرعون من المدائن، ويعدهم ويُمنِّيهم إذا هم غلبوا موسىٰ ﷺ، فيأخذهم موسىٰ منه بقوة الحجة، ونصوع البرهان فينقلبون حربًا عليه وقوّة لموسىٰ ﷺ، وفي ذلك عبرة كبرىٰ لمن يحاولون صرف الناس عن الحق، والحيلولة بينهم وبين عقائدهم.

ولو كان لسلطان المادة علىٰ النفوس ما لسلطان العقائد ما تفلت السحرة من فرعون علىٰ ماله من سلطان ونفوذ، وما انضموا إلىٰ نبي الله موسىٰ وسخروا

= العلماء: (٢/ ٢٠١)، وهو أيضًا: «الكيمياء القديمة وكانت غايتها تحويل المعادن الخسيسة إلىٰ ذهب، واكتشاف علاج كلّي للمرض ووسيلة لإطالة الحياة»، انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة: (٢/ ١١٤٠). (عمرو)

بقوّة فرعون وسلطان فرعون، وانظر ماذا صنع فرعون بعد ذلك الخذلان الفاضح ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾.

فهم فرعون أنَّ قلوب الناس بيده، وإيمانهم تحت سلطانه، فعاب عليهم أن يؤمنوا بموسىٰ قبل أن يأذن لهم، وجهل أن القلوب لا تخضع إلا للحجة، وأنَّها متىٰ اتجهت إلىٰ الحق، وتطلعت إليه، ثم صادفها البرهان لا تستطيع أن تقاومه ولا غنىٰ لها عن الخضوع له.

جهل فرعون تلك السنة التي جعلها الله -تعالىٰ- للنفوس، فزعم أن سلطانه عليها كسلطانه علىٰ الأجسام، فكما لا تستطيع الناس أن تتحرك حركة في عهد استبدادي، بدون إذن من المستبد=لا تستطيع القلوب أن تنتقل من باطل إلىٰ حق، ومن ضلال إلىٰ هدىٰ إلا بإذن منه، وذلك منتهىٰ الغباوة.

ثم عقب ذلك بقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾. رماهم بالتواطؤ مع نبي الله موسىٰ، وأن ما فعلوا من إظهار الرغبة في الغلب عليه كان خديعة لفرعون وملئه ليُخرجوا من المدينة أهلها، وجاء في سورة طه: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾، وجملة القول: إنَّ فرعون قد سقط في يده بإسلام السحرة، فمرة يعتب عليهم أنهم آمنوا بموسىٰ قبل أن يأذن لهم، ومرة يتهمهم بأنَّ موسىٰ كبيرهم في السحر، وأنَّهم دبروا ذلك العمل مع موسىٰ قبل اجتماعهم به ليخرجوا من المدينة أهلها، وأخيرًا لجأ إلىٰ الوعيد والتهديد فقال: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ما يحل بكم من العذاب علىٰ ذلك المكر والخداع.

ثم فصل ذلك الوعيد بقوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، وهو وعيد يحاول به فرعون أن يموّه به علىٰ قومه المصريين حتىٰ لا يتبعوا السحرة في الإيمان بموسىٰ، وكذلك يفعل كل ملك وكل رئيس مستبد في شعب يخاف أن ينقض عليه باجتماع كلمته علىٰ زعيم آخر، بدعوة دينية أو سياسية، وهو وعيد شديد، وتهديد لهم بالتمثيل بهم، وتقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف، حتىٰ لا يستطيعوا أن ينتفعوا بما بقي لهم من الأيدي والأرجل، وبعد ذلك التقطيع يصلبهم في جذوع النخل، حتىٰ يكونوا عبرة لغيرهم ممن يفكر في الإيمان برب موسىٰ وهارون.

وقد جاء ذلك الوعيد بصيغة التأكيد ليري القوم أنه فاعل ذلك ولا بد، وأنَّه لم يكن هاذلًا في ذلك الوعيد وإنَّما هو جاد.

لم يهددهم فرعون بحبس أجسامهم، ولا بإخراجهم من أوطانهم، ولا بمصادرتهم في أموالهم، ولا بحرمانهم من وظائفهم، وإنَّما هددهم بما هو أشد من ذلك كله: هو التمثيل بهم، وجعلهم عبرة ونكالًا لغيرهم.

توعد فرعون السحرة بذلك الوعيد، وهددهم ذلك التهديد، فماذا كان جوابهم له وردهم عليه؟ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ يريدون أنَّهم لا يبالون بما يكون من قضائه عليهم وقتله لهم؛ لأنَّهم راجعون إلىٰ ربهم راجون مغفرته ورحمته بهم، فتعجيل قتلهم سبب لقرب لقائه، والتمتع بحسن جزائه، ويجوز أنَّهم أرادوا إنَّنا وإياك سننقلب إلىٰ ربنا، فلئن قتلتنا فما أنت بخالد بعدنا، وسيحكم ﷻ بيننا وبينك.

وجاء في سورة طه: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾.

﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾ لا تنكر منَّا ولا تعيب علينا إلا أمرًا لا يصح أن ينكر، هو أنهم آمنوا بآيات الله، ودلائل ربوبيته لما جاءتهم، وهو كقوله: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾، فإذا كان هذا ذنبًا نعاقب عليه ونستحق عليه ذلك الوعيد، فافعل ما شئت أن تفعل، واستبد ما زين لك الاستبداد، ولذلك ختموا قولهم بذلك الدعاء: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ طلبوا من الله -تعالىٰ- أن يهبهم صبرًا واسعًا يفرغه عليهم كما يفرغ الماء من القرب حتىٰ يثبتوا علىٰ الإيمان، وأن يتوفاهم إليه مسلمين له، مذعنين لأمره ونهيه، مستسلمين لقضائه، غير مفتونين بتهديد فرعون، ولا مطيعين له في قول أو فعل.

والصبر من صفات النفس التي تعينها علىٰ احتمال المكاره والآلام، بغير تبرم ولا حرج يحملها علىٰ ما لا ينبغي من ترك الحق أو اجتراح الباطل، ولا شيء كالإيمان بالله -تعالىٰ- والخوف منه والرجاء فيه يقوي هذه الصفة في النفس.

موسى عليه السلام

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ(١) مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ
وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ(٢) نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ
لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ
لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن
يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ
فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ(٣) وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا
هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟(٤) بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ
﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟
قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ(٥) قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ
لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا
عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ(٦) ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ
بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ
مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ

---

(١) تترك.

(٢) نستبقي.

(٣) الجدب وضيق المعيشة.

(٤) يتشاءموا.

(٥) كل عذاب تضطرب له القلوب أو يضطرب له الناس.

(٦) ينقضون عهدهم.

بِمَا صَبَرُوا۟ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ(١) مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٢٧-١٤١].

* **شرح وعبرة:**

(١) ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾. لما لم ينجح الملأ من قوم فرعون في دسيستهم الأولىٰ، وهي أنَّ موسىٰ ساحر عالم بالسحر يريد بسحره أن يخرج فرعون وملأه من أرضه، وتبين أنَّ ما أتىٰ به ليس سحرًا، وإنَّما هو مبطل للسحر، ثم كان من وراء ذلك إيمان السحرة الذين جمعهم فرعون ليهزموا موسىٰ، ثم تبع السحرةَ في الإيمان حزبٌ.

لما كان ذلك كله لجؤوا إلىٰ أسلوب جديد يألِّبون به فرعون علىٰ موسىٰ وشيعته، فقالوا لفرعون: أتترك موسىٰ وقومه؟ وهم الذين تبعوا السحرة في الإيمان ليفسدوا في الأرض وليتركك وآلهتك كالشيء اللَّقىٰ(٢) فيظهر للمصريين عجزك، يستفزون بذلك الأسلوب فرعون المستبد ليحول بين بني إسرائيل وبين موسىٰ: إما بحبسه، وإما بقتله.

وانظر إلىٰ قولهم: ﴿لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، وكيف يعدون دعوة موسىٰ إلىٰ التوحيد، وإنقاذ الناس من ظلم فرعون وبطشه إفسادًا في الأرض، وبالتالي يعدون ما هم عليه من باطل إصلاحًا، ولا ندري أقالوا ذلك ممالأةً لفرعون وإرضاء لشهوته، وقضاءً للباناتهم هم؛ لأنَّ أعوان المستبد وبطانات الظالم التي تنتفع من ظلمه واستبداده، وتعيش علىٰ حساب بطشه وسلطانه، يظهرون جمهرة الشعب أمام ذلك الظالم بمظهر غير مظهره الحقيقي، فيسمون الإصلاح فسادًا، والدعوة

---

(١) مدمر هالك.

(٢) اللَّقىٰ -بفتح اللام-: الشيء المهمل.

إلىٰ الحق تهريجًا، أو أنَّ ذلك الملأ بلغ من حمقه وغباوته أن كان الإصلاح الذي يدعو إليه نبي الله موسىٰ في نظره إفسادًا في الأرض.

والذي تميل إليه النفس أنَّ ذلك القول وأمثاله شأن بطانة السوء التي تلتف دائمًا حول الظالمين، وتعيش في أحضان الحكام المستبدين، لاقتناعها أنَّها لا تستطيع أن تعيش إلَّا في أولئك الأوساط المظلمة، ولا تستطيع أن تصيد إلَّا في الماء العكر، فليس لها من المؤهلات ما تستطيع أن تعيش به علىٰ حساب نفسها، ولا من الأخلاق ما يسمح لها بقول الحق والاعتراف بالأمر الواقع.

وقد ساعدهم علىٰ ذلك أنَّهم رأوا من حاكمهم المستبد استعدادًا لذلك القول، ولولا علمهم أنَّ ذلك القول وأمثاله يتفق وشهوة صاحبهم ما قالوه، فهم إنَّما يصارحون الناس بما يجيش في صدره وما يتناسب مع أطماعه وشهواته، فهو شريكهم في الجرم ورئيسهم في الإثم، عليه وزره ووزرهم؛ لذلك صوَّر الملأ من قوم فرعون موسىٰ وحزبه بتلك الصورة البشعة، صورة المفسد في الأرض.

ويعلم الله أنَّ إفساد موسىٰ في الأرض هو إنقاذ نبي إسرائيل من استبدادهم، والحيلولة بين الشعب وبين بطشهم، فإذا كان فيه إفساد فهو إفساد سياستهم، وإحباط تدبيرهم، وتفلت الجمهور من أيديهم، وذلك ما يخشاه فرعون وملأ فرعون الذين يعيشون علىٰ حساب غيرهم، وينعمون بشقاء أمتهم، ويثرون بإفقار إخوانهم، ويرقون مناصب الدولة ووظائفها الكبرىٰ علىٰ حساب إذلال بني جلدتهم؛ ألا قاتل الله قومًا ذلك حانهم، وبُعدًا لطائفة تلك أخلاقهم.

بقي أنَّ الملأ يقول لفرعون: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾، وهل كان لفرعون آلهة، وهو يقول: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾. قيل: إنَّ فرعون وضع لقومه أصنامًا صغارًا وأمرهم بعبادتها، وقال: «أنا ربكم الأعلىٰ ورب هذه الأصنام».

واستظهر بعض المفسرين أنَّ فرعون لم تصل به الغباوة أن يعتقد في نفسه أنَّه خالق للسماوات والأرض، وليس هناك من العقلاء من يعتقد فيه ذلك؛ لأنَّ فساده معلوم بضرورة العقل، والأقرب أنَّه كان دهريًا ينكر وجود الصانع، وكان يقول: مدبر هذا العالم السفلي هو الكواكب، والمربي لتلك الطائفة -طائفة بني إسرائيل- هو نفسه، فقوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، أي: مُربِّيكم، والمُنعم عليكم

والمُطعم لكم، وقوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾، أي: لا أعلم لكم أحدًا يجب عليكم عبادته إلَّا أنا، وإذا كان مذهبه ذلك لم يبعد أن يكون قد اتخذ أصنامًا علىٰ صور الكواكب يعبدها ويتقرب إليها علىٰ ما هو دين عبدة الكواكب.

والمعهود في تاريخ قدماء المصريين أنَّهم كانوا يعبدون الكواكب ومنها الشمس، واسمها في لغتهم: «رَع»، وأنَّ مصر هي السليلة الوحيدة للمعبود «رَع» منذ وجود الآلهة، وأنَّ فرعون مصر الملك «**منفتاح**» سليله أيضًا وهو الجالس علىٰ سُدة المعبود «**شو**»، وأنَّ الإله «رَع» التفت إلىٰ مصر فولَّىٰ «**منفتاح**» ملك مصر، وشيء له أن يكون مناضلًا عنها فتخنع له الولاة.

وإذا كان فرعون مصر يعتقد أنَّه سليل الشمس وابنها، والشمس معبودة لقدماء المصريين فلا يبعد أن يتطلع إلىٰ عبادة الناس له، ولا بعد في أن يقول: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾؛ لأنه سليل المعبود «رَع» وحالٌّ فيه.

﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ يريد فرعون أنَّه سيحول بين موسىٰ وبين الشعب من طريق إبادته، وذلك بأن يقتل أبناء المؤمنين ويستبقىٰ نساءهم كما كان يفعل ذلك من قبل.

ثم أراد أن يبيِّن أنَّ ذلك ميسور له وسهل عليه؛ لأنَّه فوقهم بالسلطان والنفوذ، مُستَعلٍ عليهم بالغلبة، فلا يستطيعون إفسادًا في الأرض، ولا إخراج بني إسرائيل من تعبيد فرعون، وفي سورة المؤمن: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٢٥) وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٥، ٢٦].

وهو يرينا أنَّ التهديد كان لحزب موسىٰ المؤمن، كما ترينا آية المؤمن أنه كان من قوم فرعون مَن يدافع عنه ويحول بين فرعون وبين بطشه بموسىٰ، ولذلك يقول: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾.

(٢) ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ۖ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ذلك هو الجواب الطبيعي الذي كان يُنتظر من نبي الله موسىٰ بعد تهديد فرعون لمن آمن معه بتقتيل أبنائهم واستحياء نسائهم،

يقول لهم: استعينوا بالله علىٰ هذا الطاغية، واصبروا علىٰ إيذائه؛ فإنَّ الأرض التي وُعِدتم دخولها، وهي **فلسطين**، أو الأرض مطلقًا= مِلك لله يورثها من يشاء من عباده، وليست ملكًا لفرعون ولا لملأ فرعون، فهي بحسب سنته دول، والعاقبة الحسنة التي ينتهي إليها التنازع بين الأمم= للذين يتقون، بمراعاة سنن الله -تعالىٰ- في أسباب إرث الأرض، كالاتحاد وجمع الكلمة، والاعتصام بالحق، وإقامة العدل، والصبر علىٰ المكاره، والاستعانة بالله -تعالىٰ- ولا سيما عند الشدائد، ونحو ذلك ممَّا هدىٰ إليه وحيه، وأيدته التجارب.

ومراده ﷺ أنَّ العاقبة ستكون لكم بإرث الأرض، بشرط أن تكونوا من المتقين له، بإقامة شرعه والسير علىٰ سنته في نظام خلقه، وليس الأمر كما تتوهمون ويتوهم فرعون وقومه من بقاء القويّ علىٰ قوّته والضعيف علىٰ ضعفه، فماذا كان من تأثير وصية موسىٰ ﷺ لقومه، وبم أجابوه؟ ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ﴾ يعنون أنهم لم يستفيدوا من إرساله لإنقاذهم من ظلم فرعون شيئًا، فهو يؤذيهم ويظلمهم بعد إرساله كما كان يؤذيهم من قبله أو أشد ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ﴾، فهو يرجو لهم من فضل الله -تعالىٰ- أنَّ يهلك عدوهم الذي سخرهم وآذاهم بظلمه، وأن يجعلهم خلفاء في الأرض التي وعدهم إياها، فينظر -سبحانه- كيف يعملون، بعد استخلافه إياكم فيها، هل تشكرون النعمة أم تكفرون، وهل تصلِحون في الأرض أم تفسدون؟ ليجازيكم في الدنيا والآخرة بما تعملون، وقد عبر بـ(عسىٰ) ولم يقطع بالوعد لئلَّا يتكلوا، ويتركوا ما يجب من العمل، أو لئلا يكذِّبوه لضعف أنفسهم بما طال عليهم من الذل والاستخزاء لفرعون وقومه، واستعظامهم لملكه وقوته، وهو أسلوب آخر من أساليب التسلية والعزاء، بعد أنَّ أمرهم بالاستعانة بالله -تعالىٰ- والصبر، وأراهم أنَّ الأرض ملك لله يعطيها من يشاء ويحرمها من يشاء، وإطماعٌ لهم في تقويض ملك فرعون واستخلافهم في الأرض، مصحوب باحتياط من نبي الله موسىٰ، وتحريض لهم علىٰ بقاء الملك والقوة فيهم إذا هم حصلوا عليه.

(٣) ﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾ تفصيل لمقدمات الهلاك الموعود به فيما قبل هذه الآية، وإنجاز وعد الله -

تعالىٰ- لبني إسرائيل بالاستخلاف في الأرض وقد صُدِّرت الجملة بالقسم الدالَّة عليه لامُه؛ لتأكيد مضمونها وتعظيم شأنه، كيف لا وهو من أظهر آياته علىٰ تأييد رسله، وقدرته علىٰ الإدانة للمظلومين المستضعفين من الأقوياء الظالمين.

وقد كثر استعمال مادة الأخذ في العذاب، كقوله -تعالىٰ-: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]، ﴿فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٤٢]، ﴿فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٦][1]، وآل فرعون: قومه، أو خاصَّته وأعوانه في أمور الدولة، وهم الملأ من قومه الذين كثر ذكرهم في قصته، ووجهه أنَّهم هم المذنبون المعاندون لموسىٰ، وإنَّما وقوع العذاب علىٰ غيرهم بالتبع؛ لأنَّهم كانوا موافقين ومُقرِّين لهم علىٰ ظلمهم ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥]، وتأمل قوله -تعالىٰ-: ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ لتفهم أن الله -تعالىٰ- ما أخذهم بالسنين المجدبة وضيق المعيشة إلَّا رجاء أن تذكرهم هذه الشدة بضعفهم أمام قوة الله -تعالىٰ-، وعجز ملكهم الجبار المتغطرس، وعجز آلهتهم، ولعلهم إذا تذكروا اعتبروا، فرجعوا عن ظلمهم لبني إسرائيل، وأجابوا دعوة موسىٰ؛ فإنَّ الشدائد من شأنها أن ترقق القلوب، وترجع الأنفس إلىٰ مرضاة الله: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾.

يرينا الله -تعالىٰ- بهذه الآية أنَّ أولئك الشدائد التي أخذ بها بني إسرائيل رجاء التذكر لم تفدهم شيئًا، فبقوا علىٰ عنادهم وأصروا علىٰ شركهم، فإذا جاءتهم الحسنة من خصب ورخاء قالوا: هي لنا دون غيرنا، ونحن المستحقون لها لما لنا من التفوق علىٰ الناس، وإن تصبهم سيئة من جدب أو جائحة أو مصيبة أخرىٰ في الأبدان أو الأرزاق تشاءموا بموسىٰ ومن معه من الأنصار، ويرون أنَّهم أصيبوا بشؤمه وشؤمهم، وغفلوا عن سيئات أنفسهم وظلمهم لقوم موسىٰ؛ لأنَّ هذا عندهم من الحقوق كما هو شأن المستبدين في ظلمهم لمن يستضعفونهم.

وقد رد الله -تعالىٰ- عليهم بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، فالشؤم الذي نسبوه إلىٰ موسىٰ عليه السلام وعدوه من آثار وجوده فيهم= هو

---

(١) ﴿وَبِيلًا﴾: يخاف وباله وغدره.

عند الله لا عند موسىٰ، فهو -تعالىٰ- قد جعل لكل شيء قدرًا من حسنة وسيئة، ووضع لنظام الكون سننًا تكون فيها المسببات علىٰ قدر الأسباب، وبمقتضىٰ هذه السنن والأقدار ينزل البلاء عليهم، وهو امتحان لهم بما يسوؤهم ليرجعوا عن ظلمهم، ولكن أكثرهم لا يعلمون حِكَم التصرف الرباني في الخلق ولا أسباب الخير والشر، ولو كانوا من أهل العلم والمعرفة ما نسبوا إلىٰ موسىٰ السيئات وإلىٰ أنفسهم الحسنات؛ فهم قوم جمعوا بين رذيلتين: رذيلة العناد للرسول ﷺ، ورذيلة الجهل.

وتأمل احتياط القرآن الكريم في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾، ولم يقل: ﴿وَلَٰكِنَّهُمْ﴾؛ ليرينا أنَّ فيه قلة من أهل العلم والإنصاف لم يفتنوا بملك فرعون ولا بجبروت الملك، وأنَّ هذه القلة هي التي كانت تناصر موسىٰ عليه السلام سرًّا، وفيهم مؤمن آل فرعون الذي كان يكتم إيمانه ويقول: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ إلىٰ آخر الآيات، ومن هذه القلة الحزب الذي آمن بموسىٰ بعد إيمان السحرة، وهم الذين هدَّدهم فرعون بتقتيل أبنائهم واستبقاء نسائهم.

(٤) ﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾، فالقوم لم يتربوا بالحسنات ولا بالسيئات، ولم يذعنوا لما أيد الله -تعالىٰ- به موسىٰ من الآيات، بل أصروا بعد إيمان كبار السحرة علىٰ عدِّ آيتي موسىٰ من السحر، وقالوا له: إنَّك إن تجئنا بكل نوع من أنواع الآيات التي تستدل بها علىٰ حقية دعوتك لأجل أن تصرفنا بها عمَّا نحن فيه من ديننا ومن تسخيرنا لقومك في خدمتنا= فما نحن لك بمصدقين ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾.

أنزل الله -تعالىٰ- بهم هذه المصائب والنكبات آيات واضحات علىٰ صدق نبي الله موسىٰ، فاستكبروا عن الإيمان به استكبارًا، مع اعتقاد صحة رسالته، وصدق دعوته باطنًا، وكانوا قومًا راسخين في الإجرام والذنوب، مُصرِّين عليها.

أمَّا الطوفان؛ فمعناه في اللغة: ما طاف بالشيء وغَشِيَه، وغلب في طوفان الماء سواء كان من السماء أو الأرض؛ قيل: هو الأمطار المغرقة المتلفة للزرع والثمار، وكذلك أرسل الجراد فأكل الزرع واجتاح الثمار.

وأمَّا القمل؛ فعن ابن عباس: هو السوس الذي يخرج من الحنطة، وعنه أنَّه الدبس، وهو الجراد الصغار الذي لا أجنحة له، وبه قال مجاهد وعكرمة وقتادة، وعن ابن جرير أنَّها دواب تشبه القمل تأكل الإبل، وجزم «**الراغب**»، أنَّ القمل صغار الذباب، وسواء قلنا: إنَّها السوس الذي يفسد الزرع والحبوب، أو الجراد الصغير، أو دواب تشبه القمل، أو الذباب[1]= فهي من الضربات التي أصيب بها قوم موسىٰ عليه السلام في زرعهم أو إبلهم، أو في صحتهم؛ لأنَّ الذباب قذر يحمل العدوىٰ وجراثيم الأمراض، فإذا كثر في جهة من الجهات نغص علىٰ أهلها عيشتهم، وأفسد عليهم صحتهم، وانظر كيف أذل الله المستكبرين من فرعون وملئه الذين يدَّعون الألوهية؛ أذلهم الله بأضعف المخلوقات، وكأنَّه يقول لهم: إذا كنتم ضعفتم عن مقاومتي في أضعف خلقي فكيف يدعي زعيمكم فرعون أنه ربكم الأعلىٰ، وكيف تمالئونه في ذلك الزعم الخاطئ؟

وما أقرب الشبه بين أولئك القوم في تقريع الله لهم وتعريفهم قيمتهم بذلك الأسلوب، وبين المشركين؛ إذ يقول لهم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [**الحج**: ٧٣، ٧٤].

وأما الضفادع؛ فقيل: إنَّها كثرت عندهم حتىٰ نغَّصت عليهم عيشتهم بسقوطها في طعامهم وشرابهم، ووجدانها في فراشهم وبين ملابسهم.

وأمَّا الدم؛ فقيل: هو الرعاف سلطه الله عليهم، وقيل: دم كان في مياه المصريين ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ﴾ ... إلخ.

لما حل العذاب الذي تضطرب له النفوس بقوم موسىٰ لجؤوا إليه، وقالوا: ادع لنا ربك -بما عهد عندك أن تدعوه به، فيعطيك الآيات ويستجيب لك الدعاء- أن يكشف عنا هذا الرجز، ونحن نقسم لك لئن كشفته عنا: ﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ

(١) انظر هذه الأقوال في تفسير الطبري: (١٠/ ٣٨١-٣٨٥). وزاد المسير: (١٤٨/٢)، المفردات، للراغب: (٦٨٤). (عمرو)

﴿وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ * فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلرِّجۡزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ﴾، فلما كشف الله عنهم العذاب إلىٰ حد من الزمان هم بالغوه لا محالة فمعذَّبون فيه=لا ينفعهم ما تقدم لهم من الإمهال وكشف العذاب إلىٰ حلوله ﴿إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ﴾ في عهدهم ويحنثون في قسمهم ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ﴾، وهو البحر ويطلق علىٰ النيل، وعلّل هذا الانتقام كما علل أمثاله: ﴿بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ﴾.

(٥) ﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾ ... إلخ. بعد أن أرانا الله -تعالىٰ- ما فعله بأعداء الحق من الانتقام منهم وإغراقهم في اليم بسبب تكذيبهم بآيات الله وغفلتهم عنها؛ بعد ذلك عرفنا أنَّه قد كافأ أنصاره وعباده المخلصين الذين كانوا مستضعفين بالأمس، كافأهم بتوريثهم أرض الشام وجعلهم خلفاء لله فيها ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ﴾، والمراد أنَّ كلمة الله ووعده لبني إسرائيل بإهلاك عدوهم= قد نفذ ومضىٰ كاملًا، وذلك بسبب صبرهم علىٰ الشدائد التي كابدوها من فرعون وقومه: ﴿وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ﴾ أحبط الله علىٰ فرعون وقومه ما كانوا يصنعون من باطل، وأفسد عملهم عليهم، والعرش: رفع المباني والسقائف، للنبات والشجر المتسلق، كعرائش العنب، ومنه عرش الملك، والمراد أنَّ الله -تعالىٰ- أدخل الخراب علىٰ عمل فرعون جميعه، ولا سيما ما يتعلق ببقاء عرشه، والاحتفاظ بملكه، فقد كان حربه لحزب الله احتفاظًا بالعرش، وخوفًا علىٰ الملك، فدمَّر الله عليه عمله وأفسد عليه تدبيره؛ لأنَّ الله لا يصلح عمل مفسد.

وقد أرانا الله بعمله هذا مع فرعون أنَّ الملك الذي يرعىٰ ملكه بظلم الناس والاستبداد معهم؛ فمصير ملكه مصير فرعون وملئه.

﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ﴾ ... إلخ. يرينا الله -تعالىٰ- أنَّه تخطىٰ ببني إسرائيل البحر الذي أغرق فيه فرعون وملأه، فمروا علىٰ قوم عاكفين علىٰ أصنام يعبدونها فطلب أصحاب موسىٰ أن يجعل لهم إلهًا مثل آلهة هؤلاء؛ لأنَّ الوثنية عالقة بنفوسهم، وخُلُق التقليد متمكن

منهم، ونسوا أنَّ مهمة موسىٰ ﷺ محاربة الوثنية، وأنه إنَّما بعث إليهم ليغرس في نفوسهم حب التوحيد، ويجتث منها عروق الشرك؛ جهلوا ذلك كله وغفلوا عنه؛ ولذلك كان رده عليهم أن قال لهم: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾.

وصْفهم بالجهل المطلق غير متعلق بشيء، وهو يشمل كل ما يصلح له من الجهل الذي هو فقد العلم، والجهل الذي هو سفه النفس، وطيش العقل، وأهمه المناسب للمقام جهل التوحيد، وما يجب من إفراد الرب بالعبادة، وما يتناسب مع مهمة رسل الله -صلوات الله وسلامه عليهم-.

ثم قال: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، أي: إنَّ هؤلاء القوم الذين يعكفون علىٰ هذه الأصنام مقضيٌّ علىٰ ما هم فيه بالتبار والهلاك، وباطلٌ ما كانوا يعملون من الأصنام وعبادة غير الله، لا بَقَاءَ له.

ثم أراد أن ينكر عليهم ذلك الطلب الذي طلبوه من موسىٰ ﷺ فـ ﴿قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾، والاستفهام في الآية للإنكار المشرب معنىٰ التعجب.

ثم أيد ذلك الإنكار بما يعرفون من آيات الله -تعالىٰ- فيهم، وهو تفضيلهم علىٰ أهل زمانهم برسالة موسىٰ وهارون منهم، وتجديد ملة أبيهم فيهم.

ثم عطف عليه أظهر نعمةٍ عليهم، فقال: ﴿إِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

موسى عليه السلام

﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٤٢ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ[(١)] رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ١٤٥ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ[(٢)] فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ١٤٦ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٤٧ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا[(٣)] جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ١٤٨ وَلَمَّا سُقِطَ[(٤)]

---

(١) انكشف وظهر بعد خفاء، والدك: الدق، أو ضرب منه، يقال ناقة دكاء، لا سنام نها، و﴿جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾: أي أرضًا مستوية، ﴿وَخَرَّ﴾: سقط من عُلوّ شاهق، و﴿صَعِقٗاۚ﴾: مغشيًا عليه من تأثير الصاعقة.

(٢) صيغة تكلف، من الكبر، وهو: غمط الحق بعدم الخضوع له واحتقار الناس، ﴿ٱلرُّشۡدِ﴾: الصلاح والاستقامة، وضده الغي، وهو الفساد.

(٣) ولد البقرة، ﴿جَسَدٗا﴾ لا يأكل ولا يشرب، يريد أنه هيكل من الحُليّ، وليس بعجل حقيقة، ﴿خُوَارٌۚ﴾: صوت.

(٤) ندموا.

فِيٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ
ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنۢ بَعْدِيٓۖ أَعَجِلْتُمْ
أَمْرَ رَبِّكُمْۖ(١) وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي
وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ
ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ
سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ
ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن
مُّوسَى ٱلْغَضَبُ(٢) أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَۖ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾
[الأعراف: ١٤٢-١٥٤].

* شرح وعبرة:

(١) ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً﴾ ... إلخ عطفٌ علىٰ قوله: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾. وهذه الآيات نزلت في بيان بدء وحي الشريعة لموسىٰ عليه السلام، أما الوحي المطلق فقد بدأ في جانب الطور الأيمن من سيناء مُنصَرَفَهُ من مدين إلىٰ مصر، وإنما المذكور هنا بدء وحي كتاب التوراة.

يرينا الله -تعالىٰ- بهذه الآيات أنه ضرب لموسىٰ موعدًا لمكالمته وإعطائه الألواح المشتملة علىٰ أصول الشريعة فقبل ذلك، وجعل ذلك الموعد ثلاثين ليلة ثم أتمها بعشر، وأن موسىٰ عليه السلام قال لأخيه هارون لمَّا أراد الذهاب إلىٰ ميقات ربه: ﴿ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾ وترأس عليهم للحكم بينهم والإصلاح فيهم، ونهاه عن اتباع سبيل المفسدين، وهو لا يكون من نبي؛ لأنَّ الإفساد منه ما هو واضح جليّ، ومنه ما هو خفي، ومنه الذرائع المشتبهات التي يختلف فيها الاجتهاد، ويأخذ التقي فيها بالاحتياط، واتباع سبل المفسدين يشمل مشاركتهم في أعمالهم، ومعاشرتهم والإقامة معهم، في حال اقترافها ولو بعد العجز عن إرجاعهم عنها.

---

(١) من عجله: سبقه. والمعنىٰ: أَعَجِلْتُم عن أمره. وهو انتظار موسىٰ حافظين لعهده وما وصّاكم به، فبنيتم الأمر علىٰ أنّ الميعاد قد بلغ آخره ولم أرجع إليكم.

(٢) كان الغضب يغريه ويقول له: «قُل لقومك كذا!»، وهو تمثيل.

ومن ذلك ما يجوز وقوعه من الأنبياء عليهم السلام فيصح نهيهم عنه تحذيرًا من وقوعهم فيه بضرب من الاجتهاد، كالذي وقع الاختلاف فيه بين موسىٰ وهارون عليهما السلام في قصة عجل السامري، الذي حكاه الله -تعالىٰ- عنه في سورة طـــه: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾ [طه: ٩٢-٩٤].

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ ... إلخ. لما حضر موسىٰ عليه السلام للميقات الذي وقته الله له للكلام وإعطاء الشريعة وكلمه ربه من وراء حجاب= استشرفت نفسه العالية للجمع بين فضيلتي الكلام والرؤية، فقال: «رب أرني ذاتك المقدسة بأن تجعل لي من القوة علىٰ حمل تجلِّيك ما أقدر به علىٰ النظر إليك ورؤيتك»، ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾، أي: إنك لا تراني الآن، ولا فيما يستقبل من الزمان، ثم استدرك بما يدل علىٰ تعليل النفي، ويخفف عن موسىٰ وطأة الرد بإعلامه ما لم يكن يعلم من سننه، وهو أنه لا يقوىٰ شيء في هذا الكون علىٰ رؤيته، ولكن انظر إلىٰ الجبل؛ فإنَّني سأتجلىٰ له، فإن ثبت لدىٰ التجلي وبقي مستقرًا في مكانه فسوف تراني، لمشاركتك له في مادة هذا العالم الفاني.

وإذا كان الجبل في قوته ورسوخه لا يثبت لهذا التجلي لعدم استعداد مادته لقوة تجلي خالقه؛ فاعلم أنَّك لن تراني أيضًا وأنت مشارك له في كونك مخلوقًا من هذه المادة، وخاضعًا للسنن الربانية في ضعف استعدادها ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾، ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾ = انهدّ وهبط من شدته وعظمته، وصار كالأرض المدكوكة أو الناقة الدكاء، وسقط موسىٰ علىٰ وجهه مغشيًا عليه، كمن أخذته الصاعقة، والتجلي إنَّما كان للجبل لا لموسىٰ فكيف لو كان له؟ ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ موسىٰ من غشيته ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ﴾ تنزيهًا لك وتقديسًا عمَّا لا ينبغي في شأنك ممّا سألتك أو من لوازمه ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ أن أسألك الرؤية وأن أتخطىٰ ما رسمته لي ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ألا يراك أحد في هذه الحياة.

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ هنالك قال الله لموسىٰ: إنِّي استخلصتك من الناس، واخترتك مفضِّلًا لك علىٰ أهل زمنك

برسالاتي، وجمعها باعتبار تعدد ما أرسل به من العقائد والعبادات، والأحكام السياسية والحربية والمدنية والشخصية، وقرئ: **(برسالتي)** بالإفراد[1]، واصطفيتك بكلامي بتكليمي لك بعد وحي الإلهام، من غير توسط ملك وإن كان من وراء حجاب، وهو ما طلب موسىٰ رفعه ليحصل علىٰ الرؤية مع الكلام، فأعلمه الله -تعالىٰ- أنه غير مستعدّ له، ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ خذ ما آتيتك من الشريعة والتوراة وكن من الشاكرين لنعمتي بها عليك وعلىٰ قومك؛ يُشير بذلك إلىٰ أنّه لا ينبغي لموسىٰ أن يتخطىٰ ما أعطاه الله -تعالىٰ-، ولا يطلب من ربه ما لا ينبغي لمثله أن يطلبه؛ لأنّه رسول، والشأن في الرسول أن يأخذ ما آتاه الله، ويدع ما لم يكلفه به، ويشكر ربه علىٰ ما آتاه وهداه.

﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ أعطيناه ألواحًا كتبنا له فيها من كل نوع من أنواع الهداية، موعظة من شأنها أن تؤثر في القلوب ترغيبًا وترهيبًا، وتفصيلًا لكل نوعٍ من أصول التشريع، وهي أصول العقائد والآداب، وأحكام الحلال والحرام ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ تقبلها بجدٍّ وعزيمة وحزم؛ لأنَّ المراد بها تكوين شعب جديد بتربية جديدة، فخالفه كل المخالفة لما نشأ عليه من الذل والعبودية لفرعون وقومه، فإذا لم يكن المتولي تربية هؤلاء القوم، والمرشد لهم صاحب عزيمة قوية وبأس شديد، فإنه يعجز عن سياستهم، ويفشل في تنفيذ أمر الله فيهم، ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾.

قيل: إنَّ ﴿أَحْسَنُ﴾ هنا بمعنىٰ ذي الحسن التام، وليس فيه تفضيل شيء علىٰ آخر، وهو ما يعبرون عنه بقولهم: اسم التفضيل علىٰ غير بابه، وقيل: إنَّ فيها الحَسَن والأحسن، فأصول العقائد من الإيمان بالله -تعالىٰ- وتوحيده أفضل من الأحكام العملية، والفرض مثلًا أحسن من النفل، والأوامر أفضل من النواهي، والمراد بأخذهم بأحسنها الشروع والابتداء؛ تقديمًا للأهم علىٰ المهم ﴿سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، أي: وقل لهم: سترون عاقبة مَن خالف أمري وخرج

---

(١) قرأ المدنيان، وابن كثير وروح (برسالتي) بغير ألف بعد اللام علىٰ التوحيد، وقرأ الباقون بألف علىٰ الجمع.

انظر: المبسوط: (١٨٦)، والنشر: (٢/ ٢٧٢). (عمرو)

عن طاعتي، كيف يصير إلىٰ الهلاك، وقال ابن جرير: هو كما يقول القائل لمن يخاطبه: سأريك غدًا ما يصير إليه حال من خالفني، وقيل: معناه سأريكم دار الفاسقين من أهل الشام وأعطيكم إياها، وقيل: منازل فرعون.

(٢) ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ ... إلخ بيان لسنة من سنن الله -تعالىٰ- في ضلال البشر بعد مجيء البينات لهم، وهي تسلية لنبينا محمد ﷺ من جهة كفار قريش؛ لأنَّ شأنهم شأن جميع الأمم الذين أضلهم الله بعد أن قامت عليهم الحجة بالبيان، كما قال في سورة التوبة: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٥].

وقد ذكر هذه السنة عقيب بيان ما أنزله علىٰ قوم موسىٰ عليه السلام من التوراة، وفيها من المواعظ ما يكفي لهدايتهم لو كانوا يريدونها؛ ليرينا أنَّ قوم موسىٰ قد حرمهم الله -تعالىٰ- الهداية، وحال بينهم وبين فقههم لآيات التوراة، وشرح صدورهم لما فيها؛ لأنَّ هذه سنته في المتكبرين المعاندين، **وقد وصف أولئك الذين يصرفهم عن الهداية بصفات:**

أوَّلها: أنَّهم يتعالون في الأرض ويظهرون للناس أنَّهم من طبقة فوق طبقتهم، ومن طينة غير طينتهم، ومن لوازم ذلك أنَّهم لا يأبهون لِمَا يأتي علىٰ أيديهم من الحق، وما يصلهم منهم من خير.

وقد وصف ذلك التكبر بقوله: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾؛ لأنَّ ذلك هو الشأن في المتكبرين فهو لبيان الواقع، ولك أن تفهم أنَّ الآية تشير إلىٰ أن هناك تكبرًا بالحق، وهو التكبر علىٰ المتكبرين، وأنصار الباطل، وأصحاب الشهوات، فهؤلاء وأمثالهم إذا تكبر الرجل عليهم ورأىٰ أنه أعظم منهم، واستهان بما هم عليه من باطل= فلا يدخل فيمن يصرفهم الله -تعالىٰ- عن آياته؛ لأنَّ تكبره بالحق لا بالباطل.

وقد ورد تفسير الكبر بغمط الحق وعدم الخضوع له، واحتقار الناس بحيث يرىٰ المتكبر أنه أكبر من أن يخضع لحق، أو يساوي نفسه بشخص آخر، وكثيرًا ما يفهم الناس من الرجل الذي لا يخالط الناس ولا يتصل بهم أنه متكبر،

وكذلك يفهمون من رجل متأنق في ملبسه أنه متكبر، وهو فهم خطأ، ولذلك ورد: «**الكبر غمط الحق، وبطر الخلق**»[(١)].

ثانيها: عنادهم وإسرافهم في ذلك العناد المشار إليه بقوله: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا﴾؛ فإنَّ كثرة الآيات وتعددها إنَّما تفيد طالب الحق الذي عنده جهل أو شك أو سوء فهم؛ فإذا خفيت دلالة بعضها فقد تظهر له دلالة غيره، أما الذي لا يطلب الحق فلا يجديه كثرة الآيات ولا وضوحها.

ثالثها: أنَّهم ﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾؛ لأنَّهم مرنوا علىٰ الضلال واستمرؤوا مرعىٰ الغي والفساد، فإذا رأىٰ أحدهم سبيل الرشاد واضحة جلية لا يختار لنفسه جعلها سبيلًا له بإيثارها وتفضيلها علىٰ ما هو عليه، وما كل أحد يصل إلىٰ هذه الدرجة من الغي؛ لأنَّ من الناس من يسلك سبيل الغي علىٰ جهل، فإذا علم بما تنتهي به إليه من الفساد، ورأىٰ لنفسه مخرجًا منها= تركها، واختار سبيل الرشد عليها.

رابعها: أنَّهم ﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾، وهذه الصفة شرٌّ ممَّا قبلها؛ فإنَّ هذه صفة إيجابية وتلك سلبية، وبينها حال أخرىٰ هي حال من ليس فيه من نور البصيرة ما يحمله علىٰ سلوك سبيل الرشد إذا رآه؛ لضعف همته، ولكنَّه يكره الغي والفساد؛ إذ لم يصل من اعتلال الفطرة وظلمة البصيرة إلىٰ تفضيله علىٰ الرشد، فمن اجتمعت له هذه الصفات، فهو الذي أضله الله علىٰ علم وختم علىٰ سمعه وقلبه، وجعل علىٰ بصره غشاوة، فلم تبقَ له سبيل من أسباب الحق يسلكها.

وقد علَّل الله -تعالىٰ- ذلك الجزاء العادل بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ﴾؛ ليرينا أنَّ الله -تعالىٰ- لم يخلقهم مطبوعين علىٰ الضلال، ولم يكرههم عليه إكراهًا، بل كان ذلك بكسبهم واختيارهم للتكذيب بآياته الدالة علىٰ الحق والصدود عن سبيله الموصلة للرشد، ﴿وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ﴾ لا يعطونها حقها من النظر والتدبر؛ لاشتغالهم عنها بأهوائهم، وبذلك

---

(١) لم أقف عليه بهذا اللفظ، ولفظه الذي وقفت عليه: «الكبر بطر الحق، وغمط الناس»، مسلم: (٩١)، وفي مشكل الآثار وردت لفظة «غمط الحق»، انظر: مشكل الآثار: (٥٥٥٧)، (١٤/ ١٨٤). (عمرو)

قطعوا علىٰ أنفسهم طريق الهدىٰ، فالغفلة ههنا هي الغفلة المانعة لهم من أسباب العلم والفطنة، الناشئة من إهمال العقول وتعطيل الآذان والأسماع، وهي المبينة في قوله -تعالىٰ- من سورة الأعراف: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وهي الغفلة التي يقولون عنها وهم في جهنم: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠، ١١].

وقد وضعت بابًا لسنة الله -تعالىٰ- في الهداية والإضلال في كتاب «**آيات الله في الآفاق**»، واستوفيت فيه كل الآيات التي لها تعلق بذلك الموضوع، وهي مشكلة القضاء والقدر التي ضل فيها كثير من الناس، وشرحتها شرحًا يوفق بين بعضها وبعض، ويزيل ما فيها من شبه ومشاكل.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. الظاهر أنَّ الآيات في الآية السابقة هي المعجزات والبينات؛ من براهين عقلية وعلمية وكونية، والآيات هنا المنزلة من حيث اشتمالها علىٰ الهداية والإصلاح، وتزكية النفس من خرافات الشرك، وفساد الأخلاق ومنكرات الأعمال، ولقاء الآخرة هي ملاقاة الله ﷻ والمصير إليه: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

والمراد أن الذين كذبوا بآيات الله المنزلة بالحق والهدىٰ، وكذبوا بلقاء الآخرة وما يكون فيها من الجزاء علىٰ الأعمال= لا يجزون هنالك إلَّا ما كان من تأثير أعمالهم النفسية والبدنية في أرواحهم وأنفسهم؛ مِن خير زكَّاها وأصلحها، أو من باطل وشر دسَّاها وأفسدها، فالجزاء في الآخرة أثر للعمل، مرتب عليه ترتب المسبب عن السبب كأنه هو نفسه، ولذلك ختم الآية بقوله: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، وقال في سورة الأنعام: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٣٩].

(٣) ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ﴾ ... إلخ في الوقت الذي توجه فيه موسىٰ لميقات ربه اتخذ قومه من الذهب والفضة عجلًا

جسدًا له صوت يشبه صوت العجل، وذلك لإلفهم الوثنية وتمكن الشرك من نفوسهم، وفي سورة طه إن الذي اتخذ لهم ذلك الحُلِيّ عجلًا يُعبَد هو السامري؛ إذ يقول: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾.

وقد نسب الاتخاذ هنا إلىٰ قوم موسىٰ لأنهم رضوا عمل السامري وأقروه وكانوا مستعدين له ولذلك نسب إليهم الاتخاذ كما نسب عقر الناقة إلىٰ قوم صالح، مع أن الذي عقرها واحد منهم، وكذلك تنسب المعاصي والمنكرات إلىٰ القوم جميعهم إذا كانوا بها راضين، ثم أراد أن يوبخ أولئك القوم علىٰ اتخاذهم صورة عجل من الحلي ليعبدوه، فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾، وفي سورة طه ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [طه: ٨٩].

والمراد: أنَّ أولئك القوم جماعة بلغوا من السفه والحمق إلىٰ أقصىٰ حدود الحماقة والسفه؛ إذ يستعيرون الحلي من الذهب والفضة من نساء المصريِّين، ثم يعطونها للسامري؛ ليصنع لهم عجلًا، ويزعم أنَّ ذلك العجل الذي صنعه بيده هو الإله الذي يستحق العبادة، أو أنَّه إله موسىٰ الذي كان يطلبه فنسي وأخذ يطلبه في طور سيناء، ولو كان عند هؤلاء شيء من العقل لعرفوا أنَّه عجل مصنوع لا يستطيع أن يكلمهم ولا يستطيع أن يهديهم سبيلًا ضَلُّوه، ولا يجيبهم إذا هم خاطَبُوه ولا يملك ضرَّهم إذا خالفوه، ولا نفعهم إذا أطاعوه، ومعبود ذلك حاله لا يستحق أن يُعبد بحال.

وبعد أن بين أن اتخاذ ذلك العجل معبودًا سفه وحمق؛ لأنَّه صُنع أيديهم، أعاد إنكار الاتخاذ، وقال: ﴿ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾، فأضاف الاتخاذ إليهم مرة ثانية، وأرانا أنَّهم كانوا ظالمين لأنفسهم بذلك الاتخاذ؛ لأنَّهم يرون أنَّه لا يكلمهم بما فيه صلاحهم، ولا يهديهم لما فيه رشادهم، فهم لم يتخذوه عن دليل ولا شبه دليل، بل عن تقليد لما رأوا عليه المصريين من عبادة العجل (أبيس) من قبل، ولِمَا رأوه من العاكفين علىٰ أصنام لهم من بعدُ ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾، وندموا علىٰ عملهم هذا ﴿وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟﴾ بعبادة العجل ﴿قَالُوا۟﴾، وأكدوا القول: ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ

﴿ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ لسعادة الدنيا، وهي الحرية والاستقلال في الأرض التي وعدنا بها الله -تعالىٰ-، ولسعادة الآخرة، وهي دار الكرامة والرضوان.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾ ... إلخ.

يرينا الله -تعالىٰ- أن موسىٰ ﷺ لما رجع من الميقات غاضبًا علىٰ أخيه هارون، وذلك أنه ضعف في سياسته لهم، ولم يكن ذا عزيمة في خلافته فيهم، حزينًا علىٰ ما وقع منهم من الشرك وإغضاب الله ﷻ: ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ﴾، أي: بئس خلافة خلفتمونيها بعد ذهابي عنكم إلىٰ مناجاة الرب -تعالىٰ-، وكان الواجب عليكم أن تخلفوني باقتفاء سيرتي، ولكنكم خلفتموني بضدها؛ إذ صنعتم لكم صنمًا كأصنام أولئك القوم، فعبده بعضكم، ولم يردعكم عن ذلك سائركم، فالتوبيخ عام، وفيه تعريض بهارون ﷺ، وفيه من العبرة أن المصلح إذا رأىٰ تيار الفساد قد غلب علىٰ ما بذله من مجهود، وقضىٰ علىٰ ما خلفه هو أو غيره من أثر صالح مرضيّ= فإنَّه يحزن لذلك حزنًا عميقًا، ويعمل علىٰ استرجاع ذلك الأثر، ويحنق علىٰ من كان سببًا في ذلك الفساد من قريب أو بعيد.

فهذا نبي الله موسىٰ يمضي الأيام في دعوة القوم إلىٰ توحيد الله -تعالىٰ-، ويدأب علىٰ محاربة الشرك والوثنية أيامًا وليالي، ثم يترك أخاه هارون ﷺ فيطمع القوم في حلمه ولين جانبه، فيفترص السامري تلك الفرصة، ويضل القومَ بعمل عجل من حلي الذهب والفضة، علىٰ نحو خاصّ، بحيث إذا مر الهواء منه صوت كصوت العجل، ويستغل سذاجة بني إسرائيل وجهلهم بحقيقة تلك الصنعة، ويريهم أنَّ ذلك هو الذي ينبغي أن يعبد، فيعود نبي الله موسىٰ، فيحزن علىٰ ذلك العمل الحزن العميق، ويأسف غاية الأسف علىٰ إضاعة مجهوده بسبب ضعف قومه، واستعدادهم لكل أنواع التخريف، ثم يصنع بأخيه هارون من أنواع التعنيف والشدة ما يصنع؛ كل ذلك ليرينا أنَّه ينبغي للمؤمن أن يطمئن للإصلاح، وأن ينزعج من الوثنية والشرك كما انزعج لذلك نبي الله موسىٰ، وغضب علىٰ أخيه ذلك الغضب الشديد الذي جعله ينسىٰ ألواح التوراة، ويلقيها من يده، ويأخذ برأس أخيه هارون يجره إليه، فيتألم لذلك أخوه هارون، ويعتذر عن عمله هذا وموقفه من قومه ذلك الموقف السلبي بأنَّ القوم استضعفوه، واستلانوا جانبه، وقاربوا أن يقتلوه، فلو وقف منهم موقفًا

إيجابيًّا في إنكار الشرك وعبادة العجل لكان منهم ما كان ممَّا لا يقف عند حد.

وقد توسل إليه نبي الله هارون بأسلوب من شأنه أن يرقِّق القلوب، ويكسر من حده الغضب، فـ ﴿قَالَ﴾: يا ﴿ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾، يريد: يا من تجمعني بك أم واحدة لا تعجل بتعنيفي ومؤاخذتي؛ فإنِّي لم آلُ جهدًا في الإنكار علىٰ القوم والنصح لهم، ولكنهم استضعفوني فلم يرعووا لنصحي، ولم يمتثلوا أمري وكادا يقتلونني، فلا تفعل بي من الإهانة والمعاتبة ما يشمت بي الأعداء، ولا تجعلني مع القوم الظالمين لأنفسهم بعبادة العجل، في درجة واحدة من الغضب والمؤاخذة فلست منهم في شيء.

هنالك ﴿قَالَ﴾ موسىٰ ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى﴾ طلب من الله أن يغفر له ما أغلظ به علىٰ أخيه من قول وفعل، وأن يغفر لأخيه ما عساه قصر فيه من مؤاخذة القوم لما توقعه من إيذائهم له، ﴿وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، وهو ثناء علىٰ الله -تعالىٰ- يدل علىٰ مزيد الثقة في الرجاء، ثم قفَّىٰ علىٰ ذلك ببيان عاقبة عَبَدة العجل من غضب الله عليهم وذلتهم في الحياة الدنيا، وقيل: إن هذه الذلة هي للسامري الذي أضل القوم واتخذ لهم العجل؛ حيث قال له: ﴿فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ﴾ [طه: ٩٧]، أي: لا يمسك أحد ولا تمس أحدًا، ثم قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾، أي: هذه سنة الله في جزاء المفترين علىٰ الرسل في كل زمان.

ثم أراد أن يرينا أنَّ هذه عاقبة من عمل السيئة، وعكف عليها، وبقي علىٰ ذلك حتىٰ الموت، أما من عل السيئة ثم تاب منها وآمن؛ فإنَّ الله يغفر له ما قدم من سيئات ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وهو حكم عام يدخل فيه متخذو العجل وغيرهم، ليرينا أن الذنوب وإن عظمت وجلت فإنَّ عفوه وكرمه أعظم وأجل، ولكن لا بُدَّ من حفظ الشريطة، وهي وجوب التوبة والإنابة، وما وراءه طمع فارغ، وأشعبية باردة، لا يلتفت إليها حازم.

ثم يرينا الله أن الغضب لما سكت عن نبيه موسىٰ: ﴿أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا﴾، أي: ما نسخ منها وكتب، هدىٰ ورحمة للذين هم لربهم يرهبونه ويخشون عقابه وغضبه.

موسى عليه السلام

﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ[1] تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ[2] إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ[3] وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ[4] وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٥-١٥٨].

(١) ابتلاؤك واختبارك.

(٢) رجعنا، من: هاد يهود هودًا، إذا رجع.

(٣) ثقلهم الذي يأخذ صاحبه ويحبسه من الحراك لثقله. وهو مثل لثقل التكليف، والأغلال: مثل لما كان في شرائعهم من الأشياء الشاقة.

(٤) منعوه حتىٰ لا يقوىٰ عليه عدو، من العزر والمنع، ومنه العزيز؛ لأنّه منع من معاودة القبيح.

* شرح وعبرة:

(١) ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا﴾. يرينا الله أنَّ موسىٰ ﷺ انتخب من قومه سبعين رجلًا يصحبونه للميقات الذي ضربه له ربه، فلما أخذتهم رجفة الجبل الذي تجلىٰ الله عليه عند سؤال موسىٰ الرؤية= حزن موسىٰ، وتمنىٰ أن لو أهلكهم الله قبل خروجهم مع موسىٰ لذلك الموعد؛ حتىٰ لا يقول بنو إسرائيل: قد ذهبتَ بخيارنا لإهلاكهم، فيقع في حرج شديد معهم ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾، وهم الذين طلبوا رؤية الله جهرة، أو الذين عبدوا العجل، أو كلاهما ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ بلاؤك واختبارك بالأمور الشاقة تبتلي بها الناس ليظهر استعدادهم وما انطووا عليه من ضلال وهداية، تضل بهذه الفتنة من تشاء من عبادك، ولست بظالم في تقديرك، وتهدي من تشاء، ولست بمحابٍ لهم في توفيقك، بل أمر مشيئتك دائر بين العدل والفضل، ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ متولي أمورنا والقائم علينا بما تكسب نفوسنا ﴿فَاغْفِرْ لَنَا﴾ ما يترتب عليه المؤاخذة، والعقاب من مخالفة سنتك، أو التقصير فيما يجب من ذكرك وشكرك ﴿وَارْحَمْنَا﴾ برحمتك الخاصة فوق ما شملتَ به الخلق من رحمتك العامة ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ حلمًا وكرمًا وجودًا، فلا يتعاظمك ذنب، ولا يعارض غفرانك ما يعارض غفران سواك من عجز أو ضعف أو هوىٰ نفس ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ من العافية، وبسط الرزق، وعز الاستقلال والملك، والتوفيق للطاعة، ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ بدخول جنتك، ونيل رضوانك، وهو كقوله ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١]، ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾: تبنا إليك، ورجعنا ممّا فرط من سفهائنا.

﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾ ... إلخ؛ أي: قد كان من سبق رحمتي غضبي أن أجعل عذابي خاصًا أصيب به من أشاء من الكفار والعصاة المجرمين، وأما رحمتي فقد وسعت كل شيء في العالمين، فهي من صفاتي القديمة الأزلية الذي قام بها أمر العالم، والعذاب ليس من صفات الله -تعالىٰ-، بل من أفعاله المرتبة علىٰ صفة العدل.

ولهذا عبّر عن التعذيب بالفعل المضارع، وعن تعلق الرحمة بالفعل الماضي، وهذه الرحمة هي العامة المبذولة لكل مخلوق، ولولاها لهلك كل كافر

وعاصٍ عقب كفره وفجوره ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]، وهناك رحمة خاصة يوجبها الله -تعالىٰ- ويكتبها لبعض المؤمنين المحسنين، وما كتابته إلا فضلٌ منه ورحمة، أما العذاب فلم يرد في الكتاب ولا في خبر المعصوم أن الله -تعالىٰ- كتبه علىٰ نفسه، ولكن أثبته وتوعد به، فكان لا بد من وقوعه بمقتضىٰ ذلك الوعد ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ . . . إلخ، سأكتب رحمتي كتابة خاصة، وأثبتها بمشيئتي إثباتًا لا يحول دونه شيء، لقومٍ جمعوا بين أولئك **الصفات الآتية**:

أولاها: ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ وقد حذف متعلق التقوىٰ ليفيدنا أنهم يتقون كل ما يغضب الله -تعالىٰ- من الكفر والمعاصي والتمرد علىٰ الرسل وما إلىٰ ذلك، وليرينا أن التقوىٰ أصبحت عادةً لهم وخُلُقًا من أخلاقهم، وصاروا جديرين بذلك الوصف، وهو أنهم ﴿يَتَّقُونَ﴾، وإذا وقعوا في محرم من المحرمات فإنَّما يكون ذلك علىٰ وجه الشذوذ والندرة، لأسباب وقتية تزول المعصية بزوالها، وذلك لا يخرجهم عن كونهم من أهل التقوىٰ.

ثانيها: أنَّهم ﴿يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، فلم يكن في نفوسهم شح بالمال، وخص الزكاة بالذكر؛ لأنَّ فتنة حب المال تقضي بنظر الفعل والاختبار أن يكون المانعون للزكاة أكثر من التاركين لغيرها من الفرائض، وفيه إشارة إلىٰ حب اليهود للدنيا وافتتانهم بالمال وجمعه، ومنع بذله في سبيل الله -تعالىٰ-.

ثالثها: ما أشار له بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾، أي: يصدقون بجميع آياتنا التي تدل علىٰ توحيدنا وصدق رسلنا تصديق إذعانٍ مبني علىٰ العلم والإيقان، دون التقليد للآباء وعصبية الأقوام.

رابعها: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ والأمي نسبة إلىٰ الأم، والمراد به الذي لا يقرأ ولا يكتب، وكان أهل الكتاب يسمون العرب بالأميِّين ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران]، ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢] ولم ينقل أن الله -تعالىٰ- بعث نبيًا أميًا غير نبينا محمد ﷺ، فهو وصف خاص لا يشارك محمدًا ﷺ فيه أحدٌ من النبيين، والأمية آية من آيات نُبوّته فإنه جاء بعد النبوة

بأعلىٰ العلوم النافعة، وهو ما يصلح ما فسد من عقائد البشر، وأخلاقهم وآدابهم وأعمالهم وأحكامهم، وعمل بها، فكان لها من التأثير في العالم ما لم يكن ولن يكون من خلق الله.

وقوله: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ معناه الذي يجدون صفته ونعته مكتوبة عندهم في التوراة والإنجيل، بحيث لا يشكّون أنه هو، وقوله: ﴿عِندَهُمْ﴾ لزيادة التقرير وبيان أنَّ شأنه ﷺ حاضر عندهم لا يغيب عنهم، وقوله: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ استئناف لبيان أهم ما يحتاجون إليه عند بعثه، والمعروف ما تعرف العقول السليمة حُسنَه، وترتاح القلوب الطاهرة له لنفعه وموافقته للفطرة والمصلحة، بحيث لا يستطيع العاقل المنصف أن يرده أو يعترض عليه، والمنكر ما تنكره العقول السليمة وتنفر منه القلوب وتأباه.

قال **الحافظ ابن كثير**: هذه صفة الرسول ﷺ في الكتب المتقدمة، وهكذا كانت حاله، لا يأمر إلا بخير، ولا ينهىٰ إلا عن شر، كما قال **عبد الله بن مسعود**: إذا سمعت الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، فأرعها سمعك؛ فإنه خير تؤمر به، أو شر تنهىٰ عنه[١].

ومن أهم ذلك وأعظمه ما بعثه الله به من الأمر بعبادته وحده لا شريك له، والنهي عن عبادة ما سواه، كما أرسل به جميع الرسل قبله، كما قال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وروىٰ الإمام أحمد بسنده إلىٰ أبي حميد، وأبي أسيد رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إذا سمعتم الحديث عني تعرفه قلوبكم، وتلين له أشعاركم وأبشاركم، وترون أنه منكم قريب فأنا أولاكم به، وإذا سمعتم الحديث عني تُنْكِره قلوبكم، وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم، وترون أنه منكم بعيد فأنا أبعدكم منه**». رواه أحمد بإسناد جيد[٢].

---

(١) تفسير ابن كثير: (٣/٤٨٧). (عمرو)

(٢) رواه أحمد: (١٦٠٥٨). (٢٥/٤٥٦)، وانظر: جامع العلوم والحكم: (٢/٧٤٣-٧٤٤)، تحقيق ماهر الفحل. (عمرو)

وقوله: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ بيان لصفة أخرىٰ من صفات ذلك النبي، والطيب ما نستطيبه الأذواق من الأطعمة، وتستفيد منه التغذية النافعة، ومن الأموال ما أخذ بحق وتراضٍ في المعاملة، والخبيث من الأطعمة تمجه الطباع السليمة وتستقذره ذوقًا، كالميتة والدم المسفوح، أو تصدّ عنه العقول الراجحة لضرره في البدن، كالخنزير الذي تتولد منه الدودة الوحيدة، أو لضرره في الدين كالذي يذبح للتقرب به إلىٰ غير الله -تعالىٰ- علىٰ سبيل العبادة، أي: لا ما يذبح لتكريم الضيفان، والذي يحرم ذبحه أو أكله لتشريع باطل لم يأذن به الله كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحامي، والخبيث من الأموال ما يؤخذ بغير حق كالربا والرشوة والسرقة والخيانة والغصب والسحت، وقوله: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ تمثيل لثقل تكليف بني إسرائيل وصعوبته كاشتراط قتل الأنفس في صحة توبتهم، وهو يشير إلىٰ أنَّهم كانوا فيما أخذوا به من الشدة في أحكام التوراة من العبادات والمعاملات الشخصية والمدنية، والعقوبات كالذي يحمل أثقالًا ينط منها، وهو مع ذلك موثق بالسلاسل، والأغلال في عنقه ويديه ورجليه، فجاءت الشريعة المحمدية بالتيسير والسماحة كما ورد الحديث من طرق عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**بعثت بالحنيفية السمحة**»[1]، وقال ﷺ لأميريه: **معاذ، وأبي موسىٰ الأشعري** لما بعثهما إلىٰ اليمن: «**بشروا ولا تنفروا، ويسروا ولا تعسروا، وتطاوعا ولا تختلفا**». رواه الشيخان وغيرهما[2]، ثم ختم الآية بقوله: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

والمعنىٰ أن الذين يؤمنون بالرسول النبي الأمي عند مبعثه من قوم موسىٰ ومن كل قوم، ويعزرونه، بأن يمنعوه ويحموه من كل من يعاديه مع التعظيم والإجلال، لا كما يحمون بعض ملوكهم مع الكره والاشمئزاز، ونصروه باللسان والسنان، واتبعوا النور الأعظم الذي أنزل مع رسالته وهو القرآن، أولئك هم المفلحون الفائزون بالرحمة العظمىٰ والرضوان.

---

(١) رواه أحمد: (٢٢٢٩١)، (٣٦/ ٦٢٣). (عمرو)

(٢) رواه البخاري: (٦٩)، ومسلم: (١٧٣٢). (عمرو)

ولعل في الآيات السابقة عبرة لقوم اعتمدوا علىٰ سعة رحمة الله -تعالىٰ-، وغفلوا عن عدله وحكمته اعتمدوا علىٰ قوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾، وما دروا أن تلك الرحمة هي الرحمة التي تشمل المؤمن والكافر، والبر والفاجر، كما تشمل الإنسان والحيوان الأعجم، وتشمل الهوام والحشرات فهي جميعها في رحمة الله تعيش، فمن رحمته بهم أن سخر لهم الرزق، ومتعهم بالصحة، وأمدهم بالعافية وصورهم فأحسن صورهم، وهداهم كيف يعيشون في هذه الحياة، وكيف يتعلمون، كل ذلك رحمة من الله يبني الإنسان.

أما الرحمة الخاصة التي يمتاز بها المؤمن فقد كتبها علىٰ نفسه تفضلًا منه وإحسانًا ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ إلىٰ آخر الآيات، وما كتبها لفاجر أو فاسق ولا لبخيل شحيح، كتبها لقوم يتبعون الرسول النبي الأمي الذي بشرت به التوراة، وأخبر به الإنجيل، الذي يأمرهم بما تعرفه نفوسهم، وينهاهم عما تنكره فطرهم، ويحل لهم الطيب ويحرم عليهم الخبيث، ويضع عنهم أثقالهم من التكاليف الشاقة.

ثم ختم الآية بذلك الحصر المخيف، وقال: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، ولا فلاح لغير هؤلاء ممن مرنوا علىٰ العصيان، وتعودوا الفسوق والفجور، وهي آية ما أشدها علىٰ نفوس أرباب الشهوات، وما أقساها علىٰ قلوب المتهاونين بأوامر الله -تعالىٰ- ونواهيه، وكان علىٰ الذين يمنون أنفسهم بقوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ ألا يغفلوا عن الآية التي تليها؛ ليعلموا أن أصحاب أولئك الصفات هم الذين كتب الله علىٰ نفسه لهم الرحمة، وقضىٰ لهم بالفوز والفلاح.

ولعل وعاظنا اليوم يفطنون لذلك النوع من الإغراء علىٰ المعاصي، وتهوين المنكرات علىٰ الناس؛ لعلهم يفطنون لذلك، ولا يقفون من الناس موقف المبشر برضوان الله ورحمته فحسب، وإنَّما يقفون مبشرين ومنذرين، مبشرين برحمته، مخوفين من بطشه وعذابه، مذكِّرين بقوله ﷻ ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠]، فهو واسع الرحمة، ولكنه لا يضعها إلا في الموضع الذي يستحق، والمكان الذي ينبغي أن تكون

فيه؛ فإنَّه حكيم والشأن في الحكيم أن يكون كذلك، وقد بين الله ذلك الموضع بقوله: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ إلىٰ آخر الآيات.

(٢) ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾. هذا خطاب عام لجميع البشر من العرب والعجم، وجهه إليهم محمد بن عبد الله النبي العربي بأمر الله -تعالىٰ-، ينبئهم به أنه رسول الله -تعالىٰ- إليهم كافة، لا إلىٰ قومه العرب خاصة، كما زعمت العيسوية من اليهود، فهو كقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨]، وقوله: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، أي: وأنذر به كل من بلغه من المثقلين، فمن قال إنه يؤمن برسالته إلىٰ العرب خاصة لا يعتد بإيمانه؛ لأنَّه مكذب لهذه النصوص العامة القطعِيَّة، وما في معناها، كقوله -تعالىٰ-: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

ثم وصف الله ﷻ نفسه في هذا المقام بتوحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، وبالإحياء والإماتة، فقال: ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾، وبنىٰ علىٰ ذلك الدعوة إلىٰ الإيمان علىٰ طريق التفريع، ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ﴾ ليلفت النظر إلىٰ تلك المعجزة الظاهرة معجزة الأمية ﴿ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾، أي: يؤمن بما يدعوكم إليه من توحيد الله -تعالىٰ-، وكلماته التشريعية التي أنزلها لهداية خلقه، وهي مظهر علمه وحكمته ورحمته، وكلماته التكوينية التي هي مظهر إرادته وقدرته.

وبعد أمرهم بالإيمان أمرهم بالإسلام، فقال: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾، أي: رجاء اهتدائكم بالإيمان، وباتباعه لما فيه سعادتكم في الدنيا والآخرة.

وهنا نكتة لطيفة: هي أنَّه قال في صفة الرسول ﷺ: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾، وهنا قال: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾؛ فإن تلك في اتباع القرآن خاصة، وهذه تشمل اتباعه ﷺ في العمل بالقرآن، كاتباعه في صفة الصلاة وكيفيتها، وعدد أوقاتها، وسرها وجهرها وطولها وقصرها وما إلىٰ ذلك،

وكاتباعه في صفة الحج، وصفة بقية العبادات التي أجملها القرآن وبينها الرسول ﷺ من طريق العمل، كما يشمل اتباعه في اجتهاده واستنباطه من القرآن الذي أقره الله عليه إذا كان تشريعًا؛ كتحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها، قياسًا علىٰ الجمع بين الأختين المنصوص في القرآن.

والتشريع: إمَّا عبادةٌ أمرنا بالتقرب إلىٰ الله -تعالىٰ- بها وجوبًا أو ندبًا، وإمَّا مفسدة نهينا عنها اتقاءً لضررها في الدين، كدعاء غير الله فيما ليس من الأسباب التي يتعاون عليها الناس، وكأكل المذبوح لغير الله، أو لضررها في العقل أو الجسم أو المال أو العرض أو المصلحة العامة، وإمَّا حقوق مادية أو معنوية أمرنا بأدائها إلىٰ أهلها، كالمواريث والنفقات، ومعاشرة الأزواج بالمعروف، أو أمرنا بالتزامها لضبط المعاملات كالوفاء بالعقود.

وليس من التشريع الذي يجب فيه امتثال الأمر ما لا يتعلق به حقٌّ لله -تعالىٰ- ولا لخلقه، لا جلب مصلحة ولا دفع مفسدة، كالعادات والصناعات، والزراعة والعلوم والفنون المبنية علىٰ التجارب والبحث، وما يرد فيها من أمر ونهي يسميه العلماء إرشادًا لا تشريعًا، إلَّا ما ترتب عليه وعيد كلبس الحرير.

وقد ظن بعض الصحابة أنَّ إنكار النبي ﷺ لبعض الأمور الدنيوية المبنية علىٰ التجارب للتشريع؛ كتلقيح النخل، فامتنعوا عنه فخرج ثمره رديئًا يابسًا، فراجعوه في ذلك، فأخبرهم أنَّه قال ما قال عن ظنٍّ ورأي، لا عن تشريع، وقال لهم: «**أنتم أعلم بأمر دنياكم**»، كما ورد في **صحيح مسلم**[1]، وحكمته تنبيه الناس

---

(١) رواه مسلم: (٢٣٦٣).

يقول الطحاوي: «لم يكن ذلك منه ﷺ إخبارا عن وحي، وإنما كان منه علىٰ قول غير معقول ظاهر مما يتساوىٰ فيه الناس في القول، ثم يختلفون فيتبين ذوو العلم به عمن سواهم من غير أهل العلم به، ولم يكن رسول الله ﷺ ممن كان يعاني ذلك، ولا من بلد يعانيه أهله؛ لأنه ﷺ إنما بلده مكة، ولم تكن دار نخل يومئذ. وإنما كان النخل فيما سواها من المدينة التي صار إليها ﷺ، وكان القول في الأمر الذي قال علىٰ الظن به»، شرح مشكل الآثار: (٤/ ٤٢٥)، ويقول الإمام النووي: «قال العلماء: ولم يكن هذا القول خبرا، وإنما كان ظنا كما بينه في هذه الروايات، قالوا: ورأيه ﷺ في أمور المعايش وظنه كغيره، فلا يمتنع وقوع مثل هذا، ولا نقص في ذلك»، شرح مسلم: (١٥/ ١١٦)، ويقول ابن تيمية: «لم ينههم عن التلقيح، لكنهم غلطوا في ظنهم أنه نهاهم، كما غلط من غلط في ظنه أن (الخيط الأبيض) و(الخيط الأسود) هو الحبل الأبيض والأسود»، مجموع الفتاوىٰ: (١٨/ ١٢). (عمرو)

إلىٰ أنَّ مثل هذه الأمور الدنيوية والمعاشية لا يتعلق بها لذاتها تشريعٌ خاص، بل هي متروكة إلىٰ معارف الناس وتجاربهم.

وكانت الصحابة يراجعون رسول الله ﷺ فيما يشتبه عليهم أهو من رأي ﷺ واجتهاده الدنيوي، أو بأمر من الله -تعالىٰ-؟ وإن لم يكن تشريعًا كسؤاله عن الموضع الذي اختاره للنزول فيه يوم بدر، قال له **الحباب بن المنذر** رضي الله عنه: أهذا منزل أنزلكه الله ليس لنا مُتَقدَّم عنه ولا مُتَأخَّر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ فلما أجابه بأنَّه رأىٰ لا وحي، وأنَّ المعوّل فيه علىٰ المصلحة ومكايد الحرب= أشار بغيره، فوافقه ﷺ[1].

ومنه يعلم أنَّه لا يدخل في باب التشريع مثل حديث: **«كلوا الزيت وادَّهنوا به فإنه طيب مبارك»**[2]، بل هو من أمور العادات، بخلاف حديث: **«كلوا لحوم الأضاحي وادخروا»**[3]؛ فإن الأضاحي من النُسُك، والأكل منها سنة، فأمر المضحي به للندب، وادخارها جائز له، ولولا الأمر به لظن تحريمه أو كراهته لعلاقة الأضاحي بالعيد، فهي ضيافة الله -تعالىٰ- للمؤمنين في أيام العيد، وكذلك ليس من باب التشريع ما ورد في الشيب من صبغه بالسواد، بل هو من الأمور العادية المتعلقة بالزينة المباحة؛ إذ لا تعبد فيه ولا حقوق لله ولا للناس[4].

---

(١) سيرة ابن هشام: (١/ ٦٢٠)، سبل الهدىٰ والرشاد: (٤/ ٣٠). (عمرو)

(٢) **رواه أحمد.**

(١٦٠٥٥)، (٢٥/ ٤٥١).

(٣) **رواه أحمد والحاكم.**

رواه أحمد: (١١٤٤٩)، والحاكم: (١٣٨٧).

(٤) اختلف العلماء في حكم الاختضاب بالسواد، فاتفقوا علىٰ جوازه في الحرب، واختلفوا فيما عدا الحرب، فذهب بعضهم إلىٰ كراهته في غير الحرب، وهم الجمهور.

وذهب بعضهم إلىٰ حرمته إن كان للغش والتدليس، ولا ينبغي أن يكون خلاف في منعه إن كان للغش والتدليس.

وذهب بعضهم إلىٰ حرمته لغير المجاهدين.

ومنهم من فرق بين الرجل والمرأة.

انظر هذه الأقوال في الموسوعة الفقهية الكويتية: (٢/ ٢٨١).

موسى عليه السلام

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ
أَسْبَاطًا(١) أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ
فَٱنۢبَجَسَتْ(٢) مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ
وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ(٣) وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن
كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا
حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ(٤) وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ
رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ
حَاضِرَةَ(٥) ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا
وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ
مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ
يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟

---

(١) فرقًا وجماعات.

(٢) انفجرت.

(٣) مادة بيضاء تنزل من السماء كالطل، حلوة الطعم تشبه العسل، وإذا جفت تكون كالصبغ، وهو التَّرَنْجبين، والسلوىٰ: طير السمان المعروف.

(٤) الدعاء بأن يحط عنهم خطاياهم.

(٥) قريبة منه ﴿يَعْدُونَ﴾ يتجاوزون حكم الله بالصيد المحرم عليهم فيه ﴿سَبْتِهِمْ﴾ تعظيمهم للسبت ﴿شُرَّعًا﴾ ظاهرة علىٰ وجه الماء.

بِعَذَابٍ بَئِيسٍ[1] بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا[2] عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ[3] رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَاهُم[4] بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ[5] هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ۗ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ[6] بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا[7] الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩-١٧١].

* شرح وعبرة:

(١) ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾. لما بين في الاستطراد السابق كتابة رحمته الخاصة للذين يتبعون محمدًا ﷺ من قوم موسىٰ وعيسىٰ عليهما السلام، وقال فيهم: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ قفَّىٰ علىٰ ذلك ببيان أن من قوم موسىٰ طائفة تهدي الناس بالحق الذي جاءهم به من عند الله، ويعدلون به إذا حكموا بين الناس لا يتبعون فيه الهوىٰ، ولا يأكلون السحت والرشا.

والظاهر أنَّ هؤلاء ممن كانوا في عصره وبعد عصره؛ فإنَّ الأمم العظيمة لا تخلو من أهل الحق والعدل، وهذا من بيان القرآن للحقائق، وعدله في الحكم علىٰ الأمم، كقوله: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ [آل عمران: ٧٥]، ولا ينافي ذلك

---

(١) شديد، من البأس، وهو الشدة، أو: البؤس، وهو المكروه.

(٢) تكبّروا، ﴿خَاسِئِينَ﴾: صاغرين أذلاء.

(٣) أعلم؛ صيغة تَفَعَّل؛ من الإيذان، وهو الإعلام.

(٤) اختبرناهم.

(٥) عَرَض هذا الحطام الحقير من متاع الدنيا، كالسحت والرشا.

(٦) يتمسكون به في جميع أحوالهم وأوقاتهم.

(٧) رفعناه أو زلزلناه، وهو مرفوع فوقهم مظلِّل لهم، من نتق السقاء: هزه ونفضه ليخرج منه الزبدة.

قوله: «يهدون»، و«يعدلون» المفيدة للحال؛ لأنَّ أمثاله ممَّا حُكِيَ فيه حال الغابرين وحدهم بصيغة المضارع كثير، فهو لتصوير الماضي في صورة الحاضر.

وقال بعض المفسرين: المراد بهؤلاء من آمن بالنبي ﷺ من علماء أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأضْرابه، ولكن الآية ليست صريحة في هذا، بل السياق ينافيه؛ لأنَّها جاءت بعد بيان حال الذين يؤمنون به ﷺ، والصريح في ذلك النوع مثل آية آل عمران ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾؛ فالآيات في خيار أهل الكتاب أنواع:

الأول: ما هو صريح في الذين أدركوا النبي ﷺ وآمنوا به، وقد أثنت عليهم قبل الإيمان به وبعده، كقوله -تعالىٰ-: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [البقرة: ١٢١]، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ [القصص: ٥٢-٥٤].

الثاني: ما كان صريحًا في الذين كانوا في عهد موسىٰ عليه السلام واستقاموا معه، ثم في عهد مَن بعده مِن أنبيائهم إلىٰ عهد البعثة العامة قبل بلوغ دعوتها، كالآية التي نحن بصدد تفسيرها.

الثالث: المحتمل للقسمين كقوله -تعالىٰ-: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١١٣-١١٥].

والعبرة في الآية التأسي بالقرآن الكريم في بيان الحقائق وعدله في الحكم، فالرجل الذي اتخذ القرآن إمامًا له، ونورًا يهتدي به= يتأسىٰ به في حكمه علىٰ الأفراد والشعوب، فلا يسرف في المدح أو الذم، ولا يتغالىٰ في بيان التاريخ.

ألا ترىٰ القرآن يقول في أهل الكتاب: ﴿وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣].

وإذا سمعت هذه القصة من رجل لم يتهذب بتهذيب القرآن، ولم يتأدب بأدبه، تجد منه الأساليب الخطابية، والمؤثرات الشعرية، وتجده يبالغ في تحريف أولئك لدينهم، وإهمالهم لتعاليمهم حتىٰ ليخيل إليك أن ما بقي من دينهم بدون تحريف لا يبلغ عشر معشار ما أضاعوه، ثم تراه يقول: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾؛ ليريك أنَّ الفساد لم يكن عامًا فيهم، بل كان فيهم فريق قليل علىٰ صلاحه ورشده.

فالقرآن يرينا أنه لا يصح أن تحمِلَنا العصبية للدين أو الكتاب علىٰ أن نغمط أهل الكتاب حقهم أو نبخسهم أشياءهم، وإنما الواجب علىٰ المؤرخ أن يذكر ما لهم وما عليهم، ولا أدل علىٰ اهتمام القرآن بالعدل في الأحكام من قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

(٢) ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ﴾. يمتن الله -تعالىٰ- علىٰ بني إسرائيل أن جعلهم الله أسباطًا وجماعات يمتاز كل منها بنظام خاص في معيشته وبعض شؤونه، والمشهور في معنىٰ السبط أنه ولد الولد، وقد يخص بولد البنت، وأسباط بني إسرائيل: سلائل أولاده العشرة، فالأسباط بيان للفِرَق والقطع التي هي أقسام بني إسرائيل كما سميت الفرق في العرب بالقبائل، والأمم بيان للمراد من معنىٰ الأسباط الاصطلاحي، والأمة: الجماعة التي تؤلف بين أفرادها رابطة أو مصلحة واحدة أو نظام واحد.

والمراد أنَّ الله -تعالىٰ- يمتن عليهم بأن كثَّرهم وجعلهم أممًا وشعوبًا، فكان عليهم ألا يقابلوا هذه النعم بالكفران، بل يقابلوها بالشكر.

ثم يمتن عليهم بأنَّه أوحىٰ إلىٰ نبيه موسىٰ ﷺ حين طلب قومه منه السقيا أن يضرب بعصاه الحجر فتفجرت منه اثنتا عشرة عينًا، وقد عرف أناس كل سبط المكان الذي يشربون منه؛ إذ خص كلًّا منهم بعين لا يأخذ الماء إلا منها، لما في ذلك من النظام واتقاء ضرر الزحام، وهي نعمة أخرىٰ فوق نعمة الماء.

ثم سخر عليهم الغمام يلقي عليهم ظله فيقيهم لفح حرارة الشمس من حيث لا يحرمون فائدة نورها، وحرها المعتدل.

ثم أنزل عليهم المن والسلوىٰ، وقال لهم: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْۚ﴾، ولكنهم ظلموا بالكفر بهذه النعم، وبجحود آيات الله -تعالىٰ-، وشؤم ظلمهم عائدٌ إليهم، ولا يعود علىٰ ربهم وخالقهم منه شيء، ولذلك يقول: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

ثم يذكرهم الله -تعالىٰ- حين أمرهم بسكنىٰ قرية معروفة لهم وأن يأكلوا منها حيث شاؤوا من أنواع النعيم، وأن يدخلوها خاشعين خاضعين داعين أن يحط عنهم خطاياهم، ووعدهم أن سيزيد المحسنين نعيمًا إلىٰ نعيمهم، فخالفوا أمر الله -تعالىٰ- خلافًا لا يقبل التأويل، حتىٰ كأنه قيل لهم غير الذي قيل، فأرسل الله عليهم عذابًا من السماء ﴿بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ﴾.

وقال في سورة البقرة: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾، وهو يرينا أنَّ العذاب كان خاصًا بالذين ظلموا، لا عامًّا، ومجموع الآيتين يرينا أنهم كانوا جامعين بين الظلم الذي هو نقص للحق أو إيذاء للنفس أو الغير، وبين الفسق الذي هو الخروج عن الطاعة ولو في غير الظلم للنفس أو للناس.

والعبرة في ذلك أن نتقي الظلم والفسق، ونعلم أن الله -تعالىٰ- يعاقب الأمم علىٰ ذنوبها قبل الآخرة، وأنَّه عاقب بني إسرائيل علىٰ ذنوبهم، ولم يحُل دون عقابه ما كان لهم من المزايا والفضائل وكثرة وجود الأنبياء فيهم.

(٣) ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ ... إلخ، وهو تفصيل لقوله في سورة البقرة: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ يخاطب بها علماءهم، والخطاب في قوله: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ﴾ لمحمد ﷺ، والسؤال فيه للتقرير المتضمن للتقريع، والإدلاء بعلم ماضيهم، يريد واسأل بني إسرائيل عن أهل المدينة التي كانت حاضرة البحر قريبة منه راكبة لشاطئه، إذ يتجاوزون حكم الله بالصيد المحرم عليهم فيه ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ﴾ يوم تعظيمهم للسبت ظاهرة علىٰ وجه الماء ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْۚ﴾.

قيل: إنها اعتادت ألا يتعرض لها أحد لصيدها يوم السبت فأمِنَت وصارت تظهر فيه، وتخفىٰ في الأيام التي لا يسبتون فيها لما اعتادت من اصطيادها فيها،

فلما رأوا ظهورها، وكثرتها في يوم السبت أغراهم ذلك بالاحتيال علىٰ صيدها ففعلوا ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم﴾ مثل ذلك البلاء بظهور السمك لهم نبلوهم ونختبرهم، ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ بسبب فسقهم عن أمر ربهم واعتدائهم حدود شرعه.

(٤) ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي واسألهم عن حال أهل القرية في الوقت الذي قالت أمةٌ وجماعة منهم ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ﴾ . . . إلخ، والآية تدل علىٰ أنَّ الذين كانوا يعدون في السبت بعض أهل القرية لا كلهم، وأن أهلها كانوا ثلاث فرق: فرقة العادين التي أشير إليها في الآية الأولىٰ، وفرقة الواعظين الذين نهوا العادين عن العدوان ووعظوهم ليكُفُّوا عنه، وفرقة اللائمين للواعظين التي قالت لهم: لم تعظون قومًا قضىٰ الله عليهم بالهلكة أو العذاب الشديد؛ فهو إما مهلكهم بالاستئصال أو بعذاب شديد دونه، أو مهلكهم في الدنيا ومعذبهم في الآخرة.

والآية ترينا أن الأمة قد تسرف في العدوان، وتتمادىٰ في الباطل، وتملك عليها الشهوات جميع حواسها ومشاعرها، فيقل أمل الواعظ فيها، وتتغلب عليه روح اليأس، وكثيرًا ما يحس المصلح ذلك الإحساس، ويشعر ذلك الشعور، ولا سيما إذا رأىٰ الفساد قد شمل الخاصة والعامة، ولم يدع فريقًا من الأمة بدون أن يتسرب إليه، وخاصَّةً العلماء الذين هم من الأمة بمنزلة الرأس من الجسم.

إذا رأىٰ المصلح أنَّ أولئك القوم جرفهم تيار الفساد، فاندمجوا مع العامة في الشهوات والملاهي، وشايعوا الجماهير من الناس في الممالأة والنفاق، وأصبحوا يداجون ويداورون، رجاء عرض من أعراض هذه الحياة، ومتاع زائل؛ إذا رأىٰ المصلح ذلك فإنه يحزن الحزن كله، وييأس اليأس كله، ويغتم لذلك الغم كله، وحين ذاك يقول في نفسه: ماذا أصنع وماذا يصنع المصلح؟ أيصلح العامة أو الخاصة؟ يصلح الرأس أو الجسم؟ وما سبيل ذلك الإصلاح؟ وكيف يستطيع إصلاح العامة، والخاصة قد ضربوا لهم الأمثال السيئة في الرذيلة، وعبَّدوا لهم طريق الشهوات، وهوّنوا عليهم المنكرات، وجرؤوهم علىٰ ما لا ينبغي من المحرمات؟ وكذلك يحزن المصلح حينما يرىٰ ولاة الأمور

وأصحاب الحول والطول، وذوي النفوذ والسلطان من الأمة، قد فسدوا إلىٰ حد بعيد، وتجاهروا بذلك الفساد، فلا يبالون بأن يعصي الرجل منهم علىٰ رؤوس الأشهاد، ولا يستنكف أن يغاضب الله -تعالىٰ- علىٰ مرأىٰ من الجماهير.

والشأن في الناس أن تكون علىٰ دين رؤسائهم وأصحاب السلطان فيهم، ويفسدون بفسادهم ويصلحون بصلاحهم، يتأسون بهم في الخير والشر، ويقتدون بهم في كل عمل.

إذا رأىٰ المصلح الفساد قد تغلغل في جميع طبقات الأمة ولم يدَع فريقًا منها بدون أن يصل إليه= ضعُفت عند ذلك نفسه، وتسرَّب إليه اليأس، فيأخذ في التحدث إلىٰ نفسه؛ ما فائدة الوعظ، وما غاية الإرشاد؟ وما هو الأمل في ذلك العمل الذي لا يجدي ولا يفيد.

يرينا الله -تعالىٰ- بهذه الآية الكريمة أن طائفة من أهل القرية قد استولىٰ عليها اليأس، وانقطع فيها الأمل في صلاح من معهم من الذين يعدون في السبت، فأخذت تنكر علىٰ الواعظين وعظهم، وعلىٰ المصلحين إصلاحهم، وتقول لهم: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾، وما فائدة الوعظ وما قيمة الإرشاد؟ فكان جواب الواعظين ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ نعظهم وعظَ عذرٍ نعتذر به إلىٰ ربكم عن السكوت عن المنكر وقد أمر بالتناهي عنه ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، وجاءً في انتفاعهم بالموعظة، وحملًا لهم علىٰ اتقاء الاعتداء الذي اقترفوه؛ أي فنحن لم نيأس من رجوعهم إلىٰ الحق.

وفي هذا بيان لما ينبغي أن يكون عليه الواعظ، ينبغي له ألا ييأس من الإصلاح، وأن يعلم أن للوعظ أثره وغايته في النفوس، وإن كانت الغاية تتفاوت بمقدار استعداد النفوس للوعظ وتأهُّبها للتأثر به.

فمن النفوس ما هو مستعد للإصلاح استعدادًا قريبًا، فإذا وصل وعظ المصلح إلىٰ ذلك الصنف، فإن النفوس تستفيد من الوعظ في الحال، ومنها ما هو مستعد له استعدادًا بعيدًا، ولا غنىٰ للواعظ عن الصبر عن ذلك النوع من النفوس، وإذا لم يجنِ هو ثمرة ذلك الوعظ فسيجنيه مَنْ بَعدَه من المصلحين.

ومن الجهل أن يَعتَقِد الواعظ أن ثمرة وعظه لا بُدَّ أن يجدها في الحال، وما مثل الواعظ إلَّا كفلاح يصلح الأرض ويعدها للزراعة والإنبات، والأرض

معادن، فمنها الصالح الذي يجني ثمرته بمجرد وضع البذر فيه، ومنها غير الصالح الذي يحتاج إلىٰ زمن طويل، فإذا لم يجد الزارع ثمرة ذلك النوع الآن فسيجده مَن بعده، وكل مجهود يقوم به الزارع في الأرض لا يضيع، وكذلك الوُعَّاظ والمصلحون، فكثيرًا ما انتفع الواعظ بإصلاح من سبقه ومجهود من تقدَّمه، وكثيرًا ما اصطدم الواعظ بإفساد من سبقه، وكتمان من تقدمه، ولا أدل علىٰ ذلك من احتجاج العامة بسكوت العلماء السابقين، وغفلة فريق منهم عما أوجبه الله عليه من بيان الدين للناس، فكم سمعنا منهم: قد كان فينا الشيخ فلان والشيخ فلان ولم نسمع منهم ذلك، ولم ينكروا علينا ما تنكرون، وهل لذلك من معنىٰ سوىٰ تأييد ما قلنا من أن ترك الناس بدون إصلاح مدعاة لموت نفوسهم، وقسوة قلوبهم، وتسلط الشهوات عليهم، وأنَّ تعهُّدهم بالوعظ يخفف من وطأة الفساد، ويقلل من قيمة الشهوات، ويضعف من سلطان الباطل، وأن تجاوب الأصوات بالوعظ والإرشاد ضرورة من ضرورات الأمة، وحاجة من حاجات البشر: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥].

إذا لاحظ الواعظ ذلك كله، فإن اليأس لا يجد إلىٰ نفسه سبيلًا، وأقل فائدة للوعظ أن يكون حجة علىٰ أنصار الباطل وأصحاب الشهوات، وأن يكون قد قام بما أوجبه الله عليه من إنكار المنكر وتقبيح شأنه للناس وأن يكون وعظه عدة لغيره من المصلحين فيما يستقبل من الزمان، وتُكأة يعتمد عليه من يجيء بعده ممن يريد الإصلاح، ويعجبني ما حكي عن بعض الزُّراع أنه مر به رجلٌ فوجده يزرع نوعًا من الأشجار لا يثمر إلا بعد مائة سنة، فقال له لماذا تزرع وأنت واثق من أنك لا تجني ثمرته؟ فقال له الزارع: قد زرعه آباؤنا فجنينا، ونحن نزرعه ليجني أبناؤنا.

وما أحسن قول الله -تعالىٰ- حكاية عن أولئك الواعظين ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾، وعلىٰ الواعظ أن يكثر من تكرار هذه الكلمة حتىٰ تمتزج بلحمة ودمه، فيؤدي واجبه في الوعظ امتثالًا لأمر الله -تعالىٰ-، وثقة بأنه أدرىٰ بمصالح الناس، وما يعود عليهم بالخير، وأنه أعلم منا بفائدة الوعظ، والدعوة إلىٰ الله -تعالىٰ-، وأنَّها ركن ركين من أركان الدين لا يستقيم أمر الناس بدونها، ولذلك

أوجب علىٰ الأمة أن يكون منها طائفة تدعو الناس إلىٰ الخير وتأمرهم بالمعروف وتنهاهم عن المنكر، وأنَّه إذا فقدت هذه الطائفة صارت الناس فرقًا وشيعًا، فينحاز كل فريق لشهوته، ويتعصب لهواه: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٤، ١٠٥].

وقوله: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ رجاءٌ من الواعظين في أن أولئك القوم ينتفعون بتلك الموعظة كلهم أو بعضهم، فقد يكون في الطائفة الفاسدة أفراد صالحون أو مستعدون للصلاح، فحرمانهم من الوعظ خسارة كبرىٰ علىٰ المستعد.

وما دام هناك احتمال أن طائفة تستفيد من الوعظ فلا بأس. وهو ظاهر إذا كان الوعظ موجهًا لأمة وطائفة، أما إذا كان الوعظ موجهًا لشخص معين فإن الواعظ متىٰ عرف بالاختبار من ذلك الشخص أنه ليس مستعدًّا للوعظ، ولا متأهِّبًا للتذكر= فليس عليه بأس من ترك وعظه.

ولعل ذلك هو محمل قول الله -تعالىٰ-: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الأعلىٰ: ٩]، فشرط في التذكير أن تنفع الذكرىٰ، أما إذا لم تنفع فهي من العبث.

وهناك من فوائد الوعظ عدا ما تقدم حماية المؤمنين من الفساد، ووقايتهم من الشر، فهو بمثابة الحيلولة بين السليم والأجرب حتىٰ لا يعديه الجرب فيصبح الكل مريضًا، فإذا لم يفد الوعظ في تكثير سواد الأصحاء فهو يجدي في وقوف المرض وعدم انتشاره، فإن العدوىٰ الخُلُقية أسرع من عدوىٰ الأجسام، والتأثر بأرباب الشهوات والأهواء أضعاف التأثر بالمصابين بالأمراض الجسمية، وكل إنسان مستعد لأن يتأثر بالخير والشر استعدادًا قريبًا أو بعيدًا، فإذا سمع الصنف الصالح من الأمة الوعظ، وتعهده المصلحون بالإرشاد فإن ذلك يكون وقاية له من التطلع لأرباب الشهوات والانغماس معهم.

ومن أجل ذلك أوجبت الشريعة الإسلامية الوعظ علىٰ المنابر في كل أسبوع مرة عدا المواعظ التي يتبرع بها فريق من الأمة، وكثيرًا ما نرىٰ في البيت الواحد الصالح والطالح، ونرىٰ صراعًا بينهم في صلاحهم وفسادهم، فترىٰ الصالح في البيت يتمثل قول الواعظ وعمله، ويحاول أن يظفر بأخيه الفاسد فينشله من وهدة

الفسق، ويذهب به إلىٰ حيث يذهب الصالحون المؤمنون.

وترىٰ صاحب الشهوة مغرمًا باللهو والخلاعة، تجري كلمات اللهو علىٰ لسانه، وتظهر خفة الطيش علىٰ جوارحه، وهو في طريقه هذا يحاول أن يضمّ إليه أخاه ويكسب صاحبه، ولا يزال بينهما ذلك الصراع إن ظاهرًا وإن خفيًا، حتىٰ يتغلب القوي علىٰ الضعيف، سنة الله في كل صراع فإذا لم يجن الوعاظ من وعظهم سوىٰ حماية المؤمنين والحيلولة بينهم وبين الشهوات، فتلك فائدة كبرىٰ، وغاية من أجل الغايات، فكيف إذا كان من وراء ذلك إعداد النفوس للصلاح، وجعلها مهيأة للرشاد، وإقامة الحجة علىٰ أرباب الشهوات والمعاصي، وإظهار هذه الطائفة بمظهر لا يليق بالعاقل ولا يتناسب مع الكرامة، وبيان أنَّ حياة الناس المعنوية والمادية في طاعة ربهم ووقوفهم عند ما رسم لهم، وأن الذل كل الذل في أن يكون الناس كالبهائم لا يعنيهم إلا ملء بطونهم وقضاء شهواتهم، وأن الإنسان قد أعده الله بما هيأه له لحياة وراء هذه الحياة ومعيشة أرقىٰ من تلك العيشة، ولا يستطيع الوصول إلىٰ تلك الحياة الغالية إلا بتزكية نفسه وطهارة روحه، وإنما يكون ذلك كله بالدين الصحيح والعلم النافع.

وجملة القول: إنَّ اليأس من الشيطان، فإذا تسلط عليك أيها الواعظ فحاربه بما تستطيع، وقاومه بكل ما أوتيت من قوة، وقم بما أوجبه الله عليك من وعظ وإرشاد، ودع ما لا تستطيع من هداية القلوب لخالقها وبارئها، فهو الذي يصرفها كما يريد ويقلبها كما يشاء: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

(٥) ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾، فلما نسىٰ العادون في السبت المذنبون ما ذكّرهم به ووعظهم به إخوانهم المتقون، بأن تركوه وأعرضوا عنه حتىٰ صار كالشيء المنسي في كونه لا تأثير له= أنجينا الواعظين من العقاب الذي استحقه فاعلو السوء، وأخذنا الذين ظلموا وحدهم بعذاب شديد.

وانظر إلىٰ قوله ﴿بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ لتعرف أنَّ نزول العذاب بهم سببه فسقهم المستمر لا ظلمهم في الاعتداء في السبت فقط، ولو كان هذا هو السبب

لكفىٰ أن يقول: ﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾، وكان وصفهم بأنَّهم ظلموا تعليلًا لأخذهم بالعذاب، علىٰ قاعدة أن تعليق الحكم أو الجزاء علىٰ المشتق يدل علىٰ أنَّ المشتق منه علة له، ولكن الله أراد أن يرينا بذلك التعليل أن سنته في أخذ الأمم والشعوب في الدنيا قبل الآخرة بالظلم والذنوب= أن يظهر أثر الذنوب فيها بالإصرار والاستمرار عليها، وهو ما أفاده هنا قوله: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾، وليس من سنته أن يؤاخذ كل ظالم في الدنيا بكل ظلم يقع منه قل أو كثر؛ لقوله: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]، وقوله: ﴿وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ [المائدة: ١٥]، بل قد يعاقب الظالم وقد يؤخره، وهو حكيم في إرجاء العقوبة، عليم بما تقضي به المصلحة.

والآية ناطقة بهلاك الظالمين الفاسقين، ونجاة الصالحين الذين نهوهم عن عمل السوء، وسكتت عن الفرقة التي أنكرت علىٰ الواعظين وعظهم، فقيل إنَّها كانت مع الهالكين لأنَّها لم تنهَ عن المنكر، بل أنكرت علىٰ الذين نهوا عنه، وقيل: بل نجت لأنَّها كانت منكرة للمنكر، ولذلك لم تفعله، وإنَّما لم تنهَ عنه ليأسها من فائدة النهي وجزمها بأنَّ القوم قد استحقوا عقاب الله بإصرارهم فلا يفيدهم الوعظ.

وتستطيع أن تأخذ من الآية فائدة أخرىٰ للوعظ والواعظين، والإصلاح والمصلحين، هي نجاتهم من السوء الذي أنزله الله -تعالىٰ- بأصحاب الذنب، ولولا ذلك الإنكار الذي كان منهم لهلكوا كما هلك المذنبون: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥]، ﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾، أي: تعلقت إرادتنا بأن يكونوا قردة خاسئين صاغرين أذلاء= فكانوا كذلك؛ قيل: إن هذا تفصيل للعذاب البئيس في الآية السابقة، وقيل: هو عذاب آخر وأن الله -تعالىٰ- عاقبهم أول بالبؤس والشقاء في المعيشة؛ لأن من الناس من لا يربيه إلا الشدة، كما أن منهم من يربيه الرخاء والنعمة، وبكل يبتلي الله عباده، ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، ولكن هؤلاء القوم لم يزدهم البؤس إلا عتوًّا وإصرارًا علىٰ الفسق والظلم، فدمدم عليهم ربهم بذنبهم، ومسخهم مسخ خُلُق وبدن، فكانوا قردة

بالفعل، أو مسخ خُلُق ونفس، فكانوا كالقردة في طيشها وشرها وإفسادها لما تصل إليه أيديها، وهو قول مجاهد قال: مسخت قلوبهم فلم يوفقوا لفهم الحق، وهي عاقبة من أوخم العواقب، وغاية من أشد الغايات علىٰ النفوس، ولعل فيها عبرة لقوم استهانوا بالمعاصي، واستمرؤوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وفسقوا عن أمر الله وضلوا ضلالًا بعيدًا، لعلهم يعلمون أن الله -تعالىٰ- الذي مسخ سلفهم في الشهوات، وأئمتهم في الضلال، فصاروا قردة وخنازير، طباعهم طباعهم، ونفوسهم نفوسهم؛ لعلم يعلمون أنَّه قد مسخ أولئك الأقوام بسبب فسقهم وإصرارهم علىٰ المعاصي، وأن في قدرته أن يمسخ من كان مثلهم ذلك المسخ المعنوي الذي يقضي علىٰ كل فضيلة في النفوس، ويمحو كل خلق من أخلاق الإنسانية الفاضلة، لعل لهم مدكرًا في أولئك الأقوام وما حل بهم من عقوبات فيقلعوا عن سيئاتهم، ويرجعوا إلىٰ ربهم وخالقهم، ويثوبوا إلىٰ رشدهم، والله -تعالىٰ- واسع الفضل يقبل التائب، ويعفو عمن أساء، متىٰ أصلح ما فسد، وبدّل سيئاته حسنات، وعمل عملًا صالحًا ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه: ٨٢].

(٦) ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ... إلخ؛ أي: اذكر لهم أيها الرسول؛ إذ أعلم ربك هؤلاء القوم المرة بعد المرة أنه قد قضىٰ عليهم في علمه، وكتب علىٰ نفسه، وفاقًا لما أقام عليه نظام الاجتماع البشري من سننه، ليسلِّطَنَّ عليهم إلىٰ يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب؛ أي: يوقعه بهم عقابًا علىٰ ظلمهم وفسقهم، وهو هنا سلب الملك، وإخضاع القهر.

وقد فصله الله -تعالىٰ- في سورة الإسراء: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟[1] خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن

---

(١) ترددوا، ﴿نَفِيرًا﴾: من ينفر مع الرجل من قومه ﴿يتبروا﴾: يهلكوا.

﴿يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٤-٨]، وقوله: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾، أي: إنْ عدتم بعد عقاب المرة الأولىٰ إلىٰ الإفساد عدنا إلىٰ التعذيب والإذلال، وقد عادوا فسلط الله عليهم النصارىٰ فسلبوا ملكهم الذي أقاموه بعد نجاتهم من السبي البابلي، وقهروهم واستذلوهم، ثم جاء الإسلام فعاداه أولئك الأقوام الذين كانوا هربوا من الذل والنكال، ولجؤوا إلىٰ بلاد العرب فعاشوا فيها أعزاء آمنين.

ثم عاهدهم النبي ﷺ فأمَّنهم علىٰ أنفسهم وأموالهم وحرية دينهم، فلم يوفوا له، بل غدروا به وكادوا له، ونصروا المشركين عليه، فسلطه الله عليهم فقاتلهم فنصره عليهم، فأجلىٰ بعضهم وقتل بعضًا، إلىٰ أن جاء عمر رضي الله عنه فأجلىٰ مَنْ بَقِيَ منهم.

ثم فتح عمر سورية بعضها بالصلح كبيت المقدس، وبعضها عنوة، فانتقل اليهود من سيادة الروم الجائرة إلىٰ سلطة الإسلام العادلة، ولكنهم مع ذلك ظلوا أذلة بفقد الملك والاستقلال، ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾، للأمم التي تفسق عن أمره وتفسد في الأرض فلا يتخلف عقابه عنها كما يتخلف عن بعض الأفراد: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦]، أي: أمرنا بالحق والعدل ففسقوا عن أمر الله، وأفسدوا وظلموا في الأرض، فحق عليهم القول بمقتضىٰ سننه -تعالىٰ- في الخلق فحلَّ بهم الهلاك علىٰ الفور: ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لمن تاب بعد الذنب وأصلح ما كان أفسد، كما قال في سورة طه: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢].

وقلما ذكر الله -تعالىٰ- عذاب الفاسقين المفسدين إلا وقرنه بذكر المغفرة والرحمة للتائبين المحسنين حتىٰ لا ييأس صالح مصلح من رحمته بذنب عمله بجهالة، ولا يأمن مفسد من عقابه اغترارًا بكرمه وعفوه، وهو مصرٌّ علىٰ ذنبه.

ثم بيَّن -تعالىٰ- كيف بدأ إذلال اليهود بإزالة وحدتهم، وتمزيق جامعتهم، فقال: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾ فرقناهم في الأرض أممًا متقطعة، بعد أن كانوا أمة متحدة ﴿مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ﴾ كالذين نهوا الذين اعتدوا في السبت عن ظلمهم، والذين كانوا يؤمنون بأنبياء الله -تعالىٰ- فيهم من بعد موسىٰ إلىٰ عهد

عيسىٰ عليه السلام، والذين آمنوا بمحمد خاتم النبيين ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ فلم يبلغوا وصف الصلاح، وهم درجات: منهم الغلاة في الكفر والفسق كالذين كانوا يقتلون النبيِّين بغير الحق، ومنهم السمَّاعون للكذب الأكَّالون للسحت، وما إلىٰ ذلك ممَّا هو شأن الأمم الفاسدة ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

ابتلىٰ الله سرائرهم واستعدادهم بالنعم التي تحسُن، وتقرُّ بها الأعين، وبالنقم التي تسوء صاحبها، وربما حسنت بالصبر والرضا عواقبها، رجاء أن يرجعوا عن ذنبهم، فيعود برحمته وفضله عليهم: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ خلف من بعد أولئك الذين كان فيهم الصالح والطالح والبر والفاجر ﴿وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الذي هو التوراة عنهم، وقامت به الحجة عليهم بوجود الكتاب في أيديهم بعد سلفهم، يقرؤونها ويقفون علىٰ ما فيها من الأوامر والنواهي، والتحليل والتحريم، ولا يعملون بها ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾، أي: يأخذون عرض هذا الشيء الأدنىٰ، أي: هذا الحطام الحقير من متاع الدنيا وهو ما كانوا يأكلون من السحت، والرِّشا، والاتِّجار بالدين، والمحاباة في الحكم والفتوىٰ ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾؛ فإنَّنا شعبه الخاص، وسلائل أنبيائه، ونحن أبناؤه وأحباؤه ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾ جملة في موضع الحال؛ أي: يقولون ذلك وهم مصرون علىٰ ذنبهم، إن يأتهم عرض آخر مثل الذي أخذوه أوَّلًا بالباطل= لا يتعفَّفون عنه.

وإنَّما وعد الله بالمغفرة للتائبين الذين يتركون الذنوب ندمًا وخوفًا من الله -تعالىٰ- ورجاء فيه، ويصلحون ما كانوا أفسدوا، وقيل: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ يأخذون ما يعرض لهم من أعمال سلفهم السافلين المنحطِّين، المشار إليهم بقوله: ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾، ويتركون أعمال سلفهم الصالحين، ويقولون سيغفر لنا، والحال أنَّهم مصرون علىٰ الإجرام، كما يفيده قوله: ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾، والأول أظهر.

وقد رد الله عليهم زعمهم أن الله سيغفر لهم أولئك الذنوب مع إصرارهم عليها في قوله: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ﴾، وهو يرينا أن سيئات أولئك الأقوام كانت في تحريف الكتاب والمحاباة بأحكام الله -تعالىٰ- في التحليل والتحريم، في نظير ما يحصلون عليه من مال

أو جاه لدىٰ الحكام وولاة الأمور، كقوله: ﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ٩]، وقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

وقد سرىٰ كثير من ذلك الفساد إلىٰ رجال الدين من المسلمين الذين ورثوا الكتاب الكريم والقرآن الحكيم ودرسوا ما فيه، غلب علىٰ أكثرهم الطمع في حطام الدنيا القليل وعرضها الدنيء، والغرور بالنسبة إلىٰ الإسلام والتحلي بلقبه، والتعلل بأمانيّ المغفرة مع الإصرار علىٰ الذنب، والاتكال علىٰ المكفرات والشفاعات، وهم يقرؤون ما في الكتاب من النهي عن الأماني والأوهام، ومن نَوط الجزاء بالأعمال، والمغفرة بالتوبة والإصلاح، وكون الشفاعة لا تقع إلا بإذن الله لمن رضي عنه كقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، ولن يرضىٰ الله عن فاسق ولا عن منافق: ﴿فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٦].

وما قص الله علينا مثل هذه الآيات من أخبار بني إسرائيل إلا لنعتبر بأحوالهم، ونتقي الذنوب التي أخذهم بها، ولكننا مع ذلك كله اتبعنا سننهم شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، ونحمد الله أن لم يكن ذلك الاتباع فينا عامًّا، ولا يزال فينا طائفة ظاهرة علىٰ الحق إلىٰ أن يأتي أمر الله؛ نسأل الله أن يجعلنا منها، ويعصمنا من الفتنة في ديننا، ويجعل الحق رائدنا، والإخلاص حليفنا.

ثم قال: ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ﴾ من ذلك العرَض الخسيس ﴿لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الرِّشا ومحارم الله ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ قيمة ذلك الوعظ؟

ثم أراد أن ينبه إلىٰ أن المستمسكين بالكتاب وأقاموا الصلاة التي أوجبها الله عليهم -وخصها للإشارة إلىٰ علو مكانها من الدين- لا يضيع الله -تعالىٰ- أجرهم، وعلل ذلك بقوله: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾، وهو دليل لما قبله، ومثله قوله -تعالىٰ-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠].

(٧) ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾، أي: واذكرأيها الرسول النبي الأمي؛ إذ نتقنا فوق هؤلاء الجبل (جبل الطور)؛ أي: رفعناه، كما عبَّر به في الآيات الأخرىٰ وهو المروي عن ابن عباس، أو زلزلناه وهو مرفوع فوقهم مظلٍ لهم، كما يقال نتق السقاء، إذا هزه ونفضه ليخرج منه الزبدة.

قال الجمهور: إنَّه اقتلعه وجعله فوقهم؛ **فإن قيل**: لو كان كذلك لكان ظلة بالفعل لا كالظلة، فإن الظلة: كل ما أظلك من فوقك، ويصدق رفع الجبل فوقهم كالظلة بوجودهم في سفحه، واستظلالهم به= **قلنا**: إنَّه وإن صح هذا التأويل؛ فإنَّ رفع الجبل علىٰ الوجه الأول إنَّما كان لإخافتهم لا لإظلالهم، وأما ظنهم أنه واقع بهم فإنما جاء من زلزلته واضطرابه، علىٰ أن الله -تعالىٰ- قادر علىٰ قلعه وجعله فوقهم.

وكم رأوا من آياته ما هو أدلّ علىٰ قدرته -تعالىٰ- مِن ذلك: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾، أي: قلنا لهم في تلك الحالة: خذوا ما أعطيناكم من أحكام الشريعة بقوة عزيمة، وعزم علىٰ احتمال مشاقة ﴿وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ اذكروا ما فيه من الأحكام أوامرها ونواهيها، أو اعملوا به لئلا تنسوه، فإن ذلك يعدكم للتقوىٰ، ويجعلها مرجوة لكم، فإن الجد وقوة العزم في إقامة الدين يهذب النفس ويزكيها، والتهاون والإغماض فيه يدسيها ويغويها: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩، ١٠].

وقد اعترض بعضهم رفع الجبل بأنَّه إكراه علىٰ الإيمان وإلجاء إليه، وذلك ينافي التكليف قال **الأستاذ الإمام** في ردّه علىٰ ذلك القائل: لا حاجة لنا في فهم كتاب الله إلىٰ غير ما يدّل عليه بأسلوبه الفصيح، فهو لا يحتاج في فهمه إلىٰ إضافات ولا ملحقات.

وقد ذكر لنا مسألة رفع الطور فوق بني إسرائيل، ولم يقل: إنه أراد بذلك الإكراه علىٰ الإيمان، وإنَّما حكىٰ عنهم في آية أخرىٰ أنهم ظنوا أنه واقع بهم، فقد قال -تعالىٰ- في سورة الأعراف: ﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، والنتق: الزعزعة والهزّ والجذب والنفض، **ونَتَق** الشيء يَنْتِقُه ويَنْتُقُه -مِن بابي: (ضَرَبَ)، و(نَصَرَ)-

نَتْقًا: جذبه واقتلعه، وقد يكون ذلك في الآية بضرب من الزلزال كما يدل عليه التعبير بالنتق، وهو في الأصل بمعنىٰ الزعزعة والنفض.

والمفهوم من أخذ الميثاق أنهم قبلوا الإيمان وعاهدوا موسىٰ عليه. فرفع الطور وظُنُّهم أنه واقع بهم، من الآيات التي رأوها بعد أخذ الميثاق= كان لأجل أخذ ما أوتوه من الكتاب بقوة واجتهاد؛ لأنَّ رؤية الآيات تُقَوِّي الإيمان، وتحرِّك الشعور والوجدان، ولذلك خاطبهم عند رؤية هذه الآية بقوله: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾، أي: تمسكوا به، واعملوا بجد ونشاط لا يلابس نفوسكم فيه ضعف، ولا يصحبها وهن ولا وهم.

ثم قال: ﴿وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ﴾ بالمحافظة علىٰ العمل به، فإن العمل هو الذي يجعل العلم راسخًا في النفس مستقرًّا عندها، ويؤثر عن أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه أنه قال: «يهتف العلم بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل»[1]؛ انظر تفسير آية (٦٤) من سورة البقرة.

(١) وينسب لسفيان الثوري أيضًا، انظر: جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (٢/ ١٠)، واقتضاء العلم العمل: (٣٥-٣٦)، وعزاه إلىٰ علي بن أبي طالب، وابن المنكدر. (عمرو)

موسى عليه السلام

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا
مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ
لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا(١) عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ
ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ
سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ
مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ
ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ
مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ(٢) فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾
وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا
رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً(٣) لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾
وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا(٤) لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً(٥) وَأَقِيمُواْ
ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا
فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ(٦) عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ(٧) عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ

---

(١) تَصرِفَنا، واللفت والفتل أخوان.

(٢) غالبٌ قاهر.

(٣) موضع فتنة؛ أي عذاب لهم يفتنوننا به عن ديننا، أو فاتنين لهم، يقولون: لو كان هؤلاء على الحق ما أصيبوا.

(٤) من تبوأ المكان: اتخذه مباءة؛ ك: توطّنه: اتخذه وطنًا.

(٥) مسجدًا.

(٦) أزل أثرها، والانتفاع بها.

(٧) استوثق منها حتىٰ لا يدخلها الإيمان.

فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا(١) وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ [يونس: ٧٥-٩٢].

* شرح وعبرة:

(١) ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ﴾ إلىٰ آخر الآيات. يرينا الله -تعالىٰ- أنه بعث بعد رسله السابقين في الآيات السالفة الذكر ﴿مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾، مؤيدين بآيات الله -تعالىٰ- ودلائل قدرته ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ عن قبولها، وتعاظموا علىٰ الإذعان لها ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا﴾ دأبهم الإجرام، وعادتهم الإفساد في الأرض، وأنَّهم لما جاءهم الحق من عند الله -تعالىٰ-: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، وقد سبق الكلام علىٰ شرح السحر وأقسامه في سورة الأعراف عند الكلام علىٰ قصة موسىٰ عليه السلام.

والعجيب من أولئك الأقوام أن يقطعوا بأن ما جاء به موسىٰ سحر، وأنه سحر واضح بيِّن لا يشك فيه أحد، فيقول لهم نبي الله موسىٰ قول المتعجب: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ﴾، وحذف المقول لأنه معلوم، وكأنه استعظم أن ينطق به ولو علىٰ وجه الحكاية لقولهم، فهو ينكر عليهم أن يقولوا في شأن الحق الذي جاء به ما قالوا، ثم قال: ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾، أي: هذا الذي جئت به عن الله -تعالىٰ- سحر؟ ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ من كلام نبي الله موسىٰ أيضًا؛ أي: أيمكن أن يكون ما جئت به عن الله سحرًا مع أن الساحر لا يفلح، كما قال موسىٰ للسحرة: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، فماذا كان منهم بعد إنكار نبي الله موسىٰ عليهم أن ما جاء به سحر؟ كان منهم أن رجعوا إلىٰ الآباء فتمسحوا بتقاليدهم، واعتصموا بسلفهم الطالح في التمسك بآثارهم ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾ يريدون أن عملك هذا من

---

(١) طلب الاستعلاء من غير حق. وعدوًا: ظلمًا.

العبث، ومحاولة باطلة، فإن ديننا هذا قد وجدنا عليه الآباء، وورثناه عن السلف، فلا يمكن أن نحيد عنه، وهي حجة لا نسمعها إلا من قوم قد أعوزتهم الحجة، فرجعوا إلىٰ الآباء يتمسحون بهم، وإلىٰ من تقدمهم في ذلك العمل يعوّلون علىٰ قيادتهم، ولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئًا ولا يهتدون.

ثم أضافوا إلىٰ ذلك قولهم: ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يخشون من نبي الله موسىٰ وأخيه هارون ﷺ أن تكون دعوتهما دعوة إلىٰ الملك لا دعوة إلىٰ الرسالة، فيضيع الملك علىٰ فرعون، وملئه ممن يدرّ عليهم الملك المال الجم والخير الكثير.

وهذه الكلمة من ملأ فرعون هي إذكاء لشعور المُلك وأبهة السلطان، وتأريث للعداوة والبغضاء لموسىٰ وصاحبه؛ لأنَّه يحاول بعمله هذا أن يسلب فرعون ملكه، ويقضي علىٰ نفوذه وعظمته، وهي دسيسة خبيثة دنيئة ألفناها من بطانات الملوك والأمراء، وتعوّدناها من حواشي السوء، إذا كرهوا رجلًا دسوا عليه تلك الدسيسة، واتهموه بتلك التهمة؛ لأنَّهم يعلمون أن الملوك لا تتأثر بشيء تأثرها بما يمس ملكها، ويتعلق بسلطانها، فإذا لقنوهم تلك الكلمة؛ فإنَّهم لا يناقشونهم فيها، ولا يطلبون عليها دليلًا ولا شبه دليل من ذلك المُبَلِّغ الدسَّاس، وهي طبيعة من طبائع الملك، وخُلُق من أخلاقه، لا تخصُّ رجلًا دون آخر، ولا تتعلق بجيل دون جيل.

وقد يعلم ملأ فرعون أنَّ موسىٰ ﷺ وأخاه هارون لا يريدان ملكًا، وإنَّما يريدان إصلاحًا في الأرض وإنقاذًا لبني إسرائيل من بطش فرعون وظلمه، ولكن بطانات السوء تأبىٰ إلا أن تظهر المصلح بتلك الصورة التي من شأنها أن يطير لها لُبّ فرعون ومن علىٰ شاكلته من الظلمة والمستبدين، ولذلك لجؤوا إلىٰ تلك الدسيسة: دسيسة أنهما يريدان ملكًا، ولا يريدان رسالة.

ويحتمل أن يكون ذلك القول من ملأ فرعون شعورًا منهم بأنَّ موسىٰ وهارون إذا نجحا في دعوتهما انتهت إليهما العظمة، وذهب فرعون وسلطان فرعون؛ لأنَّ عظمته أساسها الباطل، أما عظمة موسىٰ وأخيه هارون فأساسها الحق وبقاء الصالح، فالعاقبة لعظمة موسىٰ وأخيه، وبذلك يصبح فرعون وملأ

فرعون أفرادًا عاديين لا يؤبه لهم، ولا يقام لهم وزن، بل ينظر لهم نظر الإنسان للشيء البغيض الممقوت.

إذا كان ذلك هو ما يبغيه بطانة فرعون كان ذلك اعترافًا منهم من قرارة نفوسهم بأنَّ موسىٰ وأخاه علىٰ حق، وأنَّ فرعون وملئه علىٰ باطل، وأن العاقبة ستكون لموسىٰ وأخيه، والهلاك لفرعون ومن معه، ثم الأسلوب مع ذلك أسلوب تحريض علىٰ موسىٰ وأخيه، وإيهام الناس أنَّهم طلاب شهرة وكبرياء، لا طلاب حق ورسالة، ومهما يكن من شيء؛ فإنَّها أساليب شيطانية أساسها الشهوة والوقيعة، فإن فرعون متىٰ وقر في نفسه أن موسىٰ وهارون ستنتهي دعوتهما للناس بالقضاء علىٰ ملكه، أو صرف الناس عنه وتركه كالشيء اللَّقىٰ المنبوذ، متىٰ وقر في قلبه ذلك؛ فإنَّه لا يألو جهدًا في محاربة موسىٰ ودعوته والتنكيل به في سبيل اعتزازه بملكه وحرصه علىٰ سلطانه وأبهته، ثم عقبا علىٰ ذلك بقولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ مصدقين فيما جئتما به.

(٢) ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ ... إلخ. يرينا أنَّ فرعون لما اضطرب أمره وخاف علىٰ نفسه من موسىٰ وهارون، قال لملئه: ائتوني بكل ساحر عليم بالسحر؛ ليتغلب بهم علىٰ موسىٰ، وأنهم لما جاؤوا: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ﴾ لهم ﴿مُوسَىٰ﴾ إن ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾ بالمعجزة والدليل الواضح ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

وقد فصل الله ذلك في سورة **الأعراف، وطه**، والجديد في القصة قول موسىٰ ﷺ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، وهو وعد من نبي الله قد بناه علىٰ الثقة بخبر الله -تعالىٰ-، ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، وهي قاعدة من قواعد الاجتماع وسنة من سنن الله في الخلق، أنه لا يصلح عمل مفسد، لا يثبته ولا يديمه، بل يسلط عليه الدمار والهلاك، وهو كقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧].

ومن آيات الله -تعالىٰ- في المفسدين ألا يوفقهم لخير، ولا يعينهم علىٰ حق، وإذا دبروا أمرًا في سبيل الشيطان والهوىٰ لا بُدَّ أن يغفلوا عن مواطن

ضعف في ذلك التدبير، تقضي علىٰ تدبيرهم وتذهب بباطلهم من حيث لا يشعرون.

واضرب لهم مثلًا المزوِّر الذي يلجأ إلىٰ وثيقة فيزورها علىٰ رجل من الناس، أو إلىٰ شهادة فيلفقها علىٰ بريء ليلصق به جريمة من الجرائم، تكفل الله ووعد بأن ذلك المزور لا يصلح الله عمله، ولا يتم له تدبيره، ولا بُدَّ أن يغفل عن ناحية من النواحي يكون فيها هلاكه والقضاء عليه، وإذا شئت أن تعرف كيف لا يصلح الله عمل مفسد، فارجع إلىٰ الخبراء الذين لهم دين وذمة كيف يكشفون ما يعمله المزوِّرون، ويفضحون ما يدبر المفسدون.

ثم ارجع إلىٰ القضايا الجنائية التي تقام علىٰ حساب شهود مسترزقين، وأفراد فاسدين، يحاولون أن يوقعوا بشهاداتهم الأبرياء، ارجع إلىٰ هذه القضايا وما أكثرها في أيام المحن والشدائد واضطراب السياسة العامة لتعرف كيف يكشف رجال المحاماة المؤامرات التي تدبر للأبرياء، وكيف يحبطون ما يحاك خيوطه للمساكين.

ولو فُرِض أن مفسدًا نجح في عمله، أو أن مزورًا قضي له بتزويره، فليس ذلك لأنَّ الله أصلح عمله، بل لأنَّه لم يجد من المهرة من يكشف تدبيره، ويفضح عمله فغلب باطله علىٰ حق غيره؛ لأنَّ الحق لم يجد ناصرًا، والباطل لم يجد خاذلًا، كل ذلك مصداق لتلك الآية الكريمة، وتحقيق لذلك الوعد الإلهي: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾، وهي آية عجيبة من آيات الله -تعالىٰ- في الفرق بين المصلح والمفسد.

نرىٰ المصلح دائمًا موفقًا للخير، وإذا عرض له مانع لم يكن في حسبانه= أعانه الله علىٰ تذليله، وأزال من طريقه العقبات، وألهمه كيف يسير، وإذا أخطأ مرة استفاد من خطئه كما يستفيد من صوابه.

أمَّا المفسد؛ فإنَّ الله -تعالىٰ- لا يدعه نيتم عمله، ولا ليؤديه علىٰ الوجه الكامل، بل لا بُدَّ أن يترك فيه من النقص ما يقضىٰ علىٰ ذلك العمل، ويوجد في سبيله من العقبات والعراقيل ما لا قبل له به، ولا يترك ذلك الباطل ليبقىٰ ويثمر؛ لأنه غير صالح للبقاء.

والعبرة في الآية الكريمة التأسي بالله -تعالىٰ- والتخلق بخلقه، في أنه لم يترك السحر ليفتن به الناس، بل أبطله بالمعجزة ليرينا إذا نحن رأينا باطلًا كيف لا نتركه ليبقىٰ ويفتن الناس به، بل نقضي عليه بالحق ونكشف أمره للجماهير.

فإذا رأينا رجلًا مشعوذًا يؤثر علىٰ بسطاء العقول بما يريهم من أساليب الشعوذة، ويحاول أن يريهم أنَّه يملك لهم من أمر الله ما لا يملك أحد من خلقه كعلمه بالغيب، أو تحويله قلوب العبادة من محبة إلىٰ بغض، ومن بغض إلىٰ محبة، إذا رأينا رجلًا ذلك حاله فلا ينبغي أن نسكت عليه، بل يجب أن نكشف باطله للناس حتىٰ لا يخدعوا به ولا بباطله.

ثم قال نبي الله موسىٰ: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾، أي: يثبت الله الحق بأوامره -تعالىٰ- وقضاياه التي قضىٰ فيها بذلك، أو بكلماته التي أنزلها علىٰ رسله ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ ذلك، فهو لا يبالي بكراهتهم، ولا يهتم لأمرهم، وإنما يعنىٰ بأمره هو، وإمضاء سنته.

والعبرة في ذلك أن نعمل علىٰ إحقاق الحق وإبطال الباطل، ولا نرعىٰ عاطفة أحد، ولا أهواء فريق من الناس، فإذا كره فريق من الناس أن نجهر بالحق أو نذيعه بين الجماهير فلا نعمل حسابًا لكراهته، ولا نقيم وزنًا لإرادته؛ لأنَّه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

(٣) ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾، أي: فلم يؤمن بموسىٰ بعد ذلك الجهد إلا طائفة من أولاد قومه، وهو يرينا أن الشأن في الآباء أن تكون متعاصية علىٰ الدعوة، حريصة علىٰ التقاليد، قد شاخت منها العقول، وألفت طريقًا خاصة في تدينها، فمن الصعب عليها الرجوع عن ذلك الإلف وتلك التقاليد.

وإذا شئت أن تعرف كيف يكون خروج الشيوخ عن مألوفها صعبًا= فانظر إلىٰ رجل ألف كيفًا من الكيوف من صغره، وامتزج بلحمه ودمه، ومضىٰ علىٰ ذلك الحال زمنًا طويلًا، ثم حاولت أن تحول بينه وبين ذلك الكيف، فإنك تجد من أعصابه وعادته المستحكمة ما يحول بينه وبين محاربة ما ألف، ويندر من الشيوخ من يقلعون عن عادة ألفوها من الصغر، وتعودوها منذ زمن بعيد، وكذلك

الحال في كل مألوف، فإذا ألف الناس دينًا تقليديًا ورثوه عن الآباء، وأخذوه بمقتضىٰ العادة بدون بحث ولا تمحيص، ثم حاولت أن تزحزحهم عن ذلك الدين، وتحملهم علىٰ البحث= كنتَ قد كلفتهم غير مألوفهم، وغير عادتهم، وقيل من هؤلاء من يستمع لدليل أو ينصاع لحجة أو برهان، ولا بُدَّ أن يكون ذلك الصنف من الشيوخ الذين ينتقصون علىٰ عاداتهم، ويثورون علىٰ إلفهم وعادتهم، ويأخذون في تمحيص آرائهم ومذاهبهم، ووضعها تحت مشرط النقد، وجعلها خاضعة لكل ما تخضع له الآراء من حق أو باطل؛ لا بد أن يكون ذلك الصنف من الشيوخ قد ظهرت نفسه، وقويت إرادته، وعلت همته حتىٰ لا تحتكم فيه العادة، ولا يتأثر بما ألفه سنين عدة، كأبي بكر ﷺ الذي كان أول شيخ قَبِل دعوة الرسول ﷺ وكان صديقه الأكبر، ولعلنا نلمح من ذلك السر في أن مشيخة قريش كانت تحارب رسول الله ﷺ الحرب العوان، وتدبر له المكائد، كأبي جهل: عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي القرشي، وأبي لهب بن عبد المطلب، عم رسول الله ﷺ، الذي كان أشد عليه من الأباعد، وعقبة بن أبي معيط الجار الثاني لرسول الله ﷺ، وكعب بن الأشرف وغيرهم ممن قتل في غزوة بدر وأحد والخندق، وغيرهم من صناديد قريش.

أمَّا الشباب الذي لم يتأثر بأولئك العادات ولم تألف نفسه طريقًا خاصة في التدين والتمذهب؛ فإنَّه مستعد لمناصرة الجديد من الآراء أكثر من مناصرة الشيوخ، وقلَّ أن نجد جمودًا في شاب، كما يقل أن نجد مرونة في شيخ، ونجد ذلك واضحًا جليًّا في الجمعيات الخيرية، والنزعات الوطنية والقومية، تجد الجمعيات لا تقوم إلا علىٰ الشباب، والأعمال الحرة لا تسير إلا بالشباب، وحرارة الوطنية تجدها أظهر ما تكون في الشباب.

وتجد الشاب مستعدًّا للتأثر بروح الجماعة فوق استعداد الشيخ، بل قد يكون ضعفه في ذلك التأثر، فإذا رأىٰ جماعة في مظاهرة من المظاهرات رأيته يندفع إليها بدون شعور ولا تفكير، وتجده أسرع ما يكون إلىٰ أولئك القوم وإن لم يفهم دعوتهم أو يتدبر غايتهم، ذلك أن حرارة الشباب فيه تدفعه إلىٰ أمثال ذلك العمل، ولو حاول أن يمنع نفسه منه ما استطاع إلىٰ ذلك سبيلًا، وسببه استعداده

وطبيعته، وما كان طريقه طبع الإنسان واستعداده لا يمكن أن يقاوَم بحال من الأحوال؛ ولذلك تجد المحاكمات في القضايا السياسية قائمة علىٰ الشبان دون الشيوخ، وعناصر المظاهرات والاجتماعات الشبان، والمناصرين لأرباب المبادئ المدافعين عنهم الشبان.

لذلك كان المؤمنَ مِنْ بني إسرائيل إذعانًا لمبادئ موسىٰ ﷺ: ﴿ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ لا شيوخ مُعمَّرون؛ لأنَّ الشأن في الشيوخ أن يكون إيمانها بعد إيمان الشبان، وأكثر ما يكون فيها الإيمان نفاقًا وتقية.

وانظر إلىٰ قوله: ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْۚ﴾؛ لتعلم أن أولئك الذرية التي آمنت بموسىٰ قد آمنت به وسيف فرعون مسلول علىٰ من يؤمن، وأحكامه العرفية مشهورة، وإيمانٌ في ذلك الظرف العصيب هو إيمانٌ لا يعبأ صاحبه بتهديد، ولا يعمل حسابًا لوعيد، وهو إيمان الواثق بالله المطمئن لوعده ووعيده، وما أشبه ذلك الإيمان الذي وقع من الذرية بإيمان السحرة الذين دعاهم فرعون لمناصرته فخذلوه، وطالبهم بأن يكون في صفه فعادوه، فهدّدهم بالحديد والنار، وقال لهم: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَاۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ [طه: ٧١، ٧٢] إيمان وصل إلىٰ القلب فلم تؤثِّر عليه المؤثرات، وتمكَّن من النفس فلم ينفع معه وعيد ولا تهديد، وهكذا العقائد متىٰ تمكَّنت لا يقف شيء أمامها، والعزائم متىٰ صحت تغلَّبت علىٰ كل قوة في هذه الحياة؛ لأنها من قوة الحق، وقوة الحق لا يقوىٰ عليها شيء.

ثم أراد أن يصور لنا جبروت فرعون، وفضل المؤمنين بموسىٰ في ظل هذه الأحكام، فقال: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾؛ ليرينا أنَّ فرعون كان متغلبًا علىٰ بني إسرائيل قاهرًا لهم في الأرض لا يستطيعون مقاومته، وأنه من المسرفين في الظلم المتجاوزين للحدود في الاستبداد بالناس.

(١) ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾. قال موسىٰ حين رأىٰ خوف قومه من فرعون وبطشه بهم: يا قوم إن كنتم آمنتم بالله

وصدقتم بوعده ووعيده= فكِلُوا أموركم إليه وحده، وأسندوها في العصمة من فرعون إليه لا إلىٰ غيره، فهو الذي يحميكم من كيده وينقذكم من بطشه، وقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾، أي: مستسلمين لقضاء الله منقادين له= فافعلوا ذلك، وليس هذا من تعليق الحكم بشرطين؛ فإنَّ المعلَّق بالإيمان وجوب التوكل عليه -تعالىٰ- فإنَّه المقتضي له، والمعلَّق بالإسلام وجوده؛ فإنَّ التوكل لا يتحقق بدونه.

ونظيره: إن أحْسَنَ إليك زيد= فأحسِنْ إليه إنْ قدرت عليه؛ فإنَّ الإحسان شرط في وجوب الإحسان، أما القدرة فهي شرط في الوجود، ولا غنىٰ لموسىٰ عليه السلام عن أن يربط قلوب الإحسان، أمَّا القدرة فهي شرط في الوجود، ولا غنىٰ لموسىٰ عليه السلام عن أن يربط قلوب قومه بربه، ويصل بينها وبينه في مثل هذه الظروف العصيبة؛ لأنَّ صلتها بخالقها تكسبها قوة وتثبتها علىٰ الحق، وتجعلها تستهين بكل ما ينالها من أنواع الإيذاء، وتشق لها طريقًا للخلاص من كيد فرعون، وكذلك يجب علىٰ المؤمنين إذا نابهم أمر في سبيل الحق وحلَّ بهم مكروه، أن يرجعوا إلىٰ ربهم وينيبوا إلىٰ خالقهم وبارئهم، فيطلبون منه المعونة علىٰ خصمهم وتوفيقهم للخلاص منه: ﴿فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾؛ لأنَّ القوم كانوا مخلصين ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ دعاء منهم أن لا يفتن بهم فرعون وقومه؛ لأنَّك لو سلطتهم علينا لوقع في قلوبهم أنَّا لو كنا علىٰ الحق لما سلطتهم علينا، فيصير ذلك شبهة في إصرارهم علىٰ الكفر، أولا تجعلنا مفتونين بهم فننصرف عن الدين الحق الذي قبلناه، كما قال: ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾.

ثم طلبوا من الله -تعالىٰ- أن ينجيهم برحمته منهم، وقد أجاب الله دعاءهم، ونجاهم وأهلك من كانوا يخافونه، وجعلهم خلفاء في أرضه: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أوحىٰ الله إلىٰ موسىٰ وأخيه أن يتخذوا بمصر بيوتًا لهم مباءة ومرجعًا لقومهم يرجعون إليها في العبادة والسكنىٰ، ويستوطنونها، وأن يجعلوا بيوتهم مساجد متوجهة نحو القبلة؛ قيل: إنَّهم أمروا بجعل بيوتهم مساجد خيفةً من

الكفرة؛ لئلَّا يظهروا عليهم فيؤذوهم ويفتنوهم عن دينهم، كما كان المسلمون عن ذلك الحال في أول أمرهم، وقيل أمروا بذلك لما أمر فرعون بتخريب مساجد بني إسرائيل ومنعهم من الصلاة، وقيل: إنَّ المراد من قوله: ﴿قِبْلَةً﴾ أن تكون متقابلة في مكان واحد حتىٰ يعتضد المؤمنون بعضهم ببعض، ويتعاونوا علىٰ الحق الذي أمرهم الله -تعالىٰ- به، ويسلي بعضهم بعضًا علىٰ الشدائد التي تنوبهم ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ لتذكروا بها سلطان ربكم عليكم ورحمته بكم، وتثبتوا بإقامة ذلك الركن علىٰ يقينكم وإيمانكم، ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ [المعارج: ١٩-٢٣].

ثم قال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وترك المبشَّر به لتذهب نفسهم كل مذهب فيما يبشَّرون به، والمراد بشرهم بأن العاقبة لهم وبرضوان الله ورحمته بهم.

(٥) ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ . . . إلخ، ذلك مظهر آخر من مظاهر جبروت فرعون يتجلىٰ في دعاء نبي الله موسىٰ عليه السلام بعد دعاء قومه؛ ليرينا كيف يرجع المكروب إلىٰ ربه، وينيب المضطر إلىٰ خالقه، فيقول موسىٰ مخاطبًا لربه: ربنا إنك أعطيت فرعون وملأ فرعون زينة، وهي ما يُتحلَّىٰ به من لباس أو حلي أو فرش أو أثاث، أو غير ذلك من زينة الحياة، وأعطيته أموالًا يتمتع بها في هذه الحياة، وقوله: ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ﴾؛ قيل هو دعاء بلفظ الأمر كقوله: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ﴾، ﴿وَٱشْدُدْ﴾ وذلك أنه لما عرض عليهم آيات الله عرضًا مكررًا، وردَّد عليهم النصائح زمنًا طويلًا، وحذرهم عذاب الله وانتقامه، ورآهم لا يزيدون علىٰ عرض الآيات إلا كفرًا، وعلىٰ النصيحة إلا نبوًا، ولم يبق فيهم مطمع له، وعلم بالتجربة أنه لا يجيء منهم إلا الغي والضلال، وأن إيمانهم كالمحال الذي لا يدخل تحت الصحة، أو علم ذلك بوحي من الله -تعالىٰ-= اشتد غضبه عليهم، وأفرط مقته وكراهته لحالهم، فدعا الله عليهم بما علم أنه لا يكون غيره، كما نقول: لعن الله إبليس وأخزىٰ الله الكفرة، مع علمك بأنه لا يكون غير ذلك، وليشهد عليهم بأنه لم يبقَ له فيهم حيلة، وأنهم لا يستأهلون إلا أن يخذوا، كأنه قال ليثبتوا علىٰ ما هم عليه من

الضلال، وليكونوا ضُلَّالًا، وليطبع الله علىٰ قلوبهم فلا يؤمنوا، وما عليّ منهم، هم أحق بذلك وأجدر، وهو يشبه دعاء نبي الله نوح علىٰ قومه؛ إذ يقول: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ [نوح: ٢٤] وهو دعاء يتفق وسنةَ الله -تعالىٰ- في الخلق، فكان دعاء موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ علىٰ ملأ فرعون من ذلك القبيل.

وقيل اللام في قوله: ﴿لِيُضِلُّواْ﴾ للتعليل، والمراد أنَّ الله -تعالىٰ- أعطاهم الزينة والأموال في هذه الحياة مع كفرهم ليستدرجهم بها، كما قال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨٢ وَأُمْلِي لَهُمْۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٢، ١٨٣].

والمراد أنَّ الله -تعالىٰ- يمهل هؤلاء المكذبين ويمد لهم في أسباب المعيشة كيدًا لهم ومكرًا بهم، لا حبًّا فيهم ونصرًا لهم، كما قال: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝٥٤ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٤-٥٦].

ونظيره ما ورد في حديث الشيخين من حديث أبي موسىٰ: «**إن الله ليملي للظالم، حتىٰ إذا أخذه لم يفلته**»[(١)].

وقيل اللام للعاقبة والصيرورة، والمراد أنَّ الله -تعالىٰ- أعطاهم تلك الزينة وذلك المال لتكون عاقبة أمرها أن يشكروه بها فكان عاقبة أمرهم أن بدلوا نعمته كفرًا، وشكره جحودًا.

ونظيره قول الله -تعالىٰ- في شأن موسىٰ وهو صغير: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًاۗ﴾ [القصص: ٨] لم تكن هذه غايةً لآل فرعون من التقاطه، وإنما التقطوه للتبني ورجاء النفع، كما قال: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص: ٩]، ولكن كانت عاقبة التقاطهم أن صار عدوًّا لهم، يبدد ملكهم، ويقضي علىٰ سلطانهم، وكذلك الحال في المال الذي متع الله به فرعون وقومه، أعطاه لهم ليشكروه فجعلوا عاقبة أمره أن كفروه وحاربوه، وهو تحسر من موسىٰ علىٰ أولئك الأقوام الذين صنعوا بنعم الله عليهم ما صنعوا.

---

(١) رواه البخاري: (٤٦٨٦).

عن أبي موسىٰ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله ليملي للظالم حتىٰ إذا أخذه لم يفلته**» قال: ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]. (عمرو)

﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ دعاء من موسىٰ ﷺ أن يطمس علىٰ أموال فرعون وملئه، والطمس: المحو وإزالة الأثر.

يطلب موسىٰ من ربه أن يطمس علىٰ أموال آل فرعون حتىٰ لا ينتفعوا بها في هذه الحياة، وحتىٰ لا يستعلوا بها علىٰ الناس؛ لأنَّ المال زينة لهذه الحياة وقوة لصاحبه يربط الناس به ويجمعهم حوله، والطمس علىٰ الأموال يصدق بإهلاكها، كما يصدق بالحيلولة بينهم وبينها، فيضلهم عن معادنها ومآخذها، أو عن طريق تحويلها إلىٰ عملة ينتفع الناس بها، ويصدق علىٰ حرمانهم منها كما حرم قدماء المصريين من ثروتهم التي أودعوها جوف الأرض لأمرٍ ما، ثم انتفع بها غيرهم ممن بعدهم.

وترىٰ كثيرًا من أثرياء الناس قد طمس الله علىٰ أموالهم، وحال بينهم وبين الانتفاع بتلك الأموال؛ لشحهم بها علىٰ المصالح، وبخلهم بها علىٰ الفقراء، فتراهم في غناهم فقراء، وفي عزهم بالمال أذلاء، وتجدهم بذلك المال معذَّبين، يواصلون الليل بالنهار في جمعه، تطير قلوبهم لضياع شيء منه كما قال: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٨٥].

أولئك إذا عاشوا= عاشوا عيشة الفقراء، وإذا ماتوا= ماتوا ميتة الأذلاء، يعيشون حراسًا علىٰ المال، محرومين من النعيم، فهل يشك أحد في أن ذلك الفريق من الناس قد طمس الله علىٰ أموالهم، فلم يكن لها أثر في الحياة يذكر، لا في دُور العلم، ولا في دور الصناعة، ولا في معاهد الدين، ولا في ملاجئ أصحاب العاهات والمُعوَزين، وأي فرق بين هؤلاء وبين من سلط علىٰ أموالهم الشهوات فبعثرتها، والأهواء ففرقتها، وصرفها أصحابها في محاربة الله -تعالىٰ- ونشر الفساد في الأرض.

نعم هناك فرق بين موقف البخلاء من مالهم وموقف الأشحاء، ذلك الفرق أن البخلاء كنزوه فلم يصرفوه، وقد يبذله من بعدهم في وجوه الخير.

أما أرباب الشهوات فبذلوه فيما يغضب ربهم، ويهدم صحتهم وكيانهم، ويعود علىٰ نفوسهم بالتدسية والشر، فهم شر من البخلاء، لأن موقفهم من الشر

إيجابي، أما البخلاء فموقفهم من المال سلبي، وكل من الفريقين مصداق لدعوة موسىٰ عليه السلام، قد طمس الله علىٰ ماله وحال بينه وبين الانتفاع به، إما بإمساكه وإما ببذله في وجوه الشر.

﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ اجعلها قاسية واطبع عليها حتىٰ لا تنشرح للإيمان ﴿فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ جواب للدعاء الذي هو ﴿ٱشْدُدْ﴾ أو دعاء بلفظ النهي ﴿حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ يعاينوه ويوقنوا به بحيث لا ينفعهم الإيمان إذ ذاك؛ لأنَه إيمان إلجاء وإكراه، لا إيمان عن رغبة واختيار.

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ دعوة موسىٰ وهارون، وقد أضاف الدعوة إليهما مع أن الداعي موسىٰ عليه السلام؛ لأنَّ هارون شريكه في الرسالة، ووزيره في الدعوة إلىٰ الله -تعالىٰ-، فدعوة أحدهما دعوة من الآخر.

وفيه دليل علىٰ إجابة دعوة المضطر والمظلوم، وبيان عاقبة الظلم والفساد، ودليل علىٰ بطلان قول من يقول: إن الدعاء لا ينفع الداعي، والآية نص في إجابة الدعاء بما طلبه موسىٰ عليه السلام، وهو نظير قول الله -تعالىٰ- لموسىٰ عليه السلام في سورة طه ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٣٦].

بعد أن طلب من ربه أن يشرح له صدره، وييسر له أمره ويحل عقدة من لسانه، ويجعل له أخاه هٰرون وزيرًا له يعاونه في الدعوة.

ولا أدري ماذا يقول المنكرون لإجابة الدعاء بنفس ما سأل السائل في مثل ذلك النص القاطع؟ ﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾ اثبتا علىٰ ما أنتما عليه من الدعوة وإلزام الحجة، فقد لبث نوح عليه السلام في قومه ألف عام إلا قليلًا ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: طريق الجهلة بعادة الله -تعالىٰ- في تعليق الأمور بالمصالح، كما قال لنوح عليه السلام ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦].

(٦) ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ تخطينا ببني إسرائيل البحر وقد نسب الله التخطي إلىٰ نفسه ليعلم أنه من عمل الله -تعالىٰ- لا من عمل موسىٰ عليه السلام.

وقد شرح الله ذلك التخطي في سورة طه فقال ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ

بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم ﴿٧٨﴾ وأضل فرعون قومه وما هدى﴾ [طـــــه: ٧٧-٧٩]، فكانت مجاوزة البحر ببني إسرائيل بوحي من الله وأمر منه كما كان فَرْق البحر حتىٰ صار فيه طريق يَبَس لا ماء فيه= بتدبيره وإرادته، وهي آية كبرىٰ من آيات الله مع نبيه موسىٰ.

وقوله: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ﴾ كأن فرعون لم يرضَ لبني إسرائيل أن يتركوا له المكان الذي هو فيه، ويفروا بدينهم إلىٰ جهة أخرىٰ، وقضىٰ عليه جبروته أن يتبعهم هو وجنوده ليحولوا بينهم وبين الهجرة، ويجازوهم علىٰ ذلك الفرار، وذلك منتهىٰ القسوة، وإمعان في الظلم، وكان يكفيهم لو كانوا مقتصدين في الظلم أن يدَعوا بني إسرائيل ليذهبوا حيث شاؤوا ويتركوا لهم وطنهم، ولكن الجبروت قضىٰ عليهم أن يحاربوهم حتىٰ في طريق الفار منهم؛ ولذلك عقبه بقوله ﴿بَغْيًا وَعَدْوًا﴾، أي: إنَّ فرعون وجنوده كانوا بغاةً عادين في تبعيتهم لبني إسرائيل.

ويرينا من جهة أخرىٰ أنَّهم ما تبعوهم ليصالحوهم علىٰ البقاء، ويضعوا حدًّا لهذه الخصومة الجائرة، وإنَّما تبعوهم للبغي والعدوان، وما دروا ما خبَّأه لهم القدر، وما دبر الله لهم في تلك الرحلة: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ هنالك آمن ذلك الجبار العاتي، وهنالك عرف أنَّ هناك قوة فوق قوته، وجبروتًا يتضاءل معه جبروته، وهنالك وقد أحاطت به أسباب الهلاك ومقدمات الموت= يؤمن بالإله الذي آمنت به بنو إسرائيل، ويؤكد ذلك الإيمان بقوله: ﴿وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾، فيرد عليه بقوله: ﴿آلْآنَ﴾، أي: أتؤمن الساعة في وقت الاضطرار حين ألجمك الغرق وأيست من الحياة؟

ينكر الله -تعالىٰ- عليه ذلك الإيمان القهري، ويريه أنه لا قيمة لإيمان ذلك حاله، وتلك أسبابه، إنَّما الإيمان الذي ينفع صاحبه هو الإيمان الذي صدر من صاحبه وهو مختار، طامع في الحياة آمل فيها، أما الإيمان عند حضور الموت، وحلول مقدماته وأسبابه فلا ينفع صاحبه؛ لأنَّه إيمان اضطراري لا فضل له فيه: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي

﴿تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٨]؛ لذلك ينكر الله -تعالىٰ- علىٰ فرعون إيمانه عند الغرق، ويقول له: ﴿ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ الضالين المضلين عن الإيمان والحق: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾، وقرئ: **(ننحّيك)** بالحاء: نلقيك بناحية ممَّا يلي البحر، ببدنك لا روح فيك، أو ببدنك كاملًا لم ينقص منه شيء: ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ علامة لمن وراءك من الناس وهم بنو إسرائيل، وكان في أنفسهم أن فرعون أعظم شأنًا من أن يغرق، وقيل عبرة لمن يأتي بعدك من القرون يظهر بها للناس عبوديتك ومهانتك، وأنَّ ما كان يدعيه من الربوبية باطل، وأنَّه مع ما كان فيه من عظم الشأن وكبرياء الملك آل أمره إلىٰ ما ترون لعصيانه ربه ﷻ، فما الظن بغيره من الضعفاء؟ أو لتكون عبرة لمن بعدك من الملوك فلا يجترئوا علىٰ مثل ما اجترأت عليه إذا سمعوا بحالك وهوانك علىٰ الله.

وقد سبق لنا في قصة موسىٰ من سورة **المائدة** الكلام علىٰ جثة فرعون الموجودة بدار الآثار وهل هي جثة فرعون صاحب موسىٰ أو غيره: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَـٰتِنَا لَغَـٰفِلُونَ﴾، أي هذه آيات الله يطلع الناس عليها ويريهم لها، وكان من حق الناس أن تنتفع بهذه الآيات، وتذكر بهذه العبر، ولكن الكثير منهم غافل عن آيات الله مُعرض عنها، لا يعيرها التفاتًا، ولا تصل إلىٰ قلبه.

فهذه آية الله في فرعون الذي ملأ الأرض ظلمًا وبطشًا، وادَّعىٰ أنه الرب الأعلىٰ، وقال لبني إسرائيل: ما علمت لكم من إله غيري، فأغرقه الله في اليم، وأخرج بدنه جثة هامدة لا تستطيع حراكًا، قد حيل بينه وبين الحياة، هذه آية الله في فرعون يجعلها عبرة لمن يأتي بعده من الملوك الظالمين، والحُكَّام المستبدين، الذين نسوا ربهم وخالقهم، واغتروا بسلطانهم الكاذب وعظمتهم الزائلة، وينجيه ببدنه ويبقيه دهورًا وأعوامًا ليعلم الناس أن هذه جثة فرعون، وجسد ذلك الطاغية الذي طبق الأرض بغيًا وظلمًا، هذه جثته استوت مع جثة أقل الناس عزمًا وأضعفهم سلطانًا، وأصبحت خاضعة لكل ما تخضع له الأبدان من صحة وفساد، وضعف وقوة، هذه آية الله في فرعون يُذكِّرنا بها القرآن، ويلهمنا بها التاريخ، ومع ذلك فالظالمون غارفون في ظلمهم، منغمسون في شهواتهم، لا يصدرون إلَّا

عن أهوائهم، ناسين أنَّ لهم ربًّا يرجىٰ ثوابه، ويخشىٰ بطشه وعذابه، وأنَّهم مهما بلغوا من سلطان، فلن يبلغوا ما بلغه عدو الله فرعون، وقد حلَّ به ما حل.

اللهم وفِّق المسلمين لفهم كتاب ربهم والاعتبار بماضي سلفهم، والانتفاع بسيرة المتقدمين منهم، وألهم الناس رشدهم حتىٰ ينتفعوا بعظات القرآن، ويسعدوا به كما سعد سلفهم الصالح، فلا يكون القرآن حجة عليهم بل يكون حجة لهم.

موسى عليه السلام

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ(١) اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ(٢) سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ(٣) مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ(٤) رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٥-٨].

* شرح وعبرة:

(١) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾، أي: كما أرسل الله -تعالىٰ- محمدًا لإخراج الناس من الظلمات إلىٰ النور، كما قال في أول السورة، كذلك يرينا أنه أرسل نبيه موسىٰ وسائر أنبيائه عليهم السلام لإخراج الناس من ظلم الضلال والجهل إلىٰ نور الهداية والعلم، وقوله ﴿أَنْ أَخْرِجْ﴾ معناه: أي أخرج؛ أي قلنا له ذلك، وأيام الله وقائعه التي وقعت علىٰ الأمم قبلهم قوم نوح وعاد وثمود، ومنه أيام العرب لحروبها

---

(١) وقائعه التي وقعت علىٰ الأمم قبلهم.

(٢) يكلفونكم ويبغونكم ما يسوؤكم ويذلكم من العذاب.

(٣) امتحان.

(٤) أعلمكم إعلامًا بليغًا.

وملاحمها كيوم ذي[(١)] قار ويوم الفِجار[(٢)] ويوم قِضة[(٣)] وغيرها، وعن ابن عباس أن أيام الله نَعماؤه وبلاؤه، فأما نعماؤه فإنَّه ظلل عليهم الغمام، وأنزل عليهم المنَّ والسلوىٰ، وفلق البحر لهم وما إلىٰ ذلك، وأما بلاؤه فإهلاك القرون: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾، أي: إنَّ في أيام الله عبرًا لكل رجل صبَّار علىٰ بلاء الله حين يسمع بما أنزل الله من البلاء علىٰ الأمم، **وصبَّار**: كثير الصبر، **وشكور**: كثير الشكر، وفي تذكيره بأيام الله عبرةٌ له، وتثبيت له علىٰ ما هو عليه، وقيل: أراد بصبَّار شكور المؤمن؛ لأنَّ الشكر والصبر من سجاياه: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ ... إلخ؛ أي: واذكر الوقت الذي قال فيه موسىٰ لقومه اذكروا نعم الله عليكم.

ثم أخذ يعدد النعم ليربيهم بها، ويربطهم بمُسديها وواهبها، وقوله ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ بعد قوله: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ مع أن تذبيح الأبناء من العذاب= إشارةٌ إلىٰ أنَّه نوع ممتاز من العذاب، فصار كأنه جنس آخر؛ لذلك عطف عليه بالواو ولم يجعل تفسيرًا له، وفي سورة البقرة: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ بدون واو؛ لأنَّه تفسير لما قبله، والتفسير لا يعطف علىٰ المفسر، وكان استبقاء النساء بلاءً واختبارًا؛ لأنَّ بقاءهن منفردات عن الرجال ليس عليهن من يقوم بأمرهن في النفقة والإعفاف= بلاء كبير.

(٢) ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾. من جملة ما قاله موسىٰ لقومه، كأنَّه قيل: واذكروا إذ قال موسىٰ لقومه اذكروا نعمة الله عليكم، وحين تأذَّن ربكم، ومعنىٰ تأذن ربكم: أذن ربكم، ونظير تأذَّن وأذن: توعَّد وأوعد، وتفضَّل وأفضل، ولا بُدَّ في (تفعَّل) من زيادة معنىٰ ليس في (أفعل)، كأنَّه قيل وإذ أذن ربكم إيذانًا بليغًا، تنتفي عنده الشكوك، وتنزاح الشُّبَه، فقال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾ ما خوَّلتكم من النعم ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ نعمة إلىٰ نعمة، ولأضاعفن لكم ما آتيتكم.

---

(١) يوم لبني شيبان انتصرت فيه العرب من العجم.

(٢) بكسر الفاء، كان بين قريش وقيس غيلان.

(٣) بكسر القاف، اسم لموضع كان فيه موقعة بين بكر وتغلب.

وانظر إلىٰ تأكيد الوعد بنون التوكيد في الفعل ولام القسم، فهو يعِد بذلك وعدًا مؤكدًا ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾ ما أنعمت به عليكم لأعذبنكم وأسلبنكم هذه النعم، ثم دلل علىٰ ذلك بقوله: ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾، فهو دليل الجزاء قد سدَّ مَسَدَّه، وذلك من بلاغة القرآن في الإيجاز.

وقد أكد ذلك الوعيد كما أكد الوعد، أكده باللام في الخبر، وتصدير الجملة بـ(إنَّ)، وجعل الجملة اسمية بدل أن تكون فعلية، ثم أكد تأكيدًا معنويًا؛ إذ أقام الدليل علىٰ مجازاته للكافرين بقوله: ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾، وأنَّ ما تأذن به موسىٰ قومه ليس خاصًا بهم، وإنَّما هو شأن عام لله -تعالىٰ- مع خلقه في كل الأزمان، سنته معهم أنهم إن شكروه زادهم، وإن كفروه عاقبهم.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾. يري نبي الله موسىٰ قومه أنَّ انتقامه من كافري نعمه لم يكن سببه وصول ضرر إليه من ذلك الكفران، ومكافأته للشاكرين لم تكن؛ لأنَّ نفعًا يصل منهم إلىٰ الله -تعالىٰ-، وأراهم أنَّهم إن كفروا هم وأهل الأرض جميعًا، فلم يبقَ علىٰ وجهها مسلم؛ فإنَّ الله -تعالىٰ- غني عن إيمانهم ﴿حَمِيدٌ﴾ مستحق للحمد بكثرة أنعمه وأياديه، أو أنَّ قوله: ﴿حَمِيدٌ﴾ إشارة إلىٰ أنَّ الله -تعالىٰ- محمود في غناه بخلاف غني المخلوق؛ فإنَّ فيه المحمود والمذموم، فالرجل الذي ينفع الناس بغناه، ويضعه في المكان الذي يستحق هو محمود الغنىٰ، والذي لا ينفع الناس بماله، أو يتعالىٰ عليهم بذلك المال، ويسخره لإذلالهم والتنكيل بهم، أو يحارب به ربه وخالقه، كل أولئك غناهم ليس بحميد، وإنَّما هو غنىٰ مذموم.

أمَّا غنىٰ الله -تعالىٰ- فلا يكون إلَّا حميدًا؛ لأنَّه لا يضعه إلَّا في المكان الذي يستحقه، ولا يصرفه لخلقه إلَّا علىٰ وفق الحكمة، وآية ذلك قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١]، فخزائن الرزق بيده وتحت سلطانه، ولكنَّه لا ينزلها للناس إلَّا بقدر، ولا يسلطهم عليها إلَّا بحساب، فمن عمل للدنيا وأحسن عمله لها حصل عليها أيًا كانت نحلته الدينية، كما أنَّ من عمل للآخرة كان حظه الحصول عليها، ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠].

وكما أنَّ خزائن الرزق بيده خزائن العلوم والمعارف بيده، يعطيها بمقدار، ويهبها لمن يعمل، يعطيها لمن يتعلم، ويبذل النفس والنفيس في تثقيف نفسه وترقية روحه، وكذلك سيادة الناس بعضهم بعضًا ربطها بسنن وعلقها بنواميس، لا يعطيها إلَّا لمن يستحقها ويأخذ الأسباب الطبيعية لها، كل ذلك من آثار غنىٰ الله -تعالىٰ-، وكونه حميدًا في ذلك الغنىٰ يهبه لمن يستحق ويعطيه لمن يستأهله.

موسى عليه السلام

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا
لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ(١) أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ
أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى(٢) ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾
إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ
أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ
فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ(٣) بِهَا
عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ
﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ
بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ
﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟
قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى
﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ
يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى
ٱلتَّابُوتِ(٤) فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً

---

(١) نار مقتبسة في رأس عمود أو فتيلة أو غيرهما.

(٢) اسم مكان.

(٣) أخبط بها ورق الشجر ليسقط فتأكله، وقرئ: (أهُس) بالسين. وهو: زجر الغنم وعُدّيَ بـ(على) لتضمينه معنى الإنحاء؛ أي منحيًا ومقبلًا عليها.

(٤) صندوق، واليمّ: البحر، وهو نيل مصر.

مِنِّي وَلِتُصْنَعَ[1] عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ
إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ[2] فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ
فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ[3] يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ[4] لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ
وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا[5] فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا
لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ[6] عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا
تَخَافَآ ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ
أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [طه: ٩-٤٨].

*** شرح وعبرة:**

(١) ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ ... إلخ. بعد أن أرىٰ نبيه محمدًا ﷺ أنه ما أنزل عليه القرآن ليشقىٰ به، ويتعب بفرط تأسفه علىٰ قومه، أراد أن يسليه بقصة موسىٰ مع قومه ليتأسىٰ به في تحمل أعباء الرسالة، ومؤاساة الشدائد، حتىٰ ينال عند الله -تعالىٰ- الفوز والمقام المحمود، فقال: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾، وهو استفهام في الصورة، ولكنَّه يقصد منه تقرير الجواب في قلبه.

وهذه الصيغة أبلغ في ذلك، كما يقول المرء لصاحبه: هل بَلَغَك خبر كذا؟ فيتطلع السامع إلىٰ معرفة ما يوحىٰ إليه، ولأنَّ القصة يُراد منها تسلية الرسول ﷺ ختمها بقوله ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾، أي كذلك القص الذي يثبت فؤادك ويقوي يقينك بالله وجزائه، نقص عليك من أنباء ما سبقك من الأجيال.

أمَّا حديث موسىٰ الذي يريد أن يقصه عليه فهو أنَّه رأىٰ نارًا بعد أن قضىٰ الأجل الذي اتفق عليه هو وصهره، كما قال في سورة القصص: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى

---

(١) تربىٰ تحت رعايتي.

(٢) خلصناك من محنة بعد محنة.

(٣) مقدار من الزمان يوحىٰ فيه للأنبياء غير متقدم ولا متأخر.

(٤) استخلصتك واصطفيتك.

(٥) تُقَصِّرا.

(٦) يعاجلنا بالعقاب.

ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا﴾ [القصص: ٢٩]، والإيناس: الرؤية، ولذلك عبر في هذه السورة بقوله: ﴿رَءَا﴾، ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ﴾ أقيموا في مكانكم ﴿إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾، وكانوا في حاجة إلىٰ الدفء بالنار، كما كانوا في حاجة إلىٰ من يهديهم؛ لأنَّهم ضلوا الطريق؛ ولذلك قال في «**القصص**»: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾.

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ⑪ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾؛ فهو وحي رحماني، ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾، ولعل سبب أمره بالخلع أنَّ نعليه كانا من نوع قذر لا يليق بموسىٰ ﷺ أن يلبسه في ذلك المكان المقدس، روي أنهما كانتا من جلد حمار ميت غير مدبوغ، وهو مروي عن علي ﷺ، وقول مقاتل والضحاك وقتادة والسدي كما روي في بعض الأحاديث أن جبريل ﷺ جاء محمدًا ﷺ وهو يصلي فأخبره أنَّ في نعله أذىٰ، فخلعه في صلاته واستمر فيها، فلمَّا رآه أصحابه خلعوا نعالهم، فسألهم لماذا خلعتم؟ قالوا: رأيناك خلعت فخلعنا، فقال: إنَّ جبريل ﷺ أخبره أنَّ في نعله أذىٰ فخلعه، فلا حق لكم في الخلع(١)، ولذلك روىٰ **البخاري** عن **أنس** ﷺ أن النبي ﷺ كان يصلي في نعله(٢).

فقصة موسىٰ ﷺ وأمر الله له بخلع نعله لا تصلح حجة لمن ينكر الصلاة في النعال، وهي ثابتة عن رسول الله ﷺ حتىٰ قال بعض السلف: إنَّها من الزينة التي أمر الله باتخاذها عند كل مسجد، وما من مذهب من مذاهب الأئمة إلَّا وفيه قائلون بجواز الصلاة في النعال، واعتبرها بعض الفقهاء من السنن.

وكان الصدر الأول من الصحابة والتابعين يصلون في نعالهم إلىٰ أن اتخذت البُسُط في المساجد فتعود الناس أن يخلعوا نعالهم عند دخول المسجد، وقد

---

(١) أن أبي سعيد الخدري، قال: بينما كان رسول الله ﷺ يصلي بأصحابه إذ خلع نعليه فوضعهما عن يساره، فخلعوا نعالهم، فلما قضىٰ صلاته، قال: «**ما حملكم علىٰ إلقائكم نعالكم؟**» قالوا: رأيناك خلعت فخلعنا، [سورة ص:٨٦٨] قال: «**إن جبريل أتاني -أو أتىٰ- فأخبرني أن فيهما أذىٰ -أو قذرا-، فإذا جاء أحدكم المسجد، فليقلب نعليه، فإن رأىٰ فيهما أذىٰ، فليمط وليصل فيهما**». رواه أحمد: (١١٨٧٧)، والدارمي: (٢/ ٢٦٧)، (١٤١٨). (عمرو)

(٢) عن سعيد أبي مسلمة، قال: سألت أنسا: أكان النبي ﷺ يصلي في نعليه؟ قال: «**نعم**». رواه البخاري: (٥٨٥٠). (عمرو)

اتخذ الجهلاء تلك العادة دينًا، وأصبحوا ينكرون على من يصلي في نعله، ويعدونه مبتدعًا أو متطرفًا، ويناصرهم على ذلك بعض العلماء الجامدين، وإنَّما البدعة في نسيان هذه السنة التي كان عليها السلف الصالح، والحيلولة بين الناس وبين يسر الدين وسهولته في مثل ذلك العمل.

وفي اعتقادي أنَّ الدين لو بلغ للناس على طبيعته التي كان عليها في عهد رسول الله ﷺ وعهد أصحابه وتابعيه، ما تبرم له الناس تبرمهم له الآن مثقلًا بتشديدات الفقهاء، وتنطعات بعض المؤلفين، ولله درّ الإمام مالك؛ إذ يقول: «لن يصلح أمر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها»[1]، وقد جرَّبنا على كثير من متمديني هذا العصر الترحيب بتعاليم الدين حين تبلغه على بساطتها وسهولتها، وفي الأمثال: «عدوّ عاقل خير من صديق جاهل».

نعم إنَّ أولئك المتشددين أصدقاءٌ للدين جاهلون، لا يعرفون كيف يحببون الناس فيه، ويزيحون من طريقهم العقبات والعراقيل.

(٢) ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾ اصطفيتك لرسالتي، واجتبيتك لتكون سفيرًا بيني وبين خلقي، وما أغلى هذه الكلمة التي خوطب بها نبي الله موسى، ولو كانت من عظيم من عظماء الدنيا أو ملك من ملوكها لكان لها قيمتها في نفس رجل قيلت له، فكيف وقد قيلت من ملك الملوك خالق السماوات والأرض: ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾.

بدأ الله بتوحيده، ثم عقبه بطلب عبادته، وخص الصلاة لأهميتها، وقوله: ﴿لِذِكْرِيٓ﴾، أي: لتذكرني بها، ثم عقب ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾، وقوله: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾، قال أبو مسلم: أكاد بمعنى أريد، وهو كقوله: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾.

ومن أمثالهم المتداولة: «لا أفعل كذا ولا أكاد»، أي: ولا أريد أن أفعله ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ متعلق بقوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾.

---

(١) انظرها في الشفا: (٢/ ٨٨)، اقتضاء الصراط المستقيم: (٢/ ٧٦٢-٧٦٣).

بيَّن لنا أنَّ الساعة قد أعدّها الله -تعالىٰ- للجزاء، فقد تضمنت الجملُ المذكورة **[أولًا]** الدعوة إلىٰ توحيد الله -تعالىٰ- **[ثانيًا]** الدعوة إلىٰ عبادته **[ثالثًا]** الإخبار بالساعة وأنها آتية لا ريب فيها ليجزىٰ كل أحد بما قدم من الأعمال.

﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾، أي: لا يصدنك عن ذكرها ومراقبتها أو عن تصديقها، والمراد كن شديد الشكيمة صلب المِعْجَم[1] حتىٰ لا يلوح منك لمن يكفر بالبعث أن يطمع في صدك عما أنت عليه؛ لأنَّ من لا يؤمن بالآخرة متبع لهواه، وأنك إن فعلت ذلك هلكت مع الهالكين.

(٣) ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ سأل موسىٰ عما بيمينه وهو يعلم ليجيبه موسىٰ بأنها عصاه فيها من الفوائد كيت وكيت، حتىٰ إذا تأكد موسىٰ من ذلك كله أمر بإلقائها، وتعقيب الله ذلك الإلقاء بجعلها حية، ولو قلبها حية قبل أن يسأله عنها، ويتأكد من حقيقتها قبل الانقلاب= لتشكك موسىٰ ﷺ في أنَّ ذلك الذي صار حية هو العصا التي كانت بيده، أو شيء آخر؟ كما تقول لصاحبك: ما الذي في يدك؟ فيقول لك هو درهم، فتقول له سأحوله إلىٰ دينار؛ تريد بذلك القول أن يتأكد منه ومن حقيقته حتىٰ لا يشك فيه بعد التحويل: ﴿فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾، والحية: اسم جنس يقع علىٰ الذكر والأنثىٰ، والصغير والكبير، أما الثعبان فهو العظيم من الحيات، والجانّ الدقيق.

وقد عبر عن الحية مرة بالثعبان، ومرة بالجانّ للإشارة إلىٰ أنها كان لها أطوار مختلفة، فتبدو أولَ أمرها صغيرة دقيقة، فصحَّ أن يعبر عنها بالجان، ثم تتورم ويتزايد حجمها حتىٰ تصير ثعبانًا، أو للإشارة إلىٰ أنها كانت في شكل الثعبان من جهة عِظَمها، وفي خفة الجانّ وسرعته، ولذلك قال: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ [القصص: ٣١]، وقوله: ﴿تَسْعَىٰ﴾ تمشي بسرعة وخفة. ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾.

أمر الله نبيه موسىٰ أن يأخذ العصا وقد ذعر منها؛ لأنَّه لم يتعود ذلك المنظر الذي تنقلب فيه العصا حية، فأمره الله -تعالىٰ- بأخذها، وألا يخاف من إيذائها له، ووعده أن يعيدها عصا كما كانت ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ

---

(١) المِعْجَم ك: مِقْعَد؛ يقال رجل صلب المِعْجَم: عزيز النفس.

﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ والجناح: الجنب، استعير من جناح الطائر، وهو المراد بإدخال اليد في الجيب كما ورد في سورة **النمل**.

ومجموع الآيات يدل علىٰ أنَّه أمر بأن يضم يده إلىٰ جانبه واضعًا عليها ذراعه، وأن يكون ذلك الضم بواسطة إدخال يده في شق قميصه، وقوله: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾، أي: من غير آفة تتقزز منها النفوس، كالبرص أو غيره من الآفات ﴿ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾ علامة أخرىٰ علىٰ صدقك بعد آية العصا ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾، أي: خذ هذه الآية بعد آية العصا لنريك من دلائل قدرتنا قبل أن تدعو فرعون، فتكون واثقًا من صدقك، مؤمنًا بأن الله معك.

وقد اختص موسىٰ ﷺ بقلب العصا حية له، وإخراج يده بيضاء بعد إدخالها تحت إبطه دون غيره من الرسل؛ لأنَّه يعلم من بطش فرعون وجبروته ما ليس لغيره من أقوام الرسل، فكان من الحكمة أن يثبت الله قلب موسىٰ قبل أن يرسله إلىٰ فرعون، ويطمئن نفسه إعدادًا له لتلك الدعوة الشاقة، وهي دعوة فرعون وملئه للإيمان، ودعوتهم لأن يسلموا بني إسرائيل لنبي الله موسىٰ، ويُعفوهم من بطشهم وعذابهم، ولذلك قال بعد هذا الإعداد لموسىٰ ﷺ: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾، والطغيان: مجاوزة الحد، وهل هناك طغيان فوق قوله لبني إسرائيل: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، وقوله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٣٨، ٣٩].

﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ ... إلخ. لما طلب الله -تعالىٰ- إلىٰ موسىٰ أن يتوجه إلىٰ فرعون يدعوه وقال له في أسباب الدعوة ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ عرف موسىٰ ﷺ أهمية الأمر وصعوبته، **فطلب من ربه استعدادًا لذلك العمل أمورًا**:

أولها: أن يشرح له صدره، وشرح الصدر: بسطه بنور إلهي، وسكينة من جهة الله -تعالىٰ-، ولا شكَّ أن شرح الصدر قوّة معنوية يستعين بها نبي الله موسىٰ علىٰ أداء تلك المهمة الكبرىٰ فإنه مدعاة للصبر واحتمال المشاق، والإقبال علىٰ الدعوة بهمة ونشاط، أما ضيق الصدر والسآمة فهو من أسباب الضعف، وخور العزيمة والملل.

ثانيها: أن ييسر له أمره، بتوفيق الأسباب، ورفع الموانع والعقبات.

ثالثها: أن يحل عقدة من لسانه ليفهموا قوله، ولا شكَّ أنَّ قوة البيان يحتاجها الرسل، وينتفعون بها، وقد اعترف نبي الله موسىٰ وهو يطلب من ربه مؤازرة أخيه هارون بأنَّ أخاه أفصح منه لسانًا، ولعل الآية تشير إلىٰ أن عقدة لسان موسىٰ عليه السلام الإجمال الذي كان في عبارته، وقد علل ذلك بقوله: ﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾، والفقه: الوصول إلىٰ أعماق القول والتغلغل فيه، ولا شكَّ أنَّ القول البيِّن الواضح أعوَن علىٰ ذلك.

رابعها: أن يجعل له وزيرًا من قرابته هو هارون أخوه، **واشتقاقه**: من الوِزر لأنَّه يتحمل عن الملك أوزاره ومؤنه، أو: من **الوزَر** -بفتح الزاي- وهو اللجأ؛ لأنَّ الملك يعتصم برأيه ويلجأ إليه في أموره، أو: من **المؤازرة**، وهي المعاونة ﴿اشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي﴾.

يطلب من الله أن يشد به أزره وقوته، ويشركه في أمر الرسالة، وفيه بيان لحكمة اختيار الوزير من قرابته؛ لأنَّ الشأن في القريب أن يكون حريصًا علىٰ نجاح قريبه، فلَمْ يطلبه لمحاباة أو إيثار بذلك المنصب؛ لأنَّه منصب محفوف بالأخطار، محاط بالأشواك، ولعل السر في قول بعض الزعماء، وقد وَلِيَ الوزارة: «أريد أن أجعلها كذا لحمًا ودمًا» أنه يريد ما أراده نبي الله موسىٰ من وزارة أخيه هارون، فهو حسن القصد طيب النية، وإن كان خصومه السياسيون قد أخذوا عليه تلك الكلمة، التي سبقه إليها نبي معصوم، ورسول من خيرة الرسل، والأمور بمقاصدها.

وقوله: ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ بيانٌ من نبي الله موسىٰ لغايته من تلك المؤازرة، وهي غاية شريفة ومقصدٌ جليل، لم يرد بها أن يؤازره علىٰ إذلال الناس وظلمهم، أو يعاونه علىٰ التنكيل بهم وتمكين قدم الغاصب في بلادهم، وإنَّما طلب أخاه وزيرًا له لتكون الغاية من تلك الوزارة أن يسبحوا الله كثيرًا، ويذكروه بما يليق به ذكرًا كثيرًا فيعبدوه كما ينبغي، ويوحِّدوه كما يجب، ويشكروه علىٰ ما وهبهم من نعم، وما أسداهم من فضائل، وذلك ما ينبغي أن تكون عليه

الوزارات في كل زمان ومكان، يراد منها التعاون علىٰ البر والتقوىٰ، ولا يراد بها التعاون علىٰ الإثم والعدوان.

ولكن المستعمرين في زماننا هذا أصبحوا يعمدون في بعض الظروف إلىٰ أحط الأمة أخلاقًا، وأمعنها في الرذيلة وأبعدها عن الخلق الفاضل والحياء؛ يعمدون إلىٰ ذلك الصنف من الأمة فيعطونه الحكم، ويمكِّنونه من السلطان والنفوذ، فلا يجمع معه من الوزراء إلَّا من فسد ضميره، وغاض منه معين الحياء، ولا همَّ له إلَّا دراهم يجمعها، وسلطة يتمتع بها، وفي سبيل تلك العظمة الكاذبة، وذلك النفوذ المستعار، يعطي الغاصب بكلتا يديه، ويمكن له في الأرض، ويذهب بمصالح البلاد ومرافقها إلىٰ هاوية الفساد والخراب، هذه وزارة الغاصب المستبد، وأحكام المستعمرين في الأرض بواسطة رجال من الأمة المغصوبة المهضومة، أساسها التعاون علىٰ الإثم والعدوان واضطهاد الأبرياء والتضييق علىٰ الأحرار، وتبديد أموال الدول في الشهوات والأهواء، وتخريبها من المصانع النافعة والعلوم المفيدة.

أمَّا وزارة الرسل، أما حكومة خِيرَة المصلحين في الأرض، فهي وزارة أساسها الحق ليثبت ويبقىٰ، وعمادها التعاون علىٰ البرّ وكل ما يعود علىٰ الناس بالخير في دينهم ودنياهم، وشتان ما بين الوزارتين: وزارة الحق، ووزارة الباطل، أو وزارة حزب الله وجنده، ووزارة المستعمر وذَنَبه.

(٤) ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾، أجاب الله دعاءك فشرح لك صدرك، ويسر لك أمرك، وحلّ عقدة من لسانك، وجعل أخاك هارون وزيرًا لك، والسؤل: المسؤول، وفي الآية أنَّ الله -تعالىٰ- قد أجاب موسىٰ بنفس ما طلبه، وهي دليل علىٰ نفع الدعاء، ثم أراد أن يريه أن إجابته لما طلب ليست أول فضل لله -تعالىٰ- عليه، فقال: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ﴾ ألهمها ما ألهمها.

وقد أبهم في الموحىٰ به للإشارة إلىٰ أهميته؛ لأنَّه كان نجاةً لموسىٰ من كيد فرعون؛ إذ كان من عادته أن يذبح الأبناء، فلأجل أن ينجو ذلك المولود الذي علم الله أنه سيكون نبيًّا ألهم أمه ما ألهم، ثم بيَّن ذلك بقوله: ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى

﴿ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾، ولم يكن إلهامه لأم موسىٰ؛ لأنَّها من الأنبياء؛ لأنَّهم لا يكونون إلَّا رجالًا كما قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [يوسف: ١٠٩]، بل كان وحيه لها كوحيه إلىٰ النحل أن تتخذ من الجبال بيوتًا ومن الشجر، ألهمها الله أن تجعل له صندوقًا فتضعه فيه، وأن تلقي بذلك الصندوق في نيل مصر، وقال لها: ﴿وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ﴾ علىٰ ولدك؛ لأنَّه سيردّه إليها بتدبيره وحكمته، وألهمها أنه سيبقىٰ ويكون رسولًا من رسل الله، ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾، أي: إنَّ الله -تعالىٰ- قال لليم ألقه بساحل النيل، ومتىٰ قال للشيء كن فإنَّه يكون، وقوله الله -تعالىٰ- لليم هو قولٌ كَونِيّ، لا قول لفظي، ونظيره: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، وقوله: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾ [هود: ٤٤]، ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ جواب الأمر بالإلقاء، وتكرير العدو للمبالغة، والإشعار بأن عدواته له مع تحقُّقها لا تؤثر فيه ولا تضره، بل تؤدي إلىٰ المحبة؛ فإنَّ الأمر بما هو سبب للهلاك من قذفه في البحر، ووقوعه في يد عدو الله -تعالىٰ- وعدو موسىٰ يشعر بأنَّ هناك لطفًا خفيًّا مندرجًا تحت قهر صوريّ ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾، أي: أحببتك ومن أحبَّه الله فحسبه تلك المحبة، فقوله: ﴿مِّنِّى﴾ متعلق بقوله: ﴿وَأَلْقَيْتُ﴾، وقيل معناه: زرعت محبتك وأنت صغير في قلوب الناس بحيث لا يكاد يصبر عنك من رآك، ولذلك أحبك عدو الله فرعون وآله، ولذلك جاء في سورة القصص: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص: ٩]، ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ متعلق بـ: ﴿وَأَلْقَيْتُ﴾؛ أي: ألقيت عليك محبة آل فرعون ليتعطف عليك، ولتربَّىٰ بالحنو والشفقة بمراقبتي وحفظي، أو علة لمحذوف؛ أي: ولأجل أن تصنع علىٰ عيني وتحت إشرافي فعلت ذلك: ﴿إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ﴾.

بعد أن حرَّم الله عليه المراضع فلم يقبل لهم ثديًا، وحزن لذلك آل فرعون جاءت أخته التي كانت تقصُّه وتتَّبع أثره ﴿فَتَقُولُ﴾ لهم في صفة الناصح ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾.

هذه منة يمتن الله -تعالىٰ- بها علىٰ نبيه موسىٰ، ويريه أن الذي حفظه وهو في البحر ثم حفظه وهو في أحضان أعداء الله وأعدائه، وسخَّر له أخته لترشد آل فرعون إلىٰ كافل له، بعد أن امتنع عن الرضاعة ثم رده إلىٰ أمه بعد ألمها الشديد، وحزنها البالغ.

إنَّ الذي صنع به ذلك كله جدير بأن يحفظه من فرعون وبطش فرعون، وهو رجل راشد كبير، فهذه القصة هي تأنيس لنبي الله موسىٰ، ثم عقبها بقصة أخرىٰ، فقال: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾.

وقد بيَّن الله قصة القتل في سورة القصص وسنشرحها في مكانها بمشيئة الله -تعالىٰ-، والمراد منها ههنا أن الله -تعالىٰ- يمتنّ عليه بالتنجية من غمِّ القتل الذي وقع منه خطأً، وتخليصه تخليصًا من الفتن ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾[1] كلها شدائد وفتن ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ﴾ علىٰ مقدار من الزمن يُبعث في مثله الرسل، ليس بالمتأخر، ولا بالمتعجل، ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ أعددتك لرسالاتي، وهيَّأتك لخدمتي.

(٥) ﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾. بعد أن أجاب موسىٰ إلىٰ ما طلب، وهيَّأه للرسالة أمره أن يذهب هو وأخوه هارون ﷺ مؤيدين بآيات الله -تعالىٰ- ودلائل ربوبيته، ونهاهما أن يقصرا في ذكر الله -تعالىٰ-، لأن ذكره يزيدهما قوة إلىٰ قوتهما، ثم أعاد ذلك الأمر بقوله: ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾، والطاغي لا غنىٰ له عن دعوة إلىٰ الله -تعالىٰ- تقيم عليه الحجة، وتقطع عذره أمام الله -تعالىٰ-، وقد كرَّر نسبة الطغيان إليه لنعلم أنَّ الحاجة إلىٰ التذكير تتأكد متىٰ كان هناك طغيان ومجاوزة للحد ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا﴾ بيان لآداب الدعوة وما ينبغي أن تكون عليه.

وقد بيَّن الله القول الليِّن في سورة النازعات: ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَىٰ أَنْ تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ١٨، ١٩]؛ لأن ظاهره الاستفهام والمشورة، وعَرْض ما فيه الفوز العظيم، وقوله: ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾، أي: اذهبا إلىٰ فرعون علىٰ رجائكما وطمعكما في أن يتذكر أو يخشىٰ ربه، وباشرا الأمر مباشرة

---

(١) هي في بلاد الحجاز، ممَّا يلي الشام، إلىٰ الجنوب من القصير، من الجهة المقابلة.

من يرجو ويطمع أن يُثمِر عمله، ولا يخيب سعيه، والغاية من إرسالهما إليه مع العلم بأنه لن يؤمن إلزام الحجة، وقطع المعذرة ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ [طه: ١٣٤].

وإذا كان الله قد أمر موسىٰ وأخاه أن يذهبا إلىٰ فرعون علىٰ رجاء منهما فيه، فذلك لأنَّه ينبغي لكل واعظ أن يتجه إلىٰ من يعظ علىٰ ذلك الرجاء؛ لأنَّه إذا يئس لا يستطيع أن يعظ، وقد علم الله أن فرعون سيصر علىٰ إبائه، ويبقىٰ علىٰ كفره، ولكنه مع ذلك أمر رسله بالذهاب إليه، وإقامة الحجة عليه، وأمرهما بأن يذهبا إليه راجين لا يائسين، لتكون هذه سنة في الوُعَّاظ والمرشدين، وقاعدة في الإصلاح والمصلحين، لا ينبغي لواعظ أن ييأس، ولا لمصلح أن يَدَع الإصلاح.

ومن ناحية أخرىٰ يبين الله لنا أن من آداب الدعوة أن تكون لينة لا غليظة، ولا سيما مع المتكبرين؛ لأنَّ الإغلاظ عليهم لا يزيدهم إلا تكبُّرًا وعُتُوًّا ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ مع ذلك الإعداد الذي أعد الله له موسىٰ ومع إجابته دعاءه، وبيان أنه -تعالىٰ- لطيف به من أول نشأته، ومنان عليه في تربيته.

مع ذلك كله قال موسىٰ وهارون حينما كلِّفا بالذهاب إلىٰ فرعون: ربنا إننا نخاف من فرعون أن يحول بيننا وبين الرسالة بالمعاجلة بالعقوبة، أو أن يتجاوز الحدَّ معنا في الإيذاء، وقد كانت مهمتهما من أشق مهمات الرسل، فقد كان عدوهما عنيدًا، وهو فرعون وملأ فرعون.

وقد استُعْبِد الشعب الإسرائيلي وطالت عليه مدة الاستعباد حتىٰ أَلِفَ الذلَّ والهوان، فكان إنقاذه من مخالب فرعون والحالة هذه= من أصعب الأمور وأشقها ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ معكما بالمعونة والحفظ، أسمع وأرىٰ ما يجري بينكما وبينه من قول وفعل، لأنكما نوابي وحلفائي في الأرض، وقد أرسلتكما لإنفاذ كلمتي وحفظ ديني، والإصلاح في الأرض، فلا أدعكما لجبارٍ كفرعون، بل أرعاكما وأحافظ عليكما، وليس ذلك الوعد خاصًا بنبي الله موسىٰ

وأخيه هارون، بل هو عام لكل من يبلِّغ دعوته ويحفظ عهده ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣]، وليس معنىٰ كتابة النصر لرسل الله وجنده أنه لا ينالهم من أعدائه أذىٰ، ولا يصيبهم سوء، بل النصر لحزب الله إقامته الحجة علىٰ حزب الشيطان، بحيث لا يتركون هذه الحياة إلا بعد وضوح الحق واختفاء الباطل.

وقد يلجأ المبطل إلىٰ القوة المادية فيقتل بعض أنبياء الله، ويعذب بعضًا آخر، بعد أن تعوزه الحجة، وينقصه البرهان والدليل، فيكون التجاؤه إلىٰ التعذيب والتقتيل عنوان خذلانه، وعلامة علىٰ نصر أعدائه، ورُبَّ معذب أو قتيل كتب الله له النصر، ولدعوته الظفر والتأييد، ورُبَّ جبَّار أو عنيد كتب الله عليه الذل وسجل عليه الخذلان، فكان الأول حيًّا في موته، منتصرًا في قبره، وكان الثاني ميتًا في حياته، مكبوتًا في جبروته وكبريائه، فهو نصر معنوي، يظفر فيه الحق بالباطل، وتظهر فيه الحجة علىٰ التقليد، والبرهان علىٰ الشبهة، وقوة الروح علىٰ قوة المادة، وقد يكون مع النصر المعنوي نصر مادي، كإنجاء الله موسىٰ ومن معه من الغرق، وإغراق فرعون وجنوده فرعون، وكإنجاء الله إبراهيم من النار بعد أن دبروا له ما دبروا، وصنعوا له ما صنعوا، وإنجاء نبينا محمد ﷺ من تدبير قريش قتله، كل ذلك نصر مادي معه نصر معنوي.

﴿فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡ﴾، رسولان من قبل الله -تعالىٰ- جئنا لإنقاذ بني إسرائيل من بطشك وظلمك، وهو غرض كبير من أغراض الرسل أن ينقذوا الناس من أن يظلم قويُّهم ضعيفَهم، أو يستعبد كبيرُهم صغيرَهم.

من أهم أغراضهم أن يوزعوا العدالة علىٰ الناس علىٰ السواء، ويتمتع الجميع بحقه الطبيعي في هذه الحياة، وقد عُني القرآن الكريم بدعوة الناس إلىٰ العدل، وتنفيرهم من الظلم، ولم يقف عند ذلك الحد، بل نهىٰ الناس أن يقتربوا من الظالم ﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ

﴿أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣]، ولو لم يكن من آثار التدين سوىٰ الإقلاع عن الظلم، وإنقاذ الإنسان من مخالب الإنسان لكفىٰ.

جاءت الرسل لذلك الغرض وأمثاله ولكن الناس غفلوا عن ذلك، فأخذ بعضهم يظلم بعضًا، ولا سيما رجال الحكم، أخذوا يستعبدون الناس، ويعيدون لهم عهد فرعون مع الشعب الإسرائيلي فلا يقيمون لحقوق الناس وزنًا، ولا يعملون لربهم وخالقهم حسابًا، فصاروا خلفاء لفرعون وجنودًا له، وسيحل بهم من الغضب والمقت ما حلَّ بفرعون ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ ببينة وبرهان يدل علىٰ صدقنا في دعوىٰ الرسالة ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ وعدٌ مِنْ قِبَلِهما لمن آمن وصدَّق بالسلامة له من عقوبة الدنيا والآخرة، وفيه ترغيب له في اتباعهما علىٰ ألطف وجه وأحسنه ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ ولم توجَّه كلمة العذاب إليه تلطيفًا للخطاب؛ لأنهما أُمِرا أن يقولا له قولًا ليِّنًا(١).

---

(١) قال ابن القيم: «وأما قول موسىٰ: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾، فليس بسلام تحية، فإنه لم يبتدئ به فرعون، بل هو خبر محض، فإن من اتبع الهدىٰ له السلام المطلق دون من خالفه، فإنه قال له: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾. أفلا ترىٰ أن هذا ليس بتحية في ابتداء الكلام ولا خاتمته وإنما وقع متوسطا بين الكلامين إخبارًا محضًا عن وقوع السلامة وحلولها علىٰ من اتبع الهدي.

ففيه استدعاء لفرعون وترغيب له بما جبلت النفوس علىٰ حبه وإيثاره من السلامة، وأنه إن اتبع الهدىٰ الذي جاءه به، فهو من أهل السلام، والله تعالىٰ أعلم.

وتأمل حسن سياق هذه الجمل، وترتيب هذا الخطاب، ولطف هذا القول اللين الذي سلب القلوب حسنه وحلاوته مع جلالته وعظمته.

كيف ابتدأ الخطاب بقوله: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ وفي ضمن ذلك: إنا لم نأتك لننازعك ملكك ولا لنشركك فيه، بل نحن عبدان مأموران مرسلان من ربك إليك، وفي إضافة اسم الرب إليه هنا دون إضافته إليهما استدعاء لسمعه وطاعته وقبوله، كما يقول الرسول للرجل من عند مولاه، أنا رسول مولاك إليك وأستاذك وإن كان أستاذهما معا، ولكن ينبهه بإضافته إليه علىٰ السمع والطاعة له.

ثم إنهما طلبا منه أن يرسل معهما بني إسرائيل ويخلي بينهم وبينهما ولا يعذبهم، ومن طلب من غيره ترك العدوان والظلم وتعذيب من لا يستحق العذاب فلم يطلب منه شططًا ولم يرهقه من أمره عسرا، بل طلب منه غاية النصف، ثم أخبره بعد الطلب بثلاث إخبارات أحدها قوله تعالىٰ: ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ فقد برئنا من عهدة نسبتك لنا إلىٰ التقول والافتراء بما جئناك به من البرهان والدلالة الواضحة، فقد قامت الحجة، ثم بعد ذلك للمرسل إليه حالتان: إما أن يسمع ويطيع فيكون من أهل الهدىٰ، والسلام علىٰ من اتبع الهدىٰ، وإما أن يكذب ويتولىٰ فالعذاب علىٰ من كذب وتولىٰ. =

هذه جملة الدعوة التي وجهها نبي الله موسىٰ وأخوه هارون إلىٰ فرعون، وقد تضمن قولهما ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ الدعوة إلىٰ الرسالة، وأنَّ هذه الرسالة من قِبَل إله مربٍّ للعالم، ثم توعداه بالعذاب إذا هو كذَّب وأعرض، ووعداه بالسلامة من العقاب؛ إذ هو اتبع الهدىٰ، وهي كلمة جامعة للإيمان والعمل الصالح.

= فجمعت الآية طلب الإنصاف، وإقامة الحجة، وبيان ما يستحق السامع المطيع وما يستحقه المكذب المتولي = بألطف خطاب وأليق قول وأبلغ ترغيب وترهيب»، بدائع الفوائد: (٢/١٦٩-١٧٠).

موسى عليه السلام

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾
قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾
ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا
مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنۡهَا
خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدۡ أَرَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ
﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئۡتَنَا لِتُخۡرِجَنَا مِنۡ أَرۡضِنَا بِسِحۡرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأۡتِيَنَّكَ بِسِحۡرٖ مِّثۡلِهِۦ فَٱجۡعَلۡ
بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكَ مَوۡعِدٗا لَّا نُخۡلِفُهُۥ نَحۡنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانٗا سُوٗى(١) ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ(٢)
وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرۡعَوۡنُ فَجَمَعَ كَيۡدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ
وَيۡلَكُمۡ لَا تَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا فَيُسۡحِتَكُم(٣) بِعَذَابٖۖ وَقَدۡ خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓاْ
أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم
بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ
ٱسۡتَعۡلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا
حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوۡجَسَ(٤) فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾
قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ
وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ
ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ

---

(١) مستوٍ في نسبته إلينا.

(٢) يوم عيد لهم.

(٣) يهلككم.

(٤) أضمر الخوف.

خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا
جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ
ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ
رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن
تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا
تَخَٰفُ دَرَكٗا[١] وَلَا تَخۡشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ
فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ
وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ[٢] وَٱلسَّلۡوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ
غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ
ٱهۡتَدَىٰ﴾ [طه: ٤٩-٨٢].

* شرح وعبرة:

(١) ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾، أي أعطىٰ خليقته كل شيء يحتاجون إليه ويرتفقون به، أو أعطىٰ كل شيء صورته وشكله الذي يطابق المنفعة المنوطة به، كما أعطىٰ العين الهيئة التي تطابق الإبصار، والأذن الشكل الذي يوافق الاستماع، وكذلك الأنف واليد والرجل واللسان، كلٌّ منها مطابق لما علق به من المنفعة غير نابٍ عنه ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ عرّفه كيف يرتفق بما أعطاه، وكيف يتوصل إليه.

قال **الزمخشري**: ولله در هذا الجواب ما أخصره وما أجمعه وما أبينه لمن ألقىٰ الذهن، ونظر بعين الإنصاف، وكان طالبًا للحق[٣]!

وقد شرحت هذه الآية الكريمة بما يصلح أن يكون رسالة في كتاب **«آيات الله في الآفاق»**[٤].

---

(١) إدراكًا.

(٢) مادة حلوة تشبه عسل النحل. والسلوىٰ: الطير السمان.

(٣) الكشاف: (٣/ ٧٦)، وفتوح الغيب: (١٠/ ١٨٢). (عمرو)

(٤) «آيات الله في الآفاق» أو «طريق القرآن في إثبات العقائد»، من كتب الشيخ رحمه الله، وهو مطبوع قديمًا بمطبعة المنار بمصر عام (١٩٣٣م-١٣٥٢هـ) في قرابة (٣٠٠) صفحة، وهو كتاب نسجه المؤلف =

﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ سأله فرعون عن شؤون القرون الأولىٰ، فأجابه أن علمها لم يكن من شؤون الرسل، وإنَّما هو شأن من شؤون الله -تعالىٰ-، يقص علينا ما يرىٰ المصلحة في تبليغه، ويخفي عنا ما لا نحتاج إليه فـ ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى﴾، ويبعد عن الصواب في معرفة شيء منها ﴿وَلَا يَنسَى﴾ ما عَلِمَه؛ لأنَّ النسيان والضلال من شؤون المخلوق.

ثم عقب ذلك بقوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ فراشًا صالحة للمشي والضرب فيها لطلب الرزق ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾، فلم يجعلها جميعها جبالًا حتىٰ لا تكون صالحة للمشي، ولم يجعلها جميعها بحارًا، بل جعل فيها الماء واليابس، وجعل فيها الجبل والسهل، ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ مختلف في طوله وقصره، ولونه وطعمه، ودرجة حلاوته وحموضته، ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ﴾، أي: آذنين لكم في الانتفاع بها، مبيحين أن تأكلوا بعضها وتعلفوا دوابكم بعضها ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ في ذلك كله من الأرض التي مهدها، وجعل فيها السبل للمعيشة، وإنزال الماء من السماء فأنبت به النبات المختلف؛ في ذلك كله دلائل وعبر لأصحاب العقول.

وقد سأل فرعون موسىٰ عن القرون الأولىٰ، فأجابه أن علمها عند الله في كتاب، ثم استطرد لذكر آيات الله -تعالىٰ- ودلائل قدرته، ليريه ويري قومه آثار ربه في الأرض وآثاره في الزرع الذي نعيش منه، وآثاره في الماء الذي ينزل من السماء، وهي فرصة أتاحت لموسىٰ كيف يصف له ربه، ويقيم عليه الحجة من الآيات التي يقع عليها بصره وسمعه.

وفي قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ انتقال من لفظ الغيبة إلىٰ لفظ المتكلم، حيث لم يقل: ﴿فَأَخْرَجَ﴾ إيذانًا بأنه مطاع تنقاد الأشياء المختلفة لأمره، وتذعن الأجناس المتفاوتة لمشيئته، لا يمتنع شيء علىٰ إرادته، ومثله قوله -تعالىٰ-: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٩٩]، وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ

= علىٰ القرآن الكريم، وما فيه من العقائد بإيراد الآيات وبيان ما فيها. ونحن نعمل علىٰ طباعته ونشره، ليلحق بهذا الكتاب بإذن الله تعالىٰ. وتوفيقه.

وما ذكره المؤلف في الكتاب المذكور: (٩٧-١١٢). (عمرو)

﴿اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾ [فاطر: ٢٧]، ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا﴾ [النمل: ٦٠].

ثم عقب ذلك كله موسىٰ عليه السلام بالتمهيد للبعث، فقال: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾؛ ليري فرعون أنَّ الإله الذي قدر علىٰ البدء قادر علىٰ الإعادة، وأن نشأتنا من الأرض، كما قال في سورة المؤمنون: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢]، وسنعود إلىٰ الأرض فنصير جزءًا منها كما كنا، ثم يخرجنا الله من الأرض عند البعث.

يرينا الله -تعالىٰ- بذلك البسط الذي واجه به فرعون مع أنه لم يسأل إلَّا عن القرون الأولىٰ أنه ينبغي للواعظ أن يتحين الفرصة لبث وعظه، وتبليغ دين الله، وإقامة حجته علىٰ الطغاة.

وقد كان من توفيق الله -تعالىٰ- لي أن طُلب مني وأنا مدرس بمعهد طنطا قراءة القصة النبوية في أيام المولد، فافترصت(١) هذه الفرصة، وأخذت أبلِّغ الناس دين الله، وأشرح لهم مزاياه ويسره، وأنه جاء بسعادة الدنيا والآخرة، ولا غنىٰ لأحد عن تعليم الله -تعالىٰ- وهديه الذي جاء به الرسل، وقد قال وكيل من وكلاء مديرية طنطا بعد سماعه أول مرة: هذا درس علم، وهكذا يجب أن تكون الحفلات.

وقد كانت هذه الحفلات تجمع المدير ووكيلَيه، والأطباء، ورجال المحاماة، والأعيان والوجهاء وكانت بفضل الله -تعالىٰ- موضع سرور جميع الطبقات، ما عدا طبقة العلماء الرسميين!! وكذلك كنت أطالب بإحياء الليالي التي تعودوا إحياءها في طنطا كليلة القدر، وعاشوراء، والمعراج، والنصف من شعبان؛ فكنت أحول هذه الحفلات إلىٰ عِظات، وتذكير للحكام بما يجب عليهم من العدل، والتجار بما يجب عليهم من الصدق، والعلماء بواجبهم من التعليم والإرشاد، وكنت شديد النكير علىٰ النفاق والمنافقين، ومداهنة ولاة الأمور بما لا يتفق وكرامة العلم، ومشايعتهم في الأهواء والشهوات، وكان يتألم لهذه

(١) انتهزتها.

المحاضرات من يحسون من أنفسهم تلك الأخلاق الذميمة، من رجال العلم والإدارة، وكانت العاقبة لهذه المحاضرات نقلي إلىٰ معهد أسيوط مرتين؛ ليحال بيني وبين ذلك العمل، ولكنني كنت أقابل ذلك النقل بما ينبغي أن يقابله به كل مصلح واثق ممَّا يقول، مؤمن بما يدعو الناس إليه؛ كل ذلك استغلالًا للفرصة التي أتاحت لي أن أعظ الحكام في بيوت الله، وأن أُذكِّر التجار والأعيان الأطباء، وأدعو كل صنف إلىٰ تقوىٰ الله في عمله، ومراقبته فيما ائتمن عليه.

(٢) ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾. يرينا الله -تعالىٰ- أنَّه بصره إياها، وعرّفه صحَّتها فكذب بها لظلمه، وأبىٰ أن يخضع لها ويقبلها؛ قيل: الآيات تشمل آيات التوحيد وآيات النبوة، فآيات التوحيد هي التي عرض لها في الآيات السابقة، وآيات النبوة هي التسع: من **العصا، واليد، وفلق البحر، وانفجار الماء من الحجر، والجراد، والقُمَّل، والضفادع، والدم، ونتق الجبل**، وقيل: المراد بها آيات النبوة فقط.

﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾. قال بعض المفسرين: يلوح من جنب هذه الكلمة أن فرائصه كانت ترعد؛ خوفًا ممَّا جاء به موسىٰ عليه السلام، لعلمه وإيقانه أنه علىٰ الحق، وأن المحق لو أراد قود الجبال لانقادت، وأن مثله لا يخذل، ولا يقل ناصره، وأنه غالبه علىٰ ملكه لا محالة، وقوله: ﴿بِسِحْرِكَ﴾ تعلل وتحير، وإلَّا فكيف يخفىٰ عليه أن ساحرًا لا يقدر أن يخرج مَلِكًا مثله من أرضه، ويغلبه علىٰ مُلْكِه بالسحر.

وقد شرحنا قصة السحرة وجمع فرعون لهم ووعدهم الأجر إذا هم غلبوا، وتهديده لهم بعد الإيمان وعدم مبالاتهم بالتهديد؛ شرحنا ذلك كله في قصة موسىٰ من سورة الأعراف كما بيَّنَّا غباوة فرعون في قوله لهم: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾، وأنَّه لم يدر أنَّه إن ملك أجسام الناس، فلا يستطيع أن يملك قلوبهم.

والجديد في هذه السورة أنَّ موسىٰ عليه السلام حينما التقىٰ بالسحرة في الموعد الذي ضربوه أخذ يعظهم ويقول لهم: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾، فلا تدعوا آياته ومعجزاته سحرًا؛ لأنَّكم إن فعلتم

ذلك أهلككم الله بعذاب، وخبتم في حياتكم؛ لأنَّ هذه عاقبة المفتري، وهو ظرف ينفع فيه الوعظ، ويفيد فيه التذكير، ومع أنَّهم خصومه وعظهم، ولم ييأس من ضمهم إليه وقد أفاد الوعظ، ونجحت الذكرىٰ، فأصبحوا من أنصاره بعد أن كانوا من خصومه، وتجد في هذه السورة أنَّ سحرة فرعون حين ألقوا حبالهم وعصيهم خُيِّل إلىٰ الرائي أنَّها تسعىٰ، وأن موسىٰ حين ذلك أضمر خوفًا في نفسه، فطمأنه الله -تعالىٰ- وقال له: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾؛ لأنَّك علىٰ الحق، وبالحق تنطق، ومَنْ كان علىٰ الحق فهو الأعلىٰ، فهو عُلُوّ منزلة ومكانة، وهو تطمين آخر لنبي الله موسىٰ بأنَّه سيغلب فرعون وملأه، وستكون له العاقبة، وهي بشارة لكل من يستعين بربه، ويعتصم بخالقه، بأنه لا يخاف من المبطل، ولا يذعر من حزب الشيطان؛ لأنَّ كيده ضعيف، وباطله لا يبقىٰ ولا يدوم، وفي هذا المعنىٰ قول الله -تعالىٰ- في سورة آل عمران وهو يحرِّض المؤمنين علىٰ الثبات والصبر علىٰ الجهاد ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

وبعد إيمان السحرة وتهديد فرعون لهم بأشد أنواع العذاب ﴿قَالُواْ﴾ له ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾، وهي عظات بالغة، وحكم غالية، صدرت من قوم امتلأت قلوبهم بالحق فازدروا كل شيء في سبيله، حتىٰ تقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف، والتمثيل بهم؛ إذ رأوا أن ما جاءهم من الأدلة والبراهين لا يقدِّمون عليها مرضاة فرعون، وكذلك لا يؤثرونه علىٰ الإله الذي فطرهم وخلقهم، لذلك قالوا: احكم بما شئت، وأنفذ ما تريد، لأنك إنما تحكم هذه الحياة المحدودة، وسنلقىٰ جزاءنا وتلقىٰ جزاءك في حياة بعد هذه الحياة، ولا نستطيع أن نؤثر حياة فانية علىٰ حياة باقية، إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا ويغفر ما أكرهتنا عليه من السحر، والله خير منك وأبقىٰ، فهو الجدير بالإيمان به.

ثم ختموا العظة بقولهم: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾، لا يموت فيها، فيستريح من العذاب كما يستريح الميت، ولا يحيا

حياة يستريح لها، فهو بين الحياة والموت، لم يتمتع براحة الموتىٰ، ولا بنعيم الإحياء: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾، ومن آمن ذلك الإيمان، ووثق من ربه تلك الثقة، واقتنع ذلك الاقتناع= جدير بأن يستخف بهذه الحياة إلىٰ حد عدم المبالاة بشيء في سبيل إيمانه؛ اللهم ثبت إيماننا، وقوِّ يقيننا، وشد عزيمتنا، كما شددت عزم الذين آمنوا بموسىٰ من سحرة فرعون، حتىٰ لم يبالوا بتهديد فرعون، ولا بجبروت فرعون، ولم يُحِلُّوا قلبهم سوىٰ الخوف منك، وجعلوا إجلالك فوق كل إجلال، وتوقيرك فوق كل توقير، وأصبحوا مثلًا عاليًا في التضحية والفضيلة، فكانوا قدوة حسنة وأسوة صالحة.

(٣) ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى﴾ ... إلخ؛ يجوز أن يكون سبب إيحاء الله -تعالىٰ- إلىٰ نبيه موسىٰ بالهجرة أن عدو الله فرعون أمعن في الإيذاء بعد حادث السحرة؛ لأنَّ إيمانهم غاظه، ولذلك تهددهم بتقطيع الأيدي والأرجل وتصليبهم في جذوع النخل، ويدل لذلك أنَّ السنة العامة مع كل رسول أن يأذن له الله بالهجرة فرارًا من الاضطهاد، وليخلص بدين المؤمنين مِنْ أمته من الفتنة.

ثم لما تبعهم فرعون بجنوده في الهجرة ليؤذوهم كان مدبَّرًا له ولجنوده أن يغرق، ولموسىٰ وقومه أن ينجو، ويجوز أن يكون السبب الأول لهجرة موسىٰ مع قومه هو إنجاؤه وإغراق فرعون، أما الطريق اليبس الذي كان فيه العبور فلم يعلم بالضبط، ويستبعد صاحب كتاب **«قصص الأنبياء»**[1] أن يكون العبور من المكان الذين يسمىٰ **«بركة فرعون»** بينها وبين **السويس** بضع ساعات بسير السفن.

ويرىٰ أنَّ خليج السويس كان يمتد في تلك الأزمان إلىٰ البحيرة المرة أو يقرب منها، وفي هذا الخليج من تلك الناحية كان عبورهم، وبعبارة أخرىٰ أنَّهم عبروا من مكان شمال المكان المعروف **بعيون موسىٰ** في البر الأسيوي وهي لا تبعد عن السويس كثيرًا. (اهـ).

---

(١) الأستاذ عبد الوهاب النجار. (عمرو)

وقولهم: ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا﴾ أن اجعل لهم، من قولهم: ضرب له في ماله سهمًا: جعل له ذلك، وضرب اللَّبِن: عَمِله، وتفسره آيات الشعراء ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣]، فضرب الطريق تكوينه وجعله بواسطة ضرب البحر بالعصىٰ وانفلاقه انفلاقًا يباعد ما بين الفرقين حتىٰ صار قاع البحر يابسًا يستطيع معه موسىٰ وقومه أن يعبروا البحر: ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ في موضع الحال؛ أي حال كونك لا تخاف أن يدركك فرعون، ولا تخشىٰ ذلك، وقُرئ: ﴿لَا تَخَفْ﴾ علىٰ الأمر، وقوله: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾، أي: غطاهم من الماء شيء كثير لا يعلم كنهه إلا الله ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾، أضلهم طريق الهدىٰ، وأبعدهم عن الرشاد، ولم يرد الله بهذا أن يعتذر عن قوم فرعون، وإنَّما يريد أن عاقبة طاعتهم لفرعون وممالأته ذلك الضلال البعيد، وماذا عليهم إذا هم خرجوا علىٰ فرعون، ولم يبالوا بوعيده كما خرج عليه السحرة؟ وهل أعان فرعون علىٰ ضلاله وإضلاله سوىٰ ضعف قومه وهوان شعبه عليه؟ ولو أنه رأىٰ منهم صلابة في الحق، ونفرة من الظلم، واستنكارًا للباطل= ما وصل في طغيانه إلىٰ ذلك الحد، وحسبنا أنَّ الله -تعالىٰ- يقول فيه وفي قومه: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤]، وقوله: ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ تهكم بفرعون في قوله: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

ثم أخذ يذكر بني إسرائيل بنعمه ويسرد لهم فضله عليهم؛ علهم يستفيدون من ذلك التذكير، ثم ختمه بقوله: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾، وهو كقوله -تعالىٰ- حكاية عن الذين يحملون العرش ومَن حَوله في استغفارهم للذين آمنوا ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧] حتىٰ لا يطمع في المغفرة من هو مصرٌّ علىٰ المعصية دائب علىٰ مغاضبة الله -تعالىٰ-؛ فإن ذلك خلاف سنته، ولذلك كان دعاء الملائكة بالمغفرة للذين تابوا واتبعوا سبيل الله، وهو المراد بقوله: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾.

موسى عليه السلام

﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ
لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ
غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ
أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا(١)
وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا(٢) مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا
جَسَدٗا(٣) لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ
قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ
وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ
﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبۡنَؤُمَّ
لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي
﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطۡبُكَ(٤) يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرۡتُ(٥) بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضۡتُ
قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ(٦) ٱلرَّسُولِ فَنَبَذۡتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذۡهَبۡ
فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ(٧) وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدٗا لَّن تُخۡلَفَهُۥۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ

---

(١) بأنْ ملكنا أمورنا.

(٢) جمع وزر، وهو الثِّقل والحمل.

(٣) هيكلًا قد خلا من الروح، وخُوَار: صوت.

(٤) قصتك وشأنك.

(٥) علمت ما جهلوا.

(٦) تعاليمه.

(٧) لا تمس الناس ولا يمسوك.

﴿ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٨٣-٩٨].

* **شرح وعبرة:**

(١) ﴿۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾، أي: شيء عجل بك عنهم؛ ينكر عليه ذلك، وكان قد مضىٰ مع النقباء إلىٰ الطور علىٰ الموعد المضروب، وقد بيَّن الله ذلك الموعد في سورة الأعراف بقوله: ﴿۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢]، ثم قال: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا﴾ [الأعراف: ١٥٥]، وهذه الآية التي نحن بصدد شرحها ترينا أن موسىٰ ﷺ سبق قومه في لقاء الله -تعالىٰ-، فسأله عن السبب منكرًا عليه ذلك السبق، فكان جوابه: ﴿هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى﴾ ليس بيني وبينهم إلا تقدم يسير لا يعتد بمثله في العادة، وليس بيني وبين من سبقته إلا مسافة قريبة، يتقدم بمثلها الوفدَ رأسُهم ومقدَّمُهم.

ثم عقب ببيان السبب في ذلك في قوله: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾، فقد سبقت النقباء تشوُّقًا إلىٰ رضاك، وتنجزًا لموعدك.

﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ﴾ أخبره الله أنه قد اختبر قومه من بعده، وابتلاهم بالعجل الذي صنعه السامري من حلي القوم.

وقد نسب الضلال إلىٰ السامري؛ لأنَّه هو الذي استغل جهلهم، وألفهم الوثنية وصنع لهم صورة تشبه العجل، وجعل له صوتًا كصوته، ولولا أن السامري وجد من القوم استعدادًا لتلك الخرافة ما صنعها ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾ شأن الرجل الذي يحرص علىٰ الحق أن يذهب، وعلىٰ مجهوده أن يضيع سدىٰ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾ إذا أنتم بقيتم علىٰ الإيمان ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ﴾ مدة مفارقتي لكم ﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى﴾.

يريد أم هي شهوة ومحبة للشرك حملتكم علىٰ ذلك العمل المغضِب لله -تعالىٰ- فنقضتم موعدي معكم بأنكم لا تعودون إلىٰ الشرك، ولا ترجعون إلىٰ

الوثنية ﴿قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ باختيارنا وقدرتنا ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾ حُمِّلنا أحمالًا من حلي القبط التي استعرناها منهم، فقذفناها في نار السامري التي أوقدها ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾ أراهم أنه يلقي حليًا في يده مثل ما ألقوا ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾، وقوله: ﴿جَسَدًا﴾ إشارة إلىٰ أنّه هيكل خالٍ عن الروح، كقوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ [سورة ص: ٣٤].

يريد هيكلًا قد خلا عن آثار الحياة ﴿فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾، أي: نسي موسىٰ أن يطلبه ههنا وذهب ليطلبه عند الطور، أو فنسي السامري وتركما كان عليه من الإيمان ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ تقريع لعباد العجل وتوبيخ لهم بأنهم بلغوا من الغباوة حدًّا كبيرًا؛ إذ يعبدون هيكلًا لا يرجع إليهم قولًا إذا هم طلبوه، ولا يملك لهم ضرًّا إذا هم خالفوه، ولا نفعًا إذا هم أطاعوه ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾ يرينا أن هارون قد نهاهم عن عبادته وحملهم علىٰ عبادة الرحمن فعصوه وأصروا علىٰ شركهم ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ أي ما دعاك وحملك علىٰ أن لا تتبعني في وصيتي إذ قلت لك ﴿ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢]، فلِمَ تركت قتالهم وتأديبهم؟ ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ يريه أنَّ الحامل له علىٰ عدم قتالهم خشية التفريق لو قاتلت بعضهم ببعض فخشيت عتابك علىٰ اطراح ما وصيتني به من ضمّ المتفرق، وحفظ الدماء، ولم يكن لي بد من ملاحظة وصيتك، والعمل علىٰ موجبها، وفي سورة **الأعراف** يقول: ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٠].

وعذر نبي الله هارون مجموع الأمرين: حرصه علىٰ وصية أخيه موسىٰ، وخوفه أن يتفرقوا إذا حارب بعضهم بعضًا، وضعفه أمامهم وقربانهم من قتله، فرأىٰ أن يدع المسألة إلىٰ حضور أخيه موسىٰ فيأخذ رأيه فيما يجب أن يكون.

ومن العجب أن يكون حرص هارون علىٰ وصية موسىٰ مدعاة للوم أخيه عليه، وعلىٰ كلٍّ فالمسألة خلاف في الاجتهاد في الخطة التي كان ينبغي أن يكون عليها هارون، فهو يرىٰ رأيًا لم يوافقه عليه موسىٰ، والأمور الاجتهادية يختلف فيها الناس اختلافًا كبيرًا، والخطأ فيها مغفور، ولذلك قال موسىٰ عقب غضبه علىٰ هارون: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥١].

(٢) ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾. بعد انتهاء موسىٰ من تعنيف أخيه هارون رجع إلىٰ السامري وسأله قصته، فقال له السامري: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِۦ﴾ علمت ما لم يعلموا ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ أخذت طائفة من تعاليم الرسول وهو موسىٰ ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ طرحتها ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ زينت وحسنت، وهي مسألة انتصر فيها العلم علىٰ الجهل، والقوة علىٰ الضعف، فالسامري كان أعلم من بني إسرائيل بشؤون المعادن، وكيف تصاغ وتُحَوَّل من شكل إلىٰ شكل، وأنها إذا وضعت علىٰ هيئة عجل، وجعل فيه تجويف يمر منه الهواء أحدث ذلك التجويف بواسطة مرور الهواء صوتًا يشبه صوت العجل، ثم يري بني إسرائيل أن ذلك العجل هو إله موسىٰ الذي كان يطلبه فنسيه في ذلك المكان حين ذاك ﴿قَالَ﴾ له نبي الله موسىٰ ﴿فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾.

وأظهر ما قيل فيه قول «**مقاتل**»: إنَّ موسىٰ عليه السلام أخرجه من محلة بني إسرائيل وقال له اخرج أنت وأهلك، فخرج طريدًا إلىٰ البراري، والمعنىٰ أنِّي أجعلك يا سامري في بعدك عن الناس بحيث لو أردت أن تخبر غيرك من الناس عن حالك لا تجد إلىٰ ذلك سبيلًا، ولا تستطيع إلا أن تقول لا مساس، ومعناه نفي السامري من ديار بني إسرائيل، لأنه مفسد مضل، فمن المصلحة أن يحال بينه وبين الشعب الإسرائيلي حتىٰ لا يفسده مرة أخرىٰ، ذلك حظه في الحياة، أما حظه في الآخرة فقد بيَّنه الله في قوله: ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾ يعاقبك الله فيه العقوبة الكبرىٰ، ويجزيك الجزاء الأوفىٰ ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا

﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾، وهو إصلاح آخر من نبي الله موسىٰ، وإهانة واضحة لعباد ذلك العجل الذي اتخذه السامري، وهو تحريقه، ولو كان عباد العجل فيهم ذرة من العقل لرجعوا إلىٰ أنفسهم فحكموا عليها بالظلم؛ إذ عبدوا إلهًا لا يدفع عن نفسه ضرًّا، ولا يجلب لعابديه نفعًا، وما أشبه ذلك بما صنعه نبي الله إبراهيم عليه السلام بالأصنام التي عبدها قومه، فجعلها قطعًا صغيرة؛ ليذل بها من يعبدها، ويحركه للنظر، ويلهب نفسه للبحث عن الحق، وبعد تحريق ذلك العجل ينسفه في البحر، وعمل موسىٰ عليه السلام هو قطع لجذور الشرك، وقضاء علىٰ ذرائع الوثنية، وسد لذرائع الفساد، فتنوا بالسامري فنفاه وحال بينهم وبينه، وعبدوا العجل الذي صنع من الذهب فحرقه ونسفه في البحر، حتىٰ لا يبقي في نفوسهم ذرة من الاشتباه فيه والفتنة به.

وكذلك فعل عمر حين رأىٰ الناس أخذوا يتبركون بالشجرة التي حصلت عندها البيعة وقطعها ليستأصل جذور الشرك، وذرائع الوثنية؛ فاللهم وفقنا للتأسي بالسابقين الصالحين، والاهتداء بأعمال الرسل المتقدمين، ونسألك أن تبصرنا بدينك، وتهدينا للعمل بكتابك.

ثم ختم القصة بقوله: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾.

موسى عليه السلام

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٥-٤٩].

* شرح وعبرة:

(١) ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾، أي: إرسالًا مصحوبًا بالآيات ﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ من السلاطة، وهي التمكن من القهر ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ﴾ [محمد: ٩٠] ومنه سمي السلطان، وهو يقال في السلاطة؛ نحو: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ [الإسراء: ٣٣]، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٩، ١٠٠]، وقوله: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ [الرحمن: ٣٣]، ويُطلق السلطان على الحجة لما فيها من الهجوم على القلوب والتسلط عليها، ومنه قوله -تعالىٰ-: ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [إبراهيم: ١٠]، أي: بحجة واضحة، فيحتمل أن يكون السلطان هنا هو الحجة ذات التسلط على الخصم، ويكون ذكره بعد الآيات لبيان أن هذه الآيات هي دلائل على قدرة الله -تعالىٰ- وصدق رسوله موسىٰ عليه السلام، ومن هذه الناحية كانت آيات، ومن ناحية أخرىٰ هي ذات سلطان وقهر لمن يطلع عليها معتبرًا بها، ويجوز أن يكون السلطان هنا حجة خاصة هي آية العصا، وسمّاها سلطانًا مع أنَّها داخلة في

الآيات إشارة إلىٰ أنَّ قوتها قوة ممتازة حتىٰ كأنَّها نوع آخر؛ لذلك خصها بالذكر، وقيل: إنَّ السلطان هنا هو سلطان الغلب المعنوي، والقهر الأدبي، وهو فوق السلطان المادي، وهو الذي يدل عليه قوله في سورة **طه**: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَـٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٨، ٦٩]، وكأنه يقول: ولقد أرسلنا موسىٰ مصحوبًا بآيات الصدق وسلطانه المعنوي علىٰ فرعون وملئه.

وقد وصف السلطان بأنه مبين؛ لأنَّه ظاهر لكل من قرأ قصة فرعون مع موسىٰ، وظاهر لقوم موسىٰ، وآية ظهوره استعانة فرعون بالسحرة ليبطلوا عمل موسىٰ، ثم انزعاجه من إيمانهم بموسىٰ بعد أن عرفوا أنه رسول من قبل الله -تعالىٰ- لا ساحر، ثم تهديده لهم علىٰ الإيمان ورميهم بأنَّهم متواطئون معه علىٰ هدم فرعون وملك فرعون: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ﴾، فاستكبروا عن الانقياد، وكانوا قومًا شأنهم مجاوزة الحدود والتكبر، والجملة: ترينا أن ذلك خُلُق فيهم لم يكن من الأعراض التي تطرأ وتزول، ﴿فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَـٰبِدُونَ﴾ قالوا ذلك فيما بينهم بطريق المناصحة، أنؤمن لرجلين من البشر مماثلين لنا في البشرية والحال أنَّ قومهما وهم بنو إسرائيل خادمون منقادون لنا كالعبيد، وكأنَّهم قصدوا بذلك الحط من شأنهما ﷺ، ونزول مرتبتهما عن منصب الرسالة من وجه آخر غير البشرية، وهو أنَّ بني إسرائيل الذين بعثوا لدعوتهم عبيد لنا، ولا فرق بينهما وبينهم، وكأنهم قالوا علىٰ وجه الإنكار: أنؤمن لرجلين مساوِيَين لنا في البشرية؟ وتلك هي الشبهة التي أوردها أقوام الرسل عليهم، وردَّها الله عليهم في سورة الفرقان وسورة الأعراف وكثير من السور.

ثم عرَّضوا بشأن الرسل وقالوا: إن قومهما عابدون لنا فكيف نؤمن بهم، ونسوي أنفسنا بأولئك العبيد في طاعة موسىٰ وهارون؟ وهو كقول الملأ من قوم نوح: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ يريدون أنَّه لا يصح أن نكون قرناء لأولئك الأقوام الذين هم أدنياء في المهنة، ونحن علىٰ ما نحن عليه من عظمة وقوّة، كذلك فرعون لا ينبغي أن يكون مع عابديه في قرن واحد، تربطهم ملة واحدة،

ودين واحد، وذلك هو الإمعان في التكبر، والغلوّ في احتقار الناس والاستخفاف بهم ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ﴾ منكان هذا حاله فتكذيبه بالرسل أثر طبيعي لحالته النفسية، فكان عاقبة التكذيب إهلاك الله لهم بالغرق ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

يرينا الله -تعالىٰ- أنَّ التوراة التي أنزلها الله علىٰ نبيه موسىٰ كانت بعد غرق فرعون، وأنَّها كبقية الكتب السماوية أنزلها الله نورًا وهداية، فآمن بها من آمن، وكفر بها من كفر.

موسى عليه السلام

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ (١١) قَالَ رَبِّ
إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ (١٣) وَلَهُمْ
عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (١٤) قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَـٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ (١٥) فَأْتِيَا
فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ (١٧) قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا
وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ[١]
(١٩) قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى
مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ (٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ[٢] بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ (٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ
ٱلْعَـٰلَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ
أَلَا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ
لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا
غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن
كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ (٣١) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ
لِلنَّـٰظِرِينَ (٣٣) قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم
بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ[٣] (٣٥) قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ
بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (٣٧) فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم
مُّجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ (٤٠) فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ

(١) لنعمتي عليك.

(٢) اتخذتهم عبيدًا.

(٣) من المؤامرة، وهي المشاورة، «أرْجِه»: أخِّر أمره.

لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ
مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ
مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ(١) مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى
عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ لَا
ضَيْرَ(٢) إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ
﴿٥١﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ
﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم
مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ(٣) كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم
مُّشْرِقِينَ(٤) ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ
رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ
ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا(٥) ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا
ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾
[الشعراء: ١٠-٦٨].

*** شرح وعبرة:**

(١) بدأ في هذه القصة بعد قوله في أول السورة ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾.

بعد أن أراه الله أنَّه يشفق عليه أن يقتل نفسه حسرة علىٰ ما فاته من إسلام قومه، أمره أن يذكر قصة نبي الله موسىٰ مع عدو الله وعدوه **فرعون**؛ ليتسلىٰ بهذه القصة، ويتأسىٰ بذلك الصبر الذي كان من نبي الله موسىٰ وأخيه هارون،

---

(١) تبتلع.

(٢) ضرر.

(٣) منازل حسنة.

(٤) داخِلين في وقت الشروق.

(٥) قرَّبنا.

فقال له: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ . . . إلخ، وقوله: ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ تعجيب لموسىٰ عليه السلام من حالهم التي شنعت في الظلم والعسف، ومِنْ أَمْنهم العواقب وقلة خوفهم من أيام الله ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ . . . إلخ.

من عادة القرآن في القصص أن يُجْمِل في بعض السور ما بسطه في بعض آخر، وقد بسط الله خوف موسىٰ من بطش فرعون، وطلبه أن يحل عقدة من لسانه، وأن يشرح صدره، ويجعل أخاه هارون وزيرًا له، يساعده في الأمر ويشد به الأزر، في سورة **طه**، وقوله: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾ عطف علىٰ قوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ والمراد أنَّه يخشىٰ بطش فرعون به، وعنده من عقدة اللسان ما لا يمكنه من بسط الدعوة وإقامة الحجة.

لذلك طلب أن يرسل الله إلىٰ هارون ليكون وزيرًا معه، وهارون أفصح لسانًا منه كما قال: ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ [القصص: ٣٤]، والردء: المعين والناصر، وهو المراد بالوزير في سورة طه، وقوله: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ قد شرحه الله -تعالىٰ- في سورة القصص، وبين أن رجلين اقتتلا وكان أحد المقتتلين من شيعة موسىٰ، وأنه استغاثه الذي من شيعته علىٰ الذي من عدوّه فضربه موسىٰ فمات خطأ، وستراها مفصلة في سورة القصص: ﴿قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ لا عذر لكما في التأخر عن دعوة موسىٰ، وعلَّل ذلك بقوله: ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾، وقال في سورة **طه**: ﴿لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦].

ثم طالبهما بأن يقولا لفرعون: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، وفي سورة طه: ﴿وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ فيقول فرعون لموسىٰ بعد أن بلَّغه رسالة ربه: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، فردّ عليه موسىٰ بقوله: ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾، أي: قبل أن يهديني الله بالرسالة؛ لأنَّ الرسول قبل أن يوحىٰ إليه ضالٌّ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحىٰ: ٧]، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورىٰ: ٥٢]، أو الضالين: المخطئين، كمن يقتل خطأ من غير تعمد للقتل، أو الضالين: الذاهبين عن الصواب الناسين، من قوله: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا

﴿فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وقوله: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ رد علىٰ قول فرعون: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ بأن لا مانع من أن أتربىٰ عندك ثم يبعثني الله إليك، ولا مانع من أن يختص من شاء بما شاء من الفضل، فتربيتي عندك في الصغر لا تطعن في رسالتي ودعوتي لك إلىٰ الله -تعالىٰ-، وهل وجود فضل لك عليّ في الصغر يمنعني من تبليغ رسالة الله إليك! وأي صلة بين هذه وهذه؟ وهل دعوتك إلىٰ الله كفران لنعمتك عليّ وأنا صغير؟

ثم أراد موسىٰ أن يكرّ علىٰ امتنان فرعون بالتربية، فيبطله من أساسه وأبىٰ عليه أن يسمي هذه النعمة إلا نقمة، فقال: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، يريد أن حقيقة إنعامه عليه تعبيد لبني إسرائيل وإذلال لهم؛ لأنَّ سبب تربيته لموسىٰ خوف أمه من ذبح الأبناء واستحياء النساء، فكانت نقمة لبني إسرائيل تسبب عنها نعمة لنبي الله موسىٰ، والشر إذا سبب خيرًا لا يؤجر عليه فاعل الشر، ولا يصح له أن يمتن به، وكأن موسىٰ يقول أتريد أن تمتن عليّ بالتربية وما جاءت إلا تنفيذًا لخطة استعباد بني إسرائيل وتذبيح أبنائهم؟ دع المنة بهذه الحسنة؛ فإنَّها مغمورة بنقمة أكبر منها.

وقد كان موسىٰ في هذه المُحاجَّة شديد الذكاء حاضر البديهة، لم يلبث فرعون أن يذكره بنعمة التربية حتىٰ عقبها موسىٰ بنقمة التعبيد لبني إسرائيل، وحينما قال له أتذْكُر نعمة التربية، يردّ عليه بقوله: أتذكر سبب هذه النعمة والظروف المحيطة بها؟ وهل سلمت لك هذه المنة وحسبت لك فضلًا؟ مع أنَّك لم تقصد إليها وإنما قصدت إليّ الشرّ فكان الخير.

(٢) ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ... إلخ أخذ فرعون يناظر موسىٰ ويسأله عن رب العالمين الذي بعثه إلىٰ الناس، فـ ﴿قَالَ﴾ له موسىٰ: هو ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾، أي: من أهل الإيقان.

هنالك عجب فرعون من قول موسىٰ، و﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ﴾ من الملأ ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ فعقب موسىٰ علىٰ ذلك الإنكار بقوله: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ فهو الذي خلقكم وخلقهم، وهو الذي ربَّاكم بفضله ورباهم، فليس ربكم فرعون،

وإنما هو عبد من عبيد الله، خاضع لسنته، مستعد لما يقضىٰ به عليه، عند ذلك تحرَّك فرعون؛ لأن موسىٰ حاول أن يأخذ القوم منه، فقال: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾، وكيف لا يكون مجنونًا وقد تجاهل فرعون، وجبروت فرعون، فزادهم موسىٰ بقوله: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ تفهمون قيمة ذلك القول، وحقِّية هذا الكلام.

هنالك عمد فرعون إلىٰ البطش، ولجأ إلىٰ الوعيد والتهديد؛ لأنَّه لم يجد حجة يردّ بها قول نبي الله موسىٰ فـ ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾.

لم يقف فرعون عند تحذير قومه من اتباعه، وتخويفهم من الاستماع له، بل طمع في أن يتخذه موسىٰ إلهًا، وهو أسلوب خبيث في تهديد القوم، وحملهم علىٰ بقائهم علىٰ ما هم عليه، وكأنه يقول لهم: ها أنا أهدد ذلك الرسول بالسجن إذا هو اتخذ إلهًا غيري، ولا بُدَّ له من أن يدع ذلك الإله الذي يدعوكم إليه، ويتخذني إلها.

وإذا كان موسىٰ منهيًا عن اتخاذ إله غير فرعون فكيف ببني إسرائيل؟ فيقول له موسىٰ عليه السلام في لطف: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ﴾ يريد أتصرّ علىٰ أن تسجنني ولو جئتك ببرهان بيِّن واضح علىٰ صدقي؟ وهو استدراج لفرعون حتىٰ يدع التهديد بالقوة المادية، وإلجاء له إلىٰ رؤية الأدلة، والاطلاع علىٰ الآيات، هناك ﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ هنالك ألقىٰ العصا فانقلبت ثعبانًا واضحًا للناس ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ﴾، وهنالك استشار أشراف قومه ماذا يصنع مع موسىٰ؟ وهنالك استفز أولئك الملأ بقوله: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ﴾، وهي كلمة تشف عن ضعف فرعون أمام الحق، وخذلانه أمام الدليل والبرهان، فأشار عليه الملأ أن يؤخر أمره وأمر أخيه ويبعث حاشرين في المدائن يأتونه بكل سحَّار عليم، ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ﴾، فـ ﴿قَالَ نَعَمْ﴾ لكم الأجر، ومع ذلك تكونون من المقربين مني، وهو دليل آخر علىٰ ضعف فرعون ومسالكه علىٰ الانتصار علىٰ موسىٰ، وهنالك ألقىٰ السحرة الحبال والعصيّ، ﴿وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ يحتمل أن يكون هذا قَسَمًا من أيمان الجاهلية، ويحتمل أنه استعانة بعزة فرعون

علىٰ الغلب، وقد خذلهم الله فغَلَب موسىٰ؛ لأنَّ المعتز بغير الله لا بُدَّ أن يذل، ثم آمن السحرة بموسىٰ، وإله موسىٰ، فهددهم فرعون، فلم يبالوا بذلك التهديد، و﴿قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۝ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَـٰيَـٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وقد بسطت شرح قصة السحرة والسحر في سورة الأعراف.

(٣) ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾. علل الإسراء باتباع فرعون وجنوده لهم ليوقعوا بهم الأذىٰ، وسبب ذلك الاتباع إيمان السحرة وأن صاروا من جند موسىٰ بعد أن كانوا من حزب فرعون، وكان إيمان السحرة مدعاة لافتضاح فرعون؛ لأنَّهم كانوا علماء لهم قيمتهم، فكان لإيمانهم ضجة كبرىٰ، وقد أحدثت في حاشية فرعون هزة عنيفة، وزلزالًا كبيرًا، ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ۝ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۝ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ۝ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَـٰذِرُونَ﴾.

استصرخ فرعون قومه، واستغاث عشيرته، وبعث في مدائن مُلْكِه من يحشرون الناس إليه، ويجمعونهم حوله، ليكونوا تحت أمره، قائلين في دعوتهم: ﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ يريدون حزب موسىٰ الذي آمن به وفيه السحرة، وأنهم مع قلتهم لغائظون لنا، وإننا جميعنا لحذرون من ظفرهم بنا، وانتصارهم علينا، وهي كلمة تمثل سلطان الحق علىٰ الباطل، وما يحسّ به حزب الشيطان من حزب الرحمن.

ترينا هذه الكلمة أن أنصار الحق علىٰ قلتهم هم قذًىٰ في أعين حزب الشيطان، وشجًىٰ في حلوقهم لا يهدأ لهم بال مع وجودهم، ولا يستريح لهم ضمير ما داموا فيهم، وهي آية كبرىٰ من آيات الله في الحق والباطل ستبقىٰ ببقاء السنين.

يعترف فرعون وحزبه أن قوم موسىٰ طائفة قليلة، أما فرعون فمعه الملك وصولجانه، والحكم وعظمته، مع الخدم والحشم ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ [الزخرف: ٥١] معه ذلك كله، وليس مع موسىٰ إلا ربه الذي خلقه، وقلبه الذي بين جنبيه، وإيمانه الذي يعتصم به، وعقيدته التي يطمئن إليها، يخاف فرعون موسىٰ، ويخشىٰ عاقبته، ويقول في وصفه ووصف مَن معه بصيغة المؤكد ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ۝ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَـٰذِرُونَ﴾. فليعتبر بذلك أرباب السلطان، وأصحاب النفوذ والجاه، وليعلموا أن سلطانهم لن يصل إلىٰ سلطان فرعون،

وملكهم لن يبلغ ملكه، ومع ذلك كان فرعون وجنده خائفين من موسىٰ وجلين، شأن المبطل مع المحق، والتكبر مع المتواضع، والمعتز بنسفه مع المعتز بالحق: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٧ وَكُنُوزٍ﴾ ... إلخ.

يرينا أنَّه أخرج فرعون وقومه من هذه الجنات التي كانوا ينعمون فيها، والعيون المفجرة في هذه الجنات وفي غيرها ﴿وَكُنُوزٍ﴾ فيها المال، وحال بينهم وبينها، فلم ينتفعوا بها، وكان ذلك إجابة لدعوة نبي الله موسىٰ ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨].

ولا شكَّ أنَّ إخراج فرعون وملئه من المال الذي كنزوه طمس له، وحرمان لفرعون وقومه منه ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ موضع للإقامة حسن وهي المنازل المبهجة، أخرجهم الله من تلك النعم وأورثها بني إسرائيل ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾ عند شروق الشمس، وهو يدل علىٰ حرص القوم علىٰ إدراك قوم موسىٰ ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾: جمع موسىٰ وجمع فرعون ﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ إلىٰ سبيل النجاة منهم؛ لأنَّه هو الذي أمرني بالهجرة.

وما أحسن هذه الثقة التي يثقها نبي الله موسىٰ بربه؛ إذ يقول لقومه حين خافوا ﴿كَلَّآ﴾ لا تخافوا ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى﴾ بالمعونة والتأييد، ومن كان الله معه، فلن يغلبه أحد ﴿سَيَهْدِينِ﴾ إلىٰ ما فيه مصلحتي ومصلحتكم.

وحين ذلك أوحىٰ الله إلىٰ موسىٰ أن يضرب بعصاه البحر، فضربه موسىٰ فانفلق البحر فرقين فكان كل فِرْق كالجبل العظيم في علوه، وقرَّب الله الآخرين وهم قوم فرعون من بني إسرائيل، أو أدنىٰ بعضهم من بعض حتىٰ لا ينجو منهم أحد، وأنجىٰ الله موسىٰ ومن معه أجمعين، ثم أغرق الآخرين، ثم قال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ في نجاة موسىٰ ومن معه، وغرق فرعون وشيعته آية كبرىٰ من آيات الله في الأرض، وما تنبه عليها أكثرهم، ولا انتفع بها غالبهم، وهو يفيدنا أن الذي غرق مع فرعون هم طائفة من قومه، ولذلك قال في بعض الآيات ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ﴾، وأنَّ الذي بقي بلا غرق لم ينتفع بهذه الآيات، وبقي علىٰ شركه ووثنيته ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ غالب علىٰ أمره لا يعجزه شيء، رحيم بخلقه في عقوبته.

موسى عليه السلام

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ٧-١٤].

* شرح وعبرة:

(١) الجديد في هذه القصة أن موسىٰ عليه السلام حينما وصل المكان الذي فيه النار نُودِيَ أن بورك مَن في النار ومَن حولها، والمراد بمن في النار من في مكانها وهو موسىٰ لقربه منها، وبمن حول مكانها الملائكة، والمكان هو البقعة المباركة التي وردت في سورة القصص ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠].

ومجموع الآيات يعطينا أن الله -تعالىٰ- بارك من في النار، ومن حول النار، كما جعل البقعة التي حصل فيها كلام الله لموسىٰ مباركة، والسبب في أن هذه البقعة بوركت وبورك من فيها وحواليها= حدوث هذا الأمر العظيم فيها، وهو تكليم الله موسىٰ عليه السلام، وجعله رسولًا، وإظهار المعجزات علىٰ يديه، ولهذا جعل الله أرض الشام موسومة بالبركات في قوله: ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا

﴿فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١]، وحقت أن تكون كذلك، فهي مبعث الأنبياء ومهبط الوحي، وكِفَات[(١)] الأنبياء أحياءً وأمواتًا ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تنزيه لله -تعالىٰ- عما لا يليق به من صفات المخلوقين كحلول أو اتحاد أو غير ذلك.

وذلك التنزيه كالتمهيد لإعلام موسىٰ أن كلام الله له ووحيه إليه لم يكن علىٰ نحو كلام المخلوقين بعضهم مع بعض، وقيل: إنه تعجيب لموسىٰ من ذلك الأمر: كأنه يأمره بأن يقول: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وإيذان بأنَّ ذلك الأمر مريدُه ومكونُه ربُّ العالمين، وفي اختيار كلمة ﴿رَبِّ﴾ إشعار بأن ما سيلقاه موسىٰ ﷺ من الله -تعالىٰ- هو من باب تربية العالم تربية روحية؛ لأنَّه شريعة والشرائع مربية للروح، كما أن النعم الظاهرة تربي الجسم، ولا غنىٰ للإنسان عن تربية روحه مع تربية جسمه، وقوله: ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾، أي: لم يرجع بعد أن ولَّىٰ.

وقد خاف موسىٰ؛ لأنَّه لم يألف أن تنقلب العصا ثعبانًا يمشي في الأرض بسرعة وخفة، ولذلك أطلق عليه (جانّ)، فإنه: الثعبان الصغير الذي يمشي بسرعة، ومن جهة أخرىٰ قد يظن موسىٰ أن انقلاب العصا حية تسعىٰ لأمر أريد به تكفيرًا لما حصل منه قبل النبوة، ولذلك قال الله له: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾، وهي كلمةُ عَظَمَةٍ صدرت من إله يري بها نبي الله موسىٰ أنه لا ينبغي للرسل أن تخاف بحضرتي؛ لأنَّهم تحت رعايتي ولطفي.

ولـمَّا كان موسىٰ قد يعلق بذهنه أن يكون ذلك الحادث له صلة بفعلته مع القبطي= طمأنه الله -تعالىٰ- بقوله: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وهو من التعريضات التي يلطف مأخذها ويدق مسلكها، وقوله: ﴿مُبْصِرَةً﴾، أي: واضحة جلية.

وقد نسب الإبصار لها مع أنه لمتأمليها؛ لأنَّهم اتصلوا بها وكانوا متعلقين بها بنظرهم وتفكرهم فيها، فكان إبصارهم ما فيها من جلاء كأنَّه إبصار لنفس الآيات، أو جعلت كأنها تبصِّر فتهدي، ومنه قولهم: كلمة عيناء، وكلمة عوراء، لأن الكلمة الحسنة ترشد، والكلمة السيئة تغوي، وقرئ: (مَبْصَرَة) -بفتح الميم،

---

(١) جامعة.

وهي كقولهم: مجبنة ومبخلة- أي: مكان يكثر فيها التبصُّر[1]. ﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾، أي واضح لا شك في أنه سحر بعد مجيء الآيات واضحة جلية، ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا﴾ أنكروها، والحال أنَّ أنفسهم قد أيقنت بها، وعلمت أنها حق من عند الله ﴿ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾، أي: إنَّ الحامل لهم علىٰ ذلك ظلمُهم وترفعهم علىٰ نبي الله موسىٰ، وذلك أشد أنواع الكفر أن يوقن القلب وينكر اللسان.

وقد عرَّفنا الله -تعالىٰ- بهذه الجملة أنَّ فرعون وملأه كانوا يعلمون من قرارة نفوسهم أن موسىٰ ﷺ رسول صادق فيما أخبر به عن الله -تعالىٰ-، ولكن كبرهم وتعاليهم علىٰ الناس قضىٰ عليهم أن يكذبوه ويخلقوا له التهم، وذلك هو كفر الجحود، وهو الذي يستحق به صاحبه الخلود في جهنم، ومثله ما حكاه الله عن أعداء محمد بن عبد الله ﷺ في سورة الأنعام: ﴿فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، أي: إنَّهم لا يعتقدون أنَّك كاذب في دعوىٰ الرسالة؛ لأنَّهم لم يجربوا عليك كذبًا فيما بينك وبينهم، ولكنَّهم يجحدون بآيات الله لظلمهم وخروجهم عما ينبغي، وتعاليهم علىٰ تعاليم الرسل، ولذلك عقب الآية التي معنا بقوله: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ كان عاقبتهم ما فعل الله بهم من الإغراق في اليم.

---

(١) انظر: المحتسب، لابن جني: (٢/١٣٦). (عمرو)

موسى عليه السلام

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ
بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ
طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ
عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى
ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ
مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ
وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ
فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ(١) عَيْنٍ لِّى
وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ
مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ(٢) إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا(٣) عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ(٤) فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ(٥) وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾
۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ
لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ

---

(١) من قرّت عينه تقر: سرت.

(٢) صفرًا من العقل.

(٣) شددنا عليه، وقوّيناه بالصبر.

(٤) اتبعي أثره.

(٥) بُعد.

حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ(١) مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا(٢) لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ(٣) ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ(٤) بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ١-٢١].

* شرح وعبرة:

(١) ﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ نقص عليك يا محمد من خبر موسىٰ وفرعون ما فيه العبرة، وقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾، أي: محققين في ذلك القصص، وقوله: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بيان لمن يستفيد من ذلك القصص، وهم الذين استعدوا للإيمان، وهم الذين قال فيهم: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾. لقد كان فرعون مثلًا من أمثلة الاستبداد، وعنوانًا للظلم واستعباد الناس، وقدوة سيئة في الشرّ، ولذلك قال في آخر قصته يصفه هو وأعوانه ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾.

---

(١) الوَكز: هو الطعن والدفع والضرب بمجمع الكف.

(٢) مُعينًا.

(٣) يستغيثه.

(٤) يتشاورون فيك.

فأول شيء حدثنا الله به عن فرعون: أنه علا في الأرض وتجاوز فيها الحد وطغىٰ، ولم تكن سيرته في الحياة سيرة عبادٍ لله طائعين، بل سيرة مَرَدَة متكبرين.

وثانيها: أنه جعل أهلها شيعًا وأحزابًا يستعين ببعضهم علىٰ بعض، ويذل بكل حزب ما عداه من الأحزاب، ويذلهم جميعهم بعضهم ببعض، ويأمنهم جميعًا بواسطة ذلك التحزب الذي غرسه فيهم، حتىٰ إذا تحرك حزب لمناوأته قام حزب آخر ليدافع عنه، لا محبة فيه بل إرضاء لشهوة الحزبية، وكذلك فعل المستعمرون بالبلاد التي احتلوها، جعلوا أهلها شيعًا وأحزابًا سياسية فشغلوا الأمم عنهم ببعضهم، ووجهوا دفة الجهاد إلىٰ ناحية غير الناحية التي تريدها الأمة.

ومن عجيب أمرهم أنَّهم يخلقون هذه الأحزاب، ويغذون فيها معنىٰ الحزبية بأساليب شيطانية ثم مع ذلك يطلبون منها الوحدة، إذا هي طلبت منهم مصلحة من المصالح أو عملًا من الأعمال وكأنَّهم يعلِّقون إجابتها إلىٰ ما تطلب علىٰ محال أو قريب من المحال؛ إذ الحزبية لا يمكن أن تزول ما دامت الأمة الغاصبة باسطة سلطانها علىٰ الأمة المغصوبة؛ لأنَّ الغاصب من أهم أغراضه في الاستعمار أن لا يُمكِّن الأمم من الوحدة، وأن يحول بينهم وبين اتحاد الكلمة، ولا سيما إذا كان المستعمر قد مكَّن لجميع الأحزاب من الحكم، وأذاقها لذة السلطة، فأصبحت حريصة علىٰ استبدادها بالسلطان، وذلك ما لا يتفق واتحاد الكلمة، وإجماع الأمر، وكأنَّ فرعون كان إمامًا للمستعمرين، وقدوة للغاصبين، ينسجون علىٰ منواله، ويترسمون خطواته، ولِمَ نذهب بعيدًا ونباعد بين فرعون وبين أولئك الغاصبين حتىٰ نقول إنَّه إمام لهم وقدوة سيئة في الشر وفرعون أول الغاصبين لمُلك بني إسرائيل من أصحابه، وأول الخارجين علىٰ دستور الإله العادل الحكيم الذي يقضي بالشورىٰ في مصالح الناس ومرافقها، ويقضي بأن يخلق الناس أحرارًا في بلادهم لا يتعبدهم أحد، ولا يذلهم أحد، كما قال عمر بن الخطاب: «منذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟!»[1].

فإذا كان الغاصبون خارجين علىٰ الدساتير المألوفة للبشر، ففرعون خارج علىٰ الدستور الإلهي الذي رضيه لعامة الناس في أنحاء الأرض، فنكون مبعِدين

---

(١) فتوح مصر والمغرب: (١٩٥)، حسن المحاضرة: (١/٥٧٨). (عمرو)

إذا قلنا إنَّ فرعون قد فتح الباب للغاصبين، وسن لهم السنن السيئة، وإنما هو أولهم، وعمودهم الفقري، وهو ربهم الأعلىٰ الذي يملي عليهم من وحيه الشيطاني ما يستبيحون به إرهاق الناس وإذلالهم، ولا غنىٰ لكل مستعمر من التفكير في سيرته والبحث في عاقبته، وستكون نهايتهم كنهاية فرعون: خذلان بيِّن، وذل فاضح، وعبرة مكشوفة، سيبوؤون بما باء به إمامهم وقدوتهم، ويندمون حيث لا ينفع الندم، كما ندم فرعون حين ألجمه الغرق، و﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾.

فقال الله له منكرًا عليه ذلك: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ لم يقبل الله منه إيمانًا في الوقت الذي ذهب فيه سلطانه، وأحاط به الموت؛ لأنَّه كان عاصيًا من قبل، وكان من المفسدين في الأرض، وإنَّما ينفع الإيمان في وقت يتمكن فيه فرعون من الإيذاء ثم يدعه طاعة لله، ونزولًا علىٰ أمره ونهيه.

وكذلك المستعمرون سيحل بهم من الموت الأدبي ما حل بفرعون، ثم يقولون لمن ظلموهم وقد حل بهم من أسباب الهلاك ما حل: لقد كنا مخلصين لكم، حريصين علىٰ مصالحكم، فأشفقوا علينا، ولا تقابلوا الشر بالشر، وهنالك يقول لهم المظلومون: الآن وقد استبحتم ظلمنا من قبل وإذلالنا في بلادنا، والحيلولة بيننا وبين ثمار أعمالنا، نحن لا نقبل منكم في ذلك الوقت إخلاصًا، ولا نصدِّق لكم كلامًا.

والثالث من أخلاق فرعون: أن يستضعف طائفة منهم، وهي الطائفة التي ليس فيها من المناعة الخلقية ما يحول بينها وبين المستبد، ونحمد الله أن لم يقل يستضعفهم، بل قال: ﴿يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ﴾؛ لنعلم أن الضعف الخلقي إذا حلَّ بقوم لم يعمَّهم جميعهم، بل يحل بطائفة منهم، وكذلك رجال الاستعمار وأذنابهم يستضعفون طائفة من الأمة، ولا تخلو الأمم من ضعفاء، فيُغرونها بالمال تارة، والمنصب تارة أخرىٰ، ليضموها إليهم، حتىٰ إذا أخذت الأمة تطالب بحقها، وتذود عن حياضها، قامت لها تلك الطائفة فوقفت في سبيلها، وحالت بينها وبين ما تريد.

وقد كان بلاء المسلمين في أنحاء الأرض علىٰ يد طائفة منهم، تناصر الغاصب، وتعاون المستعمر، وتأخذ علىٰ عاتقها إخماد كل حركة من شأنها أن تُنغِّص عليه عيشته، أو تقض مضجعه، حتىٰ يعيش في بلاد المسلمين آمنًا بأيدي المسلمين أنفسهم، وينفذ أغراضه الاستعمارية من طريقهم هم، ويعطل شعائر الدين، ويخرب دور العلم، ومساجد العبادة، ويعمل كل ما يريد علىٰ حساب تلك الطائفة الضعيفة، التي قنعت بالسلطان الزائف، والحكم المستعار، ورضيت أن تعيش كالأنعام بملء بطنها، لا إرادة لها ولا اختيار.

وعلىٰ المسلمين أن يفطنوا لتلك الطائفة، وأن يأخذوا علىٰ أيدي الظلمة ويقفوا في وجه الاستبداد، ويحولوا بين الأمة وبين سموم هذه الفئة؛ حتىٰ لا يتسرب إلىٰ فئات أخرىٰ فيصبح الداء عضالًا، والعلاج مستحيلًا، فقد نهىٰ الله عن الظلم كما نهىٰ عن مُظاهرة الظالمين، بل عن قربانهم، وتوعد الذين يركنون إلىٰ الذين ظلموا أن تمسهم النار؛ كل ذلك ليبقىٰ الظالم وحيدًا في ظلمه، فريدًا في بغيه، وقد يفكر في إقلاعه عن الظلم إذا أحس تلك الوحشة، وشعر بأنه بغيض ممقوت، ولكن الأمة تغريه بالظلم إذا رأىٰ منها مَن يصفه بالعدل، وتحببه في الإيذاء إذا وجد الناس تقبل عليه في ثناء وإطراء، فاللهم أنقذ الأمة من ظلم الظالمين، وضعف المستضعفين، وهبها حياة قوية مثمرة، وخلقًا متينًا تستبدل به الضعف قوة، والهوان عزًّا ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْۚ﴾ ذلك من جبروت فرعون وبطشه، وهو جبروت لم نسمع بمثله في التاريخ، وليست الآية تفسيرًا لقوله ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾، بل كلام مستأنف جديد بين لنا علوه في الأرض، ولا عجب أن يصنع فرعون ذلك الصنع ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ ومن كان خلقه الإفساد في الأرض لا يُستَغرب منه ذلك العمل.

(٢) ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ذلك من نبأ فرعون عطف علىٰ قوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، والتعبير بالمضارع لحكاية الحال الماضية، وقد وقعت هذه الجملة قصاصًا لفرعون، وانتقامًا منه، ومكافأةً له علىٰ ما قدم، فقد أهان فرعون الشعب الإسرائيلي وأذله، وأخذ يذبح الأبناء، ويستحي النساء، ونسىٰ ربه وخالقه، وادعىٰ أنه الرب الأعلىٰ، فقال الله له: لقد كان منك

ما كان، وكان منا أن تعلقت إرادتنا أن نمن علىٰ الشعب الذي استضعفته وأذقته العذاب ألوانًا، ونجعلهم أئمة يقتدىٰ بهم في الدين والدنيا، يتأسىٰ بهم الناس، ويقتدون بهم في الخير، أو نجعلهم ولاةً في الأرض وملوكًا، كما قال: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠]، وهو خطاب للشعب الإسرائيلي وامتنان عليه بما أعطاه من قوة بعد ضعف، وعز بعد ذل، وملك بعد استعباد، وأورثه ملك فرعون وعظمة فرعون، وكذلك الآيات التي معنا يرينا الله فيها أن فرعون علا في الأرض، وصنع بأهلها ما لا ينبغي، وظن أنَّ عزه سيبقىٰ، وأنَّ ملكه لا يزول، ولكنَّ الله أراد -ولا رادَّ لِمَا أراد- أن يمن علىٰ الذين استضعفوا في الأرض، ويجعلهم أئمة وولاة، ويجعلهم الوارثين لملك فرعون، وأن يمكن لهم في الأرض، ويثبت فيها أقدامهم حتىٰ لا يستطيع أحد أن يخرجهم منها، ويطلق أيديهم في مصر والشام، ويهبهم السلطان والنفوذ، ويري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يخافون من ذهاب ملكهم، وهلاكهم علىٰ يد مولود منهم؛ ذلك ما أراده الله -تعالىٰ- لشعب بني إسرائيل، ومتىٰ أراد الله شيئًا نفذ.

والعبرة فيما صنعه الله مع الشعب الإسرائيلي أن سلط عليهم فرعون، فابتلاهم به فوجد فيهم استعدادًا للذل، واستئهالًا للعبودية، فبسط عليهم سلطانه، وتغالىٰ في بطشه ونكاله؛ ولذلك يقول الله في وصفه: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤].

ولو أنَّ فرعون وجد من قومه مقاومة للباطل، واستنكارًا للظلم، لغلبوه علىٰ أمره، وأوقفوه عند حده، وقد بعث فيهم رسوله موسىٰ لينقذهم من ذلك فرعون، ويدعوهم إلىٰ التوحيد، فكان من بني إسرائيل من يشايع فرعون علىٰ حرب موسىٰ، وهم ملؤه المستكبرون.

وقد أيد الله موسىٰ بآياته، وصدقه بمعجزاته، فجمع له السحرة رجاء أن يظفروا بموسىٰ، فكانوا حربًا علىٰ فرعون وملأ فرعون، فاشتد عليه الأمر، وقتله الغيظ والحزن؛ لأنَّ حزب موسىٰ سيكبر علىٰ الرغم منه، فضاعف الإيذاء فأذن الله لموسىٰ بالهجرة، فأتبعهم فرعون بجنوده، فحل به من الغرق ما حل، وهنالك

ذهب سلطانه، وتقوّض ملكه؛ لأنّه تغالىٰ في الظلم، وأمعن في الإيذاء، وأسرف في استعباد الناس، فلم يبقَ إلّا انتقام الله للعدل، وغيرته للحق، فجاء نصره بنجاة موسىٰ وغرق فرعون آية عظمىٰ، وعبرة واضحة.

وفي كل زمن فراعنة يظلمون الناس ويستعبدونهم، ويستمرئون الظلم لهم، ومع أولئك الفراعنة بطانات شر، يشكرونهم علىٰ الظلم، ويطرونهم علىٰ استعباد الناس، ويحببونهم في الشر الذي هم عليه؛ لأنَّ لهم من وراء هذا حظًّا في الحياة من مال أو نفوذ.

وفي كل زمن يسلط الله علىٰ فرعونه من ينغص عليه عيشته، ويقض مضجعه، فإذا كثر حزب فرعون وبطانات السوء، ورضي الناس بالظلم؛ فإنَّ الله يسلطه عليهم، ويبقىٰ الحال كذلك حتىٰ يشعروا بالذلة، ويحسوا العبودية، ويستنكروا ذلك العمل، ويأخذوا في الخلاص منه، وهنالك يحل بهم من تأييد الله ونصره ما هم له أهل، فيجعلهم سادة بعد أن كانوا عبيدًا، وحاكمين بعد أن كانوا محكومين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرعد: ١١].

ذلك هو الطريق الطبعي للقضاء علىٰ الفراعنة في كل زمان، وقد يسلط الله عليهم من أنواع الهلاك ما سلط علىٰ فرعون موسىٰ إذا بالغوا في الظلم وأغرقوا في العسف والجور، فيقلب الله لهم ظهر المجن، ويسلبهم السلطان والملك، ويثلّ عروشهم، ويهدم ملكهم، جزاء لهم علىٰ بغيهم، وانتقامًا منهم علىٰ سوء عملهم.

وعلىٰ ملوك الأرض أن تعتبر بسيرة فرعون، وما أنزله الله به من عقوبة، وأن تذّكر بعرشه الذي تقوّض، وملكه الذي ذهب، بعد أن كان له من الحول والطول ما كان، حتىٰ قال وهو يستخف بموسىٰ وهارون: ﴿أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الزخرف: ٥١].

وقد نسي فرعون المستبد أنّه كمّ من عروش ثلت، وممالك قوّضت، فوق عرش مصر الذي يجلس عليه فرعون: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [آل عمران: ٢٦].

ويرينا الله بهذه الآيات أنَّ الضعيف لا يبقىٰ علىٰ ضعفه، بل قد يتحول الضعيف إلىٰ قوي، والقوي إلىٰ ضعيف، والحاكم إلىٰ محكوم، والمحكوم إلىٰ حاكم؛ لأنَّ الأيام دول، والله يقلب الليل والنهار، والفلك يدور والمسكين هو المغرور.

(٣) ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ ... إلخ، شروع في تربية الله لموسىٰ، وإنقاذه من فرعون حيث ألهم أمه أن ترضعه، فإذا خافت عليه من فرعون ألقته في اليم بوضعه في تابوت وجعله في النيل، وقد طمأنها عليه ووعدها أن يرده إليها وأنَّه سيجعله نبيًا مرسلًا، وقد ألقىٰ محبته في آل فرعون حينما عثروا عليه وأوصوا بعدم قتله رجاء أن ينفعهم أو يتخذوه ولدًا، فالتقطوه فكان عدوًّا لهم وحزنًا، جزاءً لفرعون وجنده علىٰ ظلمهم، ثم تألمت أمّه لفراقه وأصبح فؤادها صفرًا من العقل، خلوًا من الرضا، لولا أن ربط الله علىٰ قلبها بالصبر لكشفت السر وأفسدت التدبير.

وحين ذاك أوصت أخته أن تتبع أثره، فرأته علىٰ بُعد بدون أن تُشعِر قوم فرعون، وقد حرّم الله عليه التقام ثدي المرضعات، فتقدم إليهم أخته في هيئة الناصح، وقالت: هل أدلكم علىٰ أهل بيت يكفلونه لكم، فنزلوا علىٰ رأيها، ورده الله إلىٰ أمه كي تسر ولا تحزن، ولتعلم أنَّ وعد الله بإرجاعه لها حق لا مرية فيه، وقد شرحنا القصة في سورة طه.

كل ذلك التدبير من نعم الله علىٰ موسىٰ يذكّره بها؛ ليعلم أنَّ الذي حفظه وهو صغير في كنف عدو الله وعدوه فرعون= جدير بأن يحفظه وهو كبير راشد.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ تصديق لوعد الله -تعالىٰ- لأمه وهو في المهد أنَّه سيجعله رسولًا؛ فهو يرينا بهذه الآية أنَّه بر بوعده لأمة، وأعطاه الحكم والعلم، فالحكم هو النبوة، والعلم هو علم التوراة حين بلغ أشده واستوىٰ؛ أي: كملت قواه الجسمية العقلية، وقيل الحكم والعلم: هو الحكمة والعلم النافع، كما قال: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب: ٣٤]، وقوله: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ

﴿ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]، وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، أي: كما جزينا أم موسىٰ بذلك الجزاء، وهو حفظ ولدها وتربيته في بيت الملك الذي خلق للقضاء عليه، وربطنا علىٰ قلبها بالصبر، وحرمنا عليه المراضع، وسخرنا له أخته لترشدهم إلىٰ من يكفله، وألقينا عليه محبة من الله يجذب بها قلب امرأة فرعون إليه، ووفينا لها بالوعد، وجعلناه رسولًا.

كل ذلك لأنَّ أم موسىٰ كانت محسنة، فكافأناها علىٰ إحسانها بذلك العمل، أو: «وكذلك نجزي المحسنين»، أي: كما جازينا موسىٰ علىٰ إحسانه في الصغر، واستعداده للخير المطلق بذلك التدبير واللطف، نجزي كل محسن، والله يعلم ماذا أحسن به موسىٰ، فهو أدرىٰ بأعماله، وإن كان لم يقص علينا كل تاريخه، بل قص خبر نشأته في بيت فرعون، ولطفه به في بيت الظلم ومهد الجور والعسف، كما قص علينا خبر قتله للرجل الذي كان يتشاجر مع رجل من أنصاره.

(٤) ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ ... إلخ، قيل المدينة هي القرية التي كان يسكنها فرعون، وهي علىٰ رأس فرسخين من مصر، وقال الضحاك: هي عين شمس، وليس في الآية دليل علىٰ أنَّ قتل القبطي كان بعد النبوة؛ لأنَّ الواو لا تفيد ترتيبًا، والقرآن الكريم لا يسرد لنا الحوادث كما تسردها كتب التاريخ علىٰ نظام وجودها، بل هو كتاب عبرة، وتربية نفسه وخلقية، فيصح أن يذكر الحوادث مبتدئًا بأهمها، وإن كان ترتيبه في الوجود متأخرًا والمناسبة في قوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ ... إلخ: أنَّه لما عرض لحديث نشأة موسىٰ في حجر فرعون وبيته، وأنه حفظه وهو صغير، ناسب أن يتمم تاريخه ويقول: إنَّ ذلك الطفل لما بلغ أشده واستوىٰ آتاه الله الحكم والعلم كما وعد أمه.

فقصة إعطائه الرسالة جاءت بين قصة تربيته، وقصة قتله للقبطي لمثل تلك المناسبة، لا لأنَّها قبلها، ويدلُّ لذلك قول فرعون له في سورة الشعراء: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ۝١٨ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٩ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٢٠ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٨-٢١].

فرعون يذكره بقصة قتل القبطي وأنه كافر بنعمة فرعون، فيقول له موسىٰ قد فعلتها قبل أن يهديني ربي إلىٰ دينه، كما قال في محمد ﷺ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾، وأنَّه عقب ذلك فرّ منهم لما خافهم، فوهب الله له الحكم وجعله من المرسلين، وعطفه بالفاء الدالة علىٰ الترتيب، وهو نص صريح في أن قتل الرجل كان قبل الرسالة، أمَّا الآية التي معنا فكل ما فيها أنَّها عطفت قصة القبطي علىٰ إيتائه الحكم بالواو، والواو لا تقتضي تعقيبًا ولا ترتيبًا، وذلك علىٰ فرض أنَّ الحكم والعلم: هما حكم الرسالة وعلم التوراة، أمَّا إذا قلنا هو الحكمة والعلم النافع، ولا يخلو عصر من العصور عنهما؛ إذا قلنا ذلك فالأمر أهون وأهون.

وقوله: ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ ... إلخ؛ لأنَّه خطأ والخطأ من الشيطان، وقد جرَّ إلىٰ ذلك القتل ما يحصل كثيرًا من الناس أن يتشاجر حزبان، فيستعين كل حزب بشيعته، وتنتهي المشاجرة في بعض الأوقات بقتل، والمتشاجران لم يقصدا إلىٰ القتل، ولا خطر لهما علىٰ بال، ولذلك لا يعاقب القانون الوضعي علىٰ هذه المشاجرات عقوبة القتل، بل يقولون هي مشاجرة أدّت إلىٰ قتل، ونسبه إلىٰ الشيطان؛ لأنَّ الحامل عليه غرض حزبي، وما كان كذلك فهو من عمل الشيطان.

وقد طلب موسىٰ أن يغفر الله له ذلك؛ لأنَّه هو الذي أخذ في أسبابه ومقدماته، وجريًا علىٰ سنن المقربين في استعظام ما فرط منهم ولو كان من محقرات الصغائر: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾، يحتمل: **أن يكون قسمًا**؛ أي: أُقسم بإنعامك عليّ لأتوبن، فلن أكون بعد هذا عونًا للمجرمين، **وأن يكون استعطافًا**، أي: بحق إنعامك عليّ اعصمني، فلن أكون معينًا لمجرم، وسواء قلنا: إنَّه قسم أو استعطاف، فهو يبرأ من أن يظاهر رجلًا أو طائفة علىٰ إجرامها، وهو خلق ديني اتَّفقت عليه الشرائع السماوية، وحتمته الأديان، ولذلك يقول الله -تعالىٰ-: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾ [المائدة: ٢]، ويقول: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء: ١٠٧].

فهو -سبحانه- ينهانا أن نتعاون علىٰ الإثم، وهو المحرّم، ثم العدوان؛ لأنَّ أكثر تعاون الناس عليه، ونهانا أن نجادل عن الذين يختانون أنفسهم بعصيان

الله -تعالىٰ-، فلا ندافع عنهم، ولا نعتذر عن أعمالهم، أو نهوّنها أمام القانون.

وما أحوج رجال المحاماة إلىٰ تدبر هذه الآية؛ فإنَّ الرجل منهم قد يعلم أن موكله مجرم آثم، ثم هو مع ذلك يقبل التوكيل منه، ويدافع عنه بكل ما أوتي من قوة.

ومن غريب أمر المحامين أنَّهم يعتذرون عن ذلك العمل بأنَّه قيام بالمهمة الملقاة عليهم، ولا ندري ما الذي أوجب عليهم أن يدافعوا عن مجرم، ويعلموه كيف يخفي معالم الإجرام، وكيف لا يعترف أمام القضاء بما يكون حجة عليه، أهو دينهم الذي ينهاهم عن الدفاع عن المجرم، أم هو القانون الذي خلق هذه المهنة خلقًا لتنوير القضاء، وتسهيل مهمته عليه، فالقاضي والمحامي شريكان في نشر العدالة، ونصيران للحق والعدل، ولكنَّه التعيش يلجئ كثيرًا من المحامين لقبول التوكيل من المجرمين، كالقتلة واللصوص، والمهربين للمخدرات، والمتجرين بالأعراض؛ حمانا الله من ذلك كله.

﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾ يطلب منه المعونة في حادث آخر ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾؛ لأنَّك تسببت في قتل رجل وتقاتل اليوم رجلًا آخر؟ و﴿مُّبِينٌ﴾ بيِّن الغواية، ظاهرها، وهو يدل علىٰ نفرة موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ من معاودة ذلك العمل والرجوع إليه ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾ الضمير للمستنصر لا لموسىٰ، فهو الذي أراد أن يبطش بقبطيٍّ آخر هو عدوّ له ولموسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿قَالَ﴾ القبطي: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾.

وقد وجه القول إلىٰ موسىٰ؛ لأنَّ حادث قتله للقبطي قد أشيع، وكان سبب هذا القتل استنصار الإسرائيلي بموسىٰ، وقد أعاد استنصاره له، فظن القبطي لذلك كله أنَّ موسىٰ سيطاوعه ويقتله كما قتل أخاه، فخاطبه بذلك الأسلوب منكرًا عليه أن ينضم إلىٰ صاحبه كما انضم إليه بالأمس.

ومن البعيد جدًّا أنَّ موسىٰ يخطئ مرة في تشيعه للذي من شيعته، ويكون من وراء ذلك قتل رجل بدون ذنب، ثم يعاود الخطأ مرة أخرىٰ، وكذلك من البعيد أن موسىٰ يقابل الرجل الذي يستنصره في المرة الثانية بقوله: ﴿إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾، ثم ينحاز إليه مرة أخرىٰ.

ومن البعيد أيضًا أن يكون الخائف من موسىٰ علىٰ نفسه في المرة الثانية هو المستنصر، أما علىٰ التوجيه الذي ذكرناه فالآية منسقة والمعنىٰ مستقيم، ولا سيما أن موسىٰ تاب وأناب إلىٰ ربه أن يكون ظهيرًا لمجرم، فلا يمكن أن ينقض توبته في اليوم الثاني، ولا بُدَّ أن ينتفع بذلك الخطأ الذي وقع فيه في المرة الأولىٰ، وهو الشأن في المؤمنين فضلًا عمن أعدّهم الله للرسالة، وهيأهم للزعامة في الدين، ثم جاء رجل يبلغه أنَّ القوم يتشاورون في قتله؛ ليخرج من المدينة، فخرج وهو يدعو الله أن ينجيه من الظالمين، وقوله: ﴿مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ﴾ يفيد أنَّ مسألة القتل أشيعت، وعُلِم أمرها لفرعون وغيره، فلا مانع أن يوجِّه القبطي الخطاب إلىٰ موسىٰ علىٰ ذلك النحو الذي ترىٰ.

وجملة القول: إنَّه يبعُد بعد أن قال في شأن قتله للقبطي ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾، وبعد أن قال: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾، وبعد أن قال: ﴿رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾؛ يبعد بعد ذلك كله أن يكون المريد للبطش هو موسىٰ سواء أكان يريد البطش بالقبطي، أو يريد البطش بالإسرائيلي الذي استنصره؛ لأنَّ معناه أنَّ موسىٰ لم ينتفع بذلك الخطأ الذي أسف له وندم عليه، وهناك سبب آخر يمنع من أن يكون البطش من موسىٰ بالإسرائيلي: هو أنَّ الإسرائيلي من شيعة موسىٰ، فلم يعرف بالعداوة له، وإنَّما هو عدو للقبطي فقط، اللهم إلَّا إذا ادُّعِيَ أنَّ العداوة جديدة بسبب أنَّه أوقع موسىٰ في قتل القبطي للمرة الأولىٰ فأصبح بهذا الاعتبار عدوًّا لموسىٰ، ولكن ذلك خلاف الظاهر، وكل ما يؤخذ علىٰ الوجه الذي اخترته أن يكون مرجع الضمير في قوله: ﴿أَرَادَ﴾ للإسرائيلي، والضمير في قوله: ﴿قَالَ﴾ للذي هو عدو، وهو القبطي، وهو اعتبار لفظي قد عُهِد مثله في التراكيب، لا يرجح علىٰ الاعتبارات المعنوية التي ذكرناها مرجحة للوجه الذي اخترناه.

موسى عليه السلام

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ
مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِۖ(١)
قَالَ مَا خَطْبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ(٢) وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا
ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا
تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ
عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ
ٱسْتَـْٔجِرْهُۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى
ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍۖ(٣) فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ
أَشُقَّ عَلَيْكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَۖ أَيَّمَا
ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى
ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًاۖ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ
ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ(٤) مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ
مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْۚ(٥) يَٰمُوسَىٰٓ

---

(١) تدفعان عن الماء لزحام الناس عليه.

(٢) ينصرف رعاة الغنم.

(٣) سنين.

(٤) بقية.

(٥) يرجع.

أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْآمِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ(١) فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا(٢) يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا(٣) فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا(٤) لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ(٥)﴾ [القصص: ٢٢-٤٢].

* شرح وعبرة:

(١) ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾. لما فر موسىٰ من مصر بسبب قتل القبطي توجه جهة مدين، وهي بلاد واقعة في شبه جزيرة سينا في شمال الحجاز وجنوب فلسطين، تنسب إلىٰ مدين، وسميت القبيلة باسمه.

وقد طلب موسىٰ من ربه أن يهديه الطريق السويّ، ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾ . . . إلخ= بيانٌ لقصته في الزواج وسببه، وهو مروءته ونجدته وأمانته، بعد أن رأىٰ من المرأتين ضعفًا عن مقاومة الرعاة، وبعد أن أخبراه أنَّ أباهما

---

(١) الفزع.

(٢) معينًا.

(٣) غلبة وقوة.

(٤) بيتًا عاليًا، وأطّلع: أصعد.

(٥) المطرودين المبعدين.

شيخ كبير لا يستطيع أن يساهم مع المساهمين في سقي الغنم، وأن إحدىٰ المرأتين جاءته تمشي في أدب وحياء، وأخبرته أن أباها يدعوه ليجزيه أجر السقي، وأن ذلك الشيخ حين وصل إليه موسىٰ وقص عليه قصصه طمأنه وأزال خوفه، و﴿قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وهناك طلبت إحدىٰ المرأتين من أبيها أن يستأجره للسقي، وشهدت له بالقوة والأمانة، وذلك ما يحتاجه الأجير، ولا سيما إذا كان معه في البيت الذي يعمل فيه بنات، أما القوة فقد عرفتها منه حين سقىٰ لهما، وأمَّا الأمانة فقد عرفتها فيه وهو في ذلك العمل، ثم عند عودته معها لإجابة طلب أبيها، والنساء تعرف أمانة الرجل من غض بصره وأدبه في ملاقاتهن، والمفسرون يذكرون روايات في أدب موسىٰ مع إحدىٰ المرأتين وهو ذاهب معها، وهي تدل علىٰ أدب موسىٰ مع هذه المرأة، وإذا لم يكن موسىٰ من الأمانة مع النساء إلىٰ حد يحببها في استئجاره، ويطلق لسانها بالثناء؛ إذا لم يكن موسىٰ كذلك وأكبر من ذلك فمن الذي يكون؟

وهنالك اقتنع الشيخ بصدق ابنته، فخطبه ليكون زوجًا لإحدىٰ بناته، ولم يعيِّن القرآن لنا البنت التي عرضها علىٰ موسىٰ، والظاهر أنَّها البنت التي شهدت له بالقوة والأمانة، وقد جعل مهرها أن يخدمهم ثمان سنين، فإن أتمَّ عشرًا فمن عنده، ولا يريد أن يشق عليه في ذلك الزواج، ويظهر أنه وجده معدِمًا فلم يطالبه بمال، ثم قال له: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الذين تأنس بهم، ويأنسون بك؛ لأنَّه لمح في موسىٰ خلق الصلاح، ومن الصالحين أيضًا للقيام بحقوق النسب، ومن أدب الشيخ أن يقول: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾، فيكل المستقبل إلىٰ الله -تعالىٰ-، فأجابه موسىٰ إلىٰ ذلك، وقال له: ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ﴾ أجل الثمان أو العشر، ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ﴾ لا يعتدىٰ علي في طلب الزيادة، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ شاهد ومهيمن علىٰ ذلك العهد الذي قضيناه.

وقد اختلف المفسرون في ذلك الشيخ أهو شعيب أم ابن أخيه أم غيرهما؟ والأحسن تفويض علمه إلىٰ الله -تعالىٰ-، والعبرة لا تتوقف علىٰ معرفة اسمه[1].

---

(١) الأقرب من كلام العلماء أن شعيبًا المذكور ليس هو شعيب النبي، وقد ظن بعض الناس أنه شعيب =

(٢) قصة النار والعصا واليد قد شرحت في سورة طه، والجديد هنا أن موسىٰ عليه السلام يقول: ﴿رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾، فيجيبه الله إلىٰ طلبه بقوله: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾.

= النبي ﷺ وهذا غلط عند علماء المسلمين مثل ابن عباس والحسن البصري وابن جريج وغيرهم، كلهم ذكروا أن الذي صاهره موسىٰ ليس هو شعيبا النبي ﷺ وحكي أنه شعيب عمن لا يعرف من العلماء ولم يثبت عن أحد من الصحابة والتابعين».

انظر: الجواب الصحيح: (٢/٢٤٩-٢٥٠)، (٥/١٢٦)، وجامع الرسائل والمسائل، ت: رشاد سالم: (١/٦١-٦٦)، وقد فصل الكلام عنه في هذه الرسالة، وجاء فيها: «وأما شياع كون حمىٰ موسىٰ شعيبا النبي عند كثير من الناس الذين لا خبرة لهم بحقائق العلم، ودلائله، وطرقه السمعية والعقلية؛ فهذا مما لا يغتر به عاقل. فإن غاية مثل ذلك أن يكون منقولا عن بعض المنتسبين إلىٰ العلم. وقد خالفه غيره من أهل العلم، وقول العالم الذي يخالفه نظيره ليس حجة، بل يجب رد ما تنازعا فيه إلىٰ الأدلة».

فائدة:

هذا من علم «مبهمات القرآن»، ومبهمات القرآن: ما لم ينص علىٰ ذكره من الأسماء. وقد يكون الإبهام لعلم أو نبات، أو حيوان أو مكان أو زمان . . . إلخ.

وقد ألف العلماء في هذا العلم، وقد حرص هؤلاء المؤلفون في هذا العلم علىٰ إبراز أهميته، غير أنه لا أثر له في فهم التفسير؛ إذ الأصل أن ما أبهمه الله -من أسماء الأعلام وغيرها- لا فائدة فيه. وهو ليس من متين العلم، بل يدخل في ملحه، وما يكون للمذاكرة.

وقد كان من منهج إمام المفسرين الطبري (ت: ٣١٠) الذي تميز به: أن يقف عند مبهمات القرآن، ويبين أنه علم إذا علم لم ينفع العالم به علمه، وإن جهله جاهل لم يضره جهله به.

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية (ت: ٧٢٨) فيما طريقه النقل من علم التفسير، فقال: «. . . وهذا القسم الثاني من المنقول. وهو ما لا طريق لنا إلىٰ الجزم بالصدق منه. فالبحث عنه مما لا فائدة فيه، والكلام فيه من فضول الكلام.

وأما ما يحتاج المسلمون إلىٰ معرفته، فإن الله نصب علىٰ الحق فيه دليلا.

فمثال ما لا يفيد ولا دليل علىٰ الصحيح منه: اختلافهم في لون كلب أصحاب الكهف، وفي البعض الذي ضرب به موسىٰ من البقرة، وفي مقدار سفينة نوح، وما كان خشبها، وفي اسم الغلام الذي قتله الخضر. ونحو ذلك . . .».

انظر: مقدمة في أصول التفسير، لابن تيمية، تحقيق: د. عدنان زرزور (٥٦)، أنواع التصنيف، مساعد الطيار: (١٤١). (عمرو)

والمراد أنَّ فرعون وملأه لا يستطيعان قتلكما، وسنجعل لكما سلطة وغلبة عليهم، فلا تعمل حسابًا لهم ولا لملكهم، ولا لسيئتك القديمة معهم، وقوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ **إمَّا متعلق بقوله:** ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَاۚ﴾، أي: إنَّ آيات الله ودلائل قدرته وسلطانه تحول بينهم وبين وصولهم إليكم بأذىٰ، ثم عقب ذلك بقوله: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾، **وإمَّا متعلق بقوله:** ﴿ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾، والمراد: أنَّهم سيغلبون فرعون وملأه بسبب الآيات التي أيدهم الله بها.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، فسموا آيات الله ودلائل صدقه سحرًا، ثم وصفوه بأن موسىٰ هو الذي اختلقه ليصرف به الناس عن فرعون.

ثم عقبوا ذلك بأنَّهم ما سمعوا بدعوة موسىٰ في آبائهم الأولين، وهنالك: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۖ﴾ يريد نفسه أي هو الذي يعلم المحقق من البطل، والرسول المؤيد بآيات، من الساحر، ويعلم من تكون العاقبة الحسنة له والثواب المقيم، وهو تعريض بفرعون ورجوعه إلىٰ الله -تعالىٰ- في حسابه للمحق والمبطل.

ثم عقب ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، وكأنَّه يقول: لو كنت ساحرًا كما يزعم فرعون ما أفلحت؛ لأنَّ الساحر لا يفلح، ولو كنت مفتريًا ما أيدني الله؛ لأنَّه لا يؤيد كذابًا، وإنَّما يؤيد الصادقين ويناصرهم، وما دام الله مؤيدًا لي فلست بالظالم، وإنَّما الظالم غيري.

﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾. لمَّا لم يستطع أن يعارض دلائل موسىٰ توجه إلىٰ بطانته ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾، وكلامه هذا قد تضمن نفي إله سواه، كما تضمن إثبات إلهية نفسه، ولم يرد فرعون أنَّه خالق للسماوات والأرض والبحار والجبار وخالق لذوات الناس؛ فإنَّ العلم بامتناع ذلك من أوائل العقول، وبدهيات المسائل، بل الإله هو المعبود، فالرجل كان ينفي الصانع، ويقول لا تكليف علىٰ الناس إلَّا أن يطيعوا ملكهم، وينقادوا لأمره، لا ما ظنه الجمهور من ادعائه كونه خالقًا للسماء والأرض، ولم يقل ذلك إرضاء لعقيدته، بل قاله يتغفل به بسطاء العقول، وصغار

الأحلام، أمَّا هو فكان موقنًا بصدق موسىٰ في دعوته، وأحقيته فيما يقول، وآية ذلك قول نبي الله موسىٰ له: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، وقوله: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾، وهو دليل تجبر فرعون وتكبره وتغفله لمن معه من القوم، يوهمهم أنَّ في استطاعته أن يعمل قصرًا عاليًا من الطين المحروق فيصعد عليه ليرىٰ إله موسىٰ الذي يدّعيه، وهو تهكم بموسىٰ عليه السلام؛ ولذلك عقبه بقوله: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ في دعواه.

ولقد كان فرعون مقتصدًا حيث ظن كذب موسىٰ ولم يقطع به، أو استعمل الظن موضع اليقين كقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٦].

﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ -تعالىٰ- فرعون وجنده بغير الحق، وظنوا أنهم لا يرجعون إلينا فنحاسبهم علىٰ ذلك التجبر.

﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ أخذه الله أخذ عزيز قادر، وأخذ جنده معه فألقاهم في اليم إلقاء من لا يعتدّ به ولا يؤبه له، كقوله: ﴿لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾ [الهمزة: ٤]، وقوله: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

ثم قال: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ جعلهم الله عبرة ونكالًا لمن يأتي بعدهم من القرون والأجيال ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ خذلناهم وحرمناهم التوفيق؛ لأنَّهم ليسوا أهلًا له، بسبب عنادهم وتكبرهم علىٰ الحق وأهله، مع إيقان قلوبهم به، فصاروا بذلك أئمة في الباطل، وقدوة في الشر، يدعون بسيرتهم التي ساروا عليها وتاريخهم الأسود إلىٰ النار، ذلك حالهم في الدنيا، ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾، كما ينصر الدعاة إلىٰ الجنة؛ فهم أشقياء في الدنيا تعساء في الآخرة، ﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ طردًا وإبعادًا عن رحمة الله ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾، أي: موسومين بحالة منكرة من سواد الوجوه، وزرقة العيون، وسحبهم بالسلاسل والأغلال، وغير ذلك.

والعبرة في هذا أنَّ ذلك جزاء المتكبر علىٰ رسل الله، المستخف بأوامر الله ونواهيه المناهض للرسل في دعوتهم، والمصلحين في إصلاحهم، سلَّط الله عليهم من وسائل الهلاك ما سلط، وحال بينهم، وبين التوفيق بما كسبت أيديهم، وجعلهم أئمة في الشر، وقدوة في الفساد، وأتبعهم لغة في الدنيا وسيخزيهم يوم القيامة، وهل هناك جزاء فوق ذلك الجزاء، وخزي فوق ذلك الخزي الذي ناله فرعون وجند فرعون؟

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ ... إلخ: يرينا أنَّه بعد أن أهلك فرعون وجنده بالغرق أعطىٰ موسىٰ كتاب التوراة ليبصِّر به الناس من الضلال، ويهديهم من الغي، ويرحمهم من الفوضىٰ، شأن سائر الكتب السماوية والشرائع الإلهية.

موسى عليه السلام

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ
فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ
آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ(١) الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ
فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي
الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ
الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ
رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ۖ وَإِن يَكُ
صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَا قَوْمِ
لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا
أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ
عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ(٢) ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا اللَّهُ
يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ
اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ
فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا ۚ
كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ(٣) ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ
سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ

---

(١) تدبير.

(٢) الجماعات الماضية، و(دأب): عادة.

(٣) شاك.

مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا[1] لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ
وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ
ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ
هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن
ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾
۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ
وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ[2] أَنَّمَا
تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ
هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ
بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ[3] بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ
﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ
ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٢٣-٤٦].

* شرح وعبرة:

(١) ليس في القصة جديد إلا قول الله -تعالىٰ-: ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ يريد أن تدبيرهم مقضي عليه بالفشل، فقد دبر فرعون لبقاء ملكه أن يقتل الأبناء، ويستحيي النساء، فسخر الله له من يتولىٰ هو بتربيته، ثم يكون حربًا عليه، وهو نبي الله موسىٰ، ثم عاد فرعون إلىٰ مثل كيده السابق وهو فاشل فيه.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ يوهم الناس ويريهم أنَّ من حزبه من يمنعه عن قتل موسىٰ، وأنَّ في استطاعته ذلك، مع أنَّه خائف من قتله، ويخشىٰ أن يكون قتله سببًا في تعجيل عقوبته؛ لأنَّه موقن من قلبه أنه رسول صادق، وإن

(١) بيتًا عاليًا، والأسباب: الطرق والأبواب.

(٢) هي نظير (لا بُدَّ)، كقوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾: من الجرم وهو القطع؛ أي: لا قطع لاستحقاقهم النار.

(٣) حلَّ.

كان ينكر ذلك بلسانه: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ تجبر من فرعون أنَّه لا يبالي برب موسىٰ إذا دعاه لينصره علىٰ فرعون ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ ما هم عليه من عبادة فرعون أو عبادة آلهته ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾، وذلك أيضًا تماكر من فرعون بقومه، يريهم أن موسىٰ يفسد عليهم معيشتهم إذا هم تبعوه.

وما علمنا رسولًا كانت دعوته مدعاة إلىٰ فساد، إنما الفساد في تحزب الناس عليه ومعاداتهم له، والحقيق أنَّ الفساد الذي يخشاه فرعون هو فساد قومه عليه، وخروجهم من قبضة يده، وذهاب سلطته وسلطانه، فالفساد الذي يخشاه هو ذهاب ملكه؛ لأنَّهم إذا رأوا الفرق بين طريق رسول الله، وبين طريق ألدّ أعدائه= رغبوا في طريق موسىٰ، وفي ذلك فساد خطة فرعون وضياع ملكه.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾: يرينا الله -تعالىٰ- أنَّ فرعون فوق تكبره وتجبره ينكر البعث والنشور ويوم الجزاء، ومن كان كذلك فهو جدير بأن يستعاذ منه، وسيأتي ما يفيد أنه ينكر البعث في سورة الدخان.

(٢) ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ . . . إلخ. قد رأيت أن أضم إلىٰ قصة موسىٰ وعظ مؤمن آل فرعون؛ لأنَّ فيه من أساليب التذكير بالله وباليوم الآخر ما تطمئن له النفوس، وتخشع له القلوب، وفيه من المنطق المستقيم ما تقوم به الحجة وتظهر به المحجة.

وما أحوج الواعظ إلىٰ مثل ذلك الوعظ الذي يتقدم به مؤمن آل فرعون إلىٰ قومه وعشيرته؛ ألا ترىٰ إلىٰ قوله: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ﴾ يريد إنْ يَكُ كاذبًا فسيرديه كذبه ويوقعه في المهالك، ويكفيكم مؤنة قتله، وإن يَكُ صادقًا في دعواه= يصبكم بعض الذي يعدكم من العذاب، ثم يقول: ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ﴾، فملككم لا يدوم، ولا تستطيعون أن تدفعوا عنا عذاب الله إذا جاء، ثم خوّفهم من أيام الأحزاب الذين مضوا وما فعل الله بهم من البطش والكيد، وخوفهم من يوم الجزاء الذي لا عاصم فيه من أمر الله، وذكرهم بما فعلوه بنبي الله يوسف، ثم دعاهم إلىٰ اتباعه، وزهَّدهم في الدنيا

ومتاعها الزائل، ورغَّبهم في الآخرة ومتاعها المقيم، وقال لهم لماذا أدعوكم إلىٰ النجاة وتدعونني أنتم إلىٰ النار، تدعونني للكفر بالله، وأنْ أشرك به ما لا أعلم من الأصنام والأوثان، وأراهم أن ما يدعونه من الآلهة ليس له دعوة مستجابة في الدنيا ولا في الآخرة، وأن مردَّ الجميع إلىٰ الله ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾، وأراهم أنَّهم سيذكرون في وقتٍ ما ما قدمه لهم من النصح، ﴿و﴾ قال لهم: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ﴾ بعد نصحي لكم ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ إنَّه ﴿بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾.

وأرانا الله -تعالىٰ- أنَّ ذلك المؤمن الذي تقدم بالنصح لآل فرعون حفظه الله من سيئات مكرهم، وحل بآل فرعون سوء العذاب.

وقد أجملنا في شرح هذه القصة؛ لأنَّ الكلام علىٰ قصة موسىٰ وهارون ﷺ قد طال، ولأنَّها ذكرت علىٰ سبيل الاستطراد.

موسى عليه السلام

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ
(٤٦) فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ (٤٧) وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ
أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤٨) وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ
عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (٤٩) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ[1] (٥٠) وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ
فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥١)
أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ
جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٣) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٤)
فَلَمَّا آسَفُونَا[2] انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا
لِّلْآخِرِينَ﴾ [الزخرف: ٤٦-٥٦].

* شرح وعبرة:

(١) يرينا الله في هذه السورة أنَّ موسىٰ قد أرسله الله إلىٰ فرعون وملئه، وأنَّه لمَّا جاءهم بالآيات الواضحة قابلوها بالضحك والهزء، وأنَّه بعد أن أتاهم بالآيات أخذهم بالعذاب رجاء أن يرجعوا، ولما كشف عنهم العذاب نكثوا.

بعد ذلك كله أخذ فرعون يعتز بسلطانه، ويفاخرهم بملكه، وكان يوهم الناس أنَّ من أعطاه الله ملكًا أصبح بملكه غنيًّا عن رسالة الله ودينه، ومَن وَهَبه سلطانًا في هذه الحياة لا يصح أن يخضع لرسول ليس له هذا السلطان؛ لذلك

---

(١) ينقضون العهد.

(٢) أغضبونا.

نـادىٰ فـي قـومـه، و﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

نعم: لك ملك، ولله ملك السماوات والأرض، لك الملك اليوم، وسيتمحَّض الملك غدًا لله، فهل ملك مصر يغنيك عن عذاب الله من شيء؟ وهل ملك مصر يبيح لك نسيان ربك وخالقك الذي وهبك ذلك الملك، وسخَّر لك من نعمه ما سخر؟ ثم قال: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ يريد أفلا ترون الفرق بيني وبين موسىٰ الفقير المعدم، وهي كلمة إن جازت علىٰ البسطاء لا تجوز علىٰ العقلاء، وإن جازت علىٰ الدهماء، لا تجوز علىٰ المفكرين، ثم قال: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۝٥٢ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾.

يريد أن يُفهِم قومه أنه خير من موسىٰ الذي هو ضعيف في نظره حقير، ولا يكاد يفصح عن غرضه، وأراد بإلقاء الأسورة من الذهب عليه إلقاء مقاليد الملك؛ لأنَّهم كانوا إذا أرادوا تسويد رجل سوّروه بسوار، وطوّقوه بطوق من ذهب.

يريد فرعون أن موسىٰ ليس معه من العدد وآلات الملك والسياسة ما يعتضد به، وهو في نفسه مخلٌّ بما ينعت به الرجال من اللَّسَن والفصاحة، ثم قال: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾.

يريد أن فرعون لم يكن مستقلًا بالإثم، بل يشاركه قومه وعشيرته؛ لأنَّه وجد فيهم استعدادًا للشرّ واستئهالًا للعبودية، فاستخف بهم فأطاعوه، ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾، أي: إنَّ الفسق عادة لهم وخُلُق من أخلاقهم؛ لذلك وجد فرعون منهم النصير والمعين، ووجد منهم البطانة التي تعينه علىٰ ظلمه، وتحسِّن له جبروته وكبرياءه.

ومن ذلك نعرف أنَّ الظلم إذا انتشر في الأرض كان سببه ضعف القوم وعدم مكافحتهم له، وفي الأمثال العلمية: **[لماذا تفرعنت يا فرعون؟ لأني لم أجد أحدًا يردني]**، وهو في معنىٰ هذه الآية الكريمة: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ﴾، وعلينا دائمًا ألَّا ننسىٰ هذه السنة في خلق الله، وهو أنَّ الباغي لا يستمر علىٰ بغيه إلَّا إذا وجد من قومه ما يحسِّن له عمله، ويبرر له بطشه وظلمه.

ومن عجيب أمر الناس أنَّ المستبد يظلمهم فيحمدونه علىٰ الظلم، ويسيء إليهم فيشكرونه علىٰ الإساءة، ويغري بعضهم ببعض فيفرحون بذلك الإغراء، ويخرب بيوتهم بأيديهم، ويفقر بلادهم بمعونتهم، يعمل ذلك كله فلا يجد من الناس إلَّا المعين والناصر، وليت الناس يقفون منه موقفًا سلبيًّا، فلا يقاومونه ولا يناصرونه، ولو كانوا كذلك لهان الخطب، ولكنهم يقفون منه موقفًا إيجابيًّا، حتىٰ إذا فكر في ترك ما هو عليه حملوه علىٰ البقاء فيه، أولئك هم الذين ضروا أنفسهم، وأصبحوا كالأنعام، بل أضل منها، لا يعرفون لأنفسهم قيمة، ولا يحفظون لها كرامة، يرضون من هذه الحياة كما يرضىٰ الحيوان الأعجم بملء بطنه، وقضاء شهوته، ولو كان مع ذلك هدم كرامتهم وضياع كيانهم.

﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ﴾، فلما أغضبوا الله -تعالىٰ- ذلك الغضب الشديد وحاربوه هذه المحاربة= انتقم منهم فأغرقهم أجمعين، فجعلناهم سلفًا: فريقًا سالفًا، وحديثًا عجيب الشأن للآخرين الذين يأتون بعدهم يعتبرون به ويتعظون بما فيه.

موسى عليه السلام

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ
إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى
وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾
فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا[(١)] إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ
تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ
وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ[(٢)] ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ
نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ
ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ إِنَّ
هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ[(٣)] ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن
كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾
[الدخان: ١٧-٣٧].

* شرح وعبرة:

(١) يطالب موسىٰ آل فرعون في رفق ويقول لهم: إنِّي لكم رسول أمين علىٰ وحي الله -تعالىٰ- وأطلب إليكم ألا تتعالوا علىٰ الله في عدم طاعته ومنابذة رسله، إنِّي آتيكم بحجة واضحة، ثم يستعيذ بربه وربهم أن يرجموه، والمراد

---

(١) مفتوحًا منفرجًا.

(٢) مُأخَرين.

(٣) مبعوثين.

قتله، فهو يعتصم بالله أن يحفظهم من إيذائهم، يقول لهم: ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ﴾ لا تتعرضوا لي بشركم ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ﴾ قائلًا ﴿أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾، فقال الله له: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ من فرعون وجنده ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا﴾.

قيل: لما جاوز موسىٰ البحر أراد أن يضربه بعصاه فينطبق كما كان، فأمره الله أن يتركه ساكنًا علىٰ انفلاقه، قارًّا علىٰ حاله ليدخله القبط فإذا دخلوا فيه أطبقه الله عليهم، وقيل: أمر أن يتركه فجوة واسعة، لا يحاول انطباقه بعد مروره ومرور قومه.

وقد بيّن سبب ذلك في قوله: ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾، وقوله: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ يريد ما تألم لهم أحد، وفيه تهكم بهم، وبحالهم المنافية لحال من يعظم علىٰ الناس فقده، فيقال فيه: بكت عليه السماء والأرض، ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾ لما جاء وقت هلاكهم ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ﴾ ... إلخ: إخبار من الله -تعالىٰ- بأن فرعون وملأه يقولون: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ يريدون أنه لا يأتينا شيء إلا الموتة الأولىٰ، ثم عقبوه بقولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ مبعوثين بعد الموت، ثم أخذوا يتهكمون بقولهم: ﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

وقد ردَّ الله عليهم في قوله: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ ... إلخ.

موسى عليه السلام

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ (١٥) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٦) اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (١٧) فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ (١٨) وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ (١٩) فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ (٢٠) فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ (٢١) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ (٢٢) فَحَشَرَ فَنَادَىٰ (٢٣) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ (٢٤) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ (٢٥) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ١٥-٢٦].

* شرح وعبرة:

(١) عرضنا للقصة من هذه السورة لنلفت النظر إلىٰ إعجاز القرآن الواضح، وأسلوبه القاهر وكيف تؤدَّىٰ القصة بأسلوب طويل، وأسلوب وسط، ثم بأسلوب في غاية الاختصار، ومع ذلك نجد الأسلوب جميعه أخَاذًا مؤثرًا في النفوس، ولو تأمل الإنسان القصة في السور الطوال، ثم تأملها في هذه= لرأىٰ أنَّها علىٰ اختصارها لم تدع من القصة شيئًا، ألا تراه أشار إلىٰ المكان الذي وقع فيه النداء، ثم دعوة موسىٰ ليذهب إلىٰ فرعون لأنه طغىٰ، ثم قوله له: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ (١٨) وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾.

ثم أشار إلىٰ آيات موسىٰ، ثم تكذيب فرعون وإبائه، ثم حشره الناس، وقوله لهم: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾، ثم أخذ الله له، وجعل هذا الأخذ نكال الدنيا والآخرة، ثم قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ العمل الذي صنعه مع فرعون ﴿لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ الله من الناس، فذلك إجمال للقصة وقد فصلها القرآن في السور التي عرضنا لها، وهي في جملتها وتفصيلها في منتهىٰ البلاغة، وغاية التأثير.

دعوة داود وسليمان[1] إلى الله -تعالى-

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ[2] فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم[3] بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ

---

(١) ورد ذكر داود وسليمان عليهما السلام في القرآن متتاليًا باعتبار اشتراكهما في النبوة، الملك، وبنوة سليمان لداود، وورد ذكر داود ست عشرة مرة، وسليمان سبع عشرة مرة، فقد ذكرا في سياق تأكيد وحدة الوحي، وفي سياق ذكر إبراهيم ونوح وذريتهما، وإيتائهما العلم، ووراثة سليمان لداود، وفصل من أخبارهما معًا قضية حكمهما في الغنم والحرث، والتي برزت فيها حمة سليمان، وخص كل منهما بالحديث عما من الله عليه من نعم وخصائص.

انظر: رسالات الأنبياء: (١٦٣-١٦٣). (عمرو)

(٢) صندوق كانت توضع فيه التوراة.

(٣) مختبركم، وقد فسّره بما بعده.

بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٢٤٩ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٥٠ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٥١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٦-٢٥٢].

* شرح وعبرة:

(١) ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ﴾ . . . إلخ.

عرضت لهذه القصة من سورة البقرة لأن لها صلة بداود ﷺ من ناحية استعداده للحرب: كما تبين لنا حال طائفة من بني إسرائيل طلبوا الحرب، ثم جبنوا عنه بعد أن كتب عليهم، وقد وضعنا هذه العظة تحت عنوان «**داود وسليمان**»، وإن كانت في داود وحده؛ لأنَّا رأينا أن نضع داود وسليمان في عنوان واحد، وقد تكون القصة في داود وحده، أو شاملة لهما معًا، وكلمة: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ إذا خوطب به من سبق له العلم بما يذكر بعدها تكون للتعجب والتقرير والتذكير، وإذا خوطب به من لا يعرف ذلك تكون لتعريفه به، وتعجيبه من شأنه، وقد أجريت مجرىٰ المثل في هذا المقام، فنزل من لم ير ما تتعلق به منزلة من رآه، كأنه لظهوره وتقريره في نفسه ممَّا لا ينبغي أن يخفىٰ، أو يغفل عن التعجب منه والإذعان له.

و(**الملأ**): القوم يجتمعون للتشاور، لا واحد له؛ قاله «**البيضاوي**»، وغيره، وقال غيرهم: الملأ الأشراف من الناس، وهو اسم للجماعة؛ كالقوم والرهط والجيش، وجمعه أملاء، سموا ملأ لأنهم يملؤون العيون رواء، والقلوب هيبة، وكلا المعنيين يرجع إلىٰ الخاصة والأعيان وما نسميهم بعلية القوم[١].

---

(١) انظر: تفسير الطبري: (١/ ٨١٥)، وتفسير البيضاوي: (١٤٩). (عمرو)

وقوله: ﴿مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ﴾ يرينا أن ذلك الملأ من بني إسرائيل، وأن ذلك الحادث الذي يعجبنا الله منه، وهو حادث طلبهم ملكًا يقاتلون تحت رايته، ثم جبنهم عن القتال بعد أن كتبه الله عليهم= وقع لهم لا لغيرهم، كما يرينا أن نبي الله داود، وابنه سليمان ﷺ أرسلهما الله -تعالىٰ- بعد نبيه موسىٰ.

﴿إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ والقرآن لم يسم لنا ذلك النبي فهو من الرسل الذين لم يقصّ علينا القرآن قصصهم، والظاهر أنه غير داود؛ لأنَّ داود لم ينبأ في ذلك الوقت؛ لأنَّه قال في آخر القصة: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ﴾، والمتبادر من هذا أن القتال وقع قبل النبوّة.

﴿قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ﴾، أي: هل قاربتم أن تحجموا عن القتال إن كتب عليكم كما أتوقع، أو: أأتوقع منكم الجبن عن القتال إن هو كتب عليكم، فـ(عسىٰ) للمقاربة أو للتوقع، ﴿قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ﴾ يريدون أي داعٍ لنا يدعونا إلىٰ ألا نقاتل وقد وُجِد سبب القتال، وهو إخراجنا من ديارنا بإجلاء العدو إيانا، وأُفْرِدنا عن أولادنا بسببه إياهم، واستعباده لهم.

والقتال في سبيل الله -كما قال **الأستاذ الإمام**(١)- هو القتال لإعلاء كلمته، وتأمين دينه ونشر دعوته كي لا يغلبوا علىٰ حقهم، ولا يصدوا عن إظهار أمرهم، فهو أعم من القتال لأجل الدين، لأنه يشمل مع الدفاع عن الدين وحماية دعوته الدفاع عن الحوزة إذا هم الطامع المهاجم باغتصاب بلادنا، والتمتع بخيرات أرضنا، أو أراد العدو الباغي إذلالنا والعدوان علىٰ استقلالنا، ولو لم يكن ذلك لأجل فتنتنا في ديننا؛ فإذا قال الله لنا: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، فهو أمر مطلق، كأنَّه أمر لنا بأن نتحلىٰ بحلية الشجاعة، ونتسربل بسرابيل القوة والعزة، لتكون حقوقنا محفوظة، وحرمتنا مصونة، لا نؤخذ من جانب ديننا، ولا نغتال من جهة دنيانا، بل نبقىٰ أعزاء الجانبين، جديرين بسعادة الدارين، ألا

---

(١) أي: الشيخ محمد عبده، انظر: تفسير المنار: (٢/ ٣٦٥). (عمرو)

ترىٰ أنَّ من ساق الله لنا العبرة بحالهم؛ أي في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾، وذكرنا بسنته في موتهم وحياتهم= لم يذكر أنَّهم قوتلوا وقتلوا لأجل الدين، فالقتال لحماية الحقيقة كالقتال لحماية الحق؛ كله جهاد في سبيل الله، فتفسير [الجلال][1] سبيل الله بإعلاء دينه تقييد لمطلق، وتخصيص لقول عام من غير دليل.

ومنه نعلم أنَّ ما يعمله شعوب المسلمين اليوم في جميع أنحاء الأرض مع المستعمرين من الدفاع عن بلادهم، والذود عن حقيقتهم وحفظ استقلالهم، ولغتهم وقوميتهم، كل ذلك جهاد في سبيل الله وطريقه الذي يحبه ويدعو إليه، وأن من يقاتل لحماية الحقيقة كالذي يقاتل لحماية الحق؛ لأنَّا مطالبون بحمايتهما معًا؛ لأنَّ الذي يفرط في الحقيقة لا يستطيع أن يدافع عن الحق، ولأنَّ مسلوب العزة والكرامة والاستقلال لا يستطيع أن يقيم دين الله في الأرض، ولا أن يقيم حدوده، ولا أن يحفظ أخلاقه وأخلاق أمته، إنَّما الذي يستطيع ذلك هو العزيز في بلاده، القوي في وطنه، وهو الذي له من المنعة والقوة ما يخيف العدو، ويرهب الخصم.

وقد طالبنا الله -تعالىٰ- بالقوة، وصرفنا عن العزة والمتعة[2]؛ إذ يقول: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ ثم علل ذلك بقوله ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]، فأرانا بذلك أنه ينبغي للمسلمين أن يكونوا من القوة بحيث يَرهَبُهم أعداؤهم ويرهبهم من ليس بعدو، وفي المثل: «من لم يتذأَّب أكلته الذئاب» أليست هذه القوة هي التي أمرنا الله -تعالىٰ- بإعدادها لحماية الحقيقة والحق؟ أليست هذه القوة لإرهاب الأعداء وإخافة الخصوم؟ وهل لذلك من غاية سوىٰ أن الله -تعالىٰ- يريد للمؤمنين أن يكونوا أعزاء لا أذلاء، وأقوياء لا ضعفاء، وأن تكون بلادهم ملكًا لهم، وخيراتهم لهم لا لخصومهم، وأن يعيشوا تحت

---

(١) الجلال= جلال الدين السيوطي (٩١١ هـ)؛ لقوله بذلك في تفسير «الجلالين» عند الآية: (٢٤٤ من سورة البقرة). (عمرو)

(٢) لعل صوابها: وصرفنا إلىٰ العزة والمنعة. (عمرو)

سلطانهم، لا تحت سلطان غيرهم، وأن يحفظوا قوميتهم واستقلالهم؟؟

ويتجلىٰ ذلك في قول الملأ لنبيهم: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا﴾؛ فإنَّك تفهم منه أن أولئك الملأ بعد أن توقع منهم نبيهم أن يجبنوا عن القتال بعد طلبه ينكرون من أنفسهم الجبن عن القتال في سبيل الله بعد أن وُجِدَت أسبابه، وتوفَّرت دواعيه، وهو قولهم: ﴿وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا﴾؛ فإخراج الرجل من بلده، ونفيه من موطنه، والحيلولة بينه وبين بنيه وأهله= سبب من أسباب القتال في سبيل الله.

قد يفهم ضعفاء العقول أنَّ الإخراج من الديار خاص بالنفي والتغريب، مع أنَّ هناك نوعًا من الإخراج هو شرّ من النفي والتغريب، وذلك هو إخراج المسلم من بلده وهو مقيم فيه، وإبعاده من خيرات بلاده وهي علىٰ مرأىٰ منه، وحرمانه من مجهودات شعبه وأمته، وهي أدنىٰ إليه من حبل الوريد.

ذلك النوع الذي ينتاب المسلمين في بلادهم هو أضر عليهم من إخراجهم من وطنهم، وتغريبهم عن بنيهم وذراريهم؛ لأنَّ البعيد من البلاد لا يرىٰ كيف تبعثر أموالها علىٰ الشهوات، وكيف يتمتع بها الأجنبي، وأذناب الأجنبي، وصاحب البلد في فقر مدقع، وأزمة خانقة، البعيد من البلاد يتألم لبعده، ولكنه لا يتألم لذلك المنظر المحزن، الذي يراه في أمته كل يوم تطلع فيه الشمس، يرىٰ أمته فقيرة وهي الغنية، مجدبة وهي الخصبة، شقية وهي السعيدة، مهينة وهي العزيزة؛ كل ذلك لأنَّها في يد غيره وتحت سلطان سواه.

ومثل الرجل الوطني في ذلك البلد مثل رجل اعتدىٰ عليه لصوص وهو في بيته، ووضعوا في يديه السلاسل، وفي رجليه الأصفاد، ثم أمسكوا لسانه عن الكلام، وأخذوا يخربون في بيته، ويستولون علىٰ خزائنه ويهيمنون علىٰ كل ما عنده من خير؛ كل ذلك وهو لا يستطيع حراكًا، إذا حاول أن ينطق بكلمة استغاثة وجد لسانه مغلولًا، وإذا أراد أن يحرك من يده أو رجله وجدها في السلاسل والأغلال، فهل يستوي ذلك الرجل الذي صُنِع به ذلك، ورجل آخر أخذته القوة الغاشمة، فأبعدته عن بيته وجيرانه، وحالت بينه وبين ذويه؟ أظن أن الفرق بينهما كبير.

فإذا لم يكن ذلك النوع من الإيذاء إخراجًا من البلاد فهو شر من الإخراج، وإذا لم يكن نفيًا وتغريبًا فهو فوق النفي والتغريب، فكل بلد محتل من بلاد المسلمين هو بلد قد أخرج منه أهله وحيل بينهم وبين خيراته، واستولىٰ فيه الغاصب علىٰ كل مرافقه، فإذا عاش فيه أهله؛ فإنَّما يعيشون غرباء، وإذا تمتعوا فيه بشيء من المتاع؛ فإنَّما يتمتعون بما يتساقط من فتات الغاصين.

فإذا كان الدين يرىٰ النفي والتغريب من أسباب الجهاد لحماية الحقيقة، ويعد ذلك قتالًا في سبيل الله، وطريقه الذي يحبه ويرضاه، فأولىٰ أن يعد الجهاد في هذا السبيل قتالًا في سبيل الله، ويثيب الله عليه الثواب الذي أعده للمجاهدين، ويعاقب من يقف في سبيل ذلك الجهاد موقف المثبط فضلًا عمن يقف موقف الموالي للغاصب.

(٢) ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: فلمَّا أوجب الله القتال عليهم أعرضوا وجبنوا إلا نفرًا قليلًا منهم، لأن الأمم إذا قهرها العدو ونكل بها يفسد بأسها ويغلب عليها الجبن والمهانة، فإذا أراد الله إحياءها بعد موتها ينفخ روح الشجاعة والإقدام في خيارها وهم الأقلون، فيعملون ما لا يعمل الأكثرون، ولم يكن هؤلاء القوم قد استعدَّ منهم للحياة إلا القليل.

قال الأستاذ الإمام: وفي الآية من الفوائد الاجتماعية أن الأمم التي تفسد أخلاقها وتضعف، قد تفكر في المدافعة عند الحاجة إليها، وتعزم علىٰ القيام بها إذا توفرت شرائطها التي يتخيلونها، ثم إذا توفرت هذه الشروط يضعفون ويجبنون، ويزعمون أنَّها غير كافية؛ ليعذروا أنفسهم وما هم بمعذورين ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين يظلمون أنفسهم وأمتهم بترك الجهاد دفاعًا عنها وحفظًا لحقها، فهو يجزيهم وصفهم، فيكونون في الدنيا أذلاء مستضعفين، وفي الآخرة أشقياء معذبين.

وانظر كيف يصف الله التاركين للقتال بالظلم، ويصم الجبناء بمجاوزة الحد، والخروج عما ينبغي، ويتوعدهم بأنَّه عليم بهم، مُطَّلِع علىٰ أسرارهم وما سوّلته لهم نفوسهم، وهو كقوله في الآيات السابقة: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓاْ

﴿أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يسمع قول الجبناء في اعتذارهم عن أنفسهم: ماذا نعمل؟ ما في اليد حيلة، ليس لها من دون الله كاشفة، ليس لنا من الأمر شيء. لو كان لنا من الأمر شيء ما قعدنا هاهنا؛ فهذه الألفاظ هي منفاخ الجبن، وعلل الخوف والحزن، فهي عند أهلها تعلّات وأعذار، وعند الله ذنوب وأوزار، وما كان منها حقًّا في نفسه فهو من الحق الذي أريد به الباطل، وإن الله -تعالىٰ- عليم بما يأتيه مرضىٰ القلوب، وضعفاء الإيمان، من الحيل والمراوغة، والفرار من الاستعداد والمدافعة.

فإذا علمنا هذا وحاسبنا به أنفسنا، عرفنا أنَّ كلًّا من المعتذر بلسانه، والمتعلّل بفعاله مخادع لربه، ولنفسه وقومه.

قال الأستاذ الإمام[1]: وكثير من الناس يهزأ بنفسه وهو لا يدري؛ إذ يصدق ما يعتاده من التوهم، وهذه شنشنة[2] المخذولين الذين ضربت عليهم الذلة، وخيم عليهم الشقاء، تعمل فيهم هذه الوساوس ما لا تعمل الحقائق، وقد أنذرنا الله -تعالىٰ- أن نكون مثلهم، بتذكيرنا بأنه سميع عليم لا يخادَع، ولا يخفىٰ عليه شيء.

يتوعد الله الجبناء في الآية التي معنا بأنَّه عليهم بهم، مطلع علىٰ سرّهم ونجواهم، ويصفهم بأنَّهم ظالمون لأنفسهم، ولا غرو فقد رضوا لأنفسهم بالمهانة وقد أكرمهم الله، كما رضوا بالذلة، وقد كتب الله العزة للمؤمنين، لم يرعوا لنفسهم كرامة، ولم يغاروا علىٰ الحقيقة، وبذلك كانوا ظالمين، وأن الذي يظلم نفسه بذلك النوع من الظلم، ويرضىٰ لها هذه المعرَّة سيعاقبه الله -تعالىٰ- علىٰ ظلمه، ويضعه في الموضع الذي رضيه لنفسه.

(٣) ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ﴾. أخبرهم نبيهم أنَّ الله قد بعث لهم طالوت ملكًا، وأجابهم إلىٰ ما طلبوا في قولهم:

---

(١) انظر: تفسير المنار: (٢/ ٣٦٥).

(٢) أي طبيعتهم وسجيتهم. انظر: جمهرة اللغة: (١/ ٢٠٧)، تهذيب اللغة: (١١/ ١٩٢)، الصحاح: (٥/ ٢١٤٦).

﴿ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾، فأنكروا أن يكون طالوت ملكًا عليهم، وقالوا في إنكارهم: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ﴾؟

لم يبين لنا القرآن وجه كونهم أحق بالملك منه، وإن كان المفسرون يروون في ذلك روايات ﴿وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ﴾ جروا علىٰ المألوف من طباع الناس، يرون أن الملك لا بُدَّ أن يكون وارثًا للملك، أو ذا نسب عظيم، يسهل علىٰ شرفاء الناس وعظمائهم الخضوع له، أو ذا مال عظيم يدبر به الملك، وسبب هذا أنهم تعودوا الخضوع للشرفاء والأغنياء، وإن لم يمتازوا عليهم بمعارفهم وصفاتهم الذاتية.

﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾ يخطئ الله القوم في زعمهم أن استحقاق الملك يكون بالنسب وسعة المال، وقوله: ﴿ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ﴾ اختاره بما أودع فيه من الاستعداد الفطري للملك، ولا ينافي هذا كون اختياره كان بوحي من الله؛ لأنَّ هذه الأمور هي بيان لأسباب الاختيار، وهي الاستعداد الفطري، والسعة في العلم الذي يكون به التدبير، وبسطة الجسم المعبر بها عن صحته وكمال قواه، المستلزم لصحة الفكر، علىٰ قاعدة «العقل السليم في الجسم السليم»، وللشجاعة والقدرة علىٰ المدافعة، وللهيبة والوقار، وتوفيق الله -تعالىٰ- الأسباب، وهو ما عبر عنه بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ﴾.

قال صاحب «**المنار**»[1]: من الناس من يظن أنَّ معنىٰ إسناد الشيء إلىٰ مشيئة الله -تعالىٰ- هو أنَّ الله يفعله بلا سبب، ولا جريان علىٰ سنة من سننه في نظام خلقه، وليس كذلك؛ فإنَّ كل شيء بمشيئة الله -تعالىٰ-: ﴿وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ﴾، أي: بنظام وتقدير، موافق للحكمة، ليس فيه جزاف ولا خلل، فإيتاؤه الملك لمن يشاء بمقتضىٰ سننه، إنما يكون بجعله مستعدًا للملك في نفسه وبتوفيق الأسباب لسعيه في ذلك؛ أي: هو بالجمع بين أمرين: أحدها في نفس الملك، والآخر في حال الأمة التي يكون فيها، وفي الأحاديث المشهورة علىٰ ألسنة العامة: «**كما تكونوا يولَّىٰ عليكم**» [قال في «الدرر المنتثرة»: رواه: **ابن جميع** في

(١) هو الأستاذ الشيخ محمد رشيد رضا، صاحب مجلة المنار، انظر: تفسير المنار: (٢/ ٣٧٩). (عمرو)

معجمه من حديث **أبي بكرة**، و«**البيهقي**» عن أبي إسحاق السبيعي مرسلًا][1].

نعم إذا أراد الله إسعاد أمة جعل مَلِكها مقويًا لما فيها من الاستعداد للخير، حتىٰ يغلب خيرُها علىٰ شرها، فتكون سعيدة، وإذا أراد إهلاك أمة جعل ملكها مقويًا لدواعي الشر فيها، حتىٰ يغلب شرها علىٰ خيرها، فتكون شقية ذليلة، فتعدوا عليها أمة قوية، فلا تزال تنقصها من أطرافها، وتفتات عليها في أمورها، أو تناوشها الحرب، حتىٰ تزيل سلطانها من الأرض، يريد الله -تعالىٰ- ذلك فيكون بمقتضىٰ سنته في نظام الاجتماع، فهو يؤتي الملك من يشاء، وينزعه ممَّن يشاء، بعدل وحكمة، لا بظلم ولا عبث، ولذلك قال: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، وقال: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، فالمتقون في هذا المقام -مقام استعمار الأرض والسيادة في الملك- هم الذين يتقون أسباب خراب البلاد، وضعف الأمم، وهي الظلم في الحكام، والجهل وفساد الأخلاق في الدولة والأمة، وما يتبع ذلك من التفرق والتنازع والتخاذل، والصالحون في هذا المقام هم الذين يصلحون لاستعمار الأرض وسياسة الأمم، بحسب استعدادها الاجتماعي.

أطلت في بيان معنىٰ مشيئة الله -تعالىٰ- في إتيان الملك؛ لأنَّني أرىٰ عامة المسلمين يفهمون من مثل عبارة الآية في إيجازها أنَّ المُلك يكون للملوك بقوة إلهية هي وراء الأسباب والسنن التي يجري عليها البشر في أعمالهم الكسبية، وهذا الاعتقاد قديم في الأمم الوثنية، وبه استعبد الملوك الناس الذين يظنون أن سلطتهم شعبة من السلطة الإلهية، وأن محاولة مقاومته هي كمحاولة مقاومة الباري ﷻ والخروج عن مشيئته، وكان الأستاذ الإمام أوجز في الدرس بتفسير قوله -تعالىٰ-: ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ﴾[2]؛ إذ جاء في آخره أن له

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان بلفظ: «كما تكونوا كذلك يؤمر عليكم»، وحكم عليه بالضعف: (٩/ ٤٩٢)، وانظر: الطيوريات: (٤/ ١٣٥٨)، والدرر المنتثرة: (١٦٢)، وهو حديث ضعيف. (عمرو)

(٢) لا يزال الكلام للشيخ محمد رشيد رضا، ولفظه: «وكان الأستاذ الإمام أوجز في الدرس بتفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ﴾ إذ جاء في آخره، وقد كتبت في مذكرتي عنه «أي: أنه سنة في تهيئة من يشاء للملك» ومثل هذا الإجمال لا يعقله إلا من جمع بين الآيات الكثيرة في إرث =

-تعالىٰ- سنة في تهيئة من يشاء للملك، ومثل هذا الإجمال لا يعقله إلا من جمع بين الآيات الكثيرة في إرث الأرض، وفي هلاك الأمم وتكوُّنها، والآيات الواردة في أن له -تعالىٰ- سننًا في البشر لا تتبدّل ولا تتحول، وقد ذكرنا بعضها ومنها قوله -تعالىٰ-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، فحالة الأمم في صفات أنفسها وهي عقائدها، ومعارفها، وأخلاقها، وعاداتها، هي الأصل في تغير ما بها من سيادة أو عبودية، وثروة أو فقر، وقوة أو ضعف، وهي هي التي تمكّن الظالم من إهلاكها.

والغرض من هذا البيان أن نعلم أنه لا يصح لنا الاعتذار بمشيئة الله عن التقصير في إصلاح شؤوننا اتكالًا علىٰ ملوكنا، فإن مشيئة الله لا نتعلق بإبطال سننه -تعالىٰ-، وحكمته في نظام خلقه، ولا دليل في الكتاب والسنة ولا العقل ولا في الوجود علىٰ أن تصرف الملوك في الأمم هو بقوة إلهية خارقة للعادة، بل شريعة الله -تعالىٰ- وخليقته شاهدان بضد ذلك، فاعتبروا يا أولي الأبصار.

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ واسع التصرف والقدرة، إذا شاء شيئًا وقع ﴿عَلِيمٌ﴾ بوجوه الحكمة يضع لهم السنن الحكيمة، والنظم العادلة فلا يتركهم سدىٰ.

(٤) ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾. قد كان إنكار الملأ أن يبعث الله لهم طالوت ملكًا بمثابة أن يطلبوا آية علىٰ صحة ذلك الاصطفاء ودليلًا علىٰ صدقه، ويظهر أنهم كانوا مؤمنين بنبيهم؛ لأنَّهم طلبوا منه أن يبعث لهم ملكًا يقاتلون معه في سبيل الله؛ فلذلك قال لهم نبيهم: إنَّ علامة ملك طالوت عليكم، واصطفاء الله له: ﴿أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾، وهو الصندوق الذي كان موسىٰ عليه السلام يضع فيه التوراة، وكانت تسكن إليه نفوس بني إسرائيل؛ لأنَّه فيه كتاب الله، ولذلك يصفه بقوله: ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، وقوله: ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾، أي: أثر من بيت النبوة، ويحتمل أن يكون ذلك الأثر

= الأرض وفي هلاك الأمم وتكونها، والآيات الواردة في أن له تعالىٰ في البشر سننا لا تتبدل ولا تتحول وقد ذكرنا بعضها»، تفسير المنار: (٢/ ٣٨٠). (عمرو)

هو التوراة أو بعضها، ويحتمل أن يكون شيئًا آخر ﴿تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُۚ﴾ تسوقه إليكم، وقد كانت العمالقة استولت علىٰ ذلك التابوت لما حاربوهم وأذلوهم، وشق علىٰ بني إسرائيل أن يضيع عليهم ذلك الأثر، فجعل الله آية طالوت في ملكه أن يجيئهم التابوت بعد ضياعه منهم من طريق خارج للعادة، عبر عنه بقوله: ﴿تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُۚ﴾. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ العمل الخارق ﴿لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ﴾ علامة علىٰ أن طالوت قد اختاره الله ملكًا عليكم ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ بالآيات، مصدقين بالدلائل.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلۡجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ﴾ ... إلـــــخ، أوجز القرآن كعادته في إتيان التابوت الذي هو آية علىٰ أن ملك طالوت كان استحقاق وجداره، وأنه أهل لذلك الملك، وكأنه يقول: فلما ردّ إليهم التابوت قبلوا أن يكون طالوت ملكًا عليهم، ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ﴾، أي: انفصل بهم من مقامهم، وقادهم لقتال أعدائهم.

ولما كانوا من قبل كارهين لملكه عليهم، ثم أذعنوا من بعد، وكان إذعان الجميع ورضاهم ممَّا لا يمكن العلم به إلا بالاختبار= أراد الله أن يبتلي هذا القائد جنده ليعلم المطيع والعاصي، فيختار الذي يُرجىٰ بلاؤه في القتال، وثباته في معامع النزال، وينفي من يظهر عصيانه، فإن طاعة الجيش للقائد وثقته به من شروط الظفر، وأحوج القواد إلىٰ اختبار الجيش مَنْ ولي علىٰ قوم وهم له كارهون.

أخبر طالوت جنوده أنَّهم سيمرون علىٰ نهر يمتحنهم به بإذن الله، فمن شرب منه فلا يُعد من أشياعه المتحدين معه في أمر القتال، ومن لم يذقه بالمرة فإنه منه، وهو الذي يركن إليه ويوثق به تمام الثقة، وأخبرهم أن من اغترف غرفة بيده لا يعدّ عمله مانعًا من الاتحاد، ولكن الذي لم يذقه أصلًا هو في المرتبة الأولىٰ.

﴿فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ﴾؛ لأنَّ القوم كانوا قد فسد بأسهم، وتزلزل إيمانهم، واعتادوا العصيان، وشق عليهم مخالفة الشهوة، وإن كان فيها هوانهم، ولم يبقَ فيهم من أهل الصدق والعزيمة سوىٰ القليل، ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ

ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾، وكان جالوت أشهر أبطال أعدائه الفلسطينيين، والعبارة تشعر بأن جنود الفلسطينيين كانوا أكثر من الإسرائيليين.

قيل: إنَّ الذين آمنوا معه هم القليل، وهم الذين قالوا: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ إنَّ أولئك المؤمنين ﴿قَالَ﴾ الخُلَّص منهم -وهم ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ﴾؛ أي: يوقنون بذلك-: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، والمؤمنون مختلفون في قوة اليقين ونصوع البصيرة، وقيل الضمير في ﴿قَالُوٓاْ﴾ للكثيرين الذين انخذلوا، والذين يظنون أنَّهم ملاقوا الله هم القليل الذين ثبتوا معه، كأنَّهم تقاولوا بذلك والنهر متوسط بينهما، يظهر أولئك عذرهم في الانخذال، ويرد عليهم هؤلاء فيما يعتذرون به.

والظاهر: أنَّ ابتلاء الله لهم بالنهر لم يكن الحد الفاصل بين الإيمان والكفر، بل هو حد فاصل بين قوة الإرادة وضعفها، ويظهر أن الوقت كان وقت قيظ شديد، وحرّ بالغ، فابتلاهم الله بالنهر ليظهر قوي الإرادة من ضعيفها، وسليم العزيمة من مريضها، فإذا شرب الكثير من النهر فليس ذلك لأنهم كفار، بل لأنَّهم ضعفاء العزيمة.

وعليه؛ فالذين جاوزوا النهر مع طالوت فيهم المؤمن الذي لم يشرب، والذي شرب، وهم كثير. أمَّا الذين قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده، فالضمير فيه للذين يتحدّث عنهم القرآن الكريم، وهم الذين شربوا إلا قليلًا منهم؛ يرينا أن أولئك في جملتهم قالوا بعد مجاوزة النهر ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾، وسواء أكان ذلك القول من الفريق المؤمن أم الكافر، والكل قد جاوز النهر، أو كان من الفريقين مع بقاء الكافرين بدون تجاوز للنهر، ومجاوزة المؤمنين؛ لأنَّ النهر صغير لا يمنعهم من محادثة بعضهم بعضًا في ذلك الشأن.

وتأمل الفرق الكبير بين كلمة الجبن وكلمة الشجاعة، وما تتركه الأولىٰ في النفس من هلع، وما تتركه الثانية من سكون وطمأنينة، فكلمة الجبن كقولهم: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾، يريدون: أنَّنا قوم ضعاف لا نستطيع أن نواجه جالوت وجنود جالوت؛ لأنَّه جبار من العمالقة، وهي تشبه قول بني

إسرائيل أنفسهم لموسىٰ حينما طلب منهم أن يدخلوا الأرض المقدسة التي كتبها الله لهم: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾ [المائدة: ٢٢].

هذه الكلمات وأمثالها تترك أثرًا سيئًا في نفس سامعيها، وتثبطهم عن العمل النافع والجهاد المفيد، وكم ربىٰ الجبناء بأمثال هذه الكلمات أناسًا علىٰ الجبن، ونشَّؤوهم علىٰ الضعف، ولكنهم لا يسمون الجبن باسمه، وإنَّما يحببونهم فيه باسم الحزم، والمحافظة علىٰ النفس:

يرىٰ الجُبَناءُ أنَّ الجبنَ حزمٌ   وتلك جَريرةُ الطَّبْعِ السَّقِيمِ

أما كلمات الإيمان الصادق، والعقيدة القوية، والإرادة الحديدية، فهي كلمات الآمِل الذي لم يجد اليأس إلىٰ نفسه سبيلًا، المطمئن الذي لم يتوصل إليه الشك والتردد، هي كلمات المؤمنين المخلصين، والأتقياء المصلحين، وفرق كبير بينها وبين كلمات الصنف الأول من القوم، كقولهم: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي إنَّ نصر الله لم يكن دائمًا في صف الكثرة، فقد تكون الكثرة علىٰ باطل، وليس عندها من القوة المعنوية ما عند القلة، وأن القوة المعنوية في القتال تفعل ما لا تفعل القوة الحسية.

وقد نبهنا القرآن الكريم إلىٰ أنَّ هذه القوة هي قوة العقيدة في الله، والثقة بثوابه وعقابه، وأنَّ الفاقد لهذه العقيدة لا يستوي هو وصاحبها، ألا تراه يقول في التحريض علىٰ القتال: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٠٤].

فتراه يريك أنَّك إذا حاربت القوم وليس لهم عقيدة في الله، وعندك هذه العقيدة؛ فإنَّهم يشتركون معك في آلام الجسم، ومشقة القتال، وأنت تمتاز عنهم بأنك ترجو من الله من الثواب ما لا يرجونه، وهي قوة معنوية أثرها ظاهر محسوس في جماعة المؤمنين إذا اشتبكوا مع غيرهم في قتال، أو وقعوا في نزال.

(٥) وكم شهد التاريخ بصدق هذه الكلمة، وهي قولهم: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، وهؤلاء أصحاب محمد ﷺ كانوا في قلة من جهة عددهم وعددهم، وفتحوا في نصف قرن من الممالك ما سجله لهم

التاريخ، ودانت لهم الملوك والأكاسرة بالطاعة، وخطبوا ودّهم، وبدّل الله قلتهم كثرة، وضعفهم قوة.

وهذه غزوات المسلمين في أيام رسول الله ﷺ وفي عهد خليفته الأول والثاني تريك العجب العجاب، وتحقق لك صدق هذه الكلمة، وانظر إلىٰ قوله: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ لتفهم أن النصر الذي يناله المسلمون المؤمنون إنَّما هو بتيسير الله -تعالىٰ- وتوفيقه، وهدايتهم إلىٰ وسائل النصر ومقدمات الغلب، وأن بعض جزئياته ما يشبه المعجز والخارق؛ لذلك أضافوه إلىٰ الله -تعالىٰ-، وقالوا: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، ولم يكتفوا بذلك، بل عقبوا الكلمة بقولهم: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ بنصره ومعونته وتوفيقهم إلىٰ أسباب النصر، ومن كان الله معه فلا يغلب.

ومن حق كل مؤمن أن لا يهولنه زخرف الباطل، ولا كثرة المفسدين، ولا استعدادهم للحروب، وتأهبهم للقتال، عليه أن لا ييأس من أن ينقلب القوي ضعيفًا، والضعيف قويًّا؛ لأنَّ الأيام دول، ويوم لك، ويوم عليك، وعليه أن يعمل مع ذلك علىٰ نشر روح الرجاء في النفوس وأن ينبه قومه وذويه إلىٰ سنن الله الحكيمة في قيام الأمم وسقوطها، وضعفها وقوّتها، وإلىٰ عدله -تعالىٰ- في أن يولي بعض الظالمين بعضًا، وأن سنته بقاء الأصلح: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧].

وإنَّ المستعمرين ما استولوا علىٰ بلادنا إلا لضعفنا في العلم والعمل، وعدم نهوضنا إلىٰ علوم الحياة، فكانوا بذلك أصلح منا للبقاء، وأمثل لطول الحياة، ولذلك غلبونا علىٰ بلادنا، واستولوا علىٰ نواصينا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١]؛ لأنَّه لا يريده إلَّا بقوم استحقوه، ويئس من صلاحهم، وأخذوا في أسباب الهلاك والدمار، وكل شعب وصل إلىٰ ذلك الحد من المرض لا يرجىٰ له برء، ولا ينتظر له شفاء.

ونصيحتي لكل مصلح أن يجعل هذه الكلمة هجِّيراه، ويمرّها كثيرًا علىٰ لسانه، وهو قوله: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ حتىٰ لا يجد اليأس إلىٰ نفسه سبيلًا، وحتىٰ يغذي بها إيمانه، ويقوي

بها يقينه، وأنا زعيم بأن تكون هذه الكلمة أنيسه في الغربة، وسميره في الوحشة، إذا قاطعه الناس وَصَلَتْه بالله، وإذا اضطهده الظالمون منَّتْه بإحسان الله إليه، وإعانته له، وإذا تغلب عليه سلطان الباطل ذكر هذه الكلمة فيضعف أمامه كل قوي، ويصغر في عينه كل كبير، وتهون عليه كل صعوبة؛ لأنَّه يستمد قوته من الله، ويستعين في دعوته بالله، ويصبر علىٰ ما يناله في سبيل الحق.

(٦) ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، أي: لما ظهر طالوت وجنوده لجالوت وجنوده وهم أعداؤهم الفلسطينيون، واشتباك الجيشان في القتال ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ علىٰ مشاقّ القتال ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ بثبات القلوب، واطمئنانها بالإيمان والثقة به ﴿وَانصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ عبدة الأوثان ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ الذي أعطاهم ما سألوا ببركة توجههم إليه، وتذكر ما يؤمنون به من قوته التي لا تغالب ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾، وكان جالوت عملاقًا جبارًا فقتله داود، وهي منقبة لداود لا تنسىٰ.

﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾، فسروا الحكمة هنا بالنبوة، ويرىٰ صاحب «**المنار**» أنَّها الزبور الذي أوحاه الله إليه[1]، كما قال في آية أخرىٰ: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣]، وبه كان نبيًّا، وأما تعليمه ممَّا يشاء فقد فسرها بصنعة الدروع كما قال في سورة الأنبياء ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

وعندي أنَّ الآية عامة تشمل هذا وتشمل غيره من فقه معاني التوراة، ومعاني الزبور الذي أوحاه الله إليه، وغير ذلك ممَّا لا يعلمه إلا الله -تعالىٰ-.

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أي: لولا أنَّ الله يدفع أهل الباطل بأهل الحق، وأهل الفساد في الأرض بأهل الصلاح لغلب أهل الباطل والإفساد في الأرض، وبغوا علىٰ الصالحين، وأوقعوا بهم حتىٰ يكون لهم السلطان وحدهم فتفسد الأرض بفسادهم.

---

(١) تفسير المنار: (٢/ ٣٨٩). (عمرو)

فكان من فضل الله علىٰ العالمين أنَّه أذن لأهل دينه الحق، المصلحين في الأرض، بقتال المفسدين فيها من الكافرين، والبغاة المعتدين، فأهل الحق حرب لأهل الباطل في كل زمان، والله ناصرهم ما نصروا الحق، وأرادوا الإصلاح في الأرض.

والآية ترينا سنة عامة من سنن الاجتماع، وهي ما يعبر عنه علماء الحكمة في هذا العصر بتنازع البقاء، ويقولون: إنَّ الحرب طبيعة في البشر؛ لأنَّها من فروع سنة تنازع البقاء العامة، وهو عام لكل نوع من أنواع التنازع بين الناس الذي يقتضي المدافعة والمغالبة، وقوله: ﴿لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾، يؤيد السنة التي يعبر عنها علماء الاجتماع بالانتخاب الطبيعي أو بقاء الأمثل، ووجه ذلك جعل هذا من لوازم ما قبله، فكأنه -تعالىٰ- يقول: إنَّ ما فطرت عليه الناس من مدافعة بعضهم بعضًا عن الحق والمصلحة هو المانع من فساد الأرض؛ أي: هو سبب بقاء الحق، وبقاء الصلاح، ويعزز ذلك قوله -تعالىٰ- في بيان حكمة الإذن للمسلمين بالقتال في سورة الحج: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝٣٩ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٣٩-٤١]، وقوله -تعالىٰ-: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

داود وسليمان عليهما السلام

﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ[1] فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ[2] لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ[3] عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٨-٨٢].

* شرح وعبرة:

(١) ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ﴾.

أي: اذكر لهم يا محمد داود وسليمان؛ ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ﴾، وهو الزرع وقد انتشرت فيه غنم القوم ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾، أي: مطَّلعين على حكمهم، ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا﴾ من الرسولين أعطيناه حكمًا وعلمًا، اذكر لهم هذه القصة لتكون دليلًا على صدقك، وبرهانًا على حقيقة قولك؛ لأنَّك تقص عليهم من أنباء داود وسليمان ما كان غائبًا عنك وعنهم، ولولا أنَّك رسول صادق مؤيد بالوحي السماوي ما اطلعت على شيء من هذا، وقوله: ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ فِى

---

(١) انتشرت.

(٢) الدرع في الحرب.

(٣) يدخلون تحت الماء ليخرجوا منه شيئًا، أو يستخرجوا له الأعمال البديعة.

﴿ٱلۡحَرۡثِ﴾ بصيغة المضارع مع أن القصة قد مضت ومرَّ عليها من القرون ما لا يعلمه إلا الله -تعالىٰ-= استحضار للصورة العجيبة، وتصوير للماضي بصورة الشيء الحاضر، وفرضه كأنَّه حاصل الآن.

والقصة التي يتلوها القرآن علينا ترينا أنَّ الحادثة حادثة زرع انتشرت فيه غنم، ومن شأن الغنم إذا انتشرت في زرع تفسده، وأن أصحاب الزرع اختصموا مع أصحاب الغنم، ورفعت القضية إلىٰ داود وسليمان ليحكما فيها.

ويقول المفسرون: إنَّ داود أعطىٰ رقاب الغنم لأصحاب الزرع، فخرجا من عنده ومرًّا بسليمان، فقال كيف قضىٰ بينكما؟ فأخبراه، فقال سليمان: لو وليت أمركما لقضيت بغير هذا، أو قال: غيرُ هذا أرفق بالفريقين، فبلغ ذلك داود، فدعاه وقال: كيف تقضي؟ قال: أدفع الغنم إلىٰ صاحب الحرث ينتفع بدرّها ونسلها وصوفها ومنافعها، ويزرع صاحب الغنم لصاحب الحرث مثل حرثه، فإذا صار الحرث كهيئته يوم أُكِل دُفِع إلىٰ صاحبه، وأخذ صاحب الغنم غنمه، فقال داود: القضاء ما قضيت، وحكم بذلك.

والآية تحتمل ذلك، ولا مانع منه إذا وردت رواية صحيحة فيه عن المعصوم، وتحتمل غيره، وكل ما تفيده الآية قطعًا أنَّ داود وسليمان حكمًا حكمين مختلفين، وسبب الاختلاف أن المسألة اجتهادية وأنَّ الله -تعالىٰ- أخبرنا أنَّه فهمها سليمان، فكان حكمه صوابًا، أما حقيقة ما حكم به كل واحد منهما، فلا تدل عليه الآية، فإن وردت به حديث صحيح فبها، وإلَّا فلا، والعبرة في الآية لا تتوقف علىٰ إضافة رواية إليها.

وتأمل قوله: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾ بعد قوله: ﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ﴾؛ لتعرف أنَّ الله -تعالىٰ- أعطىٰ كلًّا من الأب الكريم وولده العظيم مقدرةً علىٰ الحكم بين الناس، وعلمًا يرشده إلىٰ طريق الحكم، غير أنَّ الذي أوتي قوة الحكم قد يخطئ وجه الصواب؛ لأنَّه ليس هناك وحي، والمسألة اجتهادية. وقد يكون الحادث له وجوه مختلفة من جهة قياسه بأشباهه ونظائره، فيختلط الأمر علىٰ المجتهد، فيخطئ الصواب، وهو مأجور علىٰ كلا الحالين، إن أخطأ فهو مأجور علىٰ اجتهاده، وإن أصاب فهو مأجور علىٰ اجتهاده وتوفيقه، وقد ورد عن

عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب، فله أجران، فإذا حكم واجتهد ثم أخطأ، فله أجر**». [رواه الشيخان][(١)].

غير أنَّ الفرق بين النبي وغيره: أنَّ النبي لا يقره الله علىٰ الخطأ بل يرشده إلىٰ الصواب، أما غير المعصوم فلا طريق إلىٰ إرشاده إلىٰ الصواب.

ثم كيف يحرص الإله علىٰ النبيين العظيمين: نبي الله داود، ونبيه سليمان، ويريك أن قوله: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ لم يكن لنقص في داود وعدم استعداد للحكم والقضاء، غير أنه قد تتفاوت القضاة والحكام مع استعداد الكل للقضاء، كما كانت تتفاوت أصحاب رسول الله ﷺ، كما ورد عن بعض الصحابة أنه قال: «أقضانا عَلِيّ، وأقرؤنا أُبَيّ»[(٢)] مع أنه كان في الصحابة قضاة كثيرون وقراء، ولكن استعداد علي للقضاء كان فوق استعداد غيره، وإتقان أُبَيّ للقراءة فوق إتقان كثير من الصحابة -رضوان الله عليهم أجمعين-.

فلمّا كان قول الله -تعالىٰ-: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ قد يسيء السامع فهمه، ويخطئ فيه وجه الصواب، عقبه بقوله: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾.

(٢) والآية ترينا فقه نبي الله سلميان في القضاء، وكمال استعداده للحكم، وقد أخرج الشيخان عن أبي هريرة أنَّه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**كانت امرأتان معهما ابناهما، جاء الذئب فذهب بابن إحداهما، فقالت صاحبتها إنما ذهب بابنك، وقالت الأخرىٰ إنما ذهب بابنك، فتحاكما إلىٰ داود فقضىٰ به للكبرىٰ، فخرجتا علىٰ سليمان بن داود ﷺ فأخبرتاه، فقال ائتوني بالسكين أشقه بينهما، فقالت الصغرىٰ: لا تفعل يرحمك الله، هو ابنها، فقضىٰ به للصغرىٰ**»[(٣)].

وذلك من فقه سليمان ﷺ، وكمال استعداده للقضاء، حكم أبوه داود للكبرىٰ بناء علىٰ قرينة من القرائن، أو لأنَّ الولد كان تحت يد الكبرىٰ، والصغرىٰ لم تستطع أن تقيم بينة علىٰ أنه ابنها؛ أما سليمان فعمد إلىٰ أسلوب عجيب اكتشف به وجه الصواب في ذلك الحادث، فأرىٰ المرأتين أنه مستعد لأن

---

(١) رواه البخاري: (٧٣٥٢)، ومسلم: (١٧١٦).

(٢) رواه البخاري: (٤٤٨١)، عن ابن عباس، قال: قال عمر ﷺ: «أقرؤنا أبي، وأقضانا علي». (عمرو)

(٣) رواه البخاري: (٣٤٢٧)، (٦٧٦٩)، ومسلم: (١٧٢٠).

يشقه نصفين، ويعطي كل واحدة نصفًا، وهنا تجلت العاطفة، وظهرت شفقة الأم جلية واضحة؛ لأنَّ الأم لا ترضىٰ أن يُقتل ابنها علىٰ مرأىٰ منها، وتؤثر أن يعيش بعيدًا عنها وتحت سلطان غيرها في سبيل حفظ حياته.

فلمَّا أفتىٰ سليمان بذلك وأراهم أنه منفذ ذلك لا محالة لفض النزاع بين المرأتين، قالت الصغرىٰ: «لا تفعل يرحمك الله»، ولا نزاع بيننا «هو ابنها»، فعرف سليمان أنَّ هذه أمه، فقضىٰ به للصغرىٰ.

وذلك من إعمال سليمان للقرائن، وتحكيمه للشواهد، وهي ممَّا يتبين به وجه الصواب في المسائل، فهي بينة؛ لأنَّ البينة ما يتبين به وجه الصواب ويظهر به الحق، وقد أطال الحافظ ابن القيم في ذلك الباب في كتاب **«الطرق الحكمية»**، وفي كتاب **«إعلام الموقعين»**[1]، ولو رجعت إليه في ذلك لرأيت ما يثلج صدرك، ويوقفك علىٰ علمه الواسع، وفقهه العميق، ثم ترىٰ كيف تكون الشريعة حكيمة عادلة، صالحة لأن تسعد الناس في دينهم ودنياهم، وكيف لا يقف القاضي من الحوادث مكتوف الأيدي؛ لأنَّ عنده من القرائن والأدلة ما يمكنه من كشف الحقيقة وإزالة الغطاء، ويرىٰ ابن القيم أن العمل بالقرائن هو شأن الناس في كل زمان.

وقد استدل بفتوىٰ داود في مسألة الولد التي رواها الشيخان، وقال: إن ذلك لم يكن قضاء بشهود، وإنَّما هو قضاء بني علىٰ قرينة، هي شفقة الأم التي جُبِلَتْ عليها، كما استدل بقول الشاهد في قضية امرأة العزيز مع يوسف: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ

---

(١) عامة كتاب الطرق الحكمية في بيان ذلك. وعلق علىٰ قصة سليمان عليه سليمان بقوله: «فأي شيء أحسن من اعتبار هذه القرينة الظاهرة! فاستدل برضا الكبرىٰ بذلك، وأنها قصدت الاسترواح إلىٰ التأسي بمساواة الصغرىٰ في فقد ولدها. وبشفقة الصغرىٰ عليه، وامتناعها من الرضا بذلك: علىٰ أنها هي أمه، وأن الحامل لها علىٰ الامتناع هو ما قام بقلبها من الرحمة والشفقة التي وضعها الله تعالىٰ في قلب الأم. وقويت هذه القرينة عنده، حتىٰ قدمها علىٰ إقرارها، فإنه حكم به لها مع قولها «هو ابنها» وهذا هو الحق، فإن الإقرار إذا كان لعلة اطلع عليها الحاكم لم يلتفت إليه أبدًا.

ولذلك ألغينا إقرار المريض مرض الموت بمال لوارثه؛ لانعقاد سبب التهمة، واعتمادًا علىٰ قرينة الحال في قصده تخصيصه». الطرق الحكمية: (٨-٩)، ط. عالم الفوائد.

وانظر: إعلام الموقعين، ط. مشهور: (١/ ٣٨٤-٣٩١). (عمرو)

﴿فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝٢٧ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾، وهو تحكيم للقرائن وعمل بمقتضىٰ المنطق والعقل، وقد وفينا الآية حقها في سورة يوسف، كما استدل بحوادث أخر، وأفاض في المسألة، واستوفىٰ الكلام علىٰ معنىٰ البينة واشتقاقها، واستعمال القرآن الكريم لها، جزاه الله عن دينه خيرًا.

(٣) ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ﴾ قال «**الراغب**»[1]: التسخير سياقه إلىٰ الغرض المختص قهرًا، قال -تعالىٰ-: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ﴾، كقوله: ﴿سَخَّرْنَـٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا﴾، وقد شرح ذلك التسخير بقوله ﴿يُسَبِّحْنَ﴾.

واختلف المفسرون في تسبيح الجبال مع داود، أهو خارق للعادة، أو هي تسبح بلسان حالها علىٰ حد قوله -تعالىٰ-: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾، والمراد: أنَّ الجبال تقدس الله بلسان حالها، وتشهد له بأنّه إله قادر حكيم، منزَّه عن النقص والعبث، وكأنّها تقول: إذا كنت في نظر بعض الناس خلقًا لا غناء فيه ولا نفع؛ فإنِّي عند أصحاب العقول الراجحة، والفقه الواسع، خلقت لحِكَم ومصالح لا تقف عند حد، فمن حِكَمها أن الله -تعالىٰ- ينزل الثلج عليها فيبقىٰ في قللها حافظًا لشراب الناس إلىٰ حين نفاده، وجعل فيها ليذوب بالتدريج، فتجيء منه السيول، وتسيل منه الأنهار والأدوية، فينبت في المروج، والوهاد والربىٰ ضروب النبات والفواكه والأدوية التي لا يكون مثلها في السهل والرمل، ولولا الجبال لسقط الثلج علىٰ وجه الأرض جملة، فانحلّ بسرعة، وعدم وقت الحاجة إليه، وكان في انحلاله جملة هلاك ما مر عليه، وفيها من الأحجار ما يصلح للأبنية، وفيها معادن الذهب والفضة، والحديد والنحاس، والزبرجد والزمرد وغيرها من أنواع المعادن، وفيها من المنافع أنها ترد الرياح العاصفة وتكسر حدتها عما تحتها، كما ترد عنهم السيول إذا كانت في مجاريها.

---

(١) المفردات: (٤٠٣). (عمرو)

والظاهر أنَّ تسبيح الجبال مع نبي الله داود كان تسبيحًا خاصًا يفهمه داود عليه السلام، وهو فضل من الله عليه، لم يشركه فيه غيره، ويدل لذلك قوله -تعالىٰ- في سورة سبأ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ﴾ [سبأ: ١٠]، أي: رجعي معه التسبيح، أو رجعي معه في التسبيح كلما رجع فيه، ولو كان ذلك التسبيح بلسان الحال لما كان فضلًا خاصًا بنبي الله داود، وقال في سورة (ص): ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [سورة ص: ١٧-١٩]، أي: كل من الجبال والطير لأجل تسبيح داود مسبِّحٌ؛ لأنَّها كانت تسبح بتسبيحه.

وقوله: ﴿وَٱلطَّيْرَ ۚ﴾ منصوب علىٰ المعيَّة، والمعنىٰ أن الطير كالجبال في أن الله -تعالىٰ- سخرها مع داود لتسبيح الله -تعالىٰ- وتقديسه، فجند الطير كان مسخرًا لداود كالجبال: ﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ لذلك التسخير، فليس ببدع منا ولا عجيب، وهو دليل آخر علىٰ أن تسبيح الجبال مع داود كان تسبيحًا إيجابيًا، وإلَّا لما ساغ قوله: ﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾، وهي كلمة تدل علىٰ عظم الفعل وأهميته، فإذا عجبتم منه فلا حق لكم في ذلك؛ لأنَّ الكون جميعه بيد الله -تعالىٰ-، وهو الذي يسخره كيف يشاء، وفي أي ناحية شاء، لا يتعاصىٰ عليه شيء، ومتىٰ قال للشيء كن كان.

(٤) ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾، أي: علمناه عمل الدروع، ثم بيَّن لنا الغاية منها في قوله: ﴿لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ﴾، أي: لتحفظكم اللبوسُ من بأسكم إذا وقعتم في حرب، وقد بيَّن ذلك في آية سبأ؛ إذ يقول: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سبأ: ١٠، ١١]، **وسابغات**: دروع واسعة ضافية، **والسرد**: نسج الدروع، **وقدّر فيه**: اجعله بقدر يتناسب مع المهمة التي عمل لها، فهل الآية التي معنا شرح لآية سبأ، وإلانة الحديد لداود كناية عن تعليم الله له صنعة الدروع ولبوس الحرب؟ وما دامت المسألة مسألة تعليم وإرشاد فليست من خوارق العادة، أو هناك إلانة حقيقة ومع الإلانة تعليم منه؟ وموضع التعليم في آية **سبأ** هو قوله: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ﴾، وهو

المعني من قوله: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ﴾، فالله -تعالىٰ- ألان له الحديد معجزة له، ثم شفع ذلك بأن علمه صناعة الدروع من ذلك الحديد الليِّن، والآية تحتمل الفهمين.

وأنا أميل إلىٰ الوجه الأول وأنَّ إلانة الحديد لداود ﷺ هو المراد من قوله: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ﴾؛ لأنَّ الأصل في الآية أن تفهم علىٰ حسب المعتاد والمألوف، ولا نذهب إلىٰ فهمها علىٰ وجه خارق للعادة إلا حيث تعذر فهمها علىٰ الوجه المعتاد، والأصل في الآيات أن يفسر بعضها بعضًا.

﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾، أي: فضلَ الله عليكم بذلك التعليم، وهو يرينا أن علم فنون الحرب ومعرفة الوقاية منه وحماية الدولة من أيدي الأعداء نعمة عظمىٰ ينبغي الشكر عليها، وينبغي للقوم أن يهتموا بها؛ لأنَّه لا حياة للعالم إذا لم يكن له قوة حربية تحميه وتدافع عنه، ولذلك يدعو القرآن الكريم إلىٰ أن نأخذ الحذر من العدو، وأن نعد له ما نستطيع من قوة مادية ومعنوية، ونكَّر القوة لاختلافها باختلاف العصور والأزمنة، ففي عهد داود ﷺ كان القتال بالحراب ولذلك أرشده أن ينسج دروعًا للحرب من الحديد، لتقي لابسها من السهام والحراب.

أما اليوم فتطورت العلوم والمعارف، ودخل العالم في شأن جديد وأصبحت القوة الحربية للأمم تقاس بأساطيلها البرية والبحرية، وطياراتها وغواصاتها، بل وتقاس بصناعتها وفنونها، وتجارتها، فكما تحارب الأمم بعضها بعضًا بالمقذوفات النارية، والغازات السامة الخانقة، يحارب بعضها بعضًا بالمصنوعات والمنسوجات، وهذه دولة اليابان تحارب العالم كله بصناعتها من جهة جودتها، وسهولة ثمنها، وهي حرب عوان يعمل العالم له حسابًا وألف حساب؛ لأنَّه يتعلق بمشكلة البطالة التي تهدد الأمم من وقت لآخر، ولها اتصال وقيل بثروة الأمة وماليتها، ويتبع ذلك توسعها في الاستعمار.

فوسائل الحرب في هذا الوقت كثيرة مختلفة، وقد تطورت بنسبة تطور العالم في علومه ومعارفه، واتساع مرافقه ومشاكله، ومن لم يتذأب أكلته الذئاب، ومن لا يظلم الناس تظلمه، فليتنبه لذلك المسلمون، وليضربوا بسهم في هذه

الحياة المملوءة بالمشاكل، وليلبسوا لكل وقت لبوسه، وإلَّا ذهب ريحهم، وقُضي عليهم القضاء الأخير، وليعتبروا بغيرهم، ويذَّكروا بما حل بهم من مصائب، وما انتابهم من ويلات، وليذكروا تاريخهم المجيد، وسلفهم الصالح، وما خلفه لهم من دولة، وما تركه من ميراث، والله معهم يعينهم وينصرهم ما نصروا تعاليمه، وآزروا دينه وشريعته.

(٥) ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ﴾، أي: وسخرنا لسليمان الريح حال كونها عاصفة، أي شديدة الهبوب: أي إن الله -تعالىٰ- سخر له الريح تجري بأمره كما يريد علىٰ قوتها وشدتها، وذلك فضل من الله -تعالىٰ- علىٰ نبيه سليمان، فالريح التي يرسلها الله علىٰ الجبال فتنسفها نسفًا، وتذَرها قاعًا صفصفًا لا ترىٰ فيها عوجًا ولا أمتًا، والريح التي يصفها الله بأنَّها لا تذر من شيء أتت عليه إلَّا جعلته كالرميم، والريح التي وصفها الله بأنَّها ريح عاتية تقصف الرؤوس من الأجسام كما تقصف النخلة من جذعها؛ هذه الريح التي لها هذه القوة، ولها هذه الآثار، قد سخرها الله -تعالىٰ- لسليمان تجري بأمره رخاء سهلة، حيث أراد داود، ويقول بعض المفسرين إنَّها أحيانًا تكون عاصفة، وأخرىٰ تكون رخاء؛ لأنَّ الله وصفها بالوصفين جميعًا، مع أنَّ الله -تعالىٰ- وصفها بأنَّها عاصفة في سورة الأنبياء.

ثم عقب الوصف بقوله تجري بأمره إلىٰ الأرض التي باركنا فيها للعالمين، فهي تجري لمصلحة داود ﷺ، ولا يتفق ذلك مع قوتها وشدتها، إنما اللائق بهذه الريح أن تكون رخاء ووصفها في سورة (ص) بقوله ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾.

فالظاهر أنَّ عصفها بيان لشدتها في نفسها، وأنَّ لينها بيان عند أمره لها وانتفاعه بها.

وقوله: ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ﴾، أي: إنَّها تحت تصرفه وسلطانه، وهي معجزة لداود، وقوله: ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ المراد بها بلاد الشام ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ﴾، أي: بصحة التدبير فيه، فنجريه علىٰ ما تقتضيه الحكمة، وإنَّا لنعلم أنَّ سليمان سيعرف نعمتنا ويشكرنا عليها.

﴿وَمِنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَـٰفِظِينَ﴾، أي: وسخرنا لسليمان من الشياطين من يغوصون له في البحار، ويستخرجون منه الدر والمرجان وما يكون فيها، ﴿وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾، أي: دون الغوص كبناء المحاريب والتماثيل، والقصور والقدور والجفان ﴿وَكُنَّا لَهُمۡ حَـٰفِظِينَ﴾ أن يزيغوا عن أمره، ويخرجوا عن طاعته.

داود وسليمان عليهما السلام

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ
إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ(١) لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ
يُوزَعُونَ(٢) ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا
يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ(٣)
أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ
فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ
﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ(٤) مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ
بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً
تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ
مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا
يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ(٥) فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾
ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ
ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ

---

(١) جمع.

(٢) يساسون ويقمعون. أو يحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا.

(٣) اجعلني موزعًا بالشكر مولعًا به.

(٤) حجة وعذر.

(٥) بمعنى المخبوء، وهو النبات والمطر، وغيرهما ممّا خبأه -عز وعلا- من غيوبه.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا
حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾
قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾
وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ
فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا
قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن
يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ
أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ
مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ
وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟(١) لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ
لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ
﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى
ٱلصَّرْحَ ۖ(٢) فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ(٣) مِّن قَوَارِيرَ ۗ
قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ١٥-٤٤].

* شرح وعبرة:

(١) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يخبرنا الله -تعالىٰ- أنه أعطىٰ داود وولده سليمان علمًا، وهو علم القضاء بين الناس كما قال في آية الأنبياء: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ﴾، ففهم من قرنه بالحكم أنه علم متعلق به، فالحكم الذي آتاه الله إياهما حكم أساسه العلم، فالله -تعالىٰ- يمتن عليهما بأن آتاهما مقدرة علىٰ الحكم بين الناس، وأن هذه المقدرة أساسها العلم بوجوه الحكم وطرق القضاء، وإن تفاوتا فيه، وكذلك آتاهما الله علمًا بسياسة الدولة وتدبير شؤونها، كما علم سليمان منطق الطير،

---

(١) اجعلوه متنكرًا متغيرًا عن هيئته وشكله.

(٢) القصر.

(٣) مُخلّى، وقوارير: زجاج.

وفي الآية تنويه بشأن العلم وعلو منزلته، ولا سيما علم القضاء والسياسة؛ إذ لا تستوي أمة عالمة وأمة جاهلة، وكذلك لا تستوي دولة فيها رجال قضاء وسياسة، ودولة أقفرت من ذلك النوع من العلم.

وقد أصبح القضاء بين الناس، وكذلك السياسة فنونًا تدرس وتعلم، وتطور العالم هو الذي قضىٰ بذلك، ولعل المسلمين يهتمون بالعلم ويعنون به عنايتهم بأهم أمورهم ومصالحهم، حتىٰ لا يسبقهم الأجنبي في هذه العلوم، وحتىٰ لا يقفوا والقافلة تسير، ولا يجمدوا والفلك يتحرك ويدور لعل المسلمين يفهمون أن نبي الله داود وولده سليمان لم يكوِّنا ملكًا إلا علىٰ أساس العلم وقاعدة المعرفة، فإذا أرادوا أن يكونوا في عداد الأمم الناهضة والشعوب الحية فلْيهتموا بالعمل من جميع نواحيه؛ فإنَّ الأجنبي قد سُلِّط عليهم؛ لأنَّه علم وجهلوا، وتقدم وتأخروا، ونشط وناموا.

﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. أي: إنَّ نبي الله داود وولده سليمان شكرَا الله علىٰ تفضيله لهم علىٰ كثير من عباده المؤمنين، وهم الذين لم يؤتوا علمًا، أو أوتوا علمًا ليس كعلمهما، وتأمل كيف يعترفان بأنَّهما، وإن آتاهما الله علمًا، فقد فضَّل غيرهما عليهما، ولم يفضِّلْهما علىٰ جميع الناس، بل فضلهم علىٰ الكثير من المؤمنين، ليعلِّمانا كيف لا يفتن الإنسان بما أوتي من العلم، وما وصل إليه من الفضل؛ فإنَّ ما يعطاه الإنسان من العلم في جانب ما جهله شيء قليل، كما قال: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

ومن جهة أخرىٰ؛ فإنَّ هناك مَنْ هو أعلم منه من المخلوقين، ومتىٰ عرف الإنسان ذلك، وأيقن أن فضل الله لم يكن حجرًا عليه، وأنه فوق كل ذي علم عليم، وعرف أنه لم يؤتَ من العلم إلا قليلًا؛ متىٰ عرف ذلك بعد عنه الغرور، وعرف قيمة نفسه، وطلب المزيد من العلم، وفهم معنىٰ قول الله -تعالىٰ- لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

(٢) ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾. يرينا الله أنَّ سليمان عليه السلام ورث أباه داود بنبوته وعلمه وملكه دون سائر أولاده، ولم يكن ذلك الميراث كما يرث أولياء العهد آباءهم في

الملك بمقتضىٰ نظام الوراثة، وإنما هو توريث الله لسليمان واصطفائه له لذلك المنصب؛ لأنَّ الله أعده له بما آتاه من الخصائص والمزايا التي تعده لذلك المقام.

﴿وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ المنطق والنطق كل لفظ يعبر عما في الضمير، والأصوات الحيوانية، من حيث إنَّها تابعة للتخيلات منزلةٌ منزلةَ العبارة، سيما وفيها ما يتفاوت باختلاف الأغراض، بحيث يفهمها ما هو من جنسه، قال **البيضاوي**: ولعل سليمان مهما صوَّت حيوان علم بقوته الحدسية التخيل الذي صوته، والغرض الذي توخاه به.

ومن ذلك ما حكىٰ أنه مر ببلبل يصوت ويترقص، فقال: يقول «إذا أكلت نصف ثمرة فعلىٰ الدنيا العفاء»، وصاحت فاختة، فقال: إنَّها تقول «ليت الخلق لم يخلقوا»، فلعل صوت البلبل كان عن شبع وفراغ بال، وصياح الفاختة كان عن مقاساة شدّة وتألم قلب. (اهـ)[1].

ولم يجزم البيضاوي بذلك الرأي، بل صدره بكلمة (لعلّ) الدالة علىٰ الرجاء، ولعله يرىٰ أنَّ المتبادر من الآية أنَّ تعليم منطق الطير لسليمان كان معجزة له، وإن كان ذلك الوجه الذي قرره تحتمله الآية؛ فإنَّ قوله: ﴿عُلِّمْنَا﴾ يحتمل أن يكون معناه أنه منحه الله أسباب العلم ومقدماته، فأعطاه من الذكاء والفراسة ما يفهم به لغة الطير في حزنها وفرحها، وشدتها ورخائها، ويسمع من الطير في كل حالة من هذه الحالات ما يدل علىٰ غرضها الذي تقصه من التصويت، وإذا سهل علىٰ الذين يراقبون الحيوان والطير أن يجدوا أصواتها تتكيف بكيفيات مختلفة باختلاف حاجاتها ومطالبها، فمواء الهرة المحبوسة يغاير مواءها إذا طلبت السقاء، والطعام أو الماء، فلكلّ صوت كيفيات ونبرات ليست في الصوت الآخر، يفهمه عنها أبناء جنسها؛ إذا سهل ذلك علىٰ أولئك أفلا يسهل علىٰ نبيٍّ قد اختاره الله أن يعطىٰ من قوة الحدس والذكاء ما به يفهم منطق الطير وما تريده إذا صوتت.

إنَّ الآية تحتمل هذا، ويكون قوله: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾، المراد به أنَّ الله وهبه من الذكاء وقوة الحدس ما يستطيع به فهم أصوات الطير، وهو فضل عظيم

---

(١) انظر: تفسير البيضاوي: (٤/١٥٧)، فتوح الغيب: (١١/٤٧٩). (عمرو)

من الله عليه يستحق عليه الشكر، ويكون ذلك الامتنان كقوله: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًاۚ﴾، والحكم الذي آتاه الله إياه، وامتن عليه به هو المقدرة والاستعداد للقضاء بين الناس.

وكما تحتمل الآية ذلك تحتمل وجهًا آخر، وهو أنَّ الله اختصه بفهم لغة الطير لا من طريق الحدث، بل من طريق الإلهام، فهو معجزة لسليمان كتسخير الريح، وقد يؤيد ذلك قصة الهدهد؛ فإنَّ ما دار بينه وبين سليمان من حوار وأخذٍ وردّ لا يمكن تأويله بمثل ما أوّل به **البيضاوي**؛ فإنّه توعده بالعذاب الشديد إلّا أن يأتي بحجة وعذر، وقوله لسليمان: أحطت بما لم تحط به، وجئتك من سبأ بنبأ يقين، وإخباره أنّه وجد امرأة تملكهم، وأوتيت من كل شيء، ولها عرش عظيم، وعلمه بأنّها هي وقومها يسجدون للشمس من دون الله، وأن الشيطان يزين لهم أعمالهم فصدّهم عن السبيل فهم لا يهتدون، وقول سليمان له: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ . . . إلخ.

كل ذلك لا يتفق وما فهمه **البيضاوي** في الآية، وكذلك لا يتفق وما يتأول به بعض الناس قصة الهدهد بالطير الزاجل المعلّم؛ فإنّه إذا سهل عليه أن يحمل رسالة من مكان إلىٰ مكان لا يسهل عليه ذلك الحوار وهذه الأجوبة: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍۖ﴾ المراد به كثرة ما أوتي، كما تقول فلان يقصده كل أحد، ويعلم كل شيء، تريد كثرة قاصديه، وغزارة علمه، والظاهر أنَّ الأشياء التي أوتيها سليمان وأبوه هي حاجات الملك، ولوازم العظمة، كقوله في شأن **بلقيس**: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ الإشارة إلىٰ ما أعطاه الله لداود وسليمان ﷺ، وهو قول يراد به الشكر والمحمدة، و﴿ٱلْمُبِينِ﴾: الواضح الجليّ، فذلك اعتراف آخر بفضل الله عليهما بعد اعترافهما الأول: ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ لنعرف من ذلك الخلق الذي كان عليه داود وسليمان أنه ينبغي لكل أحد أن يعرف فضل الله في العلم أو المال أو الصحة أو النسل الصالح وغير ذلك ممَّا لا يعد، وأن يقابل نعمة الله عليه بشكره والاعتراف بفضله؛ لأنَّ ذلك مدعاة للمزيد من ذلك الفضل، ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

وانظر كيف ينسب الفضل في كل هذه المواطن إلىٰ الله -تعالىٰ-، فيقول داود وسليمان ﷺ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا﴾، ويقول سليمان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾، أي: إنَّ الله هو الذي علمنا، وهو الذي آتانا كل شيء، ويقول الأستاذ الشيخ **طنطاوي جوهري** في كتابه «**الجواهر**»: إن تعليم الله لنبيه سليمان كان معجزة، ولذلك قال: (عُلِّمْنا)، ولم يقل: (تعلَّمْنا)، أما نحن فنعرفه من طريق التعلم.

وقد عرف العلماء كثيرًا من لغات الطيور؛ أي تنوُّع أصواتها لأغراضها المختلفة، وفي هذا معجزة لهذا القرآن لقوله في آخر السورة: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾، وكأنَّ الله يقول إنَّكم لا تعرفون لغات الطيور، وقد علمتها سليمان، وسيأتي يوم ينتشر فيه علم الخلق، ويطلع الناس علىٰ عجائبه، فتعرفونها بالتعليم لا بالقوة القدسية كالأنبياء، يريكم الله إياها، ويرشدكم إلىٰ مواطنها فتعرفونها؛ لأنَّكم مأمورون أن تعرفوا آيات علىٰ قدر طاقتكم.

(٣) ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾، أي: جمع لسليمان جنوده المسخرة له من الجن، وهو العالم الخفي الذي يقابل الإنس، ومن الإنس والطير، ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾، أي: يساسون ويقمعون، وحكمة ذلك التعقيب أنَّ كثرة الجيش قد تكون مدعاة للفوضىٰ والهمجية، فأرانا الله أن جيش سليمان مع كثرته وتنوعه هو سلس القياد سهل الضبط، أو يحبس أولهم علىٰ آخرهم ليتلاحقوا، وذلك شأن الجيش عند الاستعراض يجمع أوله علىٰ آخره بحيث يتصل بعضه ببعض؛ لأنَّ ذلك أرهب للعدو، وأعظم في نفس الرائي، ولا مانع من إرادة المعنيين جميعًا، فالجيش علىٰ كثرته سهل القياد، ويتصل بعضه ببعض عند الاستعراض.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ هو واد بالشام يكثر فيه النمل، أطلق عليه (وادي النمل) لذلك.

يرينا الله -تعالىٰ- أنَّه بعد أن جمع لسليمان جنوده الكثيرة ساروا في الأرض، حتىٰ إذا مروا علىٰ وادي النمل، ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ﴾، وهل قالت ذلك؛ لأنَّها لما رأت الجنود قد أتوا علىٰ الوادي فرّت

منهم، وصاحت صيحة نبهت بها ما بحضرتها من النمل لمرادها، فتبعها في الفرار، فشبه ذلك بمخاطبة العقلاء ومناصحتهم، فأجروا مجراهم حيث جعلت هي قائلة، وما عداها من النمل مقولًا لهم، أو أنَّ لا مانع أن يخلق الله -تعالىٰ- فيها النطق، وفيما عداها العقل والفهم؟ قيل بكلٍّ، وبدأ المفسر **أبو السعود** بالوجه الأول، وكأنَّه يرجحه ويختاره[1].

ولسنا في حاجة إلىٰ ادعاء أنَّ الله -تعالىٰ- خلق فيها نطقًا، وفيما عداها عقلًا وفهمًا، ما دام سليمان قد علمه الله منطقها وفهَّمه لغتها، فإذا صاحت بما حولها، وفرت إلىٰ جهة غير الجهة التي فيها جنود سليمان، فقد فهم سليمان من صيحتها وفرارها ما تريد بهذه الصيحة، وهي هي في استعدادها وخلقتها.

ويظهر أنَّ المفسر قد فهم من قول الله -تعالىٰ-: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ﴾ أنَّها نطقت بمثل هذه الألفاظ؛ لذلك يقول: «مع أنه لا يمتنع أن يخلق الله فيها النطق وفي غيرها العقل والفهم» مع أنَّ المراد أنها صوتت بما يفهم منه سليمان؛ ذلك ما تدل عليه الآية، غير أنه هل فهمها سليمان بطريق الفراسة والحدس، أو فهمها بإلهام من الله -تعالىٰ- معجزة له.

ذلك هو موضع الكلام في الآية، ولم يكن هناك نزاع في أن يمتنع أن يخلق الله فيها النطق وفي غيرها العقلوالفهم، أو لا يمتنع[2].

﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ جواب الأمر، فيقوله: ﴿ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ﴾ أمر بدل منه مبيِّن للغرض، والمعنىٰ: لا تكونوا في المكان الذي أنتم به فيحطمكم، وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ اعتذار عن سليمان وجنوده إذا فرض أن كان منهم تحطيم للنمل، وكأنَّها تقول: لإخوتها من النمل كونوا علىٰ حذر من تحطيم جنود سليمان لكم، وفروا إلىٰ مساكنكم؛ لأنَّه إذا حطَّمكم فقد حطمكم بدون شعور، فأنتم الجانون علىٰ أنفسكم.

---

(١) تفسير أبي السعود: (٦/٢٧٨). (عمرو)

(٢) كل ما سبق وغيره لسنا في حاجة إلىٰ التمسك به. فقد أخبر الله تعالىٰ أنه علم سليمان لغة ومنطق الطير والحيوان، وأن لهذه الحيوانات نطق خاص بها، فالبهائم يفهم بعضها مراد بعض بأصوات تصوتها وقد تسمىٰ منطقًا لها. (عمرو)

(٤) ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ تعجبًا من حذرها وتحذيرها، وفي الوقت الذي تُحذِّر فيه قومها تلفت نظر سليمان إلىٰ أن في طريقه عالمًا هو أقل منه جسمًا، وأضعف استعدادًا، ولا يليق بسليمان وقد آتاه الله ما آتاه من الملك والسلطان أن يغفل عن ذلك العالم الصغير؛ فإنَّه خلق من خلق الله، لا ذنب له في أن خلقه الله ضعيفًا لا يستطيع أن يكافح من هو أعظم منه، ولا حيلة له في تحويله من الصغر إلىٰ كبر، ومن الضعف إلىٰ القوة.

تلفته إلىٰ أنَّه ينبغي للقوي أن يلحظ الضعيف، وللكبير أن يرحم الصغير، حتىٰ ولو لم يكن له به كالنمل مع الإنسان، فما بالك بالإنسان مع أخيه الإنسان، إذا كان للمخلوق الضعيف حق علىٰ المخلوق القوي أن يرعاه، ويحتاط لحمايته وإن لم يكن من نوعه، فحقُّ الإنسان علىٰ الإنسان في أن يرعىٰ ضعفه، ويحتاط للإبقاء عليه= أولىٰ ثم أولىٰ، ويحق لسليمان أن يبتسم ضاحكًا من قول النملة هذا، وتلطفها في الاعتذار عن سليمان، وإشعار سليمان بلطف أنه مسؤول عن هذه العوالم الصغيرة التي يمرّ بها جيشه بعد أن نبه لذلك.

﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾. طلب من الله بعد حديث النملة أن يلهمه شكر نعمته عليه وعلىٰ والديه في أن حشر له ذلك الجيش الجرار، ونعمته عليه بتعليمه منطق الطير، وفهمه ما تريده النملة من صوتها وفرارها، ولم يطلب نبي الله منه أن يلهمه ذلك الشكر فحسب، ولكنه طلب منه مع ذلك أن يجعله مولعًا بذلك الشكر، معنيًا به، لا همّ له غيره، كما تعطيه كلمة ﴿أَوْزِعْنِيٓ﴾؛ فإنها تدل -فوق دلالتها علىٰ الإلهام- علىٰ أن يكون ذلك الشكر بوازع يحفزه إلىٰ الشكر، ويحضه عليه، بحيث لا يدعه وقتًا ما بدون شكر لله -تعالىٰ-، ولما كان فضل الله عظيمًا علىٰ كل من سليمان وأبيه وأمه قال: ﴿عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾.

﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾، أي: أوزعني أن أعمل صالحًا ترضاه؛ لأنَّ ذلك هو الغاية من الشكر العملي، بل هو الشكر فيكون تفسيرًا له، ولذلك يقولون: «الشكر: صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه إلىٰ ما خلق لأجله»، ويقول الله -تعالىٰ-: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

وقوله: ﴿تَرْضَىٰهُ﴾ إشارة إلىٰ أن العمل قد يكون صالحًا في نظر صاحبه ولا يكون صالحًا عند الله -تعالىٰ-؛ لأنَّه عملٌ لم يُبْنَ علىٰ العلم الصحيح والوحي السماوي، وهو ما أخذ من مشكاة النبوة، بل أخذ من طريق التقليد الأعمىٰ، واتباع الآباء والأجداد، كما عليه كثير من مسلمي اليوم، يأخذون عبادتهم عن عجائز البيوت، وما عليه القوم، وفيها كثير من البدع والخرافات، فلا تهذب نفوسهم، ولا تصل بهم إلىٰ الغرض من كل عبادة شرعها الله علىٰ لسان نبيه.

أما الذي يأخذ دينه عن الله -تعالىٰ-، ويهتدي بهدي رسوله المعصوم، فيرجع إليه في أشكال العبادات، ومعرفة الحلال والحرام، ويعنىٰ بشأن العبادة العناية اللائقة، فلا يقلد فيها بدون حجة أو برهان، وإنَّما يأخذها بأدلتها وبراهينها، ويسأل أهل الذكر إن لم يكن في استطاعته أن يفهم ذلك بنفسه، فذلك هو الذي يعمل العمل الصالح الذي يرضاه الله ويحبه، وإذا أخطأ السبيل بعد ذلك الجهد، ولم يوفَّق للصواب، لأن المسألة التي أخطأ فيها الصواب مسألة اجتهادية، فهو معذور في خطئه، مأجور علىٰ المجهود الذي بذله؛ لأنَّه أدىٰ ما عليه، وبذل ما ينبغي أن يبذل المؤمن التقي.

﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ يطلب من الله -تعالىٰ- أن يدخله في رحمته في الدنيا والآخرة في جملة الصالحين للحياتين، الجامعين بين الصلاحية لعمارة الأرض والصالحية لإرث الجنة، وهي السعادة الكاملة، والفوز الأكبر.

(٥) ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾، أي: تعرف الطيور فلم يجد فيها الهدهد، ﴿فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾ ألأنه حاضر وهو محجوب عني بساتر؟ أو كان غائبًا ولذلك لم يره، وكأنه يقول أوّلا: ما لي لا أراه ألساتر ستره أو لسبب آخر؟ ثم بداله أنه غائب فأضرب عنه، وقال: أم كان من الغائبين.

﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾. يقسم نبي الله سليمان أن لا بُدَّ أن يعذب الهدهد عذابًا شديد، كنتف ريشه، وجعله مع ضده في قفص، أو ليذبحنه ليعتبر به غيره، إلا أن يأتيه بحجة تبين عذره في تلك الغيبة،

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾، أي: فمكث الهدهد مكثًا غير طويل فلما رجع سأله عما لقي في غيبته، ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ علمت ما لم تعلم، ولما كان الذي يعلم الشيء من جميع نواحيه يحيط بذلك الشيء= عبَّر عنه بذلك، وفي الآية دليل علىٰ أن الأنبياء تخفىٰ عليهم أمور يعرفها غيرهم، وذلك ليعرف الناس أقدارهم، وليتعلم الإنسان من كل أحد، لأن سليمان لم ير بأسًا في أن يتعلم من طريق الهدهد، وهو ذلكم الطائر المعروف ألهمه الله فكافح سليمان بهذا الكلام علىٰ ما أوتي من فضل النبوة والحكمة والعلوم الجمة، والإحاطة بالمعلومات الكثيرة؛ لينبهه الله -تعالىٰ- علىٰ أن في أدنىٰ خلقه وأضعفه من أحاط علمًا بما لم يحط به، ليتصاغر إليه علمه، وتتحاقر إليه نفسه، ويكون ذلك لطفًا به في ترك الإعجاب الذي هو فتنة العلماء، وأعظِمْ بها من فتنة.

فإذا كان سليمان لم يعرف أحوال سبأ وملكها، وقال له الهدهد: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾، فلماذا يأنف الإنسان أن يتعلم من أخيه الإنسان، وإن كان أصغر منه سنًا، أو دونه في الوجاهة والمكانة، وفي الحكم المشهورة: «الحكمة ضالة المؤمن يأخذها أنىٰ وجدها»، وذلك إكبار لشأن العلم، وإعلاء لمنزلته، وأي إكبار أعظم من أن نبي الله سليمان يأخذه من طير من الطيور، ويتلقاه من نوع غير نوعه، ولا يرىٰ غضاضة علىٰ نفسه في ذلك، ولعل الناس يفطنون لهذا فيكبرون من شأن العلم كما أكبره سليمان، ويهتمون به كما اهتم به سليمان، ولا سيما العلم المتعلق بأحوال الممالك والأمم.

﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾، أي: بخبر محقق، وسبأ هو ابن يشجب بن يعرب بن قحطان، كما يقول المؤرخون، نسبت إليه القبيلة.

﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ بيان للنبأ المتعلق بسبأ، والمرأة هي بلقيس بنت شراحيل من نسل يعرب، والضمير في تَمْلِكُهُمْ لسبأ ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾، فكانوا يعبدونها، وعبَّر عن العبادة بالسجود؛ لأنَّه أظهر أشكالها ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ من عبادة الشمس

وغيرها من الأفعال والاعتقادات ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾، أي: سبيل الحق والصواب ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ إليه.

﴿أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ بدل من ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾ يبين المراد بها؛ أي زين لهم الشيطان أعمالهم، وهي عدم سجودهم لله -تعالىٰ-، أو مفعول لأجله؛ أي: زين لهم أعمالهم لئلا يسجدوا لله، وقرئ (أَلَا يَسْجُدُوا) بالتخفيف[1] فتكون (أَلَا) للتنبيه، ويا حرف نداء، والمنادىٰ محذوف؛ أي: يا قوم اسجدوا لله الذي يخرج المخبوء والغائب في السماوات والأرض، من نبات وأمطار وغيرها، والمراد أنه فعال يخرج للناس ما كان خفيًا عليهم، فالنبات قبل أن يولد كان خِبئًا في الأرض فأظهره الله وأخرجه، والأجنة في بطون أمهاتها كانت كذلك، فأخرجها الله وأظهرها، وأتم خلقها وصورها، والكواكب تخفىٰ في النهار ثم يخرجها الله -تعالىٰ- في الليل، ويظهر ضوءها للعالم، والشمس تغيب عن طائفة بالليل وتظهر لها بالنهار، والأمطار يخرجها الله للعالم وينزلها من جهة العلو، فتنتفع بها الناس، ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾، أي: مع إخراجه الخبء يعلم ما نخفيه في أنفسنا وما نعلن، والإله الذي له هذه الآثار، وله العلم المحيط= هو الذي يستحق أن يعبد.

أما الشمس التي يعبدها ذلك القوم، فهي خلق من خلق الله -تعالىٰ-، وآية من آيات قدرته وعظمته، فإذا كانت عظيمة الفوائد، كثيرة المنافع، فذلك لا يجعلها أهلًا لأن تعبد، والذي يستحق العبادة الإله الذي خلقها، وأعدها لما خلقت من حكم ومصالح، وذللها ذلك التذليل: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧].

﴿ٱللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾، أي: إنَّ الذي يستحق السجود، ويعلم الخبء، ويعلم ما نخفي وما نعلن هو الله، وهو الذي لا يستحق العبادة غيره، وهو رب العرش العظيم، وقد نكَّر عرش بلقيس،

---

(١) قرأ أبو جعفر والكسائي، ورويس بتخفيف اللام.

انظر: المبسوط: (٣٣٢)، والنشر: (٢/ ٣٣٧). (عمرو)

وعرّف عرش الله -تعالىٰ- إيذانًا بالفرق بين العرشين، وأي مناسبة بين عرش امرأة باليمن، وعرش إله له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما؟ إن عرش المخلوق وإن عظم هو عرش محدود في زمانه ومكانه، وسلطانه، ومهدد بعروش أخر.

أمَّا عرش الله -تعالىٰ- فهو فوق العروش، وسلطانه فوق كل سلطان، هو عرش من بيده ملكوت كل شيء له الآخرة والأولىٰ، السماوات والأرض علىٰ كبرهما، وعظم ما فيهما من أنهار وبحار، ونبات وأشجار، وحيوان وإنسان، وكواكب سيارة، وأخرىٰ واقفة، وعوالم قد ملأت هذه الكواكب؛ كل أولئك خاضعة لله -تعالىٰ-، مسخرة لسلطانه وقدرته.

فأين عرش بلقيس من ذلك العرش؟ بل أين عروش القياصرة الأكاسرة من ذلك؟ وأين عرش أكبر مملكة في الأرض من عرش الله -تعالىٰ-؟ أليس صاحب ذلك العرش هو مالك الملك وهو الذي يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممَّن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء بيده الخير وهو علىٰ كل شيء قدير؟ أليس أصحاب العروش جميعهم خاضعين لسننه، مسخرين لإرادته طائعين أو كارهين، أليس هو مالك الأرض يورثها من يشاء من عباده وجعل العاقبة للمتقين الذين يقون أنفسهم ممَّا يبيد ملكهم، ويقوِّض سلطانهم.

(٦) ﴿۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ يريد سنختبر أمرك، ونمتحن قولك، لنعرف صدقك أو كذبك؛ لأنَّ ذلك شأن الملوك المدبرين، لا يأخذون القول بالتسليم بدون حجة أو برهان ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ حمَّله سليمان كتابه، وأمره أن يلقيه إليهم، وأن يتولىٰ عنهم بعد الإلقاء فينظر ماذا يقول بعضهم لبعض في شأن ذلك الكتاب؟

﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾ هو إيجاز علىٰ طريق القرآن، وهو أن يحذف الجملة؛ لأنَّ في الكلام ما يدل عليها، وكأنه يقول فذهب الهدهد بكتاب سليمان، وألقاه إلىٰ بلقيس فتلقته وجمعت أشراف القوم وأصحاب الرأي، وقالت: ﴿إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾ ... إلخ.

﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾، وقد وصفت الكتاب بالكرم لكرامة مضمونه ومرسله، ولغرابة شأنه؛ لأنَّ طريقه الهدهد، وذلك غير مألوف للقوم، وقد عرفت أنه من سليمان؛ لأنَّ اسمه كان عليه.

أما نص الكتاب، فهو الجمل الثلاث: **الأولىٰ**: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، **الثانية**: ﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ﴾، ومعناه لا تتكبروا ولا تتعاظموا علىٰ الإجابة، **الثالثة**: ﴿وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ بيان للغرض من الكتاب، ومعناه: منقادين لله طائعين.

﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ لجأت إلىٰ أشراف قومها وأصحاب الراي، وقالت لهم: أفتوني في شأن ذلك الأمر الطارئ، وأشيروا علي فيه، ما كنت قاطعة أمرًا حتىٰ تحضرون، ويظهر أن ذلك كان رسالة منها إليهم تدعوهم فيها للاجتماع ليتشاوروا في الأمر، ويتبينوا وجه الصواب فيه، شأن الملوك أصحاب العقل الراجح، والتفكير المتزن، لا يشتغلون بشؤون الدولة، ولا يستبدون في تصريف الأمور؛ لأنَّ رأي الجماعة فوق رأي الفرد، وعقول مجتمعة أنفع من عقل واحد.

ومنه نعلم أن مبدأ الشورىٰ في الحكم مبدأ قديم، قد اهتدىٰ إليه الناس في عصورهم الأُوَل، وعملوا به في القرون القديمة؛ لأنَّ فائدته واضحة، وثمرته جلية لا يختلف فيها اثنان، ولذلك جاءت الشريعة الإسلامية باعتباره أصلًا من أصولها في سياسة الدولة، وقاعدة من قواعدها في المصالح العامة، فأمر الله نبيه محمدًا ﷺ أن يستشير أصحابه في الأمر الذي يعرض له ولهم كالحرب والسلم، وعقد المعاهدات، وما إلىٰ ذلك، ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾، ثم قال له بعد هذا: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، أي: بعد أن تعد العدة للأمر، وتبحثه من جميع نواحيه، وصممت بعد ذلك علىٰ الإمضاء، فلا يحولنّ بينك وبينه تثبيط أو تشكيك، لأن التردد لا يليق بأصحاب العزائم الصادقة والإرادة القوية، وكذلك التسرع والشروع في العمل قبل استيفاء بحثه، واستكمال ما يلزمه من معدات، وقد كان ذلك شأن النبي ﷺ مع أصحابه

فيما يعرض له من حوادث، وما يقع له من مشاكل، وهذا أحد الصحابة **الحباب بن المنذر** في غزوة بدر وقد نزل المسلمون في مكان يستعدون فيه لمنازلة المشركين، يقول لرسول الله ﷺ: **أهذا منزل أنزلكه الله حتىٰ لا نحيد عنه، أم هو الرأي والمكيدة؟** فيقول له بل هو الرأي والمكيدة، فيقول **الحباب**: انزل بنا منزلًا آخر، وكان أصلح للمسلمين، فنزلوا هذا المكان وكان فيه النصر والظفر.

لنعلم أنَّ الأمر ما دام شأنًا من الشؤون العامة التي تختلف فيه الأنظار، ووجهة النظر، ينبغي أن يستشار فيه، أما ما كان من باب العقائد أو العبادات، أو ما يشبه ذلك، كتحليل الحلال وتحريم الحرام، فالأمر فيه موكول إلىٰ الوحي السماوي، والتلقي عن الله -تعالىٰ-، ولذلك يقول الله -تعالىٰ- ليحُثَّ المسلمين علىٰ أن يرجعوا في أمورهم العامة لأهل الرأي: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾، ثم يعقب ذلك بما يدل علىٰ فضل الله علينا بذلك الإرشاد، فيقول: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣].

وأبلغ من الأمر بالشورىٰ أن الله -تعالىٰ- جعلها من صفات المؤمنين الذين يستحقون ثواب الله وجزاءه الحسن؛ إذ يقول: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشورىٰ: ٣٦-٣٩]، فأخبرنا أن الشورىٰ شأن من شؤون المسلمين، وخُلُق من أخلاقهم، كتركهم للإثم والفواحش، وعفوهم عمَّنْ ظلمهم، واستجابتهم لربهم وخالقهم، وصلاتهم وزكاتهم، وانتصارهم إذا اعتدىٰ الناس عليهم.

وكان ذلك الأسلوب أبلغ في الحث علىٰ الشورىٰ؛ لأنَّه يريك أنَّه الأمر الواقع في أمور المسلمين، وليس من شأنهم أن يتركوه، ولا فرق عندهم بين طاعة أمر الله -تعالىٰ- في الصلاة والزكاة، وبين طاعة أمره في الشورىٰ.

فإذا كانت بلقيس قد عرفت فائدة الشورىٰ بفطرتها وتجاربها، فإن الإسلام قد جعلها مبدأ من مبادئه، وأصلًا من أصوله في سياسة الدولة، وتدبير الأمور

العامة، أمر بها رسوله علىٰ أنَّه أكبر أصحابه عقلًا، وجعلها شأنًا من شؤون المؤمنين، وخُلُقًا من أخلاقهم كصلاتهم وصومهم.

وقد عرف الغربيون قيمة هذه المبادئ فأقاموها في بلادهم، وحرّموها علىٰ مستعمراتهم، وإن سمحوا بها للشعوب؛ فإنَّما يسمحون بها مبتورة مقصوصة الجناح، حتىٰ لا يستطيع القوم أن ينتفعوا بها، ويجنوا ثمرتها.

وقد عمل بها المسلمون في قرونهم الأولىٰ، فانتفعوا بها وسادوا العالم، عمل بها رسول الله ﷺ علىٰ قدر ما تحتمله حال المسلمين في ذلك الحين، وكذلك فعل خلفاؤه الراشدون من بعده، ومن ذلك استشارة أبي بكر فيمن يلي الأمر بعده، وجعل عمر الشورىٰ في نفرٍ عيَّنَهم من الصحابة: عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، والزبير بن العوّام، وطلحة بن عبيد الله، وكان أولئك النفر هم أهل المكانة الذين تخضع الأمة لرأيهم.

وجعل اختيار من يخلفه في الإمارة إلىٰ هؤلاء النفر.

مضىٰ المسلمون علىٰ ذلك المبدأ إلىٰ أن أعرضت بنو أمية عن الشورىٰ في عهد عثمان، واستأثروا بالإشارة عليه بما يرونه، فكان ما كان من الفتن، حتىٰ استقرّ الأمر فيهم بقوة العصبية لا بالشورىٰ.

(٧) ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾، كأنَّهم يُشيرون بألَّا يخضعوا لسليمان؛ لأنَّهم أصحاب قوة، وأصحاب بأس شديد، ثم تأدبوا معها، وقالوا: والأمر إليك، علىٰ عادة المشير إذا كان مرؤوسًا لمن يستشيره، ومن الناس من يفهم أنَّ المعنىٰ أنَّهم قوم حربيون، ليسوا من أهل الرأي والمشورة، بل هم جند مطيع، لم يتعودوا أن يعطوا رأيًا في مثل ذلك الحادث، وهو بعيد؛ فإنَّه فضلًا عن أنه تسفيه لبلقيس في توجيه الاستشارة إليهم، وتعريض بغباوتها، وعدم علمها بمن تحت سلطانها هل هم أهل حرب أم أهل رأي= لا يتفق مع قولها: ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾؛ فإنَّه ظاهر في أنَّهم مجلس الشورىٰ، وأهل الرأي والتفكير؛ ولذلك خاطبتهم بقولها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟﴾، وهم أشراف القوم وخاصَّتهم.

ويدل لصحة الرأي الأول في الآية قولها لهم بعد أن اعتزوا بقوّتهم: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾، فهي تقول لهم: إنَّ سليمان إن قاتلناه ربما دخل بلادنا فأضرّ بالأنفس والأموال، والقرىٰ والضياع.

﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾، أي: إنَّ هذه صفة الملوك الفاتحين، وهو الحاصل الآن في بلاد المسلمين علىٰ يد من استعمرهم من الفرنجة، أذلوهم وقهروهم، وجعلوا أعزة القوم أذلة، وأدنياء النفوس أصحاب الحَول والطول، وفاسدي الأخلاق المهيمنين علىٰ هذه الشعوب.

وكأنَّها تقول لهم: نحن علىٰ ما لنا من قوة، وما عندنا من بأس وشدّة= ليس من مصلحتنا أن ندخل معه في حرب، ويظهر أنَّها اضطربت لكتاب سليمان علىٰ اختصاره، وفزعت من أسلوبه علىٰ سهولته؛ إذ رأت في كتاب سليمان أنه يبدؤه باسم الله -تعالىٰ-، ثم يعقب بقوله: ﴿أَلَّا تَعْلُواْ عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾، ففهمت أنَّ سليمان ملك لا كالملوك، ملك مؤيد من الله الذي يستعينه في أموره، ويصدر اسمه في مكاتباته، فرأت ألا تدخل مع ذلك الملك في حرب، ولا تشتبك معه في قتال، وقالت لقومها: إذا وقفنا من ذلك الملك موقفنا معاديًا فربما فتح بلادنا واستولىٰ علىٰ خيراتنا، وكان معه جيش فاتح، ومن شأن ذلك الجيش أن يفسد الحرث ويخرب القرىٰ، ويجعل العزيز من القوم ذليلًا، والكبير صغيرًا.

لذلك رأت أن تتقدم لقومها برأي يدل علىٰ عقلها الراجح، وتفكيرها المتزن، هو أن ترسل إلىٰ سليمان هدية، من شأنها أن تستهوي النفوس، وتملك القلوب، فإن كان سليمان ملكًا مؤيدًا من الله -تعالىٰ- رد الهدية، وإن كان من ملوك الدنيا ولا همَّ له إلا المال قبلها، وهنالك نتبين قوّته المعنوية، ومقدار ما عنده من عزم وحزم، ثم يكون لنا شأن آخر بعد تبين حاله، ووضوح أمره.

وقد وافقها الملأ علىٰ ذلك الرأي، وبعثوا بالهدية إلىٰ نبي الله سليمان.

(٨) ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾، أي: فلمَّا جاء رسول بلقيس سليمان يحمل الهدية غضب سليمان، وقال

منكرًا لذلك العمل: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾؟ وهل أنا من طلاب المال الذي يفتنون به؟ وذلك هو المنتظر من نبي كنبي الله سليمان، لا يقبل رشوة في سبيل سكوته عن مطالبتها بالإسلام، وتركها بدون أن يدعوها إلىٰ الله -تعالىٰ-.

﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾؛ لأنَّ الله أعطاه مُلكًا ونبوة، أمَّا هم فأعطوا ملكًا لم يكن معه نبوة، أو المعنىٰ: فما آتاني الله من فيض رحمته، وواسع فضله في العلم والحكمة= خير ممَّا آتاكم من المال؛ لأنَّ المال عَرَض زائل، أما ذلك الفضل الوافر، والرحمة الواسعة، ورزق الله المعنوي فهو خير من رزقكم الحسي، وقد فتن الناس بالمال منذ خلقه الله، وظنت بلقيس أن سليمان ممَّن فتن كبقية الناس؛ ولذلك أرسلت إليه بهدية لتنظر ماذا تتركه في نفسه من الأثر، وإلىٰ أي حد تؤثر عليه وعلىٰ دعوته، وهل تلك الهدية تكون مدعاة لسكوته عن الدعوة، وإعراضه عن الفتح الذي أرسل الكتاب تمهيدًا له، أو هو سيقابل المال كما يقابله به أصحاب النفوس العالية، يقابله بالرفض والتعفف، والإباء والعظمة، كل ذلك من أغراض ملكة سبأ.

فلم تجد من سليمان سوىٰ هذه الكلمة الغالية: ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾. ويحق لكل مُصلِح أن يقول هذه الكلمة كلما عرض عليه رشوة، أو تقدم المبطل إليه يعرض من الأعراض الزائلة، فإذا عرض الناس عليه منصبًا ليتلهىٰ به عن دعوته، ويسكت به عن مبادئه، ويطيع به داعي الهوىٰ= فليقل كما قال سليمان: ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾؛ لأنَّه أُعطي خلقًا عظيمًا، وعقيدة صالحة، وأصبح منارًا يهتدي به السائرون، ويستضيء به الضالون، أعطي علمًا قد جهله الناس، وخُلُقًا قويًا متينًا، نعم إذا طولب المصلح أن يسكت عن إصلاحه، وأن يتغافل عن أخلاقه ومبادئه في سبيل وظيفة أومال، وسواء أكانت تلك الوظيفة متعلقة بشخصه، أو بأحد أولاده وأسرته؛ إذا طولب المصلح بشيء من ذلك فلا ينسىٰ ما قاله سليمان لأمراء بلقيس ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾.

وكثيرًا ما يلجأ المستعمرون إلىٰ ذلك النوع من الرشوة، وهذا الأسلوب من تملك قلوب الناس فيتفرسون القوم، ويتعرفون العنصر المتحرك الذي من شأنه أن

يقض مضاجعهم، ويؤلب عليهم فيساومونه علىٰ الوظيفة، ويبتاعون شرفه وكرامته بدراهم معدودة، فمن كان همه المال أجابهم إلىٰ ما طلبوا، ومن كانت دعوته خالصة آثر الفقر علىٰ الغنىٰ، وأبىٰ أن يقبل ذلك، وقدوته الصالحة، وأسوته الحسنة: نبي الله سليمان؛ إذ يقول لملكة سبأ: ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾، وإذا كان نبي الله سليمان أنكر علىٰ القوم أن يقدموا له رشوة حتىٰ يسكت عن الدعوة، ويتنازل عن طلبها إلىٰ الإسلام؛ فإنَّ الله -تعالىٰ- يخبرنا أنَّ كثيرًا من الأحبار والرهبان يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله، وكان ذلك أكلًا بالباطل؛ لأنَّهم يأكلونها باسم أنَّهم رؤساء دين، يعلمون الناس ما يحتاجون، ويرشدونهم إلىٰ دين الله الصحيح، وتعاليمه الحقة، ولكنَّهم يأكلون هذه الأموال، ويكتمون عنهم تعاليم الرسول، ولذلك يقول: ﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ٩].

وقد أخذ الله المواثيق والعهود علىٰ الذين أوتوا الكتاب ليُبيِّنُنَّه للناس ولا يكتمونه، فكان منهم أن نبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنًا قليلًا، هو ذلكم المال الزائل، والحظوة عند الملوك والأمراء.

وما أشبه ما يصنعه أولئك الأحبار والرهبان بما تدعو إليه ملكة سبأ نبي الله سليمان، غير أنَّها كانت لبقة، فساقت من المال ما ساقت باسم الهدية، وما هي إلا رشوة، ولا فرق بينها وبين هدية تُقدَّم للقاضي من رجل له خصومة عنده، وهل يشك أحد في أن الهدية التي تساق علىٰ ذلك الوجه هي رشوة مقنعة، تقدم للقاضي لتوجهه إلىٰ الناحية التي يريدها صاحب الهدية.

إذا كان نبي الله سليمان أنكر علىٰ ملكة سبأ ما صنعت، فإن الله -تعالىٰ- قد ذمّ طائفة من أهل الكتاب بأنَّهم ﴿سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّـٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾، وهو الذي يجلب علىٰ صاحبه عارًا يسحت دينه ومروءته، ويذهب بأخلاقه وكرامته، وقد أطلقوا علىٰ الرشوة سحتًا لأنَّها تجعل صاحبها في هذه المنزلة، وكان ينبغي للربانيين والأحبار أن يكفوا الشعب عن أكل السحت وتناول المحرّم، ولكنهم مع الأسف وقع كثير منهم في ذلك البلاء، وأصيب بفتنة المال، فقبلوا الرشوة، وأكلوا مال الناس بالباطل، وكتموا شيئًا من الدين في سبيل إرضاء الرؤساء

وأصحاب السلطان، ولا يُنتظَر مِنْ ملوّث برذيلة من الرذائل أن ينهىٰ الناس عنها.

ولقد نهىٰ رسول الله ﷺ عن الرشوة بعد نهىٰ القرآن عنها فيما قدمناه، فقال فيما رواه **أبو داود والترمذي**: «**لعن رسول الله ﷺ الراشي والمرتشي**»[(١)]، وقال فيما رواه **الطبراني**: «**الراشي والمرتشي في النار**»[(٢)].

فإذا كان الراشي والمرتشي طريدين من رحمة الله، بعيدين عن رضوانه ورحمته، فكيف يقبلها نبي الله سليمان؟ وكيف يأخذها من ملكة سبأ في سبيل أن يسكت عن دعوتها إلىٰ الدين وحملها علىٰ الدخول فيه؟!

لم يقف سليمان عند ذلك الحد من الإنكار، بل أرانا أنَّ هناك فرقًا بين ملكة سبأ وبين سليمان، هي أنَّها تفرح بمثل هذه الهدية إذا قُدِّمَت لها، وتتأثر بها إذا هي سيقت إليها، ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾، أما هو فلا يفرح بالمال، وإنَّما يفرح برضا الله عنه وتفضُّله عليه، ورعايته بالإحسان تلو الإحسان، وذلك شأن الرسل الذين اختارهم الله لتبليغ دينه، وإعزاز كلمته.

وقد أطال المفسرون في بيان الهدية وما حوته، وندع هذه الروايات جانبًا؛ لأنَّه يصعب إقامة الدليل علىٰ صحتها، ولأنَّ فهم الآية لا يُتوقف عليها، وكل ما تفيده الآية أنها هدية ملوك يراد بها التأثير علىٰ سليمان، وتحويل وِجهته، واختبار مكانته، وهل هو ملك مؤيد من الله -تعالىٰ-، أو ملك كبقية الملوك؟

ومن شأن الهدية التي لها هذه الصفة، ويراد بها ما أريد من هذه الهدية، أو من شأن الرشوة التي تُقدَّم من ملكة إلىٰ ملك= أن تكون عظيمة، أما نوع العظمة فلسنا في حاجة إلىٰ بيانه أو تفصيله، فإذا صحت فيه رواية فبها، وإن لم تصح فالآية ليست في حاجة إليها، ولو كان في بيانها عبرة لفصلها الله لنا.

(٩) ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾.

قد غضب نبي الله سليمان من ذلك العمل، وتأثرت نفسه بما صنعت بلقيس، وكأنَّها تتهمه في دينه، وتخدشه في كرامته وخلقه، وفهمت أنه مستعدّ في الجملة لقبول الرشوة؛ ولذلك أقدمت عليها، وكان من آثار غضبه لدينه وكرامته أن قال

(١) رواه أحمد: (٦٥٣٢)، وأبي داود: (٣٥٨٠). (عمرو)

(٢) المعجم الكبير: (١٣/ ٣٨٤)، والأوسط: (٢/ ٢٩٥). (عمرو)

للرسول: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ﴾، والمراد بلقيس وقومها، ﴿فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾، أي: لا طاقة لهم بمقاومتها، ولا قدرة بهم علىٰ مقاتلتها، ﴿وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ﴾، أي: من سبأ، لا عزَّ لهم، ﴿وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ أسرىٰ مهانون.

﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾ أراد أن يريها آية تدل علىٰ أن ما أعطاه الله من الملك فوق ما أعطاهم، وأن مُلك الدنيا في جانب عجائب الله وبديع قدرته يسير، والعرش كرسي الملك، عرض علىٰ الملأ من جنوده ذلك السؤال، ووجه إليهم ذلك الطلب، وهو: ﴿أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾، وهل أرسل لهم جيشًا كما وعد، وهو يعلم أنه سيظفر بهم ويتغلب عليهم، فيأتونه مسلمين خاضعين؟ أو أنَّ القوم لمَّا عرفوا أن سليمان ملك موحًىٰ إليه، ورفض الرشوة= أذعنوا له وصمموا علىٰ أن يجيئوه، وقد علم ذلك بوحي من الله -تعالىٰ- أو من طريق غير الوحي؟ الآية تحتمل الأمرين.

﴿قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ﴾.

العفريت: الخبيث المتمرد؛ أي: إنَّ ماردًا من مردة الجن قويًّا قال لسليمان: أنا آتيك به قبل أن تقوم من مجلسك الذي أنت فيه، والمراد آتيك به بسرعة، وإني علىٰ حمله لقوي أمين علىٰ ما فيه من الجواهر فلا أخفي منه شيئًا، والجن عالَم خفي قد يستطيع أن يزاول من الأعمال فوق ما نزاول نحن، وستكشف الأيام كيف أن العفريت من الجن يستطيع نقل عرش بلقيس من اليمن إلىٰ ملك سليمان بفارس، بل قال بعضهم إن علم استحضار الأرواح قرَّب لنا هذه المعجزة، وأرانا أن من الأرواح ما يستطيع نقل الأمتعة من مكان إلىٰ مكان.

﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ﴾. اختلف المفسرون في المراد من ﴿ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ قيل: هو **آصف بن برخيا** كاتب سليمان، وكان صدِّيقًا عالمًا، وقيل: **جبريل**، وقيل: ملَك آخر أيد الله به سليمان، وقيل غير ذلك، والظاهر من كلمة ﴿ٱلَّذِي﴾ أنَّه كان معروفًا عندهم، ومن مقابلته بعفريت من الجن أنه لم يكن متمردًا عاتيًا، بل كان من أهل العلم بالكتاب.

وقد أجمل الله ﴿ٱلۡكِتَٰبُ﴾ ولم يبيِّن المراد منه، أهو الكتاب المنزل: وهو التوراة؟ أو جنس الكتاب الشامل للتوراة وغيرها من الكتب؟ أو المراد بالكتاب

الكتابة؟ الآية تحتمل كل ذلك، فإذا كان المراد به جبريل أو ملك آخر= فلا غرابة في أن يكون عنده من القوة علىٰ نقل عرش بلقيس ما لم يكن عند غيره، وإذا كان رجلًا من الإنس فتكون مقدرته علىٰ نقل ذلك العرش كرامة له ومعجزة لسليمان، أظهرها الله -تعالىٰ- علىٰ يد واحد من تابعيه، وإن كان ذلك علىٰ غير المعروف في المعجزات، وهي أن تكون علىٰ يد الرسول نفسه، ومهما يكن من شيء فإنا نؤمن بما جاء به من كتاب الله، وندع تفسير هذه الخوارق للأيام تكشفها، ولا نُحمِّلها من التأويل فوق طاقتها.

والظاهر من عرض ﴿ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ علىٰ سليمان أن يأتيه بعرش بلقيس قبل أن يرتد إليه طرفه= أنَّه أقوىٰ، وأعلم من عفريت الجن بذلك العمل؛ ولذلك استطاع أن يَعِدَه بالإتيان به في أقل زمن، وأنَّ سليمان رضي به ناقلًا للعرش.

﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾، أي: فلمَّا رأىٰ سليمان العرش حاضرًا بين يديه قال: هذا من فضل ربي، ومن حوله وقوته، لا من حولي وقوتي، ليختبرني بهذه النعم التي يقدمها إلي، أأشكره عليها أم أكفره، ومن شكر الله أو المنعم؛ فإنَّما يشكر لنفسه؛ لأنَّ ثواب الشكر راجع إليه، ومن كفر النعم؛ فإنَّ ربي غني عن شكره، كريم بالإنعام عليه؛ ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ۝٧ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧، ٨].

﴿قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ نكِّروا لها عرشها بتغيير هيئته وشكله، لنختبر بذلك العمل ذكاءها وعقلها، ونمتحن استعداها، وهل تَفْطِن لأن ذلك الذي نكَّرناه عرشها، تقدَّمها وقد تركته مغلقة عليه الأبواب، موكلة عليه الحراس، ومتىٰ عرفت أنه عرشها= كان ذلك داعية لإيمانها؛ لأن المعجزة في نقله مقرونة بسبقه لها إلىٰ سليمان، فإذا فطنت لذلك عرفت أن سليمان استطاع بجنوده ما لم يستطعه ملك من ملوك الأرض، فيكون ملكًا ونبيًّا.

﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ﴾، أي: فلمَّا وصلت ملكة سبأ عرض عليها ذلك العرش الذي تركته، ووُجِّه إليها ذلك السؤال، ولم يقل: «أهذا عرشك؟»؛ لئلَّا يكون تلقينًا للجواب، وقد كانت لبقة فأجابت إجابة مرنة، وقالت: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَۚ﴾؛ لأنَّ هناك احتمال أنَّه هو، وأنه ليس هو، ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ هو من كلام بلقيس[1] تتحدث عن نفسها بنون العظمة التي تعوَّدها الملوك.

والمراد أنها أوتيت العلم بكمال قدرة الله -تعالىٰ-، وصحة نبوة سليمان من قبل هذه المعجزة، وكنا خاضعين لأمر الله -تعالىٰ- ولأمر سليمان، ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾، أي: منعها سليمان، أو صدها الله -تعالىٰ- عما كانت تعبد من دون الله، وحال بينها وبينه ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾، أي: نشأت بين قوم يعبدون الشمس.

﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَۖ﴾ القصر، ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَاۚ﴾، أي ظنت أن ذلك القصر لجة من الماء، وكشفت عن ساقيها لئلا تبتل، ﴿قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَۗ﴾، أي: ما تظنيه ماءً قصرٌ محلًّىٰ من زجاج، وليس بماء، فسترت ساقيها، وعجبت من ذلك، وعرفت أن مُلك سليمان فوق ملكها، وعظمته ليست كعظمتها.

﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ظلمت نفسها بالكفر، وظلمتها بعرض الرشوة علىٰ نبي كهذا، وخضعت مع سليمان لله رب العالمين.

---

(١) واختار الطبري وأهل التحقيق أنه قول سليمان ﷺ، انظر: تفسير الطبري: (١٨/٧٨)، ابن كثير: (٦/١٩٤).

داود وسليمان عليهما السلام

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى(١) مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ(٢) وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ(٣) ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ(٤) وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ(٥) كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ(٦) رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ(٧) ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٠-١٤].

* شرح وعبرة:

(١) ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾. يرينا الله بهذه الآيات أنه أعطىٰ داود من لدنه فضلًا، ثم شرح ذلك الفضل بقوله: ﴿يَٰجِبَالُ

---

(١) رجّعي معه التسبيح.

(٢) أي: دروعًا واسعات ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾، أي: اجعل نسج الدروع بقدر ونظام.

(٣) النحاس المذاب.

(٤) قصور حصينة.

(٥) جمع (جفنة)، وهي القصعة، والجوابي: جمع جابية، وهي الحوض الكبير الذي يجبىٰ ويجمع فيه الماء.

(٦) جمع قدر، وهو ما يطبخ فيه اللحم، و﴿رَّاسِيَٰتٍ﴾ ثابتات في أماكنها لعِظَمها.

(٧) عصاه، و﴿خَرَّ﴾: وقع.

﴿أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَۖ﴾، أي: رجِّعي معه التسبيح، كما قال في سورة الأنبياء: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَۚ﴾. ثم بيَّن فضلًا آخر عليه بقوله: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِۖ﴾، وقد تقدَّم الكلام على إلانة الحديد لنبيه داود، وأنَّ ذلك معجزة، أو إلانة له من طريق الصنعة، كما قال: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْۖ﴾، كما في سورة الأنبياء، وأنَّ الآية تحتمل الأمرين، وقوله: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾ تفسير لقوله: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾، والمراد أنَّه يعمل دروعًا تستر جسم الرجل في الحرب، أو تستر المكان الذي هو معرَّض للإصابة، فلا تكون ناقصة، ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ أحكم نسج الدروع واجعله بقدر، كما قال: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، وقال: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨].

﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًاۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ إرشاد إلىٰ إصلاح دينهم بعد أن أرشدهم إلىٰ إصلاح دنياهم، يرينا به أنَّ الإنسان في حاجة إلىٰ الأمرين جميعًا، فيستعد لدنياه حتىٰ لا يكون عرضة للأحداث والطوارئ، ويصلح من دينه حتىٰ يقوىٰ بذلك إيمانه، وتتهذب نفسه، ويصبح خيرًا لنفسه ولأمته، وللإنسانية جميعها.

فالله -تعالىٰ- يرينا بذلك الإرشاد الذي قدمه لداود ومن معه أنه في حاجة إلىٰ الأمرين: أمر الدنيا وأمر الآخرة، وأن من عمل للدنيا فاستعد لطوارئها، وتوقىٰ شرها، واجتهد في خيراتها، ثم قصر في أمر الآخرة= أعطاه الله من الدنيا ما عمل له، ووصله إلىٰ ما يريد، ثم جعل له جهنم جزاءً في الآخرة، ﴿و﴾ كذلك ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾؛ فإنَّ الله يعطيه ثواب العاملين ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ١٨-٢٠]، وقال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورىٰ: ٢٠].

هذه سنة الله مع خلقه، يعطي الدنيا من عمل لها أيًّا كان دينه ونحلته،

ويعطىٰ الآخرة كذلك من يسعىٰ لها، وطلب من المؤمن أن يعمل لدنياه وأخراه، لأن الدنيا مزرعة للآخرة؛ ولذلك يقول الله وهو يبين وصية قوم قارون له: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧].

وأمرنا بالعمل لطلب الرزق، وأن نمشي في مناكب الأرض، وأن ننتشر في الأرض ونبتغي من فضل الله، كما أمرنا أن نعدّ لأعدائنا كل ما استطعناه من قوة معنوية أو مادية، وأن نأخذ حذرنا، ولا نتخذ بطانة من دوننا؛ كل ذلك لنعيش في هذه الحياة عيشة الأعزاء، لا عيشة الذل والهوان.

فإذا كان الله -تعالىٰ- قد أمر نبيه داود أن يعمل دروع الحرب، وأن يكون حكيمًا في صنع هذه الدروع، ثم أمره بعد ذلك وأمر قومه أن يعملوا صالحًا، فذلك لأنَّه يريد منهم أن يكونوا صالحين لدينهم ودنياهم، سعداء في حياتهم الأولىٰ والثانية، حامين لحقيقتهم ولحقهم، وذلك هو شأن المؤمن، وكذلك دين عامّة الرسل، كلف الناس به ليعيشوا به عيشة السعادة، ويجمعوا به بين خيري الدنيا والآخرة، فلم يكن بدعًا أن يكون دين خاتم الرسل دينًا يحث الناس علىٰ العمل للدنيا والعمل للآخرة، وعلىٰ كل مسلم أن يحرص علىٰ الأمرين: أمر دينه وأمر دنياه، وأن الذي يفرط في أحدهما هو رجل أحمق ليس من العقل في شيء.

وكذلك الأمة التي تعنىٰ بأمر دنياها وتظن أنها ليست في حاجة إلىٰ أمر الدين، هي أمة جاهلة؛ فإنَّ أقل ما في الدين خُلُق قويم، لا غنىٰ للأمم عن الخلق، ومن ناحية أخرىٰ؛ فإنَّ الأمم التي لم يكن لها وازع نفسي يعصمها من المنكرات والفواحش= لا يمكن أن يعصمها قانون، أو تتأدب من طريق الحكومات، وهذه سلسلة الجرائم تزداد كل يوم في أمم العالم المتمدينين، ويتفاقم شرها يومًا بعد يوم، والقوانين تقف أمام هذه الجرائم مكتوفة الأيدي، وبرهنت الأيام علىٰ فشل هذه القوانين، وضعفها عن القيام بمهمة التهذيب العام.

وإنَّ الفرق بين سلطة القانون وسلطة الدين تريك أنه لا غنىٰ للناس عن الدين، ذلك أن الدين حارس يلزم صاحبه، وشعور بوازع نفسي يهيمن علىٰ الرجل الديِّن، ولا يستطيع صاحب ذلك الخلق أن يتخلص منه إلا بإرضائه،

والوقوف عندما يريد، فإذا همَّت نفسه بفاحشة من الفواحش سمع صوتًا خفيًّا من ضميره يناديه: لا تفعل، ويذكِّره بما يعقب ذلك الفعل من ضياع خلقه وذهاب كرامته، وإغضابه لربه وخالقه، وأن ذلك الوازع لا يفارقه في غيبة الناس، ولا في حضورهم، ولا في سرّ أو علانية.

أمَّا الذي يعيش علىٰ حساب القانون، فلا يحس من نفسه ذلك الوازع؛ إلَّا إذا شعر أن وقوعه في المنكر قد يطلع عليه الناس فسيساق إلىٰ المحاكمة، وهنالك يفضح أمره ويهتك ستره، وإذا استطاع أن يفعل ذلك المنكر حيث يفلت من يد القانون؛ لأنه لم يكن عليه من الرقباء من يشهد عليه= فإنه لن يَدَعه، بل يقدم عليه، دع ما يبيحه القانون الوضعي من جرائم ومنكرات؛ كجريمة الزنا التي تحميها الحكومات، وتعطي رُخَصًا للبغايا للاحتراف بتلك الفاحشة، ولجريمة شرب الخمر الذي لا يعاقب عليه قانون، ولا يساق الشارب فيه إلىٰ دار الحكومة إلا إذا عمل عربدة في الطريق تقلق راحة الناس.

فالقانون عاجز عن تأديب الناس وتهذيبهم، علىٰ فرض أنه يضع عقوبة لكل الجرائم، فكيف إذا كان القانون أعرج مبتورًا؟ لذلك كان من مصلحة الناس أن يكون لهم دين يحرصون عليه، ويبالغون في العناية به، وأن يكون لهم دنيا تتناسب مع زمنهم الذي يعيشون فيه، ومع تطورات الحياة «ومن لم يتذأب أكلته الذئاب»، «ومن لا يظلم الناس يُظْلَم».

﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فأحاسبكم عليه وأجزيكم به، وهو صالح لأن يكون وعدًا بالثواب وتوعُدًا بالعقاب.

(٢) ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ﴾، أي: وسخرنا لسليمان الريح جريها بالغداة مسيرة شهر، وكذلك جريها بالعشي، وذلك فضل من الله -تعالىٰ- علىٰ نبيه سليمان، سخر له الريح تجري بأمره، وتقطع في الغدوة ما يقطعه الماشي أو الراكب للبحر مثلًا في شهر كامل، وكان ذلك معجزةً لنبيه سليمان، وأصبح الآن علمًا، فسخر الريح لأوروبا، واستطاعت أن تستخدمه في الأسفار بالطيارات التجارية والحربية، وإن كانت في السرعة لم تصل إلىٰ الحد الذي وصل إليه سليمان ﷺ، كما سخر لها الهواء في الوقت الحاضر، فانتفعت به بواسطة

التموّجات الهوائية في نقل الأخبار والأصوات والأشكال من طريق العلم، وأصبحنا ونحن بالشرق نسمع كلّ ما يدور في الغرب، من خطب ومحاضرات وغيرها، علىٰ بعد الشقة وطول المسافة، وكذلك هم يسمعون خطبنا ومحاضراتنا وما يدور في بلادنا، وهو تسخير من الله طريقه العلم والتفكير. ولعل الله يقرب لنا أمر هذه المعجزات بهذه الخوارق العلمية، ويرينا أنها لم تكن من قسم المحال كما فهم بعض الناس، وإنما هي أمر يمكن. والدليل علىٰ إمكانها وقوع ما يقاربها من طريق العلم، ولو كانت من قسم المحال ما وقعت، وقد يؤيد ذلك قوله في سورة النمل: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ [النمل: ٩٣]، أي يريكم لها من طريق العلم فتعرفونها بالتعلم، كما أراها للرسل من طريق المعجزة؛ لأنَّها خارقة لعادة القوم، وجاءت علىٰ غير المألوف لهم.

﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾، أي: من فضل الله عليه، ودلائل صدقه أن أسال له النحاس: أي جعله سائلًا من معدنه ينبع منه كما يسيل الماء من ينبوعه، ولذلك سماه عينا، وذلك ليسهل عليه أن يحوّله إلىٰ ما يريد، وينتفع به في وجوه شتىٰ.

﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾، أي: ومن فضل الله عليه أن سخر له من الجن من يعمل بين يديه، وقوله: ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يشير إلىٰ أن الله -تعالىٰ- ألقىٰ في قلوب الجنّ الخوف من سليمان، وبذلك سخرها له وجعلها مطيعة لأمره، ولولا خوفها من سليمان علىٰ قوّتها وتمرّدها ما صنعت له شيئًا. فهي تعمل له ما تريد بالسلطان الذي جعله الله له عليها، وقوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾، أي: لتسخيره لها، ولولا أنَّ الله سخرها له ما استطاع أن ينتفع بها: كما قال في معجزة عيسىٰ ﷺ: ﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩].

﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ تهديد من الله -تعالىٰ- للجن، يرينا به أنَّه فوق تسخيرها تسخيرًا كونيًّا لسليمان، وتذليلها لأن تكون تحت سلطته وتصرفه، نهاها عن عصيان أمره، وتوعدها أن يذيقها عذاب جهنم إذا هي

زاغت عن أمر الله لها بطاعة سليمان، وهو فضل كبير علىٰ سليمان أن يجعل عصيان أمره في شؤون الدنيا مدعاة لعذاب العاصي بالسعير.

﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ﴾ بيان لعمل الجن المسخرة لسليمان، فهي تعمل له محاريب، وهي القصور الحصينة، بما فيها من القوة علىٰ حمل الأثقال ونقل لوازم البناء، وكذلك يعملون له تماثيل وهي مظهر من مظاهر العظمة وهو دليل علىٰ مشروعية التماثيل، وأنَّ الإسلام إذا حرمها فإنما يحرمها إذا كانت ذريعة للشرك والوثنية كالتماثيل التي تعمل للصالحين، أما ما يعمل للعظماء الذين ليس من شأنهم أن يعبدوا بهذه التماثيل فليس هناك وجه لتحريمها، وما ورد من الأحاديث في النهي عن اتخاذ صورة أو تمثال فمحمول علىٰ ذلك، ولو كانت التماثيل محرمة لذاتها ما أباحها الله لسليمان، لأن الرسل جميعهم متفقون علىٰ محاربة الشرك وذرائع الشرك؛ لأنَّ التوحيد من الأصول التي لا تختلف فيها الشرائع السماوية ولكن الجن كانت تعملها لسليمان، وأقرّها علىٰ ذلك العمل، وادعاء أن ذلك النوع من التماثيل كان في غير الحيوان كالأشجار مثلًا خلاف الظاهر، وكذلك القول بأن ذلك كان شرعًا لسليمان، وأنه ممَّا تختلف فيه الشرائع.

والظاهر أنَّها لم تكن تماثيل لعبادة أصحابها، وإنَّما هي تماثيل لأغراض أخر ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ﴾، أي: الحياض الكبيرة التي يجمع فيها الماء ولعل نبي الله كان يحتاج ذلك النوع ليخزن فيه الماء ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ﴾، أي: قدور يطبخ فيها، ثابتة لاتنقل من مكان إلىٰ مكان لعظمها وكبر حجمها، وذلك شأن الممالك الكبيرة، والدول الواسعة، يحتاج رجالها من آلات الطبخ قدورًا واسعة ثابتة لا تنقل لعظمتها.

﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾، أي: اعملوا يا آل داود ما أمرتكم به لتشكروني علىٰ هذه النعم، وأمر آل داود، والمراد داود وأهل بيته، وفيهم سليمان، أو المراد بآل داود كل من ينتمي إليه وإن لم يكن من أقاربه.

يرينا الله -تعالىٰ- أنه ينبغي للإنسان أن يقابل إحسان الله إليه بالشكر لا بالكفر، وخاطب آل داود لأن نعمته علىٰ سليمان نعمة عليهم ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ

﴿ٱلشَّكُورُ﴾، أي: قليل من عباد الله من خُلُقه الشكر، وعادته الاعتراف بجميل الله -تعالىٰ- عليه وإحسانه إليه، فلا ينسىٰ نعمه، ولا يغفل عن فضله، ومن شأن الذي يذكر ذلك دائمًا ألا يعصي ربه، ولذلك يعرفون الشكر بأنه: صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه فيما خلق له.

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾. أي: فلما قضىٰ الله الموت علىٰ سليمان ما دلّ الجن علىٰ موته إلا دابة الأرض تأكل عصاه، وقد كانت الجن في أمكنة بعيدة عن سليمان، لا يفترون عن عملهم خشية أن يعاقبهم، وبعد مدة لم يحددها القرآن علم أحد الجن بموته؛ إذ رأىٰ عصاه ملقاة علىٰ الأرض فرفعها فإذا الأرضة قد أكلتها، فاستدل مِنْ أكل الأرضة لها أن سليمان قد تركها مدة طويلة، وما كان ليتركها إلا لحدث من موت أو مرض، وقد كانت العصا من شارات الرئيس والرياسة، وبخاصة من كان ملكًا كسليمان، لا يتركها ما دام صحيحًا معافىٰ.

وعلىٰ ذلك الوجه فقوله: ﴿خَرَّ﴾ المراد به مات، وفي «**القاموس**»، وفي «**لسان العرب**» أن خرّ تأتي بمعنىٰ مات[1]، أو الضمير في قوله: ﴿مَا دَلَّهُمْ﴾ لأهل سليمان، والخرور: السقوط، وقد كان سليمان عليه السلام وجد في محرابه، وقد أدركه الموت وهو جالس متكئ علىٰ عصاه، فجاءت الأرضة وأكلت بعضه فانهار الجزء الذي أكلته، فاختلّ التوازن فخرّ، فدلّ ذلك أهله علىٰ موته.

يقول الشيخ النجار بعد ذكر الوجهين السابقين: ومن رأىٰ فعل الأرضة في دنقلة العجوز لا يستبعد ذلك، فقد أخبرني الشيخ محمد بك الخضري أنه أهمل وضع أرجل مكتبه في إناء فيه ماء وهو بدنقلة، فلم تمضِ أيام حتىٰ وجد الأرضة قد أثرت في جزء مهمّ من تلك الأرجل. (ا. هـ).

﴿أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ الغيب هنا: ما غاب عنهم من موت سليمان، وهو يدلنا علىٰ أن الجن قد أخفىٰ الله عنهم موت سليمان، وأنهم أسفوا علىٰ بقائهم في عملهم مدة مات فيها سيدهم ومسخرهم.

---

(١) انظر: غريب الحديث: (٤/ ٩٣)، تهذيب اللغة: (٦/ ٢٩٩)، لسان العرب: (٤/ ٢٣٥). (عمرو)

دابة الأرض

(٣) قال صاحب كتاب «**الجواهر في تفسير القرآن**» ما ملخصه: الأَرَضة دودة بيضاء تبني علىٰ نفسها بيتًا مستطيلًا، ولها شفران تنقر بهما الخشب والآجر والحجارة، وجمعها أرض -بفتح الراء- ويقال لها النمل الأعمىٰ، ويقال إنه يوجد ألف وخمسمائة نوع من الأرضة، والمشهور منها لا يتجاوز الأربعين، وكل نوع يمتاز عن سواه بصفات خاصة؛ فمنه البناء الذي يقيم هضبًا فوق الأرض، ومنه ما يفتك بالأشجار الحية وينقبها، وجنده كالكواسر أو الضواري، علىٰ جانب عظيم من القساوة، ومنه ما تشبه شفتاه قرون التيس فتتمدد وتقذف به إلىٰ مسافة عشرين سنتيمترًا.

وبعض هذه الحشرات يعيش في جذوع الأشجار التي يحتفرها، ويمد منها مسالك وأسرابًا تذهب كل مذهب، وتخترقها من كل ناحية حتىٰ الجذور، وبعضها يبني عشه في الأغصان ويوطدها حتىٰ يقوىٰ علىٰ مقاومة الأعصار، وحتىٰ يمتنع علىٰ الإنسان الاستيلاء عليه فيضطر إلىٰ نشره بالمنشار.

وحيث أقامت الأرضة كانت عاملًا للهدم والتخريب، وما أقلت الأرض في البلاد الحارة حشرة مثلها في حرب دائمة مع الإنسان، فتأكل بيوته من أساسها، وتفني ما عنده من فراش وكساء وورق ومؤونة وخشب ونعال ونبات، ولا ينجو شيء من موجوداته من هذا التخريب الفظيع الذي يتم في الخفاء فنعدّه من خوارق الوجود.

وإنَّك لتجد أشجارًا كبيرة سليمة في الظاهر، فلا تكاد تمد يدك إليها حتىٰ تنهار؛ لأنَّها متآكلة من الباطن، تلك أعمال الأرضة في التخريب المنزلي، وقد يتسع نطاقها فيشمل مدينة بأسرها.

ففي (عام ١٨٧٩ م) نشب الأرضة بسفينة حربية إسبانية في ميناء «**فرول**» فلم يبق ولم يذر، وزعم الجنرال «**لكرك**» أن جزر **الأنتيبل** الفرنسوية لم تقوَ في (سنة ١٨٠٩ م) علىٰ ردّ الإنجليز؛ لأنَّ الحشرة الهدامة كانت قد خربت المنازل، وتركت المدافع والذخيرة في حالة لا تصلح معها للعمل.

ثم قال: إن النملة عدوّ الأرضة الألدّ، ولولاها لكانت الأرضة قد اجتاحت القسم الجنوبي من الكرة الأرضية.

ومن الأرضة ما خلق لنفسه جندًا خاصًا يمتاز برأس كبير يستعمله لسدّ الفتحة، كأنه صمامة من الفلين، وترود النملة قرية الأرضة دائرة حولها ليل نهار، باحثة عن صدع أو شق تنسل منه إليها، ولهذا كانت الحيطة لها بالغة أقصىٰ المستطاع، وكانت مراقبة الشقوق شديدة، ولا سيما الشقوق المصنوعة لتجديد الهواء، فإن منازل الأرضة تحتاج إلىٰ الهواء المتجدد، وقد أقيم لذلك هندسة ونظام ليس من ورائهما لعلماء الصحة اليوم مأخذ لعائب، أو معلق لطاعن.

وإذا أتيح للعدوّ أن يصيب أحد هذه الشقوق فإن أول ما يرىٰ هو رأس أحد الجنود المدافعين وقد أخذ يضرب الأرض بمشفريه إنذارًا وتنبيهًا، فيسرع الحرس، ثم الفرقة بأسرها، وتسدّ بجماجمها الفتحة، وهي تحرك في الهواء أحناكها الهائلة كأنها أوغال من الشوك، أو تهجم علىٰ غير هدىٰ هجومَ الكلاب الضارية، حتىٰ تصيب العدو فتعض عليه عضًا شديدًا، ولا تتخلىٰ عنه إلا حاملة قطعة منه، وجنود الأرضة تبقىٰ بعد تقهقر العدوّ حينًا أمام الثغرة، ثم تعود إلىٰ قشلاقاتها، فترجع العمال المعدّة للخدمة شارعة في ترميم ما تخرب بسرعة هائلة.

وقد روىٰ «**سافاج**» أنه دمر منزلًا للأرضة في المساء، ولما عاد عند الصباح وجده قد أصلحه وأتم ترميمه، وعلا بطبقة جديدة من البطين، ولا عجب فإن السرعة في العمل مسألة حياة أو موت، وأقل إهمال في ذلك هو دعوة لأعداء كثار، وخاتمة ذلك الاستعمار.

تم ختم صاحب كتاب «**الجواهر**» بحثه الطويل بقوله: أيها المسلمون هذا اخترته من كتاب «**مملكة الظلام**»، أو «**حياةالأرضة**» الذي عرَّبه الدكتور: **نقولا فياض**.

نعم أنا أفضت في الكلام علىٰ الأرضة ومعيشتها وسياستها ونظامها، وإنما حركني لذلك قوله -تعالىٰ-: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ يا سبحان الله ما لنا وللأرضة، وما لنا ولمنسأة سليمان، وما لنا ولأكل الأرض لها، وما لنا ولكون سليمان لم يعلم اليهود موته إلا بعمل الأرضة.

عجيب والله هذا القرآن، عجيب والله أن تكون هذه الكلمات باعثة لي علىٰ تعقب أحوال الأرضة، فماذا عرفنا منها؟ عرفنا أن لله جنودًا وجنودًا، وتلك الجنود لها ملوك، ولها سياسات ونظم اجتماعية عجيبة، وعرفنا أن في أمم أوروبا من يدرسون هذه الحشرات ليستخرجوا منها علمًا، عسىٰ أن يرتقي به الإنسان في مستقبل الزمان.

أيها المسلمون: إن الناس تمنوا الطيران فطاروا، وها هم أولاء يتمنون عقولًا أرقىٰ من هذه العقول، ويسعون لكسبها فسيروا مع الناس بل أنتم أولىٰ، فإن إشارات القرآن تبعث المسلم علىٰ العمل.

داود وسليمان عليهما السلام

﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ(١) إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ
مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً(٢) كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ
الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ(٣) الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ۞ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا(٤) الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ
دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا
تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ(٥) الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ
فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي(٦) فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا
مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا
فَتَنَّاهُ(٧) فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ(٨) وَحُسْنَ
مَآبٍ ﴿٢٥﴾ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ
فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ
﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ
﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ

---

(١) القوة في الدين.
(٢) مجموعة، ﴿أَوَّابٌ﴾ مسبح، كانت ترجّع التسبيح معه.
(٣) قوّيناه.
(٤) الخطاب: الفاصل في القضاء، وتدابير الملك والمشورة.
(٥) تصعدوا سوره، والمحراب: غرفة داود.
(٦) وسطه ومحجته؛ ضربه مثلًا لعين الحق ومحضه.
(٧) غلبني في المحاجة والمخاطبة.
(٨) ابتليناه وامتحناه.

﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ(١) ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ(٢) مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا(٣) ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً(٤) حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ(٥) فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [سورة ص: ١٧-٤٠].

* شرح وعبرة:

(١) بعد أن أقسم الله لنبيه محمد ﷺ بالقرآن أنَّ الكفار ما كفروا به عن خلل في دينه، بل لأنَّهم في استكبار ومشاقة لله -تعالىٰ-، وبعد أن هدَّدهم بما أهلك من قبلهم من القرون فاستغاثوا حين حلّ الهلاك بهم، ولم يكن الوقت وقت فرار من عذاب الله -تعالىٰ-، وبعد أن أخبره أنَّهم عجبوا أن يجيئهم رسول من بني جلدتهم، وقالوا في شأنه: هو ساحر كذاب، وانطلق أشرافهم وسادتهم يمرون بالقوم، أن امشوا علىٰ ما أنتم عليه، واصبروا علىٰ آلهتكم، وأنهم ما سمعوا بما قاله محمد في الملة التي وَجدوا عليها الآباء والأجداد، وأن ذلك أمر مختلق.

وبعد أن ذكرهم الله بقوم نوح وعاد وثمود، وفرعون صاحب القوّة والبطش، وأنهم جميعهم لمَّا كذبوا الرسل حَقَّ عليهم عقاب الله.

بعد ذلك كله يقول الله -تعالىٰ- لنبيه محمد ﷺ: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

---

(١) خطوة، ﴿مَـَٔابٍ﴾: مرجع.

(٢) الخيول التي تقف علىٰ ثلاثة قوائم. وقد أقامت الرجل الأخرىٰ علىٰ طرف حافر، ولا يكاد يكون ذلك إلّا في العراب الخلص.

(٣) جعل.

(٤) بسبب مرض ألم به فصار جسدًا لا قوة فيه، وأناب: رجع إلىٰ قوته.

(٥) لينة طيبة لا تزعزع، وقيل: طبعة له. مسلسلين في القيود حيث يقرّن بعضهم ببعض.

يأمره الله -تعالىٰ- أن يصبر علىٰ أذاهم، ويحتمل غِلظتهم، وأن يذكر عبد الله داود ليكون له فيه الأسوة الحسنة، وقد وصفه بقوله: ﴿ذَا ٱلْأَيْدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾، أي: صاحب القوة في الدين، والقوي في دينه لا يهن لشدة، ولا يضعف لاضطهاد، بل يقابلهما بالحزم والعزم، ويتلقاهما بقلب لا يعرف الضعف سبيلًا إليه، وفؤاد في غاية الثبات، لأنه يعلم أن الشدة التي حلت به مآلها إلىٰ رخاء، والإيذاء الذي أوقعه به أعداء الحق والدين هو إعلاء لشأنه، ورفع لمنزلته وتضحية في سبيل الله وسبيل الإصلاح العام، وأي إصلاح أعظم من نشر دين يهدي الناس إلىٰ سعادتهم، ويثبت عقائد ومبادئ ترشد القوم إلىٰ صلاح دينهم ودنياهم، وإذا جهل الناس قيمة هذا الدين اليوم فسيعرفونها بعد، ويتجلىٰ لهم ما فيها من عناصر للحياة الحقة، وأصول لا يسعد العالم بدونها، ومن يحمل دعوةً هذا أساسها، وتلك غايتها، فجدير به أن يصبر علىٰ إيذاء القوم وجهلهم، وأن لا يقابل السَّفَه بسفه مثله، وإنَّما يقابله بالأناة والحكمة، والتأسي برسل الله في ذلك الباب، والتخلق بأخلاقهم في هذا السبيل.

والله -تعالىٰ- لم يقص علىٰ رسوله قصص الأنبياء إلا ليقوي به يقينه، ويثبت به فؤاده، لم يقصه عليه ليكون أسلوبًا من أساليب اللهو، أو ضربًا من ضروب التفكه، ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

يذكر الله -تعالىٰ- نبيه محمدًا ﷺ بعبده داود صاحب القوة في دين الله، ليكون كذلك قويًا في دينه كما كان نبي الله داود، مطمئنًا لنصر الله له كما نصر عبده داود وأيده، ثم وصف داود بقوله: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾، أي: رجاع إلىٰ الله -تعالىٰ-، رجاع إليه في شدته ورخائه، رجاع إليه في سره وعلانيته، رجاع إليه كلما حزبه أمر، أو جدَّ به الجد، يستغفره ذنبه، ويستعين به علىٰ شدائده، ويستنصره علىٰ خصومه، ويطلب منه ما لا يقدر عليه غيره، ولا يستطيعه سواه.

ثم عقب ذلك بقوله: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾، وذلك من آثار إكثاره من العبادة، وشغفه بتسبيح الله -تعالىٰ- وتقديسه، وولوعه بتنزيه الله عن كل ما لا يليق، فكانت الجبال تسبح الله معه علىٰ وجه لا نعرفه نحن،

وقد لا يعلمه داود، وإنما يعلمه الله -تعالىٰ-، ولا عجب فإنَّ كل شيء يسبح الله -تعالىٰ- ولا نفقه تسبيحه، وعدم فقهنا لذلك التسبيح لم يخرجها عن كونها مسبحة لله معنا.

والظاهر من أنَّ الطير كذلك كانت تسبح الله مع داود وأنه عَلِم منطقها، أنه يفهم كيف تسبح، وكذلك الجبال.

وعلىٰ الجملة فالله -تعالىٰ- يصف داود بأنه صاحب قوة في دينه، ويعلِّل ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ وأنه من أجل ذلك أعطاه ما أعطاه، ووهبه ما وهبه، وسخر له ما سخر، فسخر له الجبال والطير كل يسبح الله لأجل تسبيحه، وقوَّىٰ ملكه، وأعطاه العلم النافع، وأقدره علىٰ فصل الخصومات والقضاء بين الناس، وغفر له ما ظنه ذنبًا حين تحاكمت إليه الخصوم، ووهبه سليمان، ونعمت الهبة.

كل هذا لأنَّ داود قوي في دينه، صلب في عقيدته، شديد في ثقته بربه وخالقه، كثير الرجوع إلىٰ مولاه في حاجاته وعبادته، فلتكن يا محمد كما كان، وليكن الناس كداود في قوة إيمانهم، ورجوعهم إلىٰ ربهم، ليكن الناس أقوياء القلوب، واثقين بنصر الله لهم، وتأييده حقهم علىٰ باطل سواهم، وأنهم إذا كانوا علىٰ هذه العقيدة ألان لهم الحديد، وسخر لهم الجبال علىٰ قوتها وصلابتها، وسخر لهم الريح علىٰ عصفها وشدتها.

والمراد أنَّ الله -تعالىٰ- يذلل لهم كل صعب؛ لأنَّ قوة الإرادة تعمل ما لا تعمله الحراب والمدافع وقوة الإرادة تصهر الحديد، وتذيب النحاس، وتنسف الجبال، وتضطر العدو الجبار، والخصم الألدَّ أن يلين ويخضع، ويذلّ ويخشع، إجلالًا لقوة العزم، وشدة الحزم، ونزولًا علىٰ الشدة التي لا تجد هوادة، والتصميم الذي لا يعرف انحلالًا ولا ترددًا.

(٢) ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾. يذكِّر الله -تعالىٰ- نبيه محمدًا ﷺ بأنه شد ملك داود وقواه، وهي نعمة عظمىٰ من الله -تعالىٰ- يكافئ بها نبيه داود علىٰ قوته في دينه، ورجوعه إلىٰ ربه وخالقه، وهو كقوله في سورة طه: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَـٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى﴾ [طه: ٢٩-٣٢]، وقوة الملك نعمة عظمىٰ، وذلك إنما يكون بتوفيقه إلىٰ أسباب

البقاء، وإبعاده عن عوامل الخراب والفساد، فجعل في دولته من رجال العلم والسياسة، والفنون والصناعة ما تستطيع به أن تعيش منيعة الجانب، حصينة الأطراف، كما جعل فيها من يقيمون العدل، ويتحرون الصواب والمصلحة، وجعل فيها من القوة الحربية ما يرهب الأعداء، ويخيف المغير، ومن أراد ملكًا قويًّا في دولة تفشَّت فيها الرِّشا، وفسدت فيها الأخلاق، وأصبح الناس أُسَراء شهواتهم وأهوائهم، من أراد ملكًا قويًّا في بلد مقفر من العلم النافع، والصناعة المفيدة، والحربية القوية، من أراد ملكًا قويًّا في بلد ذلك حاله، وتلك أخلاقه، إنَّما يتطلب محالًا؛ لأنَّه طلب ما لا يتفق وسنة الله في حياة الأمم وموتها، وضعفها وقوتها، وقيامها وسقوطها، ولا يمكن أن يبدل الله سننه أو يهدم نظامه.

ولعل المسلمين يفطنون إلىٰ أن أهم شيء في أسباب شدّ الملك وتقوية السلطان: هو الخُلُق الطيب الذي يعتمد علىٰ الدين، ويرتكز علىٰ الفضيلة، لعلهم يفطنون لهذا فيستعيدون بدينهم ونشاطهم مجدهم، ويستردون باستقامتهم عزّهم، لعلهم يفطنون إلىٰ أن الملك لم يكن في وقت ما طريقًا لجمع المال من طريقه المعروف وغير المعروف، ولم يكن سلمًا لتمتيع النفس بلذائذ وشهوات من شأنها أن تزري بصاحبها، وتضعه في موضع لا يليق، ولم يكن الملك وسيلة من وسائل ظلم الضعفاء، أو الفتك بالأبرياء.

﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ نعمة أخرىٰ علىٰ نبي الله داود ﵇، هي نعمة الحكمة، وهي العلم النافع الذي يحمل صاحبه علىٰ العمل، ويسوقه إلىٰ التخلق بأخلاق طيبة، وقد بيَّن ذلك في آية أخرىٰ؛ إذ يقول: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ١٥]، ويصح أن يراد بالحكمة النبوة، أو الحكمة التي تقابل العبث، أو يراد بها كل أولئك المعاني، لأنها غير متنافية ﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾، أي: الخطاب الفاصل بين الحق والباطل، **والمراد**: أن الله -تعالىٰ- أعطاه مقدرة علىٰ ذلك، سواء كان ذلك في القضاء بين الناس، أو في الجدل والنزاع في أمور العلم والدين، أو غير هذا، وكذلك أعطاه فصل الخطاب في سياسة الدولة وشؤونها العامة.

كل ذلك لأنَّ داود صاحب الأيد أوَّاب، ومنه تعلم أن التقوىٰ تتفجر بها ينابيع الحكم، وأن القلب المعمور بطاعة الله وتقواه جدير بذلك الفضل الكبير، وقد ورد: «**من عمل بما علم= ورَّثه الله علم ما لم يعلم**»، وكذلك تعلم من الآية أن نبي الله -تعالىٰ- كان قوله الفصل؛ لأنَّه بعيد عن الشهوة، بعيد عن الهوىٰ، وكل قاضٍ عنده من الاستعداد للقضاء بين الناس ما يؤهله لأن يحكم بينهم، وتجرَّد عن الهوىٰ؛ فإنَّ قوله يكون هو القول الفصل، وقضاءَه هو القضاء الأخير، وإنَّما يباعد بين الناس وبين الحق الشهوات والأهواء والأغراض والأمراض؛ حمانا الله منها، وعصمنا بفضله وكرمه.

(٣) ﴿۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾ ... إلخ. يأبىٰ المفسرون إلَّا أن يتأثروا بالإسرائيليات، وما دسَّه اليهود علىٰ الدين من قصص، ويأبىٰ المفسرون إلا أن يشحنوا سيرة الأنبياء بما يتبرأ منه القرآن الكريم، ولا يتفق وكرامتهم في هذه الحياة الدنيا، وما أعدّهم الله له من عمل، وما هيَّأهم له من منصب، فتراهم لأجل فهم قصة الخصمين اللَّذين تسوّروا المحراب يذهبون مذاهب شتىٰ، وتراهم في جملتهم يذهبون إلىٰ أن قصة الخصمين لم تكن قصة حقيقية، بل هي قصة تمثيلية، قام بها ملكان ليلفتا نظر داود إلىٰ ما كان منه، ثم يذكرون في بيان سبب هذه القصة ما لا يرضاه لنفسه رجل من عامّة المؤمنين فضلًا عن خاصتهم، وتراهم يختلقون علىٰ نبي الله داود الأكاذيب والأباطيل.

وكذلك نرىٰ المفسرين يأبون إلا أن يفسروا «**النعجة**» بالمرأة، ومن لنا بإسماع رجال العصر الذين لم يرضوا للمرأة من الحقوق ما رضيه الإسلام لها، بل يريدون أن يجعلوها كالرجل حتىٰ فيما لا تهاودها عليه فطرتها وطبيعتها؛ من لنا بتبليغ أولئك العصريِّين أنَّ القرآن الكريم يعبر عن المرأة بالنعجة، ويسمِّيها باسم حيوان أعجم، لنرىٰ ماذا يقابلونهم به، وماذا يصنعون معهم إزاء ذلك الفهم العجيب، والوصمة المنكرة التي يصمون بها المرأة شريكة الرجل في الحياة، والعضو العامل في تكوين الأسرة، وهل يتفق ذلك مع قول القرآن في شأن جماعة النساء ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، فجعل للمرأة من الحق علىٰ الرجل مثل ما له عليها بناءً علىٰ ما يقضي به العرف، وميز الرجل عليها بدرجة الرياسة في البيت.

ولا ندري ما هو الداعي إلىٰ تأويل النعجة بالمرأة، والحط من قيمة المرأة إلىٰ ذلك الحد، ولصق ذلك بالقرآن الكريم، وما الداعي إلىٰ اعتبار القصة من ملكين لا من رجلين؟ واعتبارها رمزًا لحادثة وقعت من نبي الله داود.

لماذا ذلك كله والأصل في الكلام الحقيقة دون المجاز، والنعجة هي الأنثىٰ من الضأن لا المرأة، ولماذا لا تكون القصة حقيقية من خصمين تحاكما إلىٰ داود وشرحا له قضيتهما، فأفتىٰ صاحب النعجة أنه مظلوم، وأن صاحب النعاج هو الظالم، ثم عقب ذلك بأن الشأن في الخلطاء أن يبغي بعضهم علىٰ بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

وقد اضطرب المفسرون في تأويل قوله: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ والآية كفيلة ببيان هذه الفتنة؛ فإنَّها ترينا أنَّ نبي الله داود أفتىٰ لمجرد سماعه قول صاحب النعجة، ولم يسمع لقول صاحب النعاج، والواجب علىٰ القاضي أن يسمع الحجتين، ويوازن بينهما، وبعد ذلك يقضي.

ولعل صاحب النعاج رأىٰ أن أمر النعجة لا يستقيم بوجودها وحدها، وبقائها منفردة عن إخوتها؛ لأنَّها بذلك تكون عرضة لسطو الذئب عليها، فمن مصلحته ومصلحة نعجته أن تعيش مع أخوتها، ولعل ذلك هو الذي جعله يقول: ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾، ولكن ما لصاحب النعاج ومصلحة النعجة؟ وما له ولمصلحة صاحبها؟ وهل جعله الله قيِّمًا عليه حتىٰ يطلب منه أن يدفع إليه ماله، ليثمره له ويرعاه بما يعود عليه وعلىٰ ماله بالخير؟ وهل يجبر الرجل علىٰ تسليم نعجته لصاحبه ما دام بقاؤها وحدها لغير مصلحتها؟

وقد يجوز أن تكون حجة صاحب النعاج أن غنمه في حاجة إليها، وأن حياتها متوقفة علىٰ حياة غنمه أو حياة طائفة منها، فطلبها منه لمصلحة تعود علىٰ غنمه لا لمصلحة لصاحب النعجة، كل ذلك محتمل في توجيه حجة صاحب النعاج، والفتنة التي ظنها داود هي فتنته في تلك الفتوىٰ، وسماعه لحجة واحد دون سماع حجة الآخر، وفي الأمثال المشهورة «إذا جاءك رجل قد فُقِئت عينه فلا تقضِ له حتىٰ ترىٰ خصمه، فلعله قد فقئت كلتا عينيه».

ذلك هو احتمال في بيان الفتنة، وهو احتمال قريب، وهناك احتمال آخر هو أن داود عليه السلام وزع وقته، فجعل وقتًا للعبادة، ووقتًا للقضاء بين الناس، فجاء الخصمان في وقت كان متفرغًا فيه للعبادة في محرابه، فتسلق الخصمان جدار المحراب، وتصعدوا سوره، وبذلك فزع منهم؛ لأنه لم يألف أن يجيئه الناس من ذلك السور.

فكانت فتنته أنه حجب نفسه عن الناس، والواجب علىٰ القاضي أن يعدّ نفسه للقضاء دائمًا ولا يضع بينه وبين المتخاصمين حجابًا.

فالفتنة التي ظنها داود أحد أمرين؛ **الأول:** قضاؤه بين الخصمين بعد أن سمع حجة أحدهما وقبل أن يسمع حجة الآخر، **الثاني:** أنْ حجب نفسه عن الناس ممَّا أدىٰ إلىٰ تسوُّر الخصمين المحراب، ويجوز أن يراد أنه فتن بالأمرين جميعًا(١).

---

(١) وفي هذا الموضع اشتد المؤلف رحمه الله علىٰ أئمة العلم الدين، وخضع لسلطان العصرانيين. والحق أن السلف كانوا أشد تعظيمًا للأنبياء، وأعرف بحقوقهم ممن جاء بعدهم. والواجب علينا أن نفهم كلامهم لا أن نرده بمجرد ما يبدو لنا دون تحقيق أو روية.

وقد سرد الشيخ د. مساعد الطيار في بحثه: «تفسير القرآن بالإسرائيليات .. نظرة تقويمة» مسردًا لأقوال المفسرين في هذه الآية، وبلغوا (٤٣) مفسرًا علىٰ القرون المختلفة، وانتهىٰ إلىٰ بعض الفوائد في ذلك، وهي:

الأول: اتفاق المتقدمين علىٰ أن الخصمين من الملائكة.

الثاني: اتفاقهم علىٰ أن فتنة داود كانت في المرأة.

الثالث: اختلافهم في تفاصيل القصة.

الرابع: مع اختلافهم في تفاصيلها لم يستدرك واحد منهم عليها من جهة كونها تحطُّ من مقام النبوة، أو تخالف العصمة النبوية كما وقع عند المتأخرين.

ويُستحضرُ في هذا المقام أنهم كانوا يستدركون في أقلّ من هذ.

الخامس: اختلافهم في سبب فتنة داود.

السادس: أن أول انتقاد صريح يوجّه للقصة كان من النحاس (ت: ٣٣٨)، هذا مع أنه استفاد كثيرًا من الطبري (ت: ٣١٠)، وقرأ عبارته في ذلك إلا أنه نبَّه علىٰ وجود مشكلة في متن الروايات، وكان انتقاده لها مجملًا.

السابع: أول تغيُّر في القصة نقله الجصاص (ت: ٣٧٠)، حيث جعل المسألة في تقدُّم داود علىٰ الخطبة علىٰ خطبة الرجل، وليس أن الرجل قد تزوجها ...إلخ.

وهذا الذي ذكره لا سند له؛ لا في روايات المتقدمين من الصحابة والتابعين، ولا في الإسرائيليات. =

(٤) وفي الآية أن للخصم أن يعظ القاضي، ويذكره بما أوجبه الله عليه من

= وقد يكون من ذكره قبله كان من باب التخريج لهذه القصة المشكلة. فأراد تلطيفها بهذا التصوُّرِ للقصة، فقاله. والله أعلم.

الثامن: التغيُّرِ الثاني في حَرْفِ القصة عن أمر المرأة أنَّ خطأه كان في نسبة صاحب النعاج إلىٰ الظلم بقول المدعي.

وهذا القول هو الذي حكم عليه مكيُّ بن أبي طالب بالشذوذ. وشذوذه واضح؛ إذ لم يقل به أحد من قبل، وهو مخالف للمروي عن المتقدمين.

التاسع: كان الرازي -عفا الله عنه- من أسوأ من تعرَّض لمن سبقه بالنقد والتجريح، وكان اعتراضه عقليٌّ محضٌ، ودعاوىٰ يزعم أنَّ الأمر عليها، وأن هذا موجب العصمة، ولا دليل عنده في ذلك إلاَّ ظنُّه ورأيه.

وهذا الأسلوب الذي انتهجه الرازي تأثَّر به المعاصرون. وخلاصة ذلك:

أنهم ادَّعوا أمورًا في عصمة الأنبياء، كان بناؤهم لها من طريق العقل لا من طريق النصِّ. واعترضوا بها علىٰ المنقول في شأن الأنبياء، واضطروا إلىٰ التأويل ما هو صريح في كتاب الله. فضلًا عما ورد في أخبار بني إسرائيل مما هو محتملُ الوقوع.

لذا فإن تجلية أمر(عصمة الأنبياء) من خلال النصوص تزيل كثيرًا من المشكلات التي وقعت عند بعض من اعترض علىٰ مثل هذه الأخبار، ولا تكاد تجد من يعترض عليها من المتقدمين.

ولعلي أضع بعض الأفكار في هذا الموضوع، فأقول:

١- إن الله أعلم حيث يجعل رسالته، وله أن يبتلي هؤلاء المرسلين بما شاء، ولا يؤخذ ذلك إلا بنصٍّ من كتابه أو من سنة نبيه، فإنَّ ما ثبت فيهما أُخِذ بظاهره، ولا يجوز تأويله بحجة مخالفته للعقل، أو لعصمة الأنبياء، إذ عصمة الأنبياء تثبت بالسمع. ثم يكون للعقل مدخل فيما لا يخالف السَّمع.

ومجمل القصة واضح. وهو أن داود ابتُلي من ربِّه بشأن المرأة. ولربِّه أن يفعل ما يشاء. فهل كان هذا الابتلاء مما يخالف جناب الأنبياء؟!

٢- إن الأعلم بما يجوز وما لا يجوز علىٰ الملائكة والأنبياء هو الله تعالىٰ، ثم أنبياؤه. ثم الراسخون في العلم من الأئمة المتقدمين.

٣- إن الأثريين من الصحابة والتابعين وأتباعهم، ثم من تبعهم من الرواة والنقاد = يقفون عند ظاهر كلام الله ورسوله، ويعظِّمونه، ولا يرونه مصادمًا لحقِّ الأنبياء، كما وقع عند بعض المتأخرين المتأثرين في بنائهم العلمي بعلم الكلام.

٤- إن بعض ما يروونه من الأخبار السابقة لم يقفوا معه بالنقد والتقويم، ولم يروا فيها ما ينكره العقل. وإلا لكانوا أولىٰ من ينكر مثل هذا، وها أنت تراهم جيلًا بعد جيل يروون هذه القصة وأمثالها. ولم يقع منهم نكير عليها.

٥- وإن هؤلاء ليسوا أهل حشو، ولا أنهم لا يُعمِلون عقولهم كما يظنُّ بعض المتأخرين. كيف وهم الذين كانوا يعترضون علىٰ ما هو أقل شأنًا من مثل هذه الأمور، وإذا كان الأمر كذلك، فإننا بحاجة إلىٰ إعادة نظرنا إلىٰ هذا الأمر، واستجلاء منهجهم العلمي في التعامل مع هذه الأخبار.

وانظر البحث المذكور، وانظر: مراجعات في الإسرائيليات، من إصدارات مركز تفسير. (عمرو)

العدل، وكذلك كان شأن الناس في الزمن الأول، يعظ بعضهم بعضًا، ولم يأنف نبي الله داود وهو رسول الله ومصطفاه أن يعظه الخصمان، ويقولا له: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾، والمراد لا تجر، بل عليك أن تقضي بيننا بالحق ﴿وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾، أي: أرشدنا بقضائك العادل إلىٰ عين الحق ومحضه.

كان ذلك في العهد الأول، يتناصح فيه الناس، ويطلب الخصوم من القاضي -ولو كان رسولًا- أن يقضي بينهم بالحق، أما وقد صار القضاء مهنة، وأصبح وظيفة لطائفة من الأمة، قد أُعِدت لذلك العمل تحت رعاية القانون وحمايته، فلا يستطيع الخصم أن يطالب القاضي بمثلما طولب به نبي الله داود، ولو صدر ذلك من خصم لأحد القضاة في العصر الحاضر لقُدِّم إلىٰ المحاكمة، واعتبر ذلك انتهاكًا لحرمة القضاء وتعريضًا بالقاضي.

وإذا كان المجال لم يتسع للخصم أن يقول للقاضي يجب عليك أن تعدل بين الخصوم، وألا تحابي أحدًا، وعليك أن تطبق القانون علىٰ الناس علىٰ السواء؛ فإن للواعظ الديني أن ينوب عن الخصوم في وعظ القاضي وإرشاده إلىٰ طريق الصواب، والبعد به عن الهوىٰ والضلال، وحسبنا أن الله -تعالىٰ- يقول لنبيه داود وهو ذلكم النبي المعصوم، وهو الذي وصفه في الآية السابقة بقوله: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾، ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾.

ذلك خطاب الله لنبيه المعصوم، ورسوله المختار، فلماذا لا يخاطب به من هم دونه في المنزلة؟ لماذا نهاب أن نقول لحكامنا ما قاله الله لنبيه داود؟ وهل هم أحرص علىٰ دينهم منه؟ وأقرب علىٰ الحق منه؟ أم ذلك سنة الله في التعليم، ونظامه في نشر العدل، يرسم لنا فيه الطريق، ويهدينا إلىٰ ماينبغي أن يكون، فيرينا واجب القاضي، ويرينا ثِقَل المهمة الملقاة علىٰ عاتقه وعاتقنا، واجبنا الإرشاد، وواجبه أن يسمع، لنعلم أن الأمة متضامنة في أداء واجبها، متكافلة في القيام بمهمتها، وعلىٰ كل طائفة من طوائف الأمة أن تكون صلتها بالأخرىٰ صلة نصح وإرشاد، لا صلة غش وتضليل، وأن يكون الحق فوق الأشخاص، والعدل

بغية الجميع، ووصول الناس إلىٰ حقوقهم غاية ليس بعدها غاية.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ يريك الله أن الشأن في السواد الأعظم من الناس إذا كوّنوا شركة من المواشي أو من الأموال الأُخر= أن يعتدي بعضهم علىٰ بعض ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، فلم يكن ذلك شأنهم، بلشأنهم وقوف كل واحد منهم عندما رسم له، وأن يرضىٰ بما قسم الله له من رزق، ومن ذلك نعرف أن الإيمان والعمل الصالح من شأنه أن يحول بين الناس وبين ظلم بعضهم بعضًا، وأن يكون حاجزًا بينهم وبين الشرور.

أمَّا الإيمان فلأنه إيمان بالجزاء، وإيمان بالثواب علىٰ الطاعة، والعقوبة علىٰ المعصية، وما دام الرجل واثقًا بالمسؤولية، مؤمنًا بالله وعدله، فلا يقع في ظلمه للناس، وإن ظلم كان ظلمه علىٰ غير عادته، فلا يقع منه إلا نادرًا، كما قال في شأن المؤمنين: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

وأمَّا العمل الصالح؛ فلأن من شأنه أن يهذب النفوس، ويطهرها من الخبث، ويحول بينها وبين المحرمات؛ لأنَّ العبادة تربطه بالله، وتخيفه منه، وتجعله يخشاه في سره وعلانيته، فالعمل الصالح يثبت العقيدة، وينمي الإيمان، ويعطيه الغذاء الصالح، فيثمر ثمرته المرجوة، ويؤدي وظيفته كاملة غير منقوصة، ولا غنىٰ للمؤمن عن الإيمان الصحيح، والعمل الصالح.

ولذلك ترىٰ القرآن الكريم لم يعد المؤمنين بالجنة إلا قرن إيمانهم بعملهم، واشترط مع العقيدة عملًا صالحًا ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٧]، وغير ذلك كثير وكثير، ويشير بقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ إلىٰ أن ذلك الصنف الذي يقرن الإيمان بالعمل الصالح قليل في جانب الأصناف الأخر.

وما أكثر الذين قنعوا من الإيمان باسمه، واكتفوا من الدين بعنوانه، وظنوا أن الله يحاسبهم علىٰ أسماء، لا علىٰ حقائق، وما داموا يسمون أنفسهم مؤمنين

فليعملوا من المنكرات ما شاؤوا، وليقصروا في الطاعات ما زينت لهم النفوس، وما أكثر أن يخدعوا أنفسهم بأنهم من أمة محمد ﷺ، وهي خير أمة أُخرِجت للناس، وبأن الله واسع الرحمة، وأنَّ الإنسان لا ييأس من رحمة الله؛ إلىٰ غير ذلك من الحق الذي أريد به الباطل: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٣-١٢٥].

﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾.

غلب علىٰ ظن داود أن الله قد ابتلاه واختبره في أمر الخصمين، ولمجرد ذلك الظن استغفر ربه ليرينا أن الإنسان ينبغي أن تكون معاملته لربه معاملة أساسها الاحتياط والحذر، وأنه يكفي لأن يستغفر ربه أن يظن الخطأ، فما بالك بمن يتيقن الزلة، ويعلم أنه قد عصاه وخرج علىٰ أمره ونهيه؟ ويظهر أن هذه حكمة التعبير بالظن.

ومن جهة أخرىٰ؛ فإنَّ المسألة ليست من الخطأ الواضح الجلي، بل هي خطأ من شأنه أن يقع للخاصة، فالفتنة إذًا مظنونة لا مقطوع بها، ومع أنها مظنونة لم يرضَ بها داود، فاستغفر ربه وخر راكعًا[1] ﴿وَأَنَابَ﴾: رجع إلىٰ ربه فغفر الله له ما ظنه ذنبًا، وإن له عند الله الحظوة وحسن المرجع في الآخرة.

(٥) ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾. تأديب من الله -تعالىٰ- لنبيه داود، وتعليم له كيف يحكم بين الناس، ويقضي بينهم، فيناديه أولًا بقوله ﴿يَٰدَاوُۥدُ﴾ ليلفته إلىٰ أن ما يلقيه إليه أمر عظيم، يجب أن يتنبه له ثم يقول: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: صيَّرناك خليفة عن الله في أرضه، تقيم العدل وتنشر الإصلاح، أو جعلناك خليفة لمن سبقك من

(١) أي: ساجدًا.

الأنبياء في ذلك، وجدير بمن جعله الله خليفة أن يفطن للمهمة الملقاة علىٰ عاتقه، ويعنىٰ بها العناية اللائقة.

نعم إنَّه جدير بمن يشعر من نفسه أنه نائب عن الله -تعالىٰ- في عمارة الأرض، والقيام علىٰ مصالح الناس، أن يقدر ذلك المركز الكبير، وهذا المنصب الجلل، ولو أن الناس فطنوا إلىٰ مراكزهم، وإلىٰ مقدار المسؤولية الملقاة علىٰ عاتقهم ما فرّطوا في عمل، ولم تغلب عليهم الشهوات، وكأنَّ الله -تعالىٰ- يريد أن ينبهنا إلىٰ طريق لفت الحاكم إلىٰ واجبه، وأنه ينبغي دائمًا أن يضع ذلك نصب عينيه ليكون ذلك وقاية له من التقصير، وحماية له من الشطط.

﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. يأمره أن يحكم بين الناس بالحق؛ لأنَّه خليفة عن الله في ذلك، وهو رسوله الأمين وخليفته في الحكم بين الناس، وإن داود لو فرض أنَّه شط وحكم بين الناس بغير الحق لكان ذلك مدعاة لطعن الناس علىٰ دينه وربه؛ لأنَّه خليفته ونائب عنه، والحق الذي يدعو الله إليه مقابل الباطل، وقد يكون الحق صريحًا لا يحتاج إلىٰ بحث أو تمحيص، وقد يكون الحكم بين الناس في أمور اجتهادية لم يتضح فيها وجه الحق.

والواجب علىٰ القاضي أن يحكم بين الناس بما يعتقد أنه الحق، فإن كان الحق واضحًا تبعه، وإن كان اجتهاديًا بذل وسعه في تعرف الحق، واجتهد في الوصول إلىٰ الصواب، وإذا أخطأ بعد ذلك فهو معذور مأجور، كما وقع له في قصة الغنم التي انتشرت في الحرث فأهلكته.

اجتهد داود عليه السلام فيما يجب لصاحب الزرع علىٰ صاحب الغنم، فحكم بما رأىٰ، ثم اجتهد سليمان فحكم حكمًا آخر، وكان حكم سليمان هو الصواب؛ لأنَّ الله -تعالىٰ- يقول ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، كما تقدم في سورة الأنبياء من القصة.

فالله -تعالىٰ- عذر نبيه داود، وإن كان سليمان هو الموفق في الحادثة المذكورة، وشهد لكلٍّ من داود وسليمان بأنَّه آتاهم حكمًا وعلمًا؛ أي: أعطاهما مقدرة علىٰ الحكم، ومنه نعلم أن المجتهد معذور في خطئه، وحسبه أنه بذل

طاقته في الوصول إلىٰ الحق، وذلك ما في وسعه، وهو الذي يكلفه الله به.

وكذلك القضاة والحكام يحكمون بالحق المنصوص الذي لم يشك أحد في حقيته، ولا عذر لهم في الخطأ إذا كانت المسألة بدهية ليس فيها جدل أو نزاع، ولم تشتبه فيها الأنظار؛ أما المسائل الاجتهادية التي تختلف فيها وجهة النظر، وتحتمل أحكامًا مختلفة، فعليهم أن يبحثوها بحثًا بريئًا بعيدًا عن الشهوة والهوىٰ، ثم بعد البحث يصدرون أحكامهم، وسواء عليهم بعد ذلك أصابوا أم أخطؤوا؛ لأنَّهم أدّوا ما عليهم من واجب.

﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. ينهىٰ الله نبيه داود أن يكون تابعًا للهوىٰ في قضائه وحكمه، والهوىٰ: ما تهواه النفس وتميل إليه ممَّا يخالف الحق والصواب، سواء كان هوىٰ للحاكم أو للمحكوم له أو عليه، أو كان هوىٰ لهما معًا، ولم يكن ذلك الوعظ خاصًا بنبيه داود، بل وعظ الله به خاتم الرسل، فقال: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩].

ويقول: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥-١٠٧]، وقال -تعالىٰ-: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٤٨].

فنراه قد أمر نبيه محمدًا ﷺ أن يحكم بين الناس بما أراه الله سواء كانت الآراء ببيان الحق الذي عرفه له أو كانت من طريق اجتهاده؛ فإنَّ الأمور الاجتهادية قد أراه الله إياها، وعرفه طريقها وأصولها التي تبنىٰ عليها، فما أراه الله أعم من الحق الصريح والحق الاجتهادي، ونهاه الله -تعالىٰ- أن يخاصم لأجل خائن، وأن يجادل عن الذين يختانون أنفسهم بالعصيان والفسوق، كما نهاه أن يتبع في أحكامه أهواء القوم التي تلويه عما جاءه من الحق.

فإذا قال لنبي الله داود: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾، فقد قال مثل ذلك لنبيه محمد ﷺ.

وكذلك يأمر الله المؤمنين أن يحكموا بالعدل إذا كانوا حكامًا؛ إذ يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾، ثم يعقب ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ [النساء: ٥٨]؛ ليرينا أن ما يأمر به الحكام من العدل هو مصلحة تعود علينا، وأن أمر الناس لا ينتظم بدونه، فإذا لم يكن للأمة عاصم من القضاء، وسياج من العدالة في أشخاص الحاكمين، اختلَّ أمرها، واعتلَّ نظامها، وسادت فيها الفوضىٰ، وكثر فيها الفساد، وانتشرت الجرائم، ثم يعقب ذلك الأمر بتهديده لمن يخرج عنه، ووعيده لمن لا يرعاه؛ إذ يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾.

(٦) ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ يرينا أن من شأن الهوىٰ الذي يقود صاحبه أن يعميه عن الحق، ويحول بينه وبين الصواب.

وجدير بمن يتبع هواه في قضائه وحكمه، ويعرض عن هداية ربه، ولا يعنيه أن يصل إلىٰ الحق، بل همه أن يصل إلىٰ شهوته، ويرضي ميوله، أن يضل الطريق، ويعمىٰ عن الحق.

ثم بيَّن مغبة الضالين بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ﴾، أي: بنسيانهم اليوم الذي يحاسبهم الله فيه؛ أي تركه وراءهم ظهريًّا كالشيء المنسي، كما قال: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ١٩﴾ [الحشر: ١٩]، وكما قال: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٤-١٢٦].

فالنسيان كل هذه المواضع هو الإهمال والترك، وجعل المتروك كالشيء الذي من شأنه أن ينسىٰ فلا يعبأ به، ولا يهتم له.

وتريك الآية من ناحية أخرىٰ أن الذاكر لذلك اليوم الذي يحاسب فيه الناس لا تطغىٰ عليه الشهوة، ولا يتملكه الهوىٰ، بل يغلب عليه الخوف من الله والخشية منه، فإذا قضىٰ بين الناس ذكر أن الله محاسبه علىٰ قضائه، وإذا حدثته نفسه بظلم تذكر سلطان الله عليه، وأنه سميع لقوله بصير بعمله، مطلع علىٰ نياته وخطرات قلبه، ومن لنا بمن يذكر الناس دائمًا يوم الحساب حتىٰ لا يظلموا إذا

حكموا، ولا يخونوا إذا ائتُمنوا، ولا يبطشوا إذا قدروا، ولا يغدروا إذا عاهدوا.

من لنا بمن يضع هذه العقيدة في نفوس قضاتنا وحكامنا، وينزع من قلوبهم حب المال والحرص عليه، وحب الجاه والتزلف لأصحاب السلطان والنفوذ.

من لنا بتربية القضاة علىٰ هذه المبادئ، وإشرابهم حب العدالة والإنصاف، وإكبارهم للحق وأهل الحق، واحتقارهم للباطل وأنصار الباطل، من لنا بذلك كله وقد حيل بين القضاة وبين المواعظ، فتراهم بعيدين عن الوعظ، ومجالس التذكير، إذا دعاهم الله إلىٰ الجُمَع والجماعات لا يجيبون، وإذا طالبهم بالصلوات لا يؤدون، وإذا أخذ الوعاظ في عمل محاضرات للوعظ في أماكن صالحة لا يحضرون، وإذا نشروها بالصحف لا يقرؤون.

نعم؛ إنَّ الأمر مشكل، والعلاج صعب، لا يستقيم أمر الناس بلا دين يهيمن عليهم، وعقيدة يصدرون عنها، ومبدأ ينقادون له، والقانون الذي أعد لحماية القضاة من الهوىٰ لا يكفي لردعهم وتأديبهم، وها هو القانون الذي يعاقب الراشي والمرتشي قائم في ممالك العالم، ومع ذلك لم يؤدِّ القاضي كل ما يجب عليه، ويوجد في أسرة القضاء في العالم من يلوثون سمعته، وينتهكون قدسيته بما في نفوسهم من شهوة، وما في قلوبهم من مرض.

وتجد القضاة يتفاوتون في أهوائهم وشهواتهم، ففيهم المريض بالنساء وجمالهن، وذلك الصنف من القضاة يجد من سماسرة السوء مَنْ يرشيه مِن ذلك الطريق القذر، ويشبع شهوته من هذه الناحية، بأساليب تتقزز لها النفوس الأبية، وتضج لها الكرامة، ومنهم المريض بالخمور والمكيفات، ومنهم المريض بجمع المال والحصول عليه، ومنهم المريض بالقمار، ومنهم، ومنهم.

وكل هذه الشهوات يتقدم بها أرباب القضايا أو سماسرة السوء إلىٰ ذلك الصنف من الحكم، ليكونوا في صفهم في القضاء، ولمصلحتهم في الحكم.

وأخف أمراض القاضي أن يكون جبانًا، يخشىٰ السلطة، ويتخوّف ممن له عليه سيطرة ذلك النوع إذا بلغه توصية من صاحب سلطان عليه اضطرب أمره، واختل نظامه، وأخذ يضرب أخماسًا لأسداس، وقد يكون فيه من خوف الله ما يحمله علىٰ الشجاعة، ويجعله لا يبالي بإشارة الرئيس، وقد يغلب عليه الضعف

فيجيبه إلىٰ ما طلب، ويتلمس لنفسه المعاذير بأنه يدفع بذلك عن نفسه، ويذود عن مصلحته، وقد يكون فقيرًا فيزين له الشيطان أن الخير له في أن يسير مع القوم حيث ساروا، حتىٰ لا يضطهدوه بإبعاد أو فصل، والمعصوم بعد ذلك الجهاد الطويل، والمشادَّة بين وازع الخير ووازع الشر= مَنْ عصمة الله وحفظه.

وهناك نوع من الجبن يلجأ إليه بعض القضاة، ويرىٰ لنفسه العذر في اللجوء إليه، ويظن أنه بذلك الأسلوب قد أرضىٰ العدالة، وأدَّىٰ ما عليه من حق: هو أن يحس القاضي من بعيد أن للسلطة الحاضرة مَيلًا خاصًّا في القضية المنظورة، واتجاهًا معينًا، وهو لا يريد أن يجاريها في ذلك الاتجاه، ولا أن يصدمها، فيعمد إلىٰ التخلص من القضية كي ينظرها غيرُه.

وهو تخلص حسن لو أنه عرف أنَّ من تسند إليه سوف يقضي فيها بما يتطلبه الحق، أما وهو يعلم أنَّها ستسند إلىٰ رجل يقضي فيها بما تحبه السلطة، ويتجه كما أرادت، فذلك شريك للقاضي في الإثم، ونصير له في الظلم، وإعداد الفساد، فهو آثم بذلك العمل، وإن ظن أنه بريء.

والواجب عليه ألا يترك ذلك النوع من القضايا لقضاة عابثين، بل يتولاه بنفسه، ويقضي فيه بما يرىٰ، ويحول بين القضية وبين اللعب جهد المستطاع، ما دام نظره للقضية لا يجعله مدينًا أمام القانون، أو مسؤولًا أمام واجبه.

وعلىٰ الجملة فمهمة القضاء مهمة شاقة، وهي ابتلاء من الله -تعالىٰ- أي ابتلاء، واختبار للقاضي بكل أنواع الاختبار، ولا سيما في العهد الحاضر الذي يلوح فيه للقاضي بشهوات شتىٰ، يلوح له بالنساء، ويلوح له بالمال، ويلوح له بالدرجات والترقيات، وما إلىٰ ذلك، فلم يكن غريبًا أن يهتم الله بالقضاء إلىٰ ذلك الحد، ويعظ فيه نبيه داود بما ترىٰ، ويحذره من اتباع الهوىٰ، ويعظ نبيه محمدًا ﷺ بأكثر ممَّا وعظ نبيه داود، فالأمر جدّ خطير، والمعصوم فيه مجاهد في سبيل الله يستحق من الأجر الشيء الكثير.

(٧) وقد رأيت بعد أن أطلَعْت القارئ علىٰ عناية القرآن الكريم بالقضاء بين الناس ووعظه داود في ذلك أن أختم البحث بكتابَي عمر في القضاء لأبي موسىٰ الشعري وشريح القاضي.

كتابه إلى أبي موسى[1]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أمَّا بعد: فإن القضاء فريضة محكمة، وسنة متبعة، فافهم إذا أدلىٰ[2] إليك؛ فإنَّه لا ينفع تكلم بحق لا نفاد له، آس[3] بين الناس في مجلسك ووجهك، حتىٰ لا يطمع شريف في حيفك[4] ولا يخاف ضعيف من جورك، والبينة علىٰ من ادَّعىٰ، واليمين علىٰ من أنكر، والصلح جائز بين المسلمين، إلا صلحًا أحل حرامًا أو حرّم حلالًا، ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس راجعت فيه نفسك، وهُديت فيه لرشدك أن ترجع عنه، فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل، الفهم الفهم عند ما يتلجلج[5] في صدرك ممَّا لم يبلغك في كتاب الله، ولا في سنة النبي ﷺ.

اعرف الأمثال أو الأشباه، وقس الأمور عند ذلك، ثم اعمد إلىٰ أحبها إلىٰ الله وأشبهها بالحق فيما ترىٰ، واجعل للمدّعي حقًّا غائبًا، أو بينه أمدًا[6] ينتهي

---

(١) رواه ابن شبة في تاريخ المدينة: (٢/ ٧٧٥)، والبيهقي في الكبرىٰ: (١٠/ ٢٥٢)، وانظر: مسند الفاروق. لابن كثير: (٢/ ٤٣٦)، وقد شرحه ابن القيم في إعلام الموقعين: (٢/ ١٥٨)، (٢/ ١٦٣). ط. مشهور. (عمرو)

(٢) رفع لك الأمر.

(٣) اعدل وساوِ.

(٤) ظلمك.

(٥) يتردَّد.

(٦) وقتًا محدودًا.

إليه، فإن أحضر بينته أخذت له بحقه، وإلَّا وجهت عليه القضاء، فإن ذلك أنفىٰ للشك، وأجلىٰ للعمىٰ، وأبلغ في العذر.

المسلمون عدول بعضهم علىٰ بعض، إلا مجلودًا في حد، أو مجربًا عليه شهادة زور، أو ظنينًا[1] في ولاء أو قرابة، فإن الله قد تولىٰ منكم السرائر، ودرأ عنكم بالشبهات، ثم إياك القلق والضجر، والتأذي بالناس، والتنكر للخصوم في مواطن الحق التي يوجب الله بها الأجر، ويحسن بها الذخر؛ فإنَّه من يُخلص نيته فيما بينه وبين الله -تبارك وتعالىٰ- ولو علىٰ نفسه يكْفِه الله ما بينه وبين الناس، ومن تزين للناس بما يعلم الله خلافه منه هتك الله ستره، وأبدىٰ فعله، والسلام.

---

(١) متهمًا بسبب ولاء أو قرابة.

كتابه لشريح القاضي[1]

أمَّا بعد: فإذا جاءك شيء في كتاب الله فاقضِ به ولا يلفتنك عنه الرجال، فإن جاءك أمر ليس في كتاب الله؛ فانظر سنة رسول الله ﷺ فاقضِ بها، فإن جاءك أمر ليس في كتاب الله، ولم يكن فيه سنة من رسول الله، ولم يتكلم فيه أحد قبلك= فاختر أيَ الأمرين شئت، إن شئت أن تجتهد رأيك وتقدم فتقدم، وإن شئت أن تأخر فتأخر، ولا أرىٰ التأخير إلا خيرًا لك. (اهـ)[2].

(٨) ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ ٱلنَّارِ﴾. لما عرض الله لجزاء الضالين عن سبيله، وأنهم يحاسبون الحساب الشديد بنسيانهم يوم الحساب= عقب ذلك ببيان أنه لم يخلق السماء والأرض وما بينهما خلقًا باطلًا بعيدًا عن الحكمة والغرض، بل أوجدهما لحكم ومصالح، وهو كقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩]، وقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦]، أي: ننزه أن يخلق الناس عابثًا في ذلك الخلق، وأن يتركهم سدىٰ يعتدي بعضهم علىٰ بعض، ويظلم القوي الضعيف، ثم لا يكون لهم حياة وراء هذه الحياة، يحاسب فيها كل أحد علىٰ ما قدم من خير أو شر.

ومن ذلك نعرف أنَّ الجزاء في الآخرة أمر تقضي به الحكمة، ولا يمكن

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنف: (٢٢٩٩٠)، والبيهقي في الكبرىٰ: (١٠/١٨٩). (عمرو)

(٢) انظر أشهر مشاهير الإسلام في تاريخ عمر.

لإله حكيم أن يخلق الناس ذلك الخلق الواسع من سماء وأرض، وما بينهما، وما فيهما، ثم لا يجعل للناس حياة بوضع فيها الميزان القسط، ينقلب فيها القوي ضعيفًا، والضعيف قويًا، وترجح فيها كفة العمل الصالح علىٰ كفة الفساد.

ذلك ما تقضيه الحكمة، وتتطلبه المصلحة، ومتىٰ آمن الإنسان بأن هناك إلهًا قادرًا حكيمًا= كان من لوازم ذلك أن يكون هناك ثواب وعقاب، وهناك جنة ونار، وهناك الفرق بين المطيع والعاصي، والمحسن المسيء.

﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ الإشارة إلىٰ إنكار الجزاء في الآخرة، وعدم الإيمان بتلك الحياة، وبيان أن ذلك الزعم هو ظن الذين كفروا، وسماه ظنًا؛ لأنَّه لم يُبْنَ علىٰ دليل، بل هو قول توارثوه عن آبائهم وأجدادهم، ثم قال: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾، أي: بسبب إنكارهم البعث والجزاء.

﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ﴾. استفهام يراد به الإنكار، **والمراد**: أنَّه لو بطل الجزاء كما يقول الكافرون لاستوت عند الله أحوال من أصلح وأفسد، واتقىٰ وفجر، ومن سوّىٰ بينهم كان سفيهًا ولم يكن حكيمًا، -تعالىٰ- الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

والآية تلفتنا إلىٰ أن صفة العدل والحكمة يقضيان بأن يحاسَب الناس، ويوضع كل أحد حيث وضعه عمله، فالجزاء الحق مظهر من مظاهر أسماء الله وصفاته، وأثر من آثار عدل الله وحكمته.

وفي الآية إشارة إلىٰ خطأ من يقول: إنه يجوز علىٰ الله -تعالىٰ- أن يدخل من أطاعه النار ولو كان رسولًا، ويجوز عليه أن يدخل من عصاه الجنة ولو كان مشركًا، والسبب في هذا الخطأ الذي وقعوا فيه أنَّهم يأخذون عقائدهم عن كتب الكلام لا عن كتاب الله -تعالىٰ-، ولم تعرض كتب الكلام المشهورة بين الناس إلىٰ صفتي الحكمة والعدل، وإن كانت عرضت لعموم قدرة الله -تعالىٰ- وسعة مشيئته، فكان من آثار الإيمان ببعض الصفات دون بعض ذلك القول، علىٰ أنه قد وجد في المتكلمين من أنكر عليهم ذلك الجواز؛ لأنَّه يؤدي إلىٰ جواز أن ينسىٰ الله -تعالىٰ- حكمته، ويدع عدله، ومحالٌ علىٰ الله أن يتجرّد عن حكمته كما يستحيل عليه أن يعرض له نقص في قدرته أو مشيئته، ويدل لذلك قول الله -

تعالىٰ-: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦].

ينكر عليهم أولًا أن يسوِّي المسلم بالمجرم، ثم يعقب بقوله: ﴿مَا لَكُمْ﴾، أي: شيء جعلكم تنسون حكمة الله وعدله، وهو في المعنىٰ إعادة للإنكار، ثم قال: ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ تعجب من حكمهم بأن الله يجعل المسلم كالمجرم، وإذا كان الله -تعالىٰ- لم يجعل للناس يومًا للجزاء إلا لإقامة العدل بين الناس، ولم يرضَ أن يدعهم بدون جزاء؛ لأنَّ تركهم في معنىٰ التسوية بين المسلم والمجرم، والمصلح والمفسد، فكيف نجوّز علىٰ الله -تعالىٰ- أن يحاسب الناس ويقف منهم ذلك الموقف الذي أنكره علىٰ نفسه علىٰ فرض أنه ليس هناك جزاء؟

فالله -تعالىٰ- لم يرضَ لنفسه أن يقف من خلقه موقفًا سلبيًّا، فيتركهم بلا جزاء؛ لأنَّ ذلك الموقف السلبي منافٍ للعدل والحكمة، وفيه تسوية بين المحسن والمسيء، فكيف يرضىٰ أن يقف الله من خلقه موقفًا إيجابيًّا، ويحاسب الناس علىٰ أساسٍ غير عادل، وقاعدة بعيدة عن الحكمة.

وجملة القول: إنَّ الآيات تدلنا علىٰ أن الله -تعالىٰ- أقام البرهان والدليل علىٰ أنَّه لم يخلق الناس عبثًا، ولم يتركهم سدىٰ، وأن ذلك منافٍ للحكمة، ولا غنىٰ لهم عن حياة وراء هذه الحياة، ولو لم يكن هناك جزاء لكان ذلك تسوية بين الخبيث والطيب، والمصلح والمفسد، -تعالىٰ- الله عن ذلك، وهي تدل بالفحوىٰ علىٰ استحالة أن الله -تعالىٰ- يجوز عليه أن يحاسب الناس، ثم يقف منهم الموقف الذي لم يرضه لنفسه إذا هو لم يحاسبهم.

ومنه نعرف أن مقتضىٰ الحكمة والعدل أن يحاسب الله الناس، وأن يكون حسابهم علىٰ قاعدة العدل وأساس الإنصاف: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

(٩) ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، أي: هذا كتاب أنزلناه إليك كثير البركة والخير؛ لأنَّه يحمل في طياته سعادة الناس وهدايتهم، ويرشدهم إلىٰ خيري الدنيا والآخرة ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ بيان للغاية من ذلك الكتاب، وهو التفكير في آياته والنظر فيما تؤول إليه من وعد ووعيد،

وترغيب وترهيب، ولم ينزله الله -تعالىٰ- لنجعله تمائم وتعاويذ، وكذلك لم ينزله لنقرأه علىٰ القبور، وننشره بين الموتىٰ، وإنَّما أنزله للعظة، أنزله للذكرىٰ، والمسلمون ما داموا يقفون من القرآن هذه المواقف، ولا يتخذونه إمامًا لهم في أمره ونهيه، وقائدًا لهم في إرشاده وتعاليمه.

ما دام المسلمون علىٰ ذلك الحال فلا تقوم لهم قائمة، ولا يرجىٰ لهم حياة، وقد ختم قصة داود بهذه الجملة؛ لأنَّ هذه هي الغاية من ذكره لقصة داود، والذي يقرأ أول السورة يعرف ذلك، وفيها فوق ذلك أنَّ ذلك الكتاب الذي أنزله الله مباركًا ليتدبر الناس ما فيه من معانٍ، وما حواه من حكم وأحكام، دلّ في جملته وتفصيله علىٰ أن جزاء الله في الآخرة واقع ولا بد، وأن ذلك الجزاء هو جزاء عادل حكيم، وقوله: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، أي: أصحاب العقول؛ أي: ليتعظوا بذلك الكتاب وينتفعوا بما فيه، وهو يلفتنا إلىٰ أن المعرضين عنه قد ألغوا عقولهم، كما عطلوا أسماعهم ومواهبهم.

ألا ترىٰ إلىٰ أهل جهنم يقولون وهم يصطرخون فيها: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠، ١١].

فالذين ينتفعون بالقرآن هم الذين حكَّموا عقولهم، وانتفعوا بأسماعهم وأبصارهم، والذين عطَّلوا ما وهبهم الله من حواس، وما منحهم من نعم هم الذين حُرِموا الانتفاع بالقرآن والاهتداء به.

وقد ورد عن **الحسن**: «قد قرأ القرآنَ عبيد وصبيان، لا علم لهم بتأويله، وحفظوا حروفه، وضيعوا حدوده، حتىٰ إنَّ أحدهم ليقول: والله لقد قرأت القرآن فما أسقطت منه حرفًا، وقد والله أسقطه كله، ما يُرىٰ للقرآن عليه أثر في خُلُق ولا عمل، والله ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، والله ما هؤلاء بالحكماء ولا الوَزَعة؛ لا أكثر الله في الناس مثل هؤلاء» (اهـ)(١).

ويظهر أنَّ أكثر المسلمين اليوم هم أولئك العبيد والصبيان، الذين لا علم لهم بتأويله، إن حفظوا حروفه فقد ضيعوا حدوده، وإن حافظوا علىٰ شكله فقد فرطوا في جوهره، وإن حذقوا ألفاظه فقد أغفلوا معانيه، وإن قال أحدهم: والله

(١) مصنف عبد الرزاق: (٣/ ٣٦٣)، والتفسير، لسعيد بن منصور: (٢/ ٤٢٢). (عمرو)

ما أسقطت منه حرفًا واحدًا فقد أسقطه كله، ما يُرىٰ للقرآن عليه أثر في خلقه أو عمل، فإن المسألة ليست حفظ حروف مع إضاعة حدود، وقد أقسم الحسن أنَّ هؤلاء ما هم بحكماء ولا وزعة عن الشر، ودعا الله ألا يكثر في الناس مثل هؤلاء.

وكأن الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ كان ينظر إلىٰ طائفة القراء في زماننا هذا وهو يقول كلمته:

وإن من يطلع علىٰ أحوال هذه الطائفة، ولا سيما الذين عرفوا بـ«الصييتة»[1] يرىٰ منهم من الخلق السيء والسيرة الذميمة ما يتبرأ منه القرآن، تراهم يدعون الناس إلىٰ حسن الخلق وهم أسوأ الناس خلقًا، وإلىٰ ترك ما حرّم الله وهم منغمسون فيه، وإلىٰ القناعة والرضا وهم أسوأ الناس نفوسًا، يدعون الناس إلىٰ الخوف من الله والخشية منه وهم أقسىٰ الناس قلبًا، يتلون كتاب الله لا يتجاوز حناجرهم، ولم يصل إلىٰ قلوبهم، ولا عجب فإنهم لم يقرؤوه للهداية والعظة، وإنَّما يقرؤونه للطرب والكسب.

وما نزل القرآن لنطرب به السامعين، أو نفكه به الحضور، وإنَّما نزل ليكون إمامًا للناس، يعرفون به كيف يسعدون، ويتعلمون منه كيف يصلحون دينهم ودنياهم، وكيف يعتزّون علىٰ أعدائهم، وينتصرون علىٰ خصومهم، وإنَّ القرآن ما سعد به سلفنا الصالح إلَّا لأنَّه عكف علىٰ دراسة معانيه قبل دراسة ألفاظه، وتفهم أغراضه قبل حذق كلماته، كما ورد عن إحدىٰ أمهات المؤمنين: «كانت الآية تنزل علينا فنعرف حلالها وحرامها قبل أن نحفظ ألفاظها»[2].

اللهم وفق المسلمين لحفظ كتابهم، وفقه الغرض منه، وللعمل به في أنفسهم وبيوتهم ودولهم حتىٰ يتبدل حالهم من شقاء إلىٰ سعادة، ومن ضعف إلىٰ قوة.

(١٠) ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَـٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾. بعد أن قصَّ الله علينا

---

(١) الذين اتخذوا قراءة القرآن حرفة يتعيشون بها.

(٢) ورد هذا المعنىٰ عن عدد من الصحابة والتابعين، انظر: مصنف عبد الرزاق: (٣/ ٣٨٠)، والإيمان، لابن منده: (١/ ٣٦٩). (عمرو)

قصة داود، عرَّفنا أنه وهب لداود سليمان، ثم عرفنا قيمة هذه الهبة وأنها هبة عظيمة، فقال: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾، أي: سليمان، ثم عقب ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾، أي: رجاع إلىٰ الله -تعالىٰ- كما هو حال أبيه داود، فهو يشبه أباه في التقوىٰ، وهو بيان لسبب مدح الله له.

﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾. كلمة ﴿إِذْ﴾ ظرف لمحذوف؛ أي: اذكر الوقت الذي عرض عليه فيه الصافنات الجياد، والمراد أنَّ يذكر هذه القصة، وهي قصة عرض الخيل الجياد عليه كما هي عادة الملوك الذين يهتمون بما عندهم من مظاهر القوة، ويستعرضونها ليتعرفوا قيمتها؛ ليكون ذلك الاستعراض تفقدًا لها، ومظهرًا من مظاهر فضل الله -تعالىٰ-، وإرهابًا للعدو، وقوله: ﴿بِٱلْعَشِيِّ﴾ بيان للوقت الذي عرضت فيه الخيل.

﴿فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى﴾، أي: قال سليمان عند عرضها عليه إنِّي أحببت حب الخير حبًّا ناشئًا عن ذكر ربي، فكلما ذكرته ذكرت فضله وإحسانه، فإن أحببتها فذلك لأنِّي أحب مصدرها، وإن تعلقت بها فمن هذه الجهة.

أو إنِّي أحببت حب الخير الذي منه هذه الخيل لأجل أن أذكر بها ربي، فأنا أحبها لأمر الله وتقوية دينه، ولا أحبها لأجل الدنيا ونصيب الغنىٰ.

يرينا نبي الله سليمان أن ذلك هو الذي ينبغي للمؤمن كلما أحب شيئًا في هذه الحياة، ينبغي له أن يحبه لأنَّه يعينه علىٰ ذكر الله -تعالىٰ- وشكره، ويساعده علىٰ إقامة دين الله وإعلاء شأنه، فإذا أوتي ولدًا أحبه طمعًا في أن يكون له من ذلك الولد الذرية الصالحة، التي تعبد الله -تعالىٰ- وتشكره، وإذا أحب جاهًا أو نفوذًا يحبه لأنه يستعين به علىٰ نصر الضعيف، وإغاثة الملهوف، وإذا أحب علمًا أحبه لأنَّه طريق لنشر الفضيلة ومحاربة الجهالة، وإذا أحب مركزًا من مراكز الحياة أحبه؛ لأنَّه يمكنه من الإصلاح، ويساعده علىٰ ما يحبه الله -تعالىٰ- ويرضاه.

والمراد أنَّ نبي الله سليمان لم يفتن بذلك المال الذي أعطاه الله، بل كان يشهد فيه دائمًا مُصدره ومنشئه، ويقرأ في صفحاته واهبَه ومانحه، فلم يبطره المال يومًا ما، ولم ينسه أن يشكر ربه عليه، ويحفظ له فضله وإحسانه، وذلك مكان

العبرة من قصة الخيل ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ غاية لقوله: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾.

والغرض أنَّ الخيل لما عرضت عليه أجروها أمامه ليعدوها للغزو، وما زالت كذلك حتىٰ غابت عن بصره، ثم أمر بردها إليه، فأخذ يمسح سوقها وأعناقها تشريفًا لها، لكونها للجهاد، والجهاد من أعظم أمور الدول، وليباشر الأمور بنفسه، ليقتدي به الوزراء ورجال الدولة، وكذلك كان **صلاح الدين الأيوبي**، كان ينقل الأحجار بنفسه في بناء الأسوار أيام الحروب الصليبية.

(١١) ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾. للمفسرين روايات كثيرة في فتنة سليمان وبيان المراد بها: منها ما لا يتفق ومركز سليمان ﷺ، ومنها ما هو ضعيف من جهة سنده وروايته، وإن كان صالحًا في جملته أن ينسب إلىٰ سليمان.

ومن ذلك ما روىٰ أنَّ سليمان ﷺ قال: «لأطوفن الليلة علىٰ سبعين امرأة -من نسائه- تأتي كل واحدة بفارس يجاهد في سبيل الله»، ولم يقل إن شاء الله، فطاف عليهن فلم تحمل إلا امرأة جاءت بشق رجل، فوالذي نفس محمد بيده لو قال: إن شاء الله لجاهدوا فرسانًا[(١)].

فهذا قوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾ ابتليناه ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾ هو شق الطفل المذكور جيء به علىٰ كرسيه ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ رجع إلىٰ الله ممَّا فعل وهو أنه لم يقل إن شاء الله، والأنبياء يحاسبون علىٰ ما لم يحاسب عليه سواهم لشدة قربهم من ربهم.

وحديث طواف سليمان علىٰ نسائه وإغفاله للمشيئة صحيح من جهة سنده، وإن كان غريبًا في معناه، ولكن اعتباره تفسيرًا للآية لم يصح.

---

(١) عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «قال سليمان بن داود نبي الله: لأطوفن الليلة علىٰ سبعين امرأة، كلهن تأتي بغلام يقاتل في سبيل الله، فقال له صاحبه -أو الملك-: قل: إن شاء الله، فلم يقل ونسي، فلم تأت واحدة من نسائه إلا واحدة جاءت بشق غلام، فقال رسول الله ﷺ: « **ولو قال: إن شاء الله، لم يحنث، وكان دركا له في حاجته**»، رواه البخاري: (٣٤٢٤)، ومسلم: (١٦٥٤).
ولم نقف علىٰ أحد -كما ذكر المؤلف بعد ذلك- من السلف، ولا من المتقدمين في التفسير فسر الآية بهذا الحديث، وإنما فسروها بتسلط الشيطان علىٰ ملك سليمان ﷺ، ثم أنجاه الله تعالىٰ، وعضد ملكه بعد ذلك. (عمرو)

وهذا صاحب «**فتح الباري**» يقول بعد أن ساق حديث طواف سليمان علىٰ نسائه: «حكىٰ **النقاش في** تفسيره أن الشق المذكور هو الجسد الذي ألقي علىٰ كرسيه، **والنقاش**: صاحب مناكير». (اهـ).

وكثير من المفسرين يقع في ذلك الخطأ الذي وقع فيه النقاش، فيفسر الآية بحديث قد يصح في نفسه، ولكن لم يثبت أنه تفسير للآية، وبيان لها، وليس كل ما صح من الأحاديث يصح تفسيرًا.

وقد اختار «**الفخر**» في بيان فتنة سليمان وجوهًا أمثلها:

الوجه **الثالث** وهو أن الله فتن سليمان بسبب مرض شديد ألقاه الله عليه، وألقىٰ علىٰ كرسيه منه جسدًا لشدة المرض، والعرب تقول في الضعيف: إنه لحم علىٰ وضم، وجسم بلا روح ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ رجع إلىٰ الصحة.

والرابع وهو أن الله ابتلاه بتسليط خوف أو توقع بلاء من بعض الجهات عليه، وصار بسبب قوة ذلك الخوف كالجسد الضعيف الملقىٰ علىٰ ذلك الكرسي، ثم أزال الله عنه ذلك الخوف، وأعاده إلىٰ ما كان عليه من القوة وطيب القلب.

أمَّا قوله ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾ فوجهه: أن الإنسان لا ينفك ألبتة عن ترك الأفضل والأولىٰ، وحينئذ يحتاج إلىٰ طلب المغفرة؛ لأنَّ حسنات الأبرار سيئات المقربين، ولأنَّ الأنبياء أبدًا في مقام هضم النفس وإظهار الذلة والخضوع، كما قال ﷺ «**إنِّي لأستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة**»[(١)]، ولا يبعد أن يكون المراد من هذه الكلمة هذا المعنىٰ، والله أعلم.

وقد عرض **الفخر** لوجوه أخرىٰ في الفتنة كما عرض غيره من المفسرين، نضرب عنها صفحًا؛ لأنَّها لا تهم القارئ، ولا تتفق مع مركز سليمان الذي قال الله فيه: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾.

أمَّا تفسير الفتنة بالمرض فهو معقول، لأن المرض الذي يحل بالإنسان في هذه الحياة ابتلاء من الله -تعالىٰ-، واختبار للعبد، وكذلك تسليط خوف أو توقع

---

(١) رواه البخاري: (٦٣٠٧).

بلاء من بعض الجهات، ولا سيما إذا كان الخوف شديدًا فإنه يجعل صاحبه جسدًا لا روح فيه ولا حراك به، وإن كانت كلمة ﴿أَنَابَ﴾ قد كثر استعمالها في الرجوع إلىٰ الله من الذنب، ولكن المعنىٰ الأول للكلمة هو الرجوع، قال «**الراغب**»: «النوب رجوع الشيء مرة بعد أخرىٰ، يقال ناب نوبًا ونوبة، وسمي النحل نوبًا لرجوعها إلىٰ مقارها، ونابته نائبة: أي حادثة من شأنها أن تنوب دائبًا، وفلان ينتاب فلانًا: يقصده مرة بعد أخرىٰ». (ا. هـ)؛ فلا مانع أن نفسر ﴿أَنَابَ﴾ بمعنىٰ رجع إلىٰ صحته، أو أمنه الذي كان عنده؛ أما حديث الغفران فقد تكفل **الفخر** بالإجابة عنه، وتستطيع أن توجه طلب الغفران بوجه آخر، وهو أن المرض الذي حل بنبي الله سليمان قد يكون ناشئًا عن تقصير كما يقع لبعض الناس الذين يفرطون في صحتهم، أو يسرفون في أعمالهم المجهدة المضنية، فإذا حل بالإنسان مرض، وكان له دخل في حلول ذلك المرض تنبه إلىٰ الخطأ الذي وقع فيه، وطلب من الله المغفرة؛ لأنَّ الله أوجب عليه أن يحفظ صحته، ويحول بينها وبين الأمراض، ولا سيما إذا كانت صحة نبي من الأنبياء، أو ملك من ملوك الأرض المصلحين، فإذا مرض فقد مرضت المملكة جميعها، وإذا سلم سلم الناس عامة.

ومثل ذلك يقال في ابتلاء الله له بتسليط خوف أو توقع بلاء، فقد يكون له يد في تسليط ذلك الخوف أو توقع البلاء، بسبب تقصير في حياطة الملك، أو إغفال لتحصين البلاد، فسلط الله عليه ذلك الخوف ابتلاء له واختبارًا، وليكون ذلك الابتلاء تعليمًا له ودرسًا نافعًا في الحياة، حتىٰ لا يقع في ذلك التقصير مرة أخرىٰ.

ومنه تستطيع أن تفهم كلمة (أناب) وهو أنه رجع إلىٰ الله، وأحس ذلك التقصير الذي وقع منه من جهة صحته، أو من جهة مملكته.

﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾، أي: ما فرط مني ممَّا سبب لي ذلك المرض أو ذلك الخوف، أو اغفر لي ما من شأنه أن يكون من مخالفة الأفضل وترك الأولىٰ.

(١٢) ﴿وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾. قدَّم طلب المغفرة علىٰ طلب الملك؛ لأنَّ مهام الدين فوق مهام الدنيا، ثم طلب من الله

مُلكًا لا يصلح لأحد من بعده لعظمته، أو لا يستطيع أحد أن يسلبه مني بعد هذه الفتنة، أو لا يتسهل لغيري من البشر: بأن يكون معجزة لي، ودليلًا علىٰ صدق ونبوّتي.

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ تهب الملك والنبوة لمن تشاء، وقد أحب أن يخصه الله بخاصية، كما خص أباه داود بإلانة الحديد، وعيسىٰ بإحياء الموتىٰ.

وقد روىٰ الشيخان أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ عفريتًا من الجن تفلت علي البارحة ليقطع صلاتي، فأمكنني الله منه، فأخذته فأردت أن أربطه إلىٰ سارية من سواري المسجد** [عمود] **حتىٰ تنظروا إليه كلكم، فذكرت دعوة أخي سليمان -﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾- فرددته خاسئًا**»[1].

﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾، أي: أجاب الله دعوته، وأعطاه سلطانًا لم يعطه لأحد من بعده من الرسل، وأول شيء من السلطان سلطانه علىٰ الريح، وقدرته عليه، فجعله يجري بأمره حيث قصد، وأنىٰ أراد، ووصف الريح بأنها رُخاء؛ أي: لينة؛ للإشارة إلىٰ أن هذه الريح التي جعلها الله عاصفة شديدة قد ألانها ولطفها لنبيه سليمان، فصارت رخاء تسير به، وتحت سلطانه إلىٰ المكان الذي يقصد، وقد وصف الله سرعتها في سورة سبأ بقوله: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾.

﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾، أي: وسخر الله له الشياطين وفيهم البنَّاء، والغوَّاص الذي يستخرج اللؤلؤ من البحر، وسخر آخرين من مردة الشياطين بقرن بعضهم مع بعض في القيود والسلاسل للتأديب والكف عن الفساد، والصفد: القيد، وربما كانت الأصفاد تمثيلًا لكف شرهم وحبسهم حبسًا يناسب أجسامهم النارية.

﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، أي: هذا الذي أعطيناك من الملك والمال والبسطة عطاؤنا، فأعطِ منه ما شئت؛ من المنة، وهي العطاء ﴿أَوْ أَمْسِكْ﴾ عن العطاء ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ حال من ﴿عَطَآؤُنَا﴾، أي: هو عطاء كثير لا يكاد يقدر علىٰ عدة ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾، أي: ذلك عطاؤنا إياه في الدنيا،

---

(١) رواه البخاري: (٣٤٢٣).

وله عندنا فوق ذلك الحظوة وحسن المرجع، وهو الجنة، ولعله اكتفىٰ بهذه عن أن يقول قد أجبنا دعوته بطلب المغفرة؛ لأنَّ من له عند الله الحظوة وحسن المرجع هو مغفور الذنب، ويلفتنا بالسكوت عن غفران ذنبه إلىٰ أنه لم يكن هناك ذنب لسليمان كذنوب عامة الناس، وإنَّما هو ظن منه واحتياط كظن داود، فاستغفر لذلك ربه فغفر الله له.

دعوة عيسى[1] إلى الله -تعالى-

﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ

---

(١) عيسىٰ ﷺ هو خاتمة عقد الأنبياء السابقين، وقد ذكر باسمه (عيسىٰ = ١٠ مرات)، وبنسبته لأمه (ابن مريم = مرتان)، وباسمه ونسبته معًا (عيسىٰ ابن مريم = ١٥ مرة)، وبوصفه (المسيح ٣ مرات)، وبوصفه مع نسبته (المسيح ابن مريم = ٥ مرات)، وجمع بين اسمه ونسبته ووصفه (المسيح عيسىٰ ابن مريم = ٣ مرات) وبذلك يكون قد ذكر (٣٥ مرة).

والآيات التي تتحدث عن عيسىٰ ﷺ تتوزع في المحاور الآتية:

١- الحديث عن خلق عيسىٰ، وتبشير أمه به، واعتبار خلقه آية ومثلًا.

٢- الحديث عن علاقته مع قومه، وتكذيب بني إسرائيل له، وما آل إليه الأمر من الغدر به، وإنقاذ الله له، ورفعه.

٣- الحديث عما أوتيه عيسىٰ من بينات وكتاب ونعم، والمهمة التي كلف بها في بعثه لبني إسرائيل.

٤- نقد ما آلت إليه دعوة عيسىٰ علىٰ يد أتباعه من غلو في شخصية عيسىٰ وتحريف تعاليمه، والتأكيد علىٰ بشرية عيسىٰ وكونه مجرد رسول .

٥- التأكيد علىٰ كون عيسىٰ رسولًا كأي واحد من الرسل ينبغي الإيمان بهم جميعًا دون تفضيل، وكون ما جاء به يتشابه مع ما جاء به الأنبياء.

ويلاحظ في الخطاب القرآني حول عيسىٰ ﷺ تركيزه علىٰ محاور ثلاثة:

المحور الأول: يرتبط بعلاقة المسيح برافضي دعوته من اليهود في حياته ومحرفيها من بعده، والجانب التاريخي هذا يتمحور حول الصراع العقدي الذي تؤول فيه الآيات إلىٰ التأكيد علىٰ الحق الذي جاء به المسيح، واختُلف فيه.

المحور الثاني: يرتبط بشخص المسيح بدءًا من أمه مريم، وولادته الخاصة، مرورًا بما أيده الله من معجزات، انتهاءً بمصيره الذي نجاه الله به من كيد المناوئين له.

المحور الثالث: السياق الرسالي الذي تتزل فيه دعوة عيسىٰ ﷺ بين مختلف الرسل الذين ارسلهم الله قبله مع الربط بالرسول الخاتم صلوات الله وسلامه عليه.

انظر: رسالات الأنبياء: (١٧٢)، (١٨٢).

وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ
﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ
أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا
إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ
ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ(١) وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ
ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ
﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ
وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا
صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ
ٱلْحَوَارِيُّونَ(٢) نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ
أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟(٣) وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ
ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ
فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ
وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَٱللَّهُ
لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْأَيَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ
عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن
مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥-٦٠].

* شرح وعبرة:

(١) ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ يتعلق بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ﴾، أي: إنَّ الله -تعالىٰ- أرسل الملائكة للسيدة مريم تبشرها بأن الله اصطفاها وطهرها في الوقت الذي بشرت فيه

(١) الذي يولد مطموس العين.

(٢) أصحاب عيسىٰ وخواصه.

(٣) دبروا في خيفة.

بالمسيح عليه السلام، والمراد بلفظ ﴿كَلِمَةٍ﴾ كلمة البشارة لأمه، والبشارة الإخبار، ويدل له قوله -تعالىٰ-: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ يعني بشرىٰ الله مريم بعيسىٰ أخبرها بها ﴿وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ صاحب وجاهة ومكانة في الدارين ﴿ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾، وهو مع وجاهته من المقربين إلىٰ الله ﷻ ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ يكلم الناس في طفولته وفي شيخوخته، وفيه بشارة بأنه سيعيش إلىٰ أن يكون رجلًا سويًّا كاملًا.

﴿وَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ الذين أنعم الله عليهم وأصلح حالهم ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ﴾ تعجب من مريم من تلك البشارة ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ مثل ذلك الخلق البديع يخلق الله ما يشاء لا يعجزه شيء ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ تمثيل لكمال قدرة الله -تعالىٰ- ونفوذ مشيئته، وتصوير لسرعة حصول ما يريد بطاعة المأمور القادر علىٰ العمل للآمر المطاع ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ من جملة ما بشرت به مريم ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، أي: ويرسله رسولًا إلىٰ بني إسرائيل ﴿أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، أي: محتجًّا علىٰ رسالته بأنه قد جاء الناس بآية من الله تدل علىٰ صدقه، والمراد بالآية الجنس وهو يصدق بالآيات المتعددة.

ثم سرد الآيات فقال: ﴿أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ وهو إخبار من الله -تعالىٰ- أن أعطاه ذلك السر، وهو أن يصور من الطين كهيئة الطير فينفخ في هذه الصورة فيكون طيرًا، ويبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتىٰ. وقوله ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي بتيسيره وإعانته، لا بقدرة عيسىٰ ولا بكسبه؛ لأنَّ ذلك شأن الآيات التي يؤيد الله -تعالىٰ- بها رسله.

وقد امتن الله -تعالىٰ- علىٰ نبيه عيسىٰ عليه السلام بهذه النعم؛ إذ يقول: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى﴾ [المائدة: ١١٠]، والظاهر من ذلك الامتنان وقوع هذه الآيات، وقوله: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ﴾، فالمراد: أنَّ في

استطاعتي أن أخبركم بخاصة أمركم التي لا يعلمها سواكم، وهي أقل آيات عيسىٰ عليه السلام، وقد أعطاها الله لمن دون الأنبياء.

ثم عقب ذلك كله بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فيه علامة واضحة علىٰ صدق عيسىٰ فيما يخبر به عن الله -تعالىٰ-، إن كنتم مؤمنين انتفعتم بهذه الآيات واعتبرتم بها، ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾، أي: وسيرسلني الله مصدقًا لما بين يدي من كتاب التوراة التي أنزلها علىٰ موسىٰ، فهي تعتبر شريعة له كما كانت شريعة لموسىٰ: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾، فقد كان حرم علىٰ بني إسرائيل بعض الطيبات بظلمهم وكفرهم فأحلها عيسىٰ، وهو نسخ لبعض أحكام التوراة الفرعية: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ ذلك من تمام البشارة؛ أي: وسأقول لهم بعد هذه الآيات: اتقوا الله وأطيعون؛ فإنَّه ربي وربكم، فاعبدوه وحده، هذا صراط مستقيم لا عوج فيه ولا أمت.

(٢) ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾ ... إلخ انتقال من البشارة بعيسىٰ عليه السلام إلىٰ ذكر خبره مع قومه، وطوىٰ القرآن ما بينهما من خبر ولادته ونشأته وبعثه مؤيدًا بتلك الآيات، وهو من إيجاز القرآن الذي تفرد به، وكأنه يقول: فلما ولد عيسىٰ وتربىٰ وبعث، وأحس من قومه الكفر ﴿قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ ... إلخ؛ أي: فلمَّا شعر عيسىٰ من قومه بني إسرائيل الكفر والعناد والمقاومة، والقصد بالإيذاء= توجه بالبحث عن أهل الاستعداد الذين ينصرونه في دعوته منخلعين عما كانوا فيه، منزوين إلىٰ الله، منصرفين إلىٰ تأييد رسوله ونصره علىٰ خاذليه.

وجدير بكل من يدعو إلىٰ الله ويحس من قومه ذلك الإحساس أن يبحث عن القوم الذين يشاركونه في العقيدة، ويعتنقون معه الإسلام حتىٰ ينتصر بهم علىٰ من عداهم، ويأمن كيد الكائدين وبطش الباطشين، وحتىٰ يكونوا حزبًا له يأمنهم ويأمنونه، ويسارهم ويسارونه ويتشاور معهم في كل خطوة يخطوها وكل عمل يقوم به، وقد يظن الإنسان عدوه ناصرًا له في دين الله فيخذله عند حاجته إلىٰ النصر، لذلك كان من الحزم تحسس ذلك النوع من الأنصار، والوقوف علىٰ جلية

أمره، حتىٰ إذا جهدَتهم الشدائد ولعبت بهم الفتن كانوا كالجبال ثباتًا وقوة، والله ما أحلىٰ هذه الكلمة، وما أرطبها علىٰ قلوب المؤمنين حينما يوجهها لهم رسول من رسل الله كعيسىٰ عليه السلام: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾؟ إنَّها لتهز القلوب إلىٰ الله هزًّا، وتحركها إلىٰ مولاها وخالقها، وتري المستمع لها أن رسل الله لم يكن لهم حظ من الدعوة سوىٰ أن يصدعوا بأمر ربهم، وينصاعوا لنصرة خالقهم، ولم يطلبوا الناس ليؤدوا لهم عملًا يعود نفعه علىٰ شخصهم فحسب، وإنَّما يدعون الناس ليجيبوا داعي الله ويصلحوا في الأرض، وكان علىٰ الناس أن تفطن لمثل ذلك، ولكن العناد غلب عليهم، والتقاليد طمست علىٰ قلوبهم.

﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ قد انخلعنا من تقاليدنا القديمة، وأخذنا بتعليم عيسىٰ عليه السلام، وبذل منتهىٰ الطاعة في تأييده، فإن نصر الله لا يكون إلا بذلك، قيل لفظ الحواري مأخوذ من الحُوَّارىٰ -بضم الحاء، وتشديد الواو- وهو لباب الدقيق وخالصه لأنَّه من خيار القوم وصفوتهم، وفي حديث الصحيحين «**لكل نبي حواريّ، وحواريِّي الزبير**»[1]، ومن هنا قيل هو خاص بأنصار الأنبياء ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ مخلصون له منقادون لأمره، وفي الآية دليل علىٰ أنَّ الإسلام دين الله علىٰ لسان كل نبي، وإن اختلفوا في بعض صوره وأشكاله، وأحكامه وأعماله ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ صدقنا بما أنزلت من الإنجيل بعد تصديقنا بك، واتبعنا الرسول عيسىٰ ابن مريم عليهما السلام، وقد أضافوا إلىٰ الإيمان العمل؛ لأنَّه أثره ونتيجته، وبرهانه الذي يدل عليه، كما قال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]، ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ للرسول بتبليغ الدعوة، وعلىٰ قومه بما كان منهم من الكفر والجحود.

(٣) ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ دبروا قتل عيسىٰ عليه السلام خفية، ودبر الله نجاته من حيث لم يحتسبوا، فكان مكر الله خيرًا من مكرهم؛ لأنَّهم دبروا للشر، والله -تعالىٰ- دبر للخير، فإنَّما يدبر لإقامة السنن وإتمام الأحكام، وكلها خير في نفسها، أما مكرهم فكان سيئًا، وإن كان المكر في نفسه

(١) رواه البخاري: (٣٧١٩)، ومسلم: (٢٤١٥). (عمرو)

فيه الحسن والسيء، ولذلك يقول: ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣]، ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، أي: مكر الله بهم؛ إذ قال لنبيه: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾، قيل: معناه مستوفي أجلك، ومعناه أني عاصمك من أن يقتلك الكفار، ومؤخرك إلىٰ أجل كتبته لك، ومميتك حتف أنفك، لا قتلًا بأيديهم ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ إلىٰ سمائي ومقر ملائكتي ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ من سوء جوارهم وخبث صحبتهم، وقيل متوفيك: قابضك من الأرض، وقيل: مميتك في وقتك بعد النزول من السماء ورافعك الآن، والمراد أن الله -تعالىٰ- لا يسلط الكفار عليه فيقتلوه وسيهدم عليهم مكرهم ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ هي فوقية روحانية دينية، وهي كونهم أحسن أخلاقًا وأكمل آدابًا وأقرب إلىٰ الحق والفضل.

ثم بعد ذلك قال: إنَّ مرجع الجميع إلىٰ الله -تعالىٰ- وهو الذي سيحكم بينهم فيما اختلفوا فيه فيعطي كل فريق جزاءه ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ . . . إلخ.

بعد أن بين خلق عيسىٰ ومجيئه بالآيات، وما كان من أمر قومه معه كشف لنا شبهة المفتونين بخلقه علىٰ غير السنة المعتادة والمحاجين فيه بغير علم، فقال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ صفته في خلق الله إياه علىٰ غير مثال سابق كصفة آدم في ذلك، ثم فسر ذلك المثل بقوله: ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ قدر أوضاعه، وكوَّن جسمه من تراب؛ حيث أصابه الماء فكان طينًا لازبًا فيه لزوجة، ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ كوّنه تكوينًا آخر بنفخ الروح فيه؛ أي ثم قال له كلمة التكوين، التي تتألف من ﴿كُن فَيَكُونُ﴾، فهل يعزّ علىٰ صاحب هذه المشيئة أن يخلق عيسىٰ من غير أب؟ ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾، أي: ذلك هو الحق الذي لا شك فيه من ربك، ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ بعد بيان الله -تعالىٰ-.

عيسى عليه السلام

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾

[المائدة: ٧٢-٧٥].

* شرح وعبرة:

(١) ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ ... إلخ.

قد كانت عقيدة التثليث شائعة عند براهمة الهند والبوذيين، وقدماء المصريين، وبعض الفرس ثم انتقلت من البراهمة والبوذيين وقدماء المصريين إلىٰ النصارىٰ، أما كتب العهد القديم والجديد فلا يوجد فيهما ما يصلح أصلًا لهذه العقيدة الوثنية، بل وجد في الأناجيل ما يدل علىٰ التوحيد الخالص، وقد اختلف المفسرون في أنه هل كان يوجد في النصارىٰ فرق ثلاثة: فرقة تقول: إن الله هو المسيح، وأخرىٰ تقول: إن الله ثالث ثلاثة فيها المسيح، وثالثة تقول: المسيح ابن الله، أوهي فرقة واحدة تقول: إن هناك أقانيم ثلاثة، وإن كلَّ واحد منها عين الآخر، فالآب عين الابن، وعين روح القدس.

ولما كان المسيح هو الابن كان عين الأب وعين روح القدس، فذهب **ابن جرير**[1] إلىٰ أن الذي كان عليه جماهير النصارىٰ قبل أن يفترقوا إلىٰ يعقوبية وملكانية ونسطورية أنَّ الإله القديم جوهر واحد يعم ثلاثة أقانيم: أبًا والدًا غير مولود، **وابنًا** مولودًا غير والد، **وزوجًا** متتبعة لهما، وأن الذين يقولون: إن آلهتهم ثلاثة هم غير الفرقة التي تقول: إن الله هو المسيح ابن مريم، وأن فرقة ثالثة تقول: إن المسيح هو ابن الله، وليس هو الله ولا ثالث ثلاثة.

وكلام **ابن جرير** يظهر أنه حق في متقدمي النصارىٰ، أما متأخروهم؛ فإنَّهم يقولون بالأقانيم الثلاثة، وأن كل واحد منها عين الآخر، فإذا قال الله -تعالىٰ-: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ كان منطبقًا عليهم؛ لأنَّهم قائلون باتحاد كل أقنوم مع غيره من الأقانيم، وإذا قال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ كان كذلك؛ لأنَّه ثالث أقانيم ثلاثة، وإذا قال: إنَّ النصارىٰ قالت ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ كان ذلك حقًّا.

والقرآن يرينا أنَّهم كفروا بكل فرية من هذه المفتريات وأشركوا، كفروا بادعائهم اتحاد الله مع عيسىٰ، وادعائهم بنوَّة عيسىٰ ﷺ لله -تعالىٰ-، وادعائهم أن الله ثالث ثلاثة فيهم عيسىٰ، ولذلك عقب قوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾، بقوله: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾، وعقب قوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ بقوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾.

فكل هذه الأقوال ناقضة للتوحيد مقتضية للكفر، وهو ما عليه مذاهب نصارىٰ اليوم حتىٰ «البروتستانت»[2] الذين أصلحوا النصرانية منذ ثلاثة قرون،

---

(١) تفسير الطبري: (٨/ ٢٦١)، (٨/ ٥٨٠). (عمرو)

(٢) فرقة من النصرانية احتجوا علىٰ الكنيسة الغربية باسم الإنجيل والعقل. وتسمىٰ كنيستهم بالبروتستانتية حيث يعترضون (Protest) علىٰ كل أمر يخالف الكتاب وخلاص أنفسهم. وتسمىٰ بالإنجيلية أيضًا حيث يتبعون الإنجيل دون سواه، ويعتقدون أن لكل قادر الحق في فهمه، فالكل متساوون ومسؤولون أمامه.
والكنيسة البروتستانتية حركة إصلاحية بدأت في الكنيسة الكاثوليكية في القرن السادس عشر متأثرة بدعوات الإصلاح السابقة لها، ومن ثَمّ تحولت من حركة إصلاحية داخل الكنيسة إلىٰ حركة عقائدية =

والذين لم يستطيعوا أن يردوا النصرانية إلىٰ أصلها من التوحيد الصحيح، ولا يزالون يقولون بألوهية المسيح، وبالتثليث، ويعدون الموحد غير مسيحي، كما يقول بذلك الفرقتان الأخريان الكبيرتان من فرق النصارىٰ، وهم: الكاثوليك[1]،

= مستقلة ومناهضة لها. ومن أبرز المؤسسين: (مارتن لوثر - جون كالفن).

تؤمن الكنائس البروتستانتية بنفس أصول المعتقدات التي تؤمن بها الكنيسة الكاثوليكية. ولكنها تخالفها في بعض الأمور. ومنها ما يلي:

الخضوع لنصوص الكتاب المقدس وحده، حيث إن الكتاب المقدس بعهديه هو دستور الإيمان وعليه تقاس قرارات المجامع السابقة وأوامر الكنيسة: فيقبل ما يوافقه فقط. يقول لوثر: «يجب أن يكون الكتاب المقدس مرجعنا الأخير للعقيدة أو أداء الشعائر».

كما لا تؤمن الكنائس البروتستانتية بعصمة البابا أو رجال الدين. وتهاجم بيع صكوك الغفران حيث ترىٰ أن الخلاص والفوز في الآخرة لا يكون إلا برحمة الله وكرمه وفي الدنيا في الالتزام بالفرائض والكرازة -التبشير بالإنجيل.

وترفض البروتستانتية مرتبة الكهنوت حيث إن جميع المؤمنين بها كهنة. وليس هناك وسيط ولا شفيع بين الله والإنسان سوىٰ شخص المسيح لأنه جاء في معتقدهم رئيسًا للكهنة. كما لا تؤمن بالبخور والهيكل.

ويعتقد بعض الباحثين أن الإصلاحات التي نادت بها حركة الإصلاح ونتج عنها البروتستانتية قد تأثرت بالإسلام.

وتنتشر الكنائس البروتستانتية في: ألمانيا، هولندا، بريطانيا، الولايات المتحدة الأمريكية، سويسرا، الدنمارك. وتوجد أقليات بروتستانتية في باقي الدول الأخرىٰ.

وعلىٰ اية حال: لا تختلف الكنائس البروتستانتية عن باقي الكنائس النصرانية سواء في الإيمان بإله واحد مثلث الأقانيم الأب، الابن، الروح القدس تثليث في وحدة، أو وحدة في تثليث، حسب افترائهم.

أو في الإيمان في عقيدة الصلب والفداء وتقديس الصليب.

انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب: (٢/ ٦١٥-٦٢٥). (عمرو)

(١) أكبر الكنائس النصرانية في العالم، وتدعي أنها أم الكنائس ومعلمتهن. يزعم أن مؤسسها بطرس الرسول. وتتمثل في عدة كنائس تتبع كنيسة روما وتعترف بسيادة بابا روما عليها، وسميت بالكنيسة الغربية أو اللاتينية لامتداد نفوذها إلىٰ الغرب اللاتيني خاصة.

وتؤمن الكنيسة الكاثوليكية مثل باقي الكنائس الأخرىٰ بإله واحد مثلث الأقانيم: الأب. الابن. الروح القدس. علىٰ حسب ما ورد في قانون الإيمان النيقاوي لعام (٣٢٥ م) كما تؤمن بأن للمسيح طبيعتين بعد الاتحاد: إحداهما لاهوتية، والأخرىٰ ناسوتية. ويؤمن الكاثوليك بما أقر في مجمع القسطنطينية الرابع عام (٨٦٩ م) من أن الروح القدس منبثق من الأب والابن معًا.

ويعتقد الكاثوليك أن أقنوم الابن أقل من أقنوم الأب في الدرجة. وأن الأقانيم ما هي إلا مراحل انقلب فيها الله إلىٰ الإنسان، ولذا فهي ذوات متميزة يساوي فيها المسيح الأب حسب لاهوته وهو دونه حسب ناسوته.

ويؤمنون بتجسُّد الله -تعالىٰ عن قولهم- في السيد المسيح من أجل خلاص البشرية من إثم خطيئة آدم =

والأثوذكس[1]؛ فجميع فرق النصارىٰ في هذا العصر تقول: إن الله هو المسيح

= وذريته من بعده، فيعتقدون أنه وُلد من مريم وصلب ومات فداءً لخطاياهم، ثم قام بعد ثلاثة أيام ليجلس علىٰ يمين الرب ليحاسب الخلائق يوم الحشر.

وغير ذلك من العقائد المحرفة.

وتتميز الكنيسة الكاثوليكية باستعمال اللغة اللاتينية، والبخور، والصور، والتقويم الخاص بها.

والتنظيم الكهنوتي «الإكليروس»، كالآتي: يدير البابا الكنيسة بواسطة كرادلة في روما ومطارنة في جميع أنحاء العالم.

وتنقسم الكنيسة عند الكاثوليك إلىٰ أبروشيات علىٰ رأس كل أبروشية مطران يعينه البابا، وفي كل أبروشية عدة كنائس يديرها كهنة رعاة لخدمة أبناء الكنيسة.

والجماعات الدينية المكونة من الرهبان والراهبات تخضع لبابا روما عن طريق رؤسائها الموجودين في روما.

وتنتشر في أوروبا: إيطاليا، فرنسا، لتوانيا، بولندا، سلوفاكيا، المجر، كرواتيا، بلجيكا، أسبانيا، البرتغال، أيرلندا، كندا الفرنسية، أمريكا اللاتينية، الفلبين، وجنوب شرق آسيا.

وهناك أقليات في الولايات المتحدة الأمريكية، وهولندا، وألمانيا، وبعض دول أفريقيا.

انظر: الموسوعة الميسرة: (٢/ ٦٠٠-٦١٤). (عمرو)

(١) هي أحد الكنائس الرئيسية الثلاث في النصرانية، وقد انفصلت عن الكنيسة الكاثوليكية الغربية بشكل نهائي عام ١٠٥٤م، وتمثَّلت في عدة كنائس مستقلة لا تعترف بسيادة بابا روما عليها، ويجمعهم الإيمان بأن الروح القدس منبثقة عن الأب وحده وعلىٰ خلاف بينهم في طبيعة المسيح، وتُدعىٰ أرثوذكسية بمعنىٰ مستقيمة المعتقد مقابل الكنائس الأخرىٰ، ويتركَّز أتباعها في المشرق ولذا يطلق عليها الكنيسة الشرقية.

في نهاية القرن التاسع الميلادي، وبالتحديد بعد انقضاء مجمع القسطنطينية الخامس عام (٨٧٩م)، أصبح يمثل الأرثوذكسية كنيستان رئيسيتان:

* الكنيسة الأرثوذكسية المصرية أو القبطية، والمعروفة باسم الكنيسة المرقسية الأرثوذكسية أو كنيسة الإسكندرية، التي تؤمن بأن للمسيح طبيعة واحدة ومشيئة واحدة، وتضم كنائس الحبشة والسودان، ويوافقها علىٰ ذلك كنائس الأرمن واليعقوبية.

* الكنيسة الأرثوذكسية أو كنيسة القسطنطينية، والمعروفة باسم كنيسة الروم الأرثوذكس أو الكنيسة الشرقية، تخالف الكنيسة المصرية في طبيعة المسيح بينما توافق الكنيسة الكاثوليكية الغربية بأن للمسيح طبيعتين ومشيئتين، ويجمعها مع الكنيسة المصرية الإيمان بانبثاق الروح القدس عن الأب وحده، وتضم كنائس أورشليم واليونان وروسيا وأوروبا الشرقية.

وتؤمن الكنيسة الأرثوذكسية مثل باقي الكنائس الأخرىٰ بإله واحد مثلث لأقانيم: الأب، الابن، الروح القدس علىٰ حسب ما ورد في قانون الإيمان النيقاوي (٣٢٥م).

كما تؤمن بربوبية وألوهية الرب والمسيح في آن واحد علىٰ أنهما من جوهر واحد ومشيئة واحدة، ومتساويين في الأزلية، لكن كنيسة أورشليم الأرثوذكسية اليونانية ومن يتبعها تؤمن بأن المسيح له طبيعتان ومشيئتان موافقةً لمجمع كليدونية (٤٥١م). =

ابن مريم، وإن المسيح هو الله، -تعالىٰ- الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

والتثليث عند النصارىٰ عقيدة يخبط فيها جهلاؤهم ويتحير علماؤهم، ثم ينتهون إلىٰ الاعتراف بأنَّهم يعتقدون ولا يفهمون، ويكلفون بها الناس ولا يستطيعون إقناعهم بها، وسأذكر لك قصة من كتاب «**إظهار الحق**»(١) لرحمت الله الهندي يقول فيها: تنصّر ثلاثة أشخاص، وعلّمهم بعض القسيسين عقيدة التثليث، وكانوا في خدمة القسيس، فجاء محب من أحباء هذا القسيس، وسأله عمن تنصر، فقال: ثلاثة أشخاص تنصروا، فسأل هذا المحب هل تعلموا شيئًا من العقائد الضرورية فقال: نعم، وطلب واحدًا منهم ليري صاحبه، فسأله عن عقيدة التثليث فقال: إنك علمتني أن الله ثلاثة، أحدهم الذي في السماء، والثاني

= ويؤمن الأرثوذكس بالزيادة التي أضيفت علىٰ قانون الإيمان النيقاوي في مجمع القسطنطينية عام (٣٨١م) التي تتضمن الإيمان بالروح القدس الرب المحيي والمنبثق من الأب وحده، فله طبيعته وجوهره، وهو روح الله وحياة الكون ومصدر الحكمة والبركة فيه.

- يعتقد الأرثوذكس الأقباط أن الأقانيم الثلاثة ما هي إلا خصائص للذات الإلهية الواحدة، ومتساوية معه في الجوهر والأزلية، ومنزَّهة عن التأليف والتركيب، لكن الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية ومن تبعها تعتبر أقنوم الابن أقل من أقنوم الأب في الدرجة، ولذلك فهي عند اليونان مراحل انقلت فيها الله إلىٰ الإنسان.

- الإيمان بتجسُّد الإله في السيد المسيح من أجل خلاص البشرية من إثم خطيئة آدم، وذريته من بعده، فيعتقدون أنه وُلد من مريم وصلب ومات فداءً لخطاياهم، ثم قام بعد ثلاثة أيام ليجلس علىٰ يمين الرب ليحاسب الخلائق يوم الحشر.

ويؤمنون بأن السيدة مريم العذراء والدة الإله، ولذا يوجبون تقديسها كما يقدسون القديسين، والأيقونات غير المجسمة، وذخائر القديسين، ويقدسون الصليب، ويتخذونه رمزًا وشعارًا.

وتنتشر الكنائس الأرثوذكسية اليونانية في الدول التالية: تركيا، اليونان، روسيا، ودول البلقان، وجزر البحر الأبيض، والمجر ورومانيا، وتشرف كنيسة أنطاكية علىٰ بيت المقدس، كما أن لطور سيناء في مصر كنيسة مستقلة تشرف علىٰ دير سانت كاترين ومطرانها هو الأب رئيس الدير.

وينتشر نفوذ الكنيسة المصرية في مصر، ويتبعها نصارىٰ الحبشة والسودان حيث بها أقدم الكنائس التابعة لكنيسة الإسكندرية.

وفي العصر الحديث أسست الكنيسة المصرية عدة كنائس تابعة لها في كل من: كينيا، وليبيا، الجزائر، الكويت، العراق، الإمارات، دبي، أبو ظبي، البحرين، بلاد الشام، فلسطين، دير السلطان، الأردن، لبنان، أمريكا الشمالية: كندا، استراليا، وبعض دول أوروبا مثل: النمسا، وفرنسا.

انظر: الموسوعة الميسرة: (٢/ ٥٨٣-٥٩٩). (عمرو)

(١) إظهار الحق: (٣/ ٧٣٠-٧٣٢)، وهو كتاب مفيد عظيم القدر. (عمرو)

تولد من بطن مريم العذراء، والثالث الذي نزل في صورة الحمام علىٰ الإله الثاني عندما صار ابن ثلاثين سنة فغضب القسيس وطرده، وقال هذا مجهول، ثم طلب الآخر منهم وسأله فقال: إنك علمتني أنَّ الآلهة كانوا ثلاثة، وصُلِب واحد منهم، فالباقي إلهان، فغضب القسيس عليه أيضًا وطرده، ثم طلب الثالث وكان ذكيًّا بالنسبة للأولين، وحريصًا في حفظ العقائد، فسأله، فقال: يا مولاي حفظت ما علمتني حفظًا جيدًا، وفهمت فهمًا كاملًا بفضل الرب المسيح، إن الواحد ثلاثة!! والثلاثة واحد!! وصلب واحد منهم ومات، فمات الكل لأجل الاتحاد، ولا إله الآن، وإلا يلزم نفي الاتحاد. (اهـ).

قال الشيخ **رحمت الله الهندي**: لا تقصير للمسئولين؛ فإنَّ هذه العقيدة يخبط فيها الجهلاء هكذا ويتحير علماؤهم، ويعترفون بأنا نعتقد ولا نفهم، ويعجزون عن تصويرها وبيانها (اهـ)، وهكذا الباطل لا تسيغه العقول، ولا تطمئن له النفوس، ولا يستطيع صاحبه أن يقيم عليه برهانًا.

(٢) ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ ما هو إلا رسول من جنس الرسل الذين خلوا من قبله، يجري عليه ما يجري عليهم، قد جاء بآيات من الله كما جاؤوا، فلم يكن إله ولا جزء من الإله، فأمْر عيسىٰ عليه السلام محصور في الرسالة لا يتعداها إلىٰ الإلهية بحال من الأحوال ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ وأمه من الأمهات الصديقات المصطفاة لأن تكون أمًّا لعيسىٰ كما قال: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢].

وتأمل الكناية المؤدبة في قوله: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾، ومن كان كذلك كان عبدًا تجري عليه نواميس العبيد، فمن الخطأ اتخاذه إلهًا؛ لأنَّ الإله غني، وعيسىٰ وأمه محتاجان إلىٰ الطعام والشراب، ولا تجتمع ألوهية واحتياج، ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ تعجيب للنبي ﷺ أو لكل من يتأتىٰ منه النظر لهؤلاء القوم بين لهم الله آياته واضحة، دالة علىٰ وحدته وقدرته، ثم هم مع ذلك يصرفون عن الحق بعد البيان الواضح.

عيسى عليه السلام

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٠-١١٨].

* شرح وعبرة:

(١) يذكِّر الله -تعالىٰ- نبيه عيسىٰ ﷺ نعمته عليه وعلىٰ والدته مريم؛ إذ أيده بروح القدس، وهو جبريل ﷺ لأنَّه الملك الذي يؤيد الله -تعالىٰ- به رسله بالتعليم الإلهي والتثبيت في المواطن التي من شأن البشر أن يضعفوا فيها، قال -تعالىٰ- في شأن القرآن: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ١٠٢]، وكان كلامه في المهد والكهولة نعمة علىٰ والدته؛ لأنَّه برّأها بذلك القول من كلام الآثمين الذين أنكروا عليها أن يكون لها غلام بدون أب، أما كونه نعمة عليه فظاهر، فمن كلامه في المهد: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ۝٣٠ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝٣١ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم: ٣٠-٣٢].

أمَّا كلامه كهلًا فهو كلامه بعد الرسالة وإقامته الحجة علىٰ خصومه وأعدائه ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ يذكره بنعمته عليه بتعليمه الكتاب، والمراد به ما يكتب أي علمتك قراءة الكتاب؛ أي: ما يكتب، أو علمتك الكتابة بالقلم، ووفقتك لتعلمها ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ هي العلم الصحيح الذي يبعث الإرادة إلىٰ العمل النافع، بما فيه من الإقناع والعبرة، والبصيرة وفقه الأحكام، والتوراة هي الشريعة الموسوية.

ومنه تعلم أن التوراة كانت شريعة لعيسىٰ ﷺ، كما كانت شريعة لموسىٰ قبله، والإنجيل: ما أوحاه الله إليه من الحكم والأحكام والبشارة بخاتم الرسل -عليه الصلاة والسلام-، وجعل هذه النعم قسمًا مستقلًا وفصلها بكلمة؛ ﴿إِذْ﴾ لأنَّها نوع آخر من النعم يخالف النوع السابق؛ إذ كان النوع السابق إنعامًا علىٰ نبي الله عيسىٰ وعلىٰ أمّه ببراءتها من الفاحشة التي رماها بها الأفاكون، أما هذه فهي نعم ترجع إلىٰ تعليم الله -تعالىٰ- له الكتابة والعلم النافع، وشريعة التوراة وكتاب الإنجيل.

﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ﴾ ... إلخ انتقال إلىٰ نوع آخر من النعم وهو نعمته عليه بالخوارق والمعجزات، والخلق في أصل اللغة: التقدير، وجعل الشيء

بمقدار معين، يقال خلق الإسكافي النعل ثم فراه؛ أي عين شكله ومقداره ثم قطعه، قال الشاعر:

ولأنت تفري ما خلقت وبعـ ض القوم يخلق ثم لا يفري

يريد إذا قدرت شيئًا وأعددته أمضيته ولم تردد فيه، وبعض القوم يقدر ثم لا ينفذ ما أراد، والمعنىٰ اذكر نعمتي عليك؛ إذ تجعل قطعة من الطين مثل هيئة الطير في شكلها ومقادير أعضائها فتنفخ فيها بعد ذلك فتكون طيرًا بإذن الله ومشيئته، أو بتسهيله وتكوينه، فأنت تفعل التقدير والنفخ، والله هو الذي يكوّن الطير، و﴿ٱلْأَكْمَهَ﴾ من ولد أعمىٰ، ويطلق علىٰ من عمي بعد الولادة، وإخراج الموتىٰ إحياؤها، وقد صرح بذلك في آية آل عمران، وكرر كلمة ﴿بِإِذْنِى﴾ عقب كل معجزة حتىٰ لا تنسىٰ أن هذه المعجزات ليست من صنع عيسىٰ ﷺ، بل هي من صنع الله -تعالىٰ- علىٰ يد رسوله شأن سائر المعجزات ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ﴾ . . . إلخ انتقال إلىٰ نعمة أخرىٰ وهي حمايته من بني إسرائيل عندما أرادوا قتله وصلبه، وكان ذلك الذي أرادوه في الوقت الذي جاءهم فيه بالآيات الواضحة الدالة علىٰ صدقه في دعوىٰ الرسالة، فقال الكافرون منهم إن الذي جاء به من المعجزات هو من جنس السحر، والتمويه الذي يري الشيء علىٰ خلاف حقيقته.

(٢) ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ يذكر نبيه عيسىٰ ﷺ بنعمة أخرىٰ عليه: هي إلهامه الحواريين الإيمان به وبرسوله عيسىٰ وتوفيقه لهم لذلك الإيمان، في الوقت الذي كذَّب فيه جمهور بني إسرائيل، فجعل الحواريين أنصارًا له يؤيدون حجته، وينشرون دعوته، والحواريون جمع حواري، وهو من خلص لك، وأخلص سرًّا وجهرًا في مودتك، وقيل: ﴿أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾ أنزلت علىٰ أنبيائهم أطالبهم بالإيمان بي وبرسولي، فأجابوا داعي الله -تعالىٰ- وقالوا: آمنا واشهد بأننا مسلمون، مذعنون لما يترتب علىٰ الإيمان من الأمر والنهي، وقد حكىٰ الله عنهم في سورتي آل عمران والصف أنَّهم حين قال لهم المسيح: ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ قالوا: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾.

﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، أي هل يرضىٰ ربك ويختار أن ينزل علينا مائدة من السماء إذا نحن سألناه، أو سألته لنا ذلك؟ والمائدة: الخوان الذي عليه الطعام.

﴿قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، أي: قال عيسىٰ لهم: اتقوا الله أن تقترحوا أمثال هذه الاقتراحات التي كان سلفكم يقترحها علىٰ موسىٰ، لئلا تكون فتنة لكم، فإن من شأن المؤمن الصادق ألا يجرب ربه باقتراح الآيات، أو أن يعمل ويكسب، ولا يطلب من ربه أن يعيش بخوارق العادات، وعلىٰ غير السنن التي جرت عليها معايش الناس ﴿قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا﴾ ... إلخ؛ أي نحن نطلبها لأنَّنا في حاجة إلىٰ الطعام، أو نريد أن نأكل منها أكل تبرك، ونريد أن تطمئن قلوبنا بمشاهدة خرق الله -تعالىٰ- للعادة، فنضم علم المشاهدة إلىٰ علم النظر والاستدلال، ونعلم بهذه المشاهدات أُن قد صَدَقْتَنا فيما وعدتنا من ثمرات الإيمان كاستجابة الدعاء ولو بخوارق العادات، وأن نكون من الشاهدين علىٰ هذه الآية عند بني إسرائيل، فيؤمن المستعد للإيمان، ويزداد الذين آمنوا إيمانًا.

ذلك كله علىٰ القول بأن الحواريين بقوا علىٰ إيمانهم بعيسىٰ ﵇، وأن الطلب كان بحسن نية، فلم يكن تعنتًا منهم، ولا إحراجًا لعيسىٰ باقتراح آية المائدة، ويكون قول عيسىٰ ﵇ لهم ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ تذكيرًا لهم بآثار الإيمان وثمرته، وهي أنهم لا يقترحون علىٰ الرسول آيات، وإنما يكتفون بما أيَّد الله به رسوله.

أمَّا إذا قلنا إنَّهم آمنوا بادئ الأمر بعيسىٰ إيمانًا صوريًّا، وقالوا: نحن أنصار الله، ثم كفروا بعيسىٰ بعد ذلك باقتراح الآيات كما كان يقترحها كفار قريش علىٰ رسول الله ﷺ فيما حكاه الله عنهم في سورة الإسراء: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٣]، وكما حكاه الله عنهم في سورة الفرقان ﴿۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾.

إذا كان أولئك الحواريون من ذلك الصنف المتعنت تعين أن يكون وحي الله للحواريين بالإيمان مطالبتهم به من طريق الرسل، ويكون قولهم: ﴿ءَامَنَّا﴾ في أول أمرهم، أو قول نفاق وملق، وتعين أن يكون الغرض من القصة تذكيره بنفاق قومه معه، وإحراجهم له حينما سألوه مائدة من السماء، والشأن في الموائد أن تطلب من الأرض لا من السماء، وأن الله -تعالىٰ- أجابهم إلىٰ المائدة ليقطع أعذارهم، ويخلص رسوله من إعناتهم إياه، أو أنَّه أجابهم إلىٰ ذلك الطلب بشرط، وهو أن من يكفر بعد نزول المائدة يعذبه الله عذابًا لم يعذبه أحدًا من الناس، فلمَّا رأوا ذلك الشرط وعرفوا أنَّهم لا قبل لهم بالعذاب أعرضوا عن طلب المائدة، وقالوا لا حاجة لنا بها، علىٰ ما سيأتي من آراء العلماء في المائدة التي اقترحها أصحاب عيسىٰ عليه السلام.

(٣) ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ ... إلـــخ. طلب عيسىٰ من الله -تعالىٰ- إنزال المائدة، فناداه باسم الذات الجامع لمعنىٰ الألوهية والقدرة، والحكمة والرحمة وغير ذلك، فقال: ﴿ٱللَّهُمَّ﴾، ثم باسم الرب الدال علىٰ معنىٰ الملك والتدبير والتربية والإحسان خاصة، فقال: ﴿رَبَّنَآ﴾، وقد طلب من الله -تعالىٰ- أن ينزل عليهم مائدة سماوية يراها هؤلاء المقترحون بأبصارهم، وتتغذىٰ بها أبدانهم وأرواحهم، ثم وصفها بقوله: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾، وكلمة العيد تستعمل بمعنىٰ الفرح والسرور، وبمعنىٰ الموسم الديني أو المدني الذي يجتمع له الناس في يوم معين من أيام السنة للعبادة أو لشيء آخر من أمور الدنيا ﴿وَءَايَةً مِّنكَ﴾ علامة منك علىٰ حجة نبوتي ودعوتي ﴿وَٱرْزُقْنَا﴾ أي من هذه المائدة أو من غيرها ما نغذي به أجسامنا أيضًا ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ ترزق من تشاء بحساب، وترزق من تشاء بغير حساب، وقيل وارزقنا الشكر عليها.

﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وعد من الله -تعالىٰ- لعيسىٰ أن ينزلها عليهم، ولكنه رتب علىٰ هذا الوعد شرطًا أي شرط، فقال: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ﴾ ... إلخ والفاء لترتيب ما قبلها علىٰ ما بعدها، والمعنىٰ أن من يكفر منهم بعد هذه الآيات التي

اقترحوها فإن الله -تعالىٰ- يعذبه عذابًا شديدًا لا يعذب مثله أحدًا من سائر كفار العالمين كلهم، أو عالمي أمتهم الذين لم يعطوا مثل هذه الآية.

وقد اختلف مفسرو السلف في المائدة أنزلت بالفعل أولا؟ فروي عن بعضهم أنها نزلت، واختلف هؤلاء في الطعام الذي نزل -أي: علىٰ وجه المعجزة من الله- فأبهمه بعضهم، وعينه آخرون، ورجح **ابن جرير**[1] نزولها إنجازًا للوعد، وأنه كان عليها مأكول لا نعينه، وقال: إن العلم به لا ينفع، والجهل به لا يضر، وقال آخرون: إنَّها لم تنزل ألبتة، فروىٰ ليث بن أبي سليم عن مجاهد في قوله: ﴿أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ قال هو مثل ضربة الله ولم ينزل شيء، رواه ابن أبي حاتم وابن جرير، وكذلك روىٰ ابن جرير عن الحسن أنها لم تنزل، وأنه لما قيل: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قالوا لا حاجة لنا فيها، فلم تنزل، روىٰ ذلك بأسانيد صحيحة إلىٰ مجاهد والحسن.

(٤) ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ... إلخ خطاب لرسول الله ﷺ وهو عطف علىٰ قوله -تعالىٰ-: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ﴾ ... إلخ، والمعنىٰ اذكر أيها الرسول للناس يوم يجمع الله الرسل فيسألهم عمَّا أجابتهم به أممهم؛ إذ يقول لعيسىٰ:

---

(١) تفسير الطبري: (٩/ ١٣٠)، قال: «والصواب من القول عندنا في ذلك أن يقال: إن الله تعالىٰ أنزل المائدة علىٰ الذين سألوا عيسىٰ مسألته ذلك ربه. وإنما قلنا ذلك للخبر الذي روينا بذلك عن رسول الله ﷺ وأصحابه وأهل التأويل من بعدهم غير من انفرد بما ذكرنا عنه. وبعد، فإن الله تعالىٰ لا يخلف وعده ولا يقع في خبره الخلف، وقد قال تعالىٰ مخبرا في كتابه عن إجابة نبيه عيسىٰ ﷺ حين سأله ما سأله من ذلك: ﴿إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ١١٥]، وغير جائز أن يقول تعالىٰ ذكره: ﴿إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ١١٥]، ثم لا ينزلها، لأن ذلك منه تعالىٰ خبر، ولا يكون منه خلاف ما يخبر. ولو جاز أن يقول: ﴿إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ١١٥]، ثم لا ينزلها عليهم، جاز أن يقول: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ١١٥]، ثم يكفر منهم بعد ذلك فلا يعذبه. فلا يكون لوعده ولا لوعيده حقيقة ولا صحة. وغير جائز أن يوصف ربنا تعالىٰ بذلك. وأما الصواب من القول فيما كان علىٰ المائدة، فأن يقال: كان عليها مأكول. وجائز أن يكون كان سمكا وخبزا، وجائز أن يكون كان ثمرا من ثمر الجنة. وغير نافع العلم به ولا ضار الجهل به، إذا أقر تالي الآية بظاهر ما احتمله التنزيل». (عمرو)

اذكر نعمتي عليك وعلىٰ والدتك . . . إلخ، وإذ يقول له بعد ذلك: أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله؟ أي: يسأله أقالوا ذلك القول بأمر منك أم افتروه هم وابتدعوه من عند أنفسهم؟ ويعلم الله أن عيسىٰ ﷺ لم يقل لأحد اتخذني إلهًا أو اتخذ أمي إلهًا، ولكن حكمة السؤال في ذلك الوقت أن تظهر براءة عيسىٰ من الشرك، وإقامة الحجة علىٰ المشركين الذين ظلموا عيسىٰ وأمه ذلك الظلم؛ لأنَّ رسل الله جميعهم جاؤوا بالتوحيد الخالص.

ولا يليق بهم وقد آتاهم الله الكتاب والحكم والنبوة أن يقولوا للناس: كونوا عبادًا لنا من دون الله كما قال: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩، ٨٠].

وسؤاله لعيسىٰ ﷺ في الآخرة هو كسؤاله للرسل بعد أن يجمعهم ويقول لهم: ﴿مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾، فيقولون: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾، أي: إنَّك أعلم منا بمن أجاب دعوتنا ومن لم يجب، ونحن لا نعلم من الناس الذين عاصرونا سوىٰ الظاهر منهم، أما من لم يعاصرنا من الأقوام فلا نعلم من أمرهم شيئًا، أما أنت فتعلم ظاهرهم وباطنهم، وتعلم من كان في عصرنا ومن جاء بعدنا، وقوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: حال كونكم متجاوزين بذلك الاتخاذ توحيد الله وإفراده بالعباد، وهو يصدق باتخاذ إله أو أكثر مع الله -تعالىٰ-، وهو الشرك، سواء اعتقد المشرك أن هذا المتخذ ينفع ويضر بالاستقلال وهو نادر، أو اعتقد أنه ينفع ويضرّ بإقدار الله -تعالىٰ- إياه، وتفويض بعض الأمر إليه فيما وراء الأسباب، أو بالوساطة عند الله وحمله -تعالىٰ- بما له من التأثير والكرامة علىٰ النفع والضر، وهو الأكثر الذي كان عليه مشركو العرب عند البعثة كما حكىٰ الله عنهم في قوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

وقلما يوجد في متعلمي الحضر من يتخذ إلهًا غير الله متجاوزًا بعبادته الإيمان بخالق الكون ومدبره؛ فإنَّ الإيمان الفطري المغروس في غرائز البشر هو أن تدبير الكون كله صادر عن قوة غيبية لا يدرك أحد كنهها.

أمَّا اتخاذ المسيح إلهًا؛ فلأنهم قالوا: ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾، أو ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ أو ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ فيهم المسيح، ومن كانت له هذه العقيدة فقد اتخذ المسيح إلهًا من دون الله؛ أي إنَّه أشرك به، ولذلك سمىٰ الله أصحاب هذه العقائد مشركين بالله -تعالىٰ- في الألوهية التي لا تنبغي إلا لله -تعالىٰ-.

أمَّا أمه فعبادتها كانت متفقًا عليها في الكنائس الشرقية والغربية بعد قسطنطين، ثم أنكرت عبادتها فرقة البروتستانت التي حدثت بعد الإسلام بقرون، وهذه العبادة التي توجهها النصارىٰ إلىٰ مريم والدة المسيح عليه السلام منها ما هو صلاة ذات دعاء وثناء، واستغاثة واستشفاع، ومنها صيام ينسب إليها ويسمىٰ باسمها، وكل ذلك يقرن بالخضوع والخشوع لذكرها ولصورهاوتماثيلها، واعتقاد السلطة الغيبية لها التي يمكنها بها في زعمهم أن تنفع وتضر في الدنيا والآخرة بنفسها أو بواسطة ابنها.

وقد صرحوا بوجوب العبادة لها وإن لم يطلقوا عليها كلمة «**إله**»، بل يسمونها «**والدة الإله**»، ويصرح بعض فرقهم بأن ذلك حقيقة لا مجاز، والقرآن يقول هنا: إنهم اتخذوها وابنها إلهين والاتخاذ غير التسمية.

ومن النصوص الدالة علىٰ عبادة النصارىٰ لمريم قول «**الأب لويس**» في مقالة له عن الكنائس الشرقية: «إن تعبد الكنيسة الأرمنية للبتول الطاهرة أم الله لأمر مشهور»، وقوله: «قد امتازت الكنيسة القبطية بعبادتها للبتول المغبوطة أم الله».

(٥) ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ﴾ بدأ عليه السلام جوابه بتنزيه إلهه وربه ﷻ عن أن يكون معه إله، ثم انتقل من هذا إلىٰ تبرئة نفسه العالمة بالحق عن قول لا ينبغي لمثله أن يقوله، فقال: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾؛ لأنَّك أيدتني بالعصمة من مثل هذا الباطل، وهو أبلغ في البراءة من نفي ذلك القول وإنكاره إنكارًا مجردًا؛

لأنَّ نفي الشأن يستلزم نفي الفعل نفيًا مؤبدًا بالدليل، ثم أكد هذه النتيجة بحجة أخرىٰ قاطعة فقال: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾، أي: إن كان ذلك القول وقع مني فرضًا فقد علمته؛ لأنَّ علمك محيط بكل شيء، تعلم ما أسره وأخفيه في نفسي، فكيف لا تعلم ما أظهرته ودعوت إليه فعَلِمه مني غيري؟ ولا أعلم ما تخفيه من علومك الذاتية التي لا تهديني إليها بنظر واستدلال كسبي إلّا ما تظهرني عليه بوحي وهبِيّ ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ أنت المحيط بالعلوم الغيبية وحدك؛ لأنَّ علمك المحيط بكل ما كان وما يكون علم ذاتي غير منتزع من صور المعلومات، ولا مستفاد بتلقين ونظر واستدلال ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾، وهو التوحيد الخالص، وهو أمرهم بعبادتك وحدك، وإعلامهم بأنك ربي وربهم، وأنني عبد من عبادك مثلهم، لا مزيد لي عليهم إلا أنك خصصتني بالرسالة إليهم ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ كنت قائمًا عليهم أراقبهم وأشهد علىٰ ما يقولون ويفعلون، فأقر الحق، وأنكر الباطل مدة وجودي بينهم، ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾، فلما توفيتني إليك كنت أنت المراقب لهم وحدك؛ إذ انتهت مدة رسالتي فيهم، فلا أشهد عليهم، وأنا لست معهم، وأنت شهيد عليهم، وشهيد بيني وبينهم.

ولما كان المراد من السؤال الذي أجيب عنه بذلك الجواب هو إقامة الحجة التي يظهر بها عدل الله -تعالىٰ- يوم القيامة= فوض عليه السلام أمر الجزاء إليه -تعالىٰ- بحسب ما تقتضيه شهادته -تعالىٰ- وصفاته، فقال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، أي: إن تعذب أولئك الناس الذين أرسلتني إليهم، فبلغتهم ما أمرتني به من توحيدك وعبادتك وحدك، فضلَّ من ضلَّ منهم، وقالوا ما لم أقل لهم، واهتدىٰ من اهتدىٰ منهم، فلم يعبدوا معك أحدًا من دونك فإنهم عبادك وأنت ربهم، ولست أنا ولا غيري من الخلق بأرحم بهم، ولا بأعلم بحالهم، وإنَّما تجزيهم بحسب علمك بظواهرهم وبواطنهم، فأنت أعلم بالمؤمن الموحد، والمشرك المثلث، والطائع الصالح، والعاصي الفاسق، والمقر للكفر والفسق والمنكر لهما، ولا تظلم أحدًا مثقال ذرة.

فالمراد إذًا: إن تعذب فإنما تعذب من يستحق التعذيب منهم، ولا يمنع إرادة هذا المعنىٰ إطلاق الضمير الراجع إلىٰ جملتهم؛ فإنَّه ضمير الجنس الذي يصدق ببعض الأفراد، وهو لم يرد بصيغة العموم، ولذلك أطلقه في المقابل، وهو قوله: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ ... إلخ؛ أي: إن تغفر فإنما تغفر لمن يستحق المغفرة منهم ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾ القوي الغالب علىٰ أمره ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في جميع تصرفه وصنعه فيضع كل حكم وجزاء في موضعه، وهو أعلم بموضع العدل، وموضع الرحمة والفضل، وفي تعقيب الآية بقوله: ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ إشارة إلىٰ أن الله -تعالىٰ- إذا منحهم مغفرة فلا يستطيع أحد حرمانهم منها بحوله وقوته، لأنك أنت العزيز الذي يَغلِب ولا يُغلَب، ويمنع من شاء ما شاء ولا يمنع، ولا بتحويلك عن إرادتك، فإنك أنت الحكيم الذي تضع كل شيء موضعه، فلا يمكن لأحد غيرك أن يرجعك عنه بناءً علىٰ أن غيره أولىٰ منه، فمن ذا الذي يستطيع الاستدراك أو الافتيات عليك؟ والمقام مقام تفويض مطلق إلىٰ الله -تعالىٰ- وحده، لا مقام شفاعة، ولذلك ختم الآية بصفتي العزة والحكمة، ولم يختمها بصفتي الغفران والرحمة.

وفي جزاء الشرط الأول إشارة إلىٰ أن تعذيب من يظن المخلوقون أنهم يستحقون المغفرة إن وقع من الله فلا يكون إلا عدلًا، وفي جزاء الشرط الثاني إشارة إلىٰ أن المغفرة إن أصابت من يظن الناس أنه يستحق العذاب فلا تكون من الله إلا لغاية اقتضتها عزة الألوهية، وحكمة الربوبية، فلا عبرة بالظواهر التي تبدو للمخلوقين بالنسبة إلىٰ علم علام الغيوب وحكمته، ولا سيما في ذلك اليوم فالواجب أن يفوض إليه الأمر كله: يعذب من يشاء، ويغفر لمن يشاء.

ومن ذلك كله نعرف أن الضمير في قوله: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾ وقوله: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ ليس للمشركين حتىٰ يعترض بأنَّه كيف يغفر الله لمشرك وهو يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨].

ويقول فيما حكىٰ عن عيسىٰ ﷺ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]، بل المراد جنس القوم الذين فيهم المشرك والموحد، والصالح والطالح كما تقدم.

عيسى عليه السلام

﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ(١) مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن
دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ
إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ
يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ
وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ
مَكَانًا قَصِيًّا(٢) ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا(٣) ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا
وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾
وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا(٤) ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا
تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ
بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُواْ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا(٥) ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ
ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ
صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ
وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾
وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ

---

(١) تنحت عن أهلها إلىٰ مكان شرقي، «سويًّا»: حسن الصورة مستوي الخلق.

(٢) بعيدًا.

(٣) ألجأها واضطرها، «سريًّا»: جدولًا؛ لأنَّ الماء يسري فيه.

(٤) الغصن الطري.

(٥) عجيبًا علىٰ غير العادة، وقيل: منكرًا.

ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ[1] ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَـٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [مريم: ١٦-٣٧].

* شرح وعبرة:

(١) يأمر الله -تعالىٰ- نبيه محمدًا ﷺ أن يذكر لهم في الكتاب مريم وقصتها العجيبة في حملها بعيسىٰ عليه السلام: ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾، أي: في الوقت الذي تباعدت فيه عن أهلها في مكان شرقي، وقد اختارت مكانًا بعيدًا عن الناس لتتعبد فيه، والعبادة في حاجة إلىٰ مكان منعزل عن الناس ولا سيما من المرأة، أو أن الله -تعالىٰ- ألهمها أن تتنحىٰ عن القوم وتتخذ حجابًا من دونهم تمهيدًا لإرسال جبريل عليه السلام إليها، ولذلك عطف علىٰ الجملة قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ بالفاء ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا﴾ جبريل بشرًا كامل الخلقة، سوي الصورة، فانزعجت من رؤيته، وقالت: ﴿إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾، وهو دليل علىٰ عفافها وورعها، ونفرتها من الرجال، وقولها: ﴿إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ أرادت إن كان يرجىٰ منك أن تتقي الله؛ فإنِّي عائذة به منك، لعلمها أن الاستعاذة لا تؤثر إلا في التقي، وهو كقوله: ﴿وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨]، أي: إن شرط الإيمان يوجب هذا، وليس الغرض أن الله -تعالىٰ- يخشىٰ في حال دون حال.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَـٰمًا زَكِيًّا﴾ تطمين من جبريل لها، وإيناسها بأنه لم يكن من جنس البشر، بل هو من جنس الملائكة، أرسله الله -تعالىٰ- إليها ليهب لها الغلام بواسطة نفخ جبريل عليه السلام، وقوله: ﴿لِأَهَبَ لَكِ﴾ قرأ نافع وابن عامر **(ليهب)** بباء مفتوحة والضمير يرجع إلىٰ الله -تعالىٰ-: أي ليهب الله -تعالىٰ- لك غلامًا طاهرًا من الذنوب ناميًا، أما علىٰ قراءة (لأهب) فيكون الضمير لجبريل[2].

---

(١) يشكون.

(٢) قرأ أبو عمرو ويعقوب، ونافع برواية ورش، والحلواني عن قالون ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَـٰمًا﴾ [مريم: ١٩] بالياء. وقرأ الباقون ﴿لِأَهَبَ﴾ بالألف.

انظر: المبسوط: (٢٨٨)، والنشر: (٢/ ٣١٧). (عمرو)

وقد أضاف الهبة إليه علىٰ سبيل المجاز؛ لأنَّ الهبة لما جرت علىٰ يده بأن كان هو الذي نفخ فيها كان جبريل كأنه الذي وهبها، وإضافة الفعل إلىٰ سببه سائغ وكثير، كقوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، أو لأنَّ جبريل عليه السلام لما بشرها بذلك كانت تلك البشارة الصادقة جارية مجرىٰ الهبة ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾.

استغربت أن يولد لها غلام والحال أنها لم تتزوج ببشر، وتتصل به اتصال الأزواج؛ لأنَّ ذلك هو الطريق المألوف، فالمس كناية عن الزوج الحلال، كقوله -تعالىٰ-: ﴿مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، وقوله: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [المائدة: ٦]، والزنا ليس كذلك، وإنَّما يقال فيه: فجر بها، وخبث بها وما أشبه ذلك، وهو لا يستحق أن تراعىٰ فيه الكنايات والآداب ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾، أي: فاجرة، تتحدث عن نفسها بالعفة، وقد تحدث الله عنها بذلك قبل أن تتحدث هي فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢].

وإذا كانت السيدة مريم عليها السلام لم تتزوج ببشر، وليس من شأنها الفجور، بل شأنها الطهارة والعفة، فكيف يكون لها غلام؟ ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ﴾ أي: الأمر كما قلت لك، لا شك فيه ولا ارتياب، ﴿قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ﴾، ومتىٰ قال الله -تعالىٰ- للشيء كن يكون، فلا تستغربي أن يولد لك إنسان بدون أن يمسك بشر، مع عفتك وإحصانك، وهو كقوله في سورة آل عمران: ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧]، وقوله: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ علة لمحذوف؛ أي: فعلنا ما فعلنا لنجعل عيسىٰ آية للناس علىٰ قدرتنا ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾، أي: ولنجعل عيسىٰ عليه السلام رحمة للناس صادرة منا، علهم يهتدون بهديه، ويقتدون به ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾، أي: وكان إتيانك بعيسىٰ عليه السلام بدون أن يمسك بشر أمرًا مقدرًا في علم الله -تعالىٰ- لا غنىٰ لك عن رؤيته.

(٢) ﴿۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ طوىٰ عملية النفخ، وانتقل إلىٰ الإخبار بالمحل، وقد بيَّنها في سورة أخرىٰ؛ إذ يقول في سورة **التحريم**: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢].

طوىٰ القرآن ذلك؛ لأنَّ المعنىٰ واضح جلي، ومن شأن القرآن أن يوجز حيث وضح المعنىٰ، وكأنه يقول: فاطمأنت مريم عليها السلام إلىٰ قول جبريل، فدنا منها، فنفخ فيها، فوصلت النفخة إلىٰ بطنها، فحملت، وقوله: ﴿فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا﴾ فيه إيجاز آخر، وهو: فمضت عليها مدة الحمل، وكبرت بطنها كما تكبر بطون النساء عند قرب الوضع، فتنحت عن أهلها، واختارت مكانًا بعيدًا عن الناس، لأنها لا تزال مهمومة من ذلك الحادث من جهة قومها.

﴿فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ ألجأها الطلق ومقدمات الوضع إلىٰ جذع النخلة لتستتر به وتعتمد عليه عند الولادة شأن النساء عند الوضع، وهنالك قالت: ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا﴾ . . . إلخ، لا كراهة منها لحكم الله -تعالىٰ-، بل لما لحقها من فرط الحياء من الناس علىٰ حكم العادة البشرية ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي﴾ الضمير لجبريل عليه السلام؛ أي: ناداها من مكان هو أسفل من مكانها مطمئنًا لها بقوله لها: ﴿وَلَا تَحۡزَنِيٓ﴾ من ذلك الحادث؛ لأنَّ الله -تعالىٰ- لم ينسَكِ بفضله وإحسانه فجعل تحتك نهرًا تتطهرين منه وتشربين، وما أحوج النساء إلىٰ الماء ولا سيما في الأماكن المقفرة، ثم قال لها: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾ تسلية أخرىٰ بتسخير الله لها طعامًا بعد تسليتها بالشراب، لتعرف مريم عليها السلام من هاتين البشارتين أنَّ الله -تعالىٰ- الذي تولاها بذلك العطف هو الذي سيدفع عنها إفك القوم وتعييرهم لها، وسيقيم الدليل واضحًا علىٰ براءتها من الزنا، وعفتها وإحصان فرجها.

ثم أمرها بالأكل من الرطب والشرب من النهر وزاد علىٰ ذلك قوله: ﴿وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ﴾، والمراد: أبعدي عن نفسك الرعب والخوف، واطمئني لفعل الله -تعالىٰ-، ولا تكلمي أحدًا من الخلق أيام نفاسك، وإذا رأيت أحدًا من البشر فاعتذري له عن الكلام بقولك: ﴿إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا﴾ إمساكًا عن الكلام، ﴿فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ٢٦ فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ﴾، أي: فمضت مدة فأتت بعيسىٰ عليه السلام قومها وهي حاملة له: ﴿قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا﴾ عجيبًا منكرًا ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾، قيل: كان أخًا لها من أبيها من أمثل بني إسرائيل، وهو غير هارون أخي موسىٰ عليهما السلام، وقيل: إنَّهم عنوا هارون النبي، وأرادوا بأخته

شبيهته في الخلال والتقوىٰ، وكثيرًا ما يسمَّىٰ الشبيه أخًا، والمعنىٰ: يا من أشبهت أنبياء الله في التقوىٰ والصلاح، ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ يريدون أن عمران أباها لم يكن رجل سوء، وكذلك أمك لم تكن فاجرة، فلماذا جئت بذلك المنكر، وخالفت سنة أبويك؟

ومن عادة الناس إذا رأوا أحدًا جاء علىٰ غير طريقة أبويه أن يستغربوا منه ذلك، ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾، أي: هو الذي يجيبكم إذا أنتم ناطقتموه، فقالوا: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾، ونكلم حكاية حال ماضية؛ أي: كيف عهد قبل عيسىٰ أن يكلم الناس صبيًّا في المهد فيما سلف من الزمان حتىٰ نكلم هذا.

(٣) ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ ... إلخ، وقوله: ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾... إلخ؛ أي إن ذلك سبق في قضائه، أو جعل الآتي لا محالة كأنه قد وجد، وكثيرًا ما يعبر عن المستقبل بصيغة الماضي كقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦]، وإنما يكون ذلك القول في الآخرة يوم يجمع الله الرسل ويسألهم عن أقوامهم ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾، أي نفَّاعًا حيثما حللت أو معلما للخير، وهي نعمة علىٰ نبي الله عيسىٰ أن جعله مباركا، حيثما حل تحل البركة ويكثر الخير.

وبدأ قوله بعبوديته لله -تعالىٰ- ليعلم الناس أنهم جد خاطئين في إخراجه عن هذه العبودية وزعم بنوته لله -تعالىٰ-، و﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ يحتمل أنه صنعة الكتابة كما قال في سورة آل عمران: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [آل عمران: ٤٨]، فجمع الكتاب مع التوراة والإنجيل فهو غيرهما، ويحتمل وهو الظاهر أنَّه التوراة والإنجيل، والمراد بالنبي هنا الرسول الجامع لصفة النبوة والرسالة، كما قال في سورة آل عمران: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وفي قوله: ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ إشارة إلىٰ أنَّ الصلاة والزكاة من الشرائع القديمة، وهما من أهم أنواع العبادات البدنية والمالية ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي﴾ عطف علىٰ قوله: ﴿بِٱلصَّلَوٰةِ﴾، أي: وأوصاني أن أكون برًّا بوالدتي، و(البَرّ) كلمة جامعة لأنواع الخير ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾، أي: من فضل الله عليه أنَّه لم يجعله جبارًا غليظ القلب، بل جعل في قلبه رأفة ورحمة، ولم يجعله شقيًّا بعصيان ربه، بل جعله سعيدًا باصطفائه له،

واجتبائه إياه: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا﴾.

قال صاحب «الكشاف»[1]: الصحيح أن يكون هذا التعريف -أي تعريف (السلام) بلام الاستغراق- تعريضًا باللعن علىٰ من اتهم مريم بالزنا، وتحقيقه أن اللام للاستغراق فإذا قال: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ﴾؛ فكأنه قال: وكلّ السلام عليّ وعلىٰ أتباعي، فلم يبقَ للأعداء إلا اللعن.

ونظيره قول موسىٰ ﷺ: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ [طه: ٤٧] ذلك هو ما تكلم به عيسىٰ ﷺ وهو في المهد، وهو خارق للعادة من ناحيتين:

الأولىٰ: أنَّ مثله لا يكون إلا من رجل كبير مفكر، فصدوره من صغير يجعله خارقًا.

الثانية: إخباره عن أمور غيبية مستقبلة كإخباره عن إعطائه الكتاب، وجعله نبيًا وإيصائه بالصلاة والزكاة، وهما من العبادات التي لا يأمر بها إلَّا الأنبياء، أو الآخذون عنهم؛ فدلَّ هذا علىٰ براءة مريم ممَّا رُمِيَت به من الفاحشة؛ لأنَّ ابنها رسول من رسل الله، وكيف يكون رسول الله الذي أيده بمعجزاته من أولاد الزنا؟

(٤) ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ﴾، أي: صاحب هذه القصة في ولادته العجيبة، وكلامه في المهد، هو عيسىٰ ابن مريم، وهو عبد الله ورسوله: ﴿قَوۡلُ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ﴾ خبر بعد خبر، أو خبر مبتدأ محذوف: أي القول فيه هو قول الحق لا قول الباطل، وقرئ ﴿قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ﴾ بالنصب علىٰ المفعولية؛ أي: يقول الله -تعالىٰ- في شأنه قول الحق، أو علىٰ المدح إن فسر بكلمة الله، وإنَّما أطلق علىٰ عيسىٰ ﴿وَكَلِمَتُهُۥ ٱللَّهِ﴾، و﴿قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ﴾؛ لأنَّه لم يولد إلا بكلمة الله وحدها، وهي قوله (كُنْ) من غير واسطة أبٍ، تسمية للمسبب باسم السبب، كما سمىٰ العشب بالسماء: ﴿ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ﴾ من المرية، وهي الشك، أو يتمارون ويتلاحون فيه، قالت اليهود: إنه ساحر كذاب، وقالت النصارىٰ: ابن الله وثالث ثلاثة.

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ﴾، أي: ليس من شأن الله ولا ممَّا

---

(١) انظر: الكشاف: (١٦/٣)، وفتوح الغيب: (١٧/١٠). (عمرو)

يليق به أن يتخذ من ولد حتىٰ يتخذ عيسىٰ ولدًا له؛ لأنَّ الله خالق وعيسىٰ مخلوق، والصلة بين عيسىٰ وبين ربه كصلة سائر الخلق، وهو نفي للولد بطريق أبلغ، لأنه نفيٌ معه دليل، وهو مخالفة ذلك لشأن الله -تعالىٰ- وصفته، وقوله: ﴿سُبْحَانَهُۥٓ﴾ تنزيه له عن ذلك الاتخاذ، ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ إذا أراد أمرًا كخلق عيسىٰ بدون أب، وحمل أمه به بدون أن يمسها بشر، لا يتعاصىٰ شيء علىٰ إرادته، ولا يكون إلا الطاعة والامتثال ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾.

قيل: هذا من كلام نبينا محمد ﷺ، أي: وقل لهم يا محمد: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾ ... إلخ، وقيل: من كلام عيسىٰ عليه السلام عطف علىٰ قوله: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾، أي: وقال لهم عيسىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ لا اعوجاج ولا أمت، ويكون قوله: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى﴾ ... إلخ، جملًا معترضة بين كلام عيسىٰ عليه السلام.

﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾، أي: مع ذلك البيان اختلف الأحزاب في شأن عيسىٰ عليه السلام، ولم يقفوا عند قول الله: إنه عبد الله ورسوله، فمن مسرف في الطعن والبذاءة ينسبه إلىٰ الزنا كبعض اليهود، ومن متغالٍ في تعظيمه وتوقيره، حتىٰ جعله ابنًا لله، وثالث ثلاثة فيهم الله، ولكن القرآن يحدثنا أنه عبد أنعم الله عليه بالرسالة والاصطفاء، كما أنعم علىٰ أمه الصديقة بالطهارة والاجتباء، وجعله وأمه آية للناس، ودليلًا علىٰ كمال القدرة، وسعة السلطان.

ثم توعد الذين كفروا برسالته بما ينالهم عند شهود يوم الجزاء، وقال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

عيسى عليه السلام

﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ[1] ﴿٥٨﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلًا[2] لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِي ٱلۡأَرۡضِ يَخۡلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٌ[3] لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمۡتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسۡتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسۡتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الزخرف: ٥٧-٦٥].

* شرح وعبرة:

(١) ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا﴾ ... إلخ، روي أنه لما قرأ رسول الله ﷺ علىٰ قريش: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] امتعضوا من ذلك امتعاضًا شديدًا، فقال عبد الله بن الزِّبَعْرىٰ: يا محمد أخاصة لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم؟ فقال ﷺ: هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم، فقال: خصمتك[4] ورب الكعبة ألست تزعم أنَّ عيسىٰ ابن مريم نبي وتثني عليه خيرًا وعلىٰ أمه؟

---

(١) عادتهم الخصومة واللجاج.

(٢) عبرة.

(٣) علامة ودليل عليها.

(٤) غلبتك.

وقد علمت أن النصارىٰ يعبدونهما؟ وعزير يُعبد؟ والملائكة يُعبدون؟ فإن كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم، ففرحوا وضحكوا، فرد عليهم النبي ﷺ بقوله: ما أجهلك بلغة قومك، أما فهمت أن ما لما لا يعقل؟ فلم يدخل فيها عيسىٰ ولا عزير ولا الملائكة، كما روي أنه رد عليه بقوله: بل هم عبدوا الشياطين التي أمرتهم بذلك(١).

ويستدل المفسرون لذلك بقول الله -تعالىٰ- في سورة سبأ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَهَـٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٤٠ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١]، وذلك إنما ينفي عبادتهم للملائكة، أما عبادتهم لعزير وللمسيح فلم يقيموا دليلًا علىٰ نفيهما.

وإذا قلنا: إن عبادتهم للمسيح عليه السلام ولعزير ترجع في الحقيقة لعبادة الشياطين؛ لأنَّهم هم الذين أمروهم بها فأطاعوهم= قلنا مثل ذلك في عبادة الأصنام: إن الشياطين هي التي أمرتهم بعبادتها، وعليه فهم لم يعبدوا الأصنام.

وقد أخبر الله عنهم بأنَّهم عبدوها، وإنَّما لم يخص النبي ﷺ هذا الحكم بآلهتهم حين سأله ابن الزِّبَعْرىٰ عن الخصوص والعموم مادامت كلمة **(ما)** خاصة بغير العاقل، لأنَّ إخراج بعض المعبودين عن هذا الحكم عند المحاجَّة موهمٌ للترخيص في عبادته في الجملة فعمَّمه عليه السلام للكل.

ثم بيَّن بقوله: «**بل هم عبدوا الشياطين التي أمرتهم بذلك**» أنَّ الملائكة والمسيح بمعزل من أن يكونوا معبوديهم، ومنهم من يذهب إلىٰ أن الله -تعالىٰ- أجاب عنه حينما وجه إليه ذلك السؤال فأنزل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١]، وأولئك سبقت لهم من الله الحسنىٰ فهم خارجون من عموم الآية الأولىٰ علىٰ فرض شموله لهم.

ومعنىٰ الآية: ولما ضَرَب **عبد الله بن الزِّبَعْرىٰ** عيسىٰ بن مريم مثلًا وجادل رسول الله ﷺ بعبادة النصارىٰ إياه ﴿إِذَا قَوْمُكَ﴾ قريش منهذا المثل ﴿يَصُدُّونَ﴾ ترتفع لهم جلبة وضجيج فرحًا وجذلًا، وضحكًا بما سمعوا منه كما يرتفع لجب

---

(١) انظر: تفسير الطبري: (١٦/٤١٧). (عمرو)

القوم وجدلهم إذا أعوزتهم الحجة ثم عثروا عليها، وقرئ (يَصُدُّونَ)[1] بضم الصاد من الصدود؛ أي من أجل هذا المثل وبسببه يصدون الناس عن الحق ويعرضون عنه، ﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ يريدون أن آلهتنا عندك ليست بخير من عيسىٰ، وإذا كان عيسىٰ من حصب النار والمرمىٰ به فيها كان أمر آلهتنا هيِّنًا.

وقيل: لما سمعوا قوله -تعالىٰ-: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩] قالوا نحن أهدىٰ من النصارىٰ؛ لأنَّهم عبدوا آدميًا، ونحن نعبد الملائكة فنزلت، وقوله: ﴿ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ علىٰ ذلك القول تفضيل لآلهتهم علىٰ عيسىٰ؛ لأنَّ المراد بهم الملائكة.

(٢) ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ يريد أن محاجَّة ابن الزبعرىٰ لرسول الله ﷺ لم يقصد منها سوىٰ الجدل والمغالبة، ولم يُرِد بها إحقاق حق أو إبطال باطل، لأن ابن الزبعرىٰ لا يجهل أن آية ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ خاصة بالأصنام ولا يجهل أن كلمة ﴿مَآ﴾ لما لا يعقل، وأن العموم الذي دل عليه ظاهر كلام الرسول ﷺ عند الحاجة لم يرد به عموم اللفظ لعيسىٰ والملائكة ﷺ، وإنَّما هو عموم لما يتناوله لفظ ﴿مَآ﴾ من الأصنام في جميع الأمم لا في قريش وحدها.

يعلم ابن الزبعرىٰ ذلك كله ولا يجهله، ولكن الرجل الذي شغف بالجدل يتحكك في كلمة فيبنىٰ عليها من القصور ما شاء له الهوىٰ وما زينه له الشيطان.

والله -تعالىٰ- يرينا أنَّ أولئك القوم ما ضربوا لك هذا المثل إلا ابتغاء الجدل، وقد أباح الله الجدل ليكون وسيلة لكشف الحقائق، أما أن يصبر الجدل غاية لا وسيلة، ومقصدًا لا مقدمة، فذلك ما يذمه القرآن الكريم، ويستقبحه العقل السليم.

والقرآن يرينا أنَّ الجدل بالطريق التي هي أحسن لا مانع منه، وقد طالبنا به

---

(١) قرأ أبو جعفر ونافع وابن عامر والكسائي وخلف، والأعشىٰ والبرجمي عن أبي بكر ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصُدُّونَ﴾ بضم الصاد، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو، وعاصم برواية حماد وحفص، ويحيىٰ عن أبي بكر، وحمزة ويعقوب ﴿يَصِدُّونَ﴾ بكسر الصاد.

انظر: المبسوط: (٣٩٩)، والنشر: (٢/ ٣٦٩). (عمرو)

مع أهل الكتاب؛ إذ يقول: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

ينهانا القرآن الكريم أن نجادل من خالفنا في الدين من أهل الكتاب إلا بالطريق التي هي أحسن للخلق والفضيلة، والوصول إلىٰ الحق، وأن من ظلم منهم وتخطىٰ الحدود، ولم يرد الحق، ندعه ولا نجادله؛ لأنَّ الجدل لا يجدي معه ولا يفيد، وقد يكون ضرره أكبر من نفعه.

وقال -تعالىٰ- وهو يبين لنا آداب الدعوة إلىٰ الله -تعالىٰ-: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

ومن ذلك نعلم أنَّ الجدل فيه المحمود والمذموم، وأنه وسيلة لا مقصد، وطريق لتعرف الحق ومعرفة ما عند المتخاصمين من شبهة أو حجة، فإذا صار غاية للرجل وكلف به، وأصبح خلقًا من أخلاقه يتلمسه أنىٰ وجد، ويخلقه حيث حلّ= كان مذمومًا تمجه النفوس كما تمج صاحبه؛ لأنَّه يصبح لا هم له إلا الكلام والغلب، وسواء عليه أكان محقًّا في ذل الجدل أو مبطلًا.

ولعل في ذلك عبرة لطائفة المحامين الذين تعودوا الدفاع عمن يوكلونهم وإن كان الموكل مجرمًا سفاحًا، ويجادلون خصومهم بالحق والباطل، ولا هم لهم إلا إنقاذ موكليهم وإن كانوا يعلمون أنَّهم مجرمون، وقد نهىٰ الله أن نخاصم من أجل خائن، أو ندافع عن مجرم؛ إذ قال: ﴿وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا * وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٠٦ وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا﴾ [النساء: ١٠٥-١٠٧].

وإذا علم المجرم أن من ورائه مِن رجال المحاماة من يستطيع إنقاذه من جريمته؛ فإنَّه لا يبالي بأعراض الناس ولا بدمائهم أو أموالهم، يتجرأ علىٰ الأعراض فينتهك حرمتها، وعلىٰ الدماء فيريقها، وعلىٰ الأموال فيسلبها أصحابها، ولو علم ألا يوجد في رجال المحاماة من يرضىٰ بالدفاع عن مجرم، أو الجدل عن خائن ما أقدم علىٰ مخالفة القانون إلا وهو خائف وجل، ولكانت الأمة أسعد منها اليوم.

وما أحوج رجال المحاماة إلىٰ أن يكتبوا هذه الآية الكريمة علىٰ صفحات قلوبهم ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾.

ولكن ماذا نصنع وقد أصبح المال مشكلة المشاكل، وعقدة العقد، وأصبح طلب العيش عذرًا لدىٰ الناس يستبيحون في سبيله ما حلّ وما حرم؛ رزقنا الله العفة، وحببنا فيما عنده من ثواب، وزهدنا فيما يغضبه من مأثم، وقوله: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾، أي لدّ، شداد الخصومة، دأبهم اللجاج، وهو معنىٰ لم يعرف ممَّا سبقه من الآيات، فقد يكون الرجل مجادلًا في حادثة من الحوادث، ولكن الجدل لم يصر خلقا من أخلاقه، فالله يرينا أن هؤلاء أصبحت المخاصمة خلقًا من أخلاقهم، وصار الجدل غرضًا من أغراضهم.

(٣) ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ ... إلخ؛ أي بالنبوة ﴿وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، أي: مثلًا في الصلاح والتقوىٰ، أو أمرًا عجيبًا يسير ذكره كالأمثال السائرة، والغرض من ذلك تنزيهه ﷺ من أن ينسب إليه ما نسب إلىٰ الأصنام، وأن يضربه ابن الزبعري مثلًا ويقول فيه: ﴿ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾، وفيه كذلك تنبيه علىٰ بطلان رأي من رفعه عن رتبة العبودية، فكلا الرأيين خطأ وباطل النزول به إلىٰ مرتبة الأصنام، والصعود به إلىٰ رتبة المعبود، وما هو إلا عبد أنعم الله عليه بالنبوة، فلم يتخط ذلك الحد حتىٰ يكون إلها، ولم ينزل عن عبد أنعم الله عليه حتىٰ يكون في منزلة الأصنام، وفيه تعريض أيضًا بفساد رأي من يرىٰ رأيهم في شأن الملائكة -صلوات الله عليهم وسلامه-.

وعلىٰ التفسير الثاني لقوله: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾، وأنهم لما سمعوا قوله -تعالىٰ-: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ قالوا: نحن أهدىٰ من النصارىٰ؛ لأنَّهم عبدوا آدميًّا ونحن عبدنا الملائكة؛ علىٰ ذلك التفسير يكون لبيان أنه قياس باطل بباطل، فعبادتهم للملائكة باطلة كعبادة النصارىٰ لعيسىٰ، ولا فرق بين الملائكة وبين عيسىٰ في بطلان عبادتهم؛ لأنَّ الكل عبيد لله -تعالىٰ-، فقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ ... إلخ؛ أي: شأنه كسائر العبيد قصارىٰ أمره أنه ممَّن أنعم الله عليه بالنبوة، وخصه ببعض الخواص بأن

خلقه بوجه بديع، وقد خلق آدم بوجه أبدع منه، فأين هو من رتبة الربوبية؟ ومن أين يتوهم الناس صحة مذهب من يعبده حتىٰ يفتخر عبدة الملائكة بأنهم أهدىٰ منهم؟ أو يعتذروا بأن حالهم أخف من حالهم.

وجملة القول: إنَّه تسفيه لأصحاب ذلك القول، وتخطئة لهم في ذلك القياس، وأنه قياس باطل بباطل، وأن بطلان عبادة المسيح لم يجئ من ناحية أنه أقل من الملائكة، وإنما جاء من ناحية أنه عبد خاضع لله -تعالىٰ-، فكل من شاركه في العبودية لا يستأهل أن يعبد، إنما الذي يستحق العبادة هو الخالق، وتخطئة لهم في قولهم: إنهم أهدىٰ من عبدة المسيح؛ لأنَّ الهداية قد حرمها الله عابدي المسيح وعابدي الملائكة، فلم يكن فيهم أصل الهداية، بل فيهم الضلال البعيد ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾، أي: لو شئنا أن نريكم أن عيسىٰ عليه السلام ليس ببدعة من قدرة الله، وأنه -تعالىٰ- قادر علىٰ أبدع من ذلك وأبرع ﴿لَجَعَلْنَا﴾ خلقنا بطريق التوالد ﴿مِنكُم﴾ وأنتم رجال ﴿مَّلَٰٓئِكَةً﴾ كما خلقناهم بطريق الإبداع ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مستقرين فيها كما جعلناهم مستقرين في السماء ﴿يَخْلُفُونَ﴾، أي: يخلفونكم فيما تأتون وتذرون، ويباشرون الأفاعيل المنوطة بكم، مع أنَّ شأنهم التسبيح والتقديس في السماء، فمن كانت له هذه القدرة علىٰ الخوارق إلىٰ ذلك الحد كيف تنسونه وتعبدون عبدًا من عبيده، وخلقًا من خلقه؛ لأنَّه جاء علىٰ خلاف المألوف من سنة البشر؟ وما كان من حقكم أن تفتنوا بعيسىٰ هذه الفتنة، وتتركوا خالقه ومُنشئه، وما مثلهم في ذلك إلا مثل من فتن الكواكب السيارة، وما أودعه الله فيها من خصائص ومزايا، فعبدها ونسي خالقها ومُسخرها.

ويقول القرآن الكريم في ذلك: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧].

فعيسىٰ لم يعْدُ أن يكون آية علىٰ قدرة الله ونفوذ سلطانه، وذلك لا يقتضي أن يعبد، إنَّما الذي يستحق العبادة خالق عيسىٰ وغيره كآدم، وخالق الشمس والقمر وغيرهما من الآيات.

(٤) ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾، أي: شَرَط بفتح الراء، من أشراطها، وقرئ (علَم) بفتح اللام؛ أي: علامة، وكان علمًا للساعة لحصول علم الساعة به، أو أنه باعتبار خلقه بغير أب وإحيائه الموتىٰ بإذن الله كان دليلًا علىٰ صحة البعث الذي ينكره الكفرة، وكأن الله -تعالىٰ- يرينا أنه إذا قدر علىٰ بدء الخليقة وفيهم عيسىٰ علىٰ ذلك الوجه العجيب فكيف لا يقدر علىٰ الإعادة؟ أو إذا أعطىٰ عبدًا من عبيده قوة علىٰ إحياء الموتىٰ بإذنه فكيف لا يقدر هو علىٰ إعادتها بعد الموت؟ ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ لا تشكنّ في وقوعها ما دام الدليل علىٰ صحة البعث قائمًا، والحجة ناهضة ﴿وَٱتَّبِعُونِ﴾ اتبعوا هداي ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ موصل إلىٰ الحقّ بعيد عن الضلال ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ عن اتباعي ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة.

﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ﴾. بعد أن تكلم عن نشأة عيسىٰ العجيبة، وتنبيه القوم إلىٰ عدم الافتتان بها، وتخطئتهم في تغاليهم في عيسىٰ عليه السلام قال: إن عيسىٰ لمَّا جاءهم بالمعجزات الواضحة أخبرهم أنه جاءهم بالحكمة والعلم النافع الذي يسعدون به في دينهم ودنياهم، والحكمة التي جاء بها عيسىٰ هي ما في التوراة من تشريع، وما في الإنجيل من مواعظ وأحكام ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ عطف علىٰ محذوف؛ أي: لأعلمكم إياها ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ من أمور الدين؛ لأنَّ شأن الرسل أن يرسلهم الله ليبيِّنوا للناس ما اختلفوا فيه، ويعرفوهم الحقّ ليأخذوه ويعملوا به.

ثم أمرهم بتقوىٰ الله وطاعته، ثم ختم القصة بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾، ولست ربًّا لكم ولا معبودًا، وإنَّما أنا عبد من عبيد الله خاضع لنظام العبودية العامة إلا ما اختصني به من أمر الحمل والولادة، وإذا ظهر علىٰ يديّ خارق للعبادة فإنما هو بإذنه وتيسيره، ولا طاقة لي به بدون معاونته ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾، أي: هذا الذي دعوتكم إليه من أنَّه ربي وربكم، وأنه هو الذي يعبد مني ومنكم، وأنني عبد لله خاضع لنظامه، وقانون عباده هو الطريق المستقيم لا يضل سالكه، ومع ذلك البيان الواضح اختلف الأحزاب في شأن عيسىٰ من اليهود والنصارىٰ، وقد توعد الله الظالم منهم عذابه وسخطه في يوم الجزاء.

عيسى عليه السلام

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٧].

* شرح وعبرة:

(١) ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ . . . إلخ.

يرينا الله -تعالىٰ- بهذه الآيات أنَّه أتبع نوحًا وإبراهيم ومن كان من الرسل في ذريتهم رسلًا آخرين، وقفىٰ بعيسىٰ ابن مريم، وأعطاه الإنجيل، ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾، أي: وفقهم للتراحم فيما بينهم فلم يجعلهم جبارين ولا غلاظ القلوب، لتأسيهم برسولهم عيسىٰ عليه السلام، الذي قال الله فيه: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم: ٣٢]، وهو كقول الله -تعالىٰ- في أصحاب محمد ﷺ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ١٩]، وقوله: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ مفعول لفعل محذوف؛ أي: واختلقوا من عند أنفسهم رهبانية، ولا يصح عطفه علىٰ قوله: ﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾؛ لأنَّه يقتضي أن الله جعل الرهبانية فيهم ووفقهم لها، وهو لا يتفق وقوله: ﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾.

ومنه نعلم أنَّ دين المسيح لم يكن فيه رهبانية، وإنَّما هي مبتدعة فيه كسائر البدع التي يحدثها أهل الأديان، ويدل لذلك قوله: ﴿مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾، بل هم الذين فرضوها علىٰ أنفسهم فرضًا، وقوله: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ استثناء منقطع؛ أي أنهم ما ابتدعوها واختلقوها إلا طلبًا لرضوان الله وزيادة ثوابه لهم،

شأن سائر البدع، فإن أصحابها ينشئونها ويزيدونها في الدين لا بقصد الزيادة والاستدراك علىٰ الشرع، بل بقصد التقرب إلىٰ الله -تعالىٰ-، كصلاة الرغائب التي ابتدعوها في أول أسبوع من رجب، وصلاة الظهر بعد الجمعة، وكزيادة الصلاة والسلام علىٰ النبي ﷺ بعد ألفاظ الأذان، إلىٰ غير ذلك من البدع التي أُحْدِثت بعد عهد الرسول ﷺ وعهد خلفائه الراشدين، لم يقصد بها أصحابها إلا زيادة الثواب والزُّلفىٰ إلىٰ الله -تعالىٰ-، فالنية حسنة، ولكن حُسن النية لا يكفي عذرًا للابتداع في دين الله -تعالىٰ-، ولا غنىٰ للمسلم عن الوقوف عند حد الوارد، وأخذ العبادة عن رسول الله ﷺ، لأن الله -تعالىٰ- أخبرنا قبل انتقال الرسول ﷺ إلىٰ الرفيق الأعلىٰ أنَّه أكمل لنا الدين، وأتم نعمته علينا، وقد روي عن مالك ﷺ أنه قال: من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمدًا ﷺ خان الرسالة؛ لأنَّ الله -تعالىٰ- يقول: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ وما لم يكن يومئذ دينًا فلا يكون اليوم دينًا.

وإن أكثر البدع التي نشأت في الأديان كانت بحسن نية، وبقصد التقرب إلىٰ الله -تعالىٰ-، وجاءت من المبالغة في التعظيم والإفراط في الثناء، ألا ترىٰ إلىٰ بعض المؤذنين الجهلة وهو يزيد في ألفاظ الأذان والإقامة عند قوله (وأشهد أن محمدًا رسول الله) كلمة «**سيد**» والذي حمله علىٰ ذلك محبته في رسول الله ﷺ وإكباره له، وفاته أن الله -تعالىٰ- أحرص علىٰ توقير الرسول وتعظيمه من حرصه هو، ولذلك قرن اسمه باسمه في ألفاظ الأذان والإقامة، ولم يقبل من أحد الشهادة بالإسلام إلا حيث شهد له بالوحدة، ولمحمد بالرسالة، وأن المسألة مسألة عبادة وتقرب إلىٰ الله -تعالىٰ-، فينبغي الوقوف عند ما وَرَد، ولا تصح الزيادة عليه بحال، ولو أبحنا لكل مخلص في نيته أن يزيد في أنواع العبادات ما شاء لفتحنا علىٰ الدين بابًا من الابتداع لا يمكن أن يغلق، ولقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يحبونه فوق محبتنا، ويجلونه فوق إجلالنا حتىٰ ليقف الواحد منهم في الحرب درأة له يتلقىٰ دونه الحراب، ومع هذه المحبة الصادقة لم يستبيحوا لأنفسهم أن يبتدعوا في دينه، وأن يختلقوا أمورًا ويستدركوا علىٰ المشرع، كيف وقد نهانا رسول الله عن الابتداع، وأمرنا أن نتبع سنته وسنة خلفائه الراشدين ونعض عليها بالنواجذ.

ولعلّ في ذلك عبرة لقوم يعتذرون عن بدعهم بأنَّهم لا يريدون بها سوىٰ مرضات الله -تعالىٰ-، والتكثر من ثوابه، وبأنهم حسَّنوا النية في ذلك العمل؛ لأنَّ الله لم يعفِ أصحاب عيسىٰ من الإثم لأنَّهم ابتدعوا الرهبانية ابتغاء مرضات الله، ولم يعف الأم الجاهلة التي تقدم لابنها المريض الطعام الغليظ من الإثم ابتغاء انتفاعه بذلك الطعام، ولم يعف الطبيب الجاهل الذي أودىٰ طبه بحياة رجل من الناس من العقوبة لأنه كان حريصًا علىٰ شفائه مشغوفًا بمصلحته، ولم يعف القانون مَنْ خالَفه؛ لأنَّه كان حسن النية طيب السريرة.

كل ذلك دليل علىٰ أن حسن النية وحده لا يكفي عذرًا في الابتداع في دين الله، والاستدراك علىٰ التشريع.

ولعلّ منشأ ابتداع النصارىٰ للرهبانية تأثير مواعظ المسيح عليه السلام عليه في الزهد والإعراض عن لذات الدنيا، مع العلم بأن كل رسول يحرض الناس علىٰ الزهد والإعراض عن لذات هذه الحياة والإسراف فيها، وإن كانوا يتفاوتون في هذه الدعوة علىٰ حسب تفاوت أقوامهم في الأمراض النفسية والخلقية، فبالغوا في هذه الأوامر التي صدرت من المسيح عليه السلام، ولجؤوا إلىٰ الجبال وتركوا النساء جانبًا، وقيل: الذي حملهم علىٰ الرهبانية فرارهم من الفتنة في الدين مخلصين أنفسهم للعبادة؛ لأنَّ الجبابرة ظهروا علىٰ المؤمنين بعد عيسىٰ عليه السلام، فقاتلوهم حتىٰ لم يبقَ منهم إلا القليل، فخافوا أن يفتنوا في دينهم، فاختاروا الرهبانية، ومعناها: الفعلة المنسوبة إلىٰ الرَّهبان وهو الخائف، فَعلان من (رهب) كخشيان من خشىٰ، وقرئ: (ورُهبانية) بالضمّ[1]، كأنها نسبة إلىٰ الرُّهبان، جمع: راهب؛ كراكب وركبان.

(٢) وكما نهىٰ دين المسيح عليه السلام عن الرهبانية، واعتبرها القرآن بدعة لهم في ذلك الدين: نهىٰ الدين الإسلامي عن الرهبانية في الإسلام والانقطاع عن النساء، وأمر المؤمنين أن يتزوجوا ما داموا قادرين علىٰ الزواج، وقال: إن الزاج سنته ﷺ، ومن رغب عن سنته فليس منه.

روىٰ البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك رضي الله عنه يقول جاء ثلاثة رهط إلىٰ بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عبادة النبي ﷺ فلما أخبروا كأنهم تقالوها،

(١) تفسير القرطبي: (١٧/ ٢٦٣). (عمرو)

فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟ فقال أحدهم: أما أنا فأصلي الليل أبدًا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا؛ فجاء إليهم رسول الله ﷺ، فقال: «**أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**»[١].

﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾، أي: مع أنَّ أتباع المسيح هم الذين فرضوا الرهبانية علىٰ أنفسهم فرضًا ونذروها، وأن الله لم يكتبها عليهم؛ مع ذلك ما رعوها حق رعايتها كما يجب علىٰ الناذر رعاية نذره، فكان فيهم الصادق والكاذب، ولذلك عقبه بقوله: ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾، وهم سلفهم المخلصون، ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾، وهم خلفهم المراؤون.

(٣) وهناك وجه آخر في فهم الآية هو أن قوله: ﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾ لم يسق مساق الذم لأولئك الأقوام، بل لإرادة أن أولئك الأقوام كلَّفوا أنفسهم مشاق، فابتدعوا الرهبانية في المسيحية، ولم يكتبها الله عليهم في أصل الدين، وإنما فرضها عليهم بعد أن استحدثوها، وأنه ما كتبها عليهم إلا ليبتغوا بها رضوان الله ويستحقوا بها الثواب، فكتبها عليهم ليتخلصوا بها من الفتن في دين الله، فما رعوها حقّ رعايتها، وإنما الذي رعاها بعضهم، فآتينا المؤمنين المراعين منهم للرهبانية ﴿أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾، وهم الذين لم يرعوها.

والعبرة في الآية علىٰ الوجه الأول وهو الذي أميل إليه وأختاره النهي عن الابتداع في الأديان والوقوف عند ما رسم الشارع لنا، والامتنان علىٰ أتباع المسيح بأن جعل في قلوبهم ﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾، وكأن غلاة المستعمرين في وقتنا الحاضر ليسوا من أتباع المسيح، ولا يتصلون به في قليل أو كثير، وإلَّا فأين رحمتهم بالناس ورأفتهم بهم؟ وأين آثار تعاليم المسيح في نفوسهم؟ أتباع المسيح جعل الله في قلوبهم ﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾، ولكن غلاة المستعمرين قدت قلوبهم من حديد، وأكبادهم من فولاذ، يستبيحون تيتيم الأطفال وتخريب البيوت، وإراقة الدماء في سبيل الاستعمار الجشع، والاحتلال الممقوت، وأين هم من أسلافهم

---

(١) رواه البخاري: (٥٠٦٣)، ومسلم: (١٤٠١).

الذين تأثروا بمواعظ المسيح حتىٰ انقطعوا عن ملاذ الحياة، وحرموا علىٰ أنفسهم ما كان مباحًا؟ أين هم من تلاميذ المسيح الذين فروا بدينهم إلىٰ قمم الجبال، وغليظ العيش، حتىٰ لا يظلمهم أحد ولا يظلمون أحدًا؟ إن المسيح ﷺ ليبرأ إلىٰ الله من ذلك العمل الوحشي، ويقول لربه وخالقه حين يسأله عن قومه: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ﴾، ودعوتهم إليه من الرحمة بالناس وإقامة العدل، والإصلاح في الأرض، والبعد عن الفساد والظلم، ولكن المستعمرين الذين يدعون في كنائسهم أنهم أشياعي ينسون كل تعاليمي إذا هم وضعوا أقدامهم في بلد أجنبي منهم، فتتبدل رأفتهم قسوة، ورحمتهم غلظة، وعدلهم ظلمًا، وصلاحهم فسادًا، وتأليفهم بين الأفراد والجماعات تفريقًا، يحرصون علىٰ أن ينشروا فساد الأخلاق في البلد الذي أخذوه، ويمكنوا لأهله وسائل الشهوة، ليشغلوا الناس بشهواتهم عنهم، وحتىٰ لا يفكروا في عمل جدي يعود علىٰ البلد بالخير، كما يحرصون علىٰ تأليب الناس بعضهم علىٰ بعض وجعلهم شيعًا وأحزابًا، ليذوق بعضهم بأس بعض، فيصبح المستعمر هادئ النفس قار الضمير، لا تقف أمام أغراضه الاستعمارية عقبة من العقبات، وياليتهم يعاملون الناس معاملة الإنسان لأخيه الإنسان، وإنّما يعاملونهم كقطع من الغنم، لا يقيمون لإرادتهم وزنًا، ولا يعملون لغضبهم حسابنًا، وكأنّهم وكلاء الله في الأرض وأوصياؤه علىٰ الشعوب، لا يخرج شعب من الوصايا إلا حيث اعترفوا له بالرشد، وأقروا له بالثقافة، وهيهات أن يعترفوا لشعب من الشعوب ذلك الاعتراف، وكأن الناس ليسوا من أولاد آدم، فيهم عقل وإرادة، وفيهم رشاد وحزم، وكأن العِلم الذي يزكّي النفوس ويثقّف العقول وقُفٌ عليهم وعلىٰ أبناء جلدتهم، أهؤلاء أبناء الذين جعل الله في قلوبهم ﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ أهؤلاء سلالة ذلك السلف الطيب القلب الذي لم يقنع بتكاليف الشريعة فأضاف إليها الرهبانية؟ أم هم سلاسة الفاسقين الجاحدين، وأبناء الظالمين المعتدين؟ وسوف يحاسبهم الله علىٰ ذلك العدوان الصارخ، والظلم البيّن، واضطهاد الشعوب بلا ذنب لها في ذلك الظلم؛ إلّا أنَّ الله وهب المستعمر القوة، وسلبها تلك الشعوب الضعيفة، ومتىٰ يمنّ الله علىٰ الذين استضعفوا في الأرض ويجعلهم أئمة إصلاح وتهذيب، ويري أولئك الظالمين جزاء سوء تصرفهم، ومغبة استبدادهم، إن رحمت الله قريب من المحسنين.

عيسى عليه السلام

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف: ٦-١٤].

* شرح وعبرة:

(١) ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ ... إلخ؛ أي اذكر لهم يا محمد الوقت الذي قال فيه عيسىٰ ابن مريم: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم﴾. ثم بيّن ما جاء به عيسىٰ عليه السلام في قوله: ﴿مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾، فهو معترف بشريعة موسىٰ وكتابه الذي أنزله الله عليه وهو التوراة، فكان شريعة له كما كان شريعة لموسىٰ ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾.

وقد ثبت ذلك في **الإنجيل** في عدة مواضع[1]، ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، أي: فلما جاءهم عيسىٰ بالمعجزات الظاهرة الواضحة= أنكروا عليه الرسالة، وقالوا: إن ما جئت به سحر واضح، وليس من المعجزة في شيء، فالله يأمر نبيه محمدًا ﷺ أن يذكر الوقت الذي دعا فيه عيسىٰ قومه إلىٰ الله وقابلوا دعوته بالإنكار، وآياته بجعلها سحرًا وتخييلًا لا حقيقة له؛ اذكر يا محمد ذلك لتتسلىٰ بعيسىٰ كما تسليت بمن سبقه من الرسل، وتصبر علىٰ إيذاء قومك كما صبر عيسىٰ علىٰ إيذاء بني إسرائيل وبهتهم له، وتكذيبهم إياه، فلم يقل لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ﴾، أي: لا أحد أظلم من رجل يختلق الكذب علىٰ الله -تعالىٰ- ويدعي أنه أوحي إليه وهو لم يوحَ إليه شيئًا، والحال أنه يدعىٰ إلىٰ الإسلام، وينسب إلىٰ الانقياد لله -تعالىٰ-، ولا يعقل أن يكون عيسىٰ أو غيره من الرسل من أولئك الطائفة التي أفرطت وبالغت في الخروج عن الحدود، وادَّعت علىٰ الله أنه أرسلها وهو لم يرسلها، أو أنه أوحىٰ إليها ولم يوحِ إليها شيئًا.

ثم عقب ذلك بقوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، وكأنه يقول: ولو كانت الرسل من ذلك الصنف ما هداها الله لحق، ولا وفقها لإقامة حجة أو برهان، مع أن التوفيق رائد الرسل، والهداية حظهم في كل زمان ومكان، فدل ذلك علىٰ أنَّهم ليسوا قومًا ظالمين بدعوىٰ الرسالة، وإنَّما هم مؤيدون من الله -تعالىٰ-.

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾. رجوع إلىٰ خصوم محمد ﷺ وأعدائه الذين يحاولون بعدائهم للرسول ﷺ أن يقضوا علىٰ ما بعث الله به من حق، وما جعل علىٰ يده من هداية بكلمات تصدر من أفواههم، كقولهم: إنَّ الرسول ساحر أو كذاب، وهيهات أن تؤثر هذه الكلمات علىٰ ذلك النور الساطع، وهذا الهدىٰ الذي طبق الأرض، وقوله: ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ تهكم بهم وتعريض بغباوتهم، وأنَّ مثلهم في ذلك مثل مَن ينفخ في نور الشمس بغية ليطفئه،

---

(١) انظر كتاب «**إظهار الحق**»، لرحمت الله الهندي.

فإذا كان هذا النافخ يأمل النجاح في إطفاء نور الشمس فكذلك هؤلاء: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾، أي: إنَّ الله -تعالىٰ- أخذ علىٰ نفسه أن يؤيد دينه وينصر رسله، ويعلي كلمة الحق، ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ذلك الإتمام فخير لهم ألا يعادوا ذلك الدين، ولا يحاربوا الحق؛ لأنَّهم يحاولون عبثًا، ويجهدون أنفسهم في غير جدوىٰ.

ثم أكد ذلك بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾، وهي بشارة من الله -تعالىٰ- بإظهار هذا الدين علىٰ ما سبقه من الأديان جميعها؛ لأنَّه ملائم للفطر، متفق وحاجات العصر، وستضطر الناس إلىٰ العمل به اضطرارًا ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ ذلك الظهور، وهذه الغلبة، فإن الله -تعالىٰ- لا يبالي كراهتهم، ولا يعمل حسابًا لتألمهم، ثم طالب الناس بتجارة نافعة وعمل نافع مفيد، هي أن يؤمنوا بالله ورسوله، ويجاهدوا في سبيل الله وإعلاء دينه بأموالهم، فيبذلوها عن طيب نفس، وأنفسهم فلا يشحوا بها في سبيل الدعوة والرجل الذي يجود بنفسه وماله وهما أعز عزيز لديه هو المؤمن حقًا، ولذلك قال: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾، وأي فوز أعظم من هذا؟ ثم قال: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا﴾ ومزية أخرىٰ تحبونها من قرارة نفوسكم ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ علىٰ الأعداء ﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين يجودون بنفوسهم وأموالهم في سبيل مرضات ربهم.

(٢) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ . . . إلخ. يحث الله -تعالىٰ- أصحاب محمد ﷺ بأن يكونوا أنصار الله كما كان أصحاب عيسىٰ من الحواريين حين قال لهم: مَنْ أنصاري إلىٰ الله، فقال الحواريون: نحن أنصار الله؛ أي: انصروا دين الله مثل نُصرَة الحواريين عندما قال لهم ذلك، ومناصرة الله -تعالىٰ- تكون في العمل بدينه، والدفاع عن بيضته، والوقوف عند ما رسم من الحدود، وفي دعوة أصحاب محمد ومن بلغتهم دعوته إلىٰ مناصرة الله كما كان الحواريون يناصرون عيسىٰ عليه السلام؛ في ذلك ما يدل علىٰ أنَّ الحواريين أصحاب عيسىٰ كانوا مؤمنين حقيقةً، ولم يكونوا منافقين، وكان طلبهم مائدة من السماء عن إخلاص

وحسن نية، ولم يكن الغرض إحراج عيسىٰ أو إعناته، وهو أحد الرأيين في مَنْ طلبوا مِنْ عيسىٰ مائدة من السماء، ولو كانوا متعنِّتين في طلب المائدة ما طالب الله أصحاب محمد أن يكونوا مثلهم في مناصرة الله -تعالىٰ-، وماجعلهم مثلًا صالحًا يتأسَّىٰ بهم ويقتدي بعملهم، وقوله: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ بيان لسنة الله مع كل رسول، وهي أن يؤمن به فريق ويكفر به فريق ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ ترغيب في الإيمان وبيان لعاقبة المؤمنين، وهي تأييد الله لهم، وتمكينهم في الأرض، كما قال: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصفات: ١٧١-١٧٣].

وهذه سنة الله مع أنصار رسله في كل زمان ومكان، وهي لا تَخْتَلِف ولا تَتَخَلَّف، جعلنا الله -تعالىٰ- من أنصار دينه، المؤيدين لرسله.

دعوة خاتم الرسل محمد ﷺ إلى الله -تعالى-

(١) أراني وأنا قادم علىٰ ذلك القسم مقبلًا علىٰ عمل من أشق الأعمال؛ إذ إنَّ غايتي من ذلك القسم أنْ أصوّر للقارئ كيف كانت دعوة محمد ﷺ إلىٰ الله -تعالىٰ-، وقد كان لهذه الدعوة عدوَّان لدودان؛ عدوّ بمكة، وهم مشركو العرب وصناديد قريش، وعدوّ بالمدينة، وهم اليهود، وكيف انتصر محمد ﷺ عليهما جميعًا، ومكَّن الله لدينه في الأرض بفضل اعتصامه بالحقّ، وصبره علىٰ الأذىٰ، وتأديب الله -تعالىٰ- له.

نعم هي مهمة شاقة أن يتناول مثلي الدعوة المحمَّدِيَّة فيحيط بأطرافها، ويجلّيها للناس نقية خالصة، ولكن لذي هوّن عليّ المهمة أنني لم أرد أن أعرض للدعوة من الناحية التي عرض لها علماء السِّيَر، وإنَّما أريد أعرض لها من طريق القرآن نفسه، كما عرضت لدعوة من سبقه من الرسل من هذا الطريق.

أمَّا الأحداث التاريخية التي وقعت له ﷺ ولأصحابه بمكة والمدينة فقد كفاني مؤنة الكتابة فيها أولئك العلماء، وبذلك تهون المهمة نوعًا ما، وتسهل علىٰ مثلي، فقد نقلنا من تاريخ الرسل الذي حدَّثَنَا به القرآن الكريم قسمًا كبيرًا، وشرحناه للقراء شرحًا يجلي غامضه، ويقف بالقارئ له علىٰ شيء كثير من العِبَر فيه، ويطلعه علىٰ سنن الله في المصلحين، وكيف يؤيدهم الله وينصرهم علىٰ الرغم من وضع العقبات في سبيلهم، ويطلعه علىٰ سننه في المفسدين، وكيف يخذلهم ويخزيهم، ويجعلهم عبرة ومثلًا لمن يأتي بعدهم.

وكذلك حالنا في دعوة رسولنا محمد ﷺ إلىٰ الله -تعالىٰ- نبيِّن لهم فيها ما لاقه مِنْ قومه مِن عَنَت، وما صادفه من عقبات، وكيف اخترق ذلك كله بما

آتاه الله من صبر وحكمة، وما هداه الله إليه من آداب وتعاليم شأن بقية الرسل -صلوات الله وسلامه عليهم-.

وسأجعل حياة الرسول ﷺ في الدعوة إلىٰ الله -تعالىٰ- قسمين: قسمًا منها قبل هجرته إلىٰ مكة، وقسمًا بعد الهجرة، ثم أبيِّن كيف كانت طريقة الرسول في مكة، ثم في المدينة، ثم أبيِّن ماذا دعا إليه في مكة، وماذا دعا إليه في المدينة، وما الذي لاقاه في حياته الأولىٰ وحياته الثانية، مستشهدًا بآيات من القرآن الكريم علىٰ كل ذلك.

محمد ﷺ دعوته في مكة

(٢) بعث النبي ﷺ وهو بمكة علىٰ رأس الأربعين، ومدة إقامته بمكة بعد البعثة اثنتا عشرة سنة وخمسة أشهر وثلاثة عشر يومًا؛ من (١٧) رمضان سنة (٤١) من ميلاده، إلىٰ أول ربيع الأول سنة (٥٤)، وما نزل من القرآن في هذه المدة يقال له **المكّي**.

ومكث بالمدينة المنورة بعد الهجرة تسع سنوات وتسعة أشهر وتسعة أيام من ميلاده ﷺ؛ من أول ربيع الأول سنة (٥٤) إلىٰ تاسع ذي الحجة سنة (٦٣) وما نزل من القرآن بعد الهجرة يقال له **المدني**[١].

---

(١) من أوائل من تكلم في المكي والمدني من أهل التفسير يحيىٰ بن سلام البصري (ت: ٢٠٠ ﻫ)، حيث قال: «وحدثونا أن السور لم تنزل كل سورة منها جملة، إلا اليسير منها، ولكن النبي ﷺ قد كان سمىٰ السور؛ فكلما نزل من القرآن شيء أمر أن يضعوه من السور في المكان الذي يأمرهم به، حتىٰ تمت السور. وكان يأمر أن يجعل في بعض السور المكية من المدني، وأن يجعل في بعض السور المدنية من المكي. وكان جبريل ﷺ يأتي النبي ﷺ فيقول: **إن الله تبارك وتعالىٰ يأمرك أن تجعل آية كذا بين ظهراني كذا وكذا من السورة.**

وقد نزل المكي قبل المدني، وأن هذا التأليف الذي ألف بين السور لم ينزل علىٰ هذا التأليف، ولكن وضع هكذا، لم يجعل المكي علىٰ حدة؛ يتبع بعضه بعضا في تأليف السور، ولم يجعل المدني من السور علىٰ حدة؛ يتبع بعضه بعضا في تأليف السور.

وقد نزل بمكة ما أمر به لما يكون بالمدينة يعملون به إذا قدموا المدينة.

وأن بعض الآيات نزلت الآية منها قبل الآية، وهي بعدها في التأليف، وقد فسرنا هذه الوجوه في مواضعها من التفسير.

وإن ما نزل بمكة وما نزل في طريق المدينة قبل أن يبلغ النبي ﷺ المدينة فهو من المكي.

وما نزل علىٰ النبي ﷺ في أسفاره بعدما قدم المدينة فهو من المدني، وما كان من القرآن ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فهو مدني، وما كان ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ ففيه مكي ومدني، وأكثره مكي. =

. . . .

= قال يحيىٰ: ولا يعرف تفسير القرآن إلا من عرف اثنتي عشرة خصلة: المكي والمدني. والناسخ والمنسوخ، والتقديم والتأخير، والمقطوع والموصول، والخاص، والعام، والإضمار، والعربية»، تفسير ابن أبي زمنين: (١/ ١١٣)، وتفسير هود بن محكم: (١/ ٦٩).

ومن فوائد معرفة المكي والمدني أيضًا:

١- معرفة الناسخ والمنسوخ.

قال النحاس في كتابه الناسخ والمنسوخ: «وإنما نذكر ما نزل بمكة والمدينة؛ لأن فيها أعظم الفائدة في الناسخ والمنسوخ؛ لأن الآية إذا كانت مكية، وكان فيها حكم، وكان في غيرها مما نزل بالمدينة حكم غيره = علم أن المدنية نسخت المكية»، الناسخ والمنسوخ للنحاس، ت: اللاحم: (٢/ ٦١١). وقال مكي: «ويجب أن تعلم المكي من السور من المدني، فذلك مما يقوي ويفهم معرفة الناسخ والمنسوخ»، إيضاح ناسخ القرآن ومنسوخه، ت: فرحات: (١١٣-١١٤).

وكمثال علىٰ ذلك ما رواه مسلم، (٣٠٣٢): «عن سعيد بن جبير، قال: قلت لابن عباس: ألمن قتل مؤمنا متعمدا من توبة؟ قال: لا، قال: فتلوت عليه هذه الآية التي في الفرقان: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الفرقان: ٦٨] إلىٰ آخر الآية، قال: «هذه آية مكية نسختها آية مدنية»: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا﴾ [النساء: ٩٣]، وفي رواية ابن هاشم: فتلوت عليه هذه الآية التي في الفرقان: ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ [الفرقان: ٦٨]».

٢- معرفة الصحيح من الضعيف من التفسير (الترجيح بين الأقوال).

قال ابن عطية في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١] «قال بعض المفسرين: سبب هذه الآية أن رسول الله ﷺ نزل به ضيف، فلم يكن عنده شيء، فبعث إلىٰ يهودي ليسلفه شعيرا، فأبىٰ اليهودي إلا برهن، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فقال: «والله إني لأمين في السماء، أمين في الأرض»، فرهنه درعه، فنزلت الآية.

قال القاضي أبو محمد ﷺ: وهذا معترض أن يكون سببا؛ لأن السورة مكية، والقصة المذكورة مدنية في آخر عمر النبي ﷺ؛ لأنه مات ودرعه مرهونة بهذه القصة التي ذكرت.

وإنما الظاهر أن الآية متناسقة مع ما قبلها، وذلك أن الله تعالىٰ وبخهم علىٰ ترك الاعتبار بالأمم السابقة، ثم توعدهم بالعذاب المؤجل، ثم أمر نبيه ﷺ بالاحتقار لشأنهم، والصبر علىٰ أقوالهم، والإعراض عن أموالهم وما في أيديهم؛ إذ ذلك منصرم عنهم، صائر بهم إلىٰ خزي»، المحرر الوجيز: (١٠/ ١١٥).

٣- الاستفادة منه في الدعوة إلىٰ الله بتنزيل المقال علىٰ مقتضىٰ الحال، انظر: المحرر في علوم القرآن: (١١٧-١١٨). (عمرو)

المكّيّ والمدنيّ من القرآن[1]

(١) في هذا الجدول بيان للسور المكية والمدنية.

السور المكية		السور المدنية	المختلف فيها والراجح أنها مكية	المختلف فيها والراجح أنها مدنية
(١) الأنعام	(٣٨) النجم	(١) البقرة	(١) الفاتحة	(١) المطففين
(٢) الأعراف	(٣٩) القمر	(٢) آل عمران	(٢) الرعد	(٢) الفلق
(٣) يونس	(٤٠) الملك	(٣) النساء	(٣) الحج	(٣) الناس
(٤) يوسف	(٤١) القلم	(٤) المائدة	(٤) الرحمن	
(٥) إبراهيم	(٤٢) الحاقة	(٥) الأنفال	(٥) الواقعة	
(٦) الحجر	(٤٣) المعارج	(٦) التوبة	(٦) التغابن	
(٧) النحل	(٤٤) نوح	(٧) النور	(٧) الإنسان	
(٨) الإسراء	(٤٥) الجن	(٨) الأحزاب	(٨) الزلزلة	
(٩) الكهف	(٤٦) المزمل	(٩) محمد	(٩) العاديات	
(١٠) مريم	(٤٧) المدثر	(١٠) الفتح	(١٠) التكاثر	
(١١) طه	(٤٨) القيامة	(١١) الحجرات	(١١) العصر	
(١٢) الأنبياء	(٤٩) المرسلات	(١٢) الحديد	(١٢) الماعون	
(١٣) المؤمنون	(٥٠) النبأ	(١٣) المجادلة	(١٣) الكوثر	
(١٤) الفرقان	(٥١) النازعات	(١٤) الحشر	(١٤) الإخلاص	
(١٥) الشعراء	(٥٢) عبس	(١٥) الممتحنة		

. . . .

(١٦) النمل	(٥٣) التكوير	(١٦) الصف		
(١٧) القصص	(٥٤) الانفطار	(١٧) الجمعة		
(١٨) العنكبوت	(٥٥) الانشقاق	(١٨) المنافقون		
(١٩) الروم	(٥٦) البروج	(١٩) الطلاق		
(٢٠) لقمان	(٥٧) الطارق	(٢٠) التحريم		
(٢١) السجدة	(٥٨) الأعلىٰ	(٢١) البينة		
(٢٢) سبأ	(٥٩) الغاشية	(٢٢) النصر		
(٢٣) فاطر	(٦٠) الفجر			
(٢٤) يس	(٦١) البلد			
(٢٥) الصافات	(٦٢) الشمس			
(٢٦) ص	(٦٣) الليل			
(٢٧) الزمر	(٦٤) الضحىٰ			
(٢٨) غافر	(٦٥) الشرح			
(٢٩) فصلت	(٦٧) التين			
(٣٠) الشورىٰ	(٦٨) العلق			
(٣١) الزخرف	(٦٩) القدر			
(٣٢) الدخان	(٧٠) القارعة			
(٣٣) الجاثية	(٧١) الهمزة			
(٣٤) الأحقاف	(٧٢) الفيل			
(٣٥) ق	(٧٣) قريش			
(٣٦) الذاريات	(٧٤) الكافرون			
(٣٧) الطور	(٧٥) المسد			

(عمرو، وهو مستفاد من الشيخ د. عبد الرحمن الشهري)

مجموع القرآن الكريم أربع عشرة سورة ومائة؛ أولها الفاتحة، وآخرها الناس، **والسور المدنية** هي: (البقرة - آل عمران - النساء - المائدة - الأنفال - التوبة - الحج - النور - الأحزاب - القتال - الفتح - الحجرات - الحديد - المجادلة - الحشر - الممتحنة - الصف - الجمعة - المنافقون - التغابن - الطلاق - التحريم - إذا جاء نصر الله).

فجملة أولئك السور المدنية ثلاث وعشرون، وما عداها وهو مائة وإحدىٰ وتسعون مكية، والمختار عند العلماء أنَّ **المدنيّ**: ما نزل بعد الهجرة، وإن كان في غير المدينة، كالذي نزل في فتح مكة، **والمكي** من السور: ما نزل قبل الهجرة وإن لم يكن في نفس مكة.

والغالب في السور المكية أن تكون آياتها قصارًا، ولعل حكمة ذلك أن المخاطبين بها مشركو العرب وهم أبلغ العرب وأفصحهم، وعلىٰ الإيجاز مدار البلاغة عندهم، ومعظم السور المكية زواجر وبيان لأصول الدين بالإجمال.

أمَّا السور المدنية ففي أسلوبها شيء من الإسهاب، ولا سيما في مخاطبة أهل الكتاب؛ لأنَّهم أقل بلاغةً وفهمًا من العرب الخُلَّص، ولا سيما قريش، وفيها بيان ما لا بدَّ منه من الأحكام العملية؛ في العبادات والمعاملات الشخصية والمدنية، والسياسية والحربية، ولأصول الحكومة الإسلامية والتشريع فيها، كما تراه في طوال المفصل منها؛ كالبقرة والنساء والمائدة.

المكي من القرآن

(٣) أما المكي من السور فهو يدور حول أصول الدين من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، وتوحيده في الألوهية والربوبية، والإيمان بالبعث والجزاء، والعمل الصالح والدعوة إلىٰ الأخلاق.

وقد أفاض القرآن الكريم في الكلام علىٰ أولئك الأمهات؛ لأنها أصل الدين وعماده، فهي جديرة بالعناية، ولأن مَنْ فَقَد هذه العقيدة، وهي العقيدة في الله -تعالىٰ- ووحدته وجزائه فَقَدْ فَقَدَ الخير كله، وليس من دين الله في شيء، وفي اعتقادي أنَّ الذي يجرِّئ الناس علىٰ التهاون في العبادات، ويوقعهم في المعاصي ضَعف عقيدتهم في الله من جهة وعده ووعيده، واعتمادهم علىٰ الشفعاء والوُسَطَاء.

ولو أنَّ الناس فهموا عقائد الدين فهمًا صحيحًا، وتمكَّنَتْ هذه الأصول من نفوسهم نقية خالصة= لكان لهم حال أحسن من ذلك الحال الذي نراه اليوم.

والعبرة للقارئ في ذلك أن يتأسىٰ بالقرآن الكريم في عنايته بالعقائد والأمهات، وجعلها في المحل الأول، والعمل علىٰ تطهيرها من كل شيء يخالطها؛ فإنَّها متىٰ كانت كذلك آتت أُكُلَها كلَّ حين بإذن ربها، وبسطت أشعتها علىٰ جوارحه، فتنهض للخير راضية مطمئنة، وتبعد عن الشر كذلك، وكيف لا تكون العقيدة في تلك المكانة وهي في القلب الذي جعله الله مهيمنًا علىٰ الجسد كله، ورئيسًا عليه يصرفه كما يريد، ويستخدمه كيف شاء.

أليس القلب رئيس الجوارح تصلح بصلاحه وتفسد بفساده، نعم هو رئيسها وقائدها، وهو هو الذي يوحي إليها الخير والشر بعد أن يمتلئ بنور الخير أو ظلمة الشر، فكان من الخير للناس أن يعنىٰ القرآن الكريم بتثبيت عقائدهم، وتخليصها من الشُّبَه والشكوك، وجعلها بحيث تقود صاحبها إلىٰ سعادته في دينه ودنياه.

وحدة الله -تعالى-

(٤) قد أفاض القرآن الكريم في الكلام علىٰ وحدة الله -تعالىٰ- في خلقه ورزقه وإحيائه وإماتَتِه كما أفاض في الكلام علىٰ وحدته في العبادة، وألا يصح أن نعبد غيره أو نلجأ إلىٰ سواه.

ولـمَّا كانت العرب يعترفون بأنه -تعالىٰ- هو الذي خلق السماوات والأرض، لم يشأ أن يذكر ذلك النوع من التوحيد إلَّا علىٰ سبيل التذكير بتلك الوحدة، وحمل القوم علىٰ الاعتراف بها، لينقلهم من ذلك الاعتراف إلىٰ توحيد الله -تعالىٰ- في العبادة، وإفراده بإسلام الوجه له في هداية قلوبنا، وإغاثة الملهوف منَّا، وإجابة المضطر، وما دام الناس موحدين لله -تعالىٰ- في خلقه ورزقه، وإحيائه وإماتته، فلماذا لا يوحدونه في عبادته والتوجه إليه؟ وإني ذاكر نموذجًا من دعوة القرآن إلىٰ التوحيد وتقبيح الشرك وتسفيه أصحابه.

الآيـات

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٤-١٧].

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا۟(١) لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠٠-١٠٢].

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِۦِّىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١-١٩٨].

---

(١) اختلقوا.

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ(١) (٣٢) كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣) قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣٤) قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٥) وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: ٣١-٣٦].

﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦) وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٦، ١٠٧].

﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٣٩، ٤٠].

﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (١٤) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۩ (١٥) قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد: ١٤-١٦].

﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٧) وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨) وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (١٩) وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٢١) إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ١٧-٢٢].

---

(١) فأنّى تصرفون، أي: عن الحق، وهو المراد بقوله: ﴿تُؤْفَكُونَ﴾.

﴿۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ۝٥١ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ[1] وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ۝٥٢ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ۝٥٣ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ﴾ [النحل: ٥١-٥٤].

﴿أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ[2] رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمٗا ۝٤٠ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا نُفُورٗا ۝٤١ قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا ۝٤٢ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا﴾ [الإسراء: ٤٠-٤٣].

﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ۝٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا﴾ [الإسراء: ٥٦، ٥٧].

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ۝٤١ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾ [مريم: ٤١، ٤٢].

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ[3] ۝٢١ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٢٢ لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ۝٢٣ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۗ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ ۝٢٤ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ۝٢٥ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ۝٢٦ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ۝٢٧ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ۝٢٨ ۞ وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢١-٢٩].

﴿قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم[4] بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ بَلۡ هُمۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم مُّعۡرِضُونَ ۝٤٢ أَمۡ لَهُمۡ ءَالِهَةٞ تَمۡنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَ أَنفُسِهِمۡ وَلَا هُم مِّنَّا

---

(١) الدين: الطاعة. ﴿وَاصِبًاۚ﴾: دائمًا، ﴿تَجۡـَٔرُونَ﴾: ترفعون أصواتكم.

(٢) اختصّكم.

(٣) أي: الموتى من قبورهم؛ من: نَشَرَ الثوب: بسطه.

(٤) يحفظكم.

يُصۡحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلۡ مَتَّعۡنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۗ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَآۚ أَفَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٢، ٤٤].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ [الحج: ٧٣، ٧٤].

﴿قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ(١) وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ(٢) ﴿٨٩﴾ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٩٢].

﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [النمل: ٥٩-٦٤].

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [العنكبوت: ٤١، ٤٢].

---

(١) يجير: يغيث.

(٢) تُسحَرون: تخدعون.

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ[1]﴾ [سبأ: ٢٢].

﴿مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: ٢، ٣].

﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ[2] ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣، ١٤].

﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ٩-١٢].

﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ[3] مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٤-٦].

* الرسالة والجدل فيها:

(٥) إنَّ من يتتبع نصوص القرآن الكريم يرىٰ أن الجدل في الرسالة بدأ منذ عهد نبي الله نوح عليه السلام، ثم انتقل من بعده إلىٰ قوم هود وثمود، وما زال كذلك حتىٰ وصل إلىٰ عهد نبينا محمد ﷺ، وقد كان جدلهم فيها مبنيًا علىٰ شبهةٍ توارثها بعضهم عن بعض، هي أنَّ الرسول لا يصح أن يكون بشرًا يأكل الطعام كما يأكل

---

(١) مُعين.

(٢) **قِطمير**: لفافة النواة الرقيقة الملتفَّة عليها.

(٣) أثارة: بقية من علم الأولين.

الناس، ويمشي في الأسواق كما يمشون، ويجب أن يكون من صنف الملائكة، وإذا لم يكن منهم فليكن معه ملك ليدلنا علىٰ صدق ذلك الرسول من البشر.

وقد تكفل القرآن الكريم بالرد علىٰ هذه الشبهة الواهية، وبيان أنَّ سنة الله في جميع الأزمنة أن يرسل إلىٰ الناس واحدًا منهم، يختاره لذلك المنصب، ويصطفيه لهذا العمل.

أمَّا الملائكة فليس من سنته أن تكون رسالة الله للناس علىٰ أيديهم من طريق علنيّ واضح؛ لأنَّ الله -تعالىٰ- لو جعل الرسول من الملائكة لجعله علىٰ شكل الرجل ليتناسب مع القوم الذين أُرسِل إليهم، وحين ذاك يرجعون إلىٰ جدلهم فيه ويلتبس الأمر عليهم.

علىٰ أنَّ من سنة الله -تعالىٰ- أن ينزل الملائكة عند إرادة العذاب بالقوم؛ لذلك كله عُني القرآن الكريم بذكر هذه الشبهة والرد عليها في سور كثيرة منه.

علىٰ أنَّ المسألة مسألة جدل وعناد، لا مسألة شبهة استولت علىٰ نفوس القوم فلم يستطيعوا الخلاص منها ولكن الله -تعالىٰ- لم يرد أن يتركهم وشأنهم، بل عرض لها ولما يدحضها، وبين أنَّهم جد متعنتين، ليس من همهم الوصول إلىٰ حق، أوالفرار من باطل، وهذه طائفة من آي الذكر الحكيم تريك مقدار تشبثهم بتلك الشبهة، كما تريك قيمة الشبهة في ذاتها.

*** الآيات:**

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٧-٩].

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ(١) تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ

(١) قراطيس: ورقات.

وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩١-٩٣].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ(١) عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس: ١، ٢].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا(٢) بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [هود: ٢٥-٢٧].

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ(٣) مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [إبراهيم: ٩-١١].

﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ

---

(١) قدم صدق: منزلة رفيعة.

(٢) أراذلنا: فقراؤنا، بادي الرأي: بلا بحث.

(٣) سلطان: برهان.

نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ(١) ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ(٢) فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ(٣) ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ(٤) أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ٦-١٥].

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٤-٩٦].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١-٣].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟(٥) بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ﴾ [المؤمنون: ٢٣-٢٦].

﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ

---

(١) شيع: فِرَق.

(٢) نسلكه: ندخله.

(٣) يعرجون: يصعدون.

(٤) سُكِّرَت: مُنِعت عن الإبصار بالسحر.

(٥) تربصوا به: انتظروا.

وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟
فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن
تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾ [الفرقان: ٧-١٠].

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى
ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٠].

﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا
وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ
يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ
بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾ [سورة ص: ٤-٨].

* البعث والجزاء:

(٦) وكذلك من أصول العقائد التي أجمعت عليها الشرائع السماوية بعث الناس وجزاؤهم علىٰ ما قدموا في هذه الحياة.

وقد كان النزاع في ذلك الأصل كبيرًا، ولا يزال فريق من الناس ينكرون أن يكون لهم حياة وراء هذه الحياة، وقد أكثر القرآن الكريم من الرد علىٰ هذه الطائفة التي تنكر البعث، وأقام عليهم الحجة تلو الحجة، وأراهم أنهم يشاهدون عملية البعث تتكرر علىٰ مرأىٰ منهم كل يوم؛ إذ يرينا أنَّ من آيات الله أن ترىٰ الأرض خاشعة يابسة، فإذا أنزل الله عليها الماء اهتزت وربت، وأن ذلك حياة لها بعد الموت، وأن الذي أحياها هو الذي يحيي الموتىٰ.

ثم أضاف إلىٰ هذه حجة أخرىٰ، هي أن الحكمة تقضي أن يكون للناس حياة ينتصف فيها المظلوم من الظالم، والضعيف الذي استغل ضعفه في هذه الحياة الدنيا، من القوي الذي ناله شيء من أذاه، والله -تعالىٰ- يرينا أن ترك الناس بلا بعث ولا نشور هو ضرب من السفه الذي يتنزه الله -تعالىٰ- عنه، فكان من الواجب بمقتضىٰ حكمة الله وعدله أن ينشر أجسام الناس من قبورهم، ويعيد إليهم حياتهم، ليحصدوا في تلك الحياة ما زرعوا في الدنيا، ويجنوا ثمار ما قدموا ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة: ٣٦-٤٠].

* **الآيات:**

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ(١) وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الرعد: ٣-٥]

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ(٢) ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٣٨-٤٠].

﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا(٣) أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً(٤) أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ(٥) إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٩-٥٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ(٦) وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ

---

(١) صنوان: النخلات يجمعها أصل واحد.

(٢) جهد أيمانهم: مجتهدين فيها.

(٣) رفاتًا: فتاتًا.

(٤) كونوا حجارة ... إلخ؛ أي فلا تتعاصون على الحياة فكيف إذا كنتم عظامًا.

(٥) ينغضون: يحركونها تعجبًا واستهزاء.

(٦) مُخَلَّقَةٍ: ملساء، من العيب، ﴿أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾: الهرم والخرف، ﴿هَامِدَةً﴾: ميتة يابسة، ﴿بَهِيجٍ﴾: حسن سار.

ءَايَةٌ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ [الحج: ٥-٧].

﴿بَلۡ قَالُواْ مِثۡلَ مَا قَالَ ٱلۡأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ(١) ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ(٢) وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ(٣) ﴿٨٩﴾ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المؤمنون: ٨١-٩٠].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧].

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَيَبۡسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ يَشَآءُ وَيَجۡعَلُهُۥ كِسَفٗا(٤) فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡهِم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمُبۡلِسِينَ(٥) ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [الروم: ٤٨-٥٠].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِن نَّشَأۡ نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ نُسۡقِطۡ عَلَيۡهِمۡ كِسَفٗا(٦) مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾ [سبأ: ٧-٩].

---

(١) أساطير: أكاذيب.

(٢) يجير: يغيث، ولا يجار عليه: لا يغيث أحد منه أحدًا.

(٣) تسحرون: تخدعون عن توحيده وطاعته.

(٤) كسفًا: قطعًا، الودق: المطر.

(٥) مبلسين: من الإبلاس، وهو الحزن المعترض من شدة اليأس.

(٦) كسفًا: قطعًا، (منيب): راجع إلى الله.

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ(1) ﴿١١﴾ بَلْ
عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ(2) ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ
إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾
قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ(3) ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ(4) وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ [الصافات: ١١-١٩].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ
عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ(5) بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا
كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ(6) ﴿٥﴾ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى
ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ(7) ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا
رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ
ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ(8) ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ(9) لَّهَا طَلْعٌ
نَّضِيدٌ(10) ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ [سورة ق: ١-١١].

---

(١) لازب: لزج.
(٢) يستسخرون: يبالغون في السخرية.
(٣) داخرون: صاغرون.
(٤) زجرة: صيحة.
(٥) رجع: العودة إلى الحياة.
(٦) مريج: مضطرب.
(٧) فروج: نقائص.
(٨) الحصيد: الزرع الذي يحصد.
(٩) باسقات: طوالًا في السماء.
(١٠) نضيد: منضود بعضه فوق بعض.

العمل الصالح

(٧) من مقاصد القرآن الكريم دعوة الناس إلىٰ العمل الصالح، وهي من آثار الإيمان بالله -تعالىٰ- وجزائه، والعمل الصالح من دلائل العقيدة الصحيحة، فإن من يقتنع بوعد الله ووعيده، ولا يخالجه شك في ذلك الاعتقاد لا يقع في معصية، وإن وقع فيها كان ذلك علىٰ ندور، ثم يتوب من قريب، والقرآن يحدثنا أن الشأن في المؤمنين أنهم إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم بشيء يغضب الله -تعالىٰ- ذكروا الله -تعالىٰ- في وعده ووعيده، وما أعده للعصاة من عذاب، فاستغفروا لذنوبهم ولم يصروا علىٰ فاحشتهم، وهم يعلمون أنها تغضب الله -تعالىٰ- وتستوجب مقته، فإذا رأينا رجلًا مدمنًا لمعصية من المعاصي، وهو مطمئن إلىٰ عمله هذا راضٍ به، كان ذلك الإدمان أمارة أنه ليست له عقيدة في الله صادقة، وإذا رأينا آخر خلقه الاستقامة، وإذا وقعت منه سيئة لسبب من الأسباب تاب من قريب، دل ذلك علىٰ أنه صحيح الإيمان سليم الاعتقاد.

وجملة القول: إنَّ العمل الصالح برهان علىٰ صحة العقيدة، وثمرة من ثمارها فهي تمده وتستمد منه قوتها وثباتها، فكلما أكثر المؤمن من العمل الصالح قوي اعتقاده في الله، وكلما كان اعتقاده في الله قويًا حمله ذلك علىٰ العمل الصالح.

وحسبنا أنَّ الله -تعالىٰ- جعل سعادة المؤمن في الإيمان والعمل الصالح، ولم يجعلها لصاحب العقيدة، وهذه آيات القرآن الكريم تدلك علىٰ ذلك، وترشدك إلىٰ أنَّ العمل ضروري للمؤمن، وأنَّ الجنة لا تنال بغير العمل وأن من يدعي الإيمان بالله ثم يعصيه، ويدمن علىٰ ذلك العصيان، لا يبالي الله -تعالىٰ- بإيمانه ولا يقيم لعقيدته وزنًا؛ لأنَّها من الوهن والضعف بمكان.

الآيات

﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٦].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٩ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ٩، ١٠].

﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا[1] ١٠٧ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا﴾ [الكهف: ١٠٧، ١٠٨].

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

---

(١) نزلًا: ما أعد للضيف لينزل فيه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٢ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الصف: ١٠-١٣].

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٨ يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ(١) وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التغابن: ٨، ٩].

﴿۞ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا(٢) ١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا ٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ٢١ إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ٢٢ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ٢٣ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ٢٥ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ٢٦ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ٢٧ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٖ ٢٨ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ٦ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ٧ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ ٣٣ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ٣٤ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ﴾ [المعارج: ١٩-٣٥].

﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ٤٢ قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ٤٣ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ ٤٤ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ٤٥ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤٦ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ ٤٧ فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٢-٤٨].

﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ٤ ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ(٣)﴾ [التين: ٤-٦].

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ(٤) وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ(٥) ٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ ٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ

(١) التغابن: يغبن فيه المؤمنون الكافرين لأخذهم منازلهم في الجنة.

(٢) هلوعًا: يفسره ما بعده.

(٣) ممنون: منقطع.

(٤) حنفاء: مستقيمين على دين إبراهيم.

(٥) القيّمة: الملة المستقيمة.

﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ
وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٥-٨].

بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيم

﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟
بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣].

الأخلاق

(٨) من أهم مقاصد القرآن نشر الأخلاق والدعوة إلىٰ الفضيلة، وهو يشمل الدعوة إلىٰ العمل الصالح والنهي عن المنكرات الظاهرة والباطنة، كما يتناول آداب الدعوة إلىٰ الله -تعالىٰ-، وآداب البيوت والمنازل، وآداب الخدم مع مخدوميهم.

وإنَّك لترىٰ من عناية القرآن الكريم بذلك القسم ما يحقر أمامك ما عليه المتمدينون من أدب؛ قل لي بربك: أيُّ أدب يقارب ذلك الأدب الديني الذي يلفتنا إليه القرآن الكريم في قوله -تعالىٰ-: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ﴾.

يطلب إلىٰ المخدومين أن يعلموا مماليكهم والذين لم يبلغوا الحلم من أولادهم وخدمهم الاستئذان عليهم في أولئك الأزمنة الثلاثة، من قبل صلاة الفجر، وحين يخلعون ثيابهم للراحة عند الظهر، ومن بعد صلاة العشاء؛ لأنَّ الشأن فيهم في هذه الأوقات أن يكونوا علىٰ هيئة لا تسمح برؤيتهم، وقد يقع نظر الخادم أو المملوك علىٰ عورة لهم، ومن أجل ذلك أُمِروا بالاستئذان عليهم؛ لأنَّها أوقات عورة، وبعد هذه الأوقات يدخلون عليهم بلا حرج؛ لأنَّهم مستعدون لمرورهم بهم.

قل لي بربك أتستطيع المدنية الحاضرة أن تلد لنا مثل ذلك الأدب أو ما يقاربه؟ ولذلك يعقب الله عليه بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ نعم هي آيات أنه أدب إلهي وضعه عليم لا يجهل، وحكيم لا يعبث.

الآيات

﴿۞ قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ
إِحۡسَٰنٗاۖ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ(١) نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ
مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم
بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۖ وَأَوۡفُواْ
ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا
قُرۡبَىٰۖ وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١، ١٥٢].

﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا
فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ
يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٖ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجۡتُثَّتۡ(٢) مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن
قَرَارٖ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ
وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٧].

﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ(٣) فِيهِ
ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهۡطِعِينَ(٤) مُقۡنِعِي(٥) رُءُوسِهِمۡ لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ(٦) ﴿٤٣﴾

---

(١) إملاق: فقر.

(٢) اجتثت: استؤصلت، وأخذت بجثها كاملة.

(٣) تشخَص: لا تقر في أماكنها.

(٤) مهطعين: مسرعين إلىٰ الداع.

(٥) مقنعي: رافعي.

(٦) هواء: خلاء من الفهم لفرط الدهشة.

وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ(١) فِى ٱلْأَصْفَادِ(٢) ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَـٰذَا بَلَـٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [الحجر: ٤٢-٥٢].

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا(٣) تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا(٤) بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ(٥) أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ(٦) ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٠-٩٦].

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا

---

(١) مقرنين: قرن بعضهم ببعض.

(٢) الأصفاد: القيود.

(٣) أنكاثًا: جمع نكث، وهو حل طاقات فتلها.

(٤) دخلًا: مفسدة.

(٥) أن تكون ... إلخ؛ أي بسبب أن كانت أمة أوفر عددًا من أمة أخرىٰ تغدرون في عهدكم.

(٦) يبلوكم: يختبركم.

عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٥-١٢٨].

﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ(١) مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟(٢) صَـٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا(٣) ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ(٤) ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ(٥) نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا(٦) فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا(٧) ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ(٨) مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ(٩) إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الإسراء: ٢٣-٣٨].

---

(١) جناح الذل: جناحك الذليل.

(٢) إن تكونوا ... إلخ: كلام جديد لا صلة له بما قبله، الأوَّابين: الرجَّاعين إليه.

(٣) محسورًا: نادمًا.

(٤) يقدر: يُضيّق.

(٥) إملاق: فقر.

(٦) سلطانًا: تسلُّطا.

(٧) تأويلًا: عاقبة.

(٨) تقف: تتبع.

(٩) مرحًا: اختيالًا، ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾ ... إلخ: تهكم به وإشعاره بأنه ضعيف.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ① ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ② وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ(1)
مُعْرِضُونَ ③ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ④ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ⑤ إِلَّا عَلَىٰٓ
أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ⑥ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْعَادُونَ(2) ⑦ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ⑧ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ
⑨ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ⑩ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١-١١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟(3) وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ
أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ㉗ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ
يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ(4) لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ㉘
لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا
تَكْتُمُونَ ㉙ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ
خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ㉚ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ
زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ(5) ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا
لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ
أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى
ٱلْإِرْبَةِ(6) مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ
لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾
[النور: ٢٧-٣١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ
مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَٰثُ

(١) اللغو: ما لا يعني من قول وعمل.

(٢) العادون: الكاملون في العدوان.

(٣) تستأنسوا: تستأذنوا.

(٤) أزكىٰ: أطهر.

(٥) جيوبهن: فتحة الثوب التي تدخل فيها الرأس.

(٦) الإربة: الحاجة إلىٰ النساء، لم يظهروا: يستطلعوا لها لضعف أو صغر.

عَوْرَٰتٍ(١) لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٥٨ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٥٩ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٥٨-٦٠].

﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ(٢) أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ(٣) إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ۝٧٦ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٧٧ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ(٤) أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْـَٔلُ(٥) عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٧٨ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝٧٩ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ۝٨٠ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ۝٨١ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ(٦) ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨٢ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٧٦-٨٣].

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ(٧)

---

(١) ثلاث عورات: من شأن الإنسان ألا يحتشم فيها، وذلك أعظم تأديب من الله لنا حتىٰ مع الأطفال والمماليك.

(٢) ﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ﴾ ... إلخ: أي تثقل علىٰ الجماعة الأقوياء فكيف بغيرهم.

(٣) تفرح: تبطر وتزهو.

(٤) علىٰ علم عندي؛ أي: علم بطريق جمع المال؛ ينكر فضل الله عليه فيه.

(٥) ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ﴾ ... إلخ: بل يأتيهم العذاب بغتة.

(٦) وي: كلمة تعجب، كأن: حرف تشبيه.

(٧) ظلم: مجاوزة للحد، وهو تسوية بين خالق ومخلوق.

عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ(١) وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ
ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ
فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ
فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَـٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى
صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَـٰبُنَىَّ أَقِمِ
ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ(٢)
﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ(٣) خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ(٤) مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ
فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ(٥) فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ(٦) مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾
[لقمان: ١٣-١٩].

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾
وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ(٧) فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ
كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ(٨) إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ
﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ(٩) مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾
[فصلت: ٣٣-٣٦].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن
نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟(١٠) بِٱلْأَلْقَـٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ
بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ

---

(١) وهنًا علىٰ وهن: تضعف ضعفًا فوق ضعف، فصاله: فطامه.

(٢) عزم الأمور: معزوماتها التي يعزم عليها لوجوبها.

(٣) تُصَعِّر: تُمِل تكبرًا.

(٤) مرحا: اختيالًا.

(٥) اقصد: توسط بين الدبيب والإسراع.

(٦) اغضض: انقص.

(٧) بالتي هي أحسن؛ أي: بالطريق التي هي أحسن في الدفع.

(٨) يُلقَّاها: يعمل بتلك الخصلة.

(٩) ينزغنك: من (نزغه): نخسه؛ شبّه الوسوسة بالنخس.

(١٠) تلمزوا: تعيبوا، تنابزوا بالألقاب: ينادي بعضكم بعضًا بما يكره، بعد الإيمان؛ أي: مع الإيمان.

إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟[1] وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾

[الحجرات: ١١-١٣].

(١) تجسسوا: تبحثوا عن عوراتكم، ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ﴾ ... إلخ: تمثيل لما يناله المغتاب من أخيه على أفحش وجه وأقبحه.

محمد ﷺ وظيفته

(٩) بعث الله نبينا محمدًا ﷺ كما بعث غيره من الرسل؛ ليقيم حجة الله علىٰ الناس بتبليغ دينه، وتخويف الناس من عذاب الله -تعالىٰ-، وتبشيرهم، وتعريفهم أنه ما بعث ليحول قلوبهم من ضلال إلىٰ هدىٰ، فإن ذلك إلىٰ الله وحده، وكما بعث ﷺ للإنذار والتبشير بعث ليكون قدوة صالحة في الخير والفضيلة، تتأسىٰ به الناس في عبادة الله -تعالىٰ-، وتتأثر طريقه في حسن الخلق، لأن الناس من شأنها أن تنظر في أعمال من يدعونها إلىٰ الخير، فإن رأت منهم وقوفهم عند حدود ما يدعون إليه اتبعتهم، وإن رأت عملهم يخالف قولهم نبذتهم، ولذلك يقولون إن تأثير العمل علىٰ الناس فوق تأثير القول.

فوظيفة الرسول جمعت إلىٰ القول العمل الصالح، والسيرة الطيبة المرضية، ومن ذلك نعلم أنَّه من الحمق أن يطلب من الرسول أن يكون له كنز أو ملك من ملائكة الله -تعالىٰ-، فإن ذلك خارج عن حدود وظيفته، وهي الدعوة إلىٰ الله -تعالىٰ- والصبر عليها، والصلابة في الحق ليهلك من هلك عن بينة ويحيىٰ من حيّ عن بينة.

الآيات

﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢].

﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ٢١٤ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢١٥ فَإِنۡ عَصَوۡكَ فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ٢١٦ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ٢١٧ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ٢١٩ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الشعراء: ٢١٤-٢٢٠].

﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩١ وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ [النمل: ٩١-٩٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ٤٦ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ٤٧ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ٤٨﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٨].

﴿قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٣٩ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ ٤٠ إِنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الزمر: ٣٩-٤١].

﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ١٣ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ

ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَـٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٣-١٥].

﴿ثُمَّ جَعَلْنَـٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًۭٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَـٰذَا بَصَـٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ١٨-٢٠].

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَـٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَـٰلَـٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٠-٢٤].

محمد ﷺ وتربية الله له

(١٠) إنَّ من يتصدىٰ لذلك المنصب الجليل، منصب الرسالة، ودعوة الناس إلىٰ الحق، في حاجة كبرىٰ إلىٰ أن يربىٰ أحسن تربية، ويهذب بأفضل أنواع التهذيب.

وقد ربىٰ الله -تعالىٰ- نبيه محمدًا ﷺ فأحسن تربيته، فقص عليه من سيرة الرسل السابقين ما فيه العبرة، وأراه من سلوكهم مع أقوامهم ما يكفي لتهذيب نفس المصلح، وترويضها علىٰ الخير.

ثم أمره أن يقتدي بهم في الهدىٰ ويتأسىٰ بهم في الصبر والاحتمال، وأن يقول لقومه كما قال أولئك الرسل، وهو أنه لا يسألهم علىٰ تبليغ رسالات الله أجرًا، وإنما يطلب المثوبة من الله -تعالىٰ-، ورسول ذلك شأنه من حق الناس أن تصغىٰ إليه.

وحسبه أن يقول الله له: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝١٩٩ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

ومن وسائل تربية الله -تعالىٰ- له تزهيده في زخارف هذه الحياة، فلا يمد عينيه إلىٰ ما متع الله به أصنافًا من الخلق، فإن رزق الله له من الحكمة العالية، والقناعة والرضىٰ، والآداب= هو خير له وأبقىٰ من أولئك الزخارف.

وما أحوج الواعظ إلىٰ تدبر ذلك النوع من التربية، وترويض نفسه علىٰ الزهد في هذه الحياة حتىٰ لا يكون همه محصورًا فيها، وحتىٰ لا تفرق عليه شمله، وتضيع عليه غايته، وهي الدعوة إلىٰ الله -تعالىٰ-.

وقد تضمن ذلك الباب آداب الدعوة، وهي أن تكون بالحكمة والمواعظ

الحسنة، وأن يكون الجدال بالتي هي أحسن، وأن يعتصم صاحبها بالصبر علىٰ ما يناله من القوم من أذىٰ، ويعلم أن الله -تعالىٰ- معينه وناصره، وأنه بمرأىٰ منه ومسمع، متأسيًا بأصحاب العزم من الرسل.

ولعلّ في ذلك العبرة لدعاة اليوم وورثة الرسل، فلا ييأسون، ولا يتضجرون إذا حل بهم مكروه أو نالهم شيء من جرَّاء الدعوة.

الآيات

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠].

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ(١) وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ(٢) فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ(٣) مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ(٤) يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَاۚ(٥) قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّىۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ(٦) مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٩-٢٠٣].

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى(٧) وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا(٨) عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ(٩) ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ

---

(١) العفو: اليسر من أخلاق الناس. ولا تبحث عنها. العرف: المستحسَن.

(٢) نزغ: وسوسة.

(٣) طائف: شيء ألمّ بهم.

(٤) إخوانهم: إخوانه الشياطين الذين لم يتقوا.

(٥) اجتبيتها: طلبتها من الله -تعالىٰ-.

(٦) بصائر: يبصر بها الحق.

(٧) المثاني: الفاتحة لأنها تكرر في كل صلاة.

(٨) ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا﴾ ... إلخ: أي خصصناك بإنزال القرآن كما خصصنا أولئك بإنزال العذاب بهم.

(٩) عِضِين -جمع (عضة) كـ(عدة)-: الفرقة؛ أي جعلوه أجزاء آمنوا ببعض وكفروا ببعض.

﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾
وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ
رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ(١)﴾ [الحجر: ٨٧-٩٩].

﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ
هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا
عُوقِبْتُم بِهِ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ
عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم
مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٥-١٢٨].

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ وَلَا تَعْدُ
عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ
أَمْرُهُ فُرُطًا(٢)﴾ [الكهف: ٢٨].

﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ
آنَاءِ(٣) اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا
مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ(٤) فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ
وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٠-١٣٢].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي
أُمْنِيَّتِهِ(٥) خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ
﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً(٦) لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ
الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا
بِهِ فَتُخْبِتَ(٧) لَهُ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ

---

(١) اليقين: الموت.

(٢) فرطا: تقدما على الحق ونبذًا له.

(٣) آناء: ساعات، جمع (إنا) -بالكسر والقصر-، أو (أناء) -بالفتح والمد-.

(٤) لنفتنهم: لنختبرهم.

(٥) أمنيته: ما يتمناه من نصر الحق، ينسخ: يزيل.

(٦) فتنة: ابتلاء.

(٧) فتخبت: تخشع.

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى مِرْيَةٍ(١) مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٢-٥٥].

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الشعراء: ٢١٤-٢٢٠].

﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ(٢) ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ(٣) ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٥٨-٦٠].

﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ(٤) أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٥، ٥٦].

﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ ۚ(٥) بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٢-٥٥].

﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ(٦) وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ [الطور: ٤٨، ٤٩].

---

(١) مرية: شك.

(٢) يطبع: يحول بينها وبين الحق جزاء تعاميها عنه.

(٣) يستخفنَّك: يحملونك على الخفة والطيش بعدم الصبر.

(٤) سلطان: حجة.

(٥) أتواصوا به، أي: أوصى أولئك المفسدون بعضهم بعضًا بالاستهزاء بالرسل والطعن عليهم بالسحر والجنون.

(٦) بأعيننا: تحت رعايتنا فلا ننساك ولا نسلطهم عليك.

محمد ﷺ وتعنت المشركين معه

(١١) لقد كان تعنت المشركين مع رسول الله ﷺ وإحراجهم له بالغًا أشُدَّه؛ فمرة يقولون له ائت لنا بقرآن غير هذا القرآن أو بدِّلْه، فيعتذر لهم أن ليس في استطاعته أن يبدله من تلقاء نفسه؛ لأنَّه متبع لا مبتدع، ويريهم أنه لولا مشيئة الله أن يكون رسولًا ما تلاه عليهم ويستشهد علىٰ ذلك بأنَّه مكث فيهم دهرًا طويلًا قبل النبوة لم يحدثهم فيه بشيء، وذلك برهان أن ذلك الكتاب من عند الله لا من عنده.

وأحيانًا يقترحون عليه أن يأتيهم بملائكة تشهد له بالصدق، وتدل الناس علىٰ أنه رسول من عند الله، فيريهم أنَّه ليس من سنة الله -تعالىٰ- أن يبعث مع الرسل ملائكة يمشون مطمئنين علىٰ الأرض ليكونوا دلائل صدق الرسل.

ومرة ينكرون أن يكون الرسول من جنس البشر يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، فيريهم أنَّ ذلك هو سنة الله -تعالىٰ- في الرسل الماضين.

وآونة يقولون له لن نؤمن لك حتىٰ تفجر لنا ينبوعًا من الأرض؛ أونكون لك جنةَ من نخيل وعنب، أو تسقط السماء قطعًا علىٰ أعدائك، أو تأتي بالله والملائكة ليقابلوا الناس، أو يكون لك بيت من زخرفٍ، أو تصعد إلىٰ السماء، ثم بعد صعودك تنزل علينا كتابًا نقرؤه، ويكون مؤيدًا لدعواك، فيجيبهم الرسول بقوله: ﴿سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾، وهذه الآيات لا يعملها إلا إله، فليست من عملي.

دع ما يرمونه به من السحر والجنون، وأنه نقل كتابه من خرافات الأولين وأساطيرهم.

وقد أخبر الله -تعالىٰ- نبيه محمدًا ﷺ أن أولئك المعاندين ميئوس من إيمانهم فلا تطمع في هدايتهم، وأنه -تعالىٰ- لو أنزل عليهم كتابًا في قرطاس كما طلبوا فلمسوه بأيديهم= لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين، وكذلك لو أجابهم إلىٰ ما طلبوا من تنزيل الملائكة، بل لو أحيىٰ الله الموتىٰ وشهدت بصدق محمد، وجمع لهم من الأدلة والبراهين كل شيء طلبوه، ما كانوا ليؤمنوا؛ لأنَّهم معاندون، والمعاند لا يقنع بشيء؛ لأنَّه لا يطلب حقًّا، وإنَّما يبغي الإعنات والإحراج، ولو كان يطلب الحق لكفاه ما نصبه الله من الأدلة، وما أيد الله به رسوله من البراهين، وحسبه أنه أمِّيّ نشأ بين الأميِّين، ومكث أربعين سنة علىٰ ذلك الحال، ثم أنطقه الله بالحكمة العالية، وذلك الكتاب المعجز الذي تحدَّىٰ الله به العرب، وسجل عليهم العجز عن الإتيان بمثله، بل بعشر سور منه، ثم تحداهم بسورة واحدة.

كان يكفيهم ذلك لو كانوا يطلبون الحق، ولكنهم قوم خَصِمون كما وصفهم الله -تعالىٰ-، والمجادل الذي يحب الجدل للجدل لا للحق ليس في طاقتك إقناعه.

وهذه طائفة من القرآن الكريم تريك مقدار تعنُّت القوم مع رسول الله ﷺ، وتريك أن أولئك لا سبيل إلىٰ هدايتهم بحال.

الآيات

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ(١) فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ(٢) ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا(٣) وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ٧-١٠].

﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا(٤) مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١].

﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ(٥) رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ(٦) عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٥ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٦ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ

(١) قرطاس: ورق، فلمسوه: حتىٰ لا يقولوا إنّه مزور.

(٢) لقضي الأمر، أي: لحق إهلاكهم؛ لأنَّ ذلك سنة الله إذا أجاب قومًا في اقتراحهم فلم يهتدوا.

(٣) لجعلناه رجلًا: علىٰ شكل الرجل، وعند ذلك يختلط عليهم الأمر فيعودوا للاقتراح كما بدؤوا.

(٤) قُبُلًا: جمع (قبيل): كفلاء بما بشروا به أو جماعات.

(٥) مثل ما أوتي: من الوحي.

(٦) صَغَار: ذلة.

ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ [يونس: ١٥-١٧].

﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ﴿٦﴾ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي شِيَعِ[1] ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ[2] فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ[3] أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ﴾ [الحجر: ٦-١٥].

﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا[4] أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ[5] أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ[6] لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا ﴿٩٥﴾ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٦].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ[7] إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي يَعۡلَمُ ٱلۡقَوۡلَ

(١) شيع: فرق، جمع شيعة.

(٢) كذلك نسلكه: على هذا النحو ندخله، وفسره بقوله: لا يؤمنون به.

(٣) سُكِّرَت: سدت عن الأبصار من أجل السحر.

(٤) كسفًا: قطعًا، قبيلًا: جماعات.

(٥) زخرف: ذهب.

(٦) مطمئنين: ساكنين كالبشر.

(٧) محدث: جديد لم يألفوه.

فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلۡ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۭ[1] بَلِ ٱفۡتَرَىٰهُ بَلۡ هُوَ شَاعِرٞ فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآۖ أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ ﴿٦﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقۡنَٰهُمُ ٱلۡوَعۡدَ فَأَنجَيۡنَٰهُمۡ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهۡلَكۡنَا ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ [الأنبياء: ١-٩].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴿٥﴾ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٦﴾ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَٰلَ فَضَلُّواْ[2] فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيۡرٗا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَيَجۡعَل لَّكَ قُصُورَۢا﴾ [الفرقان: ٤-١٠].

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً[3] أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ﴿٢٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا ﴿٢١﴾ يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشۡرَىٰ[4] يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا[5]﴾ [الفرقان: ٢٠-٢٢].

﴿وَإِذَا رَأَوۡكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا لَوۡلَآ أَن صَبَرۡنَا عَلَيۡهَاۚ وَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ حِينَ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ مَنۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤١، ٤٢].

---

(١) أضغاث أحلام: تخاليطها جمع ضغث، وهو ما جمع من أخلاط النبات.

(٢) فَضَلُّوا: بضرب هذه الأمثال، ومنها أنه مسحور العقل، وفيه ردّ لحديث السحر، ودليل علىٰ عدم صحته؛ لأنّه يخالف الآية.

(٣) فتنة: ابتلاء.

(٤) لا بشرىٰ: لحلول العذاب بهم.

(٥) حجرًا محجورًا: كلمة استعاذة تقال عند لقاء عدو أو مكروه يطلبون بها من الله أن يمنع لقاءهم منعًا.

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٠-٥٢].

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ(١) مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ(٢) وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟(٣) مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ(٤) ﴿٤٥﴾ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ(٥) ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ(٦) عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ [سبأ: ٤٣-٥٠].

﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ(٧) مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ(٨) وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ [فصلت: ٣-٥].

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ(٩) ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ

---

(١) إفك: كذب.

(٢) من كتب يدرسونها، أي: تدلهم على شبهة في كفرهم.

(٣) وما بلغوا: الضمير لكفار مكة.

(٤) نكير: إنكاري.

(٥) مثنىٰ وفرادىٰ: جماعات ووحدانًا.

(٦) يقذف الحق: يرمي به الباطل فيدمغه.

(٧) أكنة: أغطية، جمع كنان.

(٨) وقر: صمم.

(٩) عظيم: بالجاه والمال.

﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا(١) وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ
أُمَّةً وَٰحِدَةً(٢) لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ
﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا(٣) وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣١-٣٥].

(١) سخريًّا: يسخره في مصالحه.

(٢) أمة واحدة: علىٰ ملة واحدة، وهي الكفر.

(٣) زخرفًا: ذهبًا.

محمد ﷺ وتسلية الله -تعالى- له

(١٢) بعد ذلك العنت الذي لقيه من قومه، واقتراح الآيات، كان في حاجة إلىٰ تسلية الله -تعالىٰ- له، وبيان أن ذلك سنة الله مع كل رسول، ومتىٰ عرف أن ذلك لم يكن خاصًا به، وإنما هو عادة الناس مع كل رسول، فإنه يصبر ويتسلىٰ.

ثم أراه أنَّه إن كان قد عز عليه إعراض المشركين عن دعوته، وإنكارهم لنبوته، فلا غنىٰ له عن الصبر والاحتمال، ولو استطاع أن يطلب سربًا في الأرض يخلص به من أولئك القوم، أو سلمًا في السماء فيأتيهم بآية تخضع لها أعناقهم= فليفعل، فخير له أن يرضىٰ، وألاتذهب نفسه عليهم حسرات.

ولو شاء الله أن يجمعهم علىٰ الهدىٰ لفعل، ولكن حكمة الله قضت بأن يضل أمثال أولئك المتعنتين؛ لأنَّهم لا يريدون الحق، ولا يعملون للوصول إليه، وعطلوا مواهب الله فيهم، وأهملوا سمعهم وأبصارهم وعقولهم، فكانوا أحق بذلك العقاب في الدنيا من حرمانهم من الهدىٰ والشقاء في الآخرة بفقدهم السعادة.

وما أحوج المصلح إلىٰ تدبر ذلك النوع من الكتاب الكريم، ليتأسىٰ برسول الله ﷺ، ويصبر علىٰ إيذاء القوم وبلائهم؛ لأن ما يصيب الرسل من جراء الدعوة إلىٰ الله يصيب أتباعهم؛ فلذا كان من حقهم أن يتبعوا طريقهم، ويتسلوا تسليتهم، ويوقنوا بأن هذه سنة الله فيمن سبقهم.

الآيات

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا[1] فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣-٣٦].

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ[2] وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ[3] ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ[4] مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

(١) نفقًا: منفذًا.

(٢) في أفواههم: الضمير للرسل؛ أي أسكتوهم عن الكلام.

(٣) مريب: موقع في الريبة.

(٤) سلطان: حجة.

لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ٩-١٤].

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ[1] أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ[2] فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ[3] ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً[4] لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ[5] لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٢-٥٤].

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٠، ٣١].

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ [سبأ: ٣٤-٣٨].

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [فاطر: ٤].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ [فصلت: ٤١-٤٣].

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ[6] ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الزخرف: ٦-٨].

---

(١) تمنى، أي: نصر الحق.

(٢) الشيطان: شيطان الإنس، أمنيته: ما يتمناه.

(٣) ينسخ: يزيل.

(٤) فتنة: اختبارًا، مرض: شك.

(٥) تُخْبِت: تطمئن.

(٦) مثل الأولين: صفتهم في إهلاك الله لهم، فقومك كذلك.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ[1] إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ[2] وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ٢٣ ۞ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٢٤ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [الزخرف: ٢٣-٢٥].

﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ٥٢ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ[3] بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ٥٣ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ ٥٤ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٢-٥٥].

---

(١) مترفوها: متنعموها.

(٢) أمة: ملة.

(٣) أتواصوا به: كأن الأولين والآخرين أوصىٰ بعضهم بعضًا بذلك القول حتىٰ قالوه جميعًا، ﴿بَلۡ هُمۡ﴾ . . . إلخ: إضراب؛ نظرًا لبعد الزمنين.

الصلاة

(١٣) فُرضت الصلاة المعروفة قبل الهجرة بقليل في مكة، وقد اهتم القرآن بها فوق اهتمامه، بسائر المأمورات، وبين افتراضها بأساليب شتىٰ، فتارة بالأمر الصريح، وتارة بالثناء علىٰ فاعليها والذم لتاركيها، ولم يبين القرآن صريحًا أعداد الصلوات ولا أعداد الركعات، وإنما ذكر أوقاتها إجمالًا، وقد بينت السنة الكيفية عملًا، فكان عليه الصلاة والسلام يصلي بالمسلمين الصلوات الخمس، والمسلمون وراءه جماعات، وقال لهم: **«صلوا كما رأيتموني أصلي»**(١).

ولأنَّ الصلاة لها أهميتها لم يسقطها الله عن المسلمين لا في أمن ولا في خوف، فأوجبها في ساحة القتال، ليذكروا بها ربهم، وتقوىٰ بها عزيمتهم، وأباح للمسافر أن يقصرها، وللمحارب أن يصلي كيف أمكنه ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠١-١٠٣].

(١) رواه البخاري: (٦٣١). (عمرو)

ولعل فيه عبرة لقوم يتكاسلون عن الصلاة؛ لأنَّهم لا يعرفون لها من الأهمية ما جعله الله لها، فلم يسقطها حتىٰ في حالة الحرب.

ثم أوجب لها الطهارة من الحدث والخبث، وأمرنا أن نأخذ الزينة عند كل مسجد، وقد اهتم القرآن بذكر صلاة الجمعة؛ لأنَّها شعيرة كبرىٰ، ورابطة من أكبر الروابط بين المسلمين، وقد شرط لها الجماعة؛ لتكون مظهرًا من مظاهر الوحدة، وأمر الناس أن يسعوا إليها إذا نودي لها من يوم الجمعة ويتركوا ما بأيديهم من عمل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [الجمعة: ٩].

وكانت فريضة الجمعة بالمدينة بعد استقرار أمر المسلمين واستتباب الأمر لهم، وقد بين النبي ﷺ ركعاتها وخُطبَتَيها بالعمل، وكان يوم الجمعة في ذلك العهد يومًا عظيمًا للمسلمين تستعرض فيه أعمالهم ومصالحهم الدينية والدنيوية، وشؤونهم في الحرب والسلم، فكانت المساجد مجمعًا عامًّا يحضر فيه الناس، ويسمعون ما ينفعهم ويفيدهم.

فكان الرجل من المسلمين يقصد إلىٰ المسجد في ذلك اليوم، فيخرج منه وقد تزود بنصائح غالية، وشهد مجمعًا من مجامع المسلمين الحافلة بالعظات والعبر، فيشعر وهو خارج من المسجد أنه قد ازداد بذلك الجمع إيمانه، وقوي يقينه، وعلت همته؛ لأنَّه يرىٰ قومه علىٰ أحسن ما ينتظر لهم، من تأسِّيهم بإمام واحد يصلون إلىٰ قبلة واحدة، ويعبدون إلها واحدًا، علىٰ ملة رسول واحد، وذلك العمل بتكرره كل أسبوع من شأنه أن يوحد القلوب، ويربط بين الأشخاص المختلفة، وبذلك يصبحون عبادًا لله إخوانًا، لا يتباغضون، ولا يتحاسدون.

محمد ﷺ هجرته

(١) لقد أفاض علماء السير في الكلام علىٰ هجرة النبي ﷺ من مكة المكرمة إلىٰ المدينة المنورة وأسبابها، وهي علىٰ كثرتها ترجع إلىٰ تتابع أذىٰ قريش عليه وعلىٰ أصحابه من جراء دينهم وعقيدتهم، ودعوة الناس إلىٰ ذلك الدين، حتىٰ اضطروهم إلىٰ أن يهاجروا إلىٰ الحبشة بأمر من رسول الله ﷺ مرتين.

ولما اشتد بهم الأذىٰ، وضيقت قريش عليه وعلىٰ أصحابه الخناق، حتىٰ أصبحوا يحاربونهم في أرزاقهم، ويحملون قريشًا علىٰ مقاطعتهم في وسائل الحياة، ودبروا لرسول الله ﷺ مؤامرة ليقتلوه، وإن كان تدبير الله فوق تدبيرهم: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

حين ذاك أذن الله له بالهجرة ومعه صديقه الأكبر أبو بكر رضي الله عنه فأنجاه الله من مكرهم، وكان له من الهجرة خير نصير علىٰ إعلاء دين الله، وحماية الحق، ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا[1] كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ﴾ [النساء: ١٠٠].

---

(١) طريقًا يرغم به قومه علىٰ نصر مبادئه.

محمد ﷺ دعوته بالمدينة، لليهود والنصارى

(٢) لقد أفاض القرآن في القسم المكي منه في محاجَّة المشركين من العرب وتسفيه أحلامهم في عقائدهم الوثنية، وأقام الأدلة علىٰ وجوب توحيد الإله في العبادة كما هو واحد في الخلق والرزق وكذلك أفاض في الكلام علىٰ الشُّبَه التي لاكتها ألسنتهم في الرسالة، والكلام علىٰ البعث والجزاء، وقد أريناك مقدار عناية القرآن بأولئك الأقسام في دعوة الرسول ﷺ بمكة، أما في المدينة فكان أكبر همه التشريع الديني والمدني والسياسي، وبيان نظام المعاملات ونظام الأسر والبيوت وما إلىٰ ذلك.

غير أنَّه لما كان في أهل الكتاب من اليهود والنصارىٰ فريق دخل عليه الشرك في العقيدة كما دخل علىٰ مشركي مكة، وكان فيهم من يتغالىٰ في رسول الله عيسىٰ حتىٰ أخرجه من صف البشر، وكان يتخذ من الآيات التي أيده الله بها في صغره وفي نشأته تكأة يعوّل عليها في ذلك الشرك، وكان من اليهود أيضًا من تغالىٰ في بعض البشر كالعزير حتىٰ قال: إنَّه ابن الله، ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْۚ﴾.

لما كان فريق من اليهود والنصارىٰ دخل عليهم الشرك ولم يبقَ لهم توحيد صحيح، اهتم القرآن الكريم ببيان أمر أولئك، فمرة يبلغهم العقيدة بأسلوب بيِّن واضح علىٰ طريقته في بيان العقائد، ومرة يحاججهم ويناقشهم فيما هم عليه علهم يفقهون أمر التوحيد، ويقيمونه كما أمره الله، ومرة يوجه أسئلة لنبي الله عيسىٰ في الآخرة يسأله فيها -وهو أعلم بما عند نبي الله عيسىٰ-: أأنت قلت للناس

اتخذوني وأمي إلهين من دون الله؟ فيجيبه بكلمات التنزيه والتقديس، ويقول له ما أمرتهم إلا بعبادتك وحدك، وأنا بريء من كل شرك يقع من أحد توابعي.

وهاك طائفة من القرآن الكريم يخاطب الله بها أهل الكتاب، ويصحح بها أخطاءهم، ويرشدهم بها إلىٰ التوحيد الصحيح.

الآيات

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٩، ٦٠].

﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤۡتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادٗا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ(١) بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ۝٧٩ وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩، ٨٠].

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ(٢) أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ۝١٧١ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ۝١٧٢ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ

---

(١) متخلقين بأخلاق الرب.

(٢) كلمة البشارة من جبريل لأمه، أطلق عليه كلمة؛ لأنَّه ليس له أب فنسب إلىٰ كلمة البشارة، وروح: رحمة من الله.

وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٧١-١٧٣].

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٧، ١٨].

﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٢-٧٧].

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٦-١١٧].

محمد ﷺ والقتال

(٢) مكث رسول الله ﷺ بمكة ثلاث عشرة سنة قائمًا بالدعوة إلىٰ دينه، وهو يصبر علىٰ صنوف الأذىٰ، والفتنة له ولأصحابه، ممَّا اضطر المسلمين إلىٰ أن يهجروا مكة فرارًا بدينهم إلىٰ بلاد الحبشة، إلىٰ أن أذن الله له بالهجرة إلىٰ المدينة المنورة، ثم أذن الله له بالقتال بعد أن مضىٰ الشطر الأول من حياته الدينية ولا سلاح له سوىٰ اعتصامه بالصبر، وتسليته بمن سبقه من الرسل، والسور المكية حافلة بضروب السلوىٰ، وقد عرضنا لها في الكلام علىٰ الدعوة في مكة.

وإنَّك لو تأملت ما يقصه الله عليه من أسباب القتال لعلمت أنَّه لم يشرع له القتال محبة في إراقة الدماء، أو تخريب البيوت، أو تيتيم الأطفال، وإنما شرعه علىٰ علمه -تعالىٰ- بما فيه من أضرار لدفع ضرر أشد.

شرعه الله -تعالىٰ- لرسوله محمد ﷺ ليدفع عن نفسه ونفس أصحابه أنوع التعذيب التي كان يلقاها المسلم من جراء عقيدته؛ ليرجع عن دينه الذي اعتنقه واختاره لنفسه، كما وقع لعمار بن ياسر وبلال، وكثير من الصحابة الذين أسلموا أيام قلة المسلمين، فكانوا يذيقونهم ألوانًا من العذاب، ويقولون لهم لا تزالون هكذا حتىٰ تكفروا بمحمد ودين محمد، فشرع الله القتال؛ ليكون الناس أحرارًا فيما يختارون لأنفسهم من العقائد، لا لإكراههم علىٰ الدين كما يظن فريق من الناس؛ لأنَّ الله -تعالىٰ- يقول: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

ولولا أنَّ الله -تعالىٰ- أباح للناس أن يدفعوا الشر بالشر، والعدوان بالعدوان، ما ثبت حق في الأرض، وما عبد الله بنوع من أنواع العبادة.

أذن الله لنبيه أن يقاتل قومًا أخرجوه من بلده، وحالوا بينه وبين وطنه ظلمًا وعدوانًا، ولا ذنب له إلَّا إيمانه بربه، واعتصامه بالحق الذي بعث به: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠].

أذن الله لرسوله بالقتال حتىٰ تكون الدعوة إلىٰ الله حرة، لا يقف أحد في سبيلها، وحتىٰ يكون الناس آمنين علىٰ أنفسهم وعقائدهم من سلطان الباطل، وزلزلة الطغيان، ولذلك جعل الله للقتال غاية، وهي ألا تكون فتنة للناس في عقائدهم ويكون الناس أحرارًا فيما يختارون: ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩] فلا يقف شيء في سبيل الدعوة إليه.

وآية أنَّ القتال لم يُرَد منه إكراه الناس علىٰ الدين أن الله -تعالىٰ- خصَّه بالمعتدين؛ إذ يقول: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾.

ثم يختم الآية بقوله: ﴿فَإِن قَـٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ... [البقرة: ١٩١، ١٩٢] إلخ الآيات، ويقول: ﴿۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٦١]، وقال: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٨، ٩].

وجملة القول: إنَّ القتال لم يشرع لحمل الناس علىٰ الإسلام بسلطان القوة؛ فإنَّ العقيدة ليس من شأنها أن تعتمد إلا كراه، وإنما تعتمد الإقناع، ولو كان طريق الدعوة إلىٰ الإسلام هو السيف كما يزعم خصوم الإسلام فلْيحدثونا أين كان ذلك السيف أيام إقامة الرسول بمكة وسيف التعذيب مصلت علىٰ رقاب أصحابه من قريش، والناس تدخل في دينه علىٰ الرغم من ذلك البطش القاهر، وأين كان ذلك السيف وهو يمر بأصحابه وهم يعذبون فلا يستطيع أن ينقذهم من

العذاب، ويأمرهم بالصبر، ويعدهم الجنة، كما وقع لعمار بن ياسر، مر به رسول الله ﷺ وقريش تعذبه فقال: «**صبرًا آل ياسر صبرًا آل ياسر إنَّ موعدكم الجنة**»[(١)].

نعم كان مع محمد ﷺ في ذلك الحين قوة فوق قوة السيف، وسلطان لا يعلوه سلطان، ألا وهو قوة الحق الذي أتىٰ به، وسلطان الحجة والبرهان الذي تملك القلوب، فاستخف بكل شيء ينالها في ذلك السبيل، فإن كان هناك إكراه علىٰ الدين فهو ذلكم الإكراه، وإن كان في يد محمد سيف فهو ذلكم السيف الصارم الذي لا تستطيع قوة في الأرض أن تقف في سبيله، وإلىٰ القارئ طائفة من آي القرآن الكريم في القتال والغاية منه.

(١) المعجم الكبير، للطبراني: (٢٤/ ٣٠٣)، المستدرك: (٣/ ٤٣٢)، شعب الإيمان: (٣/ ١٧٢). (عمرو)

الآيات

﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ۝١٩٠ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ(١) وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ(٢) أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝١٩١ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝١٩٢ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٩٣ ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ(٣) قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠-١٩٤].

﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ۝٧٥ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ(٤) فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٥، ٧٦].

﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ [الأنفال: ٣٩].

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٥٥ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ ۝٥٦ فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ فَشَرِّدۡ بِهِم

---

(١) ثقفتموهم: وجدتموهم.

(٢) الفتنة: صرف الناس عن عقائدهم بأنواع العذاب.

(٣) الحرمات: ما يجب احترامه، قصاص: يقتص بمثلها إذا انتهكت.

(٤) الطاغوت: الباطل.

﴿مَّنْ خَلْفَهُمْ(١) لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ(٢)
إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا
لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ(٣) وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ
مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ
لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾
[الأنفال: ٥٥-٦١].

﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ۙ
إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا
بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم
مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢، ١٣].

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا
مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ
صَوَامِعُ(٤) وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن
يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠].

﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ
وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ
وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا(٥) عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾
[الممتحنة: ٨، ٩].

---

(١) فشرد بهم مَنْ خَلفهم: اهزمهم هزيمة منكرة ليكونوا عبرة لمن وراءهم من العدو.

(٢) علىٰ سواء: مستويًا أنت وهم في العلم بنقض العهد.

(٣) قوة: نكَّر القوة لأنها تختلف باختلاف الزمان والمكان؛ أما الخيل فهي عظمة في كل وقت تعتز بها الأمم. ولذلك ذكرها بالنص.

(٤) صوامع: معابد الرهبان، بِيَع: كنائس النصارىٰ، صلوات: كنائس اليهود بالعبرية.

(٥) ظاهروا: عاونوا.

التحريض على القتال

(٣) علم الله أن القتال ضرورة من ضرورات حماية الدين لصدّ عدوان الباطل، وكبح جماح الشهوة، فأذن به وأوجبه، وعلم أنَّه شاقّ علىٰ النفوس، فدعا إليه، وحبب الناس فيه.

وقد سلك القرآن الكريم في سبيل الدعوة إليه أساليب شتىٰ، ووسائل مختلفة؛ فمرة يلجأ إلىٰ العواطف فيحركها، وإلىٰ النفوس فيلهب فيها الغيرة، والحمية، ويريها أن ليس من الكرامة أن يقف الناس من أولئك الإهانات التي تقع علىٰ المستضعفين من الرجال والنساء والولدان موقف الخور والجبن، بل عليهم أن يدفعوا عنهم كل ما ينالهم من أذىٰ، ويعترضهم من ضرر؛ إذ يقول: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾.

ومرة يضرب لهم الأمثال بقوم تركوا ديارهم علىٰ كثرتهم خوفًا من الموت، فضرب الله عليهم الذلة، وأماتهم موتًا أدبيًا، ولما تنبهوا لما يجب عليهم، وأخذوا في وسائل الحياة، وحماية الحق والحقيقة= أحياهم حياة طيبة: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

وأحيانًا يعمد إلىٰ مثبطات النفوس والمعوقات عن الجهاد، من آباء وأبناء، وإخوان وأزواج ومال مكتسب، وتجارة يخشىٰ عليها الكساد إذا تركها صاحبها، فيرينا أنَّ أولئك المثبطات لا ينبغي أن تكون أحب إلينا من الله ورسوله، وجهاد في سبيله، ويهددنا إذا نحن تأثرنا هذه المثبطات أن تكون أحب إلينا من الله

ورسوله، وجهاد في سبيله، ويهددنا إذا نحن تأثرنا هذه المثبطات أن ننتظر عذاب الله وبطشه: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾.

ومرة يعدنا بالنصر ويرينا أن الأيام دول، وأن الضعيف قد يصبح قويًّا، القوي يصبح ضعيفًا، وألا يصح لنا ونحن الأعلَون أن نضعف أمام الباطل أونحزن لعمل أولئك المفسدين، وأنه إن مسنا ألم من القتال فخصومنا كذلك.

ومرة ينهانا أن نصغي لوساوس الشيطان، وأن نقول لمن قتل من أصحابنا أو أبنائنا في سبيل الله ﴿لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟﴾؛ ليكون ذلك القول حسرة في النفوس.

ومرة يرينا أن الذين قتلوا في سبيل الله لم يموتوا، وإنما هم أحياء عند ربهم، يرزقون رزقًا معنويًّا يليق بعملهم وجهادهم.

ومرة يرينا أن عدة النصر -بعد أن نعد للقوم ما استطعنا من قوة مادية- أن نثبت أمام العدو، ونذكر الله لتقوىٰ فينا العقيدة، وأن نطيع الله ورسوله، ولا نتنازع فنفشل وتذهب قوتنا، وأن نصبر علىٰ ما ينالنا من أذىٰ.

وتلك هي القوة المعنوية التي يحتاجها المسلم بعد القوة المادية، وهي قوة العقيدة، والإيمان بالله -تعالىٰ-، وبجزائه العادل، وإثابته للمجاهدين المؤمنين.

ومرة يرينا أن هناك فرقًا كبيرًا بين المؤمن الذي يجاهد في سبيل الله، والكافر الذي يقاتل في سبيل الطاغوت، علىٰ اشتراكهما في الآلام الحسية، هي أن لنا عقيدة في الله، وليست لهم هذه العقيدة، ولنا رجاء في ثواب الله -تعالىٰ-، أما هم فليس لهم ذلك الرجاء، وذلك الفرق هو الذي يجعل المؤمن أقوىٰ ما يكون في الحرب، وكلما قوي في نفسه ذلك الرجاء قويت روحه، وأتىٰ بخوارق العادات في الحروب: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

ولعل في ماضي المسلمين ما يرشدك إلىٰ ذلك كله.

الآيات

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ(١) ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ ﴾ [البقرة: ٢٤٣، ٢٤٤].

﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ(٢) فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا(٣) بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ(٤) ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ(٥) ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ(٦) عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا(٧) ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾

---

(١) ﴿فَقَالَ لَهُمُ﴾ . . . إلخ: أي: ضرب عليهم الذلة. وهو موت أدبي جزاء جبنهم وخوفهم من الموت.

(٢) قرح: جرح.

(٣) نداولها: نصرِّفها، ونجعلها دُوَلًا: يومًا لفرقة، ويومًا لأخرىٰ: ليعتبروا.

(٤) يمحص: يطهر قلوبهم من الضعف.

(٥) ولمَّا يعلم، أي: علم ظهور.

(٦) انقلبتم: رجعتم إلىٰ الكفر.

(٧) كتابًا مؤجلًا، أي: كتب ذلك كتابًا موقتًا لا يتقدم ولا يتأخر.

﴿وَكَأَيِّن(١) مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ(٢) كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا(٣) لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا ٱسْتَكَانُوا ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩-١٤٨].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى(٤) لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ(٥) ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٦-١٥٨].

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧٥].

﴿۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَٰتِلُونَ فِي

---

(١) كأين: كم.

(٢) رِبّيون: جمع رِبّيّ، وهو الرباني المتخلق بأخلاق الرب.

(٣) وهنوا: فتروا.

(٤) غزّىٰ: جمع غازٍ، ك: عافٍ وعفىٰ.

(٥) ﴿لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ﴾ ... إلخ: علة لـ﴿قَالُوا﴾، أي: السبب في ذلك القول أن يجعل الله ذلك القتل حسرة في قلوبهم.

سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ(١) إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٤-٧٦].

﴿وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٠٤].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا(٢) فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ(٣) ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ(٤) أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ(٥) فَقَدۡ بَآءَ(٦) بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ وَمَا رَمَيۡتَ(٧) إِذۡ رَمَيۡتَ(٨) وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰۚ وَلِيُبۡلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ(٩) كَيۡدِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الأنفال: ١٥-١٨].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ(١٠) وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٥، ٤٦].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلۡـَٰٔنَ(١١) خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ

---

(١) **أولياء الشيطان**: حزبه وأنصاره.

(٢) **زحفًا**: زاحفين عليكم.

(٣) **فلا تولوهم الأدبار**: لا تفروا من القتال.

(٤) متحرِّفًا لقتال؛ أي لمصلحة حرب.

(٥) أو متحيزًا إلىٰ فئة: جماعة من المسلمين يستنجد بها.

(٦) باء: رجع.

(٧) وما رميت: أصبت مقاتل القوم.

(٨) إذ رميت: أتيت بصورة الرمي.

(٩) موهن: مضعف.

(١٠) ريحكم: قوتكم، سماها ريحًا؛ لأنَّ الريح قوة عظيمة، تدمر كل شيء بأمر ربها، وهي التي سلطها علىٰ الماضين، وكذلك الاتحاد قوة عظمىٰ.

(١١) الآن، أي: وقت ضعفكم، والآية بشارة من الله بأن المؤمنين تقوىٰ نفوسهم حتىٰ يكون الواحد مقاومًا للعشرة بما أعطاه الله من قوة العقيدة، وقد يؤيد ذلك بعض الغزوات.

مِائَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٦٥، ٦٦].

﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ(١) حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ(٢) وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا(٣) وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٣٨-٤١].

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَۖ وَعْدًا(٤) عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةًۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣].

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ(٥) حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ(٦) فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ(٧) فَإِمَّا مَنًّۢا

---

(١) فتربصوا: انتظروا.

(٢) يستبدل قومًا غيركم: كما هي سنة الله في أن يرث القوي الضعيف.

(٣) خفافًا وثقالًا: لقلة عيالكم وكثرتها.

(٤) وعدًا، أي: وعد بذلك الجزاء وعدًا.

(٥) فضرب الرقاب: فاضربوا الرقاب ضربًا.

(٦) أثخنتموهم: أكثرتم قتلهم.

(٧) فشدوا الوثاق: فانسروهم.

بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ[1] ذَٰلِكَ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ[2] بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٤﴾ سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ ﴿٥﴾ وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ[3] وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٩﴾ ۞ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ[4] وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن[5] مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ﴾ [محمد: ٤-١٣].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾ [الصف: ٢-٤].

---

(١) تضع الحرب أوزارها: آلاتها وأثقالها كالسلاح. والمراد حتىٰ تنتهي.

(٢) ليبلوا: ليختبر.

(٣) فتعسًا لهم: فعثورًا وانحطاطًا.

(٤) دمر الله عليهم: أهلك عليهم ما اختصهم به من أهل ومال.

(٥) كأيِّن: كم.

الإيمان، والكفر، والنفاق[1]

(٤) سنة الله في الخلق أن يصير الناس أحزابًا وشِيَعًا إذا دعاهم داعي الإصلاح، ففريق يناصر الداعي سرًّا وعلانية، وذلك هو الفريق الذي آمن بالدعوة، واطمأنت نفسه إلىٰ صدق حاملها، ولم يوجد في نفسه من الأمراض ما يحول دون قبولها، ورأىٰ عنده من الشجاعة ما يحمله علىٰ مناصرة الداعي، والتعاون معه، وأولئك الذين يسميهم القرآن المؤمنين.

وفريق آخر شبَّ علىٰ حب الأنفة، والتأبِّي علىٰ الإصلاح، ومرضت نفسه بالعظمة الكاذبة واستولت عليه التقاليد الموروثة، فيقاوم الدعوة وحامل الدعوة، علىٰ الرغم من قيام الأدلة الكثيرة علىٰ خطئه في هذه المقاومة، وذلك هو الصنف الكافر.

وهناك فريق لم يجد عنده من الجرأة ما يجعله مع فريق الكفار، ولم يجد عنده من سلامة الصدر وطهارة النفس ما يجعله مع طائفة المؤمنين، فأخذ يوارب ويداجي الفريقين: فريق المؤمنين وفريق الكفار، فإذا شئت أن تحكم عليه بالعداوة للمؤمنين خدعك ظاهره، وإن أردت أن تضمه إلىٰ المؤمنين حال دون ذلك فساد قلبه.

وقد عرّفنا الله -تعالىٰ- أوصاف المؤمنين وأعمالهم، ثم أوصاف الكفار، وأوصاف المنافقين، وعلىٰ المؤمن أن يعنىٰ بنفسه فيعرضها علىٰ أولئك الأوصاف التي ذكرها الله في كتابه لكلٍّ من هذه الفرق، فقد يكون مخدوعًا في نفسه، ويرىٰ نفسه مؤمنًا وهو عند الله كافر أو منافق، وقد يكون عنده شعبة من النفاق، وهو لا يعلمها، فيعالج نفسه حتىٰ يصير مؤمنًا حقًّا.

---

(١) فصلت القول في تفريق القرآن بين أهل الإيمان والكفر والنفاق في كتابي: «الصحابة والقرابة في القرآن الكريم .. دراسة تحليلية موضوعية». (عمرو)

الآيات في المؤمنين

﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ(١) وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٣-٥].

﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ(٢) بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ(٣) وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ(٤) وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۝١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ

---

(١) الغيب: ما غاب عنهم كالإيمان بالله وملائكته واليوم الآخر.

(٢) مَنْ آمن: فِعْل من آمن.

(٣) وفي الرقاب: فكها من الأسر.

(٤) **البأساء**: الفقر، **الضرَّاء**: المرض، **البأس**: الشدة في القتال.

﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٦].

﴿وَكَأَيِّن(١) مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ(٢) كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ(٣) لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦-١٤٨].

﴿۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ(٤) لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧١-١٧٤].

﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَـَٔايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ(٥) ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ(٦) فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩٥].

---

(١) كأيّن: كم.

(٢) رِبّيّون: جمع (ربّي)، وهو الرباني.

(٣) وهنوا: جبنوا عن القتال.

(٤) القرح: الجرح.

(٥) الألباب: العقول.

(٦) بعضكم من بعض: هم سواء في المجازاة على الأعمال.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ[1] فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ [الأنفال: ٢-٤].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ[2] وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ[3] وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ[4] تَكُن فِتۡنَةٞ[5] فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾ [الأنفال: ٧٢].

﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧١، ٧٠].

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ

---

(١) الطاغوت: الباطل.

(٢) آووا: ضموا إليهم المهاجرين، ومنه ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ﴾: ضمه إليه.

(٣) أولياء بعض: نصراء بعض.

(٤) إلا تفعلوه: من تواصي المؤمنين ومقاطعة الكافرين.

(٥) فتنة: بلاء ومحنة.

﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ(١) ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١١، ١١٢].

﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ(٢) ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ(٣) بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ(٤) مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ١٩-٢٤].

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ(٥) ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الحج: ٣٤، ٣٥].

﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠، ٤١].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ(٦) فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ(٧) ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ

---

(١) السائحون؛ أي في الأرض فيعتبروا بمن سبقهم كما قال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ ... إلخ.

(٢) الميثاق: العهد.

(٣) يدرؤون: يزيلون.

(٤) ومن صلح، أي: دون من فسد فلا يدخلها؛ لأنَّها دار استُحِقت بالعمل.

(٥) المخبتين: المتواضعين.

(٦) ما ملكت أيمانهم: النساء المملوكات.

(٧) العادون: المتجاوزون الحد.

يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾
[المؤمنون: ١-١١].

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ[١] هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ
سَلَٰمًا[٢] ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا[٣] ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ
عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا[٤] ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾
وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ[٥] وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا[٦] ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا
يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ
وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا[٧] ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾
إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ[٨] سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ
ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا[٩] ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ
لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا[١٠] ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ
رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا[١١] ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا
وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ[١٢] وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا[١٣] ﴿٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ
بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا

(١) هونًا: هيِّنين.

(٢) سلامًا: سدادًا من القول يسلمون به من الأذىٰ.

(٣) سُجَّدًا وقيامًا: خاضعين قائمين له بحق ربوبيته.

(٤) غرامًا: شدة ومصيبة.

(٥) يقتروا: يضيقوا.

(٦) قوامًا: وسطًا.

(٧) أثامًا: جزاء إثم.

(٨) ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ﴾ ... إلخ: يبدل ملكة المعصية في النفس بملكة الطاعة.

(٩) يتوب إلىٰ الله متابًا: يرجع بذلك إلىٰ الله متابًا مرضيًّا.

(١٠) كرامًا: معرضين مكرمين أنفسهم.

(١١) صمًّا وعميانًا: غير واعين ولا متبصرين بما فيها.

(١٢) **قرة أعين**: ما تسر به العين لتوفيقهم للطاعة.

(١٣) **إمامًا**: قدوة صالحة للأتقياء.

﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ(١) بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْۖ(٢) فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا(٣)﴾
[الفرقان: ٦٣-٧٧].

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا
يَسْتَكْبِرُونَ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ(٤) جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا(٥) وَمِمَّا
رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾
[السجدة: ١٥-١٧].

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ
وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ(٦) مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِۖ
فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ(٧) وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ
بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾
[الأحزاب: ٢٢-٢٤].

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ
فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ سِيمَاهُمْ(٨) فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمْ
فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ
ٱلْكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩].

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ
فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

---

(١) **يعبأ**: يعتد.

(٢) **دعاؤكم**: عبادتكم.

(٣) **لزامًا**: لازمًا يحيق بكم ولا بُدَّ.

(٤) **تتجافىٰ**: ترتفع وتتنحىٰ عن الفرش.

(٥) **خوفًا**: من العقاب. **وطمعًا**: في الثواب.

(٦) **صدقوا**: وفوا.

(٧) **قضىٰ نحبه**: مات.

(٨) **سيماهم**: علامتهم. **مَثَلهم**: صفتهم. **شطأه**: فرخه، وهو ما خرج منه وتفرع إلىٰ جانبيه، والمراد أنه: برز إلىٰ وجه الأرض وصار له جوانب. **فآزره**: قوّاه. **فاستغلظ**: غلظ. ﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾: استقام عليها. **ليغيظ**: علة لتشبيههم بالزرع في زكائه واستحكامه.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ[1] ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٥-١٩].

﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا[2] ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ[3] ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَـٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِي جَنَّـٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ [المعارج: ١٩-٣٥].

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا[4] كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا[5] ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ[6] مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا[7] ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا[8] قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ[9] نَضْرَةً[10] وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا[11] ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ[12] قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ [الإنسان: ٥-١٤].

---

(١) **يهجعون**: ينامون.

(٢) **هَلوعًا**: شديد الحرص قليل الصبر.

(٣) **المحروم**: الذي لا يسأل لتعففه.

(٤) **مزاجها**: ما تمتزج به.

(٥) **مستطيرًا**: فاشيًا منتشرًا.

(٦) **علىٰ حبه**، أي: الله أو الطعام.

(٧) **أسيرًا**: مملوكًا.

(٨) **عبوسًا**: يشبه الأسد العبوس، **قمطريرًا**: شديد العبوس.

(٩) **لقَّاهم**: أعطاهم.

(١٠) **نضرة**: حسنًا في الوجوه.

(١١) **زمهريرًا**: بردًا.

(١٢) **ذُلِّلَت**: أدنيت.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [العصر: ١-٣].

*** تعليق وعبرة:**

(٥) إن قلب الإنسان ليضطرب حينما يقرأ الآيات السابقة في بيان أوصاف المؤمنين ثم يسأل نفسه هل أنا مؤمن ذلك الإيمان الذي بيَّنه الله في كتابه، أو أن الذي عندي إيمان يغاير ذلك الإيمان؟ ولا سيما عندما يقرأ قول الله -تعالىٰ-: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾، وهو لم يجاهد ولم تحدثه نفسه بالجهاد، وكيف تخلص من قول الله -تعالىٰ-: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾، ومعناه أن إيمانًا لم يكن علىٰ ذلك النحو هو إيمان كاذب، لأنه هو الذي يقابل الصادق.

وكذلك يقف الإنسان مبهوتًا حينما يقرأ قول الله -تعالىٰ-: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ ليسأل نفسه هل أنا من أولئك المؤمنين الذين كتب الله لهم الفلاح وجعلهم من ورثة الجنة، وهل أنا خاشع في صلاتي معرض عن اللغو، مؤدٍّ للزكاة، حافظ لفرجي، راعٍ لأمانتي وعهدي؟

وهل أنا قدمت لربي ثمن الجنة الذي فرضه عليّ وهو الجود بالنفس والمال، أو أنا بخيل بمالي وشحيح بنفسي؟ وهل الرجل الذي لم يدفع ثمن الجنة وقد طلبه الله منه يحصل عليها؟

نعم؛ إن الذي يؤمن بالقرآن إذا تدبر هذه الآيات التي يصف الله بها المؤمنين ويرينا بها كيف يكون المؤمن مؤمنًا حتىٰ يدخله إيمانه الجنة= لا غنىٰ له عن أن يفكر من جديد في إيمانه، لينزه بذلك الميزان العادل، وهو القرآن الكريم، فإن رآه مؤمنًا كما وصف القرآن الكريم فليحمد الله علىٰ ذلك، وليزدد إيمانًا إلىٰ إيمانه.

وإن رأىٰ نفسه في ناحية، وأولئك المؤمنين الذين أرانا إياهم القرآن الكريم في ناحية أخرىٰ فليرجع إلىٰ الله -تعالىٰ-، ويستعنه في أن يتخلق بأولئك الأخلاق، ويأخذ نفسه بذلك العمل ليدخل في عداد المؤمنين عند الله -تعالىٰ-.

ومن عجيب أمر بعض علمائنا اليوم أن يسلخوا الإيمان عن العمل، والخلق الطيب الكريم فيرضون للمؤمن أن يكون خائر العزيمة جبانًا، كما يرضون له أن يكون شحيح النفس مقترًا، وأن يكون قاسي القلب، لا يلين لموعظة، ولا تدمع عينه لتذكير.

رضوا للمؤمنين بذلك كله، وقالوا: إنَّ الإيمان الذي وصفه الله -تعالىٰ- في كتابه بمثل هذه الآيات هو الإيمان الكامل، وكأنَّهم لـمَّا عرضوا أولئك الأوصاف التي ذكرها الله -تعالىٰ- للمؤمنين وفيها الجهاد بالنفس والمال والتخلق بمكارم الأخلاق، ورأوا أنَّهم لم يكونوا مؤمنين علىٰ ذلك النحو؛ لأنَّهم أشحاء جبناء، يكذبون، وينافقون، ويزورون؛ لما رأوا أنفسهم كذلك، تلمسوا لنفسهم ذلك المخرج، حتىٰ لا تأخذ الناس عليهم ذلك النقص، ولا ندري ما قيمة ذلك الإيمان الناقص إذا لم يدخل صاحبه الجنة، وما قيمة ذلك الإيمان الناقص إذا كان إيمانًا كاذبًا؟ ولماذا يرضون لأنفسهم بإيمان غير حق؟ اللهم إنَّا آمنا بكتابك الذي أنزلته علىٰ رسولك المعصوم، وآمنا بأن من شهد له بأنه المؤمن حقًّا فهو المؤمن، ومن لم يشهد له كتابك بالإيمان فلا قيمة لإيمانه وإن سمىٰ نفسه مؤمنًا ومؤمنًا، وإن سماه أهل الأرض جميعهم مؤمنًا، أو إمامًا للمؤمنين.

الآيات في الكافرين

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ(١) وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ(٢) وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٦، ٧].

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟(٣) كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ(٤) بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً(٥) وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ ۖ(٦) فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ(٧) إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١].

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

---

(١) ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ ... إلخ: حال بينها وبين الحق بسبب تعاميهم عنه باختيارهم.

(٢) **غشاوة**: غطاء.

(٣) ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ... إلخ: صفتهم ومن يدعوهم إلى الهدىٰ.

(٤) **ينعق**: يصوت.

(٥) **إلا دعاء**: بدون فهم.

(٦) **الطاغوت**: الباطل.

(٧) **أولياء الشيطان**: حزبه وأنصاره.

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا(١) كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ(٢) فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ(٣) عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا(٤) لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ(٥) وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال: ٢٢، ٢٣].

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٥٥، ٥٦].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ(٦) صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [هود: ٥].

﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا(٧) وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ [هود: ١٩-٢٢].

﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم

---

(١) **حرجًا**: شديد الضيق.

(٢) **يصَّعَّد**: يحاول الصعود.

(٣) **الرجس**: العذاب.

(٤) **خيرًا**: انتفاعًا. **لأسمعهم**: سماع تفهم.

(٥) **ولو أسْمعهم**: مع علمه عدم الخير فيهم، **لتولَّوا**: عن الحق.

(٦) **يثنون صدورهم**: يلوونها عن الحق وينحرفون عنه.

(٧) **يبغونها عوجًا**: يطلبونها معوجة تتفق وهواهم.

مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ(١) ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم(٢) مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ(٣) فِيهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ(٤) مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النحل: ٢٢-٢٩].

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ(٥) بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ(٦) أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [النحل: ١٠٥-١٠٩].

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ(٧) بِهِ ٱلْحَقَّ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا(٨) ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً(٩) أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا(١٠) وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٦، ٥٧].

---

(١) **أساطير**: أباطيل.

(٢) ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم﴾ ... إلخ: تصوير لهدم تدبيرهم من أساسه.

(٣) **تشاقون**: تعادون المؤمنين بسببهم.

(٤) **فألقوا السَّلَم**: سالموا حين عاينوا الموت.

(٥) **مَنْ كفر**: بدل من (الذين)، وما بينهما معترض.

(٦) **لا جرم**: لا شكّ.

(٧) **يدحضوا**: يزيلوه عن مقره.

(٨) **هزوًا**: استهزاء.

(٩) **أكنّة**: أغطية.

(١٠) **وقرًا**: تصاممًا عن الحق.

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ(١) أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ(٢) يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٦].

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [الحج: ٣، ٤].

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِيَ عِطْفِهِ(٣) لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۖ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ۖ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الحج: ٨، ٩].

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ ۖ(٤) يَكَادُونَ يَسْطُونَ(٥) بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٧٢].

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ(٦) لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: ٦، ٧].

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [لقمان: ٢٠، ٢١].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ(٧) أَتَاهُمْ ۙ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ ۚ(٨) فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦].

---

(١) **فحبطت**: بطلت فلا يثابون عليها.

(٢) ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ﴾ ... إلخ، أي: نزدريهم ولا نعتبرهم.

(٣) **ثاني عطفه**: متكبرًا.

(٤) **المنكر**: الغيظ والحنق.

(٥) **يسطون**: يبطشون، والآية تمثل عداوة الباطل للحق.

(٦) **لهو الحديث**: ما يتلهىٰ به كفضول الكلام والمضاحك.

(٧) **سلطان**: حجة.

(٨) **ببالغيه**: واصليه.

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ(١) وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ(٢) وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ(٣) إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الجاثية: ٢٣-٢٥].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ(٤) ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ(٥) ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ١-٣].

﴿وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ(٦) وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٧].

* تعليق وعبرة:

كما يستفيد العاقل من أوصاف المؤمنين بعرضها علىٰ نفسه ليعرف إن كان مؤمنًا حقًّا، أو كاذبًا في الإيمان، كذلك يستفيد من بيان الله -تعالىٰ- أوصاف الكافرين، فلعل كثيرًا من صفاتهم عالق بنفسه وهو لا يدري، وإن الله -تعالىٰ- ما عرض لصفات الكافرين إلَّا ليرينا أنَّ أولئك الصفات هي التي حالت بينهم وبين الإيمان، فاستحقوا الخلود في جهنم، وإن الكفار علىٰ تباينهم في أسباب الكفر واختلافهم في دواعيه= فيهم من يكفر بنسبة الشريك إلىٰ الله -تعالىٰ-، ومنهم من يكفر بإنكار البعث، ومنهم من ينكر الرسالة، إلىٰ غير ذلك؛ لأنَّهم علىٰ تفاوتهم في ذلك فإن لهم خصائص تكاد تجمعهم وتحيط بهم.

---

(١) علىٰ علم، أي: من الله بأن استحق الإضلال.
(٢) ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ﴾ ... إلخ: أي حال بينه وبين مواهبه جزاء طاعته للهوىٰ.
(٣) وما لهم بذلك من علم، أي: حجة ودليل؛ لأنَّهم يقولونه تقليدًا.
(٤) أضلّ أعمالهم: عدل بها إلىٰ طريق غير مستقيم لكفرهم وصدهم.
(٥) أصلح بالهم: وفقهم للخير.
(٦) في آذانهم: ليسدوا مسامعهم عن استماع الدعوة، واستغشوا ثيابهم: تغطوا بها حتىٰ لا أعرفهم.

الأولىٰ: تعطيلهم ما وهبهم الله من عقل وسمع وبصر، ممَّا أدىٰ بهم إلىٰ غلظة القلوب، وإبطال فائدة السمع والبصر، حتىٰ وصفهم الله في كثير من الآيات بأنهم شر الدواب، وبأنَّهم الصم البكم الذين لا يعقلون.

وقد أرانا -تعالىٰ- أنَّه ذرأ لجهنم كثيرًا من الجن والإنس، وعلامتهم أن لهم قلوبًا لا يعقلون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، وأن أولئك الأقوام هم أهل النار الذين خُلِقوا لها وخلقت لهم، وأولئك هم الذين يندمون في الآخرة حيث لا ينفعهم الندم، ويقولون: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

وعلىٰ كل أحد حين يسمع هذه الأوصاف أن يختبر نفسه، ويستفتي استعداده ومواهبه، أهو ممَّن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، ويعمل فيه عقله واستعداده، أم هو ممن ختم علىٰ سمعه وقلبه، وجعل علىٰ بصره غشاوة، فلا يسمع إلَّا بأذن غيره، ولا يبصر إلَّا بعين من تقدمه، ولا يعقل إلا بقلب من سبقه.

الثانية: حنقهم علىٰ الرسل وأتباع الرسل، وامتلاء نفوسهم غيظًا منهم، حتىٰ وصفهم الله بأنَّهم إذا تليت عليهم آيات الله ببينة واضحة تعرف في وجوههم الغيظ والحنق، عداوة وبغضًا لأهل الحق يكادون يبطشون بهم، وقد ترىٰ ذلك الوصف في فريق من أهل العلم الذين نشئوا علىٰ البدع والضلالات في عقائدهم وعبادتهم، إذا دعاهم داعٍ إلىٰ كتاب الله -تعالىٰ- وسنة رسوله، وأخذ يتلو عليهم شيئًا من آي القرآن الكريم؛ فإنَّك ترىٰ حمية الجاهلية سرت في عروقهم، وتراهم قد ضاقوا به ذرعًا، وقد ينتهي بهم الغيظ والحنق إلىٰ مقابلته بما لا يرضاه الله من العنف والشدة وضروب الإيذاء.

الثالثة: فرارهم من الدعوة إلىٰ الحق ومن الداعي إليه، حتىٰ إنَّهم يثنون صدورهم ويلوونها عن الداعي ليستخفوا منه، وما علموا أن الله -تعالىٰ- يعلم سرهم وعلانيتهم، وذلك لأنَّ الحق يعمل زلزلة في نفوسهم، واضطرابًا في أفئدتهم.

وقد مثل الله لنا فرار قوم نوح من دعوته في قوله: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا﴾.

الرابعة: دفاعهم عن الباطل وقتالهم في سبيل الشيطان، وأكبر مظهر لذلك الدفاع جدلهم في الله بغير علم ولا هدىٰ ولا كتاب منير.

وما أحوج أهل العلم إلىٰ التخوف من تلك الصفة فإنهم قد أصيبوا كثيرًا بالجدل، وقد يصل الجدل بهم إلىٰ الدفاع عن الباطل بدون حجة ولا برهان، معتمدين علىٰ زلاقة لسانهم أو قوة بيانهم، وقد وصف الله الكفار بأنَّهم قوم خَصِمون، يحبون الجدل للجدل، لا للحق، ولا للوصول إليه، يجادلون أهل الحق لمرض في نفوسهم، وكبر يحاولون أن يصلوا إليه، وهمّ تغلبهم علىٰ الداعي وظفرهم به، ولن يجدوا إلىٰ ذلك سبيلًا.

تلك هي خصائص الكافرين، وصفات أعداء الحق، وعلىٰ كل مؤمن أن يحاسب نفسه حسابًا عسيرًا، فلعل فيه صفة من أولئك الصفات أو طائفة منها، فتكون أخلاقه أخلاق الكافرين وهو يحسب نفسه من عداد المؤمنين.

الآيات في المنافقين

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ[1]
ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ[2] فَزَادَهُمُ
ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ
قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ
ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا
يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ[3] قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ
إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ[4] ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ٨-١٥].

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ
أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ[5] ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ[6] وَٱلنَّسْلَ ۗ
وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ[7] فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ
وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [البقرة: ٢٠٤-٢٠٦].

---

(١) **يخادعون**: من خدع الضبّ إذا توارىٰ في جحره، يوهم الصائد إقباله عليه، ثم يخرج من باب آخر.

(٢) **مرض**: شك، ونفاق يحول بينها وبين وظيفتها.

(٣) **شياطينهم**: رؤسائهم.

(٤) **يعمهون**: من العمه، وهو الحيرة.

(٥) **ألد الخصام**: شديد الخصومة.

(٦) **الحرث**: الزرع.

(٧) **أخذته العزة بالإثم**: حملته الأنفة علىٰ الإثم ضرارًا ولجاجًا.

﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ(١) فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ(٢) قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ(٣) قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَـٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟(٤) لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟(٥) عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٦-١٦٨].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ(٦) وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَـٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ(٧) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا(٨)﴾ [النساء: ٦٠-٦٣].

﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ(٩) فَإِنْ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَـٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ(١٠) بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٢، ٧٣].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا

(١) **يوم التقىٰ الجمعان**: يوم «أحد»، فبإذن الله: قضائه.

(٢) **أو ادفعوا**: عن الأنفس والأموال.

(٣) **لو نعلم ... إلخ**. أي: لو نعلم أنكم تقاتلون لقاتلنا معكم، لكنكم تلقون بأيديكم إلىٰ التهلكة.

(٤) **وقعدوا**، أي هم عن القتال.

(٥) **فادرؤوا**: ادفعوا.

(٦) **الطاغوت**: غير الله، من الطغيان، وهو التعدي.

(٧) **ما في قلوبهم**: من مرض ونفاق.

(٨) **بليغًا**: يبلغ منهم ما تريد ويؤثر فيهم.

(٩) **ليبطئن**: من بطأ بمعنىٰ أبطأ، أي تثاقل عن الجهاد، أو ثبط غيره عنه.

(١٠) **كأن لم تكن ... إلخ**: جملة معترضة بين القول ومقوله.

ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا[1]﴾ [النساء: ٧٧].

﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ[2] وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟[3] فِيهَاۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ[4] وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْۚ[5] وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا[6] مُّبِينًا﴾ [النساء: ٩١].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟[7] ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ[8] مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ[9] فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ[10] قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ[11] عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم[12] مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا[13] ﴿١٤١﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ[14] وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ

---

(١) **فتيلًا**: ما يكون في شق النواة يضرب به المثل في الشيء الحقير، أي: لا ينقصون شيئًا من ثوابهم وإن قل.

(٢) **أن يأمنوكم**: بإظهار الإسلام. **ويأمنوا قولهم**: بالكفر.

(٣) **أُركِسوا**: نكسوا وانقلبوا.

(٤) **السلَم**: بترك القتال.

(٥) **ثقفتموهم**: وجدتموهم.

(٦) **سلطانًا**: حجة على جواز قتلهم.

(٧) **آمنوا ثم كفروا**: آمنوا بلسانهم إذا لقوا المؤمنين، ثم كفروا إذا لقوا الكفار.

(٨) **أولياء**: نصراء فيما يخالف مصلحة المسلمين.

(٩) **يتربصون بكم**: ينتظرون ما يحدث لكم من كسر أو نصر.

(١٠) **نصيب**: حظ من الظفر.

(١١) **نستحوذ**: نستول.

(١٢) **ونمنعكم**: نحمكم.

(١٣) **سبيلًا**: غلبة ما دام المؤمنين قائمين بحقوق الإيمان، ويتبعون هديه، ويماشون سننه في الخلق.

(١٤) **يخادعون الله**: بخداعهم لرسوله وللمؤمنين، **وهو خادعهم**: ما كر بهم فيجيزهم على نيتهم وقلوبهم.

وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ(١) بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا(٢) مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ(٣) بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٣٧-١٤٧].

﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا(٤) وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا(٥) قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا(٦) لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ(٧) وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ(٨) لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ(٩) قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: ٤١-٤٥].

﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ(١٠) ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا(١١) أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا(١٢) لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ(١٣) ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُم

---

(١) **مذبذبين**: مضطربين بين المؤمنين والكافرين.

(٢) **سلطانًا**: حجة.

(٣) **ما يفعل الله** ... إلخ: لاحظَّ له في أن يعذب أحدًا ما دام مؤمنًا شاكرًا.

(٤) **خفافًا**: لقلة عيالكم، **وثقالًا**: لكثرتها.

(٥) **عرضًا**: مغنمًا دنيويًّا.

(٦) **قاصدًا**: متوسطًا.

(٧) **الشُّقَّة**: المسافة تقطع بمشقة.

(٨) **عفا الله عنك**: كناية عن خطئه في الإذن لهم بالتخلف.

(٩) **ارتابت**: مرضت بالريب والنفاق.

(١٠) **يفرقون**: يخافونكم فيظهرون الإسلام تقية.

(١١) **ملجأ**: حصنًا.

(١٢) **مُدَّخَلًا**: نفقًا في الأرض، **لولَّوا**: أقبلوا.

(١٣) **يجمحون**: يسرعون كالفرس الجموح.

مَن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ(١) فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ [التوبة: ٥٦-٥٨].

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ(٢) يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ(٣) نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِىَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٧، ٦٨].

﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٧٥-٧٩].

﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ(٤) خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّاۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّاۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ(٥) ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ(٦) مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا(٧) نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾

---

(١) **يلمزك في الصدقات**: يعيبك في قسمتها.

(٢) **بعضهم من بعض**: متشابهين في البعد عن الإيمان كأبعاض الشيء الواحد.

(٣) **ويقبضون أيديهم**: عن الخير.

(٤) **بمقعدهم**: قعودهم عن الغزو، **خلاف**: بعد.

(٥) **الخالفين**: المتخلفين.

(٦) **الطَّول**: الغنىٰ والسعة.

(٧) **ذَرْنَا**: دعنا.

رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾.

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ[1] إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ[2] وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٤-٩٦].

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ[3] كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [العنكبوت: ١٠، ١١].

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ[4] وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ[5] يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ[6] مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ[7] وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ[8] فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد: ٢٠، ٢١].

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ[9] ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ[10] فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ[11] وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٢٩-٣١].

---

(١) **انقلبتم**: عدتم.

(٢) **رجس**: قذر بالغ في تلوث نفوسهم وفسادها حتىٰ جعله القذارة نفسها.

(٣) **فتنة الناس**: أذاهم له، **كعذاب الله**: بمنزلته، كناية عن ضعف إيمانه وعقيدته.

(٤) **مُحكَمَة**: مبينة لا تشابه فيها.

(٥) **مرض**: ضعف.

(٦) **المغشي عليه**: المغمىٰ عليه جبنًا وهلعًا.

(٧) **طاعة**: خبر عن قوله: **(فأولىٰ)**.

(٨) **عزم الأمر**: فرض القتال.

(٩) **أضغانهم**: أحقادهم.

(١٠) **لأريناكهم**: عرفناكهم فعرفتهم بعلامتهم.

(١١) **لحن القول**: أسلوبه، ولعل من أساليبهم أنهم لا ينطقون بالحق واضحًا دأبهم المراوغة والمواربة.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ
إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً(١) فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ۞ وَإِذَا
رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ(٢) يَحْسَبُونَ كُلَّ
صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ ٱلْعَدُوُّ(٣) فَٱحْذَرْهُمْ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ
لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ(٤) وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ(٥) وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ
أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ
﴿٦﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ(٦) حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ(٧) وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ(٨) ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ
لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ(٩) مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾

[المنافقون: ١-٨].

---

(١) **جُنَّة**: وقاية وسترًا لما في نفوسهم من ضعف ونفاق، ولأنهم لا يثقون بأنفسهم فيسارعون إلى الإيمان.

(٢) **خُشُب مسنَّدة**: شبههم بالخشب المسندة إلى الحائط بدون نفع؛ لأنهم أشباح خالية عن العلم والنظر، أو جمع خشباء، وهي الخشبة التي نُخِر جوفها، شُبِّهوا بها في حسن المنظر وقبح المخبر. **يحسبون كل صيحة عليهم**: لجبنهم وضعف قلوبهم، وذلك شأن من ليست له عقيدة.

(٣) **هم العدو**: جملة معرفة الطرفين تفيد الحصر، أي: لا عدو للمسلمين إلَّا هم، فالكفار في جانبهم ليسوا شيئًا.

(٤) **لوَّوا رؤوسهم**: عطفوها إعراضًا وتكبرًا.

(٥) **يصدُّون**: يعرضون.

(٦) **مَنْ عند رسول الله**: المهاجرين، **ينفضُّوا**: من حول محمد ﷺ.

(٧) **خزائن السماوات والأرض**: بيده الأرزاق كلها.

(٨) **يفقهون**: يفهمون ذلك لجهلهم بربهم.

(٩) **الأعز**: يعنون أنفسهم، **الأذل**: يريدون المؤمنين.

كبريات العبر في المنافقين

(٧) أراني قد أطلت عليك -أيها القارئ- في آيات المنافقين بما لم تعهده مني في أبواب أخر، ولو علمت أنَّ المنافقين شر مستطير في كل زمان علىٰ كل إصلاح في الأرض؛ لعذرتني في هذه الإطالة، بل وتطلبت فوقها.

إنَّك لو تتبعت أي إصلاح في الأرض، وأردت أن تعرف كيف يقابل ذلك الإصلاح من طبقات الناس؛ لرأيت رأي العين أن الناس أمام ذلك الإصلاح أقسام ثلاثة: قسم يرحب به ويناصره ظاهرًا وباطنًا، ويضحي في سبيل مناصرته بالنفس والنفيس، وقسم آخر يعاديه ظاهرًا وباطنًا.

وقسم ثالث يعاديه في الباطن ويناصره في الظاهر، وأولئك هم المنافقون المخادعون.

ونظرة واحدة في نهضات البلاد وثورتها ضد أعدائها الغاصبين لها، تريك كيف تنقسم الناس علىٰ المصالح، وكيف يكونون أحزابًا وشيعًا، وكيف تتجلىٰ أخلاقهم، وتظهر مخبآت نفوسهم، ترىٰ الفريق الذي صفت نفسه، وطهرت عن الخبث أخلاقه، يرحب بذلك الإصلاح، ويدعو الناس إليه، ناسيًا ما وراء ذلك من آلام ومشاق، وتراه يندفع إلىٰ ترويج الدعاية للمبدأ وهو لا يشعر، ويرىٰ سعادته في أن ينفق ماله وحياته في ذلك السبيل، وهو الفريق المؤمن.

وترىٰ فريقًا آخر كبر عليه أن يقوم بذلك الإصلاح رجل من القوم، ويصبح وله ذلك الأثر الخالد، والصيت الذائع، فيرجع إلىٰ نفسه وقد امتلأت حقدًا وحسدًا، وكبرًا وغرورًا، فيسائل نفسه ماذا أنت فاعله بذلك الرجل؟ وماذا أعددت له من عمل؟ فتجيبه: أعددت له خذلانًا لا يقوم بعده، وموتًا لا يحيا

معه، أعددت له أنواعًا من الإهانة، وضروبًا من الإيذاء، وأصنافًا من العنت والإحراج، أعددت له تحقيرًا أمام مواطنيه، وتسفيهًا لعمله، تتناقله الأبناء عن الآباء وذلك هو الفريق الكافر بذلك الإصلاح المعادي له سرًا وعلانية.

وترىٰ فريقًا ثالثًا، وهو شرّ من الفريق الثاني يشترك معه في خبث النفس، وفساد الطوية، والحنق علىٰ ذلك المصلح، ويمتاز عنه بالجبن والخور، وضعف القلب، فلا يستطيع أن يصارح المصلح بأنه عدوّ اللدود، ولا أن يظهر أمام المؤمنين بذلك المظهر، فيضطره ضعف عقيدته، وفقدانه للجرأة أن يداري ويوارب، فيكون بين الصديق والعدو، والمناصر والمحارب: إذا رأىٰ المؤمنين أظهر لهم الإيمان، وإذا لقي الكافرين قال لهم: إني معكم.

المنافق حيوان خبيث

ومثله في ذلك مثل حيوان خبيث وهو الضبّ، يعمل له جحرًا في الأرض يسمىٰ النافقاء، له بابان، إذا أراد صائده أن يدخل إليه من أحد البابين لوّح له بذنبه أنه مقبل عليه ليطمعه، ثم يخرج من الباب الآخر، يخدعه بذلك العمل، وهكذا المنافق، واشتقاقه من (النافقاء)، وهو ذلك الجحر الذي يعمله الضبّ، أو هو إحدىٰ جحرة اليربوع التي يعملها في الأرض ظاهرة يراها الناس، حتىٰ إذا ذهبوا إليها ليطلبوه، إذا به قد أعد جحرًا آخر قد أخفاه عن الناس ليكون فيه.

ذلك هو المنافق الذي يخادع الناس ويخادع المصلحين في كل زمان، وهذا مثله في خداعه ونفاقه.

الفتن والشدائد

(١) يتألم كثير من الناس للفتن والشدائد التي تقع علىٰ الأمم الناهضة، ولو عرف الحكمة في هذه الشدائد، والغاية من هذه الفتن= لعلم أنها تنطوي علىٰ حكم ومصالح لا غنىٰ للإصلاح عنها.

وأضرب لهم مثلًا الشدائد التي تقع بالمسلمين من خصومهم في الدين والعقيدة، والحروب الطاحنة بين حزب الله وحزب الشيطان؛ فإنَّها تمحص من نفوس المؤمنين، وتطهر قلوبهم حتىٰ يكون إيمانهم قويًا خالصًا، فلا يكون للشيطان حظ من أولئك النفوس.

ومن ناحية أخرىٰ أن الشأن في الداعي أو المصلح أن يقبل الناس عليه في بادئ الأمر، وفيهم المؤمن والمنافق، ولولا الشدائد لبقي جيش ذلك المصلح خليطًا من أنصاره وأعدائه، فقضت حكمة الله أن يبتليهم بالشدائد، ويفتنهم بالمحن والخطوب، ليمتاز المؤمن من المنافق، والصادق من الكاذب.

وهذا تاريخ المنافقين في الإسلام يرينا أنهم دخلوا في الدين مع من دخل من المسلمين، وكثروا سواد المسلمين، وبعد أن فرض الله القتال علىٰ المسلمين ظهر ما عندهم من ضعف، وانكشف ما انطووا عليه من نفاق، وأخذوا يعتذرون عن الحرب مع المؤمنين، والكفاح في سبيل الله، وقد كانت فريضة القتال فضيحة لهم وخزيًا وعارًا، ولا عجب؛ فإنَّ بذل النفس لا يمكن أن يكون من منافق، إنَّما يكون من مؤمن قوي إيمانه، وازداد في الله يقينه؛ فإنَّه لا شيء أغلىٰ من النفس، فمن له رجاء في الله، وعقيدة خالصة، لا يعتورها شيء من الوهن= يسهل عليه أن يضحي بنفسه في سبيل دينه، ولذلك كان أكبر دليل علىٰ الإيمان

الجهاد في سبيل الله، وقد تلونا عليك من آيات الذكر الحكيم ما يريك مقدار فرار المناقين من القتال، واعتذارهم عنه وقد أنزل الله -تعالىٰ- فيهم آيات لا تحصىٰ فضحهم بها، وأبان جبنهم وخورهم، وأكثر سورة التوبة في ذلك النوع؛ ولذلك سماها بعض السلف الفاضحة والمخزية؛ لأنَّها خزي ووبال علىٰ أولئك القوم.

والعبرة في ذلك أن ما ينال المصلحين من أذىٰ وما يعترض حزبهم من عقبات، سواء في ذلك ما يتعلق بمالهم أو نفوسهم؛ كل ذلك من شأنه أن يمحص المصلحين، ويخلصهم من الدخيل، ويبعدهم من الضعف، حتىٰ يكونوا جسمًا قويًا علىٰ الشدائد، فيه مناعة تحول بينه وبين المؤثرات: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٢، ٣].

ولو لم يكن من آثار الشدائد سوىٰ أن يميز الله بها الخبيث من الطيب، ويجعل الخبيث بعضه علىٰ بعض لكفىٰ.

وقديمًا قالوا: «**جزىٰ الله الشدائد كل خير**»، فإذا أخرجت الشدائد فريقًا من الذين كانوا مع المصلح في بادئ أمرهم؛ فإنَّما أخرجت مرضًا كمينًا، وداء دفينًا في سواد المؤمنين، أصبح الجسم بعده سليمًا قويًا، يستطيع أن يكافح وينافح، ويستطيع أن يأمن علىٰ أسراره أن تذاع بين الأعداء والخصوم، فمرض ثم مرض لهذه الشدائد.

أخلاق المنافقين

(٢) يرينا الله -تعالىٰ- في كتابه الكريم -وهو العالم بخفايا النفوس وما تكنُّه الضمائر- أنَّ للمنافقين خصائص وأخلاقًا بها يمتازون عن غيرهم، ثم أرانا أن العلة في أولئك الأخلاق هي مرض القلب، واضطراب العقيدة، ولو كان قلبهم سليمًا من المرض ما كانوا علىٰ ذلك الخلق.

الأولىٰ من صفاتهم: أنَّهم يعاملون الله معاملة المخادع، لا معاملة المخلص، وما دروا أنَّهم بذلك العمل يخدعون أنفسهم، وأن وبال خداعهم راجع إليهم، ولو قدروا الله حق قدره ما عاملوه، تلك المعاملة: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾، ولو كان عندهم شيء من العقل لاستحوا من ذلك العمل، فإن الرجل العاقل يستنكف أن يخادع مخلوقًا مثله إذا كان يعلم أن عنده من اليقظة والعلم ما به ينكشف خداع صاحبه، فكيف إذا كان ذلك الذي نعامله إلهًا له العلم الشامل، والهيمنة علىٰ النفوس.

ومن آثار خداعهم لله أنَّهم يُصَلُّون بأجسامهم لا بقلوبهم، فهم يصلون صلاة رياء لا صلاة إخلاص ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾، وكأنه يشير بكلمة (إذا) الدالة علىٰ التعليق إلىٰ أن الشأن فيهم أن لا يصلوا، ولو فرض أنهم قاموا إلىٰ الصلاة قاموا كسالىٰ، فلم يأخذوا التكاليف بقوة، كما هو الشأن فيمن يعمل العمل وهو مقتنع بأنه نافع مفيد، بل يؤدونها كارهين متثاقلين؛ لأنَّهم يراؤون الناس بصلاتهم، ولا يبتغون بها وجه الله، ومن كان كذلك لا يقوم إلىٰ صلاته بجد ونشاط، وهم الذين قال الله فيهم:

﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٤-٧].

وقل مثل ذلك في كل عبادة يقومون بها، يؤدونها غافلين عن سرها، فاقدين لروحها، وما أحوجنا إلىٰ تدبر ذلك الخلق الذي وصف الله -تعالىٰ- به المنافقين، وعرضه علىٰ نفوسنا، فكثير ممَّن يعدون أنفسهم مؤمنين إذا قاموا إلىٰ صلاتهم قاموا متباطئين متكاسلين، ساهين عن حكمتها غافلين، لا يبالي الواحد منهم أن يترك وقتًا من صلاته أو أوقاتًا، وإذا صلىٰ أدىٰ صلاته ناقصة مبتورة ونقرها كما تنقر الديكة، وتراه وهو يصلي لم يأنس في صلاته بربه، ولم يطمئن إلىٰ مناجاة خالقه وبارئه، وكأن الصلاة عنده حركات جسمية كتمرين من تمارين رياضة الجسم لا أكثر ولا أقل، ولو درىٰ أن روح الصلاة إخلاص ذلك العمل لله -تعالىٰ- وأنها صلة بين العبد وربه، وطهرة للمصلي من الأوزار والأرجاس، وتهذيب للنفس من كل فاحشة ومنكر؛ لو درىٰ المصلي أن ذلك هو حكمة الصلاة وسرّها لأداها كاملة في شكلها وحقيقتها، وقام إليها وهو مطمئن إلىٰ أن الوقت الذي يقضيه في أدائها هو أسعد وقت عنده، وأفضل زمن يقضيه بين يدي ربه وخالقه، وحسبه أن يناجيه بأنه عبده الخاضع، وهو ربه الرحيم به، ويثني عليه بما هو له أهل، ويخصه بالعبادة والاستعانة علىٰ شؤون دينه ودنياه، ويطلب منه الهداية إلىٰ صراطه المستقيم، ويقيم البرهان العملي علىٰ أنه عبده المطيع الذي لا يبخل علىٰ مولاه بوضع أشرف أعضائه علىٰ الأرض.

ولكن من لنا بإقناع طائفة المنافقين بذلك وأمثال ذلك، وهم قوم لم يذوقوا للإيمان طعمًا، ولا للأعمال الدينية حلاوة، هم قوم تجار في تدينهم، مخادعون مواربون، لم تسلم قلوبهم من المرض، ولا عقائدهم من الشك، ومن أجل ذلك مَرضت أعمالهم.

وعلىٰ كل مؤمن أن يتهم نفسه ويحاسبها ذلك الحساب الدقيق، فقد يكون فيه خلق النفاق وهو لا يدري، ومن السهل عليه أن يعرف وهو يؤدي صلاته أهو نشط أم كسلان، وهل هو يرائي الناس بصلاته أم هو مخلص لربه وخالقه، وهل هو يفر من الصلاة إذا دخل فيها فرار الكاره، أم يطمئن إليها ويتمنىٰ أن تطول، عليه أن يستفتىٰ نفسه في ذلك كله، فإذا وجد نفسه مريضة عالجها، وإن وجدها

سليمة من ذلك المرض حمد الله وطلب منه أن يزيده إيمانًا إلىٰ إيمانه ويقينًا إلىٰ يقينه، ذلك هو شأن المؤمنين، أن يحاسبوا أنفسهم قبل أن يحاسبوا ويراقبوا أعمالهم قبل أن يراقبوا.

بقي أنَّ الله وصف المنافقين بعد ذلك بقوله: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ لا يذكرونه إلَّا جهرًا حتىٰ تسمعهم الناس فيقولوا: هم مؤمنون، أما فيما بينهم وبين أنفسهم فلا يذكرون ربهم؛ لأنَّ الصلة بينهم وبينه منقطعة، ولو رضوه لهم ربًّا مانسوه في قيام ولا قعود، ولا ليل ولا نهار، كما هو الشأن في المؤمنين، يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلىٰ جنوبهم، أو المعنىٰ أنهم لا يذكرون الله بقلوبهم إلَّا علىٰ ندور، كأن يقعوا في مصيبة أو تحل بهم كارثة، فتلجئهم المصائب أن يرجعوا إلىٰ ربهم، ويتذكروا خالقهم.

لله ما أدق تحليل القرآن الكريم لنفوس البشر، وإتيانه علىٰ مميزاتها وخصائصها؛ لتكون موضع العبرة ومكان الاذكار، فقد نرىٰ بعض الناس لا يحلو له ذكر الله إلَّا أمام الناس، فإذا مرَّ علىٰ قبر أكثر من ذكر الموت وما بعد الموت بصوت يسمعه من معه، وإذا جاءت مناسبة رأيته يتحرق أسفًا علىٰ تقصير الناس في دينهم وحقوق خالقهم، وتراه يكثر من هذه النغمة ليُري صاحبه أنه جد حريص علىٰ أن يكون الناس صالحين مصلحين، وعلىٰ ربهم مقبلين، وإذا خلي ونفسه لم يحفل بشيء من ذلك، ورأيته علىٰ أبشع الأخلاق وأسفل الرذائل.

الثانية من صفات المنافقين: الذبذبة والاضطراب بين حزب المؤمنين وحزب الكافرين، فلا يستطيعون أن يكونوا مع أحد الفريقين ظاهرًا وباطنًا، فإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنَّا، وإذا خلوا إلىٰ شياطينهم ورؤوس الكفر منهم قالوا لهم إنا معكم، وما أظهرنا الإيمان مع الحزب الأول إلَّا تهكُّمًا بهم، وقد بيَّن الله علة ذلك النفاق وهذه الذبذبة بقوله: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، ومن مرض قلبه مرض كل شيء فيه؛ فإنَّ القلب هو رئيس الجوارح، والمهيمن علىٰ الإنسان كله، وبفساد الرئيس يفسد المرؤوس، وذلك المرض لا يشركهم فيه الكافر وإن كان قلبه مريضًا بحب الجاه، وكراهة الحق، والحقد علىٰ المصلح؛ لأنَّ قلبه لم يمرض بالضعف والخور والشرور، فكان جريئًا معاداة الحق، وخذلان الإصلاح.

أمَّا المناق فكان خبيثًا في عداوته، محتالًا في إفساده، شأن الضعيف الذي لا يستطيع أن يشفي غيظه، يمكر ويخادع، ويداجي ويوارب، مرض قلب ذلك المنافق فلم يثق بالله في وعده ووعيده، ولم يؤمن به في ثوابه وعقابه، فمرض بذلك المرض صاحبه، ولم يفض علىٰ الجسم نورًا يسير به في الظلمات، ويهتدي به في الملمَّات، وكان مثل ذلك الجسم كجيش اعتل قائده، فهو يسير بلا قيادة، وهيهات أن يهتدي أو يصل إلىٰ غاية.

الثالثة من أخلاق المنافق: أن يعجبك قوله، ويسوءُك عمله، قوله قول الصوفية، وعمله عمل الجبابرة، إذا تكلمت معه في الإصلاح والمصلحين، والإفساد والمفسدين، أفاض معك في القول، وأراك أن قلبه يتفطر حسرة لذلك الفساد، الذي نراه كل يوم، وأنه يتمنىٰ أن لو صلح أمر الناس، وقد يصف لك طريق الخلاص من ذلك الفساد، كطبيب ماهر، وعالم خبير، وإذا ولي عملًا من أعمال المسلمين رأيته شيطانًا من الشياطين، رأيته ظلم العباد والبلاد، وعاث في الأرض الفساد ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ [البقرة: ٢٠٤-٢٠٦] ولا عجب؛ فإنَّ قوله لم ينشأ عن عقيدة، ولم يصدر عن إيمان صحيح، وهو يريد أن يعيش مع الكافر والمؤمن، والبر والفاجر، فإذا كان لسانه لسان مصلح فلأنه يريد أن يكون بظاهره مع المؤمنين، وإذا كان عمله عمل مفسد فلأن قلبه فاسد، وطويته خبيثة، فعمله عنوان قلبه، ولسانه عنوان خداعه ومواربته.

الرابع: أنَّهم نفعيّون، لا يريدون إلا مصلحتهم الدنيوية، وغايتهم المادية، وهم من أجلها يواربون ويخادعون، وللحصول عليها يداورون؛ يحاولون أن يرضوا الفريقين، ويصادقوا الخصمين؛ لأنَّهم يخشون إذا هم سايروا الداعي إلىٰ الإصلاح، وأصبحوا من حزبه سرًّا وعلانية أن يكون حظه الفشل والإخفاق، وإذا انضموا إلىٰ أعدائه فقد تكون له الغلبة فيهلكون مع الهالكين.

نظروا في مستقبلهم علىٰ ذلك الأساس، وفكروا في عاقبتهم ذلك التفكير، لا يريدون أن ينضموا إلىٰ حزب يتحملون غُرمه وغنمه، شأن الأحزاب في هذه

الحياة، بل أرادوا أن يكونوا مع الأحزاب كلها في الغُنم، وبعيدين عن الأحزاب كلها في الغرم، وفريق ذلك حاله، وتلك غايته، هو فريق غريب عجيب، يريد أن يربح دائمًا وإن خسر الناس، وألا يضحي بشيء وإن ضحىٰ الناس مخطئين أو مصيبين، ولا أدل علىٰ تمكن ذلك الخلق في نفوسهم من وصف الله لهم في محكم كتابه؛ إذ يقول: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ﴾ يريدون أن يأمنوكم، فيتظاهروا أمامكم بالإيمان، حتىٰ لا تعاملوهم معاملة الكفار المحاربين، وحتىٰ لا تفتكوا بهم إذا كانت لكم الدولة، ويأمنوا قومهم بقولهم لهم: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ إذا قدر لهم الغلب، وقوله -جل شأنه-: ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

فترىٰ أنَّ أولئك الأقوام ينتظرون بالمؤمنين ما يحدث لهم من كسر أو نصر، أو خير أو شر، وإن نصرهم الله قالوا لهم: ألم نكن معكم فنستحق أن نشارككم في نعمتكم، ونساهم معكم في غنمكم، وإن كان للكافرين نصيب من الظفر؛ لأنَّ الحرب سجال مشوا إليهم، ومنوا عليهم بأنهم كانوا عونًا لهم علىٰ المؤمنين بتخذيلهم، والتواني في الحرب معهم، يقولون لهم: إنَّا قد استحوذنا عليكم، وتمكَّنا من الإيقاع بكم ولم نفعل، بل منعناكم وحفظناكم من المؤمنين.

ذلك هو الفريق النفعيّ الذي لا يُعنىٰ إلا بمصلحته، ولا يهتم إلا بحصوله علىٰ شهوته، وإنَّك لو نظرت مليًا فيما حولك وما يحيط بك= لرأيت فريقًا كبيرًا من الناس علىٰ ذلك الخلق الرديء، ترىٰ ذلك الفريق مع كل الأحزاب السياسية، وسواء عليه المحق في نظره والبطل؛ لأنَّ مصلحته في هذه الحياة تتطلب أن يكون مع الجميع، فهو يريد أن يغنم ولا يغرم، ويحاول من أجل ذلك أن يرضي كل الأحزاب، ويربح في كل زمن، إن كان من أصحاب الأموال حفظ ماله وثروته، ونمَّاها واستثمرها، وإن كان من طلاب الوظائف له أو لبنيه حصل عليها أيًا كان لون الحكومة، وأيًا كان القائم علىٰ الأمور والمهيمن عليها، وقد صدق فيهم قول زعيم سياسي كبير «يديرون القلاع لكل ريح».

وبمقدار إفساد المنافقين أمر الدين علىٰ المؤمنين، يكون إفساد المنافقين في كل العصور علىٰ الناس أمر دنياهم؛ فإنَّ الغاصب يتمنىٰ لو تصبح الأمة كلها

منافقة مخادعة، لا يهمها إلَّا أن تملأ بطونها، وتشبع شهواتها وأطماعها، وإن أكبر خاذل للمصلح السياسي ذلك الصنف الخبيث، الذي يروغ الثعلب، فلا تعرف له لونًا، ولا تستطيع أن تجد له حزبًا، ظاهره معك، وباطنه حرب عليك، إذا أردت أن تحاربه تظاهر بأنَّه من حزبك، وإذا شئت أن تصادقه لم يخلص لك المودَّة، وإذا كان الله -تعالىٰ- قد توعَّد المنافقين بشر ممَّا توعد به الكافرين؛ إذ يقول: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾؛ فلأنَّهم شر مستطير على الإصلاح، ومرض وبيل في جسم الأمة في كل زمان ومكان، وإذا قال فيهم: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾، فعلينا أن نتخذهم أعداء لنا في أمور ديننا ودنيانا؛ لأنَّهم هم العدو فيهما كما قال الله، وعلينا أن نتقيهم ونقول فيهم كما قال الله: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾.

وإذا كان الله -تعالىٰ- قد كشف أمر المنافقين في صدر الإسلام بفرضية القتال، وفضح أمرهم بذلك التكليف الشاق؛ فإنَّ الحوادث والفتن التي تحل بحزب الإصلاح في كل زمان= كفيلة بأن تميز الخبيث من الطيب، والصادق من الكاذب.

الخامس من أخلاق المنافقين: جبنهم وخورهم، فلا تجد لهم شجاعة أدبية، يتجلىٰ ذلك الجبن الخالع في تخلفهم عن القتال، وتلمسهم المعاذير، حتىٰ لا يكونوا مع المؤمنين في شدائدهم، وفي ذلك يقول -تعالىٰ-: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧].

ومع كونهم جبناء لم يقف ضررهم عند حد أن منعوا أنفسهم عن القتال، بل يعوقون غيرهم عنه، ويخذلونهم عن قيامهم بالواجب، ودفاعهم في سبيل الحق والحقيقة: ﴿۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٨، ١٩].

فأنت ترىٰ من هذه الآية كيف تملكهم الجبن، واستولىٰ عليهم الضعف، فإذا جاء الخوف وطولبوا بالقتال رأيتهم وقد دارت أعينهم، واضطربت أبصارهم، ينظرون إليك نظر من حلَّت به غشية الموت، فإذا ذهب الخوف وتوجه المسلمون للقتال وتركوهم سلقوا المؤمنين بألسنة حداد، ذلك هو حالهم في أنفسهم إذا جد الجد، وطولبوا بالاندماج مع المؤمنين في حروبهم، وهم فوق ذلك يعوقون المؤمنين ويثبطونهم عن القتال، ويقولون لإخوانهم: هلمّ إلينا، ودَعوا اشتراككم مع المقاتلين، يشحون بأنفسهم عن المساعدة، ويبخلون عن القتال في سبيل الله، ثم علل الله ذلك الشح والتثبيط بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ﴾، وما داموا غير مؤمنين، فلا تستبعد ذلك منهم.

السادس من أوصاف المنافقين أنَّهم لم يرضوا الله ورسوله حكمًا فيما يعرض لهم من خلاف، فحكومتهم غير حكومة المؤمنين، ومرجعهم غير مرجعهم؛ فإنَّ الله -تعالىٰ- يرينا أن حكومة المؤمنين عند النزاع هي كتاب الله - تعالىٰ- وسنة رسوله ﷺ، وفيها يقول: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

أمَّا هؤلاء فيتحاكمون إلىٰ غير كتاب الله المعصوم، وسنة رسوله الصحيحة، يتحاكمون إلىٰ طواغيتهم وأوليائهم، ويحلونهم محل المعصوم، وإذا طالبتهم بالمحاكمة إلىٰ الله ورسوله صدُّوا عنك صدودًا: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾.

وقد بيَّن الله علة إعراضهم عن المحاكمة إليه في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾، أي: من مرض ونفاق، وهو علة ذلك الإعراض، وهو يرينا بذلك أنَّ المؤمن الذي سلم قلبه من الشك والنفاق لا يمكن أن يعرض عن حكومة المؤمنين.

وما أشدّ هذه الآية علىٰ أنصار التقليد الذين يدافعون عنه بكل ما أوتوا من قوة، ويعتقدون أنَّهم يدافعون عن دين الله، نعم ما أشدها علىٰ المقلدين الذين

إذا طالبتهم بالرجوع إلىٰ كتاب الله وسنة رسوله لوَّوا رؤوسهم، وهزوا أكتافهم، وقالوا لك: أين نحن من كتاب الله وسنة رسوله، ومن لنا بمن يفهمنا هذه الآيات وأولئك السنن كما فهمها أئمتنا وشيوخنا.

ولو عرفوا أنَّ الإعراض عن حكومة المؤمنين شأن من شؤون المنافقين، وأنَّ هذه الحكومة قد نصبها الله لتقوم بين الناس بالقسط إلىٰ قيام الساعة؛ لو عرفوا ذلك لفكروا في الأمر، وتدبروا العاقبة، ولكن من لنا بوصلهم بالقرآن وفقههم لمعانيه وأسراره، حتىٰ يعرفوا أنَّه حجة عليهم فيما ادَّعوا، وشاهد عليهم عند الله، هم لا يقرؤون القرآن إلا غافلين، ولا يتلونه حق تلاوته؛ اللهم اهدِ قومي؛ فإنَّهم لا يعلمون.

السابع من صفات المنافقين: انتصارهم بأعداء المؤمنين، وموالاتهم إياهم، وابتغاؤهم العزة منهم، ولو كانوا مؤمنين حقًّا لعلموا أن أعداء الحق لا يملكون العزة لأنفسهم، فكيف يملكونها لغيرهم؟

نعم لو كانوا مؤمنين لعلموا أن مصدر العزة الحق وحزبه، لا الباطل وجنده ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾، فاتخاذ الكافر وليًّا وناصرًا فيما يعود علىٰ المؤمنين بالأذىٰ هو شأن من شؤون المنافقين.

ثم يتساءل القرآن الكريم عن أسباب ذلك الاتخاذ، أهو ابتغاء العزة عندهم؟ أم هو شيء آخر؟ فإن كان اتخاذهم لطلب العزة منهم فإن العزة جميعها لله وحده، فلا تنال إلا من طريق طاعته، ولا يحصل عليها الرجل إلا بوقوفه عند حدود الله وسننه.

وكما خطأهم القرآن في ابتغائهم العزة من أعداء الحق وأنصار الباطل، خطأهم في ادعائهم العزة لأنفسهم، والذل للمؤمنين ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

والعبرة في ذلك أن فريقًا ممَّن يدعون الإيمان في زماننا هذا يوالون الغاصبين للبلاد، ويصافونهم لا ليستعينوا بهم علىٰ تثبيت حق أو إبطال باطل، بل

يوالونهم ليكونوا عظماء أعزاء، أصحاب مكانة ومنزلة، ويفخر الرجل بأنه صديق فلان أو محسوبه، وقد تجره هذه الصداقة إلىٰ أن يصور أمته لذلك الغاصب بصورة حقيرة ممتهنة، بل قد يصل به إخلاصه لذلك الصديق أن يصبح حربًا علىٰ أمته، معوانًا للغاصب عليها، وحظه من ذلك دراهم معدودة يصل إليها، أو رتبة يحصل عليها وذلك عنده هو العز الدائم، والعظمة الخالدة. ولو درىٰ أن ذلك المستعمر مخلص لأمته ووطنه قبل أن يكون مخلصًا له، وأنه لا يعطيه شيئًا إلا حيث أخذ منه الثمن أضعافًا مضعفة؛ لو عرف ذلك هذا المسكين لعلم أن العزة في احترام نفسه، وامتهان العظمة الكاذبة التي لم يكن مصدرها الخلق والكرامة، وأن العزة لا تنال من عدو يتربص به الدوائر، ويفترص به الفرص، وأن الخير له في ألا يصافي عدوًّا له ولبلاده، بل يصافي من يناصره علىٰ الحق، ويتعاون معه علىٰ البر والخير.

ولو شئت أن تجعل موالاة الغاصب هي موالاة المنافق للكافر المحارب= لسهل عليك الأمر، ووضح أمامك السبيل.

وآية ذلك أنَّ أولئك الغاصبين لبلاد المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها لا تطيب لهم الإقامة ببلاد المسلمين إلا حيث عُطِّلت حدود الله في الأرض، وانتهكت الحرمات، وأبيح منها ماكان حرامًا، وحرم ما كان حلالًا، ولولا ذلك ما طابت لهم إقامة، وما استطاعوا أن يعيشوا مع المسلمين.

وإلَّا فقل لي بربك: أيُّ بلد من بلاد المسلمين محتل بأجنبي تقطع فيه يد سارق؟ أو يقتل فيه زانٍ محصن؟ أو تحرم فيه الخمر؟ بل أي بلد من بلاد المسلمين لا يباح فيه الزنا العلني؟ ويحل فيه التشريع الوضعي محل التشريع السماوي، ويجد فيه الفاسق والمجرم مباءة صالحة للإجرام والفساد، وعونًا له علىٰ كل الموبقات والمحرمات، ولو شئت أن تطالب بإقامة الحدود، وتحريم المحرمات، والرجوع إلىٰ دين الله في التشريع لقامت لذلك الدنيا وقعدت، لا من الغاصب وحده، بل من الغاصب وأذناب الغاصب، وعرَّضت نفسك لحرب شعواء لا قِبَل لك بها.

وحظ الغاصب من ذلك معروف جليّ، وهو شغل الناس بشهواتهم وأهوائهم، وصرفهم عن العمل الجدي المفيد، ولو أنَّ الناس صلحوا في دينهم،

وتهذبوا في أخلاقهم، ما استطاع الغاصب أن يعيش بينهم يومًا واحدًا، ومن أجل ذلك يعمل وسعه علىٰ إفساد الأخلاق، وتفريق الجمع وإضرام نار الحسد بين الأفراد والجماعات، فهو يغزو المسلمين بجيوش من المفاسد والمحرمات فوق غزوه لهم بجيوش من الاحتلال، وآلاف من المدمرات والمهلكات، وهي جيوش محبَّبَة للنفوس يتقدم بها الغاصب للأمة التي يحتلها باسم المدنية والرقي؛ لأنَّ قطع يد السارق وحشية لا تليق في القرن العشرين، وتحريم الزنا العلني لا يتفق والحرية التي كفلها القانون، وتحريم المسكرات جمود وتأخر، تلك هي سمومهم القتَّالة، وآلاتهم الفتَّاكة، التي بها يعيشون، وعليها يعتمدون.

لو عرف الموالي لهم أنَّهم يعيشون علىٰ ذلك الحساب، ويعتمدون علىٰ أولئك المعاول الهدامة للدين والخلق والفضيلة، إن لم يكن من طريق مباشر من طريق غير مباشر؛ لو عرف ذلك المسلم لعلم أن موالاته لهم هي شر مستطير علىٰ المسلمين، وحرب فتاكة بأمته وشعبه، وتمكين لهم في الأرض، وتعاون علىٰ الإثم والعدوان.

قد يواليهم بعض الناس ليأخذ منهم لا ليعطيهم، وينفع بهم لا ليضر، ويستغل نفوذهم لمصالح الناس؛ نعم قد يواليهم بعض الناس لذلك، وقد تكون نيته صالحة في هذه الموالاة، ولكن الذين خبروهم وسبروا غورهم عرفوا أنَّهم لا يرعون لصديقهم عهدًا، ولا يرقبون له أخوة ففي الوقت الذين يحسون منه أنه خصم لاستعمارهم وسياستهم يقلبون له ظهر المِجَنّ، ويضحون به وبصداقته، ومن ناحية أخرىٰ لا يمكن أن يعطوا صديقهم شيئًا إلَّا حيث تقاضوه الثمن غاليًا، فهم يساومون في كل شيء، ويتَّجِرون حتىٰ علىٰ حساب الصداقات الشخصية، فلا يعطون إلَّا وقد أخذوا، ولا ينفعون إلَّا وقد أضرّوا، ولو أنَّ ضررهم وقف عند حد الموالي لهم؛ لهان الأمر، ولكنَّهم يضرونه في أمته، ويأخذون منه الثمن علىٰ حساب شعبه، فانتهت المسألة بمصلحة شخص وإضرار أمة، ويا لها من صفقة خاسرة، وتجارة بائرة، ومن لم يعرف خبث الغاصبين والمستعمرين فَلْيَسَلْ من خبرهم، ووقف علىٰ نواياهم، وبعد ذلك يختار لنفسه ما يحلو.

الثامن من صفاتهم: إكثارهم من الحلف، فتراهم كثيري الأيمان، وكثيري الكذب، والقرآن الكريم يحدثنا عنهم وعن أيمانهم، فيقول: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ

لِمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ[1]﴾، وتراه يقول: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [التوبة: ٧٤]، وتراه يقول: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ[2] وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٥، ٩٦].

وسبب إكثارهم من الأيمان أنَّهم لا يثقون بأنفسهم، ولا يعتقدون أنَّهم صادقون، والشأن فيمن فقد الثقة في نفسه أن يشعر بفقد ثقة الناس فيه، فيجد نفسه في حاجة إلىٰ أيمان؛ عله يعوض شيئًا من هذه الثقة، أمَّا الرجل الذي يصدق، ويعتقد في نفسه أنَّه صادق فما أغناه عن تأكيد أحاديثه بالأيمان، وتقويتها بالحلف.

ولو أنَّك تأملت ذلك الخلق الرديء الذي يحكيه الله عن المنافقين= لتكشَّف لك عن خلقين كامنين في نفوسهم.

أولهما: الكذب، **وثانيهما**: محاولة تغطية الكذب، والتلبيس علىٰ الناس؛ حتىٰ لا يظنوا أنَّهم كَذَبة، ولو كانوا كَذَبة غير مدلسين لهان الأمر، ولكنهم كَذَبة يريدون أن يُروا الناس أنهم صادقون.

ولا ندري كيف يستطيع الكاذب أن يُلبِّس علىٰ الناس ويريهم أنَّه صادق، وأن الكاذب الذي يحس من نفسه الكذب، وضاعت ثقته بنفسه، لا يستطيع أن يحمل الناس علىٰ تصديقه، وإن اتخذ لذلك ما اتخذ من فنون وأساليب، وكلما بالغ في ستر ما عنده من خلق كما افتضح أمره، وهتك ستره، فأولئك المنافقون الذين يكثرون من الأيمان ليستروا ما انطوت عليه نفوسهم من نفاق، يتقدمون إلىٰ الناس ببرهان جليّ علىٰ كذبهم، وإضاعة الثقة بهم، ذلك البرهان هو إكثارهم من الحلف، ولو أنَّهم كانوا صادقين أمام ضمائرهم ما احتاجوا إلىٰ أولئك الأيمان، وحسبنا أن الله -تعالىٰ- يقول فيهم: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

---

(١) يخافونكم.

(٢) نجس.

والمراد أنَّهم ما اتخذوا الأيمان تعظيمًا لاسم الله، وتقديسًا له، كما هو وضع الأيمان، من قطع النزاع بين المتخاصمين بالرجوع إلىٰ اسم الله المعظم، بل إنَّ هؤلاء اتخذوا الأيمان وقاية لهم من كشف حالهم، وفضيحة أمرهم، فدنسوا اسم الله بذلك التصرف، وامتهنوه بوضعه في غير وضعه اللائق، كما اتخذوا نطقهم بكلمة الشهادة جُنَّة لهم من حرب المؤمنين إياهم، واتخذوا صورة الصلاة وقاية لهم من عذاب التاركين للصلاة في الدنيا، وما كانت كلمة الشهادة لتقي صاحبها من العذاب في الدنيا ثم يحل به العذاب في الآخرة، وكذلك الصلاة، ما شرعها الله لتكون وقاية للناس من اللوم في الدنيا، وإنَّما شرع الله ما شرع من كلمة الشهادة والصلاة وغيرها من أعمال الإنسان ليسعد بها الإنسان في الدنيا والآخرة، ولكن المنافقين مرضت قلوبهم فمرض فيهم كل شيء، وصرفوا الأشياء عن حقيقتها، وحولوها إلىٰ غير وجهها الصحيح.

وجملة القول: إنَّ الشأن في المنافق أن يكون كاذبًا، وأن يستر كذبه بالحلف، ويقي نفسه من الفضيحة بالأيمان الباطلة؛ لأنَّه يحس بأنَّه كاذب، ولولا إحساسه ذلك أمام نفسه ما احتاج إلىٰ هذه الأيمان، والشأن في المؤمن أن يكون صادقًا.

ومن أجل ذلك لم يكن في حاجة إلىٰ تأييد قوله باليمين، وإذا حلف فإنَّما يحلف لقطع النزاع، معظِّمًا لله -تعالىٰ- واسمه، ومقدِّسًا له حق التقديس، وقوله: ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: إنَّ المنافقين يمنعون الناس عن دين الله بتلك السيرة السيئة؛ لأنَّهم معدودون من المؤمنين ومحسوبون عليهم، فكل عمل يصدر عنهم من شأنه أن يشوه سمعة المسلمين ويؤذيهم؛ ولذلك يقول الله بعد ذلك: ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، فاللهم باعد بيننا وبينهم، وطهرنا من أخلاقهم وأوزارهم.

التاسع من أخلاقهم: كذبهم وتهاونهم بالصدق، وامتهانهم لأنفسهم وكرامتهم، وجدير بقوم فقدوا الشجاعة الأدبية، ولم يكن لهم مذهب معين في الحياة أن يكونوا كَذَبة، لا يعنون بحق، ولا يحفلون بصدق، وهذا الخلق وهو الكذب كالأصل للخلق السابع، وهو إكثارهم من الحلف، واتخاذهم الأيمان جُنَّة ووقاية.

ولقد كشف الله عن كذبهم في دعوىٰ الإسلام، فعرف نبيه محمدًا ﷺ أنَّ المنافقين إذا جاءوك وقالوا لك نشهد إنك رسول الله= فلا تصدقهم؛ لأنَّهم لم يقولوا ذلك عن يقين واقتناع، كما هو الشأن في الشهادة، وإنَّما يقولون ذلك تقية منك ومن أصحابك، وإن الله -تعالىٰ- يشهد بكذبهم، ومن شهد الله بكذبه لا أحد يصدقه: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾.

ولم يكن كذب المنافقين قاصرًا علىٰ المؤمنين أعدائهم في الدين والعقيدة، بل هو خلق متأصل فيهم؛ لأنَّه أثر من آثار مرض القلب، ولذلك تراهم يكذبون حتىٰ علىٰ الكافرين الذين يقولون لهم إذا خلَوا إليهم إنَّا معكم ومن أنصاركم.

ألا ترىٰ إلىٰ قول الله -تعالىٰ- وهي يحكي عن المنافقين تحريضهم الكافرين علىٰ قتال المؤمنين ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [الحشر: ١١-١٣].

فأنت ترىٰ أنهم كذبة حتىٰ مع حزبهم، وجبناء حتىٰ مع أنصارهم، ومن صار الكذب خُلُقًا له يكذب مع نفسه، فكيف يصدق مع غيره؟ وتأمل قول الله -تعالىٰ- حكاية عنهم ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا﴾، كيف يؤكدون الوعد، ويوثقون القول، وكيف يفاجئهم الله بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾، ثم يقول: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ﴾؛ لأنَّهم كذبة ﴿وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾، فلا يثبتون علىٰ القتال؛ لأنَّهم لا يقاتلون بقلوبهم وعقائدهم، بل بأجسامهم، ثم قال الله: ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾، أي: إنَّه كتب عليهم الخذلان في النهاية.

العاشر من أخلاقهم: نقضهم العهد، وإخلافهم الوعد، وهو من فروع الكذب، غير أنَّه نوع خاص منه يتعلق بالعهود والمواثيق، وهو من أضر أنواع الكذب، وأفتكها بمصالح الناس؛ ولذلك لا يتفق والإيمان في شيء، وقد جعل

الله من أخلاق المؤمنين أنهم يراعون العهود والمواثيق، كما جعل من صفات المنافقين نقضهم لها.

ومن عجيب أمر ذلك الخلق أنَّه علامة من علامات النفاق، وهو في الوقت نفسه يزيده في النفس ويثبته، فهو أثر من آثاره، وسبب من أسبابه.

ألا ترىٰ إلىٰ قول الله -تعالىٰ-: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾، فتراه يعد هذه الطائفة التي عاهدت ربها، ثم أخلفت من المنافقين، ثم يقول: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾، ثم يعلل ذلك بقوله: ﴿بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾، فالكذب والإخلاف أثر من آثار النفاق، وكلما دأب عليه صاحبه تمكن نفاقه من النفس واستحكم.

وما أقرب ذلك الخلق خلق الكذب والإخلاف إلىٰ رجال السياسة ودعاة الاستعمار، فتراهم يعدون ويخلفون، ويعاهدون ويغدرون، وقد تعد لهم العشرات من الوعود ثم لا تكاد ترىٰ لهم شيئًا من الوفاء؛ لأنَّ المرجع عندهم مصلحتهم الذاتية، وأغراضهم الاستعمارية، ولا سيما مع الشعوب الضعيفة التي لا تستطيع أن تحاسبهم علىٰ ذلك الغدر حساب الند للند، والنظير للنظير، فتجد المعاهدات عندهم قصاصات من الورق، تلعب بها القوة، وتراهم إن صدقوا معك في أصل العهد كذبوا في فهمه وتطبيقه، فتراهم يفسرونه كما شاءت لهم القوة وحسن لهم الاستعمار، وسندهم في ذلك التأويل الذي يمسخ العهد مسخًا= ما عندهم من قوة، وما عليه معاهِدوهم من ضعف، وما أحوج الأمم إلىٰ خلق يحفظ الضعيف من القوي، ودين يضع حدًّا لأولئك الغلاة الذين لا هم لهم سوىٰ ملء بطونهم، وإشباع شهواتهم، حتىٰ يعيش الناس آمنين مطمئنين.

ولو أنَّ أولئك الناقضين للعهود، الناكثين للأيمان، عرفوا أنَّهم يخسرون بكذبهم فوق ما يكسبون، ويضيعون علىٰ أنفسهم من ثقة الشعوب بهم أكثر ممَّا يربحون؛ لو أنَّهم علموا ذلك لآثروا الصدق علىٰ الكذب، والوفاء علىٰ الغدر، وبنوا سياستهم علىٰ الحزم والعزم، والعلم والعمل، وهنالك يكون لهم شأن غير

ذلك الشأن، وهنالك يستريحون ويريحون، وهل احتاج المسلمون في سياستهم الناس في الصدر الأول إلىٰ الكذب والخداع؟ أو لجأوا إلىٰ ما يلجأ إليه المستعمرون من نقض وخيانة، حتىٰ استطاعوا أن ينشروا راية الإسلام علىٰ نصف المعمورة في نصف قرن؟ لم يحتاجوا إلىٰ شيء من ذلك، بل رأوا أنفسهم في حاجة إلىٰ العدل والصدق والوفاء، حتىٰ أصبحوا مضرب الأمثال عند خصومهم من رجال الغرب، وشهدوا أنَّ الأرض ما رأت فاتحًا كالإسلام في عدله ورحمته، وما رأت منصفين كسلفنا الصالح أيام قوتهم وحكمهم.

الحادي عشر من أخلاقهم أنَّ بعضهم من بعض، والمراد أنَّهم متشابهون في الباطل كما قال في آية أخرىٰ: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾، وقال في المؤمنين: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾، فترىٰ أنَّ الله جعل من صفات المؤمنين أن ينصر بعضهم بعضًا، أما المنافقون فقد فقدوا تلك الصلة القلبية التي بها يتناصرون، فهم متباغضون متخاذلون: ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٤].

وجدير بمن كان همهم مصالحهم الذاتية أن يكونوا علىٰ ذلك الحال من التفرق والتخاذل، نعم من كان همه في هذه الحياة أن يعيش مع كل الأحزاب، وأن يغنم من كل الظروف ألا يتصل قلبه بقلب غيره علىٰ أساس الدين والخلق، بل يكون قلبه دائمًا مع شهواته، وما تهواه نفسه، أما المؤمنون فقد وحَّد الدين بينهم، وجعلهم حزب الله، يهتمون لما يهتم به، ويتألمون لما يغضبه، فإذا انتهكت حرمة من حرمات الدين= رأيتهم غلاظًا شدادًا علىٰ من يقع منه ذلك العمل، فللدين والعقيدة الفضل الأول في ترابط المسلمين وتآزرهم، وأخذ بعضهم بساعد بعض.

وقد وصف الله المناقين بقوله: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾، كما وصف المؤمنين بضد ما عليه المنافقون فقال: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾.

أما أنَّ المؤمنين من أخلاقهم ما وصفهم الله به فظاهر، وأمَّا أنَّ المناقين يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف؛ فلأنَّهم يأمرون بتخذيل المؤمنين وهو

منكر، وينهون عن معاونتهم وهو معروف، وقد سبق لك أنَّهم يعوقون عن القتال مع المؤمنين، ويقولون لإخوانهم هلم إلينا، وأنهم أشحة علىٰ الخير.

وقد حكىٰ الله عنهم أنَّهم يقولون لإخوانهم من أغنياء المدينة: ﴿لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ﴾، وهو طريق لإذلال المؤمنين، ويحاولون به أن يصرفوهم عن دين الله.

وقد ردَّ الله عليهم بقوله: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾، أي: لا يفقهون أن بيد الله خزائن السماوات والأرض، وهو الذي يعطي من يشاء ويمنع من يشاء، ومن أراد الله غناه لا يستطيع أحد إذلاله بحال.

ولقد ذكرت هذه الآية عندما حاول بعض الحكام الظالمين الحيلولة بين مال الدولة الذي أعد لتنفيس كربات المأزومين وبين رجال لا يوافقونه في لونه السياسي، ويعطيه بسخاء لمن يعاونونه علىٰ ظلمه، ويؤازرونه في سياسته، عند ذلك قلت: صدق الله وصدق كتابه الكريم، الذي لا يزال جديدًا تفسره الحوادث، فأولئك المنافقون في صدر الإسلام كانوا يوصون أغنياء المدينة حتىٰ لا يساعدوا المهاجرين الفقراء، إلىٰ أن ينفضّوا من حول محمد ﷺ، وذلك الوزير الظالم جاء ليوصي بحرمان خصومه في السياسة من مرافق الدولة، حتىٰ ينفضوا من حزبهم الذي ينتمون إليه، وما علم أنَّ لله خزائن السماوات والأرض ولكن الحكام الظالمين لا يعقلون شيئًا من ذلك، وأي فرق بين منافقي زمن الرسول ﷺ وبين منافقي زماننا وظالميه، طلاب المادة، وأعداء الحق والحقيقة، والمعتدين علىٰ الحرمات، والمستبيحين لكل الجرائم صدق الله وصدق كتابه.

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ﴾، وإن تراخىٰ الزمان وبعدت المسافة، وإذا شئت أن ترىٰ فريقًا من الناس يشبه أولئك المنافقين في أمرهم بالمنكر، ونهيهم عن المعروف؛ فإنَّ ذلك يسير عليك، غير أنَّ ذلك المنكر الذي يأمرون به لا يحضون الناس عليه من جهة أنه منكر، وكذلك المعروف الذي ينهون الناس عنه، لا ينفرونهم منه بصفة أنَّه معروف، ولو فعلوا ذلك ما سمع لهم أحد، وما نجحوا في مهمتهم، فلا غنىٰ لهم عن تحسين المنكر للناس حتىٰ يصير عندهم في لون المعروف، وتشويه المعروف حتىٰ يصير كالمنكر، وبذلك يستطيعون أن يصلوا لغايتهم، ويحصلوا علىٰ غرضهم.

ألا ترىٰ إلىٰ شبابنا اليوم يحسنون الخمر للناس، ويقولون لهم إنَّها تفيد الصحة، وتحدث عند شاربها تفريحًا ونشوة، وتباعد بينه وبين الأحزان، وهي شراب عِلْيَة القوة وأصحاب المكانة من الأمة، ويحملون إخوانهم بمختلف الأساليب علىٰ غشيان أماكن الشرب، وبيوت القمار والزنا، باسم أنَّ ذلك مدنية ورقي، والمقتصد منهم في ذلك التهتك يقول لصاحبه نشرب ونتوب إلىٰ الله - تعالىٰ- بعدُ، وإذا رأوا شابًا يذهب إلىٰ مسجد من المساجد أو نادٍ من أندية الوعظ والإرشاد= ثبطوه عن ذلك العمل، وحالوا بينه وبينه، مرة من ناحية أن هذه أعمال **رجعية** لا تليق بالمثقفين، ومرة من جهة أنه يجهد نفسه ويكلف نفسه أعمالًا شاقة وهو شاب في مقتبل حياته، والأولىٰ بمثل هذه الأعمال الشيوخ دون الشبان، كالذي ينهىٰ صاحبه عن بذل المال في عمل من أعمال البر، ويحببه في البخل من جهة أنه حريص علىٰ مصلحته، ويهمه أنه يكون من أغنياء الناس لا من فقرائهم، فهو يدعوه إلىٰ البخل باسم الاقتصاد، ويحثه علىٰ التقتير باسم المصلحة، ويَعِده بالفقر إذا هو استمر علىٰ ذلك الحال.

وقد وصف الله الشيطان بأنَّه يعد الناس الفقر إذاهم بذلوا أموالهم في سبيل الخير، ويأمرهم بالفحشاء من طريق تَمتيع النفس وإطماعها في عفو الله وغفرانه، فهو يهوِّن علىٰ الناس الفاحشة وينفِّرهم من الصدقة، فهم شياطين في ذلك العمل، وخبثاء بذلك الأسلوب، وما أكثرهم في كل زمان، فأولئك هم المنافقون وأولئك أعمالهم السيئة وآثارهم الخبيثة، وهذه ذراريهم وذريتهم نسأل الله السلامة منهم ومن شرورهم.

الثاني عشر من أخلاقهم: لينهم في القول، ودهاؤهم في الحديث، وهو ما يشير له القرآن الكريم في قوله: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾، فترىٰ لهم لحنا خاصًا، وأسلوبًا يمتازون به عن سواهم، ذلك اللحن هو ما نلحظه عليهم من الضعف عندما يطلب إلىٰ الرجل منهم أن يقول حقًا أو يشهد علىٰ حادث، فتراهم مضطربين، لا يستطيع الواحد منهم أن يواجه الحقائق، ويشهد بما يعتقد، وإنَّما يتذبذب ويضطرب، فلا تدري أهو معك أم عليك، ولا تعرف في أي ناحية هو، وفي أي صف يريد أن يكون.

ولا عجب؛ فإنَّ ضعف العقيدة ومرض القلب جعلهم علىٰ ذلك الحال، ولا ننتظر من قلب ضعيف أن يصدر منه كلام فيه قوة؛ لأنَّ الضعيف لا يلد إلا ضعيفًا، ولو صحت قلوبهم لصحت ألسنتهم.

أمَّا المؤمن فقد اختار له خطة يسير عليها، وأخذ علىٰ نفسه أن ينصر الحق، ولا يخشىٰ إلا الله، فتجد فيه شجاعة أدبية تضطره إلىٰ أن يجاهر بالحق وإن تألم له الناس؛ لأنَّ غايته إرضاء الله، فلا يهمه أغَضِب المخلوق أم رضىٰ، ومن كان همه إرضاء الله هان عليه كل شيء في ذلك السبيل، وكثيرًا ما يضحي المؤمن في سبيل قول الحق، وشهادة الحق، وقوله للمخطئ أنت مخطئ، والمصيب أنت مصيب.

أمَّا المنافق؛ فلأنه يعنيه كثيرًا رضاء الناس، ويحاول ألا يكون له عدو، تراه يداجي ويوارب، ويخادع ويخاتل، ومن أجل ذلك كان حديثه مخنثًا، ليس فيه شيء من القوة، ولا شبيه من الوضوح، وما أكثر ذلك الخلق في كثير ممَّن ينتسبون للإسلام، بل وفي كثير من علمائهم وخاصتهم، تجدهم لا يجرؤون علىٰ قول الحق والصدع به، إما استبقاء علىٰ مركزهم أمام العامة، أو حرصًا علىٰ مكانتهم لدىٰ الجماهير، وإمَّا مواربة لأمير أو حاكم، وقد يكون للأمير أو الحاكم شهوات فيسخر بعض العلماء ليؤيده فيما يريد، ويعاونه فيما يشتهي، فيجد منه الخادم المطيع، وأقل ما يجده الحاكم الظالم من علمائنا اليوم أن يكون موقفهم منه سلبيًّا إن لم يكن إيجابيًّا فيما يبغيه من باطل ويحرص عليه من ظلم، ولو أنَّهم علموا أن الله كلفهم قول الحق ولو علىٰ أنفسهم، وطالبهم أن يصدعوا به في وجه الحاكمين والمحكومين، وطالبهم أن يتعاونوا علىٰ محاربة الظلم والظالمين؛ لو علموا ذلك، وعلموا أن الله -تعالىٰ- محاسبهم علىٰ هذه المواقف المريبة مارضوا لأنفسهم أن يكونوا قدوة سيئة، وأسوة غير صالحة، ولو أنك أخذت تلومهم علىٰ ذلك العمل لسمعت فتاوىٰ طويلة عريضة، ومعاذير واسعة، وكثيرًا ما تسمع منهم: «دَارِهم ما دُمْتَ في دَارِهم»، وأمثال هذه الكلمة كقول الشاعر:

ومن لم يصانِع في أمورٍ كثيرة   يضرَّس بأنيابٍ ويوطأ بمنسم(١)

(١) شرح القصائد السبع: (٢٨٦)، والبيت من معلقة زهير بن أبي سلمىٰ. (عمرو)

ناسين قول رسول الله ﷺ: «**أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر**». [رواه النسائي][1]، وقول الله -تعالىٰ-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥].

وإذا كان علماء الأمة ذلك موقفهم من قول الحق، وشهادة الحق؛ فماذا يصنع العامة، اللهم ارزقنا شجاعة علىٰ عمل الحق وقول الحق، وباعد بيننا وبين الضعف، واجعل همنا رضاك، وغايتنا الوصول إليك، وصغِّر أمامنا كل شيء في ذلك السبيل، ولا تفتِنَّا بزخارف هذه الحياة، وباعد بيننا وبين النفاق كما باعدت بين المشرق والمغرب.

الثالث عشر: ما أشاره إليه القرآن الكريم بقوله: ﴿۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾.

والظاهرة العامَّة لأولئك الصفات أَنَّهم قوم يهتمون بظاهرهم، فيصلحونه أمام الناس، ولا يحفلون بقلبهم وباطنهم، فإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم، لاهتمامهم بها، وعنايتهم بإصلاحها، وإن يقولوا تسمع لقولهم؛ لأَنَّهم يلينون القول ولا يغلظون فيه، ويهمهم أن يكونوا فصحاء بلغاء، ثم أراد الله أن يرينا أن ذلك الإصلاح الظاهر هو غايتهم التي يرمون إليها، فقال: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ فشبههم بالخشب المسندة إلىٰ الحائط، وليس من شأن الخشب أن تسند، بل الشأن فيها أن توضع للعروش، تقام عليها البيوت والمباني، ولكن هؤلاء مثلهم في أَنَّهم أشباح قد خلت من العلم والنظر، وعطلت من وظيفتها في هذه الحياة مثل الخشب التي عطلت عن عملها، وأسندت إلىٰ الحائط، أو يريد الله أن يشبههم بالخشب التي نُخِر جوفها، وظاهرها سليم أمام الناس، فهم كهذه الخشب في حسن المنظر، وقبح المخبر؛ لأَنَّهم لا قلوب لهم ولا عقائد، بل هم مذبذبون مضطربون؛ لأن من لا عقيدة له لا نفع فيه ولا غناء.

---

(١) رواه أحمد: (١٨٨٣٠)، وأبي داود: (٤٣٤٤). (عمرو)

وقد وصفهم الله بقوله: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾؛ ليؤكد لنا الغاية من التشبيه بالخُشُب المسندة، ويرينا أنَّهم جبناء ضعاف القلوب، ومن أجل ذلك يظنون أنَّ كل صيحة تقع هي عليهم وحدهم، ومَنْ كان كذلك لا يستقر له حال، ولا ينتظم له شأن، وإنَّما حسبوا كل صيحة عليهم لأنَّهم يتوهمون عند كل حدث من الأحداث أن سياستهم قد كشفت، وخداعهم قد فضح، والرجل الذي يعيش مع الناس عيشة المواربة، ويعاملهم معاملة المخادع، لا يأمن أن يكشف ستره ويفضح أمره، فهو دائمًا مضطرب، ودائمًا يتوقع الخزي والنكال.

وحسبنا أنَّ الله -تعالىٰ- يقول فيهم: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾، فيحصر العداوة فيهم، وكأنَّ الكافرين في جانبهم ليسوا شيئًا يذكر؛ لأنَّ الكافر قد ظهر بعداوته للمؤمن، فيستطيع أن يأخذ منه حذره، أمَّا المنافق فهو السم في صورة العسل، والعدو في ثوب الصديق، والخاذل في شكل المناصر، ولو لم يكن من وصف اللهم لهم سوىٰ هذه الجملة لكفت في التنفير منهم، والحض علىٰ كراهتهم، وكما كان المنافق في دين الله عدوًّا للحق وأنصار الحق، هو عدو للإصلاح في كل شأن من شؤون الحياة، هو عدو الإصلاح في السياسة، وعدو الإصلاح في الاقتصاد، وعدو الإصلاح في العلم، وعدو الإصلاح في الصناعة، وعلىٰ الناس أن تحذره وتتقي شره، ومن يتتبع تاريخ الإصلاح السياسي في كل أمة من الأمم يجد فيها المؤمنين والكافرين والمنافقين، ويجد أنَّ المنافقين هم أضر عليها من أعدائها الكافرين.

ومن أجل ذلك أطال القرآن في صفاتهم، وأكثر من ذكر فضائحهم؛ ليحذرنا من التخلق بخلقهم، ويباعد بيننا وبين الانتساب إليهم، ولم يكتف القرآن الكريم بذلك القدر من التحذير، بل قال: ﴿قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾، وهو دعاء عليهم بالهلاك بعد أن حذرنا منهم، وعرفنا أنَّهم هم عدو الأمة اللدود، وداؤها العضال، وهم طريق نكبتها، وسبب استعباد العدو لها، وشقائها في هذه الحياة.

أشهر الغزوات

غزوة بدر(١) الكبرى(٢)

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ [آل عمران: ١٣].

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ(٣) أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَـٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ(٤) ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝١٠ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ(٥) ٱلشَّيْطَـٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ۝١١ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى

---

(١) محل بين مكة والمدينة. وهو إلىٰ المدينة أقرب، في الجنوب الغربي منها علىٰ الطريق السلطاني. وكان به سوق تعقد كل سنة ثمانية أيام، وكانت غزوة بدر في السنة الثانية من الهجرة في رمضان.

(٢) هذه هي الغزوة الكبرىٰ والتي سبقتها غزوات وسرايا، منها: سرية سيف البحر، بقيادة حمزة بن عبد المطلب، غزوة الأبواء، وسرية سعد بن أبي وقاص، وسرية نخلة.

ثم كانت غزوة بدر الكبرىٰ والتي كان عدد المسلمين فيها ما بين ٣١٣ إلىٰ ٣١٩ رجلًا.

انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية: (٣١٩)، وما يليها.

(٣) العير، وهي: الإبل تحمل الطعام والنفير: القوم، الشوكة: القوة.

(٤) تابعين.

(٥) وسوسته، يربط علىٰ قلوبكم: يثبتها.

قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾
ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟(١) ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾
ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ زَحْفًا(٢) فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ(٣) ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ(٤)
أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ(٥) فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ
﴿١٦﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ(٦) إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ
وَلِيُبْلِىَ(٧) ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ
مُوهِنُ(٨) كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ
لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ ۚ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾
[الأنفال: ٧-١٩].

﴿۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ
وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ(٩) يَوْمَ
ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ(١٠)
ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ
أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ
لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ
وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ

---

(١) عادوهما.

(٢) زاحفين لقتالكم.

(٣) لا تفروا منهزمين.

(٤) لمصلحة قتال.

(٥) جماعة من المؤمنين.

(٦) ما سدّدت رميك حين رميت، ولكن الله هو الذي سدده وجعله يصيب مقاتل القوم.

(٧) يختبر.

(٨) مُضعِف.

(٩) الفرق بين الحق والباطل.

(١٠) جانب الوادي الأقرب إلىٰ المدينة. والقصوىٰ: البعيد. الركب: العير في مكان ﴿أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ وهو ساحل البحر.

﴿إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِى أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ
وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ
كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ[1] ۖ
وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا[2] وَرِئَآءَ
ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ
أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ[3] لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ
ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ
وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ
دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤١- ٤٩].

* تعليق وعبرة:

(١) يرينا الله في آية آل عمران: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ﴾ . . . إلخ الآية أنَّ لنا عبرة عظيمة في جماعتين التقتا للقتال: إحداهما فئة تقاتل في سبيل الله الذي شرعه، وهو إعلاء التوحيد وإحقاق الحق، وفئة أخرىٰ كافرة تقاتل في سبيل الطاغوت والباطل، قيل: هو إشارة إلىٰ قتال المؤمنين للمشركين في غزوة بدر، وما حصل فيها من النصر المؤزَّر للمؤمنين علىٰ قتلهم، كما قال في سورة آل عمران: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ﴾.

والعبرة في هذه الموقعة التي ترشدنا إليها الآية الكريمة هي قوله: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ﴾، أي: إنَّ المؤمنين يرون الكافرين مثلين لهم، مع أن الكافرين كانوا ثلاثة أمثال المؤمنين. ونظيره قول الله -تعالىٰ- في سورة الأنفال: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الأنفال: ٤٣، ٤٤].

---

(١) قوتكم. وسماه ريحًا؛ لأنَّ الريح أكبر قوة.

(٢) فخرًا واستعلاء، رئاء الناس: بقصد الرياء.

(٣) مجير.

يشرح الله لنا بهذه الآيات الحكمة من إراءة الله لهم قليلًا في أعينهم، وإراءة الرسول لهم في منامه قلائل، تلك الحكمة أنهم يتشجعون علىٰ اللقاء ولا يجبنون، كما كان من تشجيع الكفار علىٰ قتال المؤمنين أن قَلَّلَ المؤمنين في أعينهم كما هو الواقع، ليدخلوا معهم في حرب، فيكون من أمر خذلانهم ما يكبت الله به أعداء الحق، وينصر به المؤمنين، وهو ما أشار إليه بقوله: ﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾.

أمَّا قوله -تعالىٰ-: ﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾، فهو يريك أنَّ ذلك ليس بعجيب أن تكون هذه الآية في الفئتين المقاتلتين، يؤيد من تقاتل في سبيله، ويخذل من تقاتل في سبيل الشيطان؛ لأنَّه يؤيد بنصره من يشاء تأييده، وهو ما قضت الحكمة تأييده لتمشيه مع السنن، ودفاعه عن الحق والحقيقة، واعتصامه بالصبر والثبات.

وفريق ذلك حاله جدير بأن يؤيده الله بشتىٰ الوسائل، فيقلل عدوه في نظره، ويربط علىٰ قلبه، ويُذهب من نفسه وساوس الشيطان، وتكون له العاقبة، وهو يرينا بذلك أن ذلك هو الشأن في كل حرب تكون بين حزبين، يؤيد الله فيها حزب الحق، ويخذل فيها جند الباطل، ولذلك ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾.

(٢) ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ ... إلـخ الآيـة؛ أي: واذكروا وعد الله لكم أن تحصلوا علىٰ إحدىٰ الطائفتين، العير أو النفير، وتودون أن الطائفة التي لم تكن لها شوكة وقوة تكون لكم وهي العير؛ لأنَّ فيها غنائم وليس فيها إلَّا فوارس قليلة، وهو تعريض بكراهتهم للقتال، وطمعهم في المال.

يقول **الزمخشري**[1]: يعني أنَّكم تريدون الفائدة العاجلة، وسفساف الأمور، وألا تلقوا ما يرزؤكم في أبدانكم وأموالكم، والله ﷻ يريد معالي الأمور وما يرجع إلىٰ عمارة الدين، ونصرة الحق، وعلو الكلمة، والفوز في الدارين، وشتان ما بين المرادين؛ ولذلك اختار لكم الطائفة ذات الشوكة، وكسر قوتهم بضعفكم، وغلب كثرتهم بقلتكم، وأعزكم وأذلهم.

---

(١) فتوح الغيب: (٢٩/٧). (عمرو)

وقوله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ . . . إلخ، بدل من قوله: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ﴾، أي: هو يعدكم إحدىٰ الطائفتين في الوقت الذي تطلبون فيه الغوث من ربكم، والمراد بالوقت هنا: الزمن المتسع الذي وقعت فيه هذه الحوادث، وهو الزمن الذي كانت فيه غزوة بدر، وليس المراد أنَّ اللحظة التي وقع فيها وعد الله لهم، هي تلك اللحظة التي طلبوا فيها الغوث من الله -تعالىٰ-، يذكرهم بذلك استنصارهم بالله -تعالىٰ- في وقت قلتهم وكثرة عدوهم، ووعد الله لهم بالنصر والإمداد بألف من الملائكة.

ثم بيَّن الغاية من ذلك الوعد، فقال: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾، فتسكن بعد الزلزال والخوف، فتلقون أعداءكم ثابتين موقنين بالنصر.

ثم أرانا الله في آية أخرىٰ أنَّه سيلقي في قلوب الذين كفروا الرعب، وبذلك تعرف مقدار نصر الله للمؤمنين، وخذلانه للكافرين، يثبت الله المؤمنين، ويبشرهم بأنَّه معينهم وناصرهم، ويمدهم بالملائكة، ولا شكَّ أن تثبيت القلوب في وقت الزلزال نعمة كبرىٰ، يكرم الله بها أنصاره المؤمنين، وإلقاء الرعب في قلوب الكفار نقمة يخذل الله بها الكافرين.

وقوله: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، يرينا أنَّه -تعالىٰ- الفاعل للنصر مهما تكن أسبابه المادية والمعنوية؛ إذ هو المسخر لها، وناهيك بما لا كسب للبشر فيه كتسخير الملائكة تخالط المؤمنين فتستفيد أرواحهم منها الثبات والاطمئنان، ثم علل ذلك بقوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، ومن كان غالبًا علىٰ أمره، ولا يضع شيئًا في غير موضعه لا يكون النصر إلا منه.

(٣) ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ . . . إلخ الآية بيان لمنة أخرىٰ علىٰ المؤمنين هي إلقاؤه -تعالىٰ- النعاس عليهم، حتىٰ غَشِيَهم وغلب عليهم فكان كالغاشية تستر الشيء؛ تأمينًا لهم من الخوف الذي كان يساورهم من الفرق العظيم بينهم وبين عدوهم في العَدَد والعُدَد وغير ذلك.

ثم أشار إلىٰ منة ثالثة هي قوله: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾، أي: من الأحداث التي تعرض لكم والأرجاس ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، وسوسته كأن يقول لهم: أترعمون أن فيكم نبيًّا وتصلون محدثين مجنبين؟ ﴿وَلِيَرْبِطَ

عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ يثبتها بما تجدون في ذلك الماء من نفع ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ حتىٰ لا تسوخ في الأرض وقد يقاتل الرجل منكم راجلًا لا راكبًا، وبذلك يكون قويًا ثابت القدم، ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ متعلق بقوله: ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾.

والمعنىٰ أنَّه -تعالىٰ- يثبتها في الوقت الذي يوحىٰ فيه إلىٰ الملائكة آمرًا لهم أن يثبتوا به الأنفس بملابستهم لها، واتصالهم بها، والمعيَّة في قوله: ﴿إِنِّى مَعَكُمْ﴾ معية إعانة كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، وإذا كان الله هو الموحي للملائكة بأنَّه معهم ومعينهم، وهو الذي أمرهم بتثبيت المؤمنين، فهو يرينا بذلك مقدار نعمته علىٰ المؤمنين وفضله عليهم، ولم يكن ذلك الفضل تكريمًا لأشخاصهم، بل لأنَّهم يقاتلون في سبيل الله، ولأنَّ أعداءهم يقاتلون في سبيل الطاغوت، ومن أجل ذلك نَصر المؤمنين، وخذل الكافرين.

(٤) ﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ هو وعد من الله -تعالىٰ- أن يخيف الكفار من المؤمنين بإلقاء الرعب في قلوبهم حتىٰ لا يقووا علىٰ محاربة المؤمنين بعد أن أمر الملائكة بتثبيت المؤمنين، وقد علل ذلك في سورة آل عمران؛ إذ يقول: ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٥٢]، فهي عقوبة للكافرين علىٰ شركهم وإهمالهم لعقولهم ومواهبهم، والمراد أن أولئك لا يحاربون عن عقيدة، ولا يصدرون عن قلوب، ومن كان كذلك ومواهبهم، والمراد أن أولئك لا يحاربون عن عقيدة، ولا يصدرون عن قلوب، ومن كان كذلك كان ضعيف القلب، مضطرب البال، فإذا ألقىٰ الله الرعب في قلبه، وهزم أمام خصمه كان ذلك متمشيًا مع السنن الإلهية العادلة، وجاريًا علىٰ مقتضىٰ الحكمة.

وقد أرانا الله -تعالىٰ- أن المؤمنين يقاتلون في سبيل الله، والكافرين يقاتلون في سبيل الباطل وشتان بين من يقاتل في سبيل الله، ومن يقاتل في سبيل الهوىٰ والشهوة، وأرانا الله أن من يقاتل في سبيل الباطل لا يعمل له حساب، ولا يقام له وزن: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

وقوله: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ إرشاد من الله لمقاتل القوم ووسائل تعجيزهم، ثم علل ذلك بقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، وكأن الله يرينا السبب في إهداره لدمائهم، وتسليط المؤمنين عليهم، وكذلك يرينا السبب في إلقاء الرعب في قلوبهم، وتثبيت المؤمنين خصومهم، ذلك السبب أنهم عادَوا الله ورسوله والله لا يريد لهم إلا الخير، ولا يشرع لهم إلا ما فيه حياتهم وسعادتهم، فهم حمقىٰ بذلك العداء، وسفهاء جاهلون بهذه المشقة.

وجدير بمن وقف من ربه ذلك الموقف أن يعذبه في الدنيا بمثل ذلك العذاب، ويعذبه في الآخرة عذابًا أخزىٰ منه وأشق، جدير بطائفة يأتيها الرسول، ويقيم لها الأدلة والبراهين علىٰ صدقه، فتقابله بالهزء والسخرية، وتقول: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

جدير بطائفة هذا حالها أن يذلها الله علىٰ أيدي نفر قليل من المؤمنين الذين أذاقوا الأمرين وعذبوهم بألوان من العذاب، واضطروهم إلىٰ الهجرة فرارًا بدينهم وعقيدتهم ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥].

(٥) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾. إرشاد من الله -تعالىٰ- لعباده المؤمنين ألا يفروا إذا زحف عليهم الكفار؛ لأنَّه معرة وجبن لا يليق بمؤمن، بل لا يليق برجل يحترم نفسه ورجولته، ويتوعد الله المؤمنين إذا هم فروا من وجه العدوّ أن يرجعوا من عملهم هذا بغضب عظيم من الله، وأن تكون عاقبتهم جهنم ومصيرهم شر مصير.

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ تذكير آخر بفضله -تعالىٰ- علىٰ المؤمنين في هذه الموقعة، يريهم أنَّهم ما قتلوا الكفار بعددهم ولا بعددهم؛ لأنَّهم كانوا في قلة، ولكن الذي سخر لهم أسباب القتل الذي نصروا به هو الله -تعالىٰ-، فثبت قلوب المؤمنين وألقىٰ الرعب في نفوس الكافرين، وغشَّاهم النعاس، ليبدل خوفهم الذي كانوا فيه أمنًا، وأنزل

عليهم من ماء السماء ما طهر به أبدانهم وأحداثهم، وأذهب عنهم وساوس الشيطان، كل ذلك ليحق الحق ويبطل الباطل، وليبقىٰ التوحيد في الأرض عزيزًا منيعًا هو وأصحابه.

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ روي أن الرسول ﷺ قبض كفًا من الحصباء ورمىٰ به في وجوه قريش، وقال: «**شاهت الوجوه**»[1]، فلم يبقَ مشرك إلا شغل بعينيه عن القتال، وانهزموا، فيكون المعنىٰ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ ذلك الرمي المسدد الذي أصاب أعين القوم ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ كفًا من الحصباء، ولكن الله هو الذي سدَّدَ رميك، حتىٰ كان من أثره تعجيز القوم واشتغالهم بأعينهم عن القتال، وقيل ما رميت بالرعب إذ رميت بالحصباء، ولكن الله رمىٰ، ويصح أن يراد من الرمي القتال الذي وقع منه ومن أصحابه في ذلك اليوم، والمراد ما سددت في ذلك اليوم حينما قاتلت القوم، ولكن الله هو الذي جعل عملك وعمل أصحابك مسدَّدًا منكلًا بصناديد قريش، وأضاف الرمي إلىٰ الرسول مع أنه كان منه ومن أصحابه لأنَّه قائدهم الأعظم، وقدوتهم في الحرب والسلم، ومهما يكن من شيء فهو منة من الله عليه وعلىٰ أصحابه في ذلك النصر الذي أحرزوه، والغنم الذي حصلوا عليه.

﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾، أي: إنَّ الله -تعالىٰ- فعل ما ذكر لإقامة حجته، وتأييد رسوله، وليبلىٰ المؤمنين منه بلاء حسنًا بالنصر والغنيمة

---

(١) روىٰ الإمام أحمد: (٤/٤٨٦)، (٢٧٦٢)، عن ابن عباس، قال: إن الملأ من قريش اجتمعوا في الحجر، فتعاقدوا باللات والعزىٰ، ومناة الثالثة الأخرىٰ، ونائلة وإساف: لو قد رأينا محمدا، لقد قمنا إليه قيام رجل واحد، فلم نفارقه حتىٰ نقتله، فأقبلت ابنته فاطمة رضي الله عنها تبكي، حتىٰ دخلت علىٰ رسول الله ﷺ، فقالت: هؤلاء الملأ من قريش، قد تعاقدوا عليك، لو قد رأوك، لقد قاموا إليك فقتلوك، فليس منهم رجل إلا قد عرف نصيبه من دمك. فقال: «**يا بنية، أريني وضوءا**» فتوضأ، ثم دخل عليهم المسجد، فلما رأوه، قالوا: ها هو ذا، وخفضوا أبصارهم، وسقطت أذقانهم في صدورهم، وعقروا في مجالسهم، فلم يرفعوا إليه بصرا، ولم يقم إليه منهم رجل، فأقبل رسول الله ﷺ حتىٰ قام علىٰ رءوسهم، فأخذ قبضة من التراب، فقال: «**شاهت الوجوه**» ثم حصبهم بها، فما أصاب رجلا منهم من ذلك الحصىٰ حصاة إلا قتل يوم بدر كافرا.

وانظر: تفسير الطبري: (١١/٨٣)، وما بعدها، وقالها عليه الصلاة والسلام في غزوة حنين، ورماهم بالحصباء علىٰ ما رواه مسلم: (١٧٧٦).

وحسن السمعة، والبلاء: الاختبار بالحَسَن والسيء ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٦]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لما كان من استغاثة المؤمنين مع رسولهم لربهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بصدقهم وإخلاصهم.

﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، أي: ذلكم هو الذي سمعتموه، ويضاف إليه شيء آخر، هو أنَّ الله مضعف كيد الكافرين، ومكرهم بالنبي، ومحاولتهم القضاء علىٰ دعوته.

(٦) ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ﴾، قيل: إن الكافرين أعداء محمد ﷺ وأصحابه استنصروا الله، وقالوا: اللهم انصر أعلىٰ الجندين وأكرم الفئتين، وخير القبيلتين، فتهكَّم الله بهم، وقال لهم إن تطلبوا الفتح والنصر فقد جاءكم الفتح بذلك الخذلان الذي رأيتم، وهو تهكُّم لاذع، وكأنه يقول: لقد طلبتم من الله أن ينصر أعلىٰ الجندين، وأكرم الفئتين، وخير القبيلتين، وقد فعل، فنصر محمدًا وأصحابه، وهم الأعلون، والأكرمون والخيِّرون.

﴿وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ إن تكفوا عن حرب الحق وحزبه فهو خير لكم، تحفظ به دماؤكم وكرامتكم، ثم توعَّدهم إذا هم عادوا إلىٰ مثل ذلك العمل الذي قاموا به في غزوة بدر فقال: ﴿وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ﴾ إن تعودوا لمحاربة الله ورسوله عدنا لنصر الله المؤمنين عليكم.

ثم أراد أن يريهم أنَّ اعتزازهم بأنفسهم، واغترارهم بكثرتهم لا يجديهم، فقال: ﴿وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالنصر والمعونة، ومن كان الله معه لا يستطيع أحد أن يخذله، وهي عبرة للكافرين، وذكرىٰ المؤمنين، وسلوىٰ للمصلحين الذين يطمعون دائمًا في أن ينصر الله حقهم علىٰ باطل غيرهم، وإن كانوا قليلي العدد، ويخذل أعداءهم وإن كانوا كثيرين.

(٧) ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ﴾ ... إلخ يرينا الله -تعالىٰ- بهذه الآية كيف تقسم الغنائم، وأنَّ هذه الغنائم تكون أربعة أخماسها للمقاتلين، والخمس الباقي يقسم علىٰ هذه الأقسام، وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾، أي: فاخضعوا لهذه القسمة التي فرضها الله -تعالىٰ- علىٰ عباده؛ لأنَّ الشأن في المؤمن أن

يخضع لحكم الله كما قال في سورة النساء: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، وكما قال في سورة الأحزاب: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وقوله: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ عطف علىٰ لفظ الجلالة، أي: وآمنتم بما أنزلنا علىٰ عبدنا من الآيات والملائكة والفتح، والمراد بالإنزال الإيصال؛ أي: إن كنتم آمنتم بالله، وآمنتم بما أوصله إلىٰ نبيه من إمداده بالملائكة لتثبيت قلوب المؤمنين، ومن نصرهم علىٰ عدوهم علىٰ قلتهم، ومن الآيات القرآنية والكونية= فاعلموا أن الذي أنزل ذلك كله هو الذي قسم الغنيمة بينكم علىٰ ذلك النحو الذي رأيتم.

وقوله: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ المراد به يوم بدر الذي فرق الله به بين الحق والباطل، وقد كان يومًا شديدًا علىٰ المشركين، أيد الله فيه التوحيد، وخذل فيه الشرك، والجمعان: هما جمع المؤمنين والكافرين.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ دفع لاستغراب ما حصل من نصر المؤمنين علىٰ قلتهم وضعفهم ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا﴾ ... إلخ، بدل من قوله: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾، وفائدة ذكر مراكز الفريقين الدلالة علىٰ قوة شأن العدو وشوكته، وضعف شأن المسلمين، وأنَّ غلبتهم في ذلك الحال لم تكن إلَّا صنعًا من الله -تعالىٰ-، وبحوله وقوته؛ فإنَّ العدوة القصوىٰ التي أناخ بها المشركون كان فيها الماء، وكانت أرضًا لا بأس بها، ولا ماء بالعدوة الدنيا، وأرضها رخوة تسوخ فيها الأرجل، ولا يتيسر المشي فيها إلا بمشقة وتعب، وكانت العير وراء ظهور العدو مع كثيرة عددهم فكانت الحماية دونها تضاعف حميتهم.

﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾، أي: لو تواضعتم مع أهل مكة علىٰ مكان تلتقون فيه لخالف بعضكم بعضا، فثبطكم قلتكم وكثرتهم عن الوفاء بالوعد، وثبطهم تهيُّبهم لرسول الله ﷺ، فلم يتفق لكم من التلاقي ما وفقه الله وسبب له: ﴿وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ هو نصر أوليائه وقهر أعدائه.

دبر ما دبر ﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ﴾، أي: دبر ما دبر ليهلك من هلك من الكفار عن حجة واضحة بأنَّ النبي وأصحابه علىٰ حق فيما دعوا إليه، وأن أعداءه كانوا علىٰ باطل فيما دافعوا عنه، ويحيىٰ من حيّ من المؤمنين عن حجة واضحة، هي أن الله -تعالىٰ- صدق رسوله فيما وعده إياه من النصر ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ لا يخفىٰ عليه شيء من أقوال أهل الإيمان والكفر وأعمالهم وعقائدهم، وهو مجازيهم عليها.

(٨) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ﴾ . . . إلخ، إرشاد من الله -تعالىٰ- إلىٰ أسباب الظفر ووسائل النصر:

أوّلها: الثبات وعدم الفرار، وقد بين في أوائل هذه السورة عقوبة الفرار من العدو.

ثانيها: ذكر الله -تعالىٰ- ليقوىٰ قلب المحارب بما أعده الله للمجاهدين من ثواب، ومن جهة أخرىٰ؛ فإنَّ المؤمن متىٰ ذكر الله -تعالىٰ- فقد ذكر سنته التي يعقبها النصر، وفيها الاستعداد لملاقاة العدو من الناحية المادية والمعنوية، وقد بين ذلك في جملة آيات كقوله: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وقد أشار إلىٰ فائدة ذكر الله -تعالىٰ- والثبات في قوله: ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾؛ ليرينا بذلك أن الاستعداد للفلاح طريقه ذلك.

الثالث: طاعة الله ورسوله بالوقوف عند حدود الله -تعالىٰ- وطاعة الرسول ﷺ وهو إمام المسلمين وقائدهم الأعظم، ولا شكَّ أنَّ طاعة القائد لها أثرها في النصر.

الرابع: عدم التنازع؛ لأنَّه مدعاة التفرق، وهو مدعاة الفشل، وذهاب القوة.

الخامس: الصبر علىٰ مشاق القتال، وقد بيَّن عاقبة الصبر في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، ثم أشار إلىٰ أدب آخر من آداب القتال، وهو أن يخرج الإنسان مخلصًا في خروجه، محتسبًا به وجه الله -تعالىٰ-، فلا يخرج للقتال بطرًا ولا رياء؛ لأنَّ الله -تعالىٰ- يعلم ما تكن النفوس، وأن الذي يخرج للقتال لا يحمله علىٰ خروجه إلَّا البطر ومراءاة الناس ليس أهلًا لأن ينصره الله -تعالىٰ-.

غزوة أحد(١)

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ(٢) ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ(٣) فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ(٤) ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا(٥) مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ(٦) فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢١-١٢٨].

﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ

---

(١) جبل مشهور، بينه وبين المدينة ثلاثة أميال، وهو في الشمال الشرقيّ منها، وكانت الغزوة في شوال سنة ثلاث من الهجرة. (العدوي)

«وكان السبب المباشر أن قريشًا أرادت أن تنتقم لقتلاها في بدر، وتستعيد مكانتها لدىٰ العرب، وفي هذه الغزوة من العبر والعظات ما يحسن الاطلاع عليه» انظر أحداثها في السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية: (٣٦٣). (عمرو)

(٢) تنزل.

(٣) بقلة العدد والسلاح.

(٤) بكسر الواو من سوم علىٰ القوم: أغار عليهم، وبفتح الواو مكلفين بتثبيت قلوب المؤمنين أو محكمين فيها يفعلون بالنفوس من التثبيت والربط عليها.

(٥) طائفة.

(٦) يذلهم.

قَرْحٌ(١) فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا(٢) بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ(٣) ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟
مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ
تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ
عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾
وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ(٤) كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ
مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن(٥) مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ
مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ
ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ
أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ
يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ
أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى
قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ
ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم(٦)
بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا
تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ
لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ(٧)
وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ
لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ

---

(١) جرح.

(٢) نصرفها فنُديل تارة لهؤلاء، وتارة لهؤلاء.

(٣) يخلصهم من كل عيب.

(٤) مشيئته. **كتابًا مؤجلًا**، أي: كتب ذلك كتابًا مقرونًا بأجل معين لا يتخطاه.

(٥) كثير. **ربيُّون**: جمع (ربي) وهو الرباني.

(٦) تقتلونهم قتلًا ذريعًا.

(٧) تبعدون في الأرض هاربين ولا تعرجون على أحد.

أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ
يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ
كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا
هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ(١) ٱللَّهُ مَا
فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟
مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ(٢) ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ
عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ
إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ
حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ
أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ
تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ
فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ
ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩-١٥٩].

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ(٣) قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ
أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ
نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ
فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ
فَٱدْرَءُوا۟(٤) عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ
ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ
بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ
بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ
مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ(٥) لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ

---

(١) يختبر.

(٢) تحرىٰ زلتهم واستجرهم لها.

(٣) من أين لنا هذا.

(٤) ادفعوا.

(٥) الجهد والمشقة.

ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ
﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو
فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ(١) فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم
مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٥-١٧٥].

* تعليق وعبرة:

(١) ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾، أي: اذكر يا محمد الوقت الذي غدوت فيه من أهلك بالمدينة تنزل المؤمنين مقاعد للقتال، وتلزمهم ألا يغادروا مكانهم الذي أنزلتهم به، ولو رأوا الطير تتخطف العسكر ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ لم يخفَ عليه شيء ممَّا قيل في مشاورتك لمن معك في أمر الخروج إلىٰ لقاء المشركين في أحد، أو انتظارهم في المدينة، وعلم فيه كل قائل، وأن منهم المخلص في قوله، وإن أخطأ في رأيه، ومنهم غير المخلص في قوله وإن كان صوابًا كـ«عبد الله بن أبيّ» المنافق.

﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ هما بنو سلمة وبنو حارثة(٢)، والهمّ: حديث النفس وتوجهها إلىٰ الشيء، والفشل: ضعف مع جبن، وسبب همهما بالفشل تأثرهما برجوع «**عبد الله ابن أبي**» المنافق وأصحابه، وقوله: «علام نقتل أنفسنا وأولادنا».

ومنه تعلم كيف أن أعمال المنافقين وهزيمتهم من شأنها أن تترك أثرًا في نفوس المؤمنين، وأن القدوة السيئة في العمل لها أثرها، والقدوة الصالحة كذلك، وأن الكلمة الخبيثة قد تترك في نفوس الناس أثرًا عظيمًا من الفشل، والكلمة الطيبة قد تكون من أسباب النصر والغلب، ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾، أي: متولي أمورهما بصدق إيمانهما. كذلك صرف الفشل عنهما فلم يجيبا داعي الضعف الذي ألمّ بهما عند رجوع ثلث العسكر ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ليثقوا به دون غيره.

---

(١) حزبه.

(٢) عن جابر بن عبد الله، قال: «فينا نزلت: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ [آل عمران: ١٢٢] بنو سلمة وبنو حارثة، وما نحب أنها لم تنزل، لقول الله ﷻ ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ [آل عمران: ١٢٢]». رواه البخاري: (٤٠٥١)، ومسلم: (٢٥٠٥). (عمرو)

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ . . . إلخ: يذكرهم بنصره لهم يوم بدر وهم في قلة من جهة عددهم وسلاحهم، ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمته عليكم بذلك النصر.

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ . . . إلخ بدل من قوله: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾، أي: إنَّك غدوت من أهلك تنزل كل واحد من القوم منزلته من القتال في الوقت الذي تَعِد فيه المؤمنين بأن يمدهم الله بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين، ولم تكتف بذلك العدد، بل وعدتهم إذا هم صبروا واتقوا وأتوا القوم في سرعة أمدهم الله بخمسة آلاف من الملائكة مكلفين من الله بالنصر، والتثبيت للمؤمنين، والربط علىٰ قلوبهم: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾، أي: ما جعل هذه العدة إلا بشرىٰ للمؤمنين ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ﴾ بذلك الوعد قلوبهم ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ﴾ الغالب الذي لا يضع نصره إلا في الموضع الذي يستحقه.

﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ . . . إلخ يقضي علىٰ طائفة من الكفار أو يذلهم بالهزيمة فينقلبوا خائبين، ولما كسرت رباعية الرسول ﷺ وشجّ وجهه يوم أحد وقال: كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم= نزل قول الله -تعالىٰ-: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾، وقوله: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ . . . إلخ، عطف علىٰ قوله: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾.

(٢) ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ . . . إلخ: يحرّض الله -تعالىٰ- علىٰ القتال بأساليب شتىٰ، فمرة يريهم أنَّهم أعلىٰ من الكفار نفسًا، وأشرف غاية وقصدًا، ولا يليق بهم والحالة هذه أن يهنوا أو يحزنوا، ومرة يقول: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾؛ ليريهم أنَّ الشدائد التي يلاقونها من الحروب هي شدائد مشتركة، لا يختص بها فريق دون فريق، وأحيانًا يريهم أنَّ الأيام دُوَل، فيوم لهم ويوم عليهم، ومرة يريهم أن هذه الشدائد هي ابتلاء من الله -تعالىٰ- واختبار، يظهر بها المؤمن من المنافق، ويتخذ بها منهم الشهداء، ويمحص بها قلوب المؤمنين، ويطهرها من كل ضعف يحل بها، ويمحق الله بها الكافرين.

ثم يريهم أنَّهم إذا ظنوا أنهم يدخلون الجنة قبل أن يقيموا البرهان علىٰ

صدقهم في إيمانهم وإقامة الدليل علىٰ يقينهم في ربهم؛ إذا ظنوا ذلك فهم مخطئون، وهو ما أشار له بقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، ونفي العلم هنا بمعنىٰ نفي العلوم، كنفي اللازم وإرادة نفي الملزوم، والمعنىٰ: أظننتم أن تدخلوا الجنة ولم تجاهدوا ولم تصبروا، ومرة يذكرهم بأنَّهم كانوا يتمنون الموت قبل غزوة أحد، فلماذا تجبنون عند لقائه؟

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ . . . إلخ: نزلت هذه الآية حينما أشيع يوم أُحُد أنَّ محمدًا ﷺ قد مات، وقد تركت هذه الإشاعة أثرًا في نفوس أكثر المسلمين، وقال قومٌ من المنافقين: لو كان محمد نبيًّا ما قتل، ارجعوا إلىٰ إخوانكم وإلىٰ دينكم، فأراهم الله -تعالىٰ- بهذه الآية أنَّ محمدًا لم يَعْدُ أن يكون رسولًا قد مضت الرسل من قبله فماتوا، وقتل بعض النبيين، ولم يكتب لأحد منهم الخلد، ولا بدّ أن تحكم عليه سنة الله بالموت، فيخلو كما خلوا من قبله؛ إذ لا بقاء إلا لله وحده.

﴿أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ ينكر عليم أن يرجعوا عما كانوا عليه من أمر الإيمان بسبب إشاعة موت أو قتل، ثم يهددهم بقوله: ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

وفي هذه الآية إرشاد لنا إلىٰ ألا نجعل المصائب الشخصية دليلًا علىٰ كون من تصيبه علىٰ باطل أو علىٰ حق، وترينا ألا نعتمد في معرفة الحق والخير علىٰ وجود المعلم، بحيث نتركهما بعد ذهابه أو موته، وإنما نعتمد علىٰ معرفتهما، والسير علىٰ منهاجهما في حال وجود المعلم وبعده.

ولقد كانت الآية المذكورة مقدمة وإرهاصًا بين يدي موت رسول الله ﷺ، وظهر أن توبيخ الذين ارتدوا علىٰ أعقابهم بهذه الآية قد ظهر أثره يوم وفاة النبي ﷺ، ولا ينافي هذه الحكمة كون الوقعة قبل وفاته ببضع سنين، فإن توطين نفس الأمة الكبيرة علىٰ الشيء وإعدادها له لا يكون قبل وقوعه بيوم أو أيام أو شهور، بل لا بد من زمن يكفي لتعميمه فيها، وأن يصير من الأمور المسلمة المشهورة عندها، حتىٰ لا يغيب عن الأذهان.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ ... إلخ: رجوع إلىٰ تطمين المؤمنين، وتحريضهم علىٰ القتال؛ إذ يريهم أنَّه ما ينبغي لنفس كائنة ما كانت أن تفارق هذه الحياة إلا بمشيئة الله -تعالىٰ-، سواء أكانت نفس رسول، أو نفسًا أخرىٰ من نفوس المجاهدين، فالجهاد لا يضيع شيئًا من الأجل، والتخلي عن القتال لا يمد لصاحبه في الحياة، ثم عقب ذلك ببيان أن من يعمل للدنيا يحصل عليها ومن يعمل للآخر يعطيه الله ثوابها، وسيجزي الشاكرين علىٰ شكرهم.

(٣) ثم عاد وأرانا أنَّ كثيرًا من النبيين قاتل معهم جموع كثيرة من المؤمنين، فما ضعفوا لما أصبهم في سبيل الله وما استكانوا للذل والخنوع، ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ﴾ وهم يحاربون أعداء الحق إلَّا أن طلبوا من الله أن يغفر لهم ذنوبهم، وإسرافهم في أمرهم، وأن يثبت أقدامهم أمام عدوهم وينصرهم علىٰ خصومهم، وكانت عاقبتهم أن أعطاهم الله ثواب الدنيا بالغنيمة والغلب، وحسن ثواب الآخرة ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

يريهم الله أنَّ لهم سلفًا في ذلك الجهاد، وأنَّ سلفهم كانت عاقبته النصر، وستكون عاقبتهم كذلك إذا هم صبروا وأخلصوا ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾، وعدٌ من الله بإلقاء الرعب في قلوب أعدائه بسبب شركهم بالله ما لم ينزل به سلطانًا. فلا تعملوا لهم حسابًا ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ في الآخرة ﴿وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ جهنم ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾ ... إلخ: يريهم أنَّ وعد الله لهم بالنصر قد صدقهم الله فيه، ولم يتخلف وعده لهم إلا بعد أن فشلو وتنازعوا، وخرجوا علىٰ وصية رسولهم الأعظم، وقائدهم الأكبر، وتطلعوا لعرض هذه الحياة، وانتظروا الغنيمة.

وقد قال الرسول لهم حينما بوّأهم مقاعد للقتال: لا تتركوا هذه الأماكن وإن تخطفكم الطير؛ ليريهم أنَّ هذه عاقبة الخروج علىٰ نصيحة القائد، ومغبة التطلع لعرض هذه الحياة، فمنعكم نصره حينما فشلتم وتنازعتم في الأمر؛ منكم فريق يطلب الدنيا فترك مركزه الذي وُضِع فيه للغنيمة، ومنكم من يطلب الآخرة، فثبت حتىٰ قتل ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾ بردكم للهزيمة ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ يمتحنكم فيظهر المخلص من غير المخلص، ويريكم عاقبة اختلافكم وخروجكم علىٰ نصيحة

رسولكم ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ * إِذْ تُصْعِدُونَ﴾ تبعدون في الأرض هاربين، ولا تعرجون علىٰ أحد ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾ من ورائكم ﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمَّۢا﴾ بالهزيمة ﴿بِغَمٍّ﴾ المخالفة ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْۗ﴾؛ لأنّكم الذين تسببتم في ذلك، ومن كان سببًا في نكبته لا يلومن إلا نفسه.

(٤) ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ ... إلخ يعرفهم فضله عليهم بعد هزيمتهم، وهو إرساله النعاس عليهم، حتىٰ لا يفكروا فيما حلّ بهم، وقد أنزل هذا النعاس علىٰ المؤمنين، أما المنافقون فلم يفارقهم همهم؛ لأنّهم لا همّ لهم إلا نجاة نفوسهم وبُعدها من المشاق.

وقد وصف الله هذه الطائفة بأنها تظن بربها غير الحق ظن الجاهلية، ويقولون في أنفسهم ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍۗ﴾ يريدون أمر النصر الذي وعدوه كما وصفهم أنهم يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لمحمد ﷺ، وقد حملهم الجهل أن يقولوا: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَاۗ﴾، أي: لم نخرج فلم نقتل، لكنّا أخرجنا كرهًا، ومن أجل ذلك قتلنا، فيرد الله عليهم بقوله: ﴿لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْۖ﴾ مصارعهم فيقتلوا، ولم ينجهم قعودهم كما قال في آية أخرىٰ ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ[1] مُّشَيَّدَةٍۗ﴾.

﴿وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْۗ﴾، أي: فعل ما فعل من أجل هذه الحكم والمصالح ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ لا يخفىٰ عليه شيء منها.

(٥) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ ... إلخ، أسلوب آخر من أساليب التحريض، يريهم فيه أنَّ الذين فرّوا يوم أُحد إنّما استجرهم الشيطان للفرار، وكان ذلك بسبب ما كسبوه من السيئات، فحرمهم من فضل الشهادة، ومن فضل الثبات علىٰ الجهاد، بما قدموه من سيئات ﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْۗ﴾ ما قدموه.

---

(١) قصور.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ... إلخ: ينفر الله المؤمنين أن يقولوا ما قاله الكفار في إخوانهم، وهي قولهم: ﴿لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

وكثيرًا ما يحمل الشيطان المؤمن علىٰ مثل ذلك القول الفاحش، وحظ الشيطان من هذه الكلمة أن تصير حسرة في قلوب المؤمنين، تملؤها بالحزن والأسىٰ، والله -تعالىٰ- هو المالك لحياة الناس وموتهم، لا يميتهم إلَّا بقدر، ولا يحييهم إلا بقدر، وهو العليم بأعمال الناس ونواياهم.

﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ ترغيب آخر في القتال بأن عاقبته غفر الذنوب ورحمة الله، وهي خير ممَّا يجمعون من مال.

(٦) ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ﴾ ينكر عليهم استنكار أن يدال لهم مرة وعليهم مرة أخرىٰ، نُصِروا يوم بدر، وهزموا يوم أُحُد، وكان غنمهم يوم بدر أكثر من غرمهم يوم أحد، ومع ذلك يستنكرون ذلك، فيقول الله لهم: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْۗ﴾ تسببتم فيه بتطلعكم إلىٰ الدنيا، ومخالفتكم أمر الرسول ﷺ، فجازاكم علىٰ هذه المخالفة، ثم أراهم أن ما أصابهم يوم التقىٰ الجمعان من الهزيمة هو بإذن الله ومشيئته.

ومن حكمه أن يعلم المؤمنين الذين يصبرون علىٰ السراء والضراء وينتفعون بهذه الشدائد، ويعلم المنافقين الذين آمنوا بلسانهم ولم تؤمن قلوبهم، وهم الذين قالوا للمؤمنين: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْۗ﴾، وهم الذين قالوا في شأن إخوانهم الذين قتلوا: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ﴾، وقد ردَّ الله عليهم في قوله: ﴿فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۚ﴾ ... إلخ: أسلوب آخر من أساليب التحريض علىٰ الجهاد، يريهم فيه أنَّ الله -تعالىٰ- قد أعدَّ لمن يقتل في سبيله من الحياة ما لم يعده لغيره، ممَّا لا يعلم كنهه غيره، ولا يقف عليه سواه، كما أعد له من الرزق الغيبي عنده كذلك، ولم يبين الله لنا هذه الحياة، ولا ذلك الرزق، فعلينا أن نقف عند ما ورد بدون بيان ولا شرح، فهي حياة غيبية، ورزق

غيبي، أخبر الله بهما: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾، أي: فوق أجورهم التي استحقوها بعملهم.

﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾، أي: يتوقعون أن يبشروا بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم بقدومهم عليهم مقتولين في سبيل الله كما قتلوا، مستحقين من الرزق والفضل الإلهي مثل ما أوتوا، وقوله: ﴿مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾، أي: الذين هم من ورائهم يقتفون أثرهم، ويحذون حذوهم قدمًا بقدم، وهو أسلوب من أساليب الترغيب في الشهادة، وفي الآية دليل علىٰ الحياة البرزخية، وقوله: ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾، أي: بسبب ألا خوف عليهم من شر يتوقع، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ من شر واقع.

﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾، أي: إنَّ أولئك الشهداء يستبشرون بما يتجدد لهم من نعمة وفضل، وبأن الله لا يضيع علىٰ المؤمنين أجرهم، وإنما يجزيهم عليه جزاء أوفىٰ، ثم وصفهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ ... إلخ.

ثم وصفهم وصفًا آخر هو الشجاعة والجرأة، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾.

وقوم هذا حالهم لا بُدَّ أن تكون عاقبتهم كما قال الله -تعالىٰ-، وهي أن يعودوا بنعمة من الله وفضل وهي نعمة السلامة، ونعمة الغلب والفوز، واتبعوا ما يرضي الله ولا يسخطه، والله ذو فضل عظيم، يضعه في المكان اللائق به.

ثم أرانا الله أن التثبيط عن القتال، وإيقاع الرعب في نفوس المقاتلين= من عمل الشيطان من الإنس أو من الجن، يخوِّف به أنصاره وحزبه، ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾، أي: لا تخافوا من يحاربونكم؛ لأنَّهم يقاتلونكم بدون قلوب، وفي سبيل الباطل، أما أنتم فتقاتلون في سبيل الله والحق، ليسوا أهلًا لأن يخاف منهم، وإنَّما الذي يستحق أن يخاف هو الله -تعالىٰ-؛ لأنَّ بيده ملكوت كل شيء، ثم ختم الآية بقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، أي: فقفوا عند ما أمرتكم به، لأن فيه حياتكم وسعادتكم، وإن شق علىٰ نفوسكم.

غزوة الأحزاب[1]

﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا
وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا (٩) إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل
منكم وإذ زاغت[2] الأبصار وبلغت القلوب الحناجر[3] وتظنون بالله الظنونا (١٠)
هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا (١١) وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض
ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا (١٢) وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب[4] لا مقام لكم
فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة[5] وما هي بعورة إن يريدون إلا
فرارا (١٣) ولو دخلت عليهم من أقطارها[6] ثم سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها إلا
يسيرا (١٤) ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسئولا (١٥)
قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لا تمتعون إلا قليلا (١٦) قل من
ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله
وليا ولا نصيرا (١٧) ۞ قد يعلم الله المعوقين[7] منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون

---

(١) وتسمى غزوة الخندق، وكانت في شوال في السنة الخامسة من الهجرة.

انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية: (٤٣١).

(٢) اضطربت ومالت عن سننها حيرة وشخوصًا.

(٣) جمع حنجرة، منتهى الحلقوم، وهو مثل في اضطراب القلوب.

(٤) المدينة.

(٥) غير حصينة.

(٦) نواحيها، الفتنة: الشرك.

(٧) المثبطين.

ٱلْبَأْسَ(١) إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ
كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ
أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ
يَذْهَبُوا۟ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ(٢) فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ
وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن
كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا
وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ
صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ(٣) وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا
﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ
كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ
ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن
صَيَاصِيهِمْ(٤) وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ
وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩-٢٧].

* تعليق وعبرة:

(١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ ... إلخ: يذكر الله المؤمنين بنعمته عليهم في غزوة **الخندق** التي أثارتها اليهود لما رأوا انتصار المشركين على المؤمنين يوم **أُحُد**، فخرج أشرافهم إلى قريش بمكة يحرضونهم على غزو رسول الله ﷺ، فأجابتهم قريش ثم خرجوا إلى **غطفان**، وطافوا في قبائل العرب، فخرجت قريش في أربعة آلاف تحت قيادة أبي سفيان، ووافاهم بنو سليم وأسد وفزارة وأشجع، ووافى الخندق من الكفار عشرة آلاف فكانت جنود الباطل كثيرة.

---

(١) القتال.

(٢) كائنون في البادية.

(٣) مات.

(٤) جمع صيصة، وهي الحصن.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾، قيل: هي ريح الصبا أهلك الله بها من الكفار من أهلك، والجنود التي أرسلها الله علىٰ المشركين واليهود يحتمل أن تكون جنودًا من الرعب ألقاه الله في نفوسهم، وهي جنود ليس من شأنها أن تُرىٰ للمؤمنين، وإنما يحس بها الكافر، كما قال في قصة بدر **وأحد**: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾، ثم علَّل ذلك بأنهم أشركوا بالله ما لم ينزل به عليهم سلطانًا، ويحتمل أن تكون الجنود ملائكة أنزلها الله لتثبيت قلوب المؤمنين كما كان ذلك في غزوة بدر.

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾، ومنه حفر المؤمنين للخندق الذي أشار به سلمان الفارسي؛ ليتحصنوا به من الكفار.

﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ تصوير لكثرة الكفار ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾.

يذكرهم الله بنعمته عليهم في وقتٍ اضطربت فيه الأبصار، وخرجت عن سننها في النظر؛ لشدة الأمر، وبلوغ الشدة حدًّا عظيمًا، حتىٰ ليخيل إلىٰ أحدهم أن قلبه قد وصل إلىٰ منتهىٰ حلقه، كأنه قارب أن ينخلع منه.

﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾، أي: في ذلك الوقت اختبر المؤمنون بذلك الدرس القاسي، واضطربت نفوسهم اضطرابًا لا يقف عند حد، وهنالك يقول المنافقون والذين مرضت نفوسهم ﴿مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ النصر إلا تغريرًا بنا، وهنالك ﴿قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ﴾ المدينة ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ بذلك المكان الذي تحاربون به، فدعوه وارجعوا إلىٰ بيوتكم، ﴿وَ﴾ هنالك ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ﴾ من المنافقين النبي ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا﴾ غير محصنة وعرضة لأن ينالها العدو، فدعنا نذهب إليها ﴿وَمَا هِيَ﴾ كذلك ﴿إِن يُرِيدُونَ﴾ بذلك القول ﴿إِلَّا فِرَارًا﴾ من الجهاد.

﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا﴾ لو دخلت أعداؤهم الذين يخشونهم عليهم بيوتهم من نواحيها المختلفة، ثم سئلوا في ذلك الوقت أن يرتدوا عن الإيمان إلىٰ الكفر لفعلوا، وما انتظروا بعد السؤال إلا يسيرًا من الزمن.

والمعنىٰ أنَّهم كاذبون في تعللهم بعدم تحصين بيوتهم؛ لأنَّهم لو هوجموا فيها من الأعداء، وطلب منهم أن يكفروا في ذلك الوقت لفعلوا، وكانوا علىٰ المسلمين؛ لمقتهم الإسلام، وشدة بغضهم لأهله، وحبهم الكفر ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ﴾.

يذكرهم الله بعهودهم السابقة بعدم الفرار عند لقاء العدو، وأنَّه محاسبهم علىٰ عهدهم، ثم أراهم أنَّ فرارهم من الموت أو القتل لا يجديهم، وأنَّهم إذا عاشوا بعد؛ فإنَّما يعيشون مدة وجيزة، ثم ذكرهم بأنَّه لا أحد يعصمهم من الله إن أراد بهم سوءًا أو أراد بهم رحمة، ولا يجدون لهم من دون الله وليًّا ولا نصيرًا.

(٢) ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾ ... إلخ: تهديد من الله للمثبطين عن القتال بأنَّه يعلم تثبيطهم للمؤمنين، وسيحاسبهم عليه، وتصويرٌ لحالة المنافق إذا جد الجد، تراه في ذلك الوقت لا يستقر له بصر، فتجد عينه تدور في القوم من أقصاهم إلىٰ أقصاهم وكأن عليه غشية الموت، فإذا ذهب الخوف سلق المؤمنين بألسنة حداد، وتجده شحيحًا بنفسه أن يقاتل، وشحيحًا بالخير أن يفعله، ثم علَّل ذلك بقوله: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟﴾، ولذلك فَعَل ما فعل من التثبيط، وحلَّ به ما حل من الزلزال والفتنة، ولو أنَّهم كانوا مؤمنين ما فعلوا شيئًا من ذلك، وقد كانت عاقبة أمرهم أن أحبط الله أعمالهم، وكان ذلك الإحباط يسيرًا علىٰ الله -تعالىٰ-.

﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟﴾، أي: لم ينهزموا فانصرفوا عن الخندق إلىٰ المدينة راجعين لما حل بهم من الخوف، ﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ﴾ مرة ثانية ﴿يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ﴾ كل قادم منكم ﴿عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم﴾ ولم يرجعوا إلىٰ المدينة ﴿مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا﴾ تعلة ورياء.

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ ... إلخ: يريهم أن الشأن فيمن يرجو الله واليوم الآخر أن يتأسىٰ برسوله ﷺ ولا يتأخر عما أمره به من الطاعات، وأن أولئك قد تخلفوا عن القتال؛ لأنَّه لم يكن لهم رجاء في الله واليوم الآخر.

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ ... إلخ، وهو شرح لحال المؤمنين بعد أن بيَّن حال المنافقين والفرق بين الفريقين عظيم، وقد عقدنا أبوابًا خاصة للفرق بين المؤمنين والكافرين والمنافقين فارجع إليها إن شئت المزيد.

الزكاة

﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ١١].

﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَـٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠].

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ① ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ② وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ③ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٤].

*** شرح وتعليق:**

(١) فرض الله الزكاة علىٰ المسلمين في السنة الثانية من الهجرة، وأرانا في الآية من سورة التوبة أنَّ الأخوة في الدين لا تكون إلا مِن قوم أقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، بعد توبتهم من الشرك، فالذي يؤمن بالله ولا يؤدي ذلك الركن لا يكون أخًا للمؤمنين في دينهم.

ولعل في ذلك عبرة لمانعي الزكاة من المسلمين الذين يظنون أنهم ناجون من عذاب الله لمجرد صلاتهم، وإن بخلوا بأموالهم، ناسين أن الله -تعالىٰ-

يبتلي الناس بإيجاب جزء من مالهم، يؤخذ من أغنيائهم ليردَّ علىٰ فقرائهم، وأنَّ المؤمن لا يكون صادقًا في دعوىٰ الإيمان إلا حيث أدَّىٰ حق الله في ماله، كما يؤديه في صلاته وصومه وحجه، وأن اختبار الناس بالمال فوق اختبارهم بالصلاة.

فمن السهل علىٰ الرجل أن يؤدي أعمالًا لا تكلفه سوىٰ حركات يتقدم بها كل يوم، وليس من السهل أن يبذل نصيبًا من ماله للفقراء والمساكين ومصالح المسلمين عن طيب نفس ورضىٰ، ولذلك نجد المصلين والصائمين أكثر من المزكين، علىٰ أنَّ الصلاة التي لا تزهد صاحبها في المال، ولا ترشده إلىٰ حق الفقراء والمساكين، ولا تريه أن ذلك المال هو مال الله استخلفه فيه، لينظر أيقوم بحقه أم يبخل به علىٰ المصالح= هي صلاة لا يقيم الله لها وزنًا، ولا يبالي بعمل صاحبها؛ لأنَّها صلاة الغافلين والساهين، لا صلاة المؤمنين الذاكرين: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾.

ومن سنة الله في القرآن الكريم أن يجمع بين الدعوة إلىٰ الصلاة، والدعوة إلىٰ الزكاة؛ ليرينا أنَّ الصلاة من شأنها أن تحمل علىٰ الزكاة ما دامت قد أديت علىٰ وجهها الكامل في صورتها ومعناها، ولذلك قرن الزكاة بالصلاة في سورة المؤمنين وأرانا الله أن المؤمنين هم الذين يخشعون في صلاتهم وهم الذين يؤدون لزكاة أموالهم.

(٢) ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ إرشاد من الله -تعالىٰ- لحكمة ذلك الركن الذي أضاعه المسلمون، وهي طهارة نفوسهم من الشح، والبعد بها عن البخل، وهو داء دفين في الناس، إذا استحكم في قوم حملهم علىٰ منكرات وفظائع لا تقف عند حد، روىٰ **أبو داود والحاكم «إياكم والشح، فإنما هلك من قبلكم بالشح، أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا»**[1]، وروىٰ **البخاري** في تاريخه و**أبو داود «شر ما في**

---

(١) رواه أحمد: (٦٤٨٧)، والبخاري في الأدب المفرد: (٤٧٠)، وابي داود: (١٦٩٨)، والحاكم: (٢٦). (عمرو)

الرجل: **شح هالع[1] وجبن خالع**».

وأنَّ أمة من الأمم لا تقوم لها قائمة إذا كانت بخيلة علىٰ مصالحها، شحيحة علىٰ طرق الخير فيها، وإلا فكيف تبنىٰ فيها المعاهد، وتشيد فيها دور الصناعة، وترقىٰ فيها وسائل العمران مع الشح، وكيف ينتظم حال الناس، ويؤدي بعضهم حقوق البعض، إذا لم يكن لهم نفوس طيبة، وقلوب ملؤها القناعة والرضا.

ولعل من آثار الشح في زماننا هذا امتلاء دور الحكومة بقضايا المواريث، والنزاع علىٰ الحقوق المدنية، ولا سيما بين الأقارب، ولعل الإحصاء يرينا أن أكثر هذه القضايا بين ذوي الأرحام بعضهم مع بعض.

فكان من حكمة الله أن يمرّن المؤمن علىٰ بذل شيء من ماله لمصالح المسلمين، ليجتث الله بذلك البذل عرق الشح من نفسه، ويصبح رجلًا صالحًا للحياة، إذا دعي إلىٰ بذل ماله في سبيل الخير أجاب داعي المصلحة، وإذا اشتبك مع بعض قراباته في تركة خلفها له أبوه أو أحد أقاربه خضع لقسمة الله في المواريث، ولم يلجئ أقاربه لمقاضاته، وتعفف عن الدنايا التي يرتكبها بعض الناس ليصل بها إلىٰ حرمان أخته من ميراث أبيه، كتزوير عقود للبيع، أو انتحال دين لبعض الناس علىٰ أبيه، وغير ذلك ممَّا تأباه المروءة، وقد تنتهي المسألة بصرفه علىٰ القضاء أكثر ممَّا كانت تأخذه أخته عن طريق الميراث، بل قد ينتهي بفقر الطرفين المتقاضيين وحرمانهما من مال أبيهما.

كل ذلك لأنَّ في النفوس شحًّا مطاعًا، وعدم رضًا بقسمة الله في المواريث.

وكما أنَّ من آثار الزكاة تطهير النفوس من الشح، من آثارها أنها تستل من نفوس الفقراء والمعوزين حنقهم علىٰ أرباب الأموال وحسدهم للأغنياء؛ فإنَّ الإحسان من شأنه أن يملك القلوب، ويستعبد النفوس، فيصبح الغني محبوبًا لدىٰ الفقير، والفقير خادمًا للغني، يحرس ماله، ويدافع عنه؛ لأنَّ له نصيبًا فيه، فيهمه أن ينمو ويزيد، وأن الناس يقاسون اليوم من شرور الشيوعية الممقوتة ما لا يقف

---

(١) شديد.

عند حد، وسبب ذلك أنهم لم يأخذوا بالاشتراكية التي فرضها الإسلام بالزكاة، فكان عاقبة بخلهم أن سلَّط الله عليهم من يقض مضاجعهم، ويزعجهم في حياتهم، وتطرف بعض الشعوب فاستولىٰ علىٰ رؤوس الأموال، وجعلها حقًّا شائعًا للناس. وأخذ يحارب الاستئثار بالثروة، ونسي أن ذلك العمل من شأنه أن يميت الروح المعنوي في العامل، ويقضي علىٰ غريزة تنازع البقاء، والتنافس في الحياة.

وقد فطنوا بعد لشرور ذلك العمل، وأخذوا ينظمونه ليصلوا به إلىٰ ما يزعمون من سعادة، وهيهات أن يصلوا إلىٰ شيء ممَّا أرادوا؛ فإنَّ السعادة فيما شرعه الله، وفي أن يبقىٰ لكل عامل نتيجة عمله، وتصير الحياة ومرافقها حقًّا مشاعًا، يتنافس الناس فيها ويتبارون ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢][١].

(٣) ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ﴾ ... إلخ، بيان من الله -تعالىٰ- لمصارف الزكاة، فجعل من مصارف الزكاة الفقراء والمساكين، كأرباب العاهات الذين قعدت بهم عاهاتهم عن الكسب، وكالصناع الذين لا يجدون طريقًا للعمل، ولا يستطيعون أن يعيشوا علىٰ حساب عمل آخر، أما الأقوياء علىٰ الكسب فلا معنىٰ لإعطائهم من الزكاة.

﴿وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾ بيان لصنف آخر ممن تعطي لهم الزكاة، وهم الجباة للزكاة، والكتاب، والحراس عليها، الذين وكل إليهم أمر الزكاة، وقد أباح الله -تعالىٰ- لهؤلاء أن يأخذوا من الزكاة مقابل عملهم في بيت مال المسلمين لا بصفة أنهم فقراء أو مساكين.

﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ المراد بهم من يكون إعطاؤهم سببًا في قوة المسلمين، سواء أكان ذلك الإعطاء لقوم ضعيفي الإيمان؛ لأنَّهم حديثو عهد به، أو لقوم لم يسلموا ولكنهم يتطلعون إلىٰ الإسلام، أو لغير ذلك.

﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾، أي: فكها من الرق: أي إن من أغراض الزكاة التعاون

---

(١) سُخْرِيًّا: مسخرًا له في العمل بالأجر.

علىٰ فك الرقاب من الرق، كإعانة الأرقاء الذين اتفقوا هم وملاكهم علىٰ أن يدفعوا لهم شيئًا من المال في نظير عتقهم، وتسمىٰ هذه مكاتبة شرعية، وتسمىٰ الأقساط التي يدفعها الرقيق لسيده ليعتقه نجوم الكتابة.

ومنه تعلم أن الشريعة ما أباحت الرق إلا للضرورة، ومع أنها أباحته فهي تعمل علىٰ تضييق دائرته بشتىٰ الوسائل، ولا أدلَّ علىٰ ذلك من أنها أعدت قسمًا من بيت مال المسلمين لإعانة الأرقاء الذين يريدون الخلاص من الرق باتفاقهم هم وسادتهم علىٰ أن يبذلوا لهم شيئًا من المال، ويكون ذلك بمثابة شرائهم أنفسهم منهم، وندبت الشريعة إلىٰ الملاك أن ييسروا علىٰ الأرقاء، ويسهلوا عليهم مهمة العتق، بتقليل المال الذي يطلبونه منهم، وحط شيء منه، حتىٰ لا يعجزوا عن الأداء، ﴿وَٱلْغَـٰرِمِينَ﴾ وهم الذين استدانوا لغير معصية، سواء أكان ذلك الدين لإصلاح بين طائفتين، أو كان لعمل من الأعمال العامة، كأن استدان الرجل لإنشاء مصنع من المصانع التي تعود علىٰ الناس بالخير.

ويقول المفسرون: إنَّ من استدان لإصلاح ذات البين يُعطىٰ من الزكاة لأداء دينه ولو كان غنيًّا، وقد يدلّ لذلك عد الغارمين قسمًا مستقلًّا عدا قسم الفقراء والمساكين، والمراد أنهم يعطون لغرامتهم في عمل شريف، تشجيعًا للناس علىٰ عمل الخير، وأنهم إذا غرموا في ذلك السبيل لا يصح أن يتركوا بدون دفع لغرامتهم.

ويدخل في ذلك القسم التجار الذين استدانوا في سبيل تجارتهم، ثم أصبحوا فقراء؛ فإنَّهم يعطون من الزكاة من ناحية أنَّهم غارمون في غير معصية، ومن جهة أنَّهم فقراء، ﴿وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: طريقه الذي يحبه ويرضاه كالجهاد، وطلب العلم، وترقية الصناعات، والمعارف، وغير ذلك من كل ما يرضىٰ الله -تعالىٰ-، ويعود علىٰ الناس بالخير في دينهم ودنياهم؛ لأنَّ الله -تعالىٰ- لا يريد للناس إلَّا سعادتهم في الدارين، كبناء المستشفيات، والجمعيات الخيرية التي ترقىٰ الناس في أخلاقهم ودينهم، وتحفظ عليهم عزهم وكرامتهم، كل ذلك سبيل الله الذي يرضيه ويحبه.

﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾، أي: المسافر يعطىٰ من مال الزكاة ليستعين به علىٰ سفره، وإن كان له مال في بلدة المستوطن له، فيعطىٰ لسفره، ومنه تعلم كيف أن الدين يحث الناس علىٰ الأسفار بإعداده جزءًا من الزكاة للمسافرين.

وقد عرف الغربيون قيمة الأسفار، ومقدار تأثيرها عليهم في علومهم ومعارفهم، وصناعاتهم فعنوا بها عناية عظيمة، وقد حث القرآن الكريم علىٰ السير في الأرض.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ﴾ [الحج: ٤٦]، وقد أصبح من الأوليات ارتباط العالم بعضه ببعض في المصالح والمرافق، حتىٰ صار كالأسرة الواحدة، ولا سيما بعد تسهيل أمر المواصلات والمخابرات، فالأمة التي تجمد علىٰ الإقامة في بلدها، ولا تتصل بغيرها من الشعوب لتستفيد من معارفها وعلومها= لا يمكن أن تعيش، أو تأخذ منزلتها في الحياة، والفضل الأول في الحث علىٰ الأسفار وصلة العالم بعضه ببعض إنما هو للشريعة التي تكافئ المسافر وتنفق عليه ما دام مسافرًا، وتجعل له نصيبًا من بيت مال المسلمين، ومن العلماء من يفسر ابن السبيل باللقيط لأنَّه لا يعرف له أب، والآية تحتمل القسمين جميعًا، وتشملها معًا.

الصيام

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ
لَعَلَّكُمۡ(١) تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ
أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ(٢) فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن
تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ
هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ(٣) وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ(٤) مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن
كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ
بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٨٥﴾
وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ
بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ(٥) إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡۚ هُنَّ لِبَاسٞ
لَّكُمۡ(٦) وَأَنتُمۡ لِبَاسٞ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَخۡتَانُونَ أَنفُسَكُمۡ(٧) فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ
وَعَفَا عَنكُمۡۖ فَٱلۡـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ(٨) وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ(٩)

---

(١) **لعلكم**: ليعدّكم للتقوىٰ.

(٢) **يطيقونه**: يؤدونه بمشقة.

(٣) **بينات من الهدىٰ**: آيات واضحات من الهدىٰ. **الفرقان**: الفرق بين الحق والباطل.

(٤) **شهد**: حضر.

(٥) **الرفث**: كلمة جامعة لكل ما يريده الرجل من المرأة.

(٦) **هنّ لباس لكم . . . إلخ**: لباس مصدر لابسه بمعنىٰ خالطه، وعرف دخائله.

(٧) **تختانون أنفسكم**: تنتقصونها بعض ما أحل لها، أو تخونونها بالعمل علىٰ خلاف ما تعتقدون.

(٨) **ما كتب الله لكم** من النسل.

(٩) **حتىٰ يتبين لكم . . . إلخ**: أي يظهر الفجر الصادق، وهو ضوء النهار.

ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ[1] فِى ٱلْمَسَٰجِدِ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣-١٨٧].

* شرح وتعليق:

(١) فرض الله علينا الصوم في السنة الثانية من الهجرة، وهي السنة التي فرض علينا فيها للزكاة، وأرانا الله -تعالىٰ- أنَّه كتبه علينا كما كتبه علىٰ من سبقنا من الأمم ليرشدنا:

أولًا: إلىٰ أن ذلك الركن من أركان الدين لا غنىٰ عنه في تهذيب النفس وإصلاح الخلق، ومن أجل ذلك شرعه لمن قبلنا كما شرعه لنا، فنحرص عليه لأنه علاج ضروري، وإصلاح لا غنىٰ عنه.

وثانيًا: أنَّه أسلوب من أساليب إيناس النفوس وترغيبها في قبول التكاليف، ولم يبين لنا القرآن الكريم أنَّ الله فرض علينا الصوم كما فرضه علىٰ من قبلنا في كميته وكيفيته، بل سكت عن ذلك، واكتفىٰ ببيان أنه فرضه علينا وعلىٰ من سبقنا، وقد يكون الصومان متفقين، وقد يكونان مختلفين حسب ما تقضي به الحكمة، واختلاف الزمن.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ بيان لحكمة الصوم وسره، وأنَّ هذه الحكمة ليس من شأنها أن تعود إلىٰ المشرع، وإنَّماحكمة العبادات إصلاح حال المكلف، وإعداده للحياة الحقة، كما قال -تعالىٰ-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٥].

فالمعنىٰ أنَّه فرض علينا الصوم ليعدّنا بذلك لتقوىٰ الله، والبعد عن محارمه، والرغبة في طاعاته، وبذلك يسعد المكلف، ويقوم بنصيبه في الحياة، ويعمل لسعادة الدارين.

أمَّا الإعداد لترك ما نهىٰ عنه فلأنَّ الصوم حبس النفس عن الطعام والشراب الذي أحله الله -تعالىٰ- في غير ذلك الوقت الذي فرض فيه الصوم، وحبسها

(١) عاكفون: مقيمون.

كذلك عن مباشرة النساء اللائي كنَّ حلالًا في غير نهار رمضان، والذي يملك نفسه ويصبر عن طعامه وشرابه، وعن امرأته في الوقت الذي حدده الله له طائعًا مختارًا= جديرٌ به أن يترك ما نهىٰ الله عنه ممَّا يفسد فطرته، أو يضر ماله وصحته، وبعيد أن يعفّ الرجل عن امرأته وهي حلال له؛ لأنَّ الله أمره أن يعف عنها في نهار رمضان، ثم يتطلع إلىٰ امرأة غيره، وكذلك يبعد أن يعف الإنسان عن طعامه الذي هو حلال له؛ لأنَّ الله طالبه بذلك، ثم يأكل مال غيره بالباطل، كأكله من طريق الرشوة، أو من طريق الربا أو السرقة، أو غير ذلك.

وأمَّا إعداد الصوم النفوس للطاعات فلأنه سر بين العبد وربه، لا يطلع عليه غير الله -تعالىٰ- وهو من هذه الناحية يكسبه ملكة المراقبة لله -تعالىٰ- والخوف منه، فتوىٰ فيه داعية الخير، وتضعف منه داعية الشر، يذكره بحاجة الفقير والمسكين، وأن هناك أناسًا يجوعون راغمين غير مختارين، يجوعون لأنَّهم لا يجدون ما يسد حاجتهم، وحين ذاك يفكر في أن يواسيهم بشيء من ماله، فهو مذكر بالزكاة والصدقة، كما يذكر الإنسان بضعفه أمام دواعي الفطرة الملحة، سواء أكان ذلك الضعف من جهة حاجته إلىٰ الطعام والشراب، أم من جهة حاجته إلىٰ المرأة، وهنالك يتذكر أن العبد ضعيف أمام هذه الدواعي، وأنَّ الله -تعالىٰ- غني عن الطعام والشراب، وغني عن الصاحبة.

وهناك حكمة كبرىٰ من حكم الصوم، هي تقوية الإرادة في المسلم، وشحذ العزيمة حتىٰ يكون الرجل رجلًا كاملًا لا تستهويه الشهوات، ولا تستولىٰ عليه الكيوف، وأنَّ الناس يتفاوتون في قوة الإرادة تفاوتًا كبيرًا، وقد تضعف إرادة الرجل حتىٰ تذهب بكل فضيلة فيه، فيصبح أسير الشهوات والهوىٰ، لا يخلص من شهوة إلا وقد استولت عليه شهوة أخرىٰ، ومصيبة المسلمين بضعف الإرادة: هي مصيبة كبرىٰ، فإذا تصورت قاضيًا ضعيف الإرادة، مكبلًا بالشهوات سواء أكانت شهوات نسائية، أو شهوات خمرية، أو شهوات مالية؛ إذا تصورت قاضيًا علىٰ ذلك الحال -وما أكثرهم- فهل تستطيع أن تأمن من ذلك القاضي علىٰ دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم؟ وهل تطمئن إلىٰ العدالة في أيدي أولئك الضعفاء؟

وهل يستطيع زعيم من الزعماء أن يقف من خصوم البلاد موقفًا مشرِّفًا إذا لم يتحصن بقوة الإرادة، ويتسلح بشدة العزم والحزم؟ وهل إذا كان مريضًا بالحكم وحب السلطة مثلًا يستطيع أن يصل بأمته إلىٰ حيث تحب؟

نعم لا يستطيع ضعيف الإرادة أن يقوم بعمله في الحياة كاملًا غير منقوص، وإنَّما الذي يستطيع ذلك، سواء أكان رئيسًا أم مرؤوسًا، حاكمًا أو محكومًا، هو ذلكم الرجل الذي قوي عزمه وصلبت إرادته؛ من أجل ذلك كله قضت حكمة الله أن يفرض علىٰ الناس في كل سنة أن يصوموا شهرًا، يمرنون فيه أنفسهم علىٰ الصبر، ويعوِّدونها الحزم والعزم، حتىٰ يصبروا عن شهواتهم، ويصبروا علىٰ مصائبهم التي تنتابهم في الحياة، ويصبروا علىٰ طاعاتهم التي كلفهم الله بها، ويصبروا علىٰ أعمالهم التي لا غنىٰ لهم عنها، وبالجملة يصبرون علىٰ كل عمل نافع مفيد، ويصبرون علىٰ ترك كل خلق ذميم أو عمل ضار، وذلك جماع التقوىٰ التي أجملها القرآن الكريم، في قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

(٢) ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾، أي: قلائل، وهو ترغيب في الصوم من طريق تقليل زمنه، ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ بيان للأسباب التي تبيح للمكلف أن يفطر أولها المرض، وقد أطلقه القرآن الكريم ولم يقيده بالمرض الشديد الذي يعسر معه الصوم، وقد روي هذا عن عطاء، وابن سيرين، وعليه البخاري، والجمهور من العلماء قيدوه بالمرض الذي يعسر معه الصوم، واستدلوا لذلك بقول الله -تعالىٰ-: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾، وهو دليل لأصل رخصة الإفطار، وكمالها ألا يكون فيها تضييق، والمؤمن يحتاط لنفسه ما دام حريصًا علىٰ أداء ذلك الركن ابتغاء مرضاة الله -تعالىٰ-، وما دام مرضه لا يسقط عنه صومه إلىٰ النهاية، بل يجب عليه القضاء، ورُبَّ قضاء هو أشق علىٰ صاحبه من الأداء، فما دام الصوم ميسورًا له مع مرضه، ولم يغلب علىٰ ظنه أن صومه يضاعف مرضه أو يطيل زمنه= فالأحوط أن يصوم.

ثانيها: السفر، وهو يشمل الطويل والقصير، وقد جاء في السنة ما يؤيد ذلك الإطلاق؛ روىٰ **أحمد ومسلم وأبو داود** عن **أنس** أنَّه قال: «كان رسول الله ﷺ

إذا خرج مسيرة ثلاثة أميال أو ثلاثة فراسخ صلَّىٰ ركعتين»[1]، ويرجح كون الرواية ثلاثةأميال حديث أبي سعيد عند **سعيد بن منصور** قال: «كان رسول الله ﷺ إذا سافر فرسخًا يقصر الصلاة»[2]، والفرسخ ثلاثة أميال، بل روىٰ **ابن أبي شيبة** بإسناد صحيح عن ابن عمر أنه كان يقصر الصلاة في الميل الواحد[3]، ولا خلاف بين المسلمين في أن السفر الذي يباح فيه قصر الصلاة يباح فيه الفطر، والمعنىٰ أنَّ المسافر من حقه أن يفطر، وكانت الصحابة تسافر في الجهاد والغزو فيفطر البعض، ويصوم البعض، ولا يعيب المفطر علىٰ الصائم، ولا الصائم علىٰ المفطر، وقد يترجح الإفطار إذا كان في الصوم مشقة وكان الفطر أقوىٰ للمسافر وأعون له علىٰ أداء مهمته.

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ﴾ بيان لعذر آخر من أعذار الصوم، وهو أداؤه بمشقة وصعوبة، يقال أطاق الشيء: إذا كانت قدرته عليه في غاية الضعف بحيث يتحمل به مشقة شديدة؛ ولذلك لا يقال لغة: أطقت حمل العصا، بل يقال: أطقت حمل الصخرة، وهو يشمل الشيوخ الضعفاء، والحوامل والمراضع يخفن

---

(١) رواه مسلم: (٦٩١).

قال النووي: «هذا مما احتج به أهل الظاهر في جواز القصر في طويل السفر وقصيره، وقال الجمهور: لا يجوز القصر إلا في سفر يبلغ مرحلتين، وقال أبو حنيفة وطائفة: شرطه ثلاث مراحل. واعتمدوا في ذلك آثارا عن الصحابة.

وأما هذا الحديث فلا دلالة فيه لأهل الظاهر. لأن المراد أنه حين سافر ﷺ إلىٰ مكة في حجة الوداع صلىٰ الظهر بالمدينة أربعا، ثم سافر، فأدركته العصر وهو مسافر بذي الحليفة فصلاها ركعتين. وليس المراد أن ذا الحليفة كان غاية سفره، فلا دلالة فيه قطعًا. وأما ابتداء القصر فيجوز من حين يفارق بنيان بلده أو خيام قومه إن كان من أهل الخيام. هذا جملة القول فيه. وتفصيله مشهور في كتب الفقه. هذا مذهبنا ومذهب العلماء كافة إلا رواية ضعيفة عن مالك أنه لا يقصر حتىٰ يجاوز ثلاثة أميال ..»، وقال: «قوله: «أن رسول الله ﷺ إذا خرج ثلاثة أميال أو ثلاثة فراسخ صلىٰ ركعتين» هذا ليس علىٰ سبيل الاشتراط، وإنما وقع بحسب الحاجة، لأن الظاهر من أسفاره ﷺ أنه ما كان يسافر سفرا طويلا فيخرج عند حضور فريضة مقصورة، ويترك قصرها بقرب المدينة ويتمها، وإنما كان يسافر بعيدًا من وقت المقصورة فتدركه علىٰ ثلاثة أميال أو أكثر أو نحو ذلك فيصليها حينئذ. والأحاديث المطلقة مع ظاهر القرآن متعاضدات علىٰ جواز القصر من حين يخرج من البلد فإنه حينئذ يسمىٰ مسافرًا». شرح مسلم: (٥/ ٢٠٠). (عمرو)

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف: (٢/ ٢٠٠)، (٨١١٣)، وانظر: إرواء الغليل: (٣/ ١٥). (عمرو)

(٣) (٢/ ٢٠٠). (عمرو)

علىٰ الأجنة والأطفال، ويشمل المرضىٰ بالمعدة مرضًا لا يمكنهم من مصابرة الجوع.

وقد سألني بـ«**سوريا**» رجل عمل عملية جراحية بالمعدة فصغرت حتىٰ لا تسع من الطعام إلا مقدار صغيرًا، ولا يستطيع أن يصبر عن الطعام طول النهار، فقلت له: عليك الفدية، وذكرت له الآية، وقلت له: إنَّ الدين لم ينزل لإعنات الناس، وإنَّما نزل لحياتهم، ففرح وسر بذلك القول ودعا لي بخير، كما تشمل الآية الفَعَلة الذين جعل الله معاشهم الدائم بالأشغال الشاقة، كاستخراج الفحم الحجري من مناجمه، والأمثلة علىٰ ذلك كثيرة، فهو يشمل أيضًا سائقي قطارات السكك الحديدية الذين يقفون نهارهم أمام النار، ويشق عليهم الصبر عن الماء في اليوم الشديد الحر، والفرَّانين الذين لا يستطيعون الصوم في أيام الصيف في البلاد الحارة، وتكليفهم ترك أعمالهم لا يتفق ويسر الدين في شيء؛ لأنَّ المفروض في التشريع أن يكون صالحًا لجميع الطبقات وفيهم العمال وأصحاب الأعمال الشاقة، فمن رحمة الله بهم أن يقبل منهم الفداء، وهو إطعام مسكين عن كل يوم، ومن أخذ منهم نفسه بالشدة، وألزمها الصوم، وتحمل في ذلك المشاق فهو أمير نفسه؛ فإنَّ الله لم يفرض عليه الفطر، وإنَّما أباح له، وهو صاحب الشأن فيه، والله سائله عن دينه وصومه وعذره، وهو أعلم به إن كان همه التخلص من التكاليف، أو همه إرضاء ربه، والمحافظة علىٰ حياته ومصلحته.

(٣) ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ ... إلخ. يرينا الله أنَّ الأيام المعدودات هي شهر رمضان، وقد اختاره الله لذلك؛ لأنَّه أنزل فيه القرآن أي كان بدء نزوله فيه، وهو نعمة عظمىٰ علىٰ الناس؛ لأنَّه هدىٰ للناس، وآيات واضحات من الهدىٰ، وكل كتب الله هدىٰ، وكذلك هو آيات في الفرق بين الحق والباطل.

﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾: يرشدنا الله -تعالىٰ- بذلك الأسلوب إلىٰ أنَّ من الناس من يشهد الشهر كأصحاب المناطق المعتدلة والمنطقة الاستوائية، فأولئك فرضهم أن يصوموا الشهر، ومن الناس من لا يشهد الشهر كأصحاب المناطق القطبية؛ فإنَّ نهارهم نصف سنة وليلهم كذلك، فهؤلاء لم يشهدوا

الشهر؛ ولذلك يرىٰ العلماء أنَّهم يقدرون مدة توازي الشهر ويصومونها اجتهادًا، ويقول الأستاذ الإمام: إنَّ هذه الآية من دلائل كون القرآن من عند الله لا من وضع محمد ﷺ الذي نشأ بجزيرة العرب، وإلَّا فمن الذي أعلمه أنَّ من البلاد من لا يشهد الصوم ولذلك قيد الحكم بمن شهد الشهر(١).

﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا﴾ . . . إلخ، أعاد الرخصة اهتمامًا بشأنها، وإيذانًا بأنَّ الله -تعالىٰ- يحب أن يتعبد برخصه كما يحب أن يتعبد بعزائمه، ولأنَّ من شأن الناس أن تزهد في الرخصة وتحرص علىٰ العزائم، فالله -تعالىٰ- يكررها كأنَّه يحث علىٰ العمل بها ويرغب فيها.

ثم عقب ذلك بقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾؛ ليؤكد ذلك الطلب، ﴿وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾ عطف علىٰ قوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ﴾، أي: ويريد أن تكملوا العدة فمن لم يكملها أداءً لعذرٍ= أكملها قضاء، ﴿وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ إليه من الأحكام النافعة لكم بأن تذكروا عظمته وجلاله، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ له هذه النعم بالقيام بها علىٰ وجهها فتكونوا من الكاملين.

(٤) ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ إرشاد من الله -تعالىٰ- لحقيقة الصوم في الإسلام، وأنه يجوز الإفضاء إلىٰ النساء في أي ليلة من ليالي رمضان؛ لأنَّ ﴿لَيْلَةَ﴾ مفرد مضاف فيعمّ، وقوله: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ بيان للسبب في إباحة الإفضاء إلىٰ النساء في الليل؛ أي إذا كان بينكم وبينهن هذه الملابسة والمخالطة؛ فإنَّ اجتنابهن عسر ليكم؛ فلهذا رخص لكم في مباشرتهن.

﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾، أي: تنتقصونها بعض ما أحل الله لها من اللذات توهُّمًا منكم أن من قبلكم كان كذلك، ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ بيان هذه الرخصة، ﴿وَعَفَا عَنكُمْ﴾، حيث أخطأتم في اجتهادكم الذي أدىٰ إلىٰ التضييق علىٰ النفس وإيقاعها في الجرم.

ويحتمل: علم الله أنَّكم كنتم تخونون أنفسكم؛ إذ تعتقدون شيئًا ثم لا تلتزمون العمل به، فهو مبالغة من الخيانة التي هي مخالفة مقتضىٰ الأمانة،

(١) تفسير المنار: (٢/١٣١). (عمرو)

وقوله: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ . . . إلخ؛ أي: قَبِل توبتكم، وعفا عن خيانتكم أنفسكم، وأذن لكم الآن إذنًا صريحًا بأن تباشروا النساء بالنية الصالحة طالبين ما كتبه الله لكم من النسل، لا لمجرد الشهوة.

﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ . . . إلخ، بيان لغاية الوقت الحلال، وأنَّه ينتهي بظهور الفجر الصادق، والآية مَثل، وليست حقيقة.

وقد غفل عن ذلك بعض الصحابة[1] ففهم أنَّها حقيقة، فأتىٰ بعقالين: أبيض وأسود، وجعلهما تحت وسادته، وكان يقوم بالليل وينظر إليهما فلا يتبين له الأبيض من الأسود، فلما أصبح غدًا إلىٰ رسول الله ﷺ وأخبره فضحك، وقال: إنَّك لعريض القفا، إنَّما ذاك بياض النهار، وسواد الليل؛ فالله -تعالىٰ- يبيح للإنسان أن يأكل إلىٰ طلوع الفجر، أمَّا تركه للأكل والشرب قبل الفجر بنحو ثلث ساعة، فهو احتياط من صنع الناس.

﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ بيان للمدة التي يمسك فيها الصائم، فالآية ترينا أنَّ إتيان النساء والأكل والشرب مباحة للمسلم من غروب الشمس إلىٰ طلوع الفجر، وهذه هي المفطرات التي نص عليها القرآن الكريم.

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ الإشارة إلىٰ الأحكام التي تقدمت، وسميت حدودًا؛ لأنَّها حددت الأعمال وبينت أطرافها وغايتها، وقوله: ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ أبلغ في التحذير من قوله في آية أخرىٰ. ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾؛ لأنَّه يرشد إلىٰ الاحتياط، فمن قرب من الحد أوشك أن يعتديه، كالشاب يداعب امرأته في النهار لا يثق بالوقوف عند حد المباح له، وقيل لا تقربوها بالتأويل، ولا بالهوىٰ والرأي، بل اقبلوها كما هي: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ علىٰ ذلك النحو من البيان يبين الله لهم آياته ليعدهم للتقوىٰ.

---

(١) هو عدي بن حاتم، فعن عدي بن حاتم ﷺ، قال: لما نزلت: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ [البقرة: ١٨٧] عمدت إلىٰ عقال أسود، وإلىٰ عقال أبيض، فجعلتهما تحت وسادتي، فجعلت أنظر في الليل، فلا يستبين لي، فغدوت علىٰ رسول الله ﷺ، فذكرت له ذلك فقال: «**إنما ذلك سواد الليل وبياض النهار**».

رواه البخاري: (١٩١٦)، ومسلم: (١٠٩٠). (عمرو)

الحج

﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

﴿۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا[(١)] لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٧].

﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ[(٢)] يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ[(٣)] ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ[(٤)] وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٧].

* شرح وتعليق:

(١) فرض الله الحج في السنة التاسعة من الهجرة وقد خرج ﷺ للعمرة في السنة السادسة فصدته قريش عن البيت، وقضىٰ تلك العمرة في السنة السابعة، وفي السنة التاسعة حجَّ بالناس أبو بكر رضي الله عنه، وفي العاشرة خرج النبي ﷺ، وحج

---

(١) يقوم به أمر الناس في دينهم ودنياهم، **الهدي**: ما يهديه المحرم من الإبل، أو البقر، أو الغنم لفقراء الحرم، **القلائد**: جمع (قلادة): ما يجعل في عنق الهدي حتىٰ لا يتعرض له أحد.

(٢) **ضامر**: خفيف اللحم من العمل لا من الهزال، **فجّ عميق**: طريق بعيد.

(٣) **بهيمة الأنعام**: الإبل والبقر والغنم.

(٤) يزيلوا أوساخهم، **العتيق**: المكرم، عتقه الله أن تسومه الجبابرة.

بجمهور المسلمين حجة الوداع، وفيها بيَّن للناس كيفية الحج، وقال لهم: «**خذوا عني مناسككم**»[1].

وقد أرانا الله بقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ أنَّه أوجب علىٰ مستطيع الحج أن يحج إلىٰ بيت الله لأداء هذه الفريضة، ولم يبين الله لنا حد الاستطاعة؛ لأنَّ كل أحد يعلم من نفسه إن كان يستطيع الحج أولا يستطيع، وإن كان عاميًّا؛ لأنَّها عبارة عن القدرة علىٰ الوصول إلىٰ بيت الله، وهي تختلف باختلاف الناس في أنفسهم، وفي بُعدهم عن البيت وقربهم منه.

وإنَّنا نرىٰ جماهير المسلمين يذهبون إلىٰ الحج في كل عام بدون أن يستفتي واحد منهم العلماء عن نفسه أهو مستطيع أم غير مستطيع؟ فدلَّ ذلك علىٰ أنَّ الاستطاعة أمر موكول للشخص وهو أدرىٰ بنفسه -وإن كان عاميًّا- من غيره وإن كان عالمًا نحريرًا.

وقد استنبط بعض العلماء من الآية أنَّ حج البيت من فروض الكفايات التي يجب أن يقوم بها طائفة من المسلمين في كل عام، وإذا عطلوا هذه الشعيرة أثموا جميعهم، والدليل علىٰ ذلك أنَّه وجَّه الوجوب في الآية إلىٰ الناس عامة، فتكون الآية دالة علىٰ وجوب الحج وجوبًا كفائيًّا علىٰ عامة المسلمين، علىٰ معنىٰ أنَّه يجب علىٰ عامة المسلمين أن يقوم فريق منهم -وهو المستطيع- بأداء ذلك الركن، وتدل فوق ذلك علىٰ وجوبه وجوبًا عينيًّا علىٰ كل مسلم مستطيع، وإذا تركه أثم، وذلك الاستنباط لا يتم إلا حيث اعتبرنا **(مَن استطاع)** فاعل لقوله: **(حج)** أما إذا قلنا إن: **(من استطاع)** بدل من **(الناس)**، وبيان له فلا تدل الآية علىٰ أن الحج فرض كفاية علىٰ عامة الناس.

بل يكون معناها: ولله علىٰ الناس الذين استطاعوا الوصول إلىٰ بيت الله أن يقصدوا إلىٰ ذلك البيت لأداء النسك، فتكون الآية بيانًا لمن يجب عليهم الحج وجوبًا عينيًّا؛ أما وجوب إحياء هذه الشعيرة كبقية شعائر الدين فهو مأخوذ من أدلة أخرىٰ.

---

(١) رواه أحمد: (١٤٤١٩)، ومسلم: (١٢٩٧). (عمرو)

﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي من لم يذعن لوجوب ذلك الركن وما فرض الله من حج ذلك البيت= فإنَّه لا يضر بذلك الجحود إلا نفسه؛ فإنَّ الله غني عن العالمين، لا يستفيد من عبادتهم، ولا يتألم لعصيانهم، ومنهم من حمل الكفر هنا علىٰ ترك الحج، وأيد رأيه بأحاديث منها ما رواه **ابن عدي** عن أبي هريرة مرفوعًا: «**من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهوديًّا أو نصرانيًّا**»(١)، وهو بعيد، والحديث لم يصح، وكذلك ما روي بمعناه.

(٢) ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ . . . إلخ؛ أي: صير الله الكعبة التي هي البيت الحرام أمرًا يقوم به أمر الناس ويتحقق، أو يستقيم ويصلح بإيداع تعظيمها في القلوب، وجذب الأفئدة إليها، وصرف الناس عن الاعتداء فيها وعلىٰ مجاوريها وحجاجها، وتسخيرهم لجلب الأرزاق إليها.

ويدل لذلك قول الله -تعالىٰ-: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وفي معناه قول الله -تعالىٰ-: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧]، وكذلك الشهر الحرام، وهو ذو الحجة الذي تؤدَّىٰ فيه مناسك الحج، أو المراد به جنس الأشهر الحرم التي كانوا يتركون فيها القتال، جعل حرمتها قيامًا للناس ومصلحة لهم، وجعل الهدي الذي يساق إلىٰ الحرم، والقلائد التي يسمون بها الهدي حتىٰ لا يعتدي أحد عليه= هي مصلحة للناس في الجاهلية والإسلام، أو القلائد التي كانوا يقلدون بها أنفسهم وهم راجعون من الحج ليأمنوا علىٰ أنفسهم في عهد الجاهلية= هي أيضًا مصلحة لهم، وكان الناس إذا رأوا هديًا عليه القلائد لا يقربونه ولو كانوا في شدة الجوع، كل ذلك يعمل إعظامًا لبيت الله وما يتصل به، ذلك هو الجعل التكويني الذي هو من خلق الله وتصييره.

ولك أن تقول: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾، أي: بما

---

(١) رواه الدارمي: (١٨٢٦)، وضعفه محققه.

شرعه من القصد إليها، وتعبد الناس بإجلالها وتعظيمها، وجعل حج ذلك البيت أصلًا من أصول الدين، وشعيرة من شعائره، فجعلها بذلك التشريع قيامًا للناس يقوم بها أمر دينهم ودنياهم؛ لأنَّها عبادة بدنية، مالية، روحية، اجتماعية، يجتمع فيها المسلمون علىٰ اختلاف ألوانهم، وتباعد مساكنهم، ليكون ذلك الجمع مؤتمرًا عامًّا لهم، يفكرون فيه فيما يصلحهم، ويتشاورون فيما يحيط بهم، وطرق الخلاص من أمراضهم.

وقد فطن لذلك أعداء الإسلام من زمن بعيد، فأخذوا يضعون العقبات في سبيل حجهم، ويضيقون الخناق عليهم في ذهابهم وإيابهم، ولكن المسلمين غافلون عن كل ذلك، فحلَّ بهم ما حلَّ، وحاق بهم ما حاق.

غير أنَّ الذي يذهب إلىٰ بيت الله ويختلط بإخوانه المسلمين من مشارق الأرض ومغاربها، يعلم أنَّ هناك عقبة كؤودًا تحول دون انتفاع المسلمين بحكمة الحج، وهي تفارقهم في اللغة، وتباينهم في وسائل التفاهم، فتجد الهنود تسود فيهم اللغة الأوروبية، وفريق منهم يحسن اللغة الإنجليزية، وتجد المغاربة والسوريين يحسنون اللغة الفرنسية، وتجد المصريين جماهيرهم يحسن اللغة العربية، وتجد الأتراك يعرفون اللغة التركية، وهكذا . . .

ولو أنَّ المسلمين فطنوا لذلك الإشكال الذي يعترضهم، وفكروا في طريق الخلاص منه لجعلوا لهم لغة رسمية قومية، تجمع بين أشتاتهم، وتوحد طريق التفاهم بينهم، وهي لغة القرآن والدين وهي التي بها يفهم القرآن، وتفهم السنة علىٰ الوجه الصحيح، وبها نزل التشريع السماوي.

لو أنَّهم عملوا علىٰ ذلك، واهتموا بدراسة اللغة العربية في جميع بلادهم، لأفادوا من هذه الدراسة فائدتين:

إحداهما: انتفاعهم بحكمة الحج، واتصال بعضهم ببعض لاتفاقهم في اللهجات واللغة بدون حاجة إلىٰ مترجمين.

ثانيهما: انتفاعهم بهذه اللغة وخصائصها في فهم الدين من ينبوعه الصحيح، والوقوف عليه من مصادره الأولىٰ، بدل أن يأخذوه عن تراجم كثيرًا ما تشوه جماله، ولا تفي بأغراضه ومقاصده.

نعم إنَّ الذي يذهب إلىٰ الحج يفهم مقدار ذلك الإشكال الذي سببه اختلاف الناس في لغاتهم وصعوبة وقوف كل شعب من الشعوب علىٰ أغراض الشعوب الأخرىٰ، والله ولي التوفيق.

وكما يستفيد المسلمون من اتصال بعضهم ببعض في نفوسهم وأخلاقهم كذلك يستفيدون من جهة اقتصادهم ومتاجرهم، وكذلك يستفيد المؤمنون من ذلك المؤتمر الذي يجتمع إليه الناس طائعين في كل عام قوة إيمانهم، وارتباط غنيهم بفقيرهم، وشرقيهم بغربيهم، وشماليهم بجنوبيهم حتىٰ يشعر المؤمن بأنَّ كل أولئك المؤمنين هم إخوان له في السراء والضراء، وأعوان له علىٰ الشدائد التي تنتابه، وبذلك يقوىٰ عنده الأمل في الإصلاح، والرغبة في العمل الجدي النافع الذي يعود علىٰ المسلمين بالخير في الدين والدنيا.

ولم يكن ذلك الاجتماع الذي دعا إليه الدين أول اجتماع إسلامي؛ فإنَّ الدين يدعو إلىٰ الجماعة في كل صلاة، والجماعة في كل جمعة، ويدعو إلىٰ الجماعة في كل سنة في العيدين، كل ذلك لينمِّي في المسلمين عاطفة الاجتماع، ويقوي فيهم غريزة حب الصالح العام، وكثيرًا ما تكون ضعيفة في المسلم، فمن المصلحة أن تنمَىٰ.

من المصلحة أن يجتمع الناس علىٰ هذه الشعيرة شعيرة الحج الأكبر لابسين لباسًا واحدًا في إحرامهم، طائفين حول بيت واحد، مصلين خلف إمام واحد، ساعين بين الصفا والمروة في مكان واحد، واقفين للتعارف علىٰ مكان واحد، يعبدون إلها واحدًا علىٰ ملة أبيهم إبراهيم ﷺ؛ كل ذلك ممَّا ينمي في المؤمن شعوره بوحدة المسلمين في أغراضهم ومقاصدهم، ويغرس فيهم ملكة الشعور بهذه الوحدة، وأنَّهم ينبغي أن يكونوا سواسية في مرافق الحياة، لا فضل لأحد علىٰ الآخر إلَّا بالتقوىٰ، ولا ميزة لعربيهم علىٰ أعجميهم، ولا لغنيهم علىٰ فقيرهم، حتىٰ إنَّ الرجل الذي كبل بالامتيازات في حكومته ليشعر وهو يحج إلىٰ بيت الله الحرام أنَّها قيد ثقيل علىٰ نفسه وعلىٰ أمته يجب الخلاص منها.

هذه حكمة الحج العامة، وعلىٰ المسلم أنَّ ينظر إليه من هذه الناحية، ويعرف أنَّ الله -تعالىٰ- قد اختار هذه الأماكن المقدسة لأداء ذلك النسك،

وجعل ذلك النسك علىٰ أسلوبه الخاصة الذي شرعه؛ لأنَّه يرىٰ فيها من الخصائص ما لا يوجد في غيرها، وإذا جهل الناس الحكمة الخاصة بهذه المناسك وكيفيتها فلا يمنعهم ذلك من اقتناعهم بالحج؛ لأنَّهم يعرفون حكمته العامة.

ومثل الرجل الذي ينكر الحج لأنه لم يعرف الحكمة في أن الله جعل عرفة بخصوصه مكانًا لاجتماع الناس فيه، ولم يعرف لماذا كان الطواف بيت الله سبعًا ولم يكن ثلاثًا، أو أربعًا، ولا الحكمة في أنَّ السعي بين الصفا والمروة بذلك الأسلوب الذي نعرف؛ مثل ذلك الرجل مثل مريض وثق بطبيب فقدم له نفسه ليفحص مرضه، ويصف له الدواء وبعد أن فرغ من الفحص وكتب له الدواء قال له: لا أتعاطىٰ دواءك إلَّا إذا علمت كيف تركَّب ذلك الدواء، ومقدار نسب التركيب، ولماذا أخذت من العقاقير بهذه النسب، ولماذا لم تكن النسب علىٰ نحو آخر، فهل يشك أحد في أنَّ ذلك المريض رجل أحمق؟

فكذلك المؤمن الذي رضي الله ربًّا، واقتنع بأنَّه حكيم في تشريعه، وفوض له أمر دينه ودنياه، وفهم الحكمة العامة في الحج، لا يضره أن يجهل الحكمة الخاصة بالتفاصيل؛ لأنَّه لا بُدَّ من التعبد في صور العبادات، وأشكالها وكيفيتها وكميتها، ويكفي أن تكون معقولة في جملتها، ألا ترىٰ الصلاة، فرضها الله لأنَّها تنهىٰ صاحبها عن الفحشاء والمنكر، ولكن لماذا كانت خمسًا في كل يوم وليلة؟ ولماذا كان الصبح ركعتين والظهر أربعًا . . . إلخ؟ ولماذا كانت الركعة الواحدة فيها ركوع وسجودان دون العكس؟ كل ذلك تعبدي لا يضر المؤمن أن يجهله، وإذا فهم حكمته فذلك فضل من الله -تعالىٰ-، وكذلك فرض الله الصوم ليعدنا به للتقوىٰ، ولكنه جعله شهرًا في كل سنة؛ لماذا؟ أليس ذلك متروكًا إلىٰ الله -تعالىٰ-؟

فكذلك الحج عرفنا الله حكمته العامة في الآية المذكورة، وكذلك عرفنا في قوله: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾، وسكت عن حكمة التفاصيل؛ لأنَّ ذلك متروك لله -تعالىٰ- نأخذه منه، كما يأخذ المريض دواءه من الطبيب؛ لأنَّه وثق به، ورضيه طبيبًا له، وهو أدرىٰ بتكوين الدواء، ونسب الأجزاء بعضها إلىٰ بعض، وكذلك الإله -وله المثل الأعلىٰ- رضيناه ربًّا، وعرفنا الحكمة العامة من التكاليف، ونترك الحكمة الخاصة؛ لأنَّ علمها عنده وهو المحيط بها.

أصول المعاملات

لم يقف الإصلاح المحمدي عند دعوة الناس إلىٰ العبادات التي تُصلِح نفوسهم كالصلاة والصوم، أو اجتماعهم كالزكاة والحج، بل تناول الإصلاح في المعاملات، ووضع نظامًا صالحًا لها يحول بين الناس وبين الفساد.

حل البيع وحرمة الربا

(١) ألا ترىٰ القرآن الكريم يحل للناس البيع، ويحرم عليهم الربا؛ لأنَّه لا غنىٰ لهم عن البيع، والربا لا يتفق ورحمة الإنسان بأخيه الإنسان، وهو استغلال لحاجة الفقير.

﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

ثم يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: ٢٩، ٣٠].

ويقول: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨].

ليرينا أنَّ أكل أموال الناس بدون مقابل قد حرمه الله إلا حيث كان ذلك المال كسبًا في تجارة، وكانت التجارة عن تراضٍ من المتبايعين؛ فإنَّه يصير حلالًا، ويرينا الله -تعالىٰ- بقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ أنَّ أكل مال الناس بالباطل من ذرائع القتل ووسائله الموصلة إليه، والذي يرجع إلىٰ بلاد الريف ويعرف آثار أكل المال بالباطل ولا يشك في أن ذلك العمل قتل للنفوس.

فترىٰ الرجل يشح بميراث أبيه علىٰ أخته، ويجتهد في حرمانها من ذلك الميراث ليأكل مالها بالباطل، فيبرز له زوجها وأولادها، ولا يزالون به حتىٰ يقتلوه، إن لم يكن قتلًا حسيًا فقتل أدبي ينتهي بفقر الطرفين، وسوء الحال بينهما.

فلله ما أحكم هذه الآية، وما أبعد مداها، دع ما تدل عليه الآية من أمور ظاهرة، كأخذ مال الغير من طريق الغصب أوالسرقة أو التزوير؛ فإنَّ هذه

الحوادث من شأنها أن تجر إلىٰ القتل، فإن السارق إذا اضطر إلىٰ الدفاع عن نفسه يستبيح في ذلك السبيل القتل.

وكذلك صاحب المال يستبيح أن يقتل السارق في سبيل حفظه لماله، وتأمل قوله الله -تعالىٰ-: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾، ولم يقل: ولا يقتل بعضكم بعضًا؛ ليرينا أنَّ الرجل الذي يقتل أخاه المسلم هو قاتل لنفسه.

وكذلك الرجل الذي يأكل مال غيره بالباطل هو مضيع لماله بذلك العمل، فالآية ترشدنا إلىٰ وحدة الأمة وتكافلها، في الخير والشر، وأن الاعتداء علىٰ الغير اعتداء علىٰ النفس، وما أحسن قول الله -تعالىٰ- بعد ذلك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾.

ومن رحمته بنا أن وضع لنا ذلك التشريع العادل، ثم توعدنا إذا نحن لم نسمع لذلك لنصح بقوله: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾؛ ليرينا أنَّ من الناس من يأكل مال غيره وهو يعتقد خطأ أنه ماله، ورجل ذلك حاله ليس له هذا الوعيد.

تحريم الرشوة

ثم تراه في آية البقرة ينهانا عن الرشوة، وأن نتقدم بمالنا إلىٰ الحكام؛ لنستعين بذلك المال علىٰ أكل فريق من أموال الناس بالإثم؛ لأنَّ ذلك مفسد لأداة الحكم، ومتىٰ فسدت أداة الحكم كانت الطامة الكبرىٰ، والأمة لا تزال بخير ما دام قضاؤها نزيهًا، وحكامها لا يخضعون للمؤثرات، وأن الأمة التي تفشوا فيها الرشوة هي أمة قد تودع منها.

كتابة الدَّين

(٢) ثم أرشدنا القرآن إلىٰ العناية بالدَّين، وأنه ينبغي أن يكتب، وأن الكاتب ينبغي أن يكون عدلًا، حتىٰ لا يكون موضعًا للتجريح عند التقاضي، وينبغي لذلك الكاتب العدل أن يكتب علىٰ النحو الذي علمه الله، وأن المدين هو الذي يملي الكاتب، وليتَّقِ الله في ذلك الإملاء، فلا ينقص شيئًا من دينه، وأن المدين إذا كان سفيهًا أو ضعيفًا أو لا يستطيع أن يملي فليملل وليه بالعدل والإنصاف، وينبغي أن تستشهدوا علىٰ ذلك الدين شهيدين من رجالكم، فإن لم يوجد رجلان فليشهد رجل وامرأتان، مخافة أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرىٰ، وأنه ينبغي للشاهد أن لا يكتم شهادته إذا دعي إليها، ولا ينبغي احتقار الدين وترك كتابته لصغره.

ثم بيَّن حكمة ذلك كله بأنَّ ذلك العمل أقسط عند الله، وأقوم للشهادة، وأدنىٰ ألا توجد ريبة بين المتعاملين، ثم استثنىٰ من ذلك التجارة الحاضرة، فلا بأس من عدم كتابتها.

أرشدنا الله -تعالىٰ- إلىٰ هذه المصالح في القرآن الكريم؛ إذ يقول:
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ

ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

العهود والمواثيق

(٣) من الأصول العامة التي وضعها القرآن الكريم لإصلاح المعاملات: الوفاء بالعقود والمواثيق، وقد نصَّ علىٰ ذلك نصوصًا مؤكدة، فمنها ما هو عام، ومنها ما هو خاص، فمن العالم قول الله -تعالىٰ- في أول المائدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١].

وقوله -تعالىٰ- في سورة النحل: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل: ٩١].

وقوله -تعالىٰ- في سورة الإسراء: ﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].

وأما العهود الخاصة فمنها قوله -تعالىٰ- في سورة التوبة بعد أن أعلن البراءة من المشركين: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤].

فأرانا بهذه الآية الكريمة أن العهد محترم حتىٰ مع المشركين المخالفين لنا في الدين والعقيدة، ما داموا قائمين بشروط العهد، ولم يعاونوا علينا أحدًا من الكفار، وأرشدنا إلىٰ أن الوفاء بالعهد من التقوىٰ التي يحبها الله -تعالىٰ-، ولا يصح لمسلم أن يتعرض لسخط الله -تعالىٰ- بنقض العهد، وقال الله -تعالىٰ- في السورة نفسها: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَٰمُواْ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

فتراه يحث علىٰ الوفاء ما دام المشركون لم ينقضوا العهد، ثم كرر الحث

علىٰ ذلك الوفاء في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾. ثم ترىٰ القرآن الكريم ينفر من النقض أشد تنفير، ويصف الناقضين بأنهم شر الدواب علىٰ وجه الأرض، ويبيح لنا -إذا علمنا من المعاهدين أنَّهم يريدون بنا الشر، ولا يحافظون علىٰ العهد- أن ننبذ إليهم عهدهم، ونعلنهم الحرب والعداء، علىٰ علم منَّا ومنهم بذلك النقض إذ يقول: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٥-٥٨].

بل إنَّ القرآن الكريم أعلىٰ من شأن العهد والميثاق إلىٰ أبعد حدود الإعلاء، فتراه يرشدنا إلىٰ أن المؤمنين الذين لم يهاجروا معكم إذا استنصروكم في دين الله فعليكم النصر لهم علىٰ الكفار، إلا إذا كان الكفار بينكم وبينهم ميثاق فلا تنصروا المؤمنين عليهم، قيامًا بحق العهد، فجعل حق الميثاق فوق حق الأخوة في الدين. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾.

ثم هددهم إذا هم لم يرعوا حق الميثاق بعناية إذ يقول بعد ذلك: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٢].

فهل فطن لذلك أعداء الإسلام والمسلمين؟ وهل عرفوا مقدار عناية القرآن بحفظ العهد والميثاق؟

اليتيم والعناية به

(٤) علم الله أنَّ اليتامىٰ إذا أهمل شأنهم، وتركوا بدون تربية كانوا مرضًا في جسم الأمة يُفسد عليها كل إصلاح، فأَمَر القوَّامين عليهم أن يربوهم تربية صالحة في أخلاقهم ودينهم، وأن يهتموا بما ترك لهم الآباء من مال فينموه لهم، حتىٰ إذا بلغوا وآنسوا منهم الرشد دفعوا إليهم أموالهم كاملة غير منقوصة.

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا[١] كَبِيرًا﴾ [النساء: ٢].

﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم[٢] مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا[٣] أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾.

﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ٩، ١٠].

ولعلَّ في ذلك عبرة لجماعة الأوصياء الذين هم كالوحوش الضارية، لعل لهم عبرة في قول الله -تعالىٰ-: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ﴾ حتىٰ لا تتبدلوا الخبيث من أموالهم بالطيب من أموال اليتامىٰ، سواء أكان ذلك في

---

(١) ذنبًا.

(٢) أبصرتم.

(٣) مبادرين إلىٰ أكلها مخافة أن يكبروا.

العقار أو المواشي، ولعلهم يعتبرون بقول الله -تعالىٰ-: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾، وتضموها إليها، ثم عقب ذلك النهي بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾.

لعل في القرآن الكريم عبرة جماعة الأوصياء الذين يريدون أن تكون وصايتهم علىٰ اليتامىٰ الدهر كله، يأمرهم الله أن يختبروهم في الشؤون المالية، حتىٰ إذا أبصروا فيهم الرشد لتدبير المال والاحتفاظ به دفعوا إليهم أموالهم، ولكن أولئك الأوصياء لا يعترفون لليتامىٰ برشد، وإن أقاموا ألف دليل ودليل علىٰ رشدهم، حتىٰ يكونوا بقرة حلوبًا يستدرّون أموالهم، ويعيشون علىٰ حسابهم، ومثلهم في ذلك مثل المستعمرين الذين احتلوا البلاد بحجة أن أهلها لم يستعدوا لحكم أنفسهم بأنفسهم، فهم في حاجة إلىٰ قوم راشدين يهيمنون علىٰ مصالحهم وشؤونهم، يأخذون البلاد ويحتلونها بذلك الاسم، ثم يضربون الرق علىٰ أهلها ماداموا قادرين عليهم، وفي استطاعتهم أن يحتلوهم، وإن أقاموا الأدلة علىٰ رشدهم، وقدرتهم علىٰ تصريف شؤونهم، فالأوصياء علىٰ اليتامىٰ، والأوصياء علىٰ الدويلات الضعيفة سواء في الظلم، واستغلال الضعف، ووضع العقبات والعراقيل في سبيل انتفاع الناس بما أعطاهم من مال ومواهب، وحسبنا الله في الفريقين.

وتأمل قول الله -تعالىٰ-: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ﴾؛ لتعلم أنَّ من الناس من يأكل مال اليتيم، والحامل له علىٰ ذلك الإسراف والبذخ، والخوف من أن يبقىٰ ذلك المال تحت حيازة اليتيم إلىٰ أن يكبر، فلا يستطيع الوصي أن يأكله بعد الكبر، فيبادر بأكله وهو صغير ثم يأمر الله من كان غنيًّا منهم أن يتعفف عن الأكل من مال اليتيم، ويحفظ له ماله بدون أجر، ومن كان فقيرًا منهم أباح له أن يأكل من مال اليتيم بالطريق المعروف، فلا يسرف في ذلك.

ثم يأمر الأوصياء بأن يشهدوا علىٰ الأيتام إذا دفعوا إليهم أموالهم بعد الرشد، حتىٰ لا يوجد نزاع، ثم يعقب ذلك بقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾، وهو تهديد شديد لجماعة الأوصياء إذا هم غالطوا اليتيم في ماله، يريهم به أنَّ الله -تعالىٰ- رقيب عليهم، حسيب علىٰ أعمالهم، وما أشد قول الله -تعالىٰ- في سورة النساء.

﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ﴾.

يهدد به الأوصياء، ويريهم أنَّ كل واحد منهم عرضة لأن يموت، وتصبح أولاده يتامىٰ في حاجة إلىٰ عطف الناس ورعايتهم، فهل يرضيه إذا كان أولاده كذلك أن يظلمهم الناس، ويضيعوا أموالهم، ويحولوا بينهم وبين الحياة؟ ذلك هو الوعيد الذي توعد الله به القوَّامين علىٰ اليتامىٰ، والناس جد غافلين عن اليتامىٰ وعن حقوقهم، ولا يعاملهم الأوصياء إلا شر معاملة. وإنَّك لتجد واحدًا في الألف يحرص علىٰ حق اليتيم وماله، ويعمل علىٰ تثمير ثروته والإبقاء عليه.

نظام البيوت

لمَّا كانت الأمة لا تقوم علىٰ أسر وبيوت= وضع الله نظامًا للبيوت يكفل حياتها وبقاءها، وبعد هذه الأسر للقيام بوظيفتها في هذه الحياة.

الـزواج

(١) فشرع الزواج وحثَّ عليه، وامتن علىٰ الناس أن جعل بين الزوجين مودة ورحمة، وخلق لنا من أنفسنا الأزواج لتسكن إليها نفوسنا، وتطمئن إليها أفئدتنا.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

وقال -تعالىٰ-: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٢].

وهو خطاب لأولياء البنين والبنات، يطالبهم الله فيه أن يزوجوا من لا زوج له، والصالح للزواج من العباد والإماء، وقوله: ﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ ترغيب في النكاح وتسهيل لأمره، ورد علىٰ من يتشدد في أمر الزواج ويرغب عنه بعلة الفقر، وكأن الله يرينا أن الزواج من أسباب الغنىٰ ووسائل الاقتصاد.

وكثيرًا ما يكون الرجل مسرفًا لا يستطيع أن يحافظ علىٰ ماله؛ لأنَّه لم يكن له امرأة تحافظ علىٰ ذلك المال، وتضطره معيشته إلىٰ إضاعة ماله في سبيل مأكله ومشربه، فإذا اقترن بزوج صالح للزوجية من جهة خلقه وتدبيره= حفظ ماله، ونمت ثروته.

ثم يرينا الله أنَّه لا غرابة في ذلك؛ إذ يقول: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾، وليس المراد بالفقراء: الذين لا يجدون مؤنة النكاح من مهر أو نفقة علىٰ الزوج، بدليل قوله بعد: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

تعدد الزوجات

(٢) ولم يكن عند العرب حد يرجعون إليه في تعدد الزوجات، فوضع القرآن الكريم لذلك حدًّا وسطًا، وأباح التعدد لمن أَمِن الجور في معاملة النساء؛ قال -تعالىٰ- في سورة النساء: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ[١] لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ﴾ [النساء: ٣].

فأنت ترىٰ القرآن الكريم أباح للرجل أن يتزوج أكثر من واحدة، وشرط في ذلك أن يأمن الجور الذي من شأنه أن يفسد علىٰ الرجل بيته، ويفرق بين بنيه، وأوجب عليه امرأة واحدة إذا خاف الجور، فضلًا عن تيقنه.

ثم ختم الآية بقوله: ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ﴾، أي: أقرب من ألا تفتقروا، من عال الرجل عيلة: افتقر، يريد أنَّ اكتفاء الرجل بامرأة واحدة من أسباب غناه وعدم فقره؛ فإنَّ الشأن في المرأة إذا رأت زوجها قد تزوج امرأة أخرىٰ أن تفرط في ماله، وتعمل علىٰ تبديده؛ لأنَّه لم يكن خالصًا لها ولأولادها، فالأصل في الزواج أن يكون للرجل امرأة واحدة، والزيادة علىٰ ذلك لا بُدَّ أن تكون لحاجة ماسة من شأنها أن ترجَّح علىٰ ما في التعدد من أضرار مالية ومنزلية، وتفريق بين الأبناء، ولا سيما إذا كانت النساء جاهلات، كأن يتزوج الرجل امرأة ويتبين أنها عاقر لا تلد، وهو يحبها وتحبه، فمن الخير لها وله أن يتزوج عليها ولا يفارقها، وكأن تكون حاجة الرجل الطبيعية لا تكتفي بالمرأة الواحدة، فبدلًا من أن يُعرِّض الرجل نفسه للزنا، أو غشيان امرأته في أيام الحيض والنفاس، ممَّا يسبب له

(١) لعل المراد بالطيب من النساء العفيفة.

أمراضًا، يبيح الله له أن يتزوج امرأة أخرىٰ، وكأن يطرأ علىٰ امرأته من الأمراض ما يحول بين استمتاع الرجل بها، ويرىٰ أنها امرأة فقيرة لا تجد من ينفق عليها، فيستبقيها الرجل علىٰ أن تكون ضرة وهو خير من أن يدعها وهي علىٰ ذلك الحال المؤلم.

هذه وأمثالها أسباب خاصة لتعدد الزوجات، وهناك اعتبار آخر يبيح التعدد، وهو أنَّ الشأن في الرجال أن تكون عرضة دائمًا للنقص عن النساء بواسطة الحروب والأسفار، وهذه الحرب الكبرىٰ قد تركت أيامىٰ كثيرات من النساء.

فلو أنَّ الله -تعالىٰ- حرم علىٰ الرجل تحريمًا باتًّا أن يتزوج بأكثر من واحدة لتعرض كثير من النساء للاتجار بأعراضهن، وتفشىٰ الزنا إلىٰ حد كبير، وخير للمرأة أن يكون لها ضرة أو ضرات، ولا تتجر بأعز شيء لديها وهو خُلُقها وعفتها، فسبحان الحكيم في تشريعه، العليم بحاجات خلقه وضروراتهم.

وقد بيَّن القرآن منزلة الرجل من المرأة من جهة الحقوق، حتىٰ ينتظم البيت وتسعد الأسرة بقيام كل منهما بما أوجبه الله عليه، فقال: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

وهي درجة الرياسة التي بينها الله -تعالىٰ- في سورة النساء: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤].

فترىٰ القرآن الكريم أوجب للمرأة من الحقوق علىٰ الرجل مثل ما له عليها في حدود المعروف بين الناس، حسب البيئة التي تعيش فيها، والوسط الذي تكون فيه، وفضل الرجل علىٰ المرأة بدرجة الرياسة؛ لأنه لا غنىٰ للبيت عن رئيس يرجع أمره إليه، وأولىٰ الزوجين بالرياسة هو الرجل؛ بسبب تفضيل الله للرجال علىٰ النساء بالعلم، والعقل الراجح، والولاية، وبسبب ما أنفقوا عليهم من أموالهم.

الطلاق

(٣) علم الله -تعالىٰ- أن الصلات بين الزوجين قد تسوء إلىٰ حد كبير، حتىٰ لا يمكن معه إصلاح فوضع نظامًا للفرقة كما وضع نظامًا للاجتماع، ذلك النظام الذي وضعه للفرقة هو الطلاق، ولو كانت صلة الرجل بالمرأة ضربة لازب لا سبيل إل الخلاص منها بحال من الأحوال= لكان في ذلك من إحراج الزوجين وإعناتهما ما لا يتفق والحياة الطيبة، ولأدَّىٰ ذلك الإلزام إلىٰ انتحال أسباب من شأنها أن تكون طريقة للتخلص من الزوجية، وإن كانت الأسباب لا يرضاها الله -تعالىٰ-، ولا ترضاها المروءة، فكان من رحمة الله بالزوجين مشروعية الفرقة بينهما، وهي الطلاق.

لم يجعل الله الطلاق فوضىٰ، بل حاط عقد الزوجية بما يحفظه من التعرض للانفعال الوقتي بوسائل شتىٰ:

أولها: أن الله -تعالىٰ- شكك المرء في وجدانه عند حصول نفرة، فقال في سورة النساء: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

ثانيها: أنه رغب كلًّا من الزوجين في الصلح عند وجود مقدمات النفرة، حتىٰ لا يستفحل الأمر ويتسع الخرق، فقال في سورة النساء: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٢٨].

ثالثها: أمر الله -تعالىٰ- بالتحكيم عند خوف الشقاق، فقال يخاطب المؤمنين في سورة النساء: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [النساء: ٣٥].

رابعها: أنَّه جعل الطلاق مرة بعد أخرىٰ، حتىٰ إذا طلق الرجل امرأته لسبب عارض، ثم زال ذلك السبب= راجعها، فإذا طرأ من الأسباب ما يقتضي الطلاق مرة ثانية طلقها، وفي المرة الأخيرة لا حق له في أن يرجع إليها حتىٰ تنكح زوجًا آخر، قال -تعالىٰ- في سورة البقرة: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

أي: الطلاق الذي بعده رجعة مرتان.

التيسير على المطلقة

(٤) إذا لم يكن للرجل بد من الطلاق بعد علاج الأمر بما ينبغي أن يعالج به= وجب أن يكون في ابتداء العدة؛ أي: في طهر لم يمسها فيه حتىٰ لا تطول العدة علىٰ المرأة، قال -تعالىٰ- في سورة الطلاق ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ﴾.

ووجب علىٰ الرجل ألا يخرج المرأة من بيته وهي في العدة؛ لقوله -تعالىٰ- في سورة الطلاق: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق: ١].

وكذلك إذا بلغت المرأة الأجل المقدر لها عليه أن يمسكها بالمعروف أو يفارقها بالمعروف.

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق: ٢].

ثم أمر الرجل بالرفق بالمرأة وهي في عدتها، فقال في سورة الطلاق: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٦، ٧].

وأمر للمرأة إذا طُلِّقت قبل الدخول ولم يتفق لها علىٰ مهر= أن تمتع بما تتعزىٰ به، وجعل ذلك حقًّا واجبًا لها، فقال في سورة البقرة: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن

طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٦].

ونهىٰ الرجل أن يأخذ شيئًا ممَّا آتاها فقال في سورة النساء: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢٠، ٢١].

نظام التوريث

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ
فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا
تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ
فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ
لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١١ ۞ وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ
أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٞ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَۚ مِنۢ
بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ
وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ
أَوۡ دَيۡنٖۗ وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا
ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ
بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ ١٢ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ
وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ
فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٣ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ
نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ [النساء: ١١-١٤].

﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ(١) إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ
فَلَهَا نِصۡفُ مَا تَرَكَۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهَا وَلَدٞۚ فَإِن كَانَتَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا
تَرَكَۚ وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ فَلِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ
وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾ [النساء: ١٧٦].

---

(١) هو الميت الذي لم يترك والدًا ولا ولدًا ذكرًا أو أنثى.

* تعليق وشرح:

(١) بين الله -تعالىٰ- لنا في هذه الآيات نظام توريث المال بين الأقارب، وهو نظام عادل حكيم، وصدّره بكلمة الوصية؛ إذ قال: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ﴾ . . . إلخ؛ ليرينا أنَّ التخلص من ذلك النظام الذي وضعه الله -تعالىٰ- هو خروج علىٰ وصيته التي أوصىٰ بها الآباء لينفذوها للأبناء، ثم ختم هذه الوصية بقوله: ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ [النساء: ١٣، ١٤].

فتراه وَعَد من يطيع الله ورسوله بوقوفه عند هذه الحدود التي رسمها القرآن الكريم بجنَّاتٍ تجري من تحتها الأنهار مخلَّدًا في أولئك الجنات، وتوعد من يعصي الله ورسوله، ويتعَدَّ حدوده التي وضعها في هذه الوصية نارًا خالدًا فيها، وتوعده مع ذلك العذاب المهين.

ومع ذلك الوعيد الشديد تجد الناس يخرجون علىٰ هذه الحدود، ويعملون للخلاص من هذه الوصية الحكيمة.

أما الآباء فمرة يخرجون من هذه الوصية من طريق حبس الأرض علىٰ أبنائهم الذكور وحرمان بناتهم من التركة، بحجة أن المال ملك لهم وهم أحرار في ذلك المال ما داموا علىٰ قيد الحياة، وأن ذلك النظام إنما يجب بعد الموت، وفَاتَهم:

أولًا: أنَّ الله -تعالىٰ- وجه الوصية إليهم، فلو لم يكونوا مكلفين بإنفاذ هذه الوصية= ما كان هناك معنىٰ لتوجيهها إليهم.

ثانيًا: أنَّهم مكلفون ألا يسدوا الباب علىٰ من بعدهم من المكلفين بإنفاذ هذه الوصية، إذ كانت الآية خطابًا للأمة متكافلة متضامنة بإنفاذ ذلك النظام، فإذا أبحنا للآباء أن يصنعوا بمالهم ذلك الصنع، وأمثال ذلك الصنع= لتعطلت الوصية بالنسبة لغير الآباء، وتعذر إنفاذها بعد الموت، وإلا فما الذي يصنع المؤمنون بتركةٍ حبسها صاحبها قبل الموت علىٰ أبنائه دون بناته.

وهل يشك أحد في أن ذلك العمل تعطيل لنظام التوريث، وهدم لوصية الله -تعالىٰ-، إن لم يكن من طريق مباشر فمن طريق غير مباشر؟ وهل ذلك يتفق وذلك العدل الذي أوجبه الله علىٰ الآباء للأبناء؟ وهل البنت التي حُرِمت من مال أبيها علىٰ ضعفها وحاجتها إلىٰ المال في حياتها تحرص علىٰ الصلات بينها وبين أخيها الذي استبدَّ بمال أبيها؟

وأحيانًا يخرج الآباء علىٰ وصية الله -تعالىٰ- من طريق الكتابة للأبناء، وحرمان البنات؛ ناسين ما يتركه ذلك العمل في نفوس البنات من أثر سيء، وشقاق مستمر، ولو علموا أن ذلك مدعاة لتقطيع أواصر المودة بين البيوت والأسر، وتأريث للعداوة والبغضاء بين ذوي القرابات= ما لجأوا لشيء من هذا.

(٢) وأمَّا الأبناء فكثيرًا ما يخرجون علىٰ هذه الوصية من طريق حمل الآباء علىٰ أن يكتبوا لهم التركة وهم في حال المرض ليستقلوا بها، وقد يحملهم ذلك الحرص علىٰ أن يزوروا علىٰ آبائهم وثائق ليحرموا بها البنت من الميراث الذي تستحقه عن أبويها، فتشتبك الأخت بأخيها وتقاضيه في ذلك الميراث، وتنتهي المقاضاة بحرمان البنت والولد وانتفاع دور القضاء ورجال المحاماة، والذي لا يستبيح لنفسه من الأبناء أن يزور علىٰ أخته= لا يتعفف أن يطمع في نصيبها، وكلما طالَبَتْه بنصيبها من مال أبيها= يماطل ويسوِّف، وقد تكون أخته في غاية الفقر، ولكنه لا يرحمها بإعطائها نصيبها من المال، ويضطرها إلىٰ أن تجمع له الجموع، وتوسط بينها وبينه من تحب ومن لا تحب، وبعد الجهد الجهيد يساومها علىٰ نصيبها، ويطلب إليها أن تنزل عن مقدار منه، وإذا لم تسمح نفسها بذلك عدها الناس قاسية قليلة الذوق، وكأن الله فرض عليها أن تشطر نصيبها شطرين فتدع شطره لأخيها، وشطره الآخر الذي تسمح به نفسه تأخذه، وكثيرًا ما يكون الأخ شرهًا في ذلك التشطير، فلا يقنع إلَّا أن يأخذ ثلث نصيبها إن لم يكن نصفه، وقلما ينصف أخٌ أخته، ويدعها تأخذ نصيبها كاملًا غير منقوص، كل ذلك لأنَّه لم يفطن لوصية الله في المواريث، ولم يرضَ الله -تعالىٰ- قاسمًا لمال أبيه، ولو رضي الله ربًا، وامتلأ قلبه بحكمة الله وعدله في قسمته= ما طمع ذلك الطمع.

ولو علم الأبناء أنَّ الرجل القنوع الراضي يبارك الله له في نصيبه وإن قل، وأنَّ الرجل الشره ينزع الله البركة من ماله؛ لو علم الأبناء ذلك وعلموا أن أصهارهم هم أعوان لهم، ولا طريق إلىٰ تأليفهم بهم سوىٰ الإحسان، وإعطائهم نصيب أزواجهم، وأن البنت لا تكون محبة لأخيها إلا حيث أعطاها حقها وواساها طول حياتها، وأن البيوت لا تصلح ولا تلتئم إلا من طريق الإحسان إلىٰ الأقارب، وأعظم وسائل الإحسان أن يعطىٰ كل ذي حق حقه، وأكبر وسائل القطيعة أن يحال بين الناس وبين حقوقهم.

لو علم الناس ذلك؛ لحرصوا علىٰ إنفاذ وصية الله -تعالىٰ- كاملة غير منقوضة.

(٣) ومن عجيب أمر الناس أنَّهم حيال قسمة الله -تعالىٰ- للمواريث صنفان:

صنف يبخل علىٰ البنت بمال أبيها ويحاول أن يحول بينها وبين حقها بمختلف الأساليب.

وصنف آخر لا يقنع للبنت بهذه القسمة التي فرضها الله لها في قوله: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾، ويرىٰ أنَّ البنت يجب أن تأخذ مثل أخيها، وليس بعجيب أن يوجد ذلك من قوم لا دين لهم ولا عقيدة، إنَّما العجيب أن يكون ذلك من قوم مؤمنين، يعلمون أن الله -تعالىٰ- حكيم في تشريعه، عادل في قسمته.

ولو تدبروا الأمر قليلًا لعلموا أن الله -تعالىٰ- قد أنصف البنت بهذه القسمة، وأكرمها فوق إكرام أخيها، ذلك لأنَّ البنت تأخذ حقها من مال أبيها وهي غير مكلفة أن تنفق ذلك المال علىٰ بيتها وبنيها؛ لأنَّ نفقتها واجبة علىٰ زوجها، وكذلك نفقة أبنائها؛ أما زوجها فيأخذ حقه من مال أبيه لينفق منه علىٰ نفسه وزوجه وأولاده، فأي الولدين أسعد بمال أبيه؟ الولد الذي يأخذ نصيبه لينفق منه علىٰ نفسه وغيره، أم البنت التي تأخذ مالها لتدخره؟ فإذا كان هناك محاباة في التوريث فهي محاباة المرأة، وإذا كان هناك مواساة فهي مواساة البنت، واساها الله بذلك حتىٰ يكون عندها مال احتياطي تنتفع به عند الطوارئ، كأن يموت

زوجها فتتأيم، وقد يكون لها من الأولاد من يحتاج إلىٰ النفقة؛ لذلك أعطاها الله نصيبها من مال أبيها لتدخره لأمثال هذه الطوارئ.

ولو فطن الناس لقسمة الله -تعالىٰ- لعلموا أنَّها وسط بين الإفراط والتفريط، وسط بين طريق القساة البخلاء الذين يحرمون البنت من مال أبيها، وبين الغلاة الجاحدين الذين يريدون أن يعطوها مثل ما للرجل، ناسين ظروفها، وما يجب علىٰ الزوج من نفقة لأولاده وبيته، ولو أنصفوا وصححوا التعبير لقالوا: «نحن نطالب أن يضاعف الله تمييز البنت علىٰ الولد»؛ لأنَّ هذه المواساة لا تكفينا، أما نحن معشر المسلمين فنؤمن بعدل الله وحكمته في تشريعه وقسمته.

الحكومة في الإسلام

(١) لما كان الإسلام دينًا ودولة وضع أساسًا للحكم هو نظام الشورىٰ، وقد عمل به رسول الله ﷺ، وخلفاؤه الراشدون، علىٰ ما تسمح به طبيعة القوم في ذلك الظرف.

وقد وصف الله المؤمنين بأنَّ الشورىٰ في شؤونهم الدولية والدنيوية شأن من شؤونهم، كالصلاة وغيرها من أمور الدين، قال -تعالىٰ-: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورىٰ: ٣٨].

وقال -تعالىٰ-: مخاطبًا لرسوله محمد ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

والأمر هنا أمر الدولة، لا أمر الدين: من عقائد وعبادات وما إلىٰ ذلك؛ فإنَّه يعتمد الوحي الصريح، أمَرَ اللهُ رسوله وأن يستشير أصحابه في الشؤون العامة كالحرب والسلم، وعقد المعاهدات، وأسرىٰ الحرب، كما وقع في أسرىٰ بدر، وأمثال ذلك من الأمور العامة، ثم قال لرسوله ﷺ بعد أن يعدّ للأمر عدته من الشورىٰ ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾؛ ليريه أنَّه لا يصح له بعد أن يصحح النية، ويبحث المسألة من جميع وجوهها أن يرجع عما عزم عليه؛ لأنَّ ذلك الخلق خلق التردد لا يليق برئيس دولة.

هذا هو الأساس الذي وضعه الدين للشورىٰ، وترك نوع الشورىٰ للزمن؛ لأنَّ كل زمن يناسبه نوع من الشورىٰ قد لا يتفق وزمن آخر، والذي يرىٰ كيف تطورت الشورىٰ في البلاد النيابيَّة، ويرىٰ كيف كان نظام الشورىٰ في صدر

الإسلام أيام رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين، يجد الفرق جليًا واضحًا، ويعرف حكمة الله -تعالىٰ- وعلمه المحيط، حيث لم يحدد نظامًا خاصًا للشورىٰ، بل أمر بها، وترك نوعها للزمن، وذلك من أدلة أن ذلك القرآن من كلام الله الذي يعلم الحاضر والمستقبل، لا من كلام محمد ﷺ.

أما قسم العقائد، وأما قسم العبادات، وأما ما يشبهها من أمهات الأخلاق والفضائل، ونظام التوريث، ونظام البيوت من زوجية وطلاق، فهي من الأمور التي لا تختلف باختلاف الزمان، ومن أجل ذلك حدَّدَها، وبيَّن ما ينبغي أن يبين منها، ولم يدعها للعقول ولا للزمن؛ لأنَّ ذلك حقه وحده، فهو الذي يحدده ويتعبدنا به.

لم يكتفِ القرآن الكريم بوضع نظام للحكم وهو الشورىٰ، فنصح إلىٰ الحكام أن يحكموا بين الناس بالعدل، وأن يتحروا الحق والإنصاف: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨].

أسرى الحرب في الإسلام

(٢) قد أريناك فيما سبق أن القتال في الإسلام لم يكن لإكراه الناس علىٰ عقيدة، وإنَّما الغرض منه حماية الدعوة الإسلامية من المؤثرات، حتىٰ يكون المؤمنون آمنين علىٰ أنفسهم وعقائدهم، وحتىٰ يكون الداعي حرًّا يأمن الاعتداء عليه من أيدي المخالفين له، فهو قتال دفاع لا قتال هجوم، وأن ما وقع من جماعة المسلمين ضد أعدائهم في مختلف الغزوات كان لتأديب المعتدي، أو حماية الداعي، لا يعدو شيئًا من ذلك في جوهره.

وآية أن القتال قد شرعه الله -تعالىٰ- لحماية الدعوة ومصلحة الإسلام دون أشخاص المسلمين= اختلاف الصحابة في أسرىٰ بدر، ففريق كان يرىٰ قتلهم وعلىٰ رأسهم عمر ﷺ، قال يا رسول الله: أولئك الأسرىٰ قد كذَّبوك وقاتلوك، وأخرجوك من بلدك، فأرىٰ أن تمكنني من فلان -لقريب له- فأضرب عنقه، وتمكن حمزة من أخيه العباس، وعليًّا من أخيه عقيل، وهكذا حتىٰ يعلم الناس أنَّه ليس في قلوبنا مودة للمشركين، ما أرىٰ أن تكون لك أسرىٰ، فاضرب أعناقهم هؤلاء صناديدهم وقادتهم.

وقال أبو بكر ﷺ يا رسول الله: هؤلاء أهلك، وقومك، قد أعطاك الله الظفر والنصر عليهم، أرىٰ أن تستبقيهم، وتأخذ الفداء منهم، فيكون ما أخذنا منهم قوة علىٰ الكفار، وعسىٰ أنَّ الله يهديهم بك فيكونوا لك عضدًا، فقال ﷺ: إنَّ الله ليلين قلوب أقوام حتىٰ تكون ألين من اللين، وإن الله ليشدد قلوب أقوام حتىٰ تكون أشد من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم، قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦].

وإن مثلك يا عمر مثل نوح، قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا[1]﴾ [نوح: ٢٦][2].

ورأى ﷺ رأي أبي بكر بعد أن مدح كلًّا من الصاحبين؛ لأنَّ الوجهة واحدة، وهي إعزاز الدين، وخذلان أعداء الحق المحاربين.

وقد نزل الوحي بتصويب رأي عمر ﷺ في شأن أسرى بدر، فقال: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧، ٦٨].

نهى ﷻ عن اتخاذ الأسرى قبل الإثخان في قتل الذين يصدون عن سبيل الله ويمنعون دينه من الانتشار، وعاب بعض المسلمين على إرادة عرض الدنيا، وهو الفدية، ولولا حكم سابق من الله ألا يعاقب مجتهدًا على اجتهاده ما دام المقصد خيرًا= لكان العذاب.

وحادث الأسرى مَثَل من أمثلة الشورى في أمور الدولة، وأنَّ الرسول ﷺ كان قدوة صالحة في امتثال أمر الله، وأن الرسول قد يخطئ وقد يصيب في مثل هذه الشؤون، ولكن الله -تعالى- لا يقره على الخطأ، بل يبين له الحق.

(١) دَيَّارًا: نازل دار؛ أي: أحدًا.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف: (٣٦٦٩٠)، (٧/ ٣٥٧)، وابن شبة في تاريخ المدينة: (٣/ ٨٦١). (عمرو)

غنائم الحرب في الإسلام

(٣) كانت العرب قبل الإسلام تغنم وتوزع الغنيمة علىٰ المحاربين، وتجعل للرئيس قسطًا كبيرًا منهم، أشار إليه أحد شعرائهم فقال:

لك المرباع منها والصفايا ... وحكمك والنشيطة والفضول(١)

والمرباع: ربع الغنيمة، **والصفايا**: ما يصطفيه الرئيس لنفسه ممَّا يستحسن، **والنشيطة**: ما يقع في أيدي المقاتلين قبل الوقعة، **والفضول**: ما يفضل عن القسمة، فلما جاء الإسلام كانت أول الغنائم ما وصل المسلمين في غزوة بدر، فقال الله في شأنها: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ﴾ [الأنفال: ١]. أي أمرها في توزيعها إلىٰ الله والرسول، ثم بيَّن ذلك بقوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الأنفال: ٤١].

فجعل خمس الغنيمة موزعًا بين مصالح المسلمين، ومنها رسول الله ﷺ، وقرابته من بني هاشم، وبني المطلب الذين نصروه، دون أقاربه الذين خذلوه، ولإصلاح اليتامىٰ، والمساكين، والمسافرين، وأربعة أخماس الغنيمة للمقاتلين: للفارس سهمان، وللراجل -وهو المحارب علىٰ قدميه- سهم واحد، فانظر الفرق بين الجاهلية والإسلام.

وهناك نوع من المال يغنمه المسلمون من أعدائهم الكفار بدون حرب، وهو الذي يسميه القرآن الكريم بالفيء، وهو موزَّع علىٰ مصالح المسلمين توزيع خمس الغنيمة.

---

(١) منسوب إلىٰ عبد الله بن عنمة الضبي، وانظر: العين: (٢/ ١٣٣)، وتهذيب اللغة: (١٢/ ٣١). (عمرو)

﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ(١) عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٦ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الحشر: ٦، ٧].

وقوله: ﴿كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ﴾ بيان لحكمة توزيع الفيء علىٰ ذلك النحو الذي ترىٰ، وهو أن يُصرف في مصالح الدولة، ولا يكون متداولًا بين الأغنياء من المسلمين.

(١) أسرعتم من أجله خيلا ولا إبلًا؛ أي لم تتحملوا فيه مشقة.

العقوبات في الإسلام

لما كانت طبائع الناس متفاوتة، وكان فيهم من يكفيه الترغيب في ثواب الله والترهيب من عقابه، وفيهم من لا تكفيه هذه الأساليب، ولو ترك بدون عقوبة لأفسد في الأرض، وجرَّأ غيره علىٰ الفساد، وأصبحت دماء الناس وأموالهم وأعراضهم عرضة للضياع؛ لما كان ذلك شأن الناس قضت الحكمة الإلهية أن يكون في دين الله من الزواجر ما يكفي لحماية الضعيف من يد القوي، والإبقاء علىٰ مصالح الناس، والاحتفاظ بسلطان الحكومة وحرمتها في النفوس، من أجل ذلك شرع الله عقوبات مختلفة علىٰ الجرائم التي من شأنها أن تهدد الناس في مصالحهم وأعراضهم ونفوسهم، فشرع:

القصاص

(١) وقد كان القصاص قبل الإسلام غير قائم علىٰ أساس العدل والمساواة، فكانت القبيلة كلها مسئولة عن جناية فرد منها، إلا إذا أعلنت خلعه في المجتمعات العامة، وقلما كان ولي المجني عليه يكتفي بالقصاص من الجاني، ولا سيما إذا كان المجني عليه شريفًا أو سيدًا في قومه، وكثيرًا ما كانت قبيلة الجاني تحميه فتتولد من ذلك شرور وحروب بين قبائل، فجاء القرآن الكريم محددًا للمسؤولية في القصاص، وقصرها علىٰ الجاني وحده، فقال في سورة البقرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ﴾.

بيَّن الله بذلك أنَّ الجاني وحده هو الذي يؤخذ بجريرته دون قبيلته، وكان نظام الديات معمولًا به عند العرب فأبقاه القرآن، وأشار إليه في قوله بعد: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

فترىٰ القرآن الكريم جعل الأصل في العقوبة القصاص والمساواة إلا إذا عفا أولياء الدم عن القاتل، وطابت نفوسهم بذلك العفو، ورضوا بأخذ الدية بدون تأثير عليهم ﴿فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ لذلك العفو واجب، ﴿وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ﴾ أي أداء الدية إلىٰ وليّ المقتول واجب كذلك بإحسان لا بغلظة.

ثم أشار إلىٰ تيسير الله علينا في إباحة دفع الدية بقوله: ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ﴾، ولو أن الله -تعالىٰ- لم يجعل لولي المقتول حق العفو عن الجاني لكان في ذلك إعنات للناس.

ثم يرينا أن من يعتدي بعد العفو سواء أكان ذلك الاعتداء من أولياء الدم، أو كان من أقارب الجاني ﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة.

ذلك هو ما يجب في القتل العمد، أما ما يجب في القتل الخطأ كما يقع كثيرًا من الناس، فقد بينه الله -تعالىٰ- في قوله: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٩٢].

فأنت ترىٰ القرآن الكريم لم يُعف القاتل من العقوبة وإن كان قتله خطأ، فأوجب عليه في القتل الخطأ عقوبة مالية، هي إعتاق رقبة مؤمنة، ودفع الدية إلىٰ أهله، وقد كانت الديات معروفة قبل الإسلام فأقرَّها، وبينتها السنة أنها مائة من الإبل علىٰ عصبة القاتل، إلا أصله وفرعه، موزعة عليهم في ثلاث سنين، إلا أن يصدق أولياء المقتول بإسقاط الدية فذلك حقهم.

وإن كان من قوم محاربين للمؤمنين، وكان القتيل مؤمنًا فلا تجب له دية؛ لأنَّ الدية حق مالي يجب لأولياء القتيل، وهم محاربون للمؤمنين، فلا تدفع له دية، ويجب أن يعتق الجاني رقبة مؤمنة، كفارة لادية، إبقاء علىٰ حرمة المؤمن، وإن كان من يقوم بيننا وبينهم عهد كأهل الذمة= وجبت الدية، وتحرير رقبة مؤمنة، احترامًا للعهد، غير أن دية اليهودي أو النصراني علىٰ الثلث من دية المؤمن، ودية المجوسي ثلث عشر دية المؤمن، ومن لم يجد الرقبة المؤمنة فصيام شهرين متتابعين، ليكون ذلك توبة من الله عليه من قتل المؤمن التابع لقوم محاربين، ومِنْ قتل الذمي أو المعاهد.

وقد أوجب الله في قتل المؤمن خطأ عتق الرقبة المؤمنة والدية **أولًا**: احترامًا للنفس، حتىٰ لا يفهم الناس هوانها، حتىٰ أنَّ من قتلها خطأ يعاقب علىٰ القتل عقوبة مالية، **وثانيًا**: لحمل الناس علىٰ الاحتياط في مسألة النفوس والدماء، **وثالثًا**: سدًّا لذرائع الفساد، حتىٰ لا يقتل أحد من الناس من يريد قتله، ويتستر بأنه قتله خطأ.

أمَّا القصاص في الأطراف فبينه القرآن الكريم في قوله من سورة المائدة: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥].

حكمة القصاص

(٢) أرانا الله -تعالىٰ- أن مصلحتنا في ذلك القصاص، وأن حياتنا المادية والأدبية في مشروعية القصاص، وللقرآن في ذلك جملة هي مضرب الأمثال في بلاغتها وعلوّ أسلوبها، وغزارة معانيها، وسهولتها علىٰ اختصار لفظها؛ هي قوله من سورة البقرة: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩].

والذي يريد أن يعرف قيمة هذه الجملة العظيمة، وما لها من أثر ملموس يوازن بين أرقىٰ حكومات العالم اليوم، وبين حكومة المسلمين في الصدر الأول ليرىٰ الفرق جليًّا بين الحكومتين، ويعرف أن حفظ دماء الناس وأموالهم لا يمكن أن يكون بدون إقامة حدود، وأن القوانين الوضعية فشلت علىٰ طول الخط في علاج الأخطار التي تتهدد الناس، والحكومات المتمدينة تنفق اليوم علىٰ الأمن قناطير مقنطرة من الذهب والفضة، ومع ذلك هو مجهود ضائع، وكلما ضاعفوا الجهود في تنقيح القوانين، ومضاعفة القوات= ضاعف المفسدون جهودهم في السلب والنهب، وإراقة الدماء، وما إلىٰ ذلك.

ولماذا نذهب بعيدًا ونوازن بين الحكومات الحاضرة، وحكومة المسلمين في الصدر الأول؟ وهذه حكومة الحجاز في عهدها الحاضر، وهي ليست شيئًا يذكر في جانب حكومات أوروبا، ومع ذلك الأمن فيه مستتب، والهدوء شامل محيط، علىٰ ما في طبيعة البلاد العربية من صعوبات، وما في نفوس أصحابها من خشونة وغلظة، وهي آية من آيات الله في أن الناس لا تصلح بلا دين، وأن قوانينها الوضعية، وعظمتها في حريتها وصناعتها وأساطيلها= لا تغنيها شيئًا عن إقامة الحدود الشرعية.

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

حد قطاع الطريق

(٣) فرض الله جزاء قطاع الطريق الذين يتهددون الحكومات، فقال في سورة المائدة: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣، ٣٤].

بيَّن الله -تعالىٰ- لنا في هذه الآيات عقاب المحاربين المفسدين في الأرض، ويعملون في بلاد الإسلام أعمالًا مخلة بالأمن علىٰ الأنفس والأموال والأعراض، معتصمين في ذلك بقوتهم، غير مذعنين للشريعة باختيارهم، فيجب علىٰ الحكام أن يطاردوهم ويتبعوهم، فإذا قدروا عليهم عاقبوهم بتلك العقوبات بعد تقدير كل مفسدة بقدرها، ومراعاة المصلحة العامة وسد ذريعة الفساد، ومن تاب قبل القدرة عليه لا يعاقب بما في هذه الآية، وإنما حكمه حكم سائر الناس.

وتأمل قول الله -تعالىٰ-: ﴿مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ﴾؛ لتعرف أن التائب قبل القدرة عليه مخلص في توبته، أما التائب بعد أن قدر عليه فلا فضل له في التوبة، وإنما هي توبة الملجأ والمضطر.

حد السارق

(٤) قد وضع الله عقوبة للسارق، فقال في سورة المائدة: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨].

ذلك هو حكم الله العليم بأمراض النفوس وطريق علاجها؛ حكمه العادل، وقضاؤه الحكيم وتشريعه المحكم: أن تقطع يد السارق والسارقة؛ لأن اليد من شأنها أن تباشر السرقة، فكان جزاؤها القطع، وقد بيَّن الله لنا أن ذلك القطع هو جزاء عادل للسارق والسارقة بما كسبا من خيانة، وقوله: ﴿نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ من نكَّلت -بتشديد الكاف- إذا فعلت به ما ينكل به غيره، ومنه قوله -تعالىٰ- في سورة البقرة: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٦٦].

أي: إنَّ الله -تعالىٰ- شرع قطع يد السارق ليكون عبرة لغيره، فلا يجرؤ غيره علىٰ مثل ذلك العمل، وبذلك يحفظ المال، وقد ختم الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾؛ ليرينا أن الله -تعالىٰ- حكيم في ذلك التشريع، فرضه للمصلحة، وأنزله لحفظ أموال الناس، وأن من يعيب علىٰ الشريعة قطعها يد السارق هو رجل قصير النظر، يضحي بمصلحة المجموع في سبيل حفظ يد خائنة مهينة، ويجعل أموال الناس عرضة للخطر؛ لأنَّه يرىٰ في قطع يد السارق وحشية لا تليق بأصحاب القرن العشرين، ولا يليق أن يعطل رجل أو رجال من الناس عن أن ينتفعوا بأيديهم، ويصيروا أمثلة في هذه الحياة أيًا كانت الدواعي لمثل ذلك العمل، وفاتهم أن الحيلولة بين هؤلاء الخونة وبين انتفاعهم بأيديهم غرض من أغراض المشرع، والتمثيل بهم أمام الجماهير هو نكال بهم وعبرة لغيرهم؛ فإنَّ الناس متىٰ رأوا أن ذلك هو مصير السارق لا يقعون في مثل ذلك العمل، ولماذا

نحرص علىٰ سمعة المجرم ما دام هو لم يحرص عليها، ونتألم له أكثر من تألمه لنفسه؟ وإذا كان الغربيون ومن حذا حذوهم يرون قطع يد السارق وحشية لا تليق، ومثلة لا تنبغي، فإننا معشر المسلمين نراها حكمة وعدلًا، ونعدها إصلاحًا لا غنىٰ للناس عنه، وضعه الإله العالم بأمراض النفوس، وما دام صلاح المجموعة في تأديب أولئك الأدنياء أدبًا واضحًا مكشوفًا، فإن المصلحة في صلاح المجموعة، وإن ضاع في سبيلها مصلحة الفرد.

وقد ظن أصحاب هذه الشبهة أن قطع يد السارق إذا لجأت إليه الحكومات من شأنه أن يكثر العاطلين، وهم في ذلك جد واهمين، فإن يدًا واحدة إذ قطعت من شأنها أن تحول بين الناس وبين جرائم السرقة، والذي يكثر السرقة بين الناس هو الجزاء المعمول به اليوم، وهو لا يعدو وضع السارق في السجن، وقد يكون السجن أحب إليه من الأعمال خارج السجن، وهذه بلاد الحجاز تقام فيها الحدود، وقد يمضي العام يتلوه العام ولا تقطع يد واحدة.

وإذا كان فريق من الناس لا يزال بعد ذلك مصرًّا علىٰ أن القطع وحشية، وحفظ يد المجرم مدنية؛ فإنَّا نرحب بوحشية مِن شأنها أن تحفظ علىٰ الناس أمنهم ومالهم وحياتهم، ونزدري مدنية تعرِّض الأمن إلىٰ الخلل، وتسبب له اضطرابًا دائمًا، واختلالًا لا ينقطع، وأي فرق بين يد خائنة، وبين عضو مريض في الجسم، إذا بقي سبَّبَ للجسم مرضًا يقضي عليه القضاء الأخير؟ ولماذا لا ينازعنا أحد في أن العضو المريض ينبغي بتره ليسلم الجسم، وينازعنا الذين يعدون أنفسهم مهذبين ومثقفين في يد خائنة، هي مرض ينخر في عظام الأمة، ويهدد حياتها الطيبة، وسمعتها المرجوة لها؛ اللهم إنَّه تعصب ظاهر وتقليد أعمىٰ، جرته المدنية الكاذبة، وحرمان بلاد المسلمين من حكومات تقيم دين الله وحدوده في الأرض علىٰ ما يحبه الله، وتقضي به المصلحة.

حد الزاني

(٤) كما وضعت الشريعة عقوبة للخونة الذين يفتاتون علىٰ أموال الناس وضعت عقوبة الذين يعتدون علىٰ الأعراض، فنص القرآن الكريم علىٰ عقوبة الزنا في سورة النور إذ قال: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢].

وتأمل قول الله -تعالىٰ-: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ ... إلخ لتعرف أنه لا تصح الهوادة في إقامة الحدود، وأن ذلك لم يكن من شؤون المؤمنين بالله واليوم الآخر، وأن الزناة ليسوا أهلا للرأفة والرحمة؛ لأن جريمة الزنا متىٰ تفشت في أمة من الأمم قضت عليها القضاء المبرم، وحسبنا أن الله -تعالىٰ- يقول فيه: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

ولو لم يكن فيه سوىٰ تعطيل النسل والصد عن الزواج الذي فيه بقاء الأمة وحفظ كيانها= لكفىٰ.

والقرآن الكريم يرشدنا إلىٰ التسوية بين الناس في تطبيق قانون العقوبات؛ لأنَّ المحاباة في تطبيق القانون أضر شيء علىٰ الأمة في أخلاقها وكرامتها ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إرشاد إلىٰ حكمة ذلك الحد، وهوأن العذاب إذا اطلع عليه فريق من الناس أثر ذلك في نفس المجرم تأثيرًا غير محدود، وبذلك يقلع عن ذلك العمل، ذلك هو حد الزاني الذي لم يتزوج.

أمَّا الزاني المتزوج فقد وردت السنة بقتله رجمًا؛ لأن عنده من وسائل العفة ما يحول بينه وبين الزنا، ومع ذلك يعمد إلىٰ انتهاك الحرمات؛ ممَّا يدل علىٰ

خبث نفسه، وولوعه بالفساد، ومثل ذلك ينبغي أن تطهر منه الأرض، ذلك هو حكم الله في الزناة المتزوجين وغير المتزوجين.

أمَّا حكوماتنا اليوم فتعد للزناة دورًا يسرحون فيها ويمرحون، وأماكن رسمية للدعارة علىٰ حسابها يفسقون ويتمتعون، وتعطي صاحبات هذه الدور شهادة ممهورة بتوقيع الحكومة، علىٰ حساب هذه الشهادة تعيش محاربةً لله ولرسوله، وإذا تعرض أحد لهذه البغيّ، أو لصاحب من أصحابها بسوء= فقد عرض نفسه لأشد العقوبات، وتحرس هذه الدور التي تقوم علىٰ الفسق والفجور كما تحرس البيوت الطاهرة النقية.

فانظر الفرق بين حكومة الإسلام والمسلمين، وحكومات العهد الحاضر؛ حكومة المسلمين تجلد الزناة وترجمهم حتىٰ يموتوا، لتطهر البلاد منهم، وحكومات العهد الحاضر تعطيهم وثيقة بواسطتها يزنون علنًا تحت حراسة الحكومة وإشرافها، ولا تستحي من الله أن تعطيهم هذه الوثيقة، وهي تعلم أن ذلك إغضاب لله في قوانينها وتشريعها، وإذا طالبتَ الحكومة بإلغاء ذلك الترخيص أخذت تتلمس لعملها المعاذير، وتنتحل الأسباب.

والعلة الأولىٰ في ذلك الوباء: الامتيازات الأجنبية، وأن البلاد محتلة، وليس من مصلحة المحتل أن يحفظ علىٰ البلاد أخلاقها ودينها، فهو يحاربنا بجيوش من الرذائل والمنكرات، قبل أن يحاربنا بجيوش الاحتلال؛ حتىٰ نبقىٰ مشغولين عنه بشهواتنا، منغمسين في ملاذنا؛ فاللهم أنقذ البلاد والعباد من ذلك الخزي، وطهرها من العار الذي شوَّه سمعتها وقضىٰ علىٰ كرامتها.

حد القاذف

(٥) فرض الله في القرآن عقوبة للقاذف لتبقىٰ الأعراض مصونة، والحرمات محفوظة، فقال في سورة **النور**: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٤، ٥].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٣-٢٥].

فأنت ترىٰ أن الله -تعالىٰ- جعل عقوبة الذين يرمون العفيفات بالزنا، ثم لم يأتوا بأربعة شهداء علىٰ زناهم ثمانين جلدة كالزناة، وذلك لخطر الرمي بالزنا علىٰ المرأة العفيفة؛ لأنَّه طعن في عفتها، وجرح لكرامتها وعزها، وفوق ذلك فإن من شأن ذلك الرمي بالزنا أن ينبه النفوس الغافلة لتلك الفاحشة، فالذي يرمي الغافلة بالزنا يسيء إليها من ناحيتين:

الأولىٰ: طعنه عليها.

الثانية: تنبيه الغافلة إلىٰ هذه الفاحشة وحملها علىٰ التفكير فيها، ولذلك يقول في الآية الثانية ﴿الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ﴾، والمراد بالغافلات: من لم تتوجه نفوسهم إلىٰ هذه الفاحشة، فهم في غفلة عنها ونسيان لها، ولذلك جعل لهم عقوبة في الدنيا فوق الحد، هي لعنهم فيها وطردهم من رحمة الله، وعقوبة في الآخرة هي لعنهم كذلك، ولهم عذاب عظيم.

بحمد الله -تعالىٰ- تم طبع كتاب: **«دعوة الرسل إلىٰ الله تعالىٰ»** مصححًا بمعرفتي، بعد مراجعة آياته القرآنية بمعرفة الأستاذ: علي محمد الضباع «مراجع المصاحف الشريفة».

✍ أحمد سعد علي

أحد علماء الأزهر ورئيس التصحيح

من يُمن الكتاب أنَّه تم طبعه في يوم الأحد غرة ربيع الأول سنة ١٣٥٤ هـ/ ٢ يونيه سنة ١٩٣٥م[١].

---

(١) الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وتم التعليق عليه في غرة ذي الحجة من عام (١٤٣٨) من الهجرة والموافق (٢٣/ ٨/ ٢٠١٧) من الميلاد.

وأسأله -سبحانه- أن يتقبله بقبول حسن، وأن ينفع به، وأن يرحم مؤلفه رحمة واسعة، وأن يجمعنا به مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتبه أبو عبد الله (عمرو الشرقاوي)

وتم بحمد الله تعالىٰ مراجعته، وكتابة مقدمته يوم عرفة لعام (١٤٣٨) من الهجرة، والموافق لآخر يوم من أيام أغسطس (٣١/ ٨/ ٢٠١٧) من الميلاد، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

مراجع الكتاب

(١) «**تفسير المنار**»، للأستاذ الكبير السيد رشيد رضا.

(٢) «**التفسير الكبير**»، للفخر الرازي.

(٣) «**تفسير الكشاف**»، للزمخشري.

(٤) «**تفسير الجواهر**»، للشيخ طنطاوي جوهري.

(٥) «**إرشاد العقل السليم**»، المشهور بأبي السعود العماري.

(٦) «**المفرد في غريب القرآن**»، للراغب الأصفهاني.

(٧) «**قصص الأنبياء**»، للأستاذ عبد الوهاب النجار.

(٨) «**زاد المعاد**»، لابن قيم الجوزية.

(٩) «**نور اليقين**»، لمحمد بك الخضري.

(١٠) «**تاريخ التشريع الإسلامي**»، لمحمد بك الخضري.

*** للمؤلف:**

(١) «**آيات الله في الآفاق**»، أو «**طريق القرآن الكريم في العقائد**».

(٢) «**التوحيد**»، أو «**العقائد الإسلامية**».

(٣) «**أصول: في البدع والسنن**».